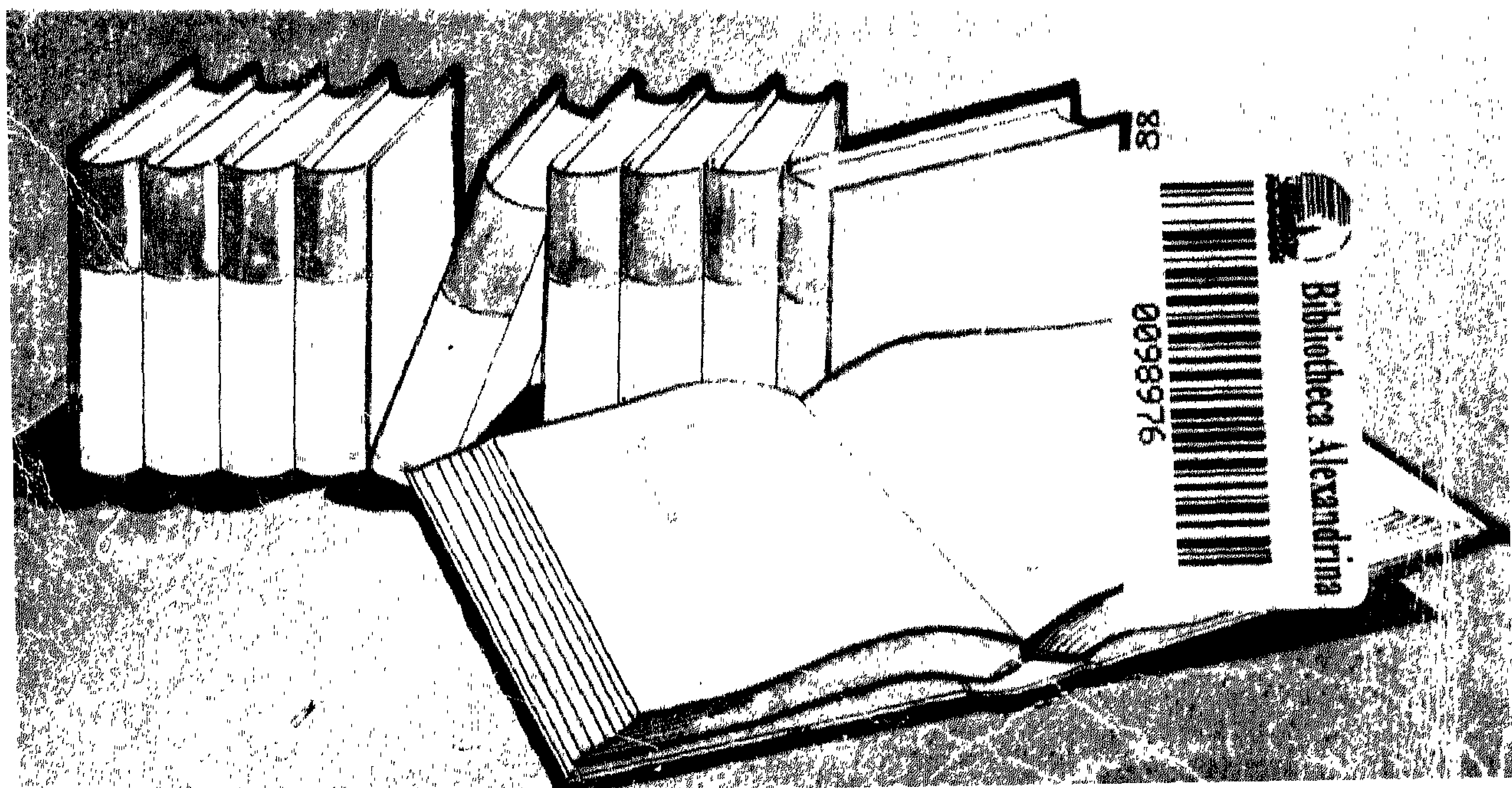
لوسيان فافر
هنري - جان مارتان

ظهور الكتاب



ظهور الكتاب



دمشق ــ أوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

لوسيان فافر
هنري و جان مارتان

ظهور الكتاب

ترجمة عن الفرنسية
اللواء محمد سميح السيد

L’apparition du livre

Lucien Febvre et Henri - Jean Martin

L’évolution de l’humanité **Albin Michel**

ظهور الكتاب = L’sapparition du livre / تأليف لوسيان فافرو ، هنري ـــ جان مارتان ؛ ترجمة محمد سميح السيد . ـــ ط . ١ . ـــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٨ . ـــ ٤٩٦ ص. : خرائط ؛ ٢٤ سم .

١ ـــ ٢ .. ف ا ف   ظ ٢ ـــ ٩ ٢٠ ، ٦٨٦ ف ا ف   ظ

٣ ـــ العنوان ٤ ـــ فافرو   ٥ ـــ مارتان ٦ ـــ السيد

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـــ ٣٠٦ / ١ / ١٩٨٨ .

رقم الاصدار ٣١٤

إن ما يبرز في الفترات الحاسمة من التاريخ ، لهو اشبه « بالإنبثاق » الذي يتحدث عنه علماء الاحياء وبعض الفلاسفة . كذلك كان اختراع الكتابة قبل عصرنا هذا بثلاثة آلاف عام .

أو ليس من « التبدلات » الجذرية تحول المخطوطة الى كتاب مطبوع ؟. لقد ظهرت بغتة سمات جديدة وثورية في مسيرة هذا « الكائن » الغريب الذي هو النص المكتوب ، والذي يرجع اليه الفضل في تناقل الافكار عبر الزمان والمكان . لم يتبدل مظهره مطلقاً في البداية (اذ أن كتاب القرن الخامس عشر يشبه المخطوطة الى أبعد حد ممكن) ، الا أن المادة التي أصبح يصنع منها كانت جديدة في أوروبا على الاقل : فقد حلت القشرة الرقيقة ذات الطبيعة النباتية ، وهي الورق ، الذي يمكن صناعته بكميات كبيرة ، محل الرق ذي الاصل الحيواني ، والذي كان دائما نادرا وباهظ الثمن . كما أدت الحروف المتحركة من جهة ثانية ، الى انتاج الكتاب بصورة أسرع وأسهل مما قبل بكثير : حيث اخذت النسخ تخرج دفعة واحدة بالمئات والآلاف بدلا من نسخ الواحدة تلو الاخرى ببطء شديد .

يظهر هذا الكتاب ظروف ذلك التحول ومراحله المختلفة . فهو من جهة يتيح لنا ادراك العناصر التي كان يتطلبها هذا التحول لكي يتم ، كما يظهر من جهة ثانية التبدلات العميقة التي احدثها الكتاب المطبوع ـ هذه « الخميرة » على حد تعبير « لوسيان فافر ـ في الثقافة الاوروبيــة » .

تعتبر الطباعة ، نوعا ما ، وليدة النزعة الانسـانية الناشئة ومتطلباتها . وهي التي امنت تقدمها الرائع وانتصارها النهائي . فقد خلقت ، بعد ولادتها بمئة عام ، عالما جديدا وعقلية جديده .

سوف نرى في هذه الصفحات الجذابة كيف تمكن رجال الطباعة وأصحاب المكتبات والمؤلفون من أن يشكلوا بسرعة كافية عالما خاصا كان يتصف ، في هذه الفترة التي ما زالت متأثرة بالقرون الوسطى ، بعقلية منفتحة عصرية وتقدمية كانت مدعاة للدهشة وذات أثر بالغ . وهكذا صنع الرجال الكتب ، كما قامت الكتب بدورها بصنع الرجال وتكييفهم .

كان لا بد هنا من الاستعانة بتاريخ الفكر والتقنيات والتبحر في المراجع والرجوع الى طبيعة المشاعر الانسانية ومعرفة الرجال . وقد لجأ « هنري ــ جان مارتان » الى كل ذلك لانجاح هذا العمل الجبار . كما نجد فيه أيضا بريشة « لوسيان فافر » ، وتوطئة كتبها السيد « ماوسيل توماس » وخصصها للمخطوطات التي « ظلت طوال قرون عديدة ، الوسيلة الوحيدة لنشر الفكر المكتوب » . كذلك لابد من التنويه بفضل السيدة « ماري-روبرت غينيار » والسيد « هنري بيرنارد ــ ماتر » على الكتاب ونشره في الشرق الاقصى، والسيدة « آن بازانوف » بالنسبة لنشر الكتاب في البلدان السلافية . كما اظهر السيد « موشيه كاتان » من جهته ، كيفية الاستخدام السريع للطباعة من قبل اليهود في كافة الدول الاوروبية .

بفضل هذا الكتاب ، الذي سيكون من نافلة القول الاشارة الى أهميته ، ألقي مزيد من الضوء على الاصول الفعلية لاسلوب حياتنا ونمط تفكيرنا : اذ استطاعت « حضارة الكتاب » ، خلال خمسة قرون ، أن تبدل وجه العالم .

بول شالوس
السكرتير العام
للمركز الدولي للتاليف

الاهداء

في عام ١٩٥٣ ، دعاني « لوسيان فافر » لصياغة هذا الكتاب ، كما عهد الي بخطة للعمل مع نص المقدمة التي سترد فيما بعد . وقد تم الاتفاق بيننا آنذاك على أن أقدم اليه الصياغة الاولى لكي يقوم بتوسيعها واتمامها ، في تشرين الاول من عام ١٩٥٥ ، عهدت اليه بمخطوطة كل من الباب الاول والثاني والرابع والفصلين الاولين من الباب الخامس . وقد استطاع مراجعة وتدقيق هذه الابواب الاولية . وفي كانون الثاني من عام ١٩٥٦ ، قدمت اليه الباب الثالث وخاتمة الباب الخامس والبابين السادس والسابع . لم يستطع « لوسيان فافر » سوى تصفح هذه الابواب واعلامي شفهيا عن موافقته وملاحظاته . لقد كان ينوي آنذاك مراجعة مجمل الكتاب ، الا أن من المعروف لماذا اضطررت للاضطلاع بهذا العبء الثاني ، أي صياغة الباب الاخير بدون نصائحه القيمة . لذلك فانا وحدي تقريبا المسؤول عن مجموع هذا الكتاب . الا أنني حرصت على أن يظل اسم « لوسيان فافر » على راس عمل كان في الاصل من تصميمه وايحائه . وهذا أسلوبي في اهدائه هذا الكتاب مع فائق محبتي وعرفاني بالجميل .

تشرين الاول ١٩٥٧

هـ . ج ـ مارتان

مقدمة

حوالي عام ١٤٥٠ ، وفي مناطق شتى من الغرب ، وخاصة في البلدان الشمالية كما يبدو ، بدات تظهر « مخطوطات » غريبة بعض الشيء . لم تكن مختلفة كثيرا في مظهرها الخارجي عن المخطوطات التقليدية ، الا ان الناس ما لبثوا أن علموا بأنها « **مطبوعة** » على الورق أو أحيانا على جلد نادر أملس (القضيم) (١) ، بواسطة حروف طباعية متحركة وآلة طابعه. اثارت هذه الطريقة، على بساطتها، موجة من الفضول الشديد . وبالفعل، فان الكتب الجديدة ستحدث تبدلات عميقة ، ليس في العادات فحسب، وانما في شروط العمل الفكري لقراء العصر الكبار من رجال دين وعلمانيين . هذه التبدلات (التي لانريد أن نسميها ثوره) ، تجاوزت اطارها الاصلي لكي تترك قريبا بصماتها على العالم كله .

لذلك كانت الغاية من هذا الكتاب : هي دراسة هذه التبدلات بأسبابها وتأثيراتها وبيان كيف ولماذا أصبح الكتاب بسرعة فائقة ما لم تكن عليه المخطوطة ولا يمكنها أن تكون ، وذلك لعدة أسباب سيكون من المناسب تحديدها . لو لم يكن هذا الكتاب قد أعطي ، من قبل مدير المجموعة ، عنوانا ممتازا في رصانته ورزانته :

(١) القضيم هو رق أملس من جلد العجل يكتب عليه .

« ظهـور الكتـاب »

لكان من الممكن تسميته بقليل من الحذلقة :

« الكتاب في خدمة التاريخ »

لذلك يجب الا نخطىء في أخذ هذا الكتاب خلافا لحقيقته ، فهـو لا يهدف الى كتابة أو اعادة كتابة **تاريخ الطباعة** . فلنقل اذن ، مع الرجوع الى الكتاب الذي يعتبر المرجع الاساسي في فرنسا منذ سنين : أن هذا الكتاب لا يهدف مطلقا الى اعادة صياغة كتاب (Le Mortet)

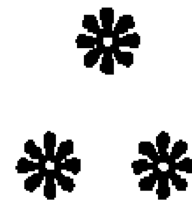
انه يفترض في مؤلفيه المعرفة الجيدة لتاريخ **الكتاب** كما نستطيـع اعادة رسمه اليوم ، أي انهم على اطلاع بالاعمال التي انجزت منذ ظهور (Le Mortet)وبنتائجها التي ما زالت غير كافية ولا مستقره ، وخاصة بالنسبة لفترة البداية الغامضة . الا أننا لن نجد فيه حديثا مسهبا عما اصطلحنا على تسميته « باكتشاف الطباعة » ، ولا عودة الى الجـدال القديم الازلي حول أسبقية هذا البلد أو ذاك ، أو دور رئيس هذا المشغل بالنسبة لذلك الآخر ، أو عزو شرف اختراع الطباعة واصدار اقـدم الطبعات الاستهلالية لهذا الفرد أو ذاك . وطالما أن هناك مؤلفات كثيـرة جيدة تمكن القارىء الفضولي والمتعطش لهذه المعرفة من الاطلاع على أحدث المواقف في هذا المجال ، فاننا لا نطمح الى اضافة مرجع جديد .

فالكتاب ، هذا المولود الجديد وسط المجتمعات الغربية ، الـذي بدأ مسيرته في منتصف القرن الخامس عشر ، والذي لم نعد متأكدين ، في منتصف القرن العشرين ، من أنه يستطيع الاستمرار في لعب دوره طويلا ، بعد أن أصبح مهددا بكثير من المخترعات المستندة الى مبـادىء مختلفة تماما ؛ هذا الكتاب ، ما هي الحاجات التي استطاع تلبيتهـا ، والمهمات التي انجزها ، والقضايا التي خدمها أو لم يخدمها ؟ لقد ولـد خلال فترة من فترات الخلق والتحول التي تعرفها كافـة الحضارات القادرة على الاستمرار والبقاء ؛ كما صمم وانجز بعد فترة وجيزة من

الهزة التي أحدثها « اختراع » آخر هو بارود المدافع والاسلحة النارية القابلة للحمل ، حيثاخذ الناس في القرن الخامس عشر يقارنون ويفاضلون بين كلا الاختراعين . خرج الكتاب الى النور قبــل عشرات السنين من اتساع العالم الذي عرفه بطليموس (الذي ظل نفس العالم الذي عرفه (سان توماس داكان) وقبل تلك الرحلات البحرية الجريئة التي انتهت، اعتبارا من عام ١٤٩٢ ، باستيلاء الاوروبيين على مساحات شاسعة من القارات المجهولة ؛ كما بدأ اخيرا باحداث آثاره الخاصة قبل أن يؤدي الانجاز التدريجي للنظام البصري الجديد (المنظورات) الى تزويد رجــل الغرب ، لمدة خمسة قرون على الاقل ، بحيز مناسب ، وقبل ان تؤدي حسابات كاهن فلكي ، هناك في بلاد البلطيك ، الى أولى النكبات الكبرى التي ستعرفها الكرة الارضية خلال بضعة قرون . وهكذا يشكل الكتاب حلقة من سلسلة التحولات الكبرى التي لا يجوز التوهم بأنها كانت وليدة يومها ، أو الاعتقاد بأن آثارها قد عمت على الفور . ولكن كيف يمكن ادراك ما قدمه الكتاب الى البشرية في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، اذا لم نضع أمام ناظرنا كل هذه المجموعة مــن التجديدات التي لعب دوره بينها ؟

لذلك يهدف مؤلفنا هذا الى ايضاح هذا الدور وتحديده ؛ الى اظهار كيف ولماذا كان الكتاب شيئا آخر غير انجاز تقني على درجة كبيرة من السهولة والبساطة . لقد كان أقوى أداة وضعت تحت تصرف الحضارة الغربية لتركيز افكار ممثليها المبعثره واعطاء التأمل الفردي للباحثين كل فعاليته وأقصى مداه ، وذلك بنقله فورا الى باحثين آخرين ؛ استطاع الكتاب أيضا أن يجمع ، بما يناسب كل فرد ودون تأخير أو جهــد أو تكاليف ، هذا المجمع الدائم للمفكرين الكبار الذي تحدث عنه (ميشليه) بتعابير خالده ، مؤمنا له بذلك أضعافا مضاعفــة مــن القوة والحيويــة والانسجام ، وبالتالي قدرة أكبربكثير على نقل المعرفة والاشعاعالحضاري. وهو يستطيع أيضا أن يؤمن ، خلال اقصر وقت ممكن ، نشر الافكار عبر جميع المجالات التي لاتقف فيها عائقا حواجز الكتابة واللغة ؛ وأن يغرس

لدى المفكرين ، وحتى خارج دائرتهم الصغيرة ، لدى كل من يتعامل مع الفكر ، عادات جديدة في العمل الفكري . وخلاصة القول ، فان غايتنا هي البرهان على أن الكتاب كان من أهم وأقوى وسائل السيطرة على العالم وهذه هي سمة التجديد التي نأمل أن نكون قد أضفناها في مؤلفنا هذا .



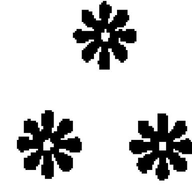
وكما هي العادة دائما ، وجدنا انفسنا في البداية امام مسألة اولية كبرى هي : حدود وأقسام المؤلَّف .

من الغني عن الذكر القول بأننا لم نفكر مطلقا بتبني هذه التقسيمات الصبيانية التي تعتمد على أدلة مزيفة من التواريخ ، والتي من شأنها ارضاء الطلاب الجيدين اليافعين في معاهدنا ، وبالتالي اساتذتهم : « في أي يوم من أي شهر ومن اية سنة تنتهي القرون الوسطى ؟ » . واذا أردنا ترجمة هذا الكلام نقول : «متى يولدومتى يموت ، في ذهن مخترعيه، كائن عاقل دون أية فكرة مبتكرة سوى الممارسة المدرسيه ؟ » . لذلك نقول ، دون اضاعة اي وقت في مثل هذا الجدل العقيم ، بأن غايتنا هي أن ندرس هنا العمل الثقافي وتأثير الكتاب خلال الثلاثمئة سنة الاولى من وجوده ، أي اعتبارا من منتصف القرن الخامس عشر وحتى الربع الاخير من القرن الثامن عشر . وبكلمة واحدة ، بين تغيرين اثنين للمناخ. في البداية ، كانت هناك فترة انقلابات فكرية واقتصادية واجتماعية ، تركت طابعها العميق ، لسنوات عديده ، على أذهان الاوروبيين وقلوبهم واعمالهم : هذه الفترة هي التي أطلق عليها (ميشليه) اسما جميلا هو « **النهضة** » ، دون أن يدعي حتما بذلك خلق احدى تلك التجريدات المجسدة ، التي تثقل على العلم وتشغل بمناقشات عقيمة تلك الاذهان التي يجب عليها التصدي لمسائل جديده . فعند الانطلاق اذن ، كانت هناك « **النهضة** » بالمعنى الانساني الواسع الذي عناه (ميشليه) . أما عند الوصول ، فنجد فترة انقلابات (أو تبدلات جذرية) اخرى جعلتها

الثورا تالسياسية بادية للعيان ، تجري وسط مجموعة من التحولات الاقتصادية والاجتماعية الخطيرة ، لتنتهي ، على الصعيد الفكري ، بهذه **الثورة** الفنية والادبية ، التي قامت ، تحت اسم **((الرومانطيكية))** ، بنشر الافكار والمشاعر الجديدة في العالم . ويجب الا ننسى في الوقت نفسه ، التنويه عن تلك الشحنات العاطفية التي ترجمت الى دفعة رائعة للتدين المسيحي وبسعي جامح حثيث نحو الارضاء العاطفي المصحوب بقفزات من الاصلاح الاجتماعي ، بينما كانت الصناعة الكبرى تستعد لان تخلق لدى أولئك الذين بدأ الناس يسمونهم « بالبروليتاريا » ، وعيا طبقيا يحضهم على العمل والمطالبة بالحقوق .

وهكذا ، من خلال انتهاء عهد وبدء آخر ، بدأ مجتمع من النخبة والصفوة يضمحل أمام مجتمع من الجماهير ، لتجد الطباعة نفسها منساقة الى تحولات جديدة وعميقة . فقد ظهرت حاجات جديدة وزبائن جدد ، مما ادى الى أن تحل المكننة محل العمل اليدوي القديم . هنا ايضا بدأ الصراع بين العامل اليدوي والميكانيكي ، بين المشغل اليدوي والانتاج الصناعي ، فظهرت فورا سلسلة الاختراعات ، التي زادت فجأة ما يمكن تسميته « بحدة الطباعة » . وهكذا ، دخلت الآلة ببطء ولكن بقوة ، فيما أصبح **((صناعة الكتاب))** . لقد فتشت الطباعة ووجدت محركا تغير العضلات ؛ ففي الفترة بين ١٨٠٣ ـ ١٨١٤ ، استطاع (كونيغ) انجاز الفئات الثلاثة من الآلات التي كانت باكورة العتاد الحديث : مطبعة البلاتين ، المطبعة ذات فترة التوقف ، المطبعة ذات الدورتين ؛ الا أن الانكليزي (نيكولسون) كان قد صمم ، منذ عام ١٧٩١، مبدأ المطبعة الاسطوانية البخارية والشريط الحبري . كل هذا أدى الى زيادة انتاج المطبوعات بنسب متزايدة باستمرار . كل هذا مهد السبيل وفسر نجاح **((الصحيفة))** ، هذا المولود الاحدث الذي جسد تحكم الطباعة بالرجال في نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين . كل هذا نجم عن التحولات الاجتماعية المنقطعة النظير في اتساعها ومداها ، الا أنه ساعد ايضا على اخراجها الى حيز الوجود .

نحن اذن امام فترة تتراوح بين ٣٨٠ ـ ٤٠٠ سنة ، هي الحدود الزمنية التي اعتمدناها . ولكن كيف يمكن تقسيم هذه الفترة الزمنية وبواسطة اية اسس أو معايير ؟



لو كان المطلوب هو كتابة تاريخ الطباعة خلال القرون الاولى من وجودها لوجب علينا بشكل بديهي أن نبحث عن اقسام كتابنا هذا في تقدم التكنيك نفسه . ولا اعلم اذا كان في استطاعتنا في هذه الحالة أن نتوصل الى نتائج جيدة ، لان الطريقة التي ما زالت متبعة في الطباعة عام ١٧٨٧ ، ما زالت نفسها تقريبا حتى عهد لويس السادس عشر في فرنسا، لدرجة لو عاد معها (غوتنبرغ) حيا عندئذ ، ودخل احدى المطابع ، لما وجد فروقا تذكر عن عهده السابق بها . الا أن المطلوب، كما أسلفنا ، كان شيئا آخر غير التاريخ التقني (التكنيكي) : انه التأثيرات التي أحدثها في الثقافة الاوروبية ذلك الاسلوب الجديد لنقل ونشر الفكر داخل مجتمع ما زال ارستقراطي التكوين ؛ مجتمع انسجم وسيظل منسجما لمدة طويلة مع تعليم وثقافة يقتصران على بعض الفئات الاجتماعية : أي ما يمكن ان نسميه ، كما اسلفنا ، **النخبة** التي تضم ، علاوة على الارستقراطيين بالدم ، ارستقراطيي المال والنفوذ والمعرفة العليا . فالى أي مدى سهل الكتاب حكم هؤلاء الرجال وعملهم ؟ كيف انقذ لصالحهم قسما من الكنوز الدينية والاخلاقية والادبية التي خلفها أسلافهم بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، مؤمنا بذلك استمرارية التقاليد بين معاصري (غوتنبرغ) والعهود القديمة الثلاثة : اليوناني واللاتيني والمسيحي ؟ الى أي مدى، على العكس ، كان الكتاب عامل دعاية فعال لهذه الافكار الجديدة التي نصنفها تحت اسم ((**النهضة**)) حينا ، وتحت اسم ((**النزعة الانسانية**)) أحيانا ؟ كيف خدمت المطابع الاديان ـ الكاثوليك والبروتستانت وغيرهما؟ ثم كيف خدمت ، في آن واحد ، الهجمات التحررية ، فالمؤمنة بالله دون الاديان ، فالالحادية والمادية الكافرة بجميع الاديان ؟ ما هي اشكال الآداب

التي استخدمت لنشر هذه الافكار أو محاربتها ؟ الى اي مدى خدمت اللغة اللاتينية في مقاومتها الطويلة ضد اللغات العامية ، وكيف خدمت هـذه الاخيرة في صراعها ضد اللاتينية ؟ لذلك لا يتضمن كتاب كهذا من الاقسام ــ في الاطار الاساسي للبنيات الاجتماعية ــ سوى تلك التي تفرضها المسائل التي يطرحها ، والتي يهدف الى مساعدة قرائه على حلها .

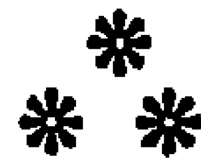
كان من الضروري ذكر كل هذا في هذه العجالة ، قبل الابحار في رحلة لم يقم احد من الادلاء حتى الآن ، وحسب علمنا ، بالاشارة الى اخطارها المحتملة ولا نتائجها المرجوه . فلنحاول نحن على الاقل أن نجعل منه كتابا مقبولا لدى القارىء ، يستطيع عند الانتهاء من قراءته ، أن يحتفظ بـه مرجعا أكيدا يمكن أن يجد فيه ، على الاقل ، نتائج احصائيات امينـة وأعمال تنقيب جادة لم يقم أحد بجمعها والتعليق على نتائجها بعد .

(لوسيان فافر)



تمهيد (*)

في مطلع هذا المؤلّف المخصص لظهور وتطور الكتاب المطبوع ، بدا من الضروري التذكير باختصار بما كان عليه الكتاب المخطوط في العالم الغربي، والذي ظل ، طوال عدة قرون ، الاداة الوحيدة لنشر الفكر المكتوب . لا يمكن هنا سرد تاريخ الكتاب المخطوط وتقديمه ، اذ يلزم لذلك مؤلف كامل على الاقل . لهذا كانت غايتنا هي أن نبيّن فقط ، في هذه الصفحات القليلة ، كيف أنه ، منذ منتصف القرن الثالث عشر تقريبا وحتى نهاية القرن الخامس عشر ، تم تنظيم انتاج الكتاب المخطوط في الغرب ، ازاء الطلبات المتزايدة ، وأن نظهر الحاجات التي جاء هذا لتلبيتها عندما أتى الكتاب المطبوع ليحل محله في متابعة الشوط .

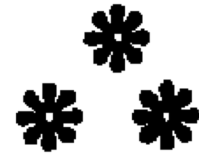


منذ زمن بعيد جدا ، اعتاد المؤرخون تقسيم تطور الكتاب المخطوط في أوروبا الغربية الى فترتين كبيرتين : « فترة ديرية » (نسبة الى الدير) و « فترة علمانية » ، وهما تعبيران مألوفان بالنسبة لجميع من يهتمون بهذه المسائل من قريب أو بعيد . ومن المسلّم به أن انتقاء هاتين الصفتين ، على الرغم من افتقارهما للدقة ، يعتبر موفقا وصحيحا ، لانه يعبر عن واقع لا جدال فيه . فخلال القرون السبعة التي انقضت منذ سقوط الامبراطورية الرومانية حتى القرن الثاني عشر ، كانت الاديرة

(*) — يعود الفضل في هذا التمهيد الى السيد (مارسيل توماس) ، محافظ غرفة المخطوطات في المكتبة الوطنية .

بالفعل ، بالاضافة الى باقي المؤسسات الكهنوتية ، هي التي احتفظت بالاحتكار شبه الكامل للثقافة الكتبية وانتاج الكتاب . ومن المؤكد أيضا من جهة ثانية ، انه اعتبارا من نهاية القرن الثاني عشر ، حصل تبدل عميق ، كما أدت التحولات الفكرية والاجتماعية التي جسدها خاصة تأسيس الجامعات وتطور التعليم لدى العلمانيين ، وتشكل طبقة بورجوازية جديدة ، الى انعكاسات عميقة على شروط تأليف الكتب وكتابتها ثم نسخها ونشرها .

في هذه العجالة ، سندع جانبا ما سميناه « بالفترة الديرية » ، التي تمت دراستها بشكل رائع في مؤلفات حديثة غطتها تغطية كاملة . ان غايتنا هي أن نبين (في حدود ما تسمح به الوثائق لان شيئا من الغموض والالغاز ما زال يكتنف جوانب عديدة من هذه المسائل) ، كيف أنه ، اعتبارا من القرن الثالث عشر ، سمحت بنيات مهنية جديدة بتلبية الحاجات الجديدة الى الكتب ، بشكل أو بآخر ، للعدد المتزايد من الزبائن .



على الرغم من الاستحالة التي ما زلنا نجد أنفسنا أمامها بالنسبة لوضع كشف كامل ودقيق بمراكز انتاج الكتب ، أو اعطاء لمحة كمية عن هذا الانتاج لفترة ومنطقة معينتين ، فان من الممكن في الوقت نفسه اجراء تصور صحيح للظروف التي أحاطت بوضع الكتاب ونشره في كل من القرن الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . الا أننا لا ننوي هنا ، ولا بالخطوط العريضة ، تلخيص التطور الزمني للكتاب المخطوط ، وانما بيان الوضع الذي تم الوصول اليه تدريجيا عندما جاء روّاد الطباعة يضعون صناعتهم الجديدة في خدمة منتجي الكتب .

على صعيد التقنية المادية وحدها ودون التطرق الى دراسة تقديم الكتاب وتزيينه ، لم تعرف « الفترة العلمانية » من تاريخه سوى بعض

التغييرات القليلة بالنسبة للقرون السابقة . الا أن هناك تجديدا لا بدّ من ذكره نظرا لانعكاساته الهامة على صناعة الكتب واسعارها : لذلك نريد ان نتحدث عن ظهور **الورق** الذي لن يحل محل الرقّ ، بل يدعمه ويسانده ويسمح ، الى جانب الانتاج الفاخر أو نصف الفاخر ، بادخال كتب اقل سعرا الى السوق (مع أن فارق الاسعار في الاصل ليس كبيرا كما يعتقد أحيانا) كما يسمح بكميات أكبر من الانتاج .

سنجد فيما بعد لمحة زمنية سريعة عن غزو الورق لاوروبا الغربية ؛ كما سنرى من جهة ثانية كيف سمح ظهور الورق وتطور الصناعة الورقية بولادة الطباعة . أما فيما يتعلق بالمخطوطة ، فان الورق لم يتصف بأية مزايا اضافية على الرقّ سوى سعره الاقـل وامكانية انتاج كميـات لا محدودة منه . فقد كان أسرع عطبا وذا سطح أكثر خشونة (لاننا لا نتحدث هنا الا عن الورق في القرون الوسطى طبعا) ، كما كان أكثر مسامية (كثير المسام) بالنسبة للحبر ، وأقل صلاحية لتحمل الصباغات المستخدمة من قبل المزخرفين . الا أنه كان يمتاز ، بالمقابل ، بخفة أقل (ولكن ليس الى الدرجة التي يتوهمها بعضهم ، اذ تم التوصل في القرن الثالث عشر الى صناعةرق بمنتهى النعومة والمرونة وأرق من ورق ذلك العصر . وهكذا نجد عددا كبيرا من كتب التوراة اللاتينية في القرنالثالث عشر ، بتضافر جهود كل من صانع الرقوق والخطاط ، تقل حجومها وابعادها عن أبعاد المجلدين اللذين شغلتهما مثلا ترجمة السيد (لوماستر دي ساسي) الحديثة . لا شك في أن كتب التوراة هذه تحتاج في فـك رموزها الى عين متمرّسة ثاقبة ، الا أنها تظل دون شك ، أسهلاستعمالا وأقل ارباكا من كتب التوراة المطبوعة والمشهورة الاولى ؛ ولم تستطـع الطباعة انتاج التوراة القابلة للحمل الا في القرن السادس عشر .

لقد قلنا بان الميزة الاساسية للورق تكمن في سعره الاقل ، وفي القرن الخامس عشر خاصة ، في نزوله الى الاسواق بكميات كبيرة . الا انه ليس باليسير اجراء مقارنات دقيقة في هذا المجال ، اذ لدينا الآن عدة مخطوطات ظهر عليها سعر الرق اللازم لصناعتها مع بعض الحسابات ـ وخاصة الحسابات الملكية ـ حيث دونت مشتريات الرق والورق ؛

ولكن من المؤسف أن التعابير المستعملة ليست دائما على درجة كافية من الدقة . فقد كان الرق يشترى « بالحزمة » بشكل عام ، أو بالدزينة أو الوحدة أو الدفتر (الذي كان يباع مقصوصا ومؤلفا من ستة أو ثمانية أوراق مطوية) ؛

في نهاية القرن الرابع عشر ، وفي مدينة باريس ، كان سعر الجلد يتراوح بين ١٢ ـ ٢٠ (دنييه) تقريبا . أما مساحة الجلد الوسطية فكانت حوالي ٥ر٠ م٢ ، أي انه كان يلزم من ١٠ ـ ١٢ قطعة جلد لصناعة مجلد يتألف من (١٥٠) ورقة بقياس ٢٤ × ١٦ سم (وهي الابعاد الوسطية الدارجة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر) . فالمادة الاولية لمثل هذا المجلد كانت تكلف في حالتها الخام من ١٠ ـ ٢٠ فلسا ، يضاف عليها مبلغ ٤ ـ ٦ (دنييه) للجلد الواحد ، لتنظيفه من الشوائب واعداده للكتابة . لقد قدمنا هذه الارقام على سبيل الدلالة فقط ، لانها كانت تتغير كثيرا حسب نوعية الجلود ومدى وفرتها في الاسواق وأماكن بيعها . ففي باريس مثلا ، كان معرض (لاندي) مركزا هاما جدا لتجارة الرق .

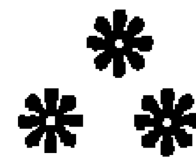
وهكذا نرى أن عملية حسابية بسيطة تسمح لنا بدحض الاساطير التي كثيرا ما كانت تتردد حول العدد الهائل من الخراف أو العجول الواجب ذبحها للحصول على الجلود اللازمة لكتابة مجلد واحد من الحجم الضخم . ومن المستغرب حقا أن نرى مؤلفات حديثة وعلمية ما زالت تقع في هذه الاخطاء القديمة . فالسيد (تومبسون) مثلا ، يأتي على ذكر توصية (طلب) وجهتها الكونتسة (دي كلار) الى ناسخ في انكلترة عام ١٣٢٤ ، تطلب فيها نسخة من كتاب«Vitae Patrum» (من حياة الاجداد) الذي لم يكن يلزمها أقل من ١٠٠٠ جلد ، بالسعر السائد آنذاك ، أي (٢ دنييه بالعملة الانكليزية) للجلد الواحد، مما يرفع سعر الرق اللازم لهذا المجلد الى المبلغ الباهظ (ستة جنيهات استرلينية) . وفي الحقيقة ، يكفي أن نتفحص نسخة من مخطوطات «Vitae Patrum»، سواء باللاتينية أو الفرنسية ، لنستنتج أن النص المكتوب على عمودين يملأ عادة حوالي ١٥٠ ـ ١٦٠ صفحة من قياس ٢٥ × ١٦ سم ، أي مساحة رق تبلغ ستة أمتار مربعة ، تتطلب حوالي اثني عشر جلدا على أبعد تقدير .

في نفس الفترة تقريبا ، بلغت أسعار الورق (٥ر١ دنييه) للورقة من قياس (٥ر٠) م٢ ، بينما كان السعر الاقصى للرق ، كما أسلفنا ، لا يزيد على ٢٤ ـ ٣٦ دنييه من قياس ٥ر٠ ـ ٦ر٠ م٢ (بما في ذلك كلفة التنظيف) . لا شك أن الفرق لا يستهان

به ، الا انه أبعد من أن يبلغ الاهمية التي كانت تنسب اليه أحيانا . في الواقع ، وحتى القرن الخامس عشر ، كان يبدو أن الورق لم يقدم المزايا الكافية ، أو ينزل الى الاسواق بالغزارة المطلوبة ، حتى يستطيع ازاحة الرق نهائيا والحلول مكانه كليا .

ولكن هل كان هذا الاخير متوفرا بكثرة ؟ في كل من فرنسا وانكلترة ، ظل سعره ثابتا اعتبارا من النصف الثاني للقرن الرابع عشر حتى النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، بينما كان انتاج الكتب يتزايد كثيرا ، مما يثبت أنه لم يصبح مع ذلك سلعة نادرة . وقد يكون من المفيد دراسة ما اذا كان سعر الماشية ، وخاصة الغنم ، قد عرف ارتفاعا ملحوظا في الفترة ذاتها . على كل ، نحن نعلم بأنه بعد ثلاثة قرون ، أي في الفترة التي أصبح فيها الرق لا يستخدم الا لكتابة الصكوك القضائية والاستخدامات الصناعية المختلفة ، كان يباع في فرنسا أكثر من ١٠٠,٠٠٠ حزمة (والحزمة تساوي ٤٠ جلدا آنذاك) في العام .

كل هذا لا يعني ولا شك ، انه كان يمكن للطباعة ان تبلغ هذا التطور الذي بلغته ، بدون الورق . اذ حتى لو افترضنا بأن جميع أوراق الرق تستطيع أن تمر بسهولة تحت المطبعة ، فان اضعف طبعة كانت ستتطلب وحدها عدة مئات من الجلود ، ولو كان الكتاب من الحجم الصغير . أما بالنسبة للحجوم الكبيرة ، فكان لا بد من آلاف الجلود . وقد قام (الويس روبيل) ، منطلقا من معطياتنا نفسها ، بحساب ما يلزم المجلد الواحد من الرق ، بالنسبة لتوراة غوتنبرغ ، المؤلف من ٣٤٠ صحيفة بقياس ٤٢×٦٢ سم ، (١٧٠) جلدا . وهكذا تكون النسخ الثلاثون التي سحبت آنذاك قد استهلكت (٥٠٠٠) جلدا . واما بالنسبة للنسخ المئة التي سحبت على الورق ، فكان سيلزمها (١٥,٠٠٠) جلد اضافي . في هذه الشروط ، لا يسعنا الا أن نستغرب كيف تمت ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، طباعة عدد كبير من النسخ الممتازة على الرق . الا انها كانت جميعها كتبا من القياس الصغير .



تماما مثلما كان الوضع في العصور الغابرة ، ظلت الاديرة ، حتى خلال الفترة الملقبة بالعلمانية ، تتابع كتابة مختلف المخطوطات التي كانت تحتاج اليها لاستخدامها الخاص . تقضي انظمة الاديرة بتخصيص عدد من الساعات يوميا للعمل الفكري ــ وقد كانت كتابة المخطوطات تمثل

جزءا هاما من هذا العمل . وهكذا كانت عمليات النسخ ، المنظمة وفق العادات التقليدية ، تنتج دائما كتبا للدراسة ومخطوطات للطقوس الدينية . وقد استمر الوضع على هذا المنوال حتى اليوم الذي حلّت فيه الطباعة نهائيا محل المخطوطة في مجال الماضي – رغم استمرار بعض الاديرة في أعمال النسخ بدافع من التقاليد . الا أن الطابع الغالب للفترة الجديدة التي تبدأ مع مطلع القرن الثالث عشر ، هو أن الاديرة لم تعد المنتجة الوحيدة للكتب ، كما أنها ، هي نفسها ، لم تعد تنتج الا ما تحتاجه لاستخدامها الخاص .

انتقلت مراكز الحياة الفكرية ، وستصبح الجامعات ، كما سنرى فيما بعد ، المراكز التي يقوم فيها العلماء والاساتذة والطلاب ، بالتعاون مع الحرفيين المختصين ، بتنظيم تجارة نشطة للكتب .

من المؤكد انه ما زال يمكن ان يحدث في المناسبات (وقد استمر هذا في انكلترة أكثر منه في فرنسا) أن يكلّف أحد الاديرة ، التي اشتهرت بمحافظتها على تقاليد الخط والنسخ والزخرفة ، من قبل احد الملوك أو السادة الكبار بصنع مخطوطات ممتازة فاخرة ، يشكل بيعها موردا اضافيا للدير . الا أن هذا أصبح يزداد ندرة باستمرار . أما قيام اسقف بوري (ليد غايت) ، وحتى وفاته عام ١٤٤٦ ، بنسخ نصوص في اللغة الانكليزية لصالح جماعة من العلمانيين ، فيظل حالة استثنائية .

اعتبارا من مطلع القرن الثالث عشر ، بل منذ نهاية القرن الثاني عشر ، ادى ظهور الجامعات وتطورها الى ولادة جمهور جديد من القراء – كان معظمهم ولا شك من رجال الدين ، ولكن لا تربطهم صلات وثيقة بمؤسسات كهنوتية أخرى سوى الـ (الام المربية) طيلة فترة ارتباطهم بها .

أما الاساتذة ، فكانوا يحتاجون ، لتحضير دروسهم ، الى نصوص ومراجع وتعليقات . (وكلنا يعلم مدى الاهمية التي كانت تأخذها التفاسير والمناقشات والتعليقات في عملية التعليم للقرون الوسطى في جميع مجالات

المعرفة) . لذلك كان من الضروري أن تكون تحت تصرفهم أدوات العمل هذه ، مما حدا بالجامعات الى اقتناء المكتبات التي يمكن الرجوع اليها . الا انه لم يكن دائما من الممكن أو اليسير شراء نصوص منسوخة ، مما فرض بالضرورة انشاء مشاغل يستطيع فيها الحرفيون أن ينسخوا ، بسعر زهيد وفي أقل وقت ممكن ، المؤلفات اللازمة .

لم يكن هذا يحول مطلقا دون اللجوء الى المكتبات خارج الجامعة ، حيث يمكن أن تتواجد مؤلفات نادرة ومفيدة . كانت اعارة الكتب دستورا سائدا في القرون الوسطى ، كما كانت الاديرة ومجالس الكهنة وسواها تقوم غالبا باعارة الكتب التي لم تكن لتقبل مطلقا بيعها أو التخلي عنها نهائيا لصالح المكتبات الجامعية الجديدة .

على الرغم من اهمية التعليم الشفهي ، كان الطلاب أيضا بحاجة الى حد أدنى من الكتب . لا شك أنه كان باستطاعتهم اخذ ما نسميه « بالملاحظات » عن الدرس ، والاعتماد الى حد بعيد على الذاكرة التي كانت أساليب التعليم في القرون الوسطى تنميها وتطورها كثيرا ، الا أن هذا لا يمكن أن يغنيهم عن حد أدنى من المراجع الاساسية . فاذا لم يكن لديهم الوقت للكتابة بأنفسهم ، واذا كانوا على درجة كافية من الغنى ، توجهوا من اجل هذا العمل الى الكتبة المحترفين الذين تزايدت اعدادهم حول الجامعات .

وهكذا تشكلت تدريجيا ، في كل مركز جامعي ، هيئة من محترفي الكتاب ، من رجال الدين أو من العلمانيين على الاغلب (كان اصحاب المكتبات من العلمانيين والخطاطون أو « الكتبة » من رجال الدين في أكثر الاحيان) . ما لبث هؤلاء أن اعتبروا سريعا جزءا من الجامعة يتبعون لها كمرؤوسين أو عملاء . بهذه الصفة ، كانوا يتمتعون ببعض الامتيازات ، وخاصة الاعفاء من ضريبة الحرب والعسس ، كما يتبعون على الصعيد القضائي للسلطات الجامعية (وهذا هو امتياز الـ «التكليف» الذي يعود بالنسبة لهم الى مطلع القرن الثالث عشر .

مقابل هذه الامتيازات ، كان أصحاب المكتبات الثابتة والناسخون يخضعون لمراقبة صارمة من قبل الجامعة . انهم في خدمة هيئة كبرى تبسط عليهم حمايتها ، الا انهم لم يكونوا احرارا في أن يعملوا لمصلحتهم الخاصة . ففي اية لحظة ، كان تنظيم عملهم نفسه يذكرهم بانهم يمارسون في الواقع ما يمكن ان نسميه « بالخدمة العامة » .

هناك وثائق عديدة ، يعود معظمها الى أعوام ١٢٧٥ ، ١٣٠٢ ، ١٣١٦، ١٣٢٣ و ١٣٤٢ ، تعطينا فكرة دقيقة عن واجبات هؤلاء . فقد كان تعيينهم يتم بعد تحقيق مسبق يسمح للسلطات بالتأكد من سمعتهم الحسنة وقدراتهم المهنية ، كما كانوا ملزمين بتقديم ضمان وأداء قسم الولاء للجامعة .

متى استلموا مناصبهم ، كانت نشاطاتهم تحدد بدقة وتراقب باستمرار . لم يكن صاحب المكتبة تاجرا بقدر ما كان أمينا للكتب : فبسبب ندرتها النسبية ، كانت المخطوطات تعرض للبيع باستمرار ، وتنتقل من يد الى يد طوال عدة اجيال من الطلاب والاساتذة . وقد كانت هذه التجارة تتم بواسطة أصحاب المكتبات ، الا أن هؤلاء لم يكونوا غالبا سوى وكلاء عن البائعين ، والكفالة التي كانوا يدفعونها لنيل رخصة العمل تضمن وفاءهم بما يمكن أن يترتب عليهم من ديون أو أعباء مالية . لم يكن صاحب المكتبة قادرا على البيع والشراء الا ضمن شروط معينة ، اذ كان عليه أن يعلن على الملأ المؤلفات الموجودة في حوزته (تجنبا للاحتكار لمصلحته الشخصية ومنعا لأي اخفاء متعمد لبعض الكتب مما ينجم عنه ندرة مصطنعة) . كذلك لم يكن يتقاضى تعويض اتعابه الا بواسطة عمولة (تعرفة) محددة لا تتجاوز الاربعة (دنييه) للمجلد الواحد ، اذا كان المشتري مدرسا أو طالبا في الجامعة ، أو ستة (دنييه) للغرباء .

الى جانب أصحا بالمكتبات ، كان هناك أيضا « الثابتون » (Stationnaires) (وهو تعبير يعود الى العهد الروماني القديم حيث

كانت الجامعات الايطالية أول من اعاد استخدامه) ، الذين كان دورهم اكثر حساسية ؛ سلّطت عليه الاضواء مؤخرا من قبل الاسقف (ديستريز) ، الذي يعود اليه الفضل في معرفتنا التفصيلية الآن لآلية « تسعير » النسخ وتداولها وما كان يسمى بشكل عام مؤسسة الـ « Pecia » (القطعة) .

لممارسة اشراف فكري واقتصادي على تداول الكتب ، توخت الجامعة أن تكون المؤلفات ، الضرورية لدراسات الاساتذة والطلاب ، موضع تدقيق جدي لنصوصها ، حتى لا يشوبها اي خطأ يشوّه معناها. ولكي يتسنى ، ضمن أفضل الشروط ، زيادة عدد النسخ دون اي تحريف في النص ودون مضاربات مفرطة من قبل النسّاخ ، عمدت الجامعة الى وضع نظام متقن لاعارة المخطوطات الخاضعة للمراقبة والمراجعة ، بغية سحب نسخ عنها مقابل تعرفة محددة . كانت المخطوطة الاساسية « النسخة الاصلية » تعود بعد نسخها الى « الثابت » (stationnaire) الذي يستطيع عندئذ تأجيرها من جديد . اما ميزة هذا الاسلوب ، فهي تجنب التحريف الذي قد يزداد خطورة من نسخة لاخرى ، لان اية عملية نسخ جديدة لا يمكن أن تتم الا عن النسخة الاصلية الواحدة . ويكفي أن تتاح لنا فرصة دراسة مسائل وضع النصوص القديمة ، حتى ندرك الى اية درجة كانت هذه الطريقة موفقة .

أما النموذج ، أو « النسخة الاصلية » ، التي تعار بواسطة «الثابتين» (المفوضين بالنسخ) الى الطلاب الراغبين بنسخها أو كتابتها من قبل النساخ المكفولين ؛ فلم تكن تعطى دفعة واحدة ، بل على شكل دفاتر منفصلة . الامر الذي كان يسمح بتجميد هذه النسخة لاقل وقت ممكن، حيث يستطيع عدة نسّاخ أن يقوموا بالكتابة في آن واحد . اما ثمن ايجار هذه الدفاتر (المسماة بالقطع) فكان يحدد من قبل الجامعة ولا يستطيع « الثابتون » زيادته أو التلاعب فيه . كذلك كان هؤلاء ملزمين بتأجير الكتب الى كل راغب دون اية وساطة أو تمييز . واما النسخ الاصلية البالية ، فكانت تسحب من التداول .

استمر هذا النظام المتبع في نشر النصوص ، في الجامعات ، حتى نهاية القرون الوسطى ، وسنرى ، في باريس خاصة ، أن الطباعة أدخلت تحت سلطة الجامعات ضمن اطارهذا التنظيم نفسه . اذ أن المطبعة كانت، في نظر هذه الاخيرة ، تمثل منطقيا في الاصل اداة مناسبة للانتاج السريع والإمين للنصوص الضرورية أكثر مما يمكن أن يقدمه نظام « القطع » مهما بلغت جودته .

فالمطابع الباريسية الاولى (التي ستكون لنا عودة عليها) ، لم تأت لاعادة نسخ النصوص الجامعية الكبرى ، بقدر ما ادخلت لزيادة انتاج النصوص الكلاسيكية القديمة أو ذات الطابع اللاتيني الجيد الذي كان مرغوبا فيه بشكل خاص . في الواقع ، كان نظام «القطع» يبدو وكانه غطى كافة الاحتياجات بسهولة . حتى قبل التطور الكبير الذي طرأ على مشاغل الكتبة ، في نهاية القرن الثاني عشر وخلال النصف الاول من القرن الثالث عشر ، استطاعت مؤلفات (ارسطو) أن تنتشر في جميع انحاء أوروبا . وقد وصلتنا أكثر من /٢٠٠٠/ نسخة من أعمال أرسطو ، التي تعود الى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ؛ واذا اخذنا بعين الاعتبار ما انقرض منها ، نستنتج أن أعمال مثل هذا الفيلسوف كان بامكانها ، بفضل المخطوطات ، أن تنتشر ، وأن انتشار الافكار كان بطيئا الا انه كان مع ذلك فعالا وملموسا .ومن المناسب ، في هذا المجال ، عدم الاقلال من دور الذاكرة : فالتعليم في القرون الوسطى كان متمما بشكل يعتمد على الذاكرة وتقويتها . ولا ننسى هنا ، أنه حتى اليوم ، باستطاعة طفل مسلم لا يتجاوز الثانية عشرة ، أن يتلو القرآن غيبا عن ظهر قلب ، رغم الغرابة التي تبدو لنا في ذلك .

الا انه كان من الصعب غالبا آنذاك جمع الكتب التي يحتاجها الانسان عندما يرغب بالتعمق في احد البحوث . ومن المؤكد انه عندما كان (راؤول بريسل) يعد ترجمته لكتاب « مدينة الله » ، لم يجمع أقل من /٣٠/ مخطوطة و /٢٠٠/ مؤلفا مختلفا لوضع تعليقاته واضفاء صفة النقد عليها . وخلاصة القول ، أن النصوص كانت أكثر ندرة مما ستصبح عليه بكثير بعد ظهور الطباعة . والارشادات المتعلقة بالمكتبات في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، التي سترد فيما بعد ، تعطينا فكرة كافية عن ذلك .

الورقة الاولى من القطعة رقم /٩/ لنسخة أصلية باريسية من تعليق (سان توماس داكان) على الجزء الرابع من كتاب « الحِكَم »

ولكن ، الى جانب هذه الوسائط الجديدة المستخدمة من قبل الجامعات لزيادة نشر الكتب « العلمية » التي كانت الحاجة اليها في تزايد مستمر ، كانت هناك مشكلة انتاج الكتب التي نسميها اليوم مؤلفات « التعميم » أو « التسلية » .

اعتبارا من نهاية القرن الثالث عشر ، تشكل جمهور جديد بالتوازي مع تحول الاقطاع القديم ؛ فخرجت الى النور ، الى جانب رجال الدين والنبلاء ، طبقة بورجوازية جديدة قادرة بدورها على تلقي الثقافة . فهناك رجال القانون والمستشارون العلمانيون للملوك وكبار الموظفين من مختلف الفئات وأغنياء التجار ، كلهم بحاجة الى الكتب . الا أن تلك الحاجة لم تكن مقتصرة على الكتب التي تعالج الاختصاص (كالحقوق والسياسة والعلوم) ، بل تعدتها الى الكتب « الادبية » : من تربوية اخلاقية أو روايات او ترجمات أو غيرها ...

لم يكن هذا الادب موجها الى رجال الدين (على الرغم من انه كان يكتب من قبلهم في اغلب الاحيان) ، كما كان يكتب أساسا باللغة العامية. وهكذا أخذت تنتشر بكثرة زائدة : الاعمال الادبية المبتكرة ، الشعرية منها أولا ثم النثرية ، فأعمال تنقيح المؤلفات القديمة وترجمة الاعمال اللاتينية الكلاسيكية ، أو من القرون الوسطى ، والاقتباس منها . لذلك، ولنشر مثل هذه الاعمال وارضاء متطلبات جمهور متزايد باستمرار ، أصبح لا بد من وضع نظام جديد لانتاج الكتب .

حسبنا أن نعود الى أي تاريخ للادب الفرنسي ، لكي نستنتج أن الادب العامي ، في فرنسا على الاقل ، كان موجودا في القرن الثاني عشر ، الا ان ظروف انتشاره كانت مختلفة جدا آنذاك : فادب ذلك العصر كان يكتب للاستظهار قبل كل شيء ، او للتلاوة امام المستمعين بصوت عال . ولم يكن خلاف ذلك ممكنا لان الجمهور الذي يحسن القراءة كان لا يزال محدودا جدا . قد يبدو مستغربا لاول وهلة أن تقليدا أدبيا هاما استطاع أن يتطور ويتسع في مثل هذه الظروف ، لاننا ، نحن المتشبعون بالثقافة

المكتوبة ، لا نستطيع ان نبذل من جهـد التخيل ما يكفي لتمثل آليـة الاتصالات الادبية الشفهية ، مع ان ذلك امر مؤكد وثابت في حضارات عديدة . الا انه يبدو في عصرنا هذا ، أن وسائط نشر الفكر غير المكتوب كالسينما والاذاعة ، قد تساعدنا على تصور ما يمكن أن يكون عليه ، بالنسبة لملايين الناس ، نقل الاعمال والافكار التي لم تعد تستخدم الدارة المألوفة للنص المكتوب .

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ، قليلا ما كان الناس يقرؤون باللغة العامية ، الا انهم مع ذلك كانوا يؤلفون نصوصا عديدة بهذه اللغة . وقد اظهر السيد (فارال) جيدا كيف كان الشعراء الجوالون آنذاك ، يقومون من قصر إلى قصر ، بانشاد او قراءة الاشعار والروايات وسِيَر القديسين وغيرها ... (التي كانت تكتب شعرا في اغلب الاحيان لسهولة حفظها) . كما بيّن كيف أن هؤلاء الشعراء كانوا هم الذين يؤلفون غالبا النصوص التي ينشرونها . وتدل التسمية التي كانت تطلق على هؤلاء الشعراء الجوالين (من تروفيري وتروبادوري) على نشاط أدبي خلاق، بينما كانت الفائدة التي يقدمها شعراء القصور وقفا على أصحاب القصر دون سواهم .

كان هؤلاء الرواد الاوائل للادب مضطرين لممارسة مهنتهم في ظروف صعبة تضعهم أمام مشاكل معقدةواختيار صعب . فقد كان من المستحيل عليهم تماما الاحتفاظ بأدنى حق في الملكيـة الادبية لاعمالهـم ، الا اذا احتفظوا بانتاجهم لانفسهم وحرصوا عليه . الا أنهم لو تصرفوا على هذا النحو ، لاستحال عليهم أن يتذوقوا لذة حب الذات التي يبحث عنها كل مبدع في المزيد المزيد من الشهرة .

كان على الشاعر اذن ان يحاول التوفيق قدر الامكان ، بين هذين المطلبين حتى يتمكن من تامين حاجاته المادية . لذلك كان الحل الامثل بالنسبة له ، وكما كان عليه الحال في العهد الروماني القديم ، أن يعثر على « نصير » يقدم له أعماله ، التي يضمّنها عند الحاجة المديح المناسب

للمحسن أو أسرته . أما عند عدم توفر النصير ، فكان باستطاعته ايضا ان يقوم ، لقاء تعويض ، بتلقين النصوص التي الفها لشعراء جوالين آخرين أو ان يبيعهم نسخا منها . مع زيادة عدد الاشخاص القادرين على قراءة النصوص بدلا من الاستماع اليها فقط ، سوف يظهر نوع من التخصص في نهاية القرن الثالث عشر وخلال القرن الرابع عشر . وسيكتفي المؤلف من الآن فصاعدا بكتابة (أو تجميع) مؤلفه دون الاهتمام بظروف وصوله الى جمهور المستقبل .

أما الوسيلة المثلى للوصول الى ذلك ، فستظل دائما اللجوء الى النصير ، اي الى ملك أو امير او نبيل ، يتقبل اهداء الكتاب وتقدمة نسخة ممتازة منه ؛ عندئذ يضمن المؤلف نيل المكافأة المادية على أتعابه ، كما يضمن لمؤلفه حظا أوفر في النشر والنجاح . فالدُرْجَةُ (الموضة) تأتي من فوق ، والتنفج موجود في كل العصور والازمان : ومتى علم الجمهور أن هذه الترجمة أو تلك لم تقبل فحسب ، بل أوصى عليها أحد ملوك فرنسا ، فان من المؤكد ان يقبل الناس على هذا العمل اسوة بهذه القدوة ذات المكانة الرفيعة . وهنا تنهال التوصيات الجديدة على المؤلف ، الذي يستطيع عندئذ ان يعهد بنسخ نسخته الاصلية الى كاتب مأجور ، فيصبح المؤلف هو الناشر في الوقت نفسه . هذا ما كان يفعله (بوكاس) بشكل خاص : فقد قام ، في احدى رسائله الموجهة الى صديقه (ماغهيناردو ـ دي كافالكانتي) والمرفقة بنسخة ممتازة من احد أعماله ، بشرح كيفية بقائها بين يديه فترة من الزمن بعد انتهائها ، لانه لم يكن يدري لمن يقدمها: وها هو يرسلها في النهاية الى صديقه لكي يفيد منها أصحابه ومعارفه ثم ينشرها على الملأ . يبدو أن هذه المهمة كانت من الالتزامات الضمنية للنصير ، لان (بوكاس) نفسه يكتب الى (أندرينا أكسياجيولي) مهديا اياها كتابه (مشاهير الامهات) فيقول : « اذا وجدت من المناسب نشر كتابي هذا تحت اشرافك ورعايتك ، عندئذ أعتقد بأنه سيرتفع فوق الاهانات وينجو من الاذى » .

كذلك كان هناك مؤلفون أكثر اهتماما بالارباح المادية للمهنة ،

يستطيعون الاحتفاظ لديهم بنسخة أصلية من مؤلفهم يبيعــون بعض النسخ المسحوبة عنها حسب الحاجة . كما كانوا أحيانا يستخدمون لذلك احد أصحاب المكتبات كواسطة : فقد عهد (جان غولان) الى الكتبي (هنري دو تريفو) بنسخة من ترجمته لـ (Rational) غليوم دوران ؛ وقد قام هذا الكتبي بدوره ببيعها عام ١٣٩٥ لخادم دوق أورليان الذي اشتراها باسم سيده (علما بأن هذه الترجمة كانت قد وضعت قبــل عشرين عاما من قبل « جان غولان » نفسه لصالح شارل الخامس) .

كانت رعاية الآداب تقليدا واسع الانتشار ، وخاصة في القرنــين الرابع عشر والخامس عشر ، من أجل اعطاء الكتاب الدفعة الاولى على الاقل . وهذا ما يفسر لنا الفارق الكبير بين المبالغ الطائلة التي كان يدفعها ملك أو أمير للمؤلف لقاء النسخة الاولى للعمل الجديد ، والسعر الزهيد الذي كانت تباع به النسخ اللاحقة ، حتى الطبعات الممتازة منها . وهكذا كانت كافة حقوق المؤلف ، من الناحية الاقتصادية ، تنحصر في الطبعة الفريدة الاولى فقط ، لان الكاتب يفقد بعدها كل حق على عمله .

هكذا ، كانت ممارسة « الرعاية » تمكن « رجال الآداب » من العيش على أقلامهم ولو بصورة جزئية أحيانا . أما الضريبة التي كان الاديب يدفعها ، فهي اضطراره ، ليس فقط للامتناع عن ذكر كل ما من شأنــه الاساءة الى راعيه أو نصيره ، وانما التخصص أيضا في الادب الذي يرضي أوسع الجماهير . وقد كان يحدث غالبا أن يكون الكتاب موضع توصية عاجلة ، كما فعل شارل الخامس مثلا ، عندما كان يكافىء عدة مترجمين في آن واحد ، أو عندما أراد اطلاع مستشاريه وكبار موظفيه على أعمال أرسطو (السياسية والاقتصادية والاخلاقية) ، فعهد بترجمتها الى (نيكول أوريسم) من عام ١٣٦٩ حتى عام ١٣٧٢ .

عندما يتم تأليف الكتاب وتقدم « الطبعة الاولى » منه الى النصير أو الراعي الذي أوصى عليه ، أو قبل تقدمته على الاقل ، كان نشره يتم عن طريق أصحاب المكتبات والخطاطين المحترفين بمساعدة المؤلف ضمن شروط يكتنفها في الحقيقة شيء من الغموض . فقد كان من المصلحة المادية

« للأديب » (وليغفر لنا القارىء هنا هذا التعبير الحديث) ، تماما كما كان الوضع بالنسبة للشعراء الجوالين في القرن السابق ، الا ينتشر كتابه بسرعة زائدة ، لانه يفلت منه في هذه الحالة ؛ الا انه بالمقابل ، لم يكن يرغب مطلقا البقاء في الظلمة أو الظل . وهكذا كانت هناك نقطة توازن يجب العثور عليها بين هاتين المصلحتين المتناقضتين .

ان معلوماتنا ناقصة عن تنظيم مهنة صاحب المكتبة (الكتبي) في المجالات الخارجة عن نطاق الاوساط الجامعية . الا اننا نعلم بأن أصحاب المكتبات المحلفين من قبل الجامعة ، كانوا يستطيعون المتاجرة بالكتب مع الافراد ، وانهم لا يعودون عندئذ خاضعين لنفس الانظمة (وهذا مجرد استنتاج) . ومن المؤكد أنه اعتبارا من نهاية القرن الثاني عشر في فرنسا ، ومنذ مطلع القرن الرابع عشر في انكلترة ، كانت توجد ورشات (مشاغل) للخطاطين والنساخين الذين يعملون على انتاج نصوص باللغة العامية لصالح بعض أصحاب المكتبات ، كانت تباع بنفس الشروط التي تباع بها الكتب المطبوعة اليوم .

كان كبار السادة ، رغم ورشاتهم وخطاطيهم الخاصين ، لا يترددون في اللجوء الى هذه المصادر . وهكذا فان (دوق بيري) مثلا ، الذي كان يوصي غالبا على كتب ممتازة يكلف بها فنانين يعيشون عنده وعلى نفقته ، كان يقوم أيضا بشراء نسخ ممتازة يبيعها بواسطة أصحاب المكتبات . وفي عام ١٤٠٣ ، امتلك مخطوطة المنظومة «الارتورية » المنثورة التي باعها له (راؤول دي مونتيه) .

تؤكد الاحصائيات في هذه الحالة أن الدوق اشترى هذه المخطوطة من أحد أصحاب المكتبات ولم يقم بالتوصية عليها . ان صح هذا فهو برهان على أن عدد الزبائن المهتمين بالمخطوطات الفاخرة الثمينة كان كافيا لدرجة يقبل معها صاحب مكتبة بتحمل النفقات الباهظة التي كانت تتطلبها صناعة مثل هذه المخطوطة (المباعة بـ /٣٠٠/ ريال ذهبي) ، دون أن يكون لديه زبون معين مضمون .

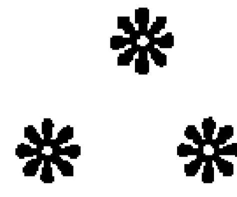
الا أن زيادة الزبائن ، المؤدية الى تزايد الطلب ، كانت تدفع الخطاطين وعمال الكتب الى وضع « ضوابط »لانتاجهم ، وجعله غزيرا وسريعا قدر المستطاع .

منذ زمن طويل ولا شك ، تم التوصل في ورشات الاديرة للمخطوطات الى شكل من أشكال التخصص . اذ كان بعضهم يتخصص في كتابة النص، بينما يقوم آخرون بأعمال الزخرفة المختلفة كل حسب مؤهلاته . الا أن الراهب الخطاط والراهب المزخرف كانا يعملان جنبا الى جنب وبتماس مستمر . أما عندما زادت الورشات العلمانية ، فقد كان يحدث العكس تماما : اذ بدات تكثر « المشاغل » المنفصلة المتميزة ، بعضها للخطاطين واخرى للتغليف والزخرفة الخ ... وهكذا تشكلت تدريجيا سلاسل حقيقية للانتاج ، كان لكل حرفيّ فيها اختصاصه المعروف ومهمته المحددة .

اما المادة الاولية ، فقد بدأ يقل تصنيعها تدريجيا في الورشات التي تستخدمها . وقد دلّت حسابات المالية على ان الرق ، الذي يشترى غالبا في حالته الخام ، كان ينتقل أولا الى أيدي الحرفيين المكلفين برقه وتنظيفه وتبييضه . وقد كانت تعويضات هؤلاء تحسب على حده . وعندما تنتهي كتابة النص ، كان يعهد به الى خطاط مختص لكي يضيف عليه عناوين الابواب والفصول . كما يكلف اختصاصي آخر ، اذا لزم الامر ، بتنفيذ الحروف المزخرفة بالالوان . وهو لا يقوم حتى بقراءة النص (منعا لاي تردد أو اضاعة للوقت) ، حيث يدون الناسخ أثناء كتابة النص ، وفي الفراغ المخصص للعنوان ، اشارة توجيهية — تسمى « اشارة الانتظار » — هي بمثابة الدليل على أن العمل كان ينفذ وفق عدة مراحل .

تبقى بعد ذلك زخرفة الكتاب المخطوط ، التي لن نتوقف عندها طويلا لانها درست مرات كثيرة في السابق ولاننا نعرف تنظيمها منذ أيام (هنري مارتان) . الا أننا سنكتفي بأن نبين كيف كان العمل ، هنا أيضا، يتم بالجملة .

اذا كان مشغل المزخرف منفصلا تماما عن مشغل النسّاخ ، فان على هذا الاخير أن يقدم للفنانين ارشاداته فيما يتعلق بالزخرفة . الا أن هذه الارشادات ، التي كانت توضع في الهوامش ، قد اختفى معظمها مع الزمن ؛ ولكن (ليوبولد دوليسل) أتى على ذكر أمثلة كثيرة منها ، كانت كلها مقتضبة جدا (فهنا مثلا ، البابا على عرشه ، وهناك راهبان ، وهنالك امرأة على ظهر حصان ، الخ . . .) . عندئذ يبدأ رئيس الورشة عمله ويحدد بدقة أكبر المشاهد او الاشخاص المطلوب رسمهم . اذا كانت المخطوطة من النوع العادي ، فانه يكتفي أحيانا برسم مخطط سريع بالقلم الرصاص ، يساعد طلابه على صياغة المطلوب منهم ووضعه في المكان المناسب وفق قواعد مدروسة ومكررة آلاف المرات . وهكذا خرجت من مشغل المزخرف ، في مطلع القرن الخامس عشر وفي آن واحد ، تحفة في فن الرسم الفرنسي مثل « الساعات الهامة » ، أو « ساعات روهان » كما كانت تسمى ، بالاضافة الى اعمال كثيرة نفّذت على عجل ، يمكن أن نستخلص منها أسلوب المعلم وعاداته ، دون أن نستطيع التعرف على موهبته الحقيقية . عند انتهاء هذا العمل ، يبقى على عاتق اختصاصيين آخرين أيضا تنفيذ الارضيات اذا كان العرف « الموضة » يفرض على هؤلاء اللجوء الى تقنية خاصة ، كالارضية الذهبية السمراء مثلا ، وهل تزيّن أم لا بالاوراق المستديرة أو النقاط المتقطعة أو المربعات أو سواها ؟



ازاء تعدد هذه العمليات وتشعبها ، كان الناس ينوهون دائما بأن انجاز كتاب واحد كان يمثل بحد ذاته كتلة هائلة من العمل والجهد . ولا شك في أن لهذا الكلام ما يبرره ، ولكن من الانسب عدم تعميمه بشكل مطلق . فالكتاب الفخم ، الذي كان في الواقع تحفة فنية للنظر اكثر منه للقراءة (كالمجلدات الفخمة العائدة لدوق « بيري » الذي كان بلا جدال أكبر نصير للمكتبات في عصره) ؛ كان هذا النوع من الكتب يتطلب اشهرا بل سنوات من العمل ويكلف ثروات حقيقية . الا انه كانت تصنع في الفترة نفسها كميات من الكتب كان بعضها يزخرف ويزيّن ويباع في كافة

انحاء أوروبا ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وبأسعار معتدلة تتناسب حتى مع اكثر المستويات المادية تواضعا .

كانت صناعة هذا النوع من الكتب ، المسمى كتاب الساعة ، تشغل بعض الورشات دون سواها . وهنا أيضا وبشكل خاص ، تبتكر طرق متقنة لتقسيم العمل تسمح بكسب الوقت وتنفيذ انتاج مدروس وبالجملة. ففي منطقة « الفلاندر » خاصة ، كانت توجد عدة ورشات من هذا النوع ؛ وقد برهن السيد (دولاسّيه) على أن بعض المزخرفين كانوا يرسمون عددا كبيرا من المشاهد المتكررة التي تمثل الاعياد الدينيةالكبرى (كالميلاد والبشارة وغيرهما ...) ، بينما يقوم الخطاطون بكتابة تقاويم مختلفة حسب الابرشيات ، كانت تلحق فيما بعد بالاقسام « المشتركة » من كتاب الساعة .

قام المزخرفون أيضا بوضع وسائل تقنية تمكنهم من سحب عدة نسخ من نموذج معين . وقد برهن السيد (هنري مارتان) على انه تم ، منذ القرن الرابع عشر ، استخدام الورق الشفاف ذي المنشأ الصمغي ، الذي يسمح بسحب عدة نسخ عن نموذج أصلي واحد . ونحن نعرف انه كانت تحدث دائما خلافات ومشاحنات بين المزخرفين الذين يتهم بعضهم البعض الآخر بسرقة هذه النسخ الاصلية التي تعتبر أدوات ثمينة للعمل . لم يقتصر تطبيق هذه الوسائل على انتاج كتب الساعة فقط ، بل تعداها الى المجلدات الهامة الثمينة أيضا كالمخطوطة رقم (١١٧ــ١٢٠) من المكتبة الوطنية ، والمتضمنة احدى الملاحم « الارتورية » التي تعتبر نسخة طبق الاصل عن مخطوطة مكتبة « الارسينال » : سواء كان ذلك فيما يتعلق بعدد الصفحات وترتيبها ، او بالمصورات والرسوم ، اوبتطابق النصوص . وقد ادى اكتشاف حديث ، ظهر في هولانده على يد السيد (ليفتنيك) وقدمه السيد (ساماران) الى مؤتمر العلوم التاريخية عام ١٩٥٥ ،الى اعطاء فكرة عما كانت عليه القدرة الانتاجية للورشات التي كانت تلجأ الى مثل هذه الوسائل والاساليب ، ففي احدى المخطوطات العائدة لمكتبة جامعة (لايد) ، والمتضمنة مجموعة النصوص المعروفة

باسم (**المؤلفين الثمانية**) والمكتوبة عام ١٤٣٧ ، توجد توصية باللغة الفلمندية تقدم بها احد الخاصة (ومن المرجح أن يكون صاحب مكتبة يبيع بالجملة) الى رئيس مشغل للخطاطين لم يذكر اسميا . تتعلق هذه التوصية بعدد كبير من النسخ لنصوص مختلفة كانت تجمع فيكتاب صغير يستخدم في كليات الفنون : ٢٠٠ نسخة من كتاب « المزامير السبعة للتوبة » ، ٢٠٠ نسخة من « ديستيك كاتون » بالفلمندية ، ٤٠٠ نسخة من كتيّب الصلوات .

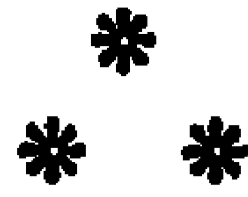
ان هذه الارقام المذهلة تمثل اذن طبعات حقيقية كاملة .

*

* *

هكذا ، منذ منتصف القرن الثالث عشر ، ولتلبية الاحتياجات المتزايدة ، اضطر النساخون لتطوير أساليبهم وتحسينها حتى توصلوا في بعض الحالات الى انتاج حقيقي بالجملة ، بفضل نظام « القطعة » Pecia ، نجحوا في مضاعفة المخطوطات الجامعية مع تجنب تشويه النصوص او التمادي في الاخطاء من نسخة الى اخرى . وبفضل التنظيم العقلاني للورشات الكبرى ، استطاعوا صناعة كميات اكبر من الكتب الوجيزة والدراسات الاولية والمؤلفات الادبية (من ترجمات او تحويل للاغاني الشعرية الى نثر او قصص غزلية) وخاصة كتب التقوى التي لم تكن تخلو منها اية اسرة بورجوازية لانها كانت تقدم كهديةللزواج. فكتاب (رحلة جون دي موندفيل) مثلا ، الذي انتهى عام ١٣٥٦ ، انتشر انتشارا واسعا على شكل **مخطوطات** ، قبل أن تصدر عنه عدة طبعات **مطبوعة** : فقد وصلتنا منه /٢٥٠/ نسخة بمختلف اللغات (٧٣ بالالمانية والهولاندية ، ٣٧ بالفرنسية ، ٤٠ بالانكليزية و ٥٠ باللاتينية) ، وذلك بالاضافة الى النسخ الاسبانية والايطالية والدانمركية والتشيكية والارلندية التي ظهرت جميعها تقريبا منذ مطلع القرن الخامس عشر . وخلاصة القول اذن ، أن عمل النساخين كان تمهيدا لمجيء عمال الطباعة. وهكذا نستنتج أنه ، عشية ظهور الطباعة ، كانت هناك حاجة متزايدة

الى الكتب بدات تظهر وتنتشر بين طبقات اجتماعية تزداد اتساعا ــ وخاصة البورجوازيون والتجار ــ الذين كانوا في النصف الاول من القرن الخامس عشر الاداة الاساسية لكثير من الانقلابات التقنية والمستفيدين الرئيسيين منها ، كاختراع الفرن العالي وغيره ... أما الطباعة ، التي تعتبر تقدما تقنيا بصورة أساسية ، فستكون لها في البداية انعكاسات غير متوقعة . لذلك كانت الغاية من الصفحات التالية هي اظهار كيفية انجاز هذا الاختراع العظيم وما استطاع أن يقدمه متجاوزا هدفه الأولي .



الفصل الأول

ظهــور الورق في اوروبا

لماذا ظهرت الكتب المطبوعة الاولى في أوروبا الغربية حوالي منتصف القرن الخامس عشر ؟ لماذا بدأ الباحثون المنعزلون ، في القسم الاول من هذا القرن نفسه ، وفي كل مكان تقريبا من « أفينيون » الى « مايانس » ومن « هارلم » الى « ستراسبورغ » ، بالسعي الحثيث والتفنن لحل المسائل المتعددة التي كانت تطرحها اعادة نشر المخطوطة وسحب عدة نسخ عنها بطريقة آلية ؟

هل كانت الاسباب فكرية ؟ لا شك في أن رجال مطلع القرن الخامس عشر ، وخاصة القراء الكبار المنشغلين دائما بالبحث عن النصوص التي أصبحت نادرة ومبعثرة في المكتبات ، كانوا جميعا يحلمون بطريقة تمكنهم من سحب عدة نسخ عن كتاب واحد بأقل التكاليف ؛ لولا ذلك لما كانت الطباعة ولما فكر احد في حل هذه المسألة . من المؤكد ، في مطلع القرن الخامس عشر وبينما كانت تطل على العالم تباشير الكثير من التبدلات ، كانت الجهود تبذل باستمرار من أجل التوصل الى انتاج نسخ بالجملة وطبق الاصل عن بعض المخطوطات تلبية للحاجات المتزايدة . الا أن تشكيل الجامعات قد أدى ، منذ القرن الثالث عشر ، الى الشعوربالحاجة لامتلاك عدد أكبر من المخطوطات ؛ ولم يكن تجدد الآداب قد تسبب آنذاك

سوى ببعض التحسينات في التفاصيل : كتبني الاختصارات المتطورة وتنظيم أسلوب « القطعة » ، الذي كان يسمح للنساخين بالعمل بصورة أسرع وعدم تجميد سوى دفتر واحد من المجلدات المطلوب نسخها من جديد . الا أنهم استمروا بالكتابة باليد : اذ لم يكن الغرب يمتلك بعد كافة الموارد الضرورية لتبني اسلوب الانتاج الآلي .

ما هي في الواقع هذه الموارد ؟ ان تفكيرنا يتجه مباشرة الى الاحرف المتحركة . فصناعة هذه الحروف كانت تتطلب صنع **مثقب** (منقش) من معدن صلب ، ثم الحصول على **قالب** بضرب هذا المنقش بدقة كافية على كتلة من معدن أقل صلابة ؛ ثم القيام أخيرا ، بواسطة هذا القالب ، بصب الحروف المصنوعة من مزيج مناسب : تفسر لنا كل هذه العمليات لماذا انطلق هذا الفن الجديد من أوساط الصاغة في منتصف القرنالخامس عشر . الا أنه لم يكن هناك ما يمنع انطلاق هذا الفن قبل ذلك بقرن . كذلك يمكن ان نقول الشيء ذاته بالنسبة للطباعة نفسها : اذ ان كافة العمليات التي يغطيها ويتضمنها هذا التعبير من جمع للحروف أو تحبير أو استخدام للآلة الطابعة ، كان من الممكن انجازها قبل (غوتنبرغ) بزمن طويل . الا أن الامر الهام لم يكن يكمن في هذه النقطة بالذات .

فما نسميه الآن « بالصناعة المطبعية » ـ وهو تعبير تبرره مكننة الطباعة اعتبارا من مطلع القرن التاسع عشر ـ كانت ، منذ ولادتها بشكل حرفة أو صناعة حرفية ، مرتبطة بمادة أولية لا يمكن أن تنفع بدونها : وهي **الورق** . اذ ما هي الفائدة التي يمكن توخيها من طباعة اللوحات الاولية ، أو المؤلفة من حروف متحركة ، لو لم نكن نملك آنذاك من أجل الطباعة سوى الجلود التي لا تتقبل الحبر الا بصعوبة بالغة ، والتي كان بعضها فقط (وهو الاكثر ندرة والاغلى ثمنا ونقصد به جلد العجل الذي يولد ميتا) على درجةكافية من التسطح الاملس والمرونة لكي يمر بسهولة وبسر تحت المطبعة . فلا شك اذن في أن اختراع الطباعة كان سيظل

عديم الفعالية لو لم يصلنا الدعم الجديد للفكر ، وهو الورق ، من الصين **عن طريق العرب** ، فينتشر في أوروبا منذ قرنين لكي يعم استخدامه في نهاية القرن الرابع عشر .

١ ـ مراحل صناعة الورق

في القرن الثاني عشر ، ظهر في ايطاليا هذا النوع الجديد من « الرق » الذي كان يأتي به التجار المتعاملون مع العرب . ولا شك في ان الورق هذا لم يكن يتصف بنفس السمات الخارجية للرق : فقد كان أكثر رقة كما كان ذا مظهر قطني (حتى أن الناس ظلوا فترة طويلة يعتقدون بأنه مصنوع من القطن) ، علاوة على ضعف تماسكه وسهولة تمزقه . لذلك لعب في البداية دور « البديل » المتواضع الا أنه مع ذلك كان مقبولا بل ملائما ومتهاودا في بعض الحالات : وخاصة عندما لا يكون المستند المكتوب معدا للبقاء مدة طويلة (كالرسائل والمسودات) . وهكذا لم يتردد كتّاب العدل بمدينة جنوة في استخدام دفاتر من الورق الابيض من اجل سجلاتهم ، حتى انهم كانوا يستخدمون أحيانا المخطوطات العربية القديمة فيكتبون على هوامشها .

لذلك لم تلبث طرود الورق ان بدأت تنهال على المرافيء الايطالية . وقد استخدمت هذه المادة الجديدة احيانا في بعض الدوائر الرسمية ، الا أن الخشية من تمزق هذه المادة المجهولة ذات المظهر السريع العطب ، دفعت الملوك الى منع استخدامها في كتابة المواثيق والقوانين : حيث أمر الملك (روجيه) ، منذ عام ١١٤٥ ، بأن يتم نقل كافة الشهادات ، المسجلة على الورق في عهد اسلافه، الى الرق وتتلف النسخ القديمة . وفي عام ١٢٣١ ، حظر الامبراطور (فريديريك الثاني) استخدام الورق في صياغة الاحكام والمراسيم العامة .

*
* *

على الرغم من اوامر الحظر هذه ، ظل الورق يحقق مزيدا من التقدم ويكسب المزيد من الارض . فقد تشكلت مراكز لصناعة الورق في ايطاليا نفسها ؛ ومنذ مطلع القرن الرابععشر ، انتشر الورّاقون حول (فابر يانو) حيث استجد حدثان ساعدا على تطور هذا المركز الاول وتوسعه ، حدثان سيسهلان انتشار الصناعة الورقية في جميع أنحاء أوروبا الغربية .

الحدث الاول تقني : فمنذ القرن الحادي عشر ، ومن المحتمل ان يكون قبل ذلك ، ظهرت فكرة تزويد الطواحين « بروافع » تحول حركتها الدائروية الى حركة متناوبة . كان هذا الاختراع مصدر العديد من الثورات الصناعية ؛ وقد سمح تطبيق هذا المبدأ من قبل وراقي (فابر يانو) باستبدال الرحى القديمة ، التي كان يستخدمها العرب لسحق الخرق البالية ، بمطارق خشبية كانت تحسن المردود مع تخفيض سعر الكلفة والمساعدة على انتاج ورق من نوع أكثر جودة .

اما **الحدث الثاني** ، فهو انتشار زراعة القنب والكتان في أواخر القرون الوسطى ، والاستعاضة عن الصوف بالنسيج الكتاني بالنسبة للالبسة الداخلية ، الامر الذي سيجعل الخرقة البالية اقل كلفة وأكثر توفرا .

وهكذا ، وبسبب هذه التسهيلات ، لم تلبث اعمال ورّاقي (فابر يانو) أن ازدهرت وأخذت ابعادا هائلة . فمنذ عام ١٣٥٤ ، لاحظ رجل القانون المشهور (بارتول) نشاط هذه « المدينة النبيلة » ، على حد تعبيره ، حيث تصنع أفضل أنواع الورق ؛ اذ أن الحاجة الى تحسين النوعية والمردود قد دفعت عمال (فابر يانو) للبحث سريعا عن افضل السبل للتطوير . فهم ليسوا الاوائل في استخدام المطارق بدلا من الرحى فحسب ، بل هم الذين قاموا أيضا بتحسين طرق اللصق واستعاضوا عن الصموغ النباتية المستخدمة من قبل الشرقيين ، والتي كانت تضفي على الورق مظهرا قطنيا ، بالجيلاتين والصموغ الحيوانية ؛ وهم الذين

بذلوا الجهود الحثيثة والعناية الكبرى بأعمال الصقل والتلميع التي كان يقوم بها عندهم عمال متخصصون . كما كان كل صناعي يسعى جاهدا لتمييز انتاجه بواسطة « فتيلة معدنية » خاصة به ، ثم ما لبث هـذا الاسلوب أن اعتمد في أوروبا كلها للدلالة على جنسية هذه المادة الجديدة.

منذ مطلع النصف الثاني من القرن الرابع عشر ، بدأ الورّاقـون يشعرون بالضيق داخل (فابر يانو) وبالحاجة للانطلاق والتوسع خارجها، فأخذوا يستقرون في كل من «فولتري» و «باردو»و«تريفيز» و «جنوة» ، فشكلوا بصورة مبكرة جدا مركزين كبيرين في « ليغوري » حول جنوه ، وفي ولايات « فينيسيا » حول بحيرة « غارد » . الا أن بعض التجار الايطاليين ــ وخاصة اللومبارديين ــ تكفلوا بنشر البضاعة الجديدة في كافة انحاء أوروبا . قام السيد (بريكيه) ، في مؤلفه الرائع عن « الفتائل المعدنية » ، بالكشف مثلا ، بين عامي ١٣٦٢ ــ ١٣٨٦ ، عن وجود ورق ذي فتيلة معدنية (كانت عبارة عن رمز يمثل نسرا محاطا بهاله) ، ليس في ايطاليا فقط ، بل في اسبانيا أيضا وفرنسا وسويسرة وحتى في هولاندة وبلجيكا . وفي الفترة نفسها ، حوالي عام ١٣٦٥ ، ورد في صحيفة أحد ورّاقي (فابر يانو) ، ويدعى « لودوفيكو دي امبروغيو » ، ان هذا الاخير كان يصرف بضاعته عن طريق « فانو » و « بيروز » ؛ كما كان يقوم ، عن طريق مرفأ صغير من الساحل التوسكاني ، « تالامون » ، بارسال بعثات الى فينيسيا واخرى عن طريق Aigues-Mortes الى « مونبلييه » . ففي ٢٣ تشرين الثاني ١٣٦٥ مثلا ، ارسل الى هذه المدينة الفرنسية عشرين طردا من الورق تزن / ١٣٣٣ كغ / ، بينما أرسل خلال ثـلاث سنوات ونصف ، عن طريق «تالامون» ،/٢٤٠٠/ طردا أي /١٤١٧٥ كغ/.

منذ تلك الفترة ، بدأ الورق يحل اذن محل الرق في كل مكان تقريبا. فخلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، بدأ استخدامه في السجلات جنوب فرنسا (١٢٤٨ سجلا لكتاب العدل المرسيليين ؛ ١٢٤٨ سجلا

للمحققين في « لانغدوك » ؛ ١٢٤٣ ـ ١٢٤٨ سجلا لمحققي « الفونس دي بواتييه » ؛ ١٢٧٢ ـ ١٢٧٤ سجلا للمحققين الملكيين في « Toulousain » . في نهاية القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر ، أصبح استخدام الورق شائعا في سويسرة ، كما بُدىء بتبنّيه تدريجيا في شمال فرنسا ؛ وفي عام ١٣٤٠ ، بدأ الخطاطون الملكيون باستخدام سجل من الورق مازال محفوظا حتى اليوم في « خزينة المواثيق » . كذلك انتشرت هذه المادة الجديدة ، في الوقت نفسه ، في هولانده والمانيا الشمالية بينما كان التجار الفينيسيون (من فينيسيا الايطالية) قد نشروا استخدامها في الجنوب منذ مدة طويلة .

*

* *

بالاضافة الى ماسبق ذكره ، بُدىء بصناعة الورق خارج ايطاليا . فقد رغب التجار الايطاليون المقيمون في المهجر بزيادة وتوسيع تجارتهم واعمالهم . فلم يترددوا ، ازاء الطلبات المتزايدة ، في استحضار التقنيين الاوائل من بلادهم من اجل تعليم المهنة . ومنذ القرن الرابع عشر ، بدأت المطارق والمدقات تظهر في منطقة « Troyes » وحول باريس وفي « كورباي » و « اسّون » و « سان ـ كلو » ، وما كاد القرن الخامس عشر ينتصف حتى كانت فرنسا مكتفية ذاتيا ، وحتى بدات منطقة « شمبانيا » تستعد لتصبح بدورها مركزا للتصدير . أما ايطاليا ، فقد استمرت في تغذية اسبانيا وانكلتره وهولانده والنمسا والمانيا حيث بدأت الطواحين تعمل مثل سويسره . من المؤكد انه لم يكن يوجد بعد في بلد (غوتنبرغ) سوى عدد قليل من هـذه الطواحين عندما تم اكتشاف الطباعة ؛ الا أنه كانت هناك مستودعات من الورق الايطالي في كافة المراكز الكبرى . واكثر من ذلك ، زالت وتبددت كافة التحفظات على الورق منذ اكثر من نصف قرن . ولكن مع ذلك ، فقد ظلت المخطوطات ردحا طويلا من الزمن تنسخ على الرق من قبل الطلاب والنساخين . لاشك في أن هذا كان يجري بفعل الروتين وبدافع من الرغبة في استخدام مادة

متينة ومختبرة لضمان أكبر حظ ممكن للنصوص من البقاء . ولاشك ان هذا ما كان يراود ذهن السيد (جير سون) عندما نصح ، عام ١٤١٥ ، بعدم استخدام الورق في كتابة النصوص لانه أقل متانة وديمومة من الرق . الا ان الورق كان قد كسب المباراة ، وبدأ استخدامه يعم في كتابة المخطوطات . وهكذا تحقق أحد الشروط الضرورية لانتشار الكتاب المطبوع .

٢ـ شروط توسع المراكز الورقية :
(الشروط الطبيعية والصناعية)

قبل التوغل اكثر من ذلك ودراسة تشكيل المراكز الورقية الكبرى المكلفة بتغذية المطابع ، والتأثير الذي خلفه توزيع هذه المراكز على توزع الورشات الطباعية وبالتالي الدفع الذي اعطاه الفن الجديد للصناعة الورقية ، لنتوقف قليلا عند دراسة الشروط الضرورية لظهور المركز الورقي .

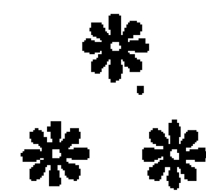
لنستعرض أولا كيف كان يصنع الورق بالضبط : في الواقع ، لم تتطور التقنية مطلقا منذ القرن الرابع عشر وحتى القرن الثامن عشر ؛ وقد كان استبدال المطارق بالاسطوانات (اعتبارا من نهاية القرن السابع عشر) ، هو العامل الوحيد الذي ادخل تغييرا ملحوظا على بعض المؤسسات الكبرى . اما المادة الاولية ، وهي الخرقة البالية ، التي تجمع من قبل تجار متخصصين ، فكانت تجلب الى مقربة من الطاحونة حيث يجري فرزها وانتقاء الافضل منها . فللحصول على ورق من النوع الجيد (وعلى الاخص ورق الطباعة) ، لابد من ان تكون الخرقة بيضاء وخالية من اي جسم صلب .

بمجرد انتهاء عملية الفرز هذه ، تأتي عملية « نقع الخرق » ، حيث توضع الخرق ، الممزقة الى قطع صغيرة ، داخل اماكن خاصة كالاقبية بشكل عام ، ثم تترك حتى تتخمر ؛ عندئذ يبدأ الشحم بالزوال وينعزل

« السلثولوز » بالتدريج . هنا تؤخذ هذه المادة الى الطاحونة ، التي كانت غالبا من الطواحين المائية المستخدمة سابقا في طحن القمح قبل استخدامها في صناعة الورق . الا ان محور هذه الطاحونة يزوّد « بروافع » خاصة ، وهي عبارة عن قطع صغيرة من الخشب ، مهمتها ان تقوم ، عن طريق الرفع ، بتشغيل المطارق والمدقات التي تتحرك داخل أوعية خاصة من الخشب (المفاسل) حيث توجد الخرق البالية . كذلك تزوّد المطارق والمدقات بمسامير وشفرات في « مفاسل التصفية » وليس في « مفاسل القحط » .

وهكذا تسحق الخرقة في ماء الصابون المعيَّر بعناية للحصول على معجون ذي كثافة مناسبة ، وهو معجون الورق ، الذي يوضع داخل وعاء مملوء بالماء الساخن بدرجة حرارة معينة . هنا يوضع ما يسمى « بالقالب » وهو عبارة عن هيكل من الخشب مزوّد بشبكة لها خيوط من الشَّبَه تسمح بتسرب الماء وتحتفظ بالمعجون . يحرك القالب باستمرار لكي يظل المعجون موزعا بالتساوي . عند بداية الجفاف ، تسحب الورقة ، التي حصلنا عليها بهذا الشكل ، من القالب وتنشر فوق قطعة من اللبّد (اللبّاد) لكي تمتص منها الماء . عندئذ ، يتم تكديس الاوراق وقطع اللبّد وتوضع تحت مكبس يعمل على اخراج الماء . تكرر هذه العملية الاخيرة عادة عدة مرات ، ثم توضع الاوراق فوق « المنشر الصغير » حيث تترك لتجف في الهواء الطلق . الا أننا لواستخدمنا الاوراق وهي على هذه الحالة ، لامتصّت الحبر . لذلك بقي علينا اذن تغطيتها بنوع من الصمغ يكسبها مظهرا أملس ناعما .

وهكذا تنشر الاوراق مرة ثانية فوق « المنشر الكبير » لتجف ، ثم تبدأ عملية الصقل والتلميع بواسطة الصوان (المظرّة) . بعد ذلك تجمع الاوراق بشكل رزم تتألف كل منها من خمسة وعشرين ورقة ثم على شكل مواعين يضم كل ماعون عشرين رزمة ، وتغادر الطاحونة لتسلّم للمستهلك .



لصناعة الورق ، كان يلزم كثير من الماء النقي ، سواء لتشغيل المطارق أو لسحق المعجون . واذا صدقنا ما قاله السيد (بريكيــه) ، فان الكليلو غرام الواحد من الورق كان يتطلب حوالي (٢٠٠٠) لتر من الماء . كما ذكر اختصاصي آخر هو السيد (جانو) ، بانه مازال يلزم حتى الآن حوالي (٢٠٠،٠٠٠) لتر من الماء لصناعة (٣٠٠) كغ من الورق في السباعة ، اي في حدود (٧٠٠) لتر للكيلو غرام في الساعة .

يجب أن تلبي هذه المياه بعض الشروط التي لا غنى عنها ؛ اذ أن بعض الانهار مثلا لم تسمح مطلقا للطواحين القائمة على ضفافها بتحقيق انتاج مناسب ، لانها كانت تصبغ الورق باللون الاسمر بشكل واضح : وهذه هي حال المياه المثقلة بالحديد أو بالطين أو الطحالب أو الرواسب العضوية . لذلك كان من المفروض مبدئيا أن تكون المياه صافية ونقية ، الامر الذي كان يحدو بالوراقين الى اقامة طواحينهم اعلى من المدن وليس اسفل منها ، وذلك تجنبا لتعكر المياه وتلوثها . وهذا هو ولاشك سبب وجود الطواحين حتى اليوم ، على المجرى الاعلى للانهر الكبرى أو على المجرى المتوسط لروافدها . هذا بالاضافة الى أن المياه تستخدم كمحرك للطواحين ، لذلك فان اقامة هذه الاخيرة على المجرى الاعلى للنهر ، والذي يكون عادة ضيقا ومتعرجا ، تسمح بحصر المياه بصورة مباشرة أو بتشكيل قناة فرعيــة خاصة (بواسطة حبل يشدّ قوسا) . كما نلاحظ من جهة اخرى ، ان أولى المراكز الورقية الكبرى ولدت غالبا في مناطق كلسية ، بينما تعتبر المياه الكلسية في عصرنا الحاضر غير مناسبة لصناعة الورق . الا انهم كانوا يفضلونها على علاتها ، لانها توفر الصفاء والنقاء أكثر من سواها .

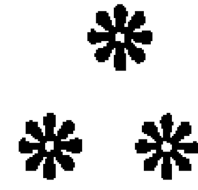
في الواقع ، كان هناك الكثير من مجاري المياه التي تجمع بين الشروط الضرورية لاقامة طواحين الورق . ففي فرنسا ، توجد مراكز هامة عند حدود المناطق الجبلية : في « الاوفرني » ، تيير ، أمبرت وشامالبير ؛ وكذلك في جبال الفوج حول « سان ــ دييه » و « ايبينال » ؛ ثم في « انغوموا » وفي سهول شمبانيا .

كانت هناك مسألة اكثر أهمية واشد مدعاة للقلق بالنسبة للوراقين القدامى وهي مسألة الخرق البالية : اذا ان صناعة الورق المناسب كانت تتطلب جمع كمية كبيرة من هذه الخرق او من الحبال البالية ، مما كان يدفع الوراقين للاقامة بالقرب من المراكز السكنية ؛ كما كانوا يقيمون أحيانا في المرافىء التي تسمح بتصدير البضاعة والتي توفر لهم الكميات المناسبة من الحبال ايضا كمرفأ « جنوه » على سبيل المثال . كذلك لم يكن من قبيل المصادفة أن نرى الكثير من المراكز الورقية تقام في المناطق التي كانت تشتهر بصناعة النسيج . وهكذا نجد من جملة المناطق المناسبة : الفوج ، حيث تتوفر الشروط الطبيعية لاقامة « المحاضج » (أي اماكن ضرب الخرق بالمطارق الخشبية) ؛ وكذلك منطقة « شمبانيا » ثم منطقة « دوفينية » ، حيث ساعدت زراعة القنب وتطورها خلال القرن الثامن عشر على توسع الصناعة الورقية حول كل من : بورغوان ، سان — جان — آن — روايان ، تولان ، دومان وبيروس .

الا انه كلماتوسع احد المراكز الورقية وتطور ، كانت الخرق تصبح اكثر ندرة ، الامر الذي كان لابد معه من التفتيش عنها في مكان آخر . من هنا برزت اهمية « لامي الخرق » (جامعي الخرق) ؛ وقد كانت مهنة جمع الخرق هذه مريحة جدا اعتبارا من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر . ففي منطقة « الفوج » كانت عملية الجمع تتم من قبل اللاميين الذين يدفعون ثمن الخرق البالية بالدراهم او الدبابيس (١٥٨٨) ، وفي وقت لاحق بالاواني الصينية المزخرفة ؛ لقد كانوا يعملون عادة لحساب بعض التجار المقيمين بالقرب من المحاضج ، والذين كانوا يعمدون الى اجراء فرز سريع للخرق قبل بيعها . كان البحث عن الخرق يجري في البداية في المناطق المجاورة ، ثم في المناطق الابعد وفق الحاجة : اذ كانوا يصلون ، منذ عام (١٥٧٦) ، حتى مدينة (ميتز) و (Pecia) و (بورغونيا) . وفي منطقة (تولوز) : استطاع (انطوان دي لو غير يار) أن يبيع ، خلال الثلث الاول من القرن السادس عشر ، مئات القناطير من الخرق البالية ويجمع من ذلك ثروة

طائلة . كذلك كان الكثيرون من صانعي ورق اللعب جامعين للخرق في آن واحد .

الا ان المقصود هنا هي المراكز الصناعية القليلة الاهميــة . ففي (تروي) ، يبدو ان بعض التجار كانوا يصلون الــى اسواق شمبانيا بعربات ملآى بالخرق . وعندمــا تطور المركز الاوفرني ، نقلت أجود الخرق ــ خرق بورغونيا ــ عن طريق نهر « السون » حتى مدينة (ليون)، حيث كانت العربات تأتي لاخذها ، بينما كانت عربات (أوفرني) ، وحتى عربات (فوريز) ، تجمع الخرق البالية من (فيلاي) ومن (نيفرنيه) .



لضمان العثور على المادة الاولية اللازمة ولمنع جامعي الخرق من فرض شروطهم الجائرة ، كان الوراقون يلجؤون في الغالب الى الدولــة ويطالبون بمنحهم الامتيازات من أجل جمع الخرق . منذ عام ١٣٦٦ ، استطاع وراقو (تريفيز) الحصول على امتياز مماثل من مجلس شيــوخ (فينيسيا) . وفي عام ١٤٢٤ ، استطاع صناعي من (فابر يانو) ، كان يعمل في جنوة ، الحصول على امتياز لشراء الحبال القديمة ؛ وفي جنوة أيضا ، عند منتصف القرن الخامس عشر ، اشتكى الوراقون من وضعهم تحت رحمة ووصاية جامعي الخرق ، ورفعوا دعوى عليهم . في سويسرة ، عندما توسعت المحاضج في منطقة (بال) ، وجب اتخاذ تدابير مماثلــة لحماية الانتاج المحلي ، فقررت الدولة انه لا يجوز ، خلال الـ ٢٤ ساعة التي تعقب البيع ، أن تباع الخرق البالية الا لسكان (بال) دون سواهم . وعندما ظهرت الصناعة الورقية في المانيا ، جرت العادة على تحديد منطقة صغيرة حول كل مركز واعطاء صانعي الورق امتيازات محلية ؛ ففي عام ١٦٢٢ مثلا ، خصصت كل الخرق التي جمعت في بلاد (البريم) للطواحين المحلية دون سواها .

ظهر النقص واضحا في فرنسا بصورة متأخرة عن البلدان الاخرى ، الا انه كان اشد حدة واكثر خطورة . ويبدو أن انحدار الصناعة الورقية

في منطقة (تروي) عند نهاية القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر ، كان يعزى أساسا الى ازمة نقص المادة الاولية . وفي عام ١٦٧٤ ، استبد القلق بـ « كولبرت » من جراء تدهور الصناعة الورقية الفرنسية، الا أنه لمس المشكلة دون ان يقدم لها الحل المناسب والعلاج الشافي ، فاكتفى بمجرد منع صناع الورق من أن تكون لديهم أحواض مملوءة دائما بالخرق . وفي القرن الثامن عشر ، بدأ الناس يكتبون ويقرؤون أكثر فأكثر من الازمة الجديدة . ففي منطقة (أوفرني) خاصة ، بلغ النقص في الخرق درجة تم معهاحظر اخراج الاعلام القديمة بين عامي ١٧٣٢–١٧٣٣؛ بل ذهب الامر الى ابعد من ذلك عام ١٧٥٤ ، حيث منع جامعو الخرق من اقامة مستودعات بالقرب من المرافىء والحدود ، وذلك تجنبا لاحتمالات تصدير الخرق او تهريبها .

*
* *

عندئذ بدأ الناس يدركون انه لا بد من ايجاد حلول جديدة لتجنب هذه الازمات المزمنة . فمنذ عام ١٧١٩ ، كان (رايومور) قد اشار ، في اكاديمية العلوم ، الى امكانية صناعة الورق من الخشب . وفي الفترة من عام ١٧٢٧ – ١٧٣٠ ، قام الالماني (بروكمان) بطبع عدة نسخ من كتاب « **عظائم الله في الامكنة الجوفية** » على ورق من هذا النوع . وفي عام ١٧٤١ ، بدأ السيد (جان – ايتيان غيتار) ، أحد أعضاء أكاديمية العلوم ، بتجارب على الانواع المختلفة التالية : النخيل ، الحلفاء اللازبة ، الصبر ، القراص ، التوت والضريع ؛ كما قام الانكليزي (جون سترانج) والساكسوني (شافر) من جهتهما ، بأبحاث مماثلة . وفي عام ١٧٨٦ ، قام كل من (ليوريبه – دي ليسل) و (دي لانفليه) بنشر اعمال المركيز (دي فيات) عن ورق « الخطمي » (وهو جنس نبات من فصيلة الخبازيات) ؛ أما في انكلترة فقد جرت ، بين عامي ١٨٠١ و ١٨٠٤ ، عدة محاولات لتصنيع وسائل من هذا النوع . الا أن كافة هذه الجهود لم تكن سوى اعمال طلائعية رائدة . ومن المؤكد انه تمت ، خلال الثورة الفرنسية ، ممارسة استخدام واسع للاوراق القديمة ، وهذا احد أسباب اتلاف واختفاء الكثير من أرشيفنا القديم .

في عام ١٨٤٤ ، قام المجلد.(غوتليب كيلر) بمزج معجون ميكانيكي خشبي بمعجون الخرق ؛ وفي عام ١٨٤٧ ، حصل (والتر) على شهادات عملية وامتياز خاص لتطبيق هذه الطريقة . وفي عام ١٨٦٠ ، اعتمد القش نهائيا وبشكل اجماعي كواسطة لصنع ورق الصحف بدلا من الخرق .

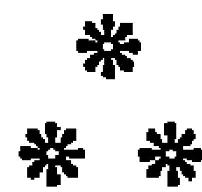
وهكذا ، من القرن الرابع عشر حتى القرن التاسع عشر ــ وطيلة بقاء الخرق كمادة أولية أساسية للورق ــ ظلت المراكز الصناعية الكبرى مهددة دائما بأزمة في المادة الاولية . ففي (تروي) و (فينيسيا) ، في القرن السادس عشر ، وفي (أوفرني) و (انغوموا) في القرنين السابع عشر والثامن عشر ،وأمام الزيادة المستمرة في الطلب ، وجد الوراقون انفسهم مضطرين للتضحية بالنوعية لصالح الكمية : فهم ملزمون باستخدام الخرق الرديئة وبالتالي انتاج ورق أقل جودة . لذلك كان الزبائن يتذمرون ويتوجهون الى مصادر أخرى . هذه صورة مقتضبة عن تطور انتشار الصناعة الورقية التي كانت تسيطر عليها ، جزئيا على الاقل ، مسألة المادة الاولية .

٣ ــ الشروط التجارية

هكذا رأينا انه ، من القرن الرابع عشر حتى القرن السابع عشر ، بدأت مصانع الورق تتكاثر لتلبية الحاجة المتزايدة ؛ وبينما كان النقص في المادة الاولية يحد من تطور وتوسع المراكز الكبرى ، كانت هناك مؤسسات جديدة تقام بدون انقطاع في مناطق ما زالت حتى ذلك الحين تجهل فن صناعة الورق ؛ ولكي تتمكن هذه المراكز من تصريف انتاجها بسهولة ، كانت تقام بشكل دائم تقريبا عند مفارق الطرق التجارية وقرب المراكز الكبرى للاستهلاك اذا أمكن .

هنا أيضا ، لعب الايطاليون في البداية دورا أساسيا بفضل رؤوس اموالهم ومعارفهم التقنية . فمنذ نهاية القرن الخامس عشر ، لم يعد الانتاج الايطالي يكفي حاجات الدول المجاورة ، كما أن النقل كان يرخي

بثقله على أسعار هذه البضاعة الثقيلة التي كانت تتنقل بين ثلاثة أو أربعة أياد قبل تسليمها للزبون الفرنسي أو الالماني ؛ لذلك قام التجار « اللومبارديون » المقيمون خارج ايطاليا ، وخاصة في فرنسا وسويسرة والمانيا ، بتمويل عملية تحويل مطاحن القمح في تلك البلدان الى مطاحن ورق بالقرب من مراكز الاستهلاك ، مستقدمين من بلدهم العمال اللازمين لتعليم هذه التقنية الجديدة . وهكذا قام شخص من مدينة (فلورنسا)، عام ١٣٧٤ ، باقامة طاحونة « كاربنترا » ، كما قام تجار من أصل ايطالي، بجلب عدد من صانعي الورق من منطقة (بنيورول) لتشغيل المحاضج حول مدينة (أفينيون) الفرنسية خلال الثلث الاول من القرن الخامس عشر . وفي بعض الاحيان ، كان تجار محليون يستقدمون عمالا ايطاليين : ففي عام ١٣٩١ مثلا، قام (أولمان سترومر) ، وهو بورجوازي من نورمبرغ، بتحويل طاحونة (غلايسمول) للقمح ، وعهد الى ثلاثة من الايطاليين وهم : « فرانسوا دي مارشيو » وشقيقه « مارك » وأحد الخدم ، بتعليم الالمان كيفية صناعة الورق . وفي اغلب الاحيان أيضا ، كان بعض كبار رجال الدين يهتمون بالصناعة الجديدة : ففي عام ١٤٦٦ ، سمح (جان دي جوفروا) ، أسقف (لوكساي) ، لاثنين من البيمونت بالتمركز على (بروشين) ، أ حد روافد نهر (لانترن) ، لقاء أجر سنوي مقداره أربعة مواعين من الورق ؛ وقبل عام ١٤٥٥ ، قام مجلس كهنة (سان ـ هيلار دانغويم) بتحويل بعض طواحين الحبوب العائدة له الى مراكز لصناعة الورق . كما أن الجامعات ، التي كانت ترغب في الحصول على الورق بكلفة أقل وكمية كافية ، اخذت بدورها تشجع اقامة طواحين الورق . ويعود الفضل في انشاء محاضج كل من كورباي ، ايسون ، سان ـ كلو ، وخاصة حول (تروي) ، الى جامعة باريس .



Chartarius. Der Papyrer.

Ex vetulis pannis tenuem contexo papyrum,
Vertitur in gyros dum mola scabra suos.
In tabulis olim sua scripsit verba vetustas,
Quas rudis ex cera dextra liquente dabat.

J'ai un poème latin par les jésuites Imberd, intitulé: Papyrus sive ars conficiendae papyri. Claromonti, 1693.



Cum mera simplicitas aevo rarissima nostro,
Et merus in terris scribere iussit amor.
Principibus nostris vix sufficit aurea charta,
Sit licet aurata saepe notata manu.
Fama vetus nulli certos adscripsit honores,
Istius inventor qui prior artis erat.

C 4 Concin-

... Les bons livres consomment peu de papier.... l'ab. Desfontaines. 460. — tome 31. page 229. 1743.

Ger. Meerman et doctorum virorum ad eum epistolae de chartae vulgaris seu linea origine. Hagae-Comitum. 1767, in 8°. Meerman avait proposé un prix pour le meilleur mémoire sur l'époque précise de l'invention du papier de chiffes.

... Qui croiroit que des chiffons, des puans et pourris haillons cueillis dans la boue et parmi les fumiers, dont on fuse après pilez,

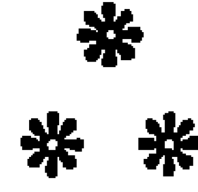
(صناعة الورق بريشة « هارتمان شوبفر »)

ان تاريخ المحاضج (Battoirs) التي كانت تغذي باريس معروف بصورة جيدة بفضل الاعمال التي قدمها كل من (ستان) و (دي لوكلير)؛ فهو يبين لنا كيف أن منطقة مجاورة لمركز استهلاك هام كباريس ، ومفترق طرق تجاري معروف كمدينة (تروي) ، ساهمت في توسيع صناعة قوية نريد أن نتوقف عندها ونلح عليها على سبيل المثال .

منذ منتصف القرن الرابع عشر ، استطاعت جامعة باريس ، التي ترغب في التزود بالورق بسعر مناسب ، أن تحصل من (جون لوبون) على الحق في اقامة مصانع ورق ، في كل من « ايسون » و « تروي » ، يعفى أصحابها من الضرائب والرسوم باعتبارهم تابعين للجامعة . منذ ذلك الحين ، بدات طواحين الورق تتكاثر حول باريس ؛ فقد أنشىء مركز كبير قرب (كورباي) و (ايسون) ، كما قام عام ١٣٧٦ ، وفي منطقة اقرب الى باريس (وهي سان ــ كلو) ، بورجوازيان من العاصمة نفسها ، بموافقة خاصة من أسقف المدينة ، بتحويل طاحونة كبرى الى مركز لصنع الورق واي استخدام آخر باستثناء طحن الحبوب .

الا ان الورق المستخدم في باريس كان يأتي من (تروي) بشكل خاص. وكان التجار الايطاليون قد قاموا بشكل مبكر جدا بنقل الورق الىأسواق شمبانيا . لا شك في ان هذه البضاعة كانت تصل الى هناك عن طريق نهري السون والرون . كما يمكن نقلها بعد ذلك بسهولة ، عن طريق نهر « السين » وروافده ، الى باريس والى المرافىء ، ثم من هناك الى انكلتره. كذلك كانت العلاقات وطيدة من جهة ثانية بين (تروي) ومنطقة(الفلاندر)، حيث كانت منطقتا (بيكاردي) وشمبانيا مشهورتين بانتاجهما من خيوط القنب . على ضوء هذه الشروط ، لا يمكن أن نستغرب ظهور أعداد كبيرة من طواحين الورق ، المقامة احيانا برؤوس اموال ايطالية ، على ضفاف السين وروافده . ومنذ نهاية القرن الخامس عشر ، بدات منطقة (شمبانيا) تزود بالورق قسما من أوروبا الشمالية . هنا أيضا ، قام (أولريش غورنغ) ، بعد ذلك بثلاثة أرباع القرن ، بشراء الورق ذي الفتيلة المعدنية المستخدم في صناعة أولى الطبعات الاستهلالية الباريسية.

ومن الجدير بالذكر ، أن هذا النوع من الورق نفسه يوجد في الكتب المطبوعة في هولانده (في لوفان وديلفت) وفي المانيا (في كولونيا ومايانس) .



اما في باريس ، فقد شكل الوراقون جمعية كان لها نظامها الخاص منذ عام ١٣٩٨ . ففي ١١ آذار ١٤١٥ ، قامت جماعة من وراقي (تروي) وباريس ، بالاحتجاج على كثرة الطواحين حول العاصمة وتأثير ذلك في انخفاض سعر الورق ، وطالبوا الجامعة بالتدخل للحفاظ على امتيازاتهم. وفي شهر آذار من عام ١٤٨٩ ، صدرت أخيرا ، عن شارل الثامن ، كتب رسمية تؤكد على امتيازات جامعة باريس وتحدد قائمة باسماء الاشخاص الذين يحق لهم الاستفادة من هذه الامتيازات علاوة على الاساتذةوالطلاب: اربعة وعشرون كتبيا ، اربعة من صانعي الرقوق، اربعة وراقين باريسيين، سبعة وراقين من (تروي) و (كورباي) و (ايسون) ، مزخرفان اثنان، اثنان من الكتبا بواثنان من المجلدين . وهكذا ظل لقب « وراق الجامعة المحلّف » ، مدة طويلة ، مطمحا للتجار الباريسيين وصانعي الورق في (تروي) . فقد كان نوعا من لقب النبلاء المربح الذي يتضمن الاعفاء من الضرائب والرسوم ويضمن لصاحبه امتيازات عدة كانت الجامعة تحرص على حمايتها أشد الحرص .

كان القرب من مدينة كبرى ، اسوة بباريس ، يؤدي في اغلب المناطق الى اقامة المحاضج ؛ فلولا وجود مدينة قريبة مثل (ليون) ، بمطابعها العديدة ، لما وجدت مصانع الورق في (بوجوليه) ولا في (أوفرني) . الا ان الورق كان يستخدم غالبا في اماكن بعيدة عن مكان صنعه : كما هي الحال بالنسبة لورق شمبانيا في منطقة الفلاندر ، وفي هولانده والمانيا الشمالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ومطلع القرن السابع عشر ؛ كذلك الامر بالنسبة لورق (انغوليم) في اسبانيا وانكلترة وهولانده وبلاد البلطيك في القرنين السادس عشر والسابع عشر . كما كانت المراكز الانتاجية الكبرى تتواجد عادة عند مفارق الطرق التجارية . وبالرغم

من قرب باريس وليون ، لم يكن من الممكن تواجد هذا العدد الكبير من مصانع الورق في (تروي) ، بدون اسواق شمبانيا ــ ولا مصانع (اوفرني) بدون أسواق ليون . بما أن الورق بضاعة ثقيلة يمكن نقلها على الماء ، فانالقرب من الانهار الكبيرة يسهل تطور الصناعة الورقية وتوسعها ، وكذلك الامر بالنسبة للمرافىء بشكل خاص . منذ القرن الرابع عشر ، اقيمت مصانع الورق الايطالية في ضواحي « فينيسيا » او « جنوة » . اما فيما بعد ، اي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فقد كان الوضع اكثر وضوحا بالنسبة لمنطقة (انغوليم) : ففي وقت مبكر جدا ، أيام الاحتلال الانكليزي ، كان الورق الايطالي يصدّر الى بريطانيا العظمى عن طريق مرفأ (بوردو) ؛ ثم ظهرت صناعة محلية كان معظم انتاجها يصدّر عن طريق (لاروشيل) و (بوردو) ، حتى أنه في نهاية القرن السابع عشر ، عندما اصبح ورق (انغوليم) مشهورا بنوعيته ، اخذ اصحاب المكتبات الباريسيون يتذمرون من اضطرارهم لجلب هذا الورق برا ، مما يكلفهم اكثر من منافسيهم الهولانديين الذين كانوا يستلمونه عن طريق البحر .

٤ ــ ظهور الكتاب وتطور الصناعة الورقية

(من القرن الخامس عشر الى القرن الثامن عشر)

الا انه ، مع ظهور الكتاب ، كانت الاحتياجات الى الورق تتزايد في كثير من المجالات . فالتعليم ينتشر ، والمعاملات التجارية تتطور وتتعقد ، والكتابة تكثر ، كما ان الحاجة قد ظهرت الى « الورق المشترك » للاعمال اليدوية : كمحلات بيع لوازم الخياطة والبقاليات ومحلات الشموع التي كانت تبيع هذا النوع من الورق . وهكذا بدات تظهر على التوالي مجموعة من المهن المرتبطة بالصناعة الورقية : كصانعي ورق اللعب والكرتون رادوات التغليف واللصق وغيرها .. وهي جميعها مهن قريبة من مهنة الوراقين رغم الدعاوى العديدة التي كان يرفعها اصحاب الجمعيات المنافسة .

الا ان الزبون الرئيسي للورق يظل رجل الطباعة . هذا القادم الجديد . فالمطبعة مستهلكة هائلة للورق : تتطلب ثلاثة مواعين كل يوم لكي تعمل بصورة اعتيادية . ففي فرنسا مثلا : كانت توجد في القرن السابع عشر : حوالي خمسمئة الى الف مطبعة من الحجم الصغير (ومن المستحيل هنا: نظرا لعدم توفر المستندات، اعطاء ارقام دقيقة بالنسبة للعصور السابقة) . لذلك كان على طواحين الورق اذن . ان تقدم لها يوميا من / ١٠٠٠ / الى / ٣٠٠٠ / ماعون ، اي في حدود / ٤٥٠ / الى (٩٠٠ر٠٠٠) ماعون في العام ، اذا افترضنا ان هذه الآلات تعطي المردود الكامل . لهذا لا نجوز ان نستغرب اذن ، اذا راينا احد شركاء (غوتنبرغ) في (ستراسبورغ) يملك طاحونة للورق ، واذا كان اكثر تجار الورق غنى هم المتعاقدون مع اصحاب المكتبات . كذلك لن نستغرب اذا راينا بعض ابنائهم . الذين اجتذبهم عالم الكتاب ، يهتمون بالطباعة ويستثمرون . في مشاريع الطباعة: الاموال التي ربحوها من صناعة الورق او بيعه . وهكذا يسهل تطور المركز الورقي توسع وازدهار المركز الطباعي المجاور . في عام ١٤٨٦ مثلا ، احتفل بدخول شارل الثامن الى مدينة (تروي) في قصيدة ــ سيئة جدا ــ اخذ فيها الوراقون مكان الصدارة . اما مؤلف هذه القصيدة ــ وراق او قريب لاحد الوراقين ــ . فلم يكن . حسب اقوال بعضهم : سوى احد افراد عائلة (لوبليه) . وبالمناسبة ، فقد عرفت هذه العائلة بالذات مصيرا نموذجيا ، حيث اشتهرت بورقها وقدمت عددا من أمهر النقاشين وممن يقومون بصب حروف الطباعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر .

*

* *

منذ عام ١٤٠٥ ، نجد احد افراد عائلة (لوبليه) الوراقين : يستأجر طاحونة ورق في (سان ــ كونتان) ، بالقرب من (تروي) . وهكذا تدريجيا ، بدأت عائلة (لوبليه) هذه تزيد من اعمالها وتبسط تجارتها ؛ فهاهم يمتلكون عدة طواحين ، كما اصبحوا ، ابا عن جد ، وراقين محلفين يعملون لصالح الجامعة ويبيعون انتاجهم بأنفسهم . وها نحن نجد ، من

عام ١٤٧٠ حتى عام ١٤٩٠ ، ورقهم المدموغ بشعارهم الخاص (حرف « ب ») ، يباع من باريس الى دورتموند ، من تروي الى كانتر بوري ، من هايد لبيرغ الى ديجون ، من مايانس الى أوتريخت ومن بروغ الى كولونيا . في القرن السادس عشر اصبحوا من كبار الاغنياء ، وفي القرن السابع عشر اصبحوا في عداد النبلاء . الا ان احدهم ، وهو (غليوم لوبليه) ، استهوته الطباعة واعمال النقش ، فعمل ، منذ عام ١٥٤٥ حتى عام ١٥٥٠ ، لدى (روبير ايستيان) . الا انه ما لبث ، لعدم معرفته للغة العبرية ، ان تعلم « فك » حروفها على الاقل ، ثم سافر الى فينيسيا ثم روما حيث اتقن فنه ورفع مستواه بالاحتكاك مع عائلة « الد » (Aldes) وتلامذتهم(١) . عند عودته الى باريس ، أقام عند تقاطع شارع (سان ـ جان ـ دي ـ لاتران) مع شارع (سان ـ جان ـ دي ـ بوفيه)، ووضع على باب محله لافتة كتب عليها « الكتابة بالحروف الكبيرة » ، وبدأ ينقش النماذج العبرية « لروبير ايستيان » بالاضافة الى الاحرف الموسيقية التي سيستخدمها السيدان (لو ـ روي) و (بلاّرد) . وهكذا اسس أكبر واعرق اسرة باريسية لصب الاحرف ، كما أصبح ابنه ، غليوم الثاني ، في مطلع القرن السابع عشر ، وراقا ونقاش أحرف وصاحب مكتبة ومطبعة . لم تكن عائلة (لوبليه) هذه حالة منفردة ؛ بل أصبحت هناك أمثلة كثيرة عن وراقين او افراد اسر عريقة من الوراقين كانوا يستثمرون أموالهم في الطباعة والنشر . الا ان الكتاب ظل يصدر ، في تلك الفترة ، بوتيرة بطيئة ، ولم يكن ثمن الورق يدفع غالبا الا بصورة تدريجية تتمشى مع نسبة البيع . لذلك كان الوراقون يبدون كأنهم ممولون لاصحاب المطابع والمكتبات . كما كان بعض رجال الطباعة والنشر بالمقابل ، يقومون أحيانا باستئجار طواحين الورق ويستفيدون من انتاجها : فطاحونة الورق التي كانت عائدة للسيد (اندريه هيلمان) ، الشريك « الستراسبورجي » لغوتنبرغ ، قد آجرت فيما بعد ، عام ١٥٢٦ ، الى رجل الطباعة (والف كوبفل) ثم الى شخص آخر ، عام

---

(١) ـ (Aldes): هو الاسم الاول لعميد اسرة آل (مانوس) الايطالية المشهورة بالطباعة في القرن السادس عشر .

١٥٥٠ ، هو (واندولان) ؛ وحوالي عام ١٥٣٥ ، قام السيد (أوستاش فروشور) ، الذي يعمل شقيقه (كريستوف) في الطباعة في مدينة زوريخ، باستئجار طاحونة قريبة من هذه المدينة . وعندما توفي عام ١٥٤٩ ، نقل كريستوف عقد الايجار باسمه . وفي الفترة الواقعة بين عامي ١٥٧٥ و ١٥٨٧ ، قام رجل الطباعة المشهور من مدينة (بال) ، أوزيبيوس ايبيسكوبوس ، باستئجار طاحونة (كورسيل) ، في المقاطعة القريبة من (مونبيليارد) . خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر ، قام رجال طباعة ونشر من مدينة (تولوز) ، وهم آل (بود) ، باستثمار طاحونة قريبة من هذه المدينة . وفي فترة لاحقة ، عندما اصبح (بومارشيه) ناشرا لفولتير ، استملك طاحونتي « ارش » و « ارشيت » . وأخيرا ، في عام ١٧٨٩ ،اشترى آل (ديدو) مراكز صنع الورق في (ايسون) حيث ستعمل ، بعد عشر سنين ، أول آلة للورق المتصل كما سنرى فيما بعـد .

هكذا نرى أن الصلة كانت وثيقة بين صناعة الورق وصناعة الكتاب ؛ فازدهار كل منهما مرتبط بازدهار الاخرى . ويكفي لملاحظة ذلك أن نقارن ، في مختلف حقبات تاريخهما ، بين خارطة مصانع الورق وخارطة المطابع في أوروبا الغربية . الا انه قبل كل شيء ، ليس لنا أن نستغرب اذا راينا مصانع الورق تغطي اوروبا بين عامي ١٤٧٥ و ١٥٦٠ ، اي في الفترة التي كانت فيها الطباعة تجتاح الغرب .

*
* *

من المفيد جدا في هذا المجال ، ان ندرس خارطة المحاضج الموجودة في كل من عامي ١٤٧٥ و ١٥٦٠ . فبالنسبة لفرنسا على الاخص ، وفي عام ١٤٧٥ ، أي قبل انتشار تأثيرات اختراع الطباعة ، كانت هناك بضعة طواحين منفردة تعمل في مناطق اللورين وفرانش ــ كونتيه وامبيرت وبيريغو وتولوز . ولم يكن يوجد آنذاك غير مركزين هامين نسبيا هما : تروي وافينيون . في حوالي عام ١٥٦٠ ، ظهر مركز شمبانيا المتخلف قليلا

بالنسبة لمطلع القرن ، ولكنه اكثر اهمية بثلاث مرات عما كان عليه الوضع عام ١٤٧٥ . كذلك زاد عدد طواحين الورق في منطقة الفوج بمقدار ثلاثة أضعاف ، كما اصبحت هنالك محاضج في منطقتي النورماندي وبريتانيا . اما مركز (انغوليم) ، الذي سيكتسب اهمية كبرى في القرن السابع عشر، فلا يزال في خضم تطوره وتوسعه . ادى قرب مدينة (ليون) بمطابعها العديدة وأسواقها المزدهرة الى اقامة مصانع للورق في منطقة (بوجوليه) وخاصة على تخوم الـ (أوفرني) .

وهكذا حلت فرنسا محل ايطاليا كممونة لاوروبا بالورق ، وأصبح معظم الطبعات الاستهلالية في (ستراسبورغ) يطبع على ورق يحمل السمة الفرنسية ، (والشمبانية بشكل خاص) . ظل الميدان حرا أمام وراقي (تروي) وتلامذتهم لمدة طويلة ، اذ لم تظهر بعد صناعة ورقية هامة في شمال المانيا وهولاندة والفلاندر وانكلترة . فالورق المصنوع في مركز صغير لا يتجاوز الثلاثة طواحين ، وهو مركز (بار ــ لو ــ دوق) ، كان يرسل في نهاية القرن الخامس عشر ، عن طريق الـ (موز) (Meuse) حتى (لوفين) و « بروكسل » و « أوتريخت » و « زوال » حيث يستخدم لطباعة المؤلفات اللاتينية الهامة ؛ وقد وصل حتى الى (أوكسفورد) ، حيث استخدم لطباعة « حكايات كانتربوري » لمؤلفها (شوسر) .

الا أن طواحين الورق ما لبثت ان انتشرت في سائر انحاء أوروبا (ولكن بسرعة اقل مما كانت عليه في فرنسا) . ففي سويسرة ، ظهرت في ضواحي (فريبورغ) وحوالي (بال) بشكل خاص ، حيث تقيم عائلة (غليزياني) التي جاءت من ايطاليا . ففي عام ١٥٧٠ ، وحول مدينة (بال) ، كانت هنالك سبع طواحين للورق تمون مطابع المدينة .

اما في المانيا ، فان طاحونة (غلا يسموهل) بالقرب من نورمبرغ ، كانت أول طاحونة للورق تبدا عملها عام ١٣٩١ . في عام ١٤٢٠ ، وجدت الصناعة الورقية في (لوبيك) ، ثم انتقلت بعد بضع سنوات (١٤٢٨) الى (جنيب) بالقرب من (كلاف) ، وفي عام ١٤٣١ الى (لونبورغ) ، وفي عام ١٤٦٠ الى (اوغسبورغ) ، وفي عام ١٤٦٩ الى (اولم) ثم الى

عدة مراكز اخر ى. وفي الفترة بين عامي ١٤٨٠ — ١٤٩٠ ، انتقلت الى (لايبزيغ) ، وفي عـــام ١٤٨٢ الى (ايتلنجن) ، وفي عـــام ١٤٨٩ الى (لاندسهوت) ، وفي عام ١٤٩٠ الى (بريسلو) ، وفي عام ١٤٩٦الى (روتلنجن) . الا ان التقدم بطيء جدا . ولم تستطع المانيا الوصول الى مرحلة الاكتفاء الذاتي الا حوالي منتصف القرن السادس عشر . وهكذا ظلت كل من (نورد لنجن) و (اوغسبورغ) و (نورمبرغ) تتوجه في طلباتها الى التجار الميلانيين حتى عام ١٥١٦ . اما في المناطق الغربيــة فكانوا يلجؤون الى فرنسا . لذلك نجد ان المدن الواقعة على ضفــاف الراين ، حيث لاقت الطباعة نجاحا كبيرا ، ظلت تستورد الورق مــدة طويلـــة .

ظاهرة مدهشة ولا شك ، ولكن اقل منها في هولانده ، حيث تطورت صناعة الورق بصورة اكثرتاخرا . فقد كنا نرى (بلانتان) ياخذ ما يحتاجه من الورق من شمبانيا . وفي القرن السابع عشر ، كان آل (موريتوس) ما زالوا يشترون ورقهم من فرنسا ، كما اصبح آل (آلزيفير) يخشون من ان يجدوا انفسهم مضطرين لاغلاق مطبعتهم نتيجة توقف التجارة مع فرنسا : لذلك ولكي لا تتوقف مطابعهم عن العمل ، فقد عمدوا الى تبني قياس مصغر آنذاك، ودشنوا بذلك ــ رغم تذمر العلماء ــ مجموعتهم الشهيرة (in - 12) . الا ان بعض التجار الهولنديين اخذوا يستثمرون اموالهم في توسيع مصانع الورق « الشارونتية » (نسبة الى Charentes) التي تكفلوا ببيع انتاجها في جميع انحاء أوروبا ، من انكلتره الى بــلاد البلطيك ، ومن اسبانيا الى هولانده . وقد توصلوا أيضا ، قرب (انغوليم)، الى صناعة ورق ممتاز يحمل سمة (شعار) امستردام ، ويغادر المملكة ، في بداية حكم لويس الرابع عشر كمادة خامٍ معفاة من الضرائب ، ليعود اليها بشكــل كتب واحيانا كتابات نقــد وهجاء لم تكــن تعجب الملك العظيم دائما .

الا ان الحاجة الى صناعة الورق محليا ما لبثت أن ظهرت في هولانده كما حدث في البلدان الاخرى . فبينما عمدت الدول ، عام ١٦٧١ ، الى

منع استيراد الورق الفرنسي ، بدأ النيرلنديون باقامة الطواحين في بلادهم . كما ادت ضرورة حصولهم على مردود أفضل وضرورة التصدي لنزوات قوتهم المحركة الوطنية ، وهي الهواء ، الى اختراع جديد : وهو استبدال المطارق الخشبية القديمة باسطوانات للتعامل مع الخرق البالية ، تسمح بصناعة أسرع وانتاج أكثر جودة . استطاعت هذه الطريقة الجديدة ، التي تم تبنيها سريعا في المانيا وبصورة متأخرة في فرنسا (عند نهاية القرن الثامن عشر) ، أن تضمن التفوق لهولاندة ردحا طويلا من الزمن .

الا أن الصناعة الورقية ما لبثت أن نهضت في فرنسا ، بعد الازمة الحادة التي عرفتها والتي امتد تأثيرها حتى عام ١٧٢٥ . وهكذا بدأت المحاضج الجديدة تظهر في كل مكان تقريبا : من بريتانيا الى المنطقة الجنوبية الغربية ، في (دوفينيه) فشمبانيا فالشمال ؛ الا أن (أوفرني) و (شارانت) لم تستعيدا المكانة التي عرفتاها سابقا في السوق الاوروبية. وهكذا تزودت جميع البلدان أو كادت ، بصناعة ورقية وطنية ؛ فالمصانع قد تضاعفت في المانيا حتى بلغ عددها في نهاية القرن الثامن عشر ، حوالي / ٥٠٠ / مصنعا للورق تنتج /٢٥٠٠٫٠٠٠/ ماعون ورق في العام . وبينما ظلت الصناعة الايطالية محافظة على نشاطها ، استطاعت انكلترة ، التي لم يكن لديها في نهاية القرن السادس عشر سوى عدد صغير من الطواحين، أن تمتلك حوالي مئة طاحونة في عام ١٦٩٦ ، أقيم معظمها من قبل فرنسيين يدينون بالعقيدة الكالفانية . ففي عام ١٧٢٢ توصلت انكلترة الى صنع /٣٠٠٫٠٠٠/ ماعون ورق ، وفي عام ١٧٥٠ ، كان الانكليزي (جون باسكرفيل) أول من ابتكر صناعة الورق المصقول بدون شوائب أو آثار أو خطوط .

*
* *

خلاصة القول ، ان طواحين الورق قد تضاعفت في جميع انحاء أوروبا بشكل اجمالي ، مما أدى الى تزايد نسبة استهلاك الورق والى تزايد نشاط المطابع . كذلك تميزت هذه الفترة بالابحاث التقنية واستعداد

الصناعة الكبرى للانطلاق . اما فرنسا ، التي حافظت في هذا المجال ولمدة اطول من سواها ، على اشكال الصناعة اليدوية والتقليدية ، فقد سجلت بعض التاخر في القسم الاول من القرن الثامن عشر . الا انها ما لبثت أن حاولت تعويض الوقت الضائع ، حيث قام مفتش المؤسسات الصناعية (السيد ديسماريتز) ، يعاونه مهندس مؤهل في هولانده هو السيد (ايكروفيس) ، بحث الصناعيين الجريئين الكبار (من أمثال آل « ريفيون » و « أنوناي » و « جوهانو » و « مونغولفييه ») على تبني الوسائل الجديدة . الا انه ، في ٢٦ آذار ١٧٨٩ ، وعشية الثورة ، قام رجال طباعة مشهورون (وهم آل « ديدو » الذين بذلوا قصارى جهدهم لتحسين الطباعة) ، بشراء مصانع الورق في « ايسون » ، حيث سيتمكن احد عمالهم ــ بعد مضي عشر سنوات ، أي عندما كانت انكلتره والمانيا لا تزالان تسعيان لاستبدال آلة الطباعة اليدوية القديمة بآلة أحدث منها ــ وهو محاسب عائد من أمريكا يدعى (لويس ــ نيقولا روبير) ، من صنع اول آلة للورق المتصل . ففي مطلع القرن التاسع عشر ، كانت الحاجة ماسة الى مزيد من الكتب والنشرات الادارية وقريبا من الصحف، من اجل المتطلبات الجديدة للتعليم والاعلام . وهذا سيؤدي بالضرورة الى مزيد من الحاجة للورق . هكذا يمكن تفسير ادخال الوسائل الميكانيكية الى صناعة الكتاب والورق .

الفصل الثاني

الصعوبات التقنيـــة والتغلب عليهـــا

كيف استطاع (غوتنبرغ) والباحثون في عصره ، في منتصف القرن الخامس عشر ، أن ينجحوا في تخطي الصعوبات التقنية التي كانت تطرحها صناعة الكتاب المطبوع ؟ ما هي المراحل التي مروا بها ـ (بقدر ما يمكن معرفته أو التكهن به) ـ قبل الوصـــول الى الحل المنـــاسب ؟ ما هي التحسينات التي طرأت على التقنية الطباعية من عهد (غوتنبرغ) حتى عهد (ديدو) ؟ وأخيرا ، كيف أسهمت هذه التحسينات التقنية في انطلاق الطباعة وبالتالي في انتشـار الكتاب ؟

هذه هي الاسئلة التي سنحاول الاجابة عليها في هذا الفصل : ومما لا شك فيه أن هذا لن يكون بالامر اليسير ، وخاصة فيما يتعلق بمرحلة البداية ، علما بأن هذه المسائل كانت موضع دراسة نخبة من المتبحرين والمؤرخين ، ونخص بالذكر منهم : المتخصصين المدققين من مـــدارس (هان) و (هبلر) و (بروكتور) .

لا بد لنا هنا من التكرار : باننا لن ننسب هذا الاختراع او ذاك التحسين الى هذا الرجل أو ذاك ، ولا الى هذه الامة أو تلك ؛ لان ما نريده هو أن نبين ، في حدود الامكان ، بأية وسائل تقنية نجحت طباعة المؤلفات الاستهلالية الاولى ، وكيف تم تحسين الطريقة البدائية في القرنين الخامس

عشر والسادس عشر ، للوصول الى الطباعة بصورة أسرع وبأعداد أكبر . وهو أيضا اظهار كيفية الطباعة بواسطة المطبعة اليدوية القديمة منذ القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر . ان ما نريده أخيرا ، هو أن نبين كيف حدثت ، في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، ثورة تقنية في مجال الطباعة لمواجهة الاقبال المتزايد على الكتب والصحف .

١ ـ الطباعة بالحروف الخشبية هي سلف الكتاب ؟

لقد رأينا سابقا أن الورق كان معروفا ومستخدما في كل مكان من أوروبا الغربية تقريبا ، عند منتصف القرن الرابع عشر ؛ وفي نهاية هذا القرن ، أصبح بضاعة كثيرة الانتشار والتداول .

بهذا وجد الناس امكانيات جديدة متاحة ، ليس بسبب سعر الورق الذي لم يتخفض الا بصورة تدريجية ، بل لان هذه المادة الجديدة كانت قابلة للتصنيع بكميات كبيرة ، ولكونها ذات سطح أملس تماما . وهكذا كانت هذه الاسباب مجتمعة بمثابة دفع مثالي نحو انتشار أوسع للصور والنصوص .

*
* *

كان الناس ، منذ القرن الرابع عشر ، يعرفون وسيلة لنسخ الرسوم صناعيا . فقد كانوا يحسنون زخرفة غلاف الرسوم والاساطير عن طريق الضغط على الجلد بواسطة لوحة معدنية منقوشة (محفورة) أو مجوفة. ولكي يرسموا بسرعة ، على رق المخطوطات ، الحروف الاولية الكبرى التي تملأ الفراغ المخصص من قبل النساخ من أجل مطلع الفصول والمقاطع ، كانوا يلجؤون أحيانا الى الدمغات (الاختام) النافرة المنقوشة على الخشب أو المعدن . كما كانوا يعرفون على الاخص ، الطبع على القماش الذي أتاهم من الشرق ، حيث يستطيعون بواسطته أن يرسموا بالحبر الملون الاشكال التزيينية وصور الورع أو المشاهد الدينية على

قماش من الكتان أو الحرير . وقد كان الورق قابلا لتلقي الطبعة أو الدمغة الملونة للمنقش المصنوع من الخشب أو المعدن ، والتي تظهر عليه بدقة أكثر ووضوح اشد من القماش . لذلك لا نستغرب اذا علمنا بأن اولى منجزات النقش بالخشب التي نعرفها ، تبدو وكأنها كانت الطبعات على الورق المخصصة للطبع على القماش الا أن هذه المنجزات لم تظهـر الا بعد فترة قصيرة من تعميم استخدام الورق في أوروبا ، اي قبل ظهور الكتاب المطبوع بحوالي سبعين سنة ، وكأنها جاءت لتفتح له الطريق وتنبىء بقـدومه .

أما رواد النقش الاوائل الذين نعرفهم فيعودون بالفعل الى الربـع الاخير من القرن الرابع عشر ؛ وها هم يصبحون ، منذ مطلع القرن التالي وربما قبل ذلك ، أرباب صناعة نشطة في المنطقة الرينانية (rhénane) وفي الدول الفرنسية ـ الفلمندية لدوقات بورغونيا . هـذه الطريقـة الجديدة ، التي كانت تسمح بانتاج نسخ كثيرة عن الصور الدينية بواسطة اداة في منتهى البساطة (بضعة قطع من الخشب وسكين) ، ما لبثت أن لاقت نجاحا هائلا . ففي ذلك العصر ، حيث يحتل الدين مركز الصدارة في الحياة الفكرية ، وحيث تشغل الكنيسة حيزا كبـيرا وحيث كانت الثقافة شفهية بالدرجة الاولى ، ظهر استخدام هذه الوسيلة البيانيـة التخطيطية التي تسمح بمضاعفة الصور الدينية ، والمشاهد الورعة ، وكأنه أكثر ضرورة من الطباعة . اما الدور الاساسي المطلوب من النقش آنذاك ، فكان ينحصر اولا بالآتي : ادخال صور القديسين الى كل مكان بعد أن كانت لا ترى حتى ذلك الحين الا حول تيجان الاعمدة والبوابات وجدران الكنائس وزجاجها الملون ؛ نشر « سير » هؤلاء القديسين وتمكين كل فرد من أن يتأمل على هواه ، معجزات المسيح ومشاهد آلامـه ، واحياء ذكرى شخصيات التوراة واثارة مسألة الموت ، واظهار صراع الملائكة والشياطين حول روح المحتضر . هذا هو الدور الاساسي للنقش

التصويري الطباعي الذي ظهرت الحاجة اليه بصورة ابكر واشـد من الحاجة الى طبع عدة نسخ من النصوص الادبية أو اللاهوتية أو العلمية المخطوطة ، بناءا على طلب حفنة من العلماء ورجال الدين .

حتى لو كان نسخ مثل هذه النصوص بنفس السهولة التقنية والمادية لطبع الصور ــ علما بأن الامر لم يكن كذلك ــ لكان من الطبيعي والمنطقي ان يسبق ظهور « الدمغة » ظهور الكتاب المطبوع . الا أن هذا لا يعني ، كما سنرى ، أن تقنية النقش المطبوع قد أوحت بتقنية الطباعة المختلفة كل الاختلاف .

منذ بداية القرن الخامس عشر ، ظهرت اذن مجموعة من مصانع الصور الشعبية ذات الطابع الديني . ويمكن الافتراض ، بكثير من الواقعية والحق ، أن أولى ورشات النقش المطبوع قد تشكلت بالقرب من الاديرة ، واحيانا داخلها ، وان المجالس الكبرى للاديرة قد ساعدت على نشر الصور . الا أن تجارة النقش المطبوع ما لبثت أن انتشرت بسرعة فائقة ؛ ففي كل مكان تقريبا ، كنت ترى صورا كصور : « عذراء بروكسل » (١٤٢٣) ، « سان ــ سيباستيان دي فيينا » (١٤٣٧) والقديس « سان ــ روش » او القديسة (ابولين) ، المعدة لتزيين منازل البسطاء وحمايتهم في الوقت نفسه : فالقديس (كريستوف) ، سيد المسافرين ، كان يحفظ من الموت المفاجىء ؛ والقديس (سيباستيان) يحفظ من الجروح ، والقديس (روش) من الطاعون ، والقديسة (ابولين) من وجع الاسنان . كما كانت هناك صور اخرى يرتبط بامتلاكها نوع من الغفران ، ظلت تباع بالآلاف في مواسم الحج أو على ابواب الكنائس وفي الاسواق .

كانت النقوش الاولى مجرد دمغات أو طبعات دون نصوص . ولكن ما لبث أن بدأ من المفيد حشر بعض الشروح أو السير القصيرة ، المكتوبة باليد والمحفورة على الخشب كالصور نفسها تماما ، وذلك على عصيبات معدة لهذه الغاية ، أو كملاحظات بين الفراغات الفاصلة بين الاشكال والرسوم . في الوقت نفسه ، بدأ فن النقش على الخشب يصبح « دنيويا » : فقد

ظهرت أبجدية غريبة بأشكال رجال أو حيوانات ، كما ظهرت أوراق تمثل قصصا أسطورية ، كقصة « الشجعان التسعة » مثلا ؛ كما ظهرت بشكل خاص ، صناعة حقيقية ستعرف طريقها بسرعة الى الازدهار ، وهي صناعة **اوراق اللعب** المنقوشة من الآن فصاعدا على الخشب والملونة والتي لم تعد ترسم وتزخرف باليد بل تطبع طباعة عن الاصل الخشبي المنقوش ؛ كل ذلك دون المساس باللوحات الهجائية أو الانتقادية ، أو بالاعلانات التجارية أو التقاويم حيث كان النص يأتي في الاسبقية قبل الشكل بطبيعة الحال .

وبسرعة كبيرة أيضا ، لم تعد الورقة الواحدة كافية ؛ فظهرت الكراريس المنقوشة ، على شكل دفاتر من قياس قريب من قياسنا (رقم ـ ٤ ـ) الحالي . وهكذا نما وانتشر نوع جديد من الادب ، تجلت فيه المواضيع الدينية والاخلاقيةالاكثر شعبية آنذاك : كأسفار الرؤيا المصورة، توراة الفقراء ، قصص العذراء ، مرايا الخلاص ، آلام المسيح ، حياة القديسين ، فنون الموت الخ ... هذه الكراريس الصغيرة ، التي كان النص فيها يأخذ اهميته الى جانب الشكل ، كانت تقدم « للكهنةالمساكين» المنعزلين ، امثلة لتحضير مواعظهم أو لتعليم الدين . لقد استطاعت هذه الكراريس ، بفضل سعرها الزهيد وتصميمها ، أن تجعل الكتاب لاول مرة ، في متناول الطبقات الشعبية ؛ اذ كان في استطاعة حتى الذين لا يعرفون القراءة أن يفهموا معنى تلك السلسلة من الصور . اما الذين كان لديهم بعض الالمام بالقراءة ، فقد كانوا يتتبعون النص بسهولة ، خاصة وان الشروح كانت تكتب باللغة العامية . وقد دل نجاح هذه الكراريس ، التي كانت اهمية النص تذهب فيها صعدا ، على أن أفراد هذه الفئة الثانية كانوا كثيرين .



خشب « بروتا » (حوالي ١٣٨٠)

قطعة من خشب منقوش ، عثر عليها في القرن التاسع عشر ، وكانت معدة دون شك لتزيين غطاء المذبح

بهذه المؤلفات ، التي يرجع كثير منها الى ما بعد اكتشاف الطباعة ، تنتهي ، وهي ما كادت تبدأ ، مسيرة الكتاب المنقوش . الا أن مسيرة النقش ذاته لم تتوقف : ودليلنا على ذلك أن الاشكال المنقوشة خصيصا من أجل هذه الكراريس ، ظلت بالفعل أساسا وأصلا للاشكال المحفورة على الخشب والتي سنعثر عليها بصورة مبكرة جدا في الطبعات الاستهلالية الرائدة . كما أن أوائل الكتب المصورة كانت تزين غالبا بواسطة اللوحات الخشبية التي استخدمت في النقش المطبوع وحده . وهكذا يمكننا القول أن تجارة « الدمغات » ، أو النقش المطبوع ، ظلت مزدهرة الى جانب الكتاب حتى ظهور التصوير الفوتوغرافي .

*
* *

لم يسبق لاي مستند أن درس بمثل التعمق والتمحيص والتدقيق الذي درست به المطبوعات المنقوشة التي وصلتنا . انها آثار نادرة لصناعة نشطة يمكن تفسير ندرتها بالنجاح الذي عرفته لدى جمهور عريض لم يكن يسهر مطلقا على المحافظة عليها . ونحن نعلم بأن معظم ما وصلنا منها لا يدين ببقائه الا لطبعه على صفحات الغلافات أو في أعماق الصناديق . ولا نريد هنا أن نبعث من رقادها تلك الخلافات القديمة حول البلد أو المنطقة التي ترجع اليها اسبقية اكتشاف هذا الفن ، أو حول تاريخ هذا النقش المطبوع او ذاك ، ولا أصل أو صفة الحرفيين الذين نقشوا هذه اللوحات . فهناك مسألة اخرى تطرح نفسها الآن ، وتتعلق مباشرة بمسيرة اختراع الطباعة : طالما أن اللوحات المنقوشة الاولى قد ظهرت قبل اختراع الطباعة بزمن طويل ، فان من المغري حقا اقامة ارتباط بين اللوحة المنقوشة والكتاب المطبوع : فالنقاشون على الخشب ، الذين تعبوا من اعادة حفر حروف جديدة لكل صفحة جديدة ، الم يخطر على بالهم يوما ما ، أن يقوموا بتقطيع الحروف المحفورة على اللوحة الخشبية ، أو أن يعمدوا الى حفر حروف منفصلة يمكن صفها بصورة يستطيعون معها تشكيل نص كامل ؟ متى تسنى لهم ذلك ، لن يبقى أمامهم غير قفزة واحدة الى الامام ، وهي استبدال الخشب بالمعدن.

أنها فرضية مغرية ولا شك . فقد لعبت دورا كبيرا في السابق ، حيث تبناها بعض مؤرخي الطباعة في القرن المنصرم . الا أنه لا بد من القول بأن هذه الفرضية لا تستطيع الصمود ــ بهذا الشكل المبسط على الاقل ــ امام الفحص والتدقيق . فهناك الكثير من اللوحات المنقوشة (وخاصة من بين تلك التي لا تتضمن غير نص مكتوب) ترجع كما أسلفنا، الى النصف الثاني من القرن الخامس عشر : فهي اذن لاحقة لظهور الكتاب المطبوع ، الذي ظلت تنافسه في ميدان الادب الشعبي . كذلك لا بد ان نأخذ بعين الاعتبار الصعوبات بل الاستحالات التقنية التيتعترض امكانية تحقيق هذهالفرضية . ويمكننا ان نذكرعلى سبيل المثال لا الحصر: صعوبة نقش الحروف المنفصلة في الخشب بالدقة اللازمة لجمعها وصفها بشكل صحيح (خاصة وأن الخشب عرضة للتشوه والتبدل تحت تأثير الجفاف والرطوبة) . هذا بالاضافة الى الصعوبات الناجمة عن الاهتراء السريع لهذه الحروف التي ستكلف جهدا كبيرا بسبب نحت كل منها على حدة . ويمكن ان نذكر أخيرا وليس آخرا ، استحالة استبدال الخشب بالمعدن : فالحرفي النقاش على الخشب كان يجهل تماما الحفر على المعدن ، وخاصة اعمال تذويب المعادن وصبها بينما تعتبر هذه التقنيات أساس مفهوم الطباعة وعمادها كما ستظهر في الغرب فيما بعد.

كما أن الوثائق الثبوتية تبرهن جيدا على ان الكتب المطبوعة الاولى لم تخرج من ورشات النقاشين منسجمة مع المهمة الجديدة : بل انجزت من قبل اختصاصيين في المعادن : فالسيد (غوتنبرغ) ، الذي يرىالناس فيه بحق مخترع الطباعة ، كان صائغا ؛ كذلك كان (بروكوب والدفوغل) من براغ الذي كان يتابع ، في الوقت نفسه ، ابحاثا مماثلة . وهكذا كان أيضا كثيرون من معلمي الطباعة من الجيل الاول ، وخاصة (بالوا) ، الذين كانوا مسجلين في جمعية الصاغة .

وهكذا ، لا يمكن اعتبار الكتاب المطبوع تحسينا للوحة المنقوشة . وقد يكون من الجدير بالذكر ، التنويه بأن الحبر المكثف ، حبر الطباعة ، لم يحل محل الحبر القديم المصنوع من الهباب الاسود والمستخدم في

النقش ، الا بعد ظهور الكتاب المطبوع . كما أن الطابعة لم تحل ، في الصناعة النقشية ، محل وسيلة الحك القديمة التي لا تسمح بطبع الورقة الا من جانب واحد ، الا بعد اختراع الطباعة .

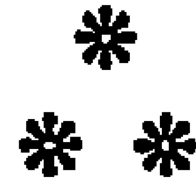
الا أن هذا لا يعني أن الكتاب المطبوع لا يدين بشيء للنقش . اذ لا شك أن رؤية اللوحات المنقوشة والنصوص المحفورة على الخشب قد أعطت فكرة ملموسة عن الامكانيات التي يقدمها الورق في مجال النسخ انصناعي للنصوص . ولا شك ايضا ، في أن نجاح النقاشين قد سمح بالتنبؤ بالنجاح الذي يمكن أن تلاقيه وسيلة أخرى أكثر تحسينا وكمالا . ويمكن القول باختصار أن سعة انتشار اللوحات المنقوشة أعطت (غوتنبرغ) مزيدا من الحماس في أبحاثه ، كما دفعت (فوست) لتمويله ومساعدته . من المحتمل كذلك ، أن تكون بعض الحروف قد صهرت اصلا في قوالب طينية كانت معدة للنماذج الخشبية ؛ أو أن تكون هذه الوسائل المعدنية قد استخدمت على سبيل التجربة والاختبار لنسخ اللوحات المنقوشة . لذلك نكرر القول بأن هذه الابحاث لم يكن مقدرا لها أن تجري أو تنجح الا من قبل متخصصين في هذا النوع من العمل وخاصة صب المعادن . وهذا ما سنتحدث عنه فيما يلي .

٢ ـ اكتشاف الطباعة

ما هي اذن المسائل المطروحة بالضبط على الباحثين الذين كانوا يسعون ، في هذا القسم الاول من القرن الخامس عشر ، للعثور على طريقة مناسبة لزيادة انتاج الكتب بصورة آلية ؟ للاجابة على هذا السؤال، من المناسب أن نذكر أولا ببعض الاسس والمفاهيم ثم نشير باختصار الى الحل الذي تم تبنيه في الغرب بشكل نهائي : والذي سيظل ، كما أسلفنا، مع بعض التعديلات والتحسينات في التفاصيل ، الاساس لكل صناعة طباعية حتى قيام الثورة الصناعية والتقنية في القرن التاسع عشر .

يمكن تلخيص تقنية الطباعة اليدوية وارجاعها الى عوامل اساسية ثلاث : الحروف المتحركة من المعدن المصهور ، الحبر المكثف وآلة الطباعة.

سوف لن نلح كثيرا هنا على الحبر المكثف أو آلة الطباعة : فصناعة حبر اكثر كثافة من العادي ، أو انجاز آلة طابعة تمكن من التخلي عن الطريقة القديمة المعتمدة على « الحك » أو « الحف » والعزيزة على النقاشين ، هما مسألتان يسهل حلهما نسبيا ، كما تعتبران ثانويتين بالمقارنة مع المسألة الاساسية التي تعبر عن جوهر الطباعة نفسه ، أو على الاقل مع طريقة الطباعة التي تم انجازها في الغرب في عهد (غوتنبرغ) واستخدمت منذ ذلك الحين من قبل كافة رجال الطباعة حتى نهاية القرن التاسع عشر : هذه المسألة هي طبع صفحة بواسطة حروف متحركة منفصلة ومستقلة .



لنذكر قليلا بما تتضمنه هذه الطريقة . لكل نوع من الاحرف أو الشارة الطباعية ، لا بد اولا من صنع « **منقش** » من المعدن الصلب ، يحفر في طرفه الحرف أو الشارة بشكل **نافر** (بارز) . يستخدم هذا المنقش للضرب على **قالب** من معدن أقل صلابة ، حيث تنطبع الصورة على شكل **تجويف** . ثم يوضع هذا القالب الصغير ضمن قالب أكبر فيسمح عندئذ بصب العدد اللازم (لتنفيذ الطباعة المطلوبة) من الاحرف المأخوذة من معدن قابل للانصهار بدرجة حرارة منخفضة (كالقصدير أو الرصاص مثلا) ، وحيث تظهر الشارة المطبعية بارزة (نافرة) كما كانت على طرف المنقش تماما .

استفاد الباحثون في هذا المجال ، من خبرة الصاغة وصانعي « الميداليات » وطابعي العملة (النقود) ، الذين كانوا يجندون لهذه الغاية . أما فيما يتعلق بالكتب نفسها ، فقد كانوا يعرفون كيفية تحضير « الدمغات » أو اللوحات المعدنية البارزة أو المجوفة المخصصة لتزيين غلافات السئير القصيرة والرسوم . منذ القرن الثالث عشر ، كان عمال صب المعادن يحسنون استعمال المناقش المحفورة بشكل بارز لكي يصنعوا، في قوالب طينية ، القوالب المجوفة التي تمكنهم من الحصول على كتابات

بارزة تظهر فوق القطع المصبوبة . كما كان صانعو الاوعية القصديرية ، منذ القرن الرابع عشر ، يمتلكون قوالب من النحاس . واخيرا ، كانوا منذ زمن طويل ، يستخدمون المناقش لصنع النقود و « الميداليـات » والاختام . اذا كان الحصول على الميداليات والنقود يتم عادة بادخـال شفرة من المعدن المرن بين زاويتين ثم ضربها بالمطرقة ، فانهم كانوايعرفون أيضا كيف يحصلون عليها بصهر المعدن في بوتقة أو قالب . وهذه طريقة استخدمت منذ القدم ثم تجدد نجاحها في ايطاليا عند نهاية القرن الرابع عشـر .

وهكذا كان الناس يعرفون تماما ، خلال القسم الاول من القـرن الخامس عشر ، تقنية الصب في قوالب من المعدن أو الطين (مزيج من التراب الناعم والصلصال) وتقنية ضك النقود ؛ كما كانوا يعرفون كيف يوفقون بين هاتين التقنيتين للحصول على قالب اجوف بواسطة منقش بارز ؛ ثم بصب المعدن في هذا القالب ، كانوا يحصلون على أشكال بارزة ، وهذا هو بالذات مبدأ صناعة الحروف . لذلك لم يبق أمامهم سوى تصور فكرة تكييف هذه الطريقة مع متطلبات الطباعة ثم التصدي لعمل ثانـوي وهو حل المسائل التفصيلية التي كانت تطرحها عملية التكييف هذه . سنرى أنه من المرجح أن يكون الباحثون الاوائل قد لجؤوا الى طرق اخرى في بادىء الامر ، ولم يتوصلوا الى الحل النهائي الا بصورة تدريجية .

ادت بعض الاعمال الحديثة الى الاعتقاد بأن الخوف من السيولـة القصوى لصفحة مشكلة من عدة حروف متحركة ، بالاضافة الى صعوبة الاحتفاظ بهذه الحروف مجمعة ومشكلة عند الطباعة على الورق سطحا املس محبرا بكامله ، كل هذا دفع الباحثين الاوائل ، أو بعضهم على الاقل، لمحاولة تخطي الصعوبات بتحقيق ما يسمى « بالصفحة ــ الكتلة » التي كانت حروفها تصب مجتمعة انطلاقا من « قالب ــ كتلة » يصنع بواسطة مناقش مستقلة .

بعد هذه العودة السريعة الى المعطيات الاساسية (التي قدمناها دفعة

واحدة حتى يتمكن القارىء من أن يفهم بقية البحث بسهولة اكبر) ، لننتقل الآن الى المستندات التي تمكننا من استشفاف ماهية الابحاث التي ادت الى انجاز الطباعة .

من المؤسف اننا لا نملك من هذه المستندات سوى النذر اليسير . فما وصلنا منها نادر جدا ، علاوة على غموضه وصعوبة فهمه . فالتقنية كانت لا تزال في مرحلة التكون ، ولم تكن هناك بعد ، المفردات التقنية المناسبة والتي تسمح بالتالي ، بالدلالة بوضوح على الادوات والعتاد الذي كان يستخدمه الباحثون المنهمكون في انجاز الاختراع الجديد الذي ما زال في طور المخاض . كما كانت نادرة أيضا ، ولكنها اكثر وضوحا ، تلك الدلائل التي يمكن التقاطها من اخبار ذلك العهد . أما تفحص أقدم الكتب المطبوعة التي وصلتنا ، فقد يسمح لنا بتصور بعض الفرضيات ، الا انه لا يقدم لنا اية معلومات اكيدة عن سياق الابحاث : اذ يبدو أن معظم هذه الكتب قد نفذ في فترة كانت الطريقة الجديدة فيها قد استكملت تقريبا ووضعت موضع التطبيق الصناعي .

فلنبدأ أولا بالمستندات الوثائقية : ها هي ، بادىء ذي بدء ، الوثائق الغامضة المتعلقة بمحاكمة عام١٤٣٩ الشهيرة في(ستراسبورغ) ؛وخلاصتها ان رجلا من مدينة (مايانس) يدعى (Jean Gensfleisch) الملقب ب (غوتنبرغ) ، وهو صائغ من عائلة تعمل في ضرب النقود ، اقام شخصيا في ستراسبورغ عام ١٤٣٤ ثم اشترك ، من عام ١٤٣٦ حتى عام ١٤٣٩ ، مع ثلاثة اشخاص هم : هانس ريف ، اندريه دريتزهن واندريه هيلمان ؛ في الاستفادة ، لاجل معرض (Aix-La-Chapelle) من طرق صناعية أبلغهم عنها بصورة سرية لقاء دعمهم له ماديا . توفي (اندرية دريتزهن) فطالب ورثته بأن يحلوا محله في الشركة فاقاموا الدعوى التي وصلتنا وثائقها . من هنا نعرف أن أسرار (غوتنبورغ) تتعلق بثلاثة أشياء مختلفة : نحت الحجارة ، صناعة المرايا « وفن جديد » تستخدم فيه آلة طابعة و « قطع » تنصل او تصهر وتصب . انها اشكال من الرصاص بالاضافة الى « أشياء أخرى تتعلق بعملية الطباعة » . كانت هذه النصوص قابلة

لتأويلات عديدة متناقضة ، الا انها تشير على الاقل الى أن غوتنبرغ كان مهتما بالطباعة . ولكن لم يكن هناك ما يسمح بادراك مغزى أبحاثه ، أو مدى تقدمها أو الطريقة المتبعة ، أو الافتراض بانه بدأ فعلا بطباعة الكتب . كذلك عثر في (افينيون) على وثائق تثبت أن صائغا من (براغ) ، يدعى (بروكوب والدفوغل) ، قد وقع عدة عقود مع اهالي (أفينيون) ، يتعهد فيها بتعليم بعضهم مهنة الصياغة ، وللبعض الآخر بتعليمهم فن « الكتابة الاصطناعية » (ars scribendi artificialiter) . وفي عام ١٤٤٦ ، قدم (والدفوغل) أو وعد بأن يقدم الى يهودي يدعى (دافين دي كادوروس) ادوات أو عتادا يمكنه من نسخ النصوص العبرية واللاتينية .

ما هي بالضبط الطريقة الجديدة التي كان (والدفوغـل) يسعى لوضعها ؟ هنا ايضا يظل الموضوع عرضة للتأويلات والخلافات نظرا لعدم توفر المفردات التقنية المناسبة آنذاك ، لدرجة يستحيل معها الاجابة على هذا السؤال بصورة قاطعة جازمة . لقد ظن البعض بأن المقصود هـو مجرد طريقة بسيطة للدمغ ، أو نوع من الآلات الكاتبة . الا أن هذا يبدو بعيد الاحتمال : فالابجديتان الفولاذيتان المذكورتان في عقد عام ١٤٤٤ ، والحروف الثمانية والاربعون المنقوشة من الحديد ، والحروف العبريـة السبعة والعشرون المذكورة في عقد عام ١٤٤٦ ، يمكن أن تكـون مجرد «مناقش» أو قوالب . اما لفظ«الاشكالالقصديرية»(Formas de stagns) فيمكن أن يدل على نتائج الصب . ولكن كيف يمكن تأويل كلمة (شكل) أو (Forma) المستعملة في وثائق محاكمة ستراسبورغ ؟ هل المقصود بها حروف منفصلة أم مجموعة من الحروف المصبوبة معا لصفحة واحدة مثلا؟ الا يعتبر المقصود في هذه الحالة هي « الصفحة ــ الكتلة » التي تحدثنا عنها سابقا ؟ أو ليس المقصود بالتعبير (formas ferreas) او «الاشكال الحديدية » الوارد في عقد عام ١٤٤٤ هي « القوالب ــ الكتلة » المحققـة عن طريق صف آثار المناقش الواحد بجانب الآخر ؟ وهذه هي النظرية التي تبناها السيد (موريس أودان) .

*

* *

لننتقل الآن من المستندات الوثائقية الى المصادر الوصفية ، بادئين اولا بالنص الشهير لمقالات (كولونيا) التي ظهرت عام ١٤٩٩ ، خاصة وأن كاتبها قد صرح بأنه استمد معلوماته من (أولريخ زال) ، رجل الطباعة الاول في كولونيا والذي كانت له صلات مع (شوفر) ، أحد معاوني (غوتنبرغ). وها هي ترجمة لهذا النص :

« تم اختراع فن الطباعة الرائع أولا في ألمانيا ، وفي مدينة (مايانس) على نهر الراين ... وقد وصلنا هذا حوالي عام ١٤٤٠ ؛ ومنذ ذلك الحين حتى عام ١٤٥٠ ، لم يتوقف هذا الفن مع كل ما يتصل عن التحسن والتطور ... ولكن على الرغم من اكتشاف هذا الفن في (مايانس) ، كما أسلفنا ، فان اللمسات الاولى وضعت في هولانده ، حيث بدات الطباعة قبل فترة . الى هذه الكتب المطبوعة هنا يرجع اذن تاريخ بداية الفن المذكور ؛ ومما لا شك فيه أنه الآن افضل بكثير مما كان عليه عند ولادته ، لانه تحسن وترسخ مع الزمن .

هذه هي اذن مسألة « الطريقة الاولى » التي مارستها هولانده ، والتي كانت وما تزال موضع خلافات ومثار جدل وافتراضات . ونظرا للنسخ الكثيرة التي كانت تصدر بهذه الطريقة في هولانده ، فقد اعتقد البعض بأن المقصود هنا هي طريقة النقش المطبوع التي كانت معروفة في ألمانيا والمنطقة الرينانية وفرنسا . وقد ظهرت ، في وقت متأخر ، نصوص اخرى تؤكد الافتراض القائل بأن ما نفذ في هولانده هي طباعات بطريقة معروفة كان الناس يحاولون اعادة تكوينها غالبا .

في عام ١٥٦١ ، قام رجلان من فلاسفة النزعة الانسانية من (هارلم)، وهما (جان فان زورن) و (ديرك فولكرتون كورنهرت) ، بالمناداة لمدينتهم بشرف اعتبارها مهد الفن الطباعي . وحوالي عام ١٥٦٨ ، كتب طبيب من (هارلم) يدعى (أوريان دي جونغ) ، لاحدى صحف هولانده ، مقالة نشرت بعد موته عن قصة محلية مفادها أن احد سكان هذه المدينة ويدعى (لوران جانزون) ، الملقب بكوستر ، كان قد اخترع قبل عام ١٤٤١ فن جمع الحروف المتحركة من المعدن المصبوب من أجل النسخ الآلي للنصوص.

كما طبع عدة كتب وذاع سره عام ١٤٤٢ في امستردام ثم كولونيا ومايانس من قبل احد عماله الذين تركوا العمل عنده .

كذلك قام بعضهم احيانا بالاستشهاد ببعض العبارات التي ذكرنا بعضها آنفا في جملة ما التقطناه من الوثائق ، كعبارة « ملقاة كقالب » التي نجدها في مذكرات (جان لوروبير) والقس (سان ـ أوبير دي كامبريه) في الفترة بين عامي ١٤٤٥ و ١٤٥١ . الا ان المسألة هنا ايضا لا تخلو من التأويل : فهل تعتبر عبارة « ملقاة كقالب » مرادفة لعبارة « صبغت كقالب » ؟ من المحتمل ان يكون المقصود هنا هي مجرد لوحات منقوشة كالتي مر ذكرها (علما بأن صانعي ورق اللعب كانوا يوصفون بأنهم « صانعو قوالب ») . فهل هذا هو المقصود حقا ، ام ان عبارة « ملقاة كقوالب » كانت تلمح وتنوه بتقنية خاصة بفن صناعة المعادن ، تم بموجبها صب الصفحة كتلة واحدة في قالب معد بصورة مسبقة ؟ في الواقع كان بعضهم يميل الى هذا الاعتقاد أحيانا .

*
* *

إزاء افتقار هذه النصوص جميعها الى الدقة ، وأمام مسائل التأويل التي تطرحها ، نجد أنفسنا حيال فرضيات غير مؤكدة تتعلق بمحاولات محتملة للطباعة في هولانده . كما ان دراسة الكتب نفسها لا تقدم شيئا يذكر فيما يتعلق بتقنية الباحثين الاوائل . الا أن هناك أمرا يستحق الذكر : وهو يشمل سلسلة من الكتب المطبوعة غير المؤرخة ، من مصدر هولاندي على الارجح ، من بينها ورقتان لـ (Abecedrium) واربعة اوراق لـ(Donat) محفوظة في مكتبة (هارلم) ؛ وقد أكد بعض المتخصصين ان الحروف التي استخدمت في طباعتها تم صبها ليس على قالب من المعدن ، وانما في قوالب من الرمل ، بواسطة مناقش من الخشب على اغلب الظن . من المحتمل جدا أن تكون هذه الاعمال قد أتت بعد

الطبعات المايانسية الاولى ، ولكن يمكن الافتراض بأن التقنية المستخدمة لتنفيذها كانت مستوحاة من طريقة سابقة لطريقة (غوتنبرغ) المايانسي .

هناك من هم اكثر كفاءة منا في هذا الميدان ، يسعون الآن جاهدين لتوضيح هذه المسائل . لذلك نكتفي بأن نستنتج انه من المستبعد تماما التوصل الى تحديد اكيد للمراحل التي اجتازها الباحثون قبل الوصول الى نتائج نهائية . وهكذا تظل المسألة الاساسية المطروحة هي صناعة الحروف : كيف كانت طبيعة المناقش المستعملة عند المحاولات الاولى ؟ هل كانت القوالب دائما من المعدن ام استخدم في الاصل الرمل الناعم او الصلصال ؟ أولم يتم اللجوء في هذه الحال الى المناقش الخشبية ؟ هل صنعت قوالب رصاصية عن طريق صب الرصاص حول منقش خشبي او معدني ، وهل صنعت حروف رصاصية او معدنية بواسطة هذه القوالب الرصاصية ؟ واخيرا ، هل نفذت اولا القوالب ــ الكتلة والصفحات ــ الكتلة ؟

اذا كان من المستحيل علينا في هذا المجال ، ان نحدد المراحل التي وتدت طريق الباحثين ، فان لدينا واقعا مكتسبا ومسلما به على كل حال : وهو أن الباحثين الاوائل ظلوا يتلمسون طريقهم مدة طويلة قبل الوصول الى الحل النهائي . هناك واقع آخر مكتسب : وهو ان الباحثين كانوا عديدين وفي كل مكان تقريبا ، من أمثال (كوستر) في هولانده (اذا وجد) ، وكل من (غوتنبرغ) و (فوست) و (شوفر) في مايانس بالمانيا، و (والدفوغل) في أفينيون ؛ كل هؤلاء حاولوا الوصول الى طريقة او طرق لنسخ النصوص بصورة آلية . ولا شك أن عدم توفر المستندات يمنعنا من اضافة باحثين آخرين ، ممن تصدوا أيضا لنفس المسألة خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٤٣٠ ــ ١٤٥٠ حيث كان نجاح اللوحات المنقوشة يعلن للجميع وفي كل مكان عن فائدة ومستقبل مثل هذا الاختراع .

*
* *

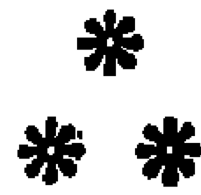
مهما يكن الامر ، ففي الفترة بين ١٤٤٥ ـ ١٤٥٠ ، كانت هذه الابحاث على وشك الوصول الى غايتها اذ لم تكن قد وصلت فعلا . أما السنوات الخمس عشرة التالية ، فكانت بمثابة مرحلة حاسمة في تاريخ الطباعة : حيث دخلت الطباعة ، بعد استكمالهـا نهائيا ، مرحلة التطبيـق على الصعيدين الصناعي والتجاري كما بدأت تعم أوروبا بكاملها .

لا شك في أن (مايانس) كانت مهد هذه الصناعة الاولى ، التي اقترن توسعها بثلاثة اسماء : **غوتنبرغ** ، رجل محاكمة ستراسبورغ ، **جـان فوست** ، وهو بورجوازي كان يلعب دور الممول ، وبيير شوفر ، طالب سابق في جامعة باريس ، ويحتمـل انه كان نساخا وخطاطا قبـل أن يصبح طابعا .

بعد أن بقي غوتنبرغ في ستراسبورغ حتى عام ١٤٤٤ على الاقل ، عاد الى أسرته قبل شهر تشرين الاول من عام ١٤٤٨ . لكي يتمكن من متابعة ابحاثه والانتهاء من انجاز طريقته ، كان بحاجة الى رأس مال كاف ؛ وقد وجد الممول المناسب في شخص فوست الذي أقرضه في البداية مبلغ ٨٠٠ فلورين بفائدة ٥٪ (عام ١٤٥٠) ، لكي يستطيع صناعة بعض الادوات ؛ ثم وعده بعد ذلك بمبلغ ٣٠٠ فلورين لصناعة الكتب ، وذلك بموجب عقد ادرجت فيه تكاليف شراء الورق والرق والحبر : كل هذا يدل على ان غوتنبرغ كان على وشك الوصول الى غايته اذا لم يكن قد وصلها فعلا . ولكن في عام ١٤٥٥ ، حدث ما لم يكن في الحسبان : اذ قام فوست باتهام غوتنبرغ بعدم الالتزام والوفاء بتعهداته ، ثم قاضاه في المحكمة وحكم عليه بدفع الفوائد المترتبة عليه واعادة راس المال الذي لم يقم بصرفه بعد . وبعد ذلك بسنتين ، في ١٤ تشرين الاول ١٤٥٧ ، ظهر اول مؤلف مؤرخ : وهو **« زبور مايانس »** ، من اعمال فوست وشريكه الجديد بيير شوفر . ثم ما لبث شوفر هذا أن طور اعماله ووسعها حتى ظل مشغله من اكثر المشاغل اهمية في اوروبا كلها الى مطلع القرن السادس عشر .

الا أن هناك كثيرا من الاسرار الغامضة والالغاز التي لم تتضح بعد . فالتنفيذ الكامل « لزبور مايانس » يثبت أن هذا العمل لم يكن مجرد محاولة . كما أن دراسة بعض الاعمال السابقة مثل « الدونا » والتقاويم الفلكية الالمانية ، يدفعنا للاعتقاد بان الطباعة كانت معروفة سابقا ، وانها كانت تتم بطريقة صناعية منذ عام ١٤٥٠ على الاقل . الا يمكن القول ، والحالة هذه ، بأن غوتنبرغ قد قام بالطباعة قبل عودته الى مايانس ، وخاصة عند مشاركته لفوست ؟ ثم الم يقم هذا الاخير ، بعد التأكد من نجاح ابحاث غوتنبرغ ، بالتخلص عندئذ ، عن طريق المحاكمة ، من هذا المخترع المزعج الذي استبدله بأحد مساعديه ، وهو بيير شوفر ، الذي كان يعرف جميع اسرار معلمه ، والذي كان يبدو اكثر مرونة منه بالاضافة الى حسه التجاري ؟ في هذه الحالة اذن ، الا يبدو غوتنبرغ نموذجا للعالم الذي يجرد من سره بعد أن كرس له السنوات الطوال من البحث والجهد؟ فهل تابع غوتنبرغ اعماله بعد انفصاله عن فوست أم ماذا ؟ وهل ذهب فعلا ليتابع اعماله في (بامبرغ) كما افترض بعضهم دون دليل قاطع ؟

ان ما نعرفه عنه بعد عام ١٤٥٥ لا يتعدى القليل القليل : فاغلب الظن أنه عاش في حالة بائسة من الفقر والعوز ، لانه لم يستطع ، منذ عام ١٤٥٧ حتى وفاته ، أن يدفع لمجلس كهنة (سان ـ توماس) في ستراسبورغ مبلغ أربع ليرات ، وهي مقدار الفائدة السنوية المترتبة عليه لقاء قرض أخذه عام ١٤٤٢ . ولكن في عام ١٤٦٥ ، قام رئيس اساقفة مايانس بمنحه لقب النبلاء تقديرا لخدماته الجلى والحقه بقصره في (آلتفيل) حيث يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان قد اقام هناك ورشة للطباعة . على كل حال ، اذا كان العديد من النصوص المعاصرة يشير الى الدور الذي لعبه في اختراع الطباعة ، فان اسم غوتنبرغ لم يرد بالمقابل في توقيع أي كتاب .



يلاحظ اعتبارا منا لسنوات ١٤٥٠ ــ ١٤٥٥ أن عدة ورشات اخذت تعمل في مايانس بآن واحد وتنتج ، بطريقة صناعية ، عددا كبيرا من المؤلفات : ككتب القواعد الملخصة لـ (دونا) ، المعدة لتعليم المبادىء الاولية للغة اللاتينية ، وعدة تقاويم باللغة العامية ؛ بالاضافة الى « رسائل الغفران » ، وهي عبارة عن ايصالات كان يعطيها البابا (نيقولا الخامس) سنة ١٤٥١ لمن يشترون الغفران ، وذلك من أجل مساعدة (غوي دي لوزينيان) ملك قبرص ؛ كما صدرت أيضا مؤلفات أكثر اهمية منها : كتاب التوراة الشهير المؤلف من ٤٢ سطرا والذي يعتبر تقليديا أول كتاب مطبوع ؛ التوراة المؤلفة من ٣٦ سطرا بمجلداتها الثلاثة والتي صدرت قبل عام ١٤٦١ ؛ « زبور مايانس » الذي مر ذكره آنفا ؛ « كتاب قداس كونستانس » و « الدواء الشافي لجيوفاني » بالبي (١٤٦٠) ، وغير ذلك من المؤلفات التي خرجت جميعها من المطابع المايانسية الاولى ، والتي كانت موضع دراسات دقيقة حيث قسمت وفق أشكال حروفها الى فئات مختلفة ، حتى أن بعض البحاثة حاولوا أن ينسبوها الى ورشات معينة . ونحن لا نريد أن نتبع نفس الطريق ، ولكن يستنتج أن رجال الطباعة ، في هذه الفترة التي بدىء فيها بتطبيق الطباعة لغايات صناعية، قد بدؤوا يزدادون ثقة بقوتهم تدريجيا كلما تحسنت تقنيتهم وطريقة انتاجهم : فخلال السنوات الاولى ، لم يكونوا يطبعون سوى لوحات الاعلانات والبطاقات ، ثم تشجعوا واخذوا ينشرون المؤلفات الكبرى . عندما خطرت على بال الطابع (بفيستر) ، من بامبرغ ، فكرة ارفاق النصوص بالصور والاشكال المنقوشة ، اخذ الكتاب عندئذ شكله النهائي، بينما اخذ تلامذة رجال الطباعة الاوائل ينتشرون في جميع ارجاء أوروبا ويشرعون في تعليم اكثر طرق نشر الفكر فعالية حتى عصرنا الحاضر .

Leuiticus

[illegible]

(توراة غوتنبرغ ، ذات الـ ٤٢ سطرا)

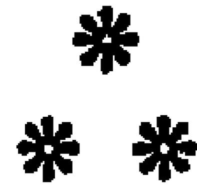
٣ ـ صناعة الحروف

مهما كانت الطرق المستخدمة بدائية آنذاك ، فقد نجح رواد الطباعة الاوائل في انتاج تحف رائعة . فالتوراة ذات الـ /٤٢/ سطرا ، « توراة غوتنبرغ » الشهيرة ، ما زالت حتى الآن مثار اعجاب الدارسين من المتخصصين . الا ان هذا لم يتحقق ولا شك ، الا بالجهد الجهيد والصعوبات الجمة والزمن الطويل . اذ ظلت هناك مع ذلك مراحل كثيرة كان لا بد من قطعها لتحسين مردود هذه الصناعة الجديدة . وبالفعل، كانت المشاكل متعددة لا يمكن حلها الا بصورة تدريجية عن طريق الممارسة والخبرة وبعد التلمس الطويل والابحاث المستمرة التي لم يتمكن العلماء والمؤرخون من حصرها واستيعابها بشكل كامل .

فلنبدأ اولا بالمسائل العديدة التي كانت تطرحها الحروف وصناعتها. اذ لم يكن يكفي انجاز طريقة المنقش والقوالب والحروف التي تسمح بالحصول على نماذج متحركة ، بل كان لا بد ايضا من العثور على معادن وخلائط ذات مقاومة مختلفة حتى لا يتلف المنقش بعد ان يكون قد قام بالكاد بضرب بضعة قوالب ، وحتى لا يتلف القالب سريعا عند سكب الخليط المصهور ؛ كذلك كان لا بد ان يعطي هذا الخليط حروفا قابلة للتحبير بشكل مناسب وغير قابلة للتلف السريع من الاستعمال .

يبدو ان المناقش الاولى قد صنعت من الشبه او البرونز ، وهما معدنان اقل مقاومة من الفولاذ (الذي استخدم فيما بعد) ، وانهم استخدموا القوالب الطابعة التي حصلوا عليها بسكب الرصاص حول المناقش ، ثم قوالب الرصاص ، قبل اللجوء الى القوالب النحاسية . كثيرا ما نسب الى (شوفر) ادخال الفولاذ والنحاس في صناعة المناقش والقوالب . الا ان الاعتقاد قد ساد أحيانا بأن استخدام المنقش الفولاذي لا يرجع الا الى الربع الاخير من القرن الخامس عشر ، وان بعض القوالب الرصاصية ظلت موجودة حتى مطلع القرن السادس عشر . في هذه الشروط ، يمكن لطبيعة المعدن المستخدم ، ولصفاته أحيانا ، أن تساهم

في تفسير التنوع اللامتناهي للانواع المستخدمة في القرن الخامس عشر ، المصنوعة بواسطة المناقش والقوالب التي كانت تبلى بسرعة في بعض الاحيان . وقد كان هذا سيئة كبرى حيث ان الشارات الطباعية كانت أكثر عددا مما هي عليه اليوم بكثير ، لان الرغبة في تقليد الكتابات المخطوطة كانت تحض الطابعين على أن يصبوا معا حروفا يربط بينها شريط خاص، علاوةعلى الكلمات الإصطلاحية الموجزة: (a = an ou am;q = quia etc ...) ويمكننا هنا أن نتساءل اذا كان التخلي التدريجي عن استخدام هـذا الشريط الرابط وهذه الكلمات الموجزة العديدة في الكتب المطبوعة خلال القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، لم يكن ناجما في الاصل عن الرغبة في الاقلال من عدد المناقش اللازمة والقوالب المطلوبة : وهذه ظاهرة من ظواهر ذلك الميل نحو التوحيد والتبسيط الذي تميز به تطور الكتاب وصناعته في مجالات عدة .



كانت الحروف الطباعية نفسها تطرح مسائل مماثلة أيضا . فهل تم التوصل دفعة واحدة الى ايجاد خليط ذي مقاومة كافية لتجنب هذا التلف السريع ؟ وهنا يمكن أن ندرك مدى صعوبة هذه المسألة وتعقيدها ، عندما نعلم بأن الحروف الحالية مؤلفة من خليط من ثلاثة معادن هي : الرصاص ، القصدير والانتيموان ، المزوجة مع بعضها بنسب دقيقة صارمة للحصول على المقاومة القصوى . اذ لو صنعت من الرصاص وحده لكانت عرضة للصدأ ؛ ولو تألفت من خليط من الرصاص والقصدير وحدهما ، لما كانت على درجة كافية من الصلابة .

من المؤكد أن حروف القرن الخامس عشر (وحتى حروف القرون الثلاثة التالية) كانت ذات مقاومة كافية ، الا انها أقل مما هي عليه اليوم على الاغلب : وقد استنتج (امبرواز فيرمين ـ ديدو) ، عند دراسته المطبوعات اليونانية « للألد » ، أن الحروف التي كانوا يستخدمونها كانت سريعة التلف ؛ وفي عام ١٥٧٠ ، اصطدم (بول مانوس) أيضا بصعوبات

مماثلة لانه طلب أن تصبّ له حروف جديدة لكل كتاب جديد : حتى لا تتلف بعد اربعة أشهر عند الوصول الى منتصف المؤلف . استنادا الى المعلومات التي تشير غالبا الى أن الطباعة قد تمت (بنقوش من القصدير) ، ظن الناس أحيانا بأن الحروف الاولى كانت مصنوعة من خليط أساسه القصدير . لا شك في أنهم كانوا يترددون في اضافة كثير من الرصاص عليه ، حتى لا يؤدي صب الحروف المصنوعة اساسا من الرصاص في قوالب رصاصية أيضا (وهي عملية ممكنة ولكنها دقيقة) الى تلف هذه القوالب . كما ظن بعضهم بأن معدن « الانتيموان » قد أدخل في الخليط بصورة متاخرة ، لان مناجم الانتيموان لم تستثمر الا في القرن السادس عشر . الا أن هناك عائقا وحيدا يقف في وجه هذه النظرية لا بد من تمييزه : اذ أن أقدم الحروف التي وصلتنا ، وهي حروف من مدينة (ليون) ترجع الى نهاية القرن الخامس عشر أو مطلع القرن السادس عشر ، درست من قبل السيد (أودين) فتبين له بعد التحليل الدقيق انها مشكلة من خليط ثلاثي : القصدير ، الرصاص الانتيموان ، مع قليل من الفضة أو الحديد أحيانا . في هذه الشروط ، لا يمكن تفسير قلة المقاومة الا بشيء واحد هو الفرق في نسبة هذا الخليط الذي يصعب قياس عياره (خاصة وأن هذه النسبة كانت تختلف باختلاف الحروف المدروسة) . كما يمكن الاعتقاد من جهة ثانية ، بأن بعض عمال الطباعة الاقل مهارة أو الذين لم تتوفر لديهم كافة المعادن اللازمة ، قد انتجوا خلائط اقل جودة من سواها . كذلك يجب الا يغرب عن بالنا ، أنه بعد ذلك بحوالي ثلاثة قرون (عام ١٧٦٤) ، بيّن لنا أحد المشاهير في صبّ الحروف ، وهو السيد (فورنييه) ، أن صنع خليط جيد هو عملية في منتهى الدقّة ؛ كما ذكر بأن الاوائل ظلوا لفترة طويلة يستخدمون خليطا من الرصاص والنحاس الخام المسمى « بوتين » والانتيموان ، مع الحديد احيانا ، فيحصلون على معدن شديد الكثافة والمرونة . منذ ثلاثين عاما ، تم تبسيط العمل وتحسين نوعية المعدن باستخدام الرصاص والانتيموان ، مما يدل على انهم لم يتوصلوا ، حتى القرن الثامن عشر ، الى صنع خلائط مرضية تماما .

*

* *

مهما يكن ، فالحروف تتآكل بسرعة ، مما كان يضطر الطابعين الى تبديلها باستمرار ؛ وهذا ما كان يضعهم دائما أمام صعوبات كثيرة في هذا المجال .

لكي ندرك مدى هذه المصاعب ، يجب الا ننسى ان صنع المناقش وسكب القوالب وتسويتها ، بالاضافة الى صب النماذج ، كلها عمليات طويلة ودقيقة ، لا يمكن القيام بها الا من قبل رجال متخصصين . فصانع المناقش خاصة ، يجب ان يكون خبيرا امضى السنوات الطوال في التدرب والممارسة . بينما نجد انه عندما ظهرت الطباعة ، هذه الصناعة الجديدة كل الجدة ، اضطر رجال الطباعة الاوائل لان يقوموا ، هم انفسهم ، بصناعة مناقشهم وقوالبهم بالاضافة الى صب الحروف : وهذه محاولة مجهدة طويلة ومكلفة ، نفذت ولا شك بوسائط بدائية ، ولم تنجح حتما الا لان الكثيرين منهم كانوا صاغة قدماء .

كان من الطبيعي والحالة هذه ، الا يستمر الوضع طويلا على هذا النحو وأن يظهر رجال متخصصون في الطباعة ، يتنقلون من مشغل لآخر ، واضعين خدماتهم تحت تصرف أرباب هذه الصناعة الراغبين باكمال عتادهم أو تصليحه . الا أن المناقش والقوالب ظلت ملكا لكل مشغل ، مما يساهم في تفسير ظاهرة التنوع اللامتناهي للحروف المستخدمة في المطبوعات الاولى . كذلك كانت صناعة الحروف المنفذة بهذا النحو تتطلب الكثير من الوقت ، مما كان يدفع الى استعمال الحروف الجديدة بمجرد وضعها ، الى جانب الحروف القديمة التي كان يجري استبدالها تدريجيا . كما أن كل هذا كان يكلف غاليا ؛ لذلك كانوا يغتنمون فرصة عرض اي عتاد للبيع بسبب الوفاة أو الافلاس . الا أن هذه حالة نادرة ؛ فلم يبق اذن سوى اللجوء الى زميل أكثر غنىً ، بغية شراء المعادن المصبوبة أو الحصول منه على بعض القوالب التي يمكن استخدامها في صب ما يلزم وفق الحاجة والامكانيات : ويبدو انه ، منذ الربع الاخير للقرن الخامس عشر ، تعود بعض الطابعين على هذا النوع من التجارة بشيء من التحفظ

في البداية ، لاجئين في كل مرة الى تبديل بعض الحروف التي كانوا يعيدون نقشها تمييزا لانتاج كل مشغل .

وهكذا نصل الى بداية التخصص ، حيث أخذت تجارة الحروف أبعادا كبيرة في مطلع القرن السادس عشر ، فانتقلت في البلاد الجرمانية الى ايدي ارباب الطباعة الكبار ، بينما أصبحت صناعة الحروف في فرنسا من اختصاص فئة محدودة من النقاشين الذين عرف بعضهم شهرة واسعة من أمثال (غارامون) أو (غرانجون) . في الوقت نفسه ، كان عدد المناقش المستخدمة يقل مع زيادة عدد القوالب والحديد المضبوب المنفذة بواسطة منقش واحد ؛ كما أدى التخلي عن الحروف القوطيــة وتبني الحرف الروماني الى تسهيل عملية التوحيد هذه وذلك بالاستغناء عن قسم كبير من العتاد القديم . ثم شيئا فشيئا ، خلال القرن السادس عشر ، أخذت صناعة وبيع الحروف تتركــز في أيدي عدد قليــل من المؤسسات التي كان أصحابها يسعون جاهدين لتجميع نخبة من أفضل المناقش . وهكذا استطاعت بضع عشرات من المؤسسات القوية أن تحتكر تجارة الحروف في أوروبا كلها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . وسنرى ، من الآن فصاعدا ، أن سوق الاحرف سوف يبدو منظما بطريقة عقلانية ، لان كل طابع يستطيع أن يجد المعادن المصبوبة الجاهزة اللازمة دون أن يضطر لصنعها بنفسه . الا ان هذه القطع المصبوبة كانت تباع بأسعار مرتفعة ، الامر الذي يفسر لنا أسباب الاستمرار الطويل لعادة شراء القطع المصبوبة بعدد قليل جدا : من ٦٠ حتى ١٠٠٫٠٠٠ شـــارة عادة في نهاية القرن السادس عشر ، أي ما يكفي لطبع بضع عشرات من الصفحات فقط في آن واحد . وقــد أدى ذلك الى الاضطرار لاعــادة استخدام الحروف دون توقف وبالتالي الى اهترائها بسرعة . ومن نتائج ذلك أيضا ، ان النص الذي ينتهي صف حروفه كان يوضع فــورا تحت المطبعة لكي يمكن استخدام حروفه هذه بأسرع ما يمكن ، لدرجة أصبح معها المؤلف الوجداني مضطرا لاجراء التنقيح اللازم **أثناء السحب؛** وهذا هو سبب الاختلافات اللامتناهية داخل الطبعة الواحدة .

*

* *

اذا كانت سوق الحروف قد استغرقت زمنا طويلا لكي تتنظم ، فقد احتاج « توحيد » ابعاد الحروف الى وقت أطول . ويبدو أن هذا قد ولّد صعوبات جمّة لرجال الطباعة القدماء .

ان « الارتفاع بالورق » (أي الارتفاع الكلي للحروف) ، المحدد في أيامنا هذه باتفاقيات رسمية (في فرنسا ، ٢٤ مم) ، كان في الاساس متفاوتا جدا : فلكل مشغل ولكل منطقة عاداتها ومقاييسها الخاصة . وقد كانت عمليات الصب احيانا ، لا تتم بارتفاع واحد حتى في المشغل الواحد : او هذا على الاقل ما يمكن افتراضه عندما نلاحظ انه ، من سلسلة مؤلفة من ٢٢٢ نموذجا ليونيا من القرنين الخامس عشروالسادس عشر ، التي وصلتنا ، يمكن أن نميّز ١٤ ارتفاعا مختلفا للحروف . وهكذا نجد أن لكل عملية صب ارتفاع حروفها الخاص ، وبالتالياستحالة استخدام صبتين معا دون أن نلجأ الى برد (صقل) كل فئة لاحدى الصبتين المذكورتين . الامر الذي كان يطرح الكثير من المشكلات ويؤخر تنفيذ العديد من المؤلفات . ولكن عندما أصبحت صناعة الحروف وقفا على فئة قليلة من كبار ارباب صب المعادن ، بدأ يظهر تدريجيا نوع من التوحيد ، رغم أن كل واحدمن هؤلاء كان يستخدم ارتفاعا مختلفاللحروف حتى يضمن ولاءا اشد وديمومة اكثر من قبل زبائنه . وحتى في القرن الثامن عشر ، وعلى الرغم من قيام لويس الخامس عشر بتحديد ارتفاع الحروف بعشرة أسطر ونصف ، فان (فورنييه) ينبئنا بأن عمال الطباعة والصب « الليوني » كانوا يستخدمون حروفا يصل ارتفاعها الى احد عشر سطرا ونصف .

ان عدم التجانس والتوحيد هذا قد استمر مدة طويلة أيضا بالنسبة لابعاد الحروف ذاتها . اذ لم يكن هناك اي قياس صحيح في هذا المجال ، بل مجرد مجموعة من الاصطلاحات التقليدية والجمالية : عين كبرى ، جوهره ، سيسرو ، حرف كبير روماني أو أوغسطيني ، وهي كلها مصطلحات تجريبية لم يكن يتفق عليها دائما ، كما كانت عرضة لتأويلات وملابسات شتى . هنا ايضا ، كان لا بد من انتظار القرن الثامن عشر ،

اي جهود (فورنييه) ومجيء (ديدو) ، للتوصل الى تبني وحدة قياس محددة : هي النقطة الطباعية التي تعتبر اصغر من قدم الملك بمقدار ١٤٤ مرة . هذه الوحدة هي التي ما زال يستخدمها رجال الطباعة الحاليون .

التنضيد والطباعة

بعد دراسة صناعة الحروف ـ اي عمل صانع المناقش وعامل الصب ـ نصل الآن الى عمل الطابع نفسه في مرحلتيه الاساسيتين : **التنضيد** (تركيب الاحرف) **والطباعة** .

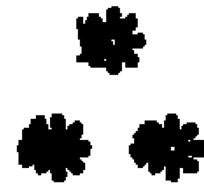
اما عملية التنضيد فهي قيام الطابع بجمع الحروف بصفحات أو مجموعات من الصفحات ، ثم وضعها كلها تحت المطبعة تمهيدا للمرحلة التالية من العمل الطباعي : وهي الطباعة نفسها .

*

* *

ان تقنية التنضيد باليد ، التي أخذ استخدامها يقل تدريجيا في أيامنا هذه منذ اختراع آلات التنضيد (التنضيد الآلي الحرفي والتنضيد الآلي السطري) ، لم تتغير مطلقا منذ اختراع الطباعة . فالادواتنفسها : حيث يكون منضّد الحروف أمام « **صندوق الحروف** » ، وهو عبارة عن رقعة خشبية مسطحة تحتوي على « **أدراج** » صغيرة يخصص كل واحد منها لحرف أو شارة طباعية معينة ، فيأخذ الحروف الواحد تلو الآخر ثم يضعها في « **الصف** » (وهو عبارة عن وعاء طولاني الشكل ، كان يصنع سابقا من الخشب ، أما اليوم فمن المعدن) ؛ عندما يتم تنضيد سطر ما ، يضعه المنضّد في « **مطرحه** » (لوحة لصف الحروف) ، وهي لوحة صغيرة تركب عليها السطور بين « **قاطعين** » يحفظان الحروف في مكانها ، ثم يعمد بعد ذلك الى جمع هذه السطور في صفحات ويجمع الصفحات في « **الشكل** » حيث تثبتها قطع خشبية مشدودة بقوة .

وهكذا نجد ان على المنضّد ان يقوم بسلسلة من العمليات اليدوية الدقيقة بسرعة كبيرة وبصورة مضمونة خالية من الخطأ . كما يجب أن تكون كل حركة من حركاته تلك اصبحت شبه آلية ، وهذا مفهوم جديد بالنسبة للقرن لخامس عشر . فالى اي مدى اذن ، ادت ضرورات المردود الصناعي ، من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر ، الى دفع رجال الطباعة للبحث عن الحلول التي تسمح بتنفيذ هذه العمليات في افضل شروط ممكنة ؟



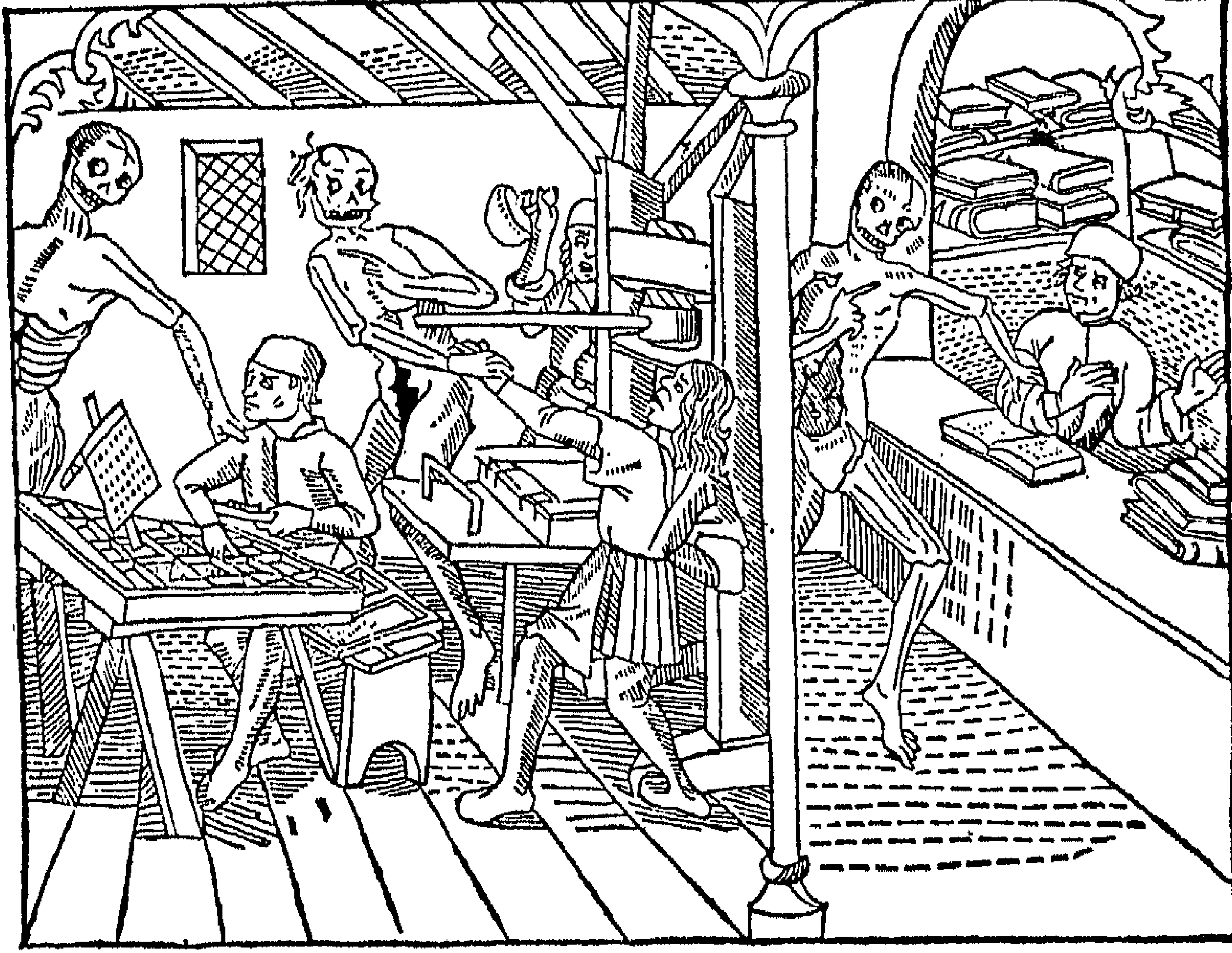
لا بد من التنويه اولا بأن المنضّدين في الاصل لم يكونوا يعملون في ظروف مريحة كما هو عليه الحال الآن . فهم يعملون اليوم واقفين أمام صندوق الصف الموضوع فوق طاولة مائلة ، مما يؤمن لهم حرية أكبر في الحركة . اما في القرن الخامس عشر (وحتى في السادس عشر ايضا)، فلم يكن الامر كذلك : هناك لوحة اسمها « رقصة اموات الطابعين » ، ظهرت في عام ١٤٩٩ ــ ١٥٠٠ لدى (ماتيو هوز) في مدينة ليون ، يظهر فيها المنضّد جالسا أمام صندوق للصف منخفض جدا ، ذي ميل خفيف ومرفوع فوق حامل . في السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، ظهرت سلسلة من النقوش ــ هي شعارات الطابعين بوجه عام ــ يبدو فيها صندوق الصف مرفوعا أعلى من ذلك ومائلا اكثر حتى يسمح بتناول الحروف الموضوعة في قسمه الاعلى بصورة أسهل . الا ان المنضّد لا يزال يعمل جالسا ، ولم يأخذ صندوق الصف وضعيته الحالية الا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، حيث اخذ المنضّد يعمل واقفا كما هو عليه الحال الآن .

هناك ملاحظة اخرى يجدر ذكرها : وهي ان عمل المنضّدين القدماء كان حساسا للغاية . ففي أيامنا هذه مثلا ، يستطيع المنضّد ، عندما

يأخذ حرفا من الصندوق ، أن يميّز بمجرد اللمس ، بواسطة فرضة محفورة على الوجه العلوي للحرف ، اتجاه هذا الحرف وان يضعه بالتالي في المصفّ دون أن يضطر للتحديق فيه تجنبا لوضعه بشكل مقلوب . بينما نجد ان الحروف القديمة التي وصلتنا تؤكد أن حروف القرن الخامس عشر كانت خلوا من الفرضة المذكورة آنفا ؛ وهذا يعني أنه كان على المنضّد ، في بعض الحالات على الاقل ، أن يمعن النظر في الحروف قبل صفّها على المصفّ .

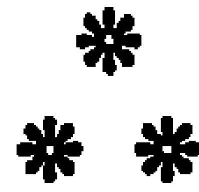
الا أن المشكلة الاساسية المتعلقة بعمل التنضيد هي التي يطرحها توزيع الحروف داخل الصندوق . ولتوضيح ذلك نقول : لكي يتمكن المنضّد من العمل بسرعة ، يجب عليه أن يتناول الحروف دون أن ينظر أو يتردد . عليه اذن أن يكون قد اكتسب في هذا العمل آلية شبيهة بالآلية التي يتمتع بها حاليا ضارب الآلة الكاتبة . ولكي يتمكن رجل الطباعة من اكتساب هذه الخبرة ، عليه أن يعمل دائما على صناديق تكون الحروف موزعة عليها بشكل متماثل ؛ وهذا يعني ضرورة توحيد الصناديق في مختلف الورشات التي يمكن أن يدعى للعمل فيها على التوالي ، حتى لا يضطر الى اعادة تكييف ردود فعله الانعكاسية كلما انتقل من ورشة الى اخرى ، الامر الذي كان شائعا في القرنين السادس عشر والسابع عشر وحتى الثامن عشر اكثر مما هو عليه اليوم .

لتجنب هذه المساوىء في ايامنا هذه ، اصبح يستخدم في كل مكان من البلد الواحد نفس النموذج من صناديق الصف مع بعض الفوارق البسيطة . في القسم الاعلى (الدرج العلوي) ، درجان منفصلان يحتويان على حروف الـ (majuscules) الكبيرة والصغيرة . أما في الدرج الاسفل ــ الاقرب الى الطابع ــ فتوجد باقي الحروف ، لكل منها درجه الخاص . الا ان صناديق الصف تختلف حسب كل بلد ولغته ، تماما كما



مشغل للطباعة في القرن الخامس عشر في « الرقصة الجنائزية الكبرى للرجال والنساء »
(ليون ـ السيد هوز ، ١٤٩٩)

يختلف ترتيب الحروف على الآلة الكاتبة : واذ كان على ضارب الآلة الكاتبة ، لكي يعمل بسهولة اكبر ، أن يضرب بالاصابع الاكثر خفة ومقاومة (الاصابع الوسطى) على الاحرف الاكثر استعمالا ، فان على صفائف الحروف ، للاسباب ذاتها ، أن يكون قادرا على تناول الحروف الاكثر استعمالا بسهولة أكبر ، الامر الذي يستدعي وضعها في الادراج الاقرب تناولا .



كيف كانت الحروف موزعة سابقا في الصناذيق ؟ هل كان منذ البداية موزعة بطريقة مختلفة من بلد لآخر كما هو عليه الوضع اليوم ، أم ان اللغة اللاتينية قد قامت ، على العكس ، بتأمين نوع من التجانس والوحدة ؟ في هذه الحال ، متى حصل التفريق ؟

هذا هو السؤال المطروح الآن . ولكن من المؤسف أن الاجابة عليه شبه مستحيلة ، اذ لا يوجد أي مستند ينبئنا عن هذا الموضوع بصورة دقيقة قبل نهاية القرن السابع عشر .

على كل حال ، اذا اعتبرنا أن عدد الشارات الطباعية ، في القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، كان متغيرا نتيجة استعمال الاختصارات المتعددة ، ومن جراء التعود على نقش مجموعات من الحروف المربوطة والمصبوبة معا وفق نموذج واحد ، فاننا نجد أن الصندوق لا يمكن ان ينتظم بطريقة مستقرة وثابتة . كل ذلك يدفعنا للاعتقاد بأن الاحرف كانت توزع داخل صندوق الصف بصورة مختلفة حسب المناطق — على ضوء الاستعمالات المحلية — في تلك الفترة حيث كانت التقاليد المحلية قوية في مجال الطباعة لدرجة نستطيع معها ان نميز بسهولة أصل الخشب العائد للقرن الخامس عشر أو السادس عشر من طراز صنعه ، وحرف القرن الخامس عشر من شكله ؛ كما أن نوعية الآلات الطابعة نفسها تختلف أيضا حسب المناطق . أدت الهجرات المستمرة لعمال الطباعة آنذاك ، الى المساهمة في غرس أساليب عملهم خارج أماكن نشأتهم وبعيدا

عن مواطنهم الاصلية ؛ وقد نجم عن الممارسة الطويلة نوع من التوحيد ، وذلك بانتصار الاساليب الامثل على سواها .

هكذا ولا شك ، اضطروا بصورة مبكرة لتبني المبادىء الاساسية التي تفرض نفسها على ما يبدو : كوضع الحروف وترتيبها بين أعلى صندوق الصف وأسفله . الا انه مع ذلك لم تخرج من كل هذا قاعدة دقيقة قبل بضعة قرون ، رغم ان هذا كان من شأنه ان يسهل عمل عامل الصف ويكسبه المهارة الآلية التي اشرنا الى ضرورتها آنفا .

في كتاب يدعى « العلم التطبيقي للطباعة » ، ينبئنا طابع من (أميان) يدعى (فرتال) ، أن توزيع الحروف في الصندوق عام ١٧٢٣ ، كان لا يزال يختلف في فرنسا حسب الورشات ، اذ أن المعلمين كانوا يقومون، على ما يبدو ، باجراء التغييرات على هواهم ، وخاصة في القسم العلوي من صندوق الصف ، لدرجة كان يضطر معها العمال ، عندما ينتقلون من مشغل الى آخر ، « الى التأقلم من جديد على الفرق بين صندوق وآخر » . لذلك ينصح (فرتال) من جهته ، باتخاذ تدبيرين يراهما مناسبين للتعميم : في التدبير الاول ، وضع حروف الـ (Majuscules) الكبيرة والصغيرة وفق الترتيب الابجدي كما هو عليه اليوم . فالحرفان (J) و (U) ، اللذان لم يكن استعمالهما دارجا كثيرا في أول العهد بالطباعة ، كانا موضوعين على حده ، مما يدل على قدم هذا التقليد . أما في اسفل القسم الايسر من الدرج العلوي وفي الدرج الاسفل ، فكانت الحروف موزعة كما هو عليه الوضع اليوم ، في ادراج كبيرة وصغيرة حسب نسبة استخدام كل حرف . لقد ورد ذكر هذا التدبير كما هو تقريبا ــ مع بعض الفروق الاساسية ــ في كتاب « المعاهدة الاولية للطباعة » لمؤلفه (مومورو) ، كما ورد في « الموسوعة » ، حيث يوجد اختلاف بين مستوى صندوق الصف واسفل الصندوق . وهكذا نرى انه حتى نهاية القرن الثامن عشر ، لم تكن أماكن الحروف قد حدّدت بعد بصورة نهائية . لذلك كان لا بد من انتظار مطلع القرن التاسع عشر حتى يعمّ تدبير قريب من التدبير الوارد لدى (مومورو) وفي الموسوعة (دون أن يصبح ثابتا مع ذلك) ويظل يستخدم من الآن فصاعدا .

ان الاداة الاساسية في عملية الطباعة هي الآلة الطابعة التي لم تتغير ، بسبب متانتها وبساطتها ، منذ منتصف القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر .

يعتبر مبدأ هذه الآلة في منتهى البساطة : ((**القالب**)) ، وهو تجميع عدة صفحات من الحروف المتماسكة بقوة حتى لا تتزحزح ، ويوضع فوق ((**الرخامة**)) ـ التي كانت تصنع في البداية من الرخام الاملس والمسطح ثم استبدلت في القرن الثامن عشر بصفيحة من الفولاذ . بعد وضع القالب على الرخامة ، يتم تحبيره بواسطة محبرة (طابه) ، ثم توضع الورقة على الحروف . عندئذ يتم تشغيل الآلة الطابعة : حيث يقوم الذراع بتحريك بزّال (برغي) علّقت في نهايته صفيحة أفقية تسمى ((**الصحن الضاغط**)) موضوعة فوق الرخامة مباشرة . وهكذا تنضغط الورقة على القالب بواسطة الصحن الضاغط فتظهر الطباعة عليها .

بهذا الشكل ، تبدو الطباعة بسيطة للغاية من حيث المبدأ . الا أنه من الناحية العملية ، كان لا بد للتمكن من استخدام هذه الآلة لاغراض صناعية ، من حل ثلاث سلاسل أساسية من المسائل :

١ ـ **السلسلة الاولى :** من المستحيل عمليا تحبير القالب بين الرخامة والصحن الضاغط ، لأن هذا الاخير لا يمكن له أن يرتفع بشكل يكفي لتنفيذ هذه العملية . لا بد اذن للتحبير من تحريك القالب ؛ وللتمكن من تنفيذ هذه المناورة ، يقوم عمال الطباعة بوضع الرخامة والقالب فوق « مجرّ » صغير يسير على سكة حديدية ، فيتقدم ويتراجع بتحريك مدوّر (Manivelle) أو « مقود » ، وذلك بفضل جهاز بسيط جدا من البكرات .

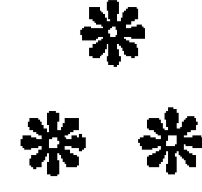
٢ ـ **السلسلة الثانية** من المسائل ، وتطرحها عملية الطباعة نفسها . من الانسب أولا الا تكون الورقة ملطخة عند الطباعة ـ وخاصة هوامشها ـ بالحبر الذي يمكن أن ينتشر على القالب كله اثناء التحبير . لذلك تستخدم لهذه الغاية ((**خافية**)) من الورق أو الرقّ لا تترك حرة من القالب سوى

الاجزاء التي توجد عليها الاحرف . ومهما كانت نوعية الحروف المستخدمة والعناية التي يبذلها العامل المكلف بصف هذه الحروف في عملية « **ضبط اطوال السطور** » ، فان من الصعب جدا أن تبلغ كافة الحروف نفس الارتفاع بالضبط . فاذا وضعت الورقة مباشرة فوق الصحن الضاغط المعدني عندئذ يحتمل الا تنطبع جيدا كافة الحروف الموجودة في المستوى الادنى ، كما يمكن لبعض الحروف الاخرى أن تنطبع بشكل زائد عن اللزوم اولا تنطبع بما فيه الكفاية . للحصول على مزيد من المرونة اثناء الطباعة ، من المناسب اذن أن توضع ، بين الورقة والصحن الضاغط ، ورقة من اللباد او عدة صحائف من الورق .

دفعت هذه الضرورات والمستلزمات المختلفة رجال الطباعة لاستخدام اسلوب « **الطوق** » و « **الهيكل** » (الطبلة) . فالطبلة عبارة عن هيكل مزدوج (الطبلة الكبرى والصغرى) مثبت بواسطة « مفصلات » بالصندوق الذي توضع داخله الرخامة والقالب . يزود كل من هذين القسمين بورقة رق ، كما يزود الهيكل الصغير او (الطبلة الصغرى) **بلبادة** غايتها تحسين البروز الطباعي . اما الطوق فهو هيكل آخر يتصل بالطبلة الكبرى بواسطة « مفصلات » ، من الطرف المقابل للطرف المثبت بالصندوق ؛ يكسى هذا الطرف بورقة من الرق أو بالورق المقوى المثقوب حيث تسقط الورقة هذه على الصفحات المنضدة ، للحيلولة دون تلطخ الورقة اثناء الطبع . عند بدء عملية الطباعة ، ينطبق الطوق على الطبلة او الهيكل فيثبت الورقة ويمنعها من التحرك .

٣ ـ **السلسلة الاخيرة** من المسائل الاكثر صعوبة : وهي التي تطرحها الابعاد المحدودة للصحن الضاغط ؛ فلكي تكون الطباعة مناسبة ، يجب على هذا الصحن ، عندما تعطى ضربة القضيب ، أن ينطبق تماما وبقوة كافية على مجموع مساحة الحروف حتى يستطيع اظهارها . لذلك يجب أن يكون سطح الصحن موازيا ومساويا تماما لسطح الحروف . وهكذا بقي من المستحيل طويلا تنضيد طباعة صفحة كاملة دفعة واحدة ؛ بل كان الطبع يتم بنصف الورقة : فبالضربة الاولى للقضيب يطبع النصف الاول ،

ثم يدفع « المجر » الى الامام ليطبع النصف الثاني . وهكذا كان لا بـد من تحريك القضيب مرتين لطباعة ورقة كاملة .



هذا هو الاسلوب الذي كان مستخدما في معظم البلدان الاوروبية من منتصف القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر . كانت الآلة الطابعة كما نرى ، اداة متقنة نسبيا ، سهلة الصنع لدرجة يمكن معها صناعتها من قبل نجار عادي . لذلك لم يكن هناك ، حتى القرن الثامن عشر وفي فرنسا على الاقل ، اختصاصيون في صناعة الآلات الطابعة .

ألم يقم الباحثون الاوائل باللجوء في البداية ، قبل تصور فائدة الآلة الطابعة وقبل انجاز هذه الاداة ، الى وسيلة الحك أو الفرك المستخدمـة سابقا في الطباعات النقشية ؟ ربما ، ولكن مما لا شك فيه انهم لجؤوا مبكرا للآلة الطابعة ، اذ من المستحيل أن يطبع مؤلّف بهذه الاهمية والتنفيذ المتقن كالتوراة ذات الـ ٤٢ سطرا مثلا ، بطريقة أخرى . ولكن كيف كان شكل هذه الآلات الاولى ، وكيف تم التوصل الى صنع آلة طابعة مناسبة ؟ ألم يتم اللجوء أولا الى حلول غير التي تم تبنيها فيما بعد ؟ الم تنفذ في بعض الحالات ــ وخاصة بالنسبة لعمال الطباعة الجوالين ــ طبعات بدون آلة طابعة ، أو بواسطة آلة في غاية الخفة والبساطة ؟

في الواقع ، تبدو تقنية الطباعة ــ حسب معرفتنا ــ مفعمة بالغموض والالغاز من بعض النواحي ، ومختلفة عما يمكن افتراضه او توقعـه ، وخاصة فيما يتعلق بقالب الحروف وجمعها . فاذا قمنا بفحص أقـدم الحروف التي وصلت الينا ، وآثار بعض نماذج القرن الخامس عشر الباقية على صفحات بعض النسخ ، نجد انفسنا أمام استنتاجات مشوشة بعض الشيء . اذ أن معظم هذه النماذج مثقوبة أو مشقوقة . كما أن العديد منها يكون طرفه المقابل للعين مقصوصا بشكل مائل أو منكسر ، مما يترك المجال مفتوحا أمام شتى الفرضيات . . .

يمكن ان نتساءل اولا اذا لم تكن الثقوب الجانبية التي نلاحظها في

معظم النماذج القديمة مخصصة لتمرير شريط أو ذراع معدني مستخدم للمحافظة على حروف السطر الواحد وتثبيتها للحصول على كتلة صفحة أكثر تماسكا وتجانسا في فترة لم تكن فيها وسائل « الشد » قد أنجزت بعد ؟ الا أن هذا يمكن ان يبدو في النهاية قليل الاحتمال . على كل حال ، اذا اعتبرنا أن هذه الفتحات قد تمت بعد صب الحروف ، بواسطة أداة فولاذية ومبرد ، على كل نموذج لوحده ، فاننا ندرك مدى الزمن الطويل الذي تستغرقه مثل هذه العملية ؛ وهكذا نجد أنفسنا أمام صعوبات تكاد تكون مستحيلة أحيانا ، الا أن عمال الطباعة الاوائل تمكنوا مع ذلك من التغلب عليها في فترة كانت فيها تقنية الطباعة لا تزال تتلمس طريقها الى النـور .

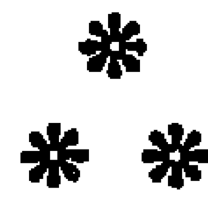
الا أن الاعجب من ذلك ايضا هي عادة تفصيل أطراف الحروف بشكل مائل أو منكسر . هنا نستطيع ولا شك أن نفترض بأنهم كانوا يعمدون الى ذلك للحصول بصورة أسهل على ارتفاع واحد للورق من جميع الانـواع والفئات ، علما بأن الشكل المنكسر يؤمن سهولة ودقة اكثر في العمـل بهذا المجال .

ولكن الحرف يرتكز بصورة أفضل اذا وضع على قاعدة مستطيلة بدلا من وضعه على قاعدة مائلة أو منكسرة ؛ كما أن الحروف التي توضع مائلة بهذا الشكل ، تميل ، ولو كانت مجمّعة ، الى النوم خاصة في تلك الفترة التي لم يكونوا يعرفون فيها على الارجـح تقنية الحصـول على تماسك الصفحة بواسطة الشد المحكم . كيف يمكن لكتب القرن الخامس عشر أن تتضمن صفحات بهذا المستوى الجيد من الطباعة المنسقة المنتظمة رغم التوازن السيء للحروف وصبها السيء وشدها المهزوز ؟ لقد توصل التقنيون الذين طرحوا هذه المسألة الى صياغة فرضية جريئة للغاية : مفادها ان الطباعة كانت تتم في بعض الحالات على نقيض الطباعة الحالية ؛ فالقالب المقلوب يوضع فوق الورقة وليس العكس كما هو مألوف .

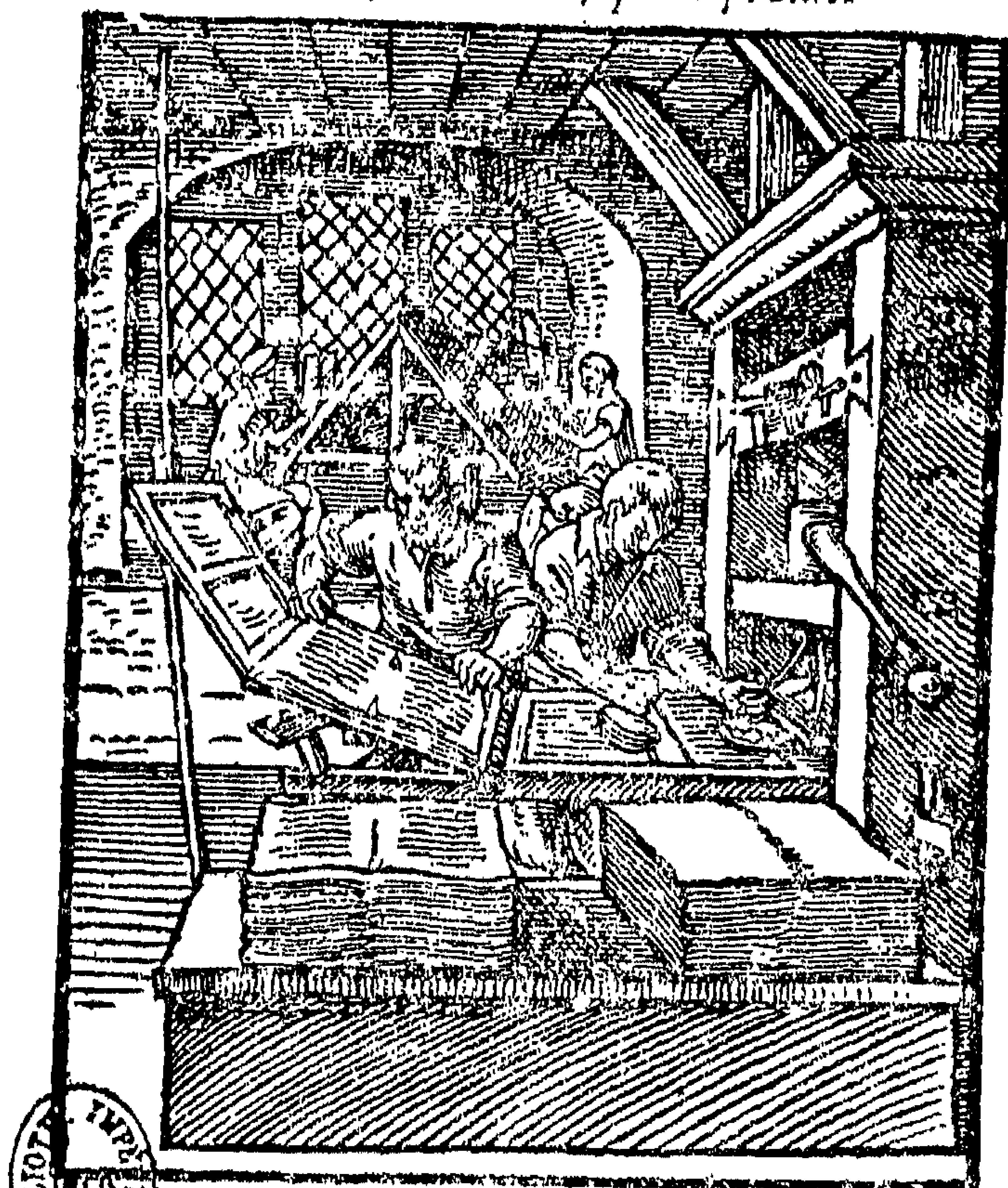
اذا كان الامر كذلك ، يمكن الاعتقاد بأن الآلات الطباعية الاولى كانت مختلفة عن الآلات التي تم تبنيها فيما بعد واكثر منها بساطة ولا شك .

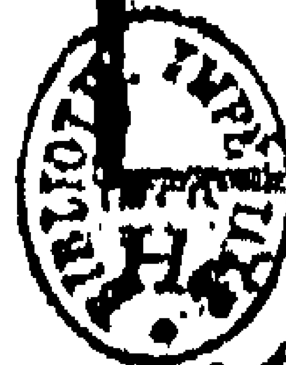
من هنا يمكن الاعتقاد ايضا بأن الآلة الطابعة لم تكن في الاصل اداة لا بـد منها لتنفيذ عملية الطباعة، خاصة اذا كان الامر يتعلق بالبطاقات الصغيرة، كما يمكن التساؤل عما اذا كان رجال الطباعة الجوالون العديدون في القرن الخامس عشر ، يحملون معهم دائما آلتهم الطابعة . نحن نأمل أن تؤدي الدراسات التقنية الجارية حاليا ، الى حل هذه المسائل في يوم من الايام .

مهما يكن الامر ، فلا شك ان الآلات الطابعة الاولى كانت بدائية . فالطبعات الاولى تم تنفيذها بالصفحة ، حتى لو كانت بقطع الربع ، كما كان للقالب آنذاك بعد صفحة واحدة . على الرغم من العناية الفائقة التي كانت تبذل في هذا العمل ، فقد ظل من العسير جدا ان تبلغ كافة سطور الصفحات نفس الارتفاع ، وهي التي تطبع تباعا ، الامر الذي كان يترك انعكاسا سيئا على مظهر الكتاب . الا أن هذا العيب ما لبث ان مال نحو الاختفاء اعتبارا من عام ١٤٧٠ ؛ ويبدو انهم أخذوا ، منذ ذلك الحين ، يستخدمون طريقة ضربة القضيب المزدوجة ، لان القالب قد أصبح يتألف من عدة صفحات كما يمكنه عند الحاجة اخذ ابعاد الورقة . الا ان ممارسة هذه الطريقة كانت تتطلب تحريكا سريعا ودقيقا للقالب الذي أصبح يوضع من الآن فصاعدا في مجر متحرك . وقد استخدم لتأمين هذه الحركـة الافقية ، قبل نهاية القرن الخامس عشر ، اسلوب المدوّر والبكرات . اكتفى الناس مدة طويلة بتحريك هذا المجر على طاولة من الخشب المسطح، ثم عمدوا الى وضعه على سكة حديدية ، مما سمح لهم بالعمل في ظروف افضل من حيث السهولة والدقة .



A 2. *Imprimo dum varios ære micante libros.*
Quæ prius aucta ſitu, quæ puluere plena iacebant,
Vidimus obſcura nocte ſepulta premi.





H[illegible] veterum renouo neglecta volumina Patrum
Atq; ſcolis curo publica facta legi.

رجل الطباعة في العمل لـ (هارتمان شوبفر)

لم تكن هذه هي التحسينات الوحيدة التي ادخلت على الآلة الطابعة منذ القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر . الا أن رجال الطباعة لم يكونوا يسعون الى تغيير مبدأ هذه الاداة ، بل الى تحسينها فقط. فقد قاموا ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، باستبدال البزال « البرغي » الخشبي ببزال معدني ، كما دعموا العناصر المعرضة لمجهود كبير لجعل الآلة اكثر صلابة ومتانة . ان هذه التحسينات المنجزة تظهر بسهولة عندما نتحص اللوحات والاشكال المنقوشة على الخشب وشارات (شعارات) الطابعين التي تمثل الآلات الطابعة : فالاولى من « ليون » ، والثانية ألمانية شمالية ، والثالثة فلمندية . . . فالآلة الطابعة الالمانية ، ذات المظهر الهزيل والسريع العطب ، قد افسحت المجال امام الآلة الفلمندية في كثير من المشاغل . اما الآلة الطابعة الليونية (نسبة الى مدينة ليون) ، فقد تم تبنيها في باريس ، ثم ما لبثت أن عمت فرنسا كلها ووصلت الى سويسرة وانكلترة ثم الى البلاد الواطئة واسبانيا . ويبدو أن استعمالها قد عمّ تقريبا في نهاية القرن السادس عشر .

الا انه ، عندما توسعت الصناعة الطباعية في هولانده في مطلع القرن السابع عشر ، قام أحد كبار رجال الطباعة ، المتخصص في لوحات « الاطلس » ، السيد (ويلام جانزون بلاو) ، بادخال عدة تحسينات وتغييرات على الآلة الطابعة ، بعد أن كان قد عمل سابقا مع العالم الفلكي (تيشو براه) وصنع أدوات للرياضيات قبل اهتمامه بالطباعة والنشر : حيث دعم وقوى بعض العناصر لكي يزيد من متانة الآلة ، كما نجح باستخدام نابض يدعى « النير » في جعل ضغط « الصحن الضاغط » موزعا بصورة متساوية اكثر من ذي قبل . بدات الآلة الهولندية تنتشر تدريجيا في كافة انحاء البلاد الواطئة (التي لن تلبث أن تتميز بجودة آلاتها الطابعة) ثم في انكلترة ، الا أنها لم تعرف طريقها الى فرنسا حيث استمر[٢٨] استخدام الآلة الطابعة الكلاسيكية . وهكذا نجد أن الآلة التقليدية ذات الضربتين لم تعرف سوى تعديلات طفيفة في التفاصيل ، وذلك من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر ؛ أي أن رجال الطباعة قد اكتفوا ،

طيلة ما يقرب من ثلاثة قرون ، بهذه الاداة المتينة التي كانوا يطبعون عليها بسرعة مدهشة : حيث كانت التعاونيات في القرنين السادس عشر والسابع عشر تعمل من ١٢ ـ ١٦ ساعة يوميا لتنتج /٢٥٠٠/ الى /٣٥٠٠/ ورقة (مطبوعة على جانب واحد) ؛ وهكذا كانوا يخرجون بواسطة الآلة الطابعة ذات الضربتين ، ورقة كل ٢٠ ثانية . لا شك أن مثل هذا المردود مدعاة الدهشة والاستغراب .

كان لا بد من انتظار نهاية القرن الثامن عشر وظهور « الموسوعة » حتى نرى ارباب الطباعة يهتمون بزيادة الانتاج وبالمسائل التقنية ، ويبحثون عن وسيلة لزيادة سرعة العمل على الآلة الطابعة مع الاقلال من الجهود المنهكة التي كان يبذلها العمال . في الفترة الواقعة بين عامي ١٧٨٢ و١٧٨٥، انجز رجلان من كبار أرباب الطباعة (« فرانسوا ـ أمبرواز ديدو » ، و « لوران انيسون ») الآلة الطابعة ذات الضربة الواحدة ، وذلك بتعديل اسلوب عمل البزال الا أن اختراعهم لم ينتشر كما يجب على ما يبدو . أما الشيء الوحيد الذي ادى الى تبني اداة مختلفة تماما عن القديمة ، فهو زيادة عدد الطبعات (التي يرجع اليها الفضل أيضا في الثورات التي تحدثنا عنها آنفا في مجال صناعة الورق) . حوالي عام ١٧٩٥ ، وفي مدينة لندن ، قام اللورد (ستانهوب) ، يساعده الميكانيكي (والكر) ، بصنع آلة طابعة معدنية بكاملها تقريبا ، ما زال الكثيرون من رجال الطباعة يستخدمونها الى اليوم من أجل سحب طبعاتهم التجريبية . بعد ذلك جاءت الثورة الميكانيكية في القرن التاسع عشر لكي تعمل عملها . ففي ٢٩ تشرين الثاني ١٨١٤ ، قام (جون والكر) ، مدير جريدة « التايمز » التي تعتبر من كبريات الصحف ، باطلاع عمال الطباعة الذين كانوا يستعدون لبدء عملهم على المطبعة اليدوية ، على العدد القادم من جريدته التي سحبت خلال الليل بواسطة مطبعة آلية مستخدمة صناعيا . وقد كتب في هذا العدد بكل فخر واعتزاز : « ان عددنا لهذا اليوم يقدم الى الجمهور النتيجة العملية لاكبر تحسين عرفته الطباعة منذ اختراعها » . ثم يضيف : « خلال ساعة واحدة ، نستطيع أن نطبع ما لا يقل عن /١١٠٠/ ورقة » .

وهكذا دخلت الطباعة في مرحلة جديدة من تاريخها .

٥ ـ ترتيب الصفحات (قبل الطبع)

ان المسائل التي اتينا على ذكرها ليست الوحيدة المطروحة على ارباب الطباعة القدماء . اذ ان القيام بالطباعة المناسبة كان يتطلب منهم أيضا الحصول على ورق من النوع الجيد ، ولم يكن هذا بالامر اليسير دائما . وحتى في حال توفر هذا الورق ، كان لا بد من اخضاعه لعملية تحضير خاصة . كذلك كانت تطبع على الورقة الواحدة عدة صفحات من الحروف المصفوفة في آن واحد ، مما كان يطرح مسائل في غاية التعقيد كما سنلاحظ فيما بعد .

لكي يتحمل الورق الطباعة ويتلقى الحبر بصورة مناسبة ، كان لا بد له ان يكون متينا ومصمغا بعناية فائقة . الا ان هذا لم يكن مؤمنا دائما في عصر ورق القالب ؛ لذلك اعتاد الورّاقون ، منذ القرن الخامس عشر ، على توجيه عناية خاصة الى بعض أنواع الورق المخصص للطباعة . وقد استطاع الورّاقون الايطاليون خاصة ان ينتجوا في تلك الفترة انواعا ممتازة من الورق السميك القليل الخشونة ، ذي لون ابيض ـ ومادي متجانس ، استطاع ان يرضي الزبائن ارضاءا تاما .

الا ان الآلة الطابعة اكبر « ملتهمة » للورق ، لذلك لم يكن في وسع الطواحين أن تغطي الاحتياجات المتزايدة . وهذا ما كان يضطر الناس ، في القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، لاستخدام أنواع من الورق من مصادر مختلفة في كتاب واحد أحيانا . وفي القرن السادس عشر ، عندما ازداد عدد الآلات الطابعة ، لم تستطع الصناعة الورقية ، في اماكن كثيرة ، أن تنجح في تقديم ورق مناسب للطباعة . أدى النقص في الخرق الجيدة ، مع الرغبة في العمل الاسرع للحصول على ربح أكبر ، الى دفع الورّاقين لتقديم انتاج من نوعية سيئة . من الآن فصاعدا ، في كل مكان تقريبا ولمدة طويلة ، سيظل مراسلو رجال الطباعة يشكون ويتذمرون من هؤلاء الذين يسلمونهم بضاعة خشنة ضعيفة المقاومة ، مائعة ورديئة التصميغ . وهكذا تأثرت جودة الكتاب بهذه العوامل ، خاصة وأن

الحاجة الى التوفير ــ وبالتالي شراء الورق من أقرب مكان اقتصادا في نفقات النقل ــ قد دفعت أرباب الطباعة الى الاكتفاء ، في أغلب الاحيان ، بالورق المصنوع في طواحين المنطقة . في الواقع ، لن تتوقف هذه الممارسات الا في القرن الثامن عشر .

الا أن اكثر المسائل حساسية في هذا المجال ، هي التي كان يطرحها ترتيب الصفحات داخل القالب . فلنذكر أولا ، على سبيل الايضاح ، ببعض المبادىء الاساسية المتعلقة « بقياسات » الكتب : الـ (in - folio) أو (النصفي) هو القياس الذي تطوى فيه الصفحة مرة واحدة؛ هنا تطبع على كل ورقة اذن أربع صفحات (اثنتان في كل وجه) ؛ في القياس (in - 4°) تكون الورقة مطوية مرتين وتتألف من ثماني صفحات (أربعة من كل جهة)؛ في القياس (in - 8°) ، تكون مطوية ثلاث مرات وتتألف من ستة عشر صفحة (ثمانية من كل جهة) ؛ وهكذا دواليك . . .

تشكل الاوراق المطوية بهذا الشكل دفترا يحتوي على اربع صفحات بالنسبة لل (in - folio) ، ثماني صفحات بالنسبة للقياس (in - 4°) وستة عشر صفحة بالنسبة للقياس (in - 8°). الا ان ضرورة اضفاء مزيد من المتانة على الدفاتر من قياسي (in - folio) و (in - 4°) دفعت الى ضم ورقتين معا واعطاء الدفاتر حجما مضاعفا (مع مضاعفة عدد الاوراق في الوقت نفسه) . أما بالنسبة للقياسات الصغيرة (in - 16 , in 24 , in - 32) ، فان السماكة الكبيرة للدفتر المؤلف من ورقة كاملة ، كانت تدفع رجال الطباعة الى صنع عدة دفاتر بواسطة صفحات مطبوعة على ورقة واحدة : من اجل القياس (in - 16) ، تقطع الورقة قسمين ويصنع دفتران من ثماني أوراق ، اي ١٦ صفحة . أما بالنسبة للقياس (in - 25)، تقطع الورقة من ثلثها ويعمل منها دفتران، أحدهما من ثماني أوراق ، اي ١٦ صفحة ، والثاني من ٤ أوراق اي ٨ صفحات (الدفتر الكبير والدفتر الصغير) .

من اجل ثني الورقة على هذا النحو ، يجب أن يحرص أرباب الطباعة

على اعطاء كل ورقة مكانهـا المناسب في القـالب . فمن أجـل النصفي (in - folio) ، يجب أن توضع الصفحتان الاولى والرابعة جنبا الى جنب من جهة ، والصفحتان الثانية والثالثة من جهة ثانية ؛ كما يتم الشيء ذاته بالنسبة لباقي القياسات . طريقة معقدة في الظاهر ، الا انها تؤمن لكـل دفتر سماكة مناسبة ، وللمجلد المدموج مقاومة قصوى ؛ كما تسهل أيضا عمل المجلّد الى حد بعيد ، لان هذا يستطيع ان يطوي أوراق المجلد الواحد بطريقة موحدة متساوية وآلية ، دون الوقوع في أخطاء ترقيم الصفحات ، التي كانت شائعة قبل تبني هذه الطريقة .

تدل بعض الاكتشافات الحديثة على أن النساخين كانوا هم أيضا يعرفون وسائل ترتيب الصفحات هذه ويطبقونها على المخطوطات ذات القياس المتوسط والصغير المعدة للتعليم (كالكتب الوجيزة ومجموعـات النصوص) أو لبعض الطقوس الدينية (ككتب الصلوات وبعض النصوص للهيئات والمجالس الابرشية) ، التي كانت تنشر عادة باعداد كبيرة . الا أن عادة طبع المؤلفات بالصفحة ، والابعاد المحدودة للقالب (اصغر من ابعاد الورقة) ، قد دفعت أرباب الطباعة ولا شك الى القيام في الاصل بقص الورقة قبل الطباعة مما كان يزيد في طولها . كما أن الاوراق كانت تظهر عادة بقياسين : القياس **الملكي** (حوالي ٧٠×٥٠ سم) والقياس **المتوسط** (حوالي ٥٠×٣٠ سم) ؛ وقد كانوا يستخدمون غالبا أنصاف أوراق من القياس الملكي الى جانب أوراق من القياس المتوسط ، حتى اننا نجد في الكتاب نفسه أوراقا من قياس نصفي (in - folio) واخرى من قيـاس (in - 4°) . واخيرا ، كانت الدفاتر تتضمن العدد المناسب من الاوراق الذي يساعد على تأمين متانة التجليد ، كما كان عددالصفحاتالتيتضمنها كل دفتر ، يختلف في اغلب الأحيان في المؤلّف ذاته ، فالدفاتر ذات القياس (in - 4°) من الطبعات الاولى مثلا ، نادرا ما كانت تتألف من ورقـة واحدة مطوية مرتين : اذ كانوا يعمدون عادة الى ثني (طي) ورقتين أو ثلاث في آن واحد ؛ وفي نهاية القرن الخامس عشر ، استقرت العادة على صنع دفتر بقياس (in - 4°)من ورقتين ، أي ٨ صفحات .

يمكننا بسهولة ان نتصور مساوىء هذه الطرق : كالاخطاء التي يمكن الوقوع فيها أثناء الطباعة ، والحسابات التي كان يقوم بها رجل الطباعة حتى تأتي كل صفحة في مكانها من الكتاب ، والصعوبات التي كان يصطدم بها المجلّد عند تجميع الاوراق . كل ذلك يدلنا ، في هذا المجال وسواه ، على مدى تعقيد مهمة أرباب الطباعة ، حتى اللحظة التي توصلوا فيها ، تحدوهم الخبرة والتجربة ، الى تبني طرق موحدة بالاضافة الى « مهارات المهنة وحيلها » ، وذلك خلال القرن السادس عشر ؛ وقد استمرت هذه الوسائل حتى القرن التاسع عشر وحتى عصرنا هذا أحيانا .

٦ ـ السابقة الصينية

كلنا يعلم أن الصين باختراعها الورق قد ساهمت ، بصورة غير مباشرة ، في اكتشاف فن الطباعة الاوروبية . حتى الآن ، لا يوجد ما يثبت اننا ندين لها بأكثر من ذلك . الا أن الصين كانت تعرف الطباعة بواسطة الاحرف المتحركة قبل حوالي خمسة قرون من هذا الاختراع المنسوب الى (غوتنبرغ) .

فالصين بلد الادباء الامثل ، حيث تقدس الدراسة اكثر من اي بلد في العالم وتعتبر معين الحياة ، وحيث يزدهر الادب ويغنى من عصر الى عصر . ونحن نستطيع أن نفترض ، استنادا الى أقدم الوثائق المكتوبة ، ان الكتاب كان موجودا هناك منذ سلالة (شانغ) الحاكمة (١٧٦٥ـ١١٢٣ قبل الميلاد) . وقد استطاع الباحثون أن يكتشفوا على قطع من العظام او على الصناديق العظمية للسلحفاة (التي كانوا يفجرونها بواسطة رؤوس مدببة محمرة على النار لاستخراج الوحي الآلهي) ما يقرب من / ٢٥٠٠ / حرفا مختلفا هي مصدر الـ / ٨٠,٠٠٠ / حرف الحالية . كما نجد فيها غالبا الطابع الغالب على الكراسة الرقيقة للكتاب الصيني في عصرنا الحاضر . تتألف هذه الكراسة من اربعة سطور شاقولية يخترقها أفقيا ابزيم عريض ، وهذا يمثل فعلا الكتاب في اقدم أشكاله : كاللوحات الخشبية أو المصنوعة من « البامبو » التي كانوا يكتبون عليها

شاقوليا بواسطة عيدان مدببة مغموسة في نوع من البرنيق والتي كان يجمعها ويشدها سوار من الجلد أو حبال من الحرير . وقد ظلت هذه الكتب المصنوعة من الجذاذات (الاوتاد) رهن الاستعمال عدة قرون . كما كان (كونفوشيوس) يستخدمها لدراسة الـ (yi - King) وقد بلغت مثابرته درجة انقطعت معها السيور الجلدية بسبب اهترائها ثلاث مرات. منذ خمسين سنة ، خرجت من رمال آسيا الوسطى أقدم كتب صينية معروفة حتى اليوم : انها عبارة عن جذاذات من الخشب أو البامبو ، منها المفردات والتقاويم ومجموعات الوصايا والوصفات الطبية والمستندات الرسمية المتعلقة بالحياة اليومية للحاميات الصينية المكلفة بمراقبة طريق الحرير . يرجع معظم هذه المستندات الى تواريخ متباعدة بين ٩٨ ـ ١٣٧ عاما بعد الميلاد ، الا انها تنم عن التقدم المبكر لانها كتبت بالحبر والريشة. الا أن هذه الكتب المربكة والثقيلة والتي كانت عرضة للتشوش كلما انقطعت الروابط ، ما لبثت أن استبدلت بالحرير المرن والخفيف والمتين. كان الحرير ينسج بعرض ٣٠ سم تقريبا ، ثم يلف على قضيب من الخشب كانوا يزينون طرفيه فيستخدم بمثابة مسند .

الا أن الحرير كان باهظ التكاليف ، لذلك ما لبثوا أن أخذوا يفتشون عن بديل رخيص ، فاهتدوا تدريجيا وعن طريق التلمس الى الحرير الرخيص أولا ثم الى مواد شائعة اخرى : كالخرق القديمة وشبكات الصيادين والقنب وقشر أشجار التوت ، ثم توصلوا الى صنع معجون يمكن الكتابة عليه بعد أن يجف . نظرا لاهمية التقاليد في الصين والتي تنزل كل عمل طيب من البلاط الامبراطوري الى الشعب ، فقد عزي اختراع الورق الى مدير الورشات الامبراطورية ، « تساي لوين » (الذي توفي عام ١٢١ بعد الميلاد) . الا انه من المؤكد انهم كانوا يكتبون على الورق قبل « تساي لوين » هذا بزمن طويل . وقد رفع هذا الشخص تقريرا الى العرش بهذا الخصوص (١٠٥ بعد الميلاد) ، لم يبق سواه بينما أمحت جهود آلاف الحرفيين المجهولين .

من آسيا الوسطى أيضا ، وصلتنا أقدم الاوراق المعروفة : ٧٠ رسائل

مكتوبة على أوراق مطوية بعناية وتحمل عنوان المرسل اليه . اكتشف هذه الرسائل « السير أورل ستاين ». بين انقاض احد أبراج المراقبة في « الجدار العظيم » ، تركها هناك عسكريون صينيون منذ منتصف القرن الثاني بعد الميلاد . وقد اثبت التحليل المجهري الذي اجراه الاستاذ (ج . فون ويسنر) ان المعجون قد صنع من بقايا اقمشة القنب التي ظلت بعض قصاصاتها سليمة . هذه الاوراق التي صنعت في الصين ولا شك واستخدمت من قبل اجانب بعيدا عن مركز انتاجها ، تثبت بما فيه الكفاية الى أي مدى انتشر فيه هذا الاختراع بسرعة كبيرة . وهكذا حل الورق محل الحرير ، باستثناء المخطوطات الممتازة الفخمة ، ولكن الاوراق ذات الابعاد الصغيرة (٢٥ x ٤٥ سم) كانت تلصق ببعضها ، مشكلة شريطا ينشر ويطوى بواسطة عصا تستخدم بمثابة مسند أو ملفاف . وقد خرج من المكتبة المسدودة لمغاور (توان ــ هوانغ) ما يقرب من / ١٥٠٠٠ / مخطوط (من القرن الخامس حتى القرن العاشر) تقاسمتها المكتبات الوطنية في كل من باريس وبكين والمتحف البريطاني . كان اغلب هذه المخطوطات عبارة عن ملفات من الورق ، الا انه وجدت بينها ايضا اشكال مختلفة من الكتب التي بدلها اختراع الطباعة .

الا ان أشكال هذه الكتب ما لبثت أن تبدلت بسبب الرغبة في الوصول فورا الى أية فقرة أو مقطع من النص دون الاضطرار الى نشر أمتار من الورق وكذلك الرغبة الدينية في تقليد الكتب الهندية المقدسة : اوراق النخيل الضيقة والطويلة المتصلة ببعضها بواسطة خيط ، بالاضافة الى ضرورة صنع الكتاب من أوراق مطبوعة على حدة . كانت بعض مخطوطات (توين ــ هوانغ) تتضمن نصوصا مكتوبة على صحائف من الورق تحمل ثقبا يخترقه خيط ثخين . وبدلا من أن تكون هذه الصحائف منعزلة ، فقد كانت تلصق ببعضها احيانا ، فتعطي شكل الكتاب المتطاول الذي يفتح على شكل (أكورديون) والذي كان الصينيون يسمونه « الكتاب الزوبعة » نظرا للسرعة التي يستطيع بها القارىء تقليب الصفحات حسب رغبته وعلى هواه .

تم تبني هذا الشكل من الكتاب بسرعة كبيرة ، حتى ان **المؤلف العربي (محمد بن اسحق)** كتب في عام ٩٨٩ يقول : « ان الصينيين يكتبـون كتبهم الدينية والعلمية على صحائف من الورق تفتح على شكل الحجاب الواقي من الهواء .

ظل هذا الشكل للكتاب الهندي ـ الصيني مستخدما من اجـل النصوص البوذية والتاوستية ومجموعات الاشكال المطبوعة (المختومة) والرسوم ونماذج الخط . الا أن هذا الورق كان يتمزق بسرعة ، فعمدوا الى طي كل ورقة من منتصفها وثنيها الى قسمين ثم لصق كافة الاوراق مع بعضها من هذه الثنية وتركها حرة تصفق كالاجنحة ، مما جعلهم يطلقون عليها اسم « الكتاب الفراشة » . كان هذا الكتاب المعادل لكتابنا ، جيدا من أجل النصوص المخطوطة ، الا أن طباعة النص بحك اللوحـة الخشبية ذات الحروف النافرة (البارزة) والمحبّرة ، فلا يمكن أن تتم الا على جهة واحدة من الورقة ؛ وقد جرت العادة ، لاخفاء الوجه الابيض من الورقة ، على ثني الورقة الى قسمين وخياطة الاوراق جميعها من الطرف وليس من مكان الثنية . ان ورق الصين وكوريا واليابان المشهور بنعومته ومرونته ، يسمح بتنفيذ هذه العملية التي لم تتغير حتى أيامنا هذه . هناك غلاف من الورق أو الحرير يحمي كل ملزمة تعادل فصـلا في اغلب الاحيان . تجمع هذه الملزمات ، كل ستة أو ثمانية معا ، وتحفظ بين لوحات من الخشب النفيس أو داخل غلافات مغطاة بالقماش . توضع هذه الكتب بشكل افقي فوق رفوف المكتبات ويذكر على كل ملزمة موضوع النص الذي تحتويه ، حيث يستطيع القارىء أن يطلع مباشرة على فهرس الكتاب كله .

الا أن الصينيين لم يكونوا يفكرون بارضاء المكتبات فقط ، بل حاولوا بعقليتهم الصناعية ، مضاعفة اعداد النصوص بوسائط عملية واقتصادية. وقد استطاعوا ، منذ مطلع عصرنا هذا ، أن يبلغوا مستوى رفيعا وتحكما رائعا في فن النقش ، سواء بالنسبة للنصب التذكارية والاعمدة الرخامية التي كانوا يحفرون عليها النصوص الكلاسيكية او التعاويذ الدينية التي

كان يستخدمها الرهبان البوذيون اوالتاوستيون لمضاعفة الصيغ السحرية أو الصور الدينية .

ان رشم (طبع) البلاطات المنقوشة بالحفر قد قدم وسيلة جيدة لنسخ النصوص أو الصور ؛ واذا كان الهدف من المسلات والنصب التذكارية هي المحافظة على سلامة النص أو احياء ذكرى حدث ما ، او الاحتفاء بأحد الافراد ، فانها سمحت أيضا للزائرين بحمل ذكرى حجهم . لم تتغير تقنية الرشم أبدا ، ولم تفقد هذه الوسيلة السريعة والرخيصة شيئا من مزاياها . نظرا لمرونة الورق الصيني ومتانته ، يمكن ان يوشى بواسطة الفرشاة والمطرقة على مجموع السطح المنقوش . وعندما يكون رطبا ، فانه يتسرب بعمق في تجاويف الحجر . ثم يطبع السطح كله بعد ذلك بواسطة الحبر أو الالوان ؛ ولا تنجو من الحبر سوى الاقسام الموشاة (المرصعة) التي تظهر بيضاء على أرضية سوداء أو داكنة عندما تجف الورقة وتنفصل من تلقاء نفسها .

ان تطور تقنية الختم البارز (النافر) والمقلوب هو الذي قاد الى الطباعة . فمنذ مطلع هذا العصر ، بدأ استعمال هذه التقنية في التوسع والانتشار ، حيث أخذ رجال الدين يعمدون اليها في نقش الصيغ الطويلة. ثم ما لبثت الصلوات أن بدأت ترافق صور بوذا أو صور الناس الكاملين (الذين بلغوا من الكمال درجة لا يحتاجون معها الى التقمص حسب الديانة البوذية) التي يجب أن تزين غرف الرهبان والاتقياء . وهكذا أخذت مهارة النقاشين في التحسن المستمر ، خاصة وان الطباعة على الورق كانت اكثر وضوحا منها على الحرير ؛ وفي الصين كما في الغرب ، تعددت المحاولات وازدادت جرأة النقاشين واخذ استعمال اللوحات المطبوعة ينتقل من حيز الى آخر حتى شمل التقاويم والمعاجم وغيرها .

ان أقدم شاهد لدينا من هذه الاخشاب المنقوشة بشكل بارز هي صورة صغيرة لبوذا اكتشفها (بول بيليو) بالقرب من (كوتشا) ، ترجع الى منتصف القرن الثامن بعد الميلاد . كما أن مجموعة (توين ـ هوانغ)

من المكتبة الوطنية تقدم لنا عددا كبيرا من الرسوم الدينية المتنوعة المصحوبة بنصوص الصلوات (القرن التاسع) . الا أن « المتحف البريطاني » ينفرد بميزة لا تقدر بثمن ، وهي امتلاكه لاقدم كتاب مطبوع في العالم . انه ملف مطبوع بالحروف الخشبية عام ٨٦٨ ، يتضمن نصا بوذيا يسبقه عنوان مزخرف منقوش ينم عن فن متقدم رفيع . كان لا بد من مرور قرن على الاقل لاقناع الادباء المعارضين الذي كانوا يرون أن استخدام هذه الطريقة لطبع الكتب الكلاسيكية يعتبر انتهاكا للحرمات والمقدسات ، والذين كانوا يخافون على امتيازهم في صناعة النسخ والخط . كانت هذه الحرفة منحصرة في البداية ضمن منطقة الوديان العالية والواطئة للنهر الازرق ، الا أنها ما لبثت أن انتقلت الى أيدي الادباء كوسيلة لحفظ ونشر النصوص الدينية . وعلى هذا الاساس أوصى بها الوزير (فونغ تاو) رسميا في تقرير رفعه الى العرش . ونظرا لبقاء هذا التقرير مع تقرير (تساي لوين) حتى يومنا هذا ، فان الفضل ينسب الى صاحبيهما في هذا الاختراع الذي لم يفعلا لاجله سوى لفت نظر البلاط الامبراطوري اليه . لم يبق أمام (فونغ تاو) من سبيل عام ٩٣٢ ، سوى اقتراح تثبيت النصوص الكلاسيكية بواسطة الطبع بالحروف الخشبية ، اذ لم تعد لدى الاسرة الحاكمة اية وسيلة للشروع بنقش سلسلة من « النصوص الكلاسيكية على الحجر » كما كان الامر يتم في الاوقات المزدهرة . وقد ادى نجاح المشروع (٩٣٢ ــ ٩٥٣) الى تكريس الفن الجديد ، ثم ما لبثت النصوص الادبية الموجودة آنذاك أن طبعت جميعها تدريجيا . وقد حاولوا سريعا تحسين التقنية الجديدة ، الا أن محاولات النقش على صفائح النحاس وتجارب الحروف المتحركة لم تكن مقنعة .

ان المحاولات الاولى للطباعة بواسطة الحروف المتحركة (١٠٤١ ــ ١٠٤٨) قد نسبت الى الحداد الخيماوي (بي شانغ) الذي توصل ، عن طريق استخدام الصلصال والصمغ السائل ، الى صنع حروف كان ييبسها على النار . أما التركيب فيتم على صفيحة من الحديد مطلية بمزيج من رماد الورق ، والشمع والراتنج (مادة صمغية لزجة) ، ثم

تحفظ متماسكة بواسطة اطر من الحديد . بالتسخين الخفيف لهـذا المركب ، ثم بتركه يبرد ، كانوا يحصلون على تماسك تام للحروف التي يمكن استرجاعها بالتسخين . وبالنقش على خشب العناب الصلب ، ثم بصب الرصاص او النحاس كانوا يحاولون تركيب مجموعات من الحروف المتحركة ، الا ان هذه التقنية ، والحق يقال ، قد ظلتاستثنائية في الصين . فقد استخدمت بشكل خـاص من اجل بعض المشاريـع الامبراطورية الكبرى ، كما هو الحال في القرن الثامن عشر ، بالنسبـة لموسوعة « كوكن توشو تسي تشانغ » المؤلفة من / ١٠,٠٠٠ / فصل ، التي من اجلها نقشت الحروف النحاسية ولم تصب . ان الطريقـة الجديدة لتصنيف الحروف تحت ٢١٤ مفتاحا ، والتي تم تبنيها في القاموس الكبير الذي طبع بأمر الامبراطور (كانغ — هي) ، قد جعلتهم يأملون في ان يؤدي التصنيف العملي لعشرات الآلاف من الحروف ، الى العثور عليها وترتيبها بسهولة أكبر بعد الاستعمال . كانت تكاليف صب الحروف واليد العاملة مرتفعة لدرجة لم يكن يمكن تحملها الا من قبـل الحكومة دون سواها . في الواقع ، كانت هذه المنشورا تالرسميةالكبرى تقدم الى الموظفين والادباء كأداة للعمل ، لم تكن أسعار مبيعها موضـع اهتمام كبير . وهكذا لم يكن في مقدور اي فرد أن يسمح لنفسه بتمويل مثل هذه المشاريع ، أو برعاية هذا العدد الكبير من الايدي العاملة أو الاحتفاظ بمادة مربكة مزعجة لمدة طويلة . لم تكن نوعية الحبر الصيني الشديد الميوعة مناسبة للطباعة بواسطة المعدن ، علاوة على سبب آخر وأخير ، من النوع الجمالي والعاطفي ، وهو أن الصينيين يحبون أن يلمسوا ، عند تصفح الكتاب ، جمال الخط وروعة الاسلوب ينسجمان مع النص ويغنيانه . والنقش على الخشب يعكس ذلك بأمانة ، ممـا جعلهم يظلون مخلصين لهذا الاسلوب حريصين عليه حتى يومنا هذا . ولم يتم تبني الحروف المتحركة من جديد الا في القرن العشرين ، الا انها لم تستعمل الا من أجل المطبوعات الشعبية والصحف .

بينما كانت طباعة النصوص بطريقة النقش تتم في **الصين** وتموّل من قبل الافراد ، أخذت السلطات العامة ، في **كوريا** ، على عاتقها مهمة نشر

النصوص ، حتى بلغت الطباعة بواسطة الحروف المتحركة أوج توسعها وازدهارها .

لقد ظهرت الطباعة في هذا البلد منذ النصف الاول من القرن الثالث عشر ، ثم تطورت بشكل عجيب في القرن الخامس عشر بدفع من الملك (هتاي ـ تجونغ) الذي اصدر عام ١٤٠٣ قرارا خاصا يعلن فيه سياسته النيّرة : « لكي يتمكن الانسان من الحكم يجب عليه أن ينشر معرفة الشرائع والكتب حتى تمتلىء العقول وتستقيم نفوس الرجال : بهذا فقط يتحقق النظام والسلام . ان بلادنا واقعة في المشرق عبر البحار ، لذلك فالكتب الصينية نادرة فيها . كما ان اللوحات المنقوشة تبلى سريعا، ولا يمكن طبع كافة كتب الكون . لذلك اريد أن تصنع من النحاس حروف تستخدم للطباعة ، حتى نتمكن من توسيع انتشار الكتب : وهذه مزية ليس لها حدود . اما فيما يتعلق بتكاليف هذا العمل ، فليس من المناسب ان تقع على عاتق الشعب ، بل على كاهل خزينة القصر » .

على أثر هذا القرار، ظهرت مجموعة الحروف المؤلفة من /١٠٠,٠٠٠/ حرف مصبوب ، ثم تلتها حروف مصبوبة اخرى ، حتى تألفت هكذا ، وخلال قرن واحد ، عشر مجموعات وضعت كاحتياط في مستودعات المطابع الرسمية .

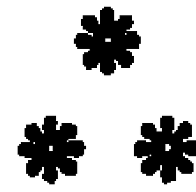
لقد سبقت المجموعات الثلاث الاولى (١٤٠٣ ، ١٤٢٠ ، ١٤٣٤) اختراع الطباعة في أوروبا .

هناك شعب آخر مجاور للصين ، هو قبائل (ويغور) الرحل ، قد تبنى بدوره هذه التقنية المناسبة تماما للغته المزودة بأبجدية خاصة ؛ وقد استطاع السيد (ب . بيليو) أن يعثر في (توين ـ هوانغ) على مجموعة من حروف هذا الشعب التي نقشت حوالي عام ١٣٠٠ على مكعبات صغيرة من الخشب . الا انه لا يعتقد بان هذه القبيلة التركية من آسيا الوسطى ، والتي كانت على تماس مباشر مع الغرب ، قد علمت أوروبا فن الطباعة .

اذا استثنينا شهادة (رشيد الدين) ، وهو طبيب لملوك المغول في ايران في مطلع القرن الرابع عشر ، فان ذكر الطباعة لم يرد على لسان اي مسافر .

كما يبدو أن الاوروبيين لم يعيروا اي انتباه للطبعات الاولى المنقوشة بواسطة الحروف الخشبية التي وصلت الى بلادهم على شكل أختام مطبوعة بواسطة « الزنجفر » (وهو معدن متفتت احمر يدهن به الحديد) كانت ترد في رسائل أباطرة المغول في بلاد الفرس الى ملوك فرنسا وانكلترة والبابا (توجد نسختان ترجعان الى عام ١٢٨٩ و ١٣٠٥ ما زالتا محفوظتين في « السجلات الوطنية بباريس ») .

كما أن (ماركو بولو) نفسه ، الذي كان فضوليا في كل شيء ، يبدي اعجابه بتلك الاوراق النقدية المتداولة في الصين ، ولكنه لا يلاحظ أنها مطبوعة بواسطة لوحات منقوشة . وهكذا يبدو أن امكانيات هذه التقنية التي ستصبح حيوية بالنسبة لتطور الانسانية ، قد غابت عن أذهان وملاحظة العديد من المسافرين ، أو أن أحدا منهم لم يجد من المفيد تدوينها خطيا على الاقل .



الفصل الثّالث

((تقـديم الكتـاب))

لنفتح الكتب الآن : فنرى كيف تبدل تقديمها وأسلوب عرضها عبر العصور وبأي اتجاه ولاية أسباب .

هناك ملاحظة مسبقة لا بد من عرضهـا اولا : وهي أن الطبعـات الاستهلالية الاولى كانت مماثلة في شكلها ومظهرها للمخطوطات . في فترة البداية هذه ، كان رجال الطباعة المنشغلون بالتقليد الى ابعـد الحدود ، ابعد ما يكونوا عن التجديد والابتكار : فالتوراة ذات السطور الاثنين والاربعين مثلا ، قد طبعت بحروف تشبه تماما أسلوب كتابة كتب الصلوات المخطوطة في المنطقة الرينانية . وقد ظل رجال الطباعة طويلا لا يستخدمون أبجديات الحروف المنعزلة وحدها ، بل كذلك مجموعات حروف متصلة ببعضها بنفس الاسلوب المستخدم في الكتابة باليد . كما ظلت الحروف الاولى للكتب المطبوعة ، ولفترة أطول أيضا ، تكتب باليد من قبل نفس الخطاطين وتزخرف بواسطة نفس الفنانين الذين يعملون في المخطوطات ، حتى أن الشخص العادي يضطر احيانا لان يمعن النظر طويلا في الكتاب قبل ان يعرف اذا كان مطبوعا أو مكتوبا باليد .

هناك عدة فرضيات لتفسير ظاهرة التشابه هذه : كالرغبة في خداع المشتري الذي لم يكن يثق بالاسلوب الجديد مثلا ، أو الاضطرار الى تحرير الكتب المطبوعة على أنها مخطوطات حتى لا توقظ حفيظة الخطاطين

وحساسياتهم أو حتى انتباههم احيانا ، متجنبين بهذا الشكل شكاوى « جمعياتهم » الحريصة على الاحتفاظ باحتكارها .

الا ان هذه الفرضيات لا تستطيع الصمود أمام الفحص والتمحيص. فالاحتيال المزعوم على المشتري كان سهل الاكتشاف ، لان رجل القرن الخامس عشر (الذي كان خبيرا أكثر منا بهذه الامور) ، كان يستطيع رغم التشابه أن يميز بسهولة بين المخطوطة والكتاب المطبوع . كما ان القرّاء قد مالوا سريعا الى تفضيل النصوص المطبوعة على المخطوطات القديمة لانهم وجدوها أسهل واصحّ للقراءة .

اما الخشية من مقاومة الخطاطين والمقيمين ومعارضتهم ، فقد كان لها ما يبررها ولا شك . ولكن يجب الا ننسى أن معظم هؤلاء كانوا خاضعين لنظام جامعي وليس بالمهني بالمعنى الكامل لهذه الكلمة ؛ فهم بالتالي موضوعون تحت سلطة رؤساء ومجالس الجامعات الذين كانوا جميعا يؤيدون الطباعة ويناصرونها في فترة بدايتها هذه ، فيصمون آذانهم عن شكاوى بعض هؤلاء المرؤوسين .

ويبدو ان رجال الطباعة والمقيمين قد تعاونوا معا . فاذا كان الخطاطون ميالين للتذمر من منافسة عامل الطباعة ، هذا المزاحم الجديد، الا أن أصحاب المكتبات المتخصصين في تجارة المخطوطات لم يقفوا نفس الموقف على الارجح . ففي كثير من الحالات ، في باريس أو « أفينيون » مثلا ، كانوا يقبلون بيع الكتب المطبوعة الى جانب المخطوطات ؛ وبعد أن تأكد الكثيرون منهم من الفوائد الجمّة لهذه الوسيلة الجديدة ، لم يترددوا في القيام بأعمال النشر والطباعة وتمويل المطابع : كالسيد (انطوان فيرار)، الذي كانت كتبه تطبع غالبا على الرق ثم تزخرف على غرار المخطوطات النفيسة التي كان يشرف على كتابتها وزخرفتها من قبل ، وذلك في نفس الوقت الذي كان مسؤولا فيه عن ورشة من الخطاطين .

اما اذا رأينا رجال الطباعة الاوائل يسعون جاهدين لان ينسجوا

تماما على منوال المخطوطات التي كانت تحت بصرهم ، فليس في ذلك ما يثير الدهشة أو العجب أو مدعاة لجميع هذه الفرضيات . ولا يسعنا، اذا أمعنا التفكير قليلا ، ان نتصور حتى خلاف ذلك . اذ كيف يمكن لهؤلاء أن يتصوروا ، من أجل الكتب المطبوعة ، شكلا مختلفا عن شكل المخطوطات التي كانت لهم بمثابة أنموذج جاهز ؟ بل أكثر من ذلك أيضا ؛ أليس من الطبيعي ان يظهر التماثل بين المطبوع والمخطوط في أعينهم كدليل على الانتصار التقني وفي الوقت نفسه كضمان للنجاح التجاري ؟ فلنلاحظ اذن أن ظهور الطباعة لم تصحبه ثورة مباغتة في تقديم الكتاب واسلوب عرضه : فهو قد سجل فقط بداية تطور علينا أن نتحدث عنه الآن ، حتى نحدد المنهج الذي اتبعه الكتاب المطبوع في الابتعاد تدريجيا عن انموذجه الاولي ، وهو المخطوطة ، حتى اكتسب صفاته المميزة الخاصة ؛ علينا أيضا ان نحدد في اي اتجاه ولاية أسباب ظل مظهره يتغير طيلة ما يقرب من قرن قبل التوصل ، في منتصف القرن السادس عشر ، الى اعطائه الشكل الذي استمر عليه حتى يومنا هذا مع بعض التعديلات الطفيفة .

١ ـ الحروف الطباعية

حوالي عام ١٤٥٠ ، وفي الفترة التي كانت تولد فيها الصناعة الطباعية، كانت النصوص تكتب ، وفق طبيعتها أو غايتها ، بأشكال وأساليب مختلفة . على هذا الاساس يمكن تمييز أربعة نماذج رئيسية للكتابة ، لكل منها غايته الخاصة :

ـ أولها الخط القوطي للكتابات المدرسية ، « رسالة الجملة التقليدية » ، العزيزة على رجال اللاهوت والجامعيين .

ـ وثانيها الخط القوطي الاكبر والاقل استدارة ، بخطوطه المستقيمة وحروفه المنكسرة : « رسالة كتاب القداس » المستخدمة من أجل الكتب الكنائسية .

ـ أما ثالثها فهو مشتق منسوخ بعناية من الكتابة السريعة المستخدمة في الدوائر والدواوين (حيث كان لكل منها نموذجه التقليدي) ؛ كما كان هناك الخط القوطي « المستدير » ، لكتابة المخطوطات النفيسة باللغة العامية ، ولكتابة بعض النصوص اللاتينية الروائية بوجه عام .

وأخيرا ، المولود الاخير ، الموعود بمستقبل زاهر لانه سيصبح الكتابة العادية للنصوص المطبوعة في جزء كبير من أوروبا الغربية : وهي الكتابة الانسية ، أو « الحرف القديم » أو ما سيسمى بالحرف « الروماني » . ان هذا النوع من الكتابة الذي درج على يد (بيترارك) وتلامذته ، كان مستخدما حوالي عام ١٤٥٠ فقط ، من قبل جماعات صغيرة من « الانسيين » (**humanistes**) وكبار السادة من هواة الكتب الراغبين في تقديم النصوص القديمة بمظهر اقرب الى مظهرها الاصلي (او بالاحرى ما كانوا يعتقدونه مظهرا أصليا) ، ثم مقارنتها ، حتى من حيث التقديم والشكل بالنصوص التقليدية للقرون الوسطى . ويمكن أن نضيف الى هذا النمط الروماني كتابة سريعة أخرى ، هي الـ (Cancellaresche) التي ستصبح أصل الحرف الايطالياني (italique) الذي سيتبناه الديوان الفاتيكاني في منتصف القرن الخامس عشر ، والذي سينتقل فيما بعد الى دواوين كل من فلورنسا وفيرار وفينيسيا .

الا أن هذا العرض السريع ، البعيد عن كل تصنيف جامد ، يجب الا يخدع القارىء . اذ يوجد ، علاوة على النماذج الرئيسية التي اتينا على ذكرها ، نماذج أخرى وسيطة من كل نوع . فالخط القوطي للنساخين لبولونيا مثلا ، متأثر بالكتابة الانسية . كما كانت توجد حسب المناطق فروق واضحة بين مختلف الكتابات للنموذج الواحد : فالخط المستدير الباريسي ، الذي ولد في الديوان الملكي واستخدم في المخطوطات المكتوبة باللغة العامية ، والذي سيوحي بما سمي حروف (فيرار) أو (لونوار) ، يختلف عن الخط الذي كان يستعمله النساخون الهولنديون لكتابة مخطوطات (جان دي بروغ) التي ستكون بدورها انموذجا يحتذي به رجل طباعة من (بروغ) أيضا يدعى (كولار مانسيون) : وهكذا كانت

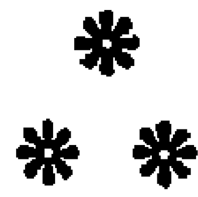
الاختلافات المتنوعة المحلية متميزة لدرجة يمكن معها لاية نظرة ثاقبة عليمة ان تحدد المنطقة التي تمت فيها كتابة المخطوطة .

هذه هي النماذج المتنوعة التي وجدها روّاد الطباعة أمامهم . ويفسر لنا هذا التنوع في النماذج تنوع الحروف العجيب التي استخدمت في الطبعات الاستهلالية الاولى وحتى في الكتب التي صدرت في مطلع القرن السادس عشر . فلكل فئة من المؤلّفات ــ وبالتالي من القراء ــ حرفها الطباعي الخاص ، تماما كما كان عليه الوضع أيام المخطوطات : فلرجال الدين والجامعيين ، كتب مدرسية أو سماوية مطبوعة بحروف الجملة ؛ أما العلمانيون ، فلهم المؤلفات الروائيــة المكتوبة عادة باللغة العاميــة والمطبوعة بالحروف المستديرة ؛ واما انصار اللغة الجميلة ، فلهم الطبعات الكلاسيكية اللاتينية والكتابات الانسية المكتوبة بالاحرف الرومانية . ومما تجدر ملاحظته ، انه اذا كان عمال الطباعة الاوائل ، من أمثال (جيرنغ) ورفاقه ، قد قاموا بناءا على دعوة مجموعة صغيرة من هواة الحروف الجميلة ، باستخدام أبجدية من الاحرف الرومانية في مشغل جامعة السوربون ، فانهم ما لبثوا أن تبنوا الخط القوطي عند مغادرتهم السوربون وانتقالهم الى شارع (سان ــ جاك) من أجل التفرغ لنشر المؤلفات المدرسية والنصوص القانونية المعدة لجمهور أوسع ــ هو جمهور الطلاب الجامعيين . لقد ادى الاهتمام الزائد بتقليد المخطوطات في هذه الفترة ، الى دفع الكثيرين من ارباب الطباعة للذهاب أبعد من ذلك : فعندما عهد الكتبي الانكليزي (ريتشارد بينسون) ، الى رجل الطباعة الروائي (غليوم لو تللور) ، بطباعة كتابين عن القانون الانكليزي ــ النورماندي ، أعد (لو تللور) ، خصيصا لهذه الغاية ، حروفا مصبوبة تختلف كثيرا عن التي كان يستعملها عادة ؛ كما حاول جاهدا تقليد الكتابة السريعة الخاصة التي كان خطاطوا ما وراء المانش يستخدمونها عادة بالنسبة لمثل هذا النوع من النصوص .

الا أن الطباعة ما لبثت أن بدات تعمل عملها في توحيد الحروف شيئا فشيئا . ففي هذه الفترة ، حيث لم تنظم بعد تجارة الحروف الطباعية ،

حيث كان ارباب الطباعة مضطرين في اغلب الاحيان لان يصنعوا مناقشهم بانفسهم ، حيث كانت كل سلسلة من المناقش ، بل كل عملية صب ، تمثل ثروة صغيرة ، وحيث لم يكن لدى رجل الطباعة غير عدد قليل من الحروف المصبوبة (الصبئات) ، كان من المستحيل غالبا القيام بصب أبجدية من الاحرف مماثلة لكتابة النموذج المخطوط . كما أن ضرورة تصريف نسخ الطبعة الواحدة في المدن او البلدان المختلفة ، بالاضافة الى التنقل الدائم لعمال الطباعة بشكل خاص ، كل ذلك ادى بالضرورة الى توحيد النماذج الاقليمية التي لم تختلف عن بعضها الا بفروق طفيفة .

لا شك في ان عمال الطباعة الالمان الاوائل ، الذين انطلقوا من وادي الراين ، ليعلموا أوروبا كلها الفن الجديد ، قد حاولوا في البداية تقليد الكتابات المحلية : ففي ايطاليا ، نقلوا عن الكتابة الانسية ، وخاصة الخط المستدير لخطاطي بولونيا . الا ان الكثيرين منهم ، الاكثر فقرا ، لا يملكون الوسائل الكافية للقيام بذلك : فقد انطلقوا من بلادهم وهم لا يحملـون معهم سوى عتاد هزيل كالقوالب وبعض المناقش ؛ لذلك اخذوايستخدمون الحروف المصنوعة الجاهزة ، حيث تم العثور على آثار حرف للجملة من اصل سويسري (من مدينة بال) ، ليس فقط في مدينة (ليون) ، بل في مدينة (تولوز) ايضا وحتى في اسبانيا . كما أن الحروف المستخدمة في الطبعات الاولى لمدينة (ليون) ، من قبل (Le Roy)، قد صنعت اصلا في البلاد الجرمانية . وفي الفترة نفسها ايضا ، ظلوا في انكلترةولفترة طويلة ، يستخدمون حروفا جاءت من باريس و (روان) .



هكذا بدأ التوحيد اذن بالنماذج الاقليمية ثم انتقل ، بسرعة اقل ، الى فئات الكتابة الكبرى ، الى أن حلّ في النهاية نموذج واحد للكتابة هو الحرف الروماني الذي سينتصر في القسم الاكبر من اوروبا : في ايطاليا وفرنسا وجزء من سويسرة ، ثم في اسبانيا وانكلترة .

لا شك في ان للحرف الروماني هذا تاريخه المتميز ، والذي يعتبر انتصاره تجسيدا لانتصار الفكر الانسي . انه تاريخ فتح يستحق أن يـدرس .

لقد درجت الكتابة الرومانية ، كما أسلفنا ، على أيدي جماعات صغيرة من الانسيين (أصحاب النزعة الانسانية) الايطاليين ، ومن بينهم « بيترارك » و « نيكولودي نيكولي » ، الـذين كانوا يريدون اعطاء النصوص القديمة التي ينقلون عنها (علما بأنهم كانوا كالكثيرين من أدباء عصرهم ، خطاطين متحمسين ونسّاخين ممتازين) شكلا ماديا قريبا من مظهرها الاصلي ، الذي يختلف على كل حال عن شكل النصوص في القرون الوسطى التي كانوا يطلقون عليها ، على سبيل السخرية لقب « الكتابة القوطية » ، تماماً كما كان (ألبيرتي) يطلق تسمية « قوطية » على زخرفات الهندسة المعمارية التقليدية في القرون الوسطى .

وهكذا سوف تنتشر الكتابة الرومانية في ايطاليا عما قريب ، حيث بدأت تستخدم في مشاغل النسّاخين في نابولي وروما وفلورنسا بشكل خاص . كما أن هواة النصوص القديمة من الامراء والاساقفة والرهبان والكرادلة وأصحاب المصارف وكبار التجار ، اخذوا يشترون هـذه المخطوطات من النموذج الجديد . أما أكثرهـم غنى ، كملك هنغـاريا (ماتياس كورفين) وملوك نابولي ودوقات فيرّار ، الذين كانوا يملكون ورشاتهم الخاصة ، فقد طلبوا الى خطاطيهم تبني الكتابة الجديدة عند نسخ النصوص الكلاسيكية اللاتينية وحتى أعمال « آباء الكنيسة » . خارج ايطاليا أيضا ، نجد أن « دوق غلوساستر » وبعده كبير أساقفة روان ، جورج دامبواز ، يملكون في مكتباتهم مخطوطات « انسية » . وهكذا ، عندما ظهرت الطباعة ، كانت هناك جماعات صغيرة من هـواة الحروف الجميلة ــ ولا نقول انسيّين ــ ممن يقدرون ويحسنون قراءة الكتابات الجديدة ، بينما ظلت الاغلبية العظمى من الرجال وحتى من الادباء ، مخلصة للنماذج التقليدية للكتابة القوطية .

*
* *

بدأ روّاد الطباعة ، رغبة منهم في الوصول الى أكبر عدد ممكن من الزبائن ، باستخدام نماذج الكتابة التقليدية في البداية . الا ان الكتابة « الرومانية » ما لبثت ان عمّت ايطاليا كلها ؛ كما كان هناك عدد كبير من هواة الحروف الجميلة الذين كانوا يرغبون في امتلاك نصوص للمؤلفات التي يحبونها (مطبوعة بهذه الابجدية المستوحاة من العصور القديمة) والتي أصبحت مخطوطاتها نادرة نسبيا في اغلب الاحيان . لذلك قام عدد كبير من هؤلاء الهواة بتمويل مشاريع انشاء المشاغل الطباعية ، لدرجة ساهمت معها الطباعة سريعا بنشر الكتابة التي درجت على يدي (بيترارك) وأمثاله . وهكذا قام كل من « سوينهايم » و « بنّارتز » ، من أرباب الطباعة في (سوبياكو) وروما ، وأول من مارس الطباعة في ايطاليا، باستخدام نوع من الحروف يمكن اعتباره رومانياً ، ثم انتقلوا بعد ذلك الى الحرف الروماني الكامل . (١٤٦٥ — ١٤٦٧) . ولكن اعتبارا من هذه الفترة ، يبدو أن (أدولف راش) ، رجل الطباعة الستراسبورغي ، كان يمتلك هو أيضا نموذجا رومانياً استخدمه في موسوعة لـ (رابان مور) قبل عام (١٤٦٧) . كما يمكن القول اخيرا ، انه منذ عام ١٩٦٩ ، استعمل الالماني (جان دي سبير) ، المقيم في فينيسيا ، حرفا من هذا النموذج في طباعة « رسائل الى الاهل » للخطيب الشهير « شيشرون » ؛ وفي عام ١٤٧٠ ، بينما كان (جيرنغ) يستخدم في باريس ابجديةمستوحاة من « سوينهايم » و « بنّارتز » ، قام « نيقولا جنسون » ، في فينيسيا ، بنشر (رسائل الى أتيكوس) لشيشرون أيضا ، حيث تظهر حروف رومانية تعتبر تحفا رائعة حتى عصرنا هذا .

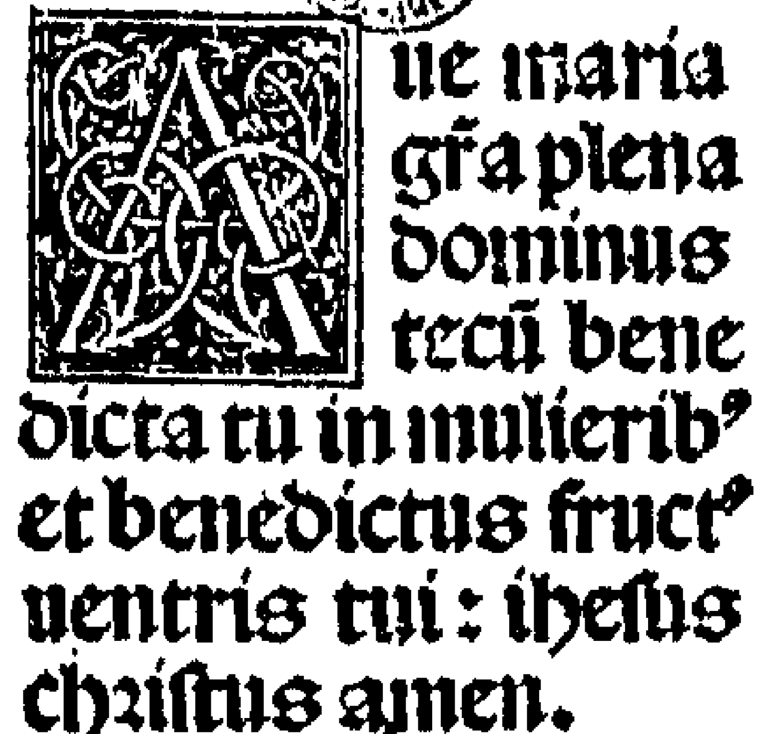
وهكذا نجد بين الطبعات الاستهلالية الاولى — التي طبعت قبل عام ١٤٨٠ — عددا معينا من الطبعات بالحروف الرومانية ؛ الا ان هذه المؤلفات لا تمثل الا جزءا يسيرا من انتاج المطابع في تلكالفترة . فنحن لا نعرف مثلا الا حوالي عشر مجموعات من الحروف الرومانية المستعملة في المانيا حتى عام ١٤٨٠ . أما الهواة الذين يبحثون عن مثل هذه الطبعات فلا يزالون قلة ، مما يجعل السوق مشبعة بسرعة .

بينما كان ارباب الطباعة الرومان ، وهم من اكبر طابعي النصوص الكلاسيكية ، يجدون انفسهم ، في عام ١٤٧٢ ، أمام صعوبات مالية تعود لازمة حقيقية سبّبها فرط الانتاج ، كان (جيرنغ) وشركاؤه يغادرون جامعة السوربون في باريس ، الى شارع (سان ـ جاك) ويستبدلون ابجديتهم الرومانية ، كما أسلفنا ، بحرف الـ (somme) التقليدي . اما في اسبانيا ، اذا كان الفلمندي (لمبير بالمار) قد بدأ في (فالانسيا) بطباعة اعمال (فينولار) بالحروف الرومانية ، فان مثله لم يحتذى ابدا . كما أن معظم الورشات في أماكن كثيرة ، قد اصبحت مزودة بالحروف القوطية المستديرة التي تستخدم بشكل طبيعي عندما يتعلق الامر مثلا بطباعة « الوصية الكبرى » لـ (Villon) او « هرجة باتلين » ، او قصص الفروسية او مجموعة الاخبار بالفرنسية او الروايات الشعبية او «تقاويم الرعاة » او « فنون الوفاة » . كما استخدمت هذه الحروف أيضا لطبع (اوكهام) لنقولادي لير ولكثير من المفسّرين والمعلقين على (بيير لومبارد) .

الا أن انتشار الكتابات الانسية والطبعات الايطالية ، حيث استخدمت الحروف الرومانية بشكل واسع جدا ، قد ادت شيئا فشيئا الى انتصار هذه الاخيرة مع انتصار الحرف الايطالياني (italique) . وقد لعبت فينيسيا في هذا المجال دورا أساسيا . فهناك قام (الد) بصنع النماذج الرومانية التي ستظل غالبا موضع وحي لكبار ناقشي الحروف في القرن السادس عشر ؛ وهناك ايضا كلف (فرانسيسكو غريفو) بنقش الحروف المستوحاة من الـ(Cancellaresche)الروماني (عام ١٥٠١) ، واطلق هكذا « موضة » او (درجة) الحروف الايطاليانية ، اي الكتابة المائلة الاكثر تراصًا ، التي تسمح بطباعة نص طويل نسبيا على صفحات ذات قياس مصغر . لقد نسج السيد (امير باخ) ، الذي تعلم المهنة في فينيسيا، وبعده (فوربن) ، على المنوال الفينيسي وتبنوا الحرف الروماني والايطالياني اكثر فاكثر . كذلك قاما بنشر هذه الدرجة (الموضة) في المانيا وساعدا على نشرها في فرنسا .

بدات الحروف الفينيسية تستخدم في (ليون) بسرعة كبيرة : فمنذ ظهورها ، مثلا ، قام (بالتازار دي غابينو) و (بارتيليمي تروث) بمجابهتها مع الحرف الايطالياني « الالدي » (نسبة الى « الد ») . اما في باريس ، فقد قام كل من (جوس باد) و (هنري ايستيان) بتصميم درجة الحرف الروماني ، حتى ظهرت في هذه المدينة ، بين عامي ١٥٣٠ - ١٥٤٠ ، سلسلة من الاحرف الرومانية التي استخدمت أولا من قبل « روبير ايستيان » ، « سيمون دي كولين » ، « كريتيان ويشل » و « انطوان اوجورو » ، والتي نسب بعضها تقليديا الى (غارامون) العريق (دون ان يتمكن احد من تحديد الحروف المقصودة هذه) . بلغت هذه الحروف درجة من الكمال افضل من الحروف الاصلية التي استوحيت منها ، واصبحت بسرعة كبيرة النماذج القدوة في جميع انحاء اوروبا . فهي ذاتها التي يبحث عنها أو يحذو حذوها « بول مانوس » و « بلانتين » ، أو التي يشتريها (ايجينولف) في فرانكفورت . اما المناقش التي تم صنعها في ورشات الصب التي تشكلت آنذاك ، فستظل تستخدم باستمرار حتى القرن الثامن عشر .

وهكذا اخذ الحرف الروماني مكانة تزداد اتساعا كل يوم مع تزايد تأييد النزعة الانسانية ، حيث بدىء باستخدامه لطباعة النصوص باللغة العامية ، هذه النصوص التي كانت تنشر تقليديا بالخط القوطي المستدير حتى ذلك الوقت : ففي عام ١٥٢٩ ، قام (غاليو دي بريه) بتجديد اسلوب تقديم « رواية الوردة » (Roman de la Rose) ومؤلفات (الان شارتييه) ؛ كما فعل الشيء ذاته عام ١٥٣٢ بالنسبة لكتاب (Villon) المسمى «Grant Testament»، لان الجمهور الذي كان يقرا هذه المؤلفات ، قد تعوّد تدريجيا على تفضيل الحروف الرومانية التي أصبح يجدها في عدد كبير متزايد من الطبعات من الآن فصاعدا .



ue maria gr̄a plena dominus tecū bene dicta tu in mulierib⁹ et benedictus fruct⁹ uentris tui: ihesus christus amen.

Gloria laudis resonet in ore omniū Patri genitoq; proli spiritui sancto pariter Resul tet laude perhenni Laboribus dei vendunt nobis omnia bona. laus: honor: virtus potētia: et gratiarū actio tibi christe. Amen.

Uiue deū sic et vinces per secula cuncta. Prouidet et tribuit deus omnia nobis. Proficit absque deo null⁹ in orbe labor. Illa placet tell⁹ in qua res parua beatū. De facit et tenues luxuriantur opes.

Si fortuna volet fies de rhetore consul. Si volet hec eadem fies de cōsule rhetor. Quicquid amor iussit nō est cōtēdere tutū Regnat et in dominos ius habet ille suos Uita data ē vtēda data ē sine fenore nobis. Mutua: nec certa persoluenda die.

Mens et ars docuit quod sapit omnis homo
Ars animos frangit et firmas dirimit vrbes
Arte cadunt turres arte leuatur onus
Artibus ingenijs quesita est gloria multis
Principijs obsta sero medicina paratur
Cum mala per longas conualuere moras
Sed propera nec te venturas differ in horas
Qui non est hodie cras minus aptus erit.

Est homini uirtus fuluo preciosior auro:
Ingenium quondam fuerat preciosius auro.
Miramurq; magis quos munera mentis adornāt
Quam qui corporeis emicuere bonis.
Si qua uirtute nites ne despice quenquam
Ex alia quadam forsitan ipse nitet

Nemo sua laudis nimium letetur honore
Ne uilis factus post sua fata gemat.
Nemo nimis cupide sibi res desiderat ullas
Ne dum plus cupiat perdat & id quod habet.
Ne ue cito uerbis cuiusquam credito blandis
Sed si sint fidei respice quid moneant
Qui bene proloquitur coram sed postea praue
Hic erit inuisus bina qʒ ora gerit

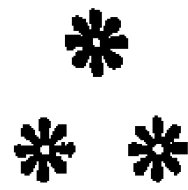
Indicis characterū diuersarū manerierū impressioni paratarū: Finis.

Erhardi Ratdolt Augustensis viri solertissimi: preclaro ingenio et mirifica arte: qua olim Venetijs excelluit celebratissimus. In imperiali nunc vrbe Auguste vindelicorū laudatissime impressioni dedit. Annoq; salutis. M.CCCC.LXXXVI. Calē. Aprilis Sidere felici compleuit.

(« ارهارد راتدولت » : طبعة تجريبية عن مختلف الحروف ، اوغسبرغ ١٤٨٦)

الا ان الحرف الجديد لم يحصل بعد على حقوق المواطنة في كل مكان . اذ سيظل الجامعيون لبعض الوقت ، يفضلون عليه حرف الـ (somme) الذي لن يختفي الا في السنوات العشر التالية ، من النصوص القانونية اولا ثم من النصوص اللاهوتية ؛ ولكنه يبقى مدة اطول أيضا في كتب الطقوس والعبادات . أما الكتلة الهائلة من البورجوازيين وعامة الناس ، المتعودين على حل الكتابة المخطوطة ، فقد ظلوا مدة طويلة أوفياء للكتابة القوطية المستديرة التي تقترب من المخطوطة أكثر من الرومانية أو الايطاليانية . اما مجموعات الاخبار الضخمة ، التي تشترى في أسواق ليون من قبل جمهور شعبي كبير ، فكانت تطبع بالحروف القوطية : وهكذا ظل الناس مدة طويلة يستخدمون الحرف المستدير التقليدي لطباعة الكراسات الشعبية والتقاويم و « الصفائح القوطية » ؛

أما رجال الطباعة الفقراء عاديا ، الذين يسحبون من هذه المؤلفات آلاف النسخ ، فكانوا يستخدمون حتى الاهتراء الكامل هذه الابجديات التي يشترونها بأسعار زهيدة من أرباب الطباعة الاغنياء عندما يريد هؤلاء الاستغناء عنها . الا انهم ما لبثوا بعد ذلك ، في القسم الثاني من القرن ، أن وجدوا أنفسهم ملزمين بشراء عتاد جديد ، فقرروا تبني الحرف الروماني الذي بدأ جمهورهم يتعود عليه شيئا فشيئا .



هكذا ، وبعد اختراع الطباعة بأقل من قرن ، تم تبني الحرف الروماني في جميع أنحاء أوروبا ، فانتصرت هذه الكتابة التي اصطنعتها في الاصل جماعة صغيرة من الادباء . وقد يثير هذا الانتصار دهشتنا اذا لم نتذكر بأن اللغة اللاتينية كانت دولية في تلك الفترة ، وكذلك كانت تجارة الكتاب اللاتيني . لقد أدى التنوع العجيب للاحرف في اغلب الاحيان ، الى اعاقة بيع المطبوعات ، حتى أن الحرف الروماني ظهر أخيرا كنوع من الابجدية الدولية . ولكن اذا كان الحرف الروماني هذا قد تم تبنيه بسرعة كبيرة من اجل طباعة النصوص باللغة العامية في ايطاليا ، ثم في فرنسا واسبانيا بعد مقاومات عديدة ، ثم بصعوبة اكبر

في انكلتره الا أنه لم يحقق نصرا كاملا لدى جماهير القراء في البلاد الجرمانية . من المؤكد أن النصوص اللاتينية كانت تطبع بالاحرف الرومانية في كل من المانيا وهولانده والنمسا ، الا أن النصوص المكتوبة بلغة البلد ظلت تطبع عادة بالحروف القوطية . في القرن السادس عشر ، كان هناك نوعان من الكتابة هما : Umlaut و Schwabach (استمرا حتى يومنا هذا) ، خرجا في ألمانيا من النماذج القوطية وتم تبنيهما من قبل معظم القراء لسهولتهما . وقد اضطر (لوتر) ، الذي طبعت كتاباته الاولى بالحروف الرومانية ، الى استخدام الحروف الوطنية حتى تصل أفكاره الى القسم الاعظم من جماهير مواطنيه .

وهكذا أصبح هناك عالمان : العالم اللاتيني وانكلتره من جهة ، والعالم الجرماني حيث ظل الناس يقرؤون غالبا ، ولفترة طويلة ، النصوص المكتوبة بشكل مختلف . أما في البلدان السلافية خلال هذه الفترة ، فكان رجال الطباعة يستخدمون كتابة مختلفة كليا : وهي الكتابة « السيريليه » المستوحاة من الكتابة اليونانية القديمة .

٢ ــ هوية الكتاب

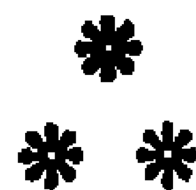
(المستهل والحاشية الختامية والاشارة)

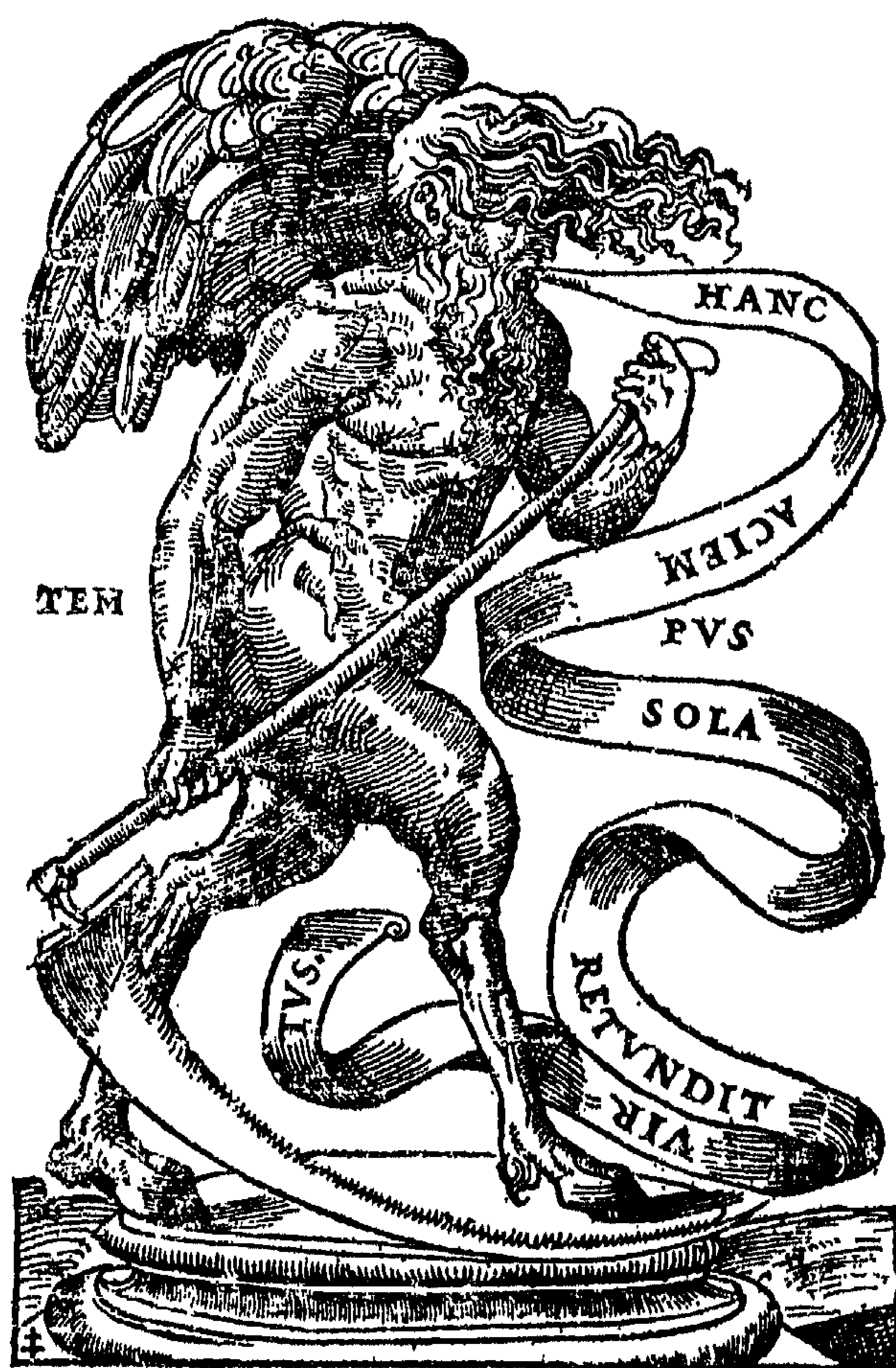
في أيامنا هذه ، أصبح القارىء الذي يفتح كتابا جديدا ، يعرف أنه سيجد منذ الصفحة الاولى ، كافة المعلومات التي قد تنصحه وتشجعه على قراءته أو تحضه على عدم المضي أبعد من ذلك : فعلى صفحة العنوان يوجد اسم المؤلف ، عنوان الكتاب ، مكان الطباعة ، اسم الناشر وتاريخ النشر . هذا ما ينص عليه القانون في فرنسا على الاقل .

أما رجال القرن الخامس عشر وحتى رجال القرن التالي ، فكانوا أقل حظا من هذه الناحية ، لانهم كانوا مضطرين لتصفح الكتاب طويلا قبل التعرف على هويته : اذ لم تكن هناك صفحة عنوان في الكتب المطبوعة القديمة ، حيث كان النص يبدأ منذ الصفحة الاولى ، كالمخطوطات تماما ،

ثم تأتي بعدها مباشرة صيغة مقتضبة يذكر فيها عادة عنوان الكتاب واحيانا اسم المؤلف . وقد ظل القراء مدة طويلة ، حتى مطلع القرن السادس عشر ، يفتشون عن المعلومات الاوسع في نهاية المؤلف أو « **الحاشية الختامية** » وريثة مثيلاتها في المخطوطات القديمة . هنا فقط ، جرت العادة بصورة مبكرة جدا على ذكر مكان الطباعة واسم الطابع وغالبا العنوان الصحيح للكتاب مع اسم مؤلفه .

الا أن عنصرا جديدا للتعرف على هوية الكتاب ، وهو « **الاشارة الطباعية** » المنقوشة على الخشب ، قد جاء منذ بداية القرن الخامس عشر ، ليضاف على المستهل (الفاتحة) والحاشية الختامية . كانت هذه الاشارة في البداية مجرد حرف أو رمز مختصر ينقش غالبا على ارضية سوداء ويمثل الاشارة التي كان أصحاب المكتبات ورجال الطباعة يرسمونها على رزمات الكتب المرسلة الى زبائنهم تسهيلا لعملية النقل . اما مكانها فيأتي بعد الحاشية الختامية مباشرة أو على ورقة بيضاء في نهاية الكتاب . الا أن هذه الاشارة ما لبثت ان اصبحت رسما دعائيا حقيقيا ، ليست الغاية منه الدلالة على اصل الكتاب فقط ، بل تزيينه وتأكيد نوعيته أيضا . لذلك بدأ أصحاب المكتبات ورجال الطباعة ، من الآن فصاعدا ، بطباعة شارات خاصة لمحلاتهم ونصوص شعاراتهم ؛ وعندما انتشرت درجة (موضة) الرموز التصويرية المستوحاة من العهود القديمة وكذلك الشعارات الرمزية المختلفة في أوج ازدهار النزعة الانسانية ، خرجت الى حيز الوجود مجموعة معقدة من الرموز والشعارات: فاختار (آلد) المرساة ، و (كيرفر) القارن (وهو حيوان أسطوري بجسم حصان) ، و (ايستيان) شجرة الزيتون ، و (غاليو دوبريه) المركب الشراعي بسبب اسمه هو . وفي الوقت نفسه لم تعد « الاشارة » توضع في نهاية الكتاب كالسابق ، بل اصبحت تستخدم لتزيين صفحة العنوان التي بدأ استعمالها يعم منذ نهاية القرن الخامس عشر .





(الاشارة الطباعية لسيمون دي كولين)



الاشارة الطباعية لـ « جان دو بريه »

عجيب حقا تاريخ ولادة صفحة العنوان ، الذي يهدف بصورة اساسية ، في عصرنا هذا ، الى اطلاع القارىء على « هوية » الكتاب . انه تاريخ متميز ، لانه يبين لنا كيفية الظهور والانتشار التدريجي للاستعمالات الجديدة التي تجعل استشارة الكتب اسهل من السابق . فالصفحة الاولى تكون عادة أكثر عرضة من سواها للاتساخ والغبار ، مما دفع بعض رجال الطباعة ، تجنبا لاتساخ مطلع النص ، الى البدء بالطباعة على ظهر الورقة الاولى التي يبقى وجهها ابيض خاليا من الكتابة. ثم وجدوا أنفسهم منساقين الى ان يطبعوا على هذه الصفحة البيضاء عنوانا مقتضبا يسمح بالتعرف على هوية الكتاب بصورة اسهل .

وهكذا اعتبارا من سنوات ١٤٧٥ ــ ١٤٨٠ ، بدات صفحة العنوان بالظهور ، ولم تلبث فائدتها ان اصبحت من الامور البدهية . اما بالنسبة لفرنسا ، فان بعض الناشرين المهتمين بالتقديم اللائق لكتبهم ــ من امثال « فيرار » ــ قد شرعوا في تزيين هذه الصفحة بحرف أولي كبير منقوش على الخشب ومزخرف بالاشكال الغريبة . كما قام آخرون بوضع اشارتهم أو احد الاشكال المنقوشة على الخشب ، على الفراغ الابيض من الصفحة تحت العنوان : كلوحات تمثل المعلم وتلامذته في بعض الكتب الدراسية المخصصة للمبتدئين مثل لوحة « العقائدي » لالكسندر دي فيلديو ، أو الحواشي في الكراسات الشعبية .

في نهاية القرن الخامس عشر ، اصبحت كافة الكتب تقريبا تتضمن صفحة خاصة للعنوان ؛ الا ان شكلها لم يكن كما هو عليه حاليا ؛ اذ بعد أن كان العنوان مقتضبا ، بدأ يتطاول فيما بعد بشكل كبير : فخلال الثلث الاول من القرن السادس عشر ، ادى الاهتمام باملاء كامل الصفحة الى دفع الناشرين لاحاطة العنوان بصيغة مطولة ؛ كما كانوا يضيفون عليه احيانا اشارة الى الاقسام الرئيسية للكتاب ، أو بعض الابيات الشعرية للمؤلف واصدقائه . واذا كان أصحاب المكتبات ، الراغبين في الدعاية لانفسهم ، قد اعتادوا بصورة مبكرة على وضع اسمائهم وعناوينهم في اسفل الصفحة الاولى ، الا انه ما زال من الضروري العودة الى نهاية

الكتاب ، أو الحاشية الختامية ، للحصول على المعلومات الدقيقة عن اسم الطابع مثلا ، وخاصة تاريخ انتهاء الطباعة .

في الوقت نفسه ، بدأ الاهتمام يزداد بزخرفة صفحة العنوان ، كما اخذت درجة (موضة) الاطارات المنقوشة تنتشر : ففي ستراسبورغ ، نفذت عدة اطارات من قبل (بالدونغ ـ غرين) ، اعتبارا من عام ١٥١٠، لصالح (كنوبلوش) و (سكوت) ثم (غرونتجر) . بعد ذلك بقليل قام (هولباين) في « بال » برسم عدد كبير من الاطارات لصالح (فوربن) . ثم ما لبث هذا الطراز الجديد أن انتشر في نورمبرغ وأوغسبورغ وباريس، ولدى (جوس باد) الذي استخدم زخرفة من الطراز المعماري .

الا أنه بينما ظل العنوان غارقا ضمن صيغة مطولة وسط ملاحظات ودلالات متعددة ، في البلدان الجرمانية وانكلتره ، حيث استمرت درجة الاطارات مدة طويلة ، اخذ آل « آلد » في ايطاليا وبعض رجال الطباعة الانسيين في فرنسا من أمثال « سيمون دي كولين » وآل « استيين » أو آل « دي تورن » ، يعملون على توضيح تقديم صفحة العنوان : فاعتبارا من عام ١٥٣٠ ، في أوج انتصار النزعة الانسانية ، أخذوا يحاولون اعطاء الكتب الجديدة عناوين قصيرة تطبع لوحدها مع اسم المؤلف ، كما يوضع في أسفل الصفحة العنوان الفهرسي . وهكذا ، بينما كان الحرف الروماني والايطالياني ينتصران في كل مكان ، بدأت صفحة العنوان تأخذ شكلها الحالي تدريجيا .

*
* *

أدى استبدال تقنية النقش على الخشب بالنقش على النحاس ، في نهاية القرن السادس عشر ، الى ادخال تغييرات جذيدة على مظهر صفحة العنوان . من المؤكد أن عنوان معظم الكتب ظل يظهر دائما بنفس الطريقة ، الا أنه لوحظ تجديد واضح في العنوان المحاط بالاطارات ،

وذلك في الطبعات ذات القياس الكبير المعتنى بها بشكل خاص ، ثم مالبث هذا التجديد أن انتقل الى كتب أخرى من كافة الانواع . في الاصل ، كان نص صفحة العنوان يطبع غالبا في وسط اطار منقوش ؛ الا أن هذه الطريقة تتطلب اللجوء الى تقنية دقيقة وحساسة للطباعة المزدوجة (اذ لا يمكن أن تتم في آن واحد طباعة العنوان المؤلف بواسطة الحروف الطباعية ، والاطار المنقوش على النحاس كما كان الوضع بالنسبة للاطاراتالمنقوشة على الخشب) . فقد كانت الآثار السميكة التي تتركها الحروف ، تتنافر بشكل سيء ومؤذ للعين مع الخطوط الناعمة الرقيقة للاطار المنقوش ، مما دفع أصحاب الاختصاص الى أن يقوموا في آن واحد بنقش نص العنوان مع الاطار المزخرف على لوحة من النحاس .

منذ ذلك الحين ، أصبح تقديم صفحة العنوان من عمل الفنانين وحدهم الذين مالوا بشكل طبيعي الى توسيع حصة الرسوم على حساب النص : حتى أخذ الرسم تدريجيا يحتل كل مساحة الصفحة ، بينما لم يعد يخصص سوى سطر واحد لعنوان الكتبي وتاريخ الطبع ، وذلك في أسفل الصفحة ، بينما يوضع العنوان على قاعدة أو قطعة من الجوخ في مركز الورقة . هكذا تظهر العناوين المنقوشة في رسوم « روبنس » التي كان يضعها آل « موريتوس » في رأس طبعاتهم ومنشوراتهم . وهكذا أيضا تبدو صفحة العنوان بالنسبة لكثير من كتب القسم الاول من القرن السابع عشر ، التي يؤذي منظرها أعيننا المعتادة على البساطة ، لان الفن الباروك لم يعرف المبالغة والتطرف كما عرفهما في هذا المجال بالذات . فرسم عنوان المؤلفات الدينية خاصة ، قد أصبح في أغلب الاحيان حجة أو فرصة لاظهار المواهب وعرض العضلات والاغراق في التفنن والتنافس، حتى أصبحت الاشكال رموزا وطلاسم معقدة تؤذي أكثر مما تفيد .

أما في فرنسا ، فكان الفنانون يسعون الى مزيد من البساطة ؛ وقد استمر كل من « توماس دي لو » و « ليونارد غوتييه » وتلامذتهما في وضع العنوان وسط رواق معماري . أما « ميشيل لاسن » ، الذي عمل في (أنفر) ، فكان يقلد رسوم « روبنس » ولكنه يتجنب الرموزوالتراكيب

الثقيلة المعقدة . وقريبا ، في عام ١٦٤٠ ، عندما كلف « بوسّين » برسم العناوين لمنشورات المطبعة الملكية ، استطاع ببضعة رسوم (ما لبثت أن أصبحت نموذجا يحتذى في كل مكان) أن يحقق ثورة حقيقية في هذا المجال : حيث دفعه شغفه بالوضوح الى الاكتفاء برسم بعض الشخصيات العظيمة المتلفحة على الطراز القديم ، ضمن اطار جميل من البساطة الكلاسيكية . الا أن رساما مثل « روبنس » ، يهتم قبل كل شيء باضفاء نوع من الوحدة على رسومه ، لا بد له أن يترك العنوان بعيدا عن مركز الصفحة . لذلك اصبح معه « العنوان المنقوش » ، المستخدم للزخرفة فقط ، رسما فنيا حقيقيا يوضع على راس الكتاب ، حتى اضطر الناشرون الى التسليم بالامر الواقع وتجميع كافة المعلومات الفهرسية في صفحة عنوان أخرى ، كلها مطبوعة ، تلي الصفحة المرسومة الاولى مباشرة . من الآن فصاعدا ، ستظل صفحة العنوان تحتفظ دائما بشكلها الحالي ، بعد أن ظهرت فائدتها العملية ضرورة لا بد منها .

٣ ـ تقديم النصوص ومقاس الكتب

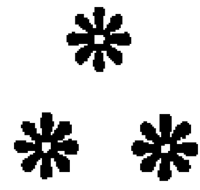
هنا أيضا ، نلمس نفس الجهد المبذول للتوضيح ، ونفس الميل الى التوحيد فيما يتعلق بتقديم النصوص . ولكن هنا أيضا ، لم ترافق ظهور الطباعة انقلابات مفاجئة : لان الناس لم يلمسوا الا تدريجيا الامكانيات التي كان يتيحها الفن الجديد .

لنفكر أولا ، لكي نفهم وندرك بصورة أفضل التقدم والمنجزات التي حققتها الطباعة ، بالصعوبات التي كان يلاقيها العلماء أو الطلاب أيام المخطوطات : أثناء الاستشهاد بنص من النصوص مثلا ، كان من المستحيل عليهم أن يحددوا ، كما تعودنا أن نفعل اليوم ، رقم الورقة أو الصفحة التي ورد فيها هذا النص ، لان هذا الرقم يتبدل ، مبدئيا على الاقل ، في كل مخطوطة . لذلك كانوا يعمدون الى ذكر عنوان الفصل أو رقمه (أو حتى المقطع) ، الذي وردت فيه الفقرة المطلوبة ؛ كما كانوا مضطرين غالبا لاعطاء كل مقطع عنوانا خاصا وتقسيم النص الواحد الى عدة فقرات

صغيرة يسهل تمييزها حتى يصبح من الممكن استخدام وسيلة أو اسلوب معقول للاستشهاد والمراجع .

واذا اضفنا الى ذلك غلاء وندرة الرقّ (وحتى الورق نفسه) في تلك الفترة ، والاضطرار ، على سبيل الاقتصاد ، الى كتابة النصوص بشكل متراص مملوء بالاختصارات وبدون اي فراغ بين السطور أو حتى بين المقاطع والفقرات ، لادركنا لماذا تأخذ المخطوطات غالبا هذا المظهر المشوش الذي يعتبر الرجوع اليه في غاية الصعوبة .

وقد ذكرنا آنفا ان الطبعات الاستهلالية الاولى كانت تقدم كالمخطوطات تماما : سواء من حيث الترتيب العام أو الاختصارات أو الكتابة المرصوصة. الا ان السطور ما لبثت أن اخذت تتباعد تدريجيا ، كما صارت الحروف تميل اكثر الى الكبر ، وأخذ ت الاختصارات تقل . الا أن التقديم ظل نفسه أو كاد لمدة طويلة ؛ فلا يوجد اي فارق مثلا ، بين تقديم نص من بعض منشورات « أرسطو » أو « لانسلو » التي ظهرت بين عامي ١٤٨٠ — ١٤٩٠ ، وبين طبعاتها الثانية التي ظهرت حوالي عام ١٥٢٠ . وهكذا لم يتغير أسلوب تقديم النصوص ، الا بعد أن ادت أذواق الجماهير الى انتصار أدب جديد ، وعندما اصبحت الحروف الرومانية مستخدمة في كل مكان .



يبدو ان استخدام الترقيم المطبوع في الكتاب لم يكن يهدف اصلا الى تسهيل عمل القارىء وانما الى توجيه عمل الحرفيين الذين كانوا يصنعون الكتاب : وخاصة عمل المجلّدين الذي كان في غاية الحساسية في فترة كان كل دفتر يحتوي فيها عادة على عدد متفاوت من الاوراق وحيث كانت كل ورقة تضاف بصورة مختلفة ؛ لمساعدة المجلّد اذن ، كان رجال الطباعة يقلدون النسّاخين العاملين في بعض المشاغل (الورشات) الكبرى ، فيضيفون الى الكتاب لائحة يدوّنون فيها الكلمة الاولى من كل دفتر او ورقة مزدوجة (سجل) ؛ وللغاية نفسها اعتادوا

على الدلالة او الاشارة الى كل دفتر بحرف من حروف الابجدية ، يطبع عادة في أسفل الورقة والى اليمين ، واتباع هذه الحروف برقم يدل على تتابع الاوراق المزدوجة (التوقيع) . ومن الممكن انهم قاموا للغاية نفسها أيضا ، بترقيم الصفحات المزدوجة (اذ يلاحظ فعلا أن أقدم المؤلفات المرقمة ليست موقعة والعكس صحيح) .

مهما يكن ، فان عادة الدلالة على توالي الصفحات المزدوجة لم تعم الا ببطء ؛ ففي مطلع القرن السادس عشر ، كان هناك العديد من الكتب ما زال دون ترقيم ؛ كما أن عملية الترقيم نفسها (التي كانت تتم بواسطة الارقام الرومانية) ، كانت خاطئة في العديد من الاعمال والكثير من الاحيان . وهكذا كان لا بد من الانتظار لمدة أطول حتى ترقم صفحات الكتب ، كما هو عليه الوضع الآن،وليس الصفحات المزدوجة (fenillets) استخدم الترقيم لاول مرة من قبل (آلد) عام ١٤٩٩ في الـ (Cornucopiae) لنقولا بيروتي ، ولم يصبح شائعا الا في الربع الثاني من القرن السادس عشر ، بفضل رجال الطباعة الانسيين بشكل خاص .

وفي حدود هذا التاريخ بالذات ، اخذ الكتاب ، كما اسلفنا ، شكله الحالي ، عندما انتصرت النزعة الانسانية (الانسيه) وفرضت استعمال الحروف الرومانية بالحجم الطبيعي الاكبر من الحروف القوطية والاسهل قراءة بالتالي . من الآن فصاعدا سوف تطبع النصوص ، ليس على شكل اعمدة ، وانما « بالسطر الطويل » . وفي الوقت نفسه ، اخذت السطور تتباعد ، والسعي وراء المزيد من الوضوح يزداد ، وعناوين الفصل تبرز بصورة افضل في مساحة خالية بيضاء . وهكذا بدات النصوص تأخذ شكلها الحالي تدريجيا .

*

* *

الا ان الكتاب ، بفضل الطباعة وازدياد عدد النصوص ، قد توقف عن الظهور كحاجة او غرض ثمين يرجع اليه الناس في المكتبات ، كما ازدادت الرغبة في حمله ونقله بسهولة للرجوع اليه او قراءته في كل مكان

وزمان . وهذا ما يبرر النجاح المتزايد الذي لاقته « الحجوم السهلة الحمل » ، في القسم الاول من القرن السادس عشر ، في فترة لم يعد معها الاهتمام بالكتب وقفا على رجال الدين والدارسين والاسياد ، وحيث قام العديد من البورجوازيين باقتناء المكتبات الخاصة .

من المؤكد أنهم كانوا يعرفون ويستخدمون الكتب ذات المقاس (in - 4°) و (in - 8°) منذ القرن الخامس عشر ، الا أن هذا كان مقتصرا على النصوص القصيرة ، التي تشكل حجما رقيقا جدا لو طبعت بشكل نصفي (بحجم نصف طلحية) ؛ اما الكتب المعدة للدراسة على المقاعد فكانت ذات حجم كبير بصورة عامة . في الواقع ، يمكن القول بأن المؤلفات الوحيدة التي كانت تستخدم آنذاك بالحجم الصغير هي كتب التقوى وكتب الساعات ، لانها كانت تستعمل بصورة دائمة ومن قبل جمهور واسع ، الامر الذي كان يتطلب منها ان تكون سهلة الحمل والنقل . كذلك كانت تطبع بالحجم الصغير ، « اللوحات القوطية » ، وهي عبارة عن مؤلفات من الادب الشعبي المعدّ لجمهور أوسع .

ولكن ، منذ نهاية القرن الخامس عشر ، قام آل « آلد » ، رغبة منهم في تسهيل قراءة المؤلفين الكلاسيكيين ، باطلاق مجموعتهم الشهيرة « القابلة للحمل » . انتشرت درجة (موضة) الحجم الصغير بشكل متزايد في مطلع القرن السادس عشر ، بعد تبنيها من قبل مجموعة الانسيين : ففي باريس مثلا ، استطاع (سيمون دي كولين) ، الذي صنع مجموعة مماثلة لمجموعة (آلد) ، أن يجد العديد من المقلّدين ، وخاصة في مدينة ليون ، حيث كانت تنسخ غالبا النماذج الفينيسية . وهكذا ما لبثت المؤلفات الادبية الجديدة أن اصبحت تنشر بصورة منهجية في طبعات ومنشورات ذات حجم صغير ، مما سهل حملها وتداولها وقراءتها أو الرجوع اليها . اذا كانت روايات الفروسية القديمة قد ظلت تظهر في طبعات نصفية أو (in - 4°) ، فان الاشعار اللاتينية والانسية ، وأعمال « مارو » أو « رابليه » ، و « مارغريت دي نافار » ، ثم أعمال شعراء « الكوكبة » (Pléiade) (وهي مجموعة من مشاهير الشعراء) ، أخذت

جميعها تنتشر في كتب ذات حجم صغير . بهذا الشكل ، ظهرت «الحِكَم» لـ Erasme » وانتشرت في جميع انحاء أوروبا ؛ وكذلك اعمال النقد التي كتبها « لوثر » مع بعض المصلحين ، ثم طبعوها في كتب صغيرة لكي يسهل انتشار أفكارهم بين الجماهير . وقد انتقلت هذه الدرجة الى الكتب المصورة أيضا . ففي عام ١٥٤٠ ، رسم (هولباين) زخارف صغيرة لطبعات من قياس (in - 4°) و (in - 8°) تتضمن «صورا للتوراة» و «تماثيل للموت » ، عرفت نجاحا باهرا آنذاك . وفي مدينة ليون ، لدى آل « دي تورن » ، ثم في باريس ، لدى « دينيس جانو » ، وقريبا في كل مكان ، بدأت تظهر منشورات من قياس (in - 8°) تتضمن « أشكالا للتوراة » و « شعارات » آلسيا أو « تحولات » اوفيد . الا ان الدارسين ظلوا يفضلون الطبعة النصفية من اجل كتب العمل ، لانها اكثر وضوحا رغم ثقلها ، كما أن الرجوع اليها اسهل عند الحاجة .

منذ هذه الفترة ، كان هناك تباين بين الطبعات الثقيلة للنصوص العلمية المعدّة للرجوع اليها في المكتبات ، والطبعات الصغيرة الخفيفة للاعمال الادبية أو الكتابات النضالية المعدة لجمهور أوسع . هذا التباين ، الذي يميز أيضا تاريخ النشر في القرن السابع عشر . ففي القسم الاول من هذا القرن ، في عهد النهضة الكاثوليكية ، عندما كانت فرنسا مغطاة بالاديرة ، ولكل دير مكتبته الخاصة ، عندما كان رجال اللاهوت البروتستانت ينقضون على العلم مع اليسوعيين ، عندما بدأ القضاة والمحامون يقلدون الكهنة فيجمعون في مكتباتهم النصوص الدينية الكبرى ، وبينما أخذ البورجوازيون يفقدون تذوقهم للقراءة الذي اظهروه في القرن السادس عشر ، نجد أن الطبعات الكبرى للنصوص المقدسة ولاعمال « آباء الكنيسة » ومجموعات المصالحة والحقوق الكنسية ، قد عرفت مرحلة زاهرة من الانبعاث والتجدد وتضاعفت الطبعات النصفية الكبرى . كما كان الناس في الوقت نفسه ، يفضلون غالبا ، من أجل النصوص القصيرة والاعمال المكتوبة بالفرنسية خاصة ، المنشورات ذات القياس (in - 4°) على الـ (in - 8°) لانها أسهل للقراءة رغم ثقلها وصعوبة

تداولها . حتى أن آل (آلزوفييه) ، الذين عجزوا بسبب الحروب عن تغطية حاجاتهم من الورق من فرنسا ، قرروا ، كما أسلفنا ، تبني حجما صغيرا جدا من أجل منشوراتهم للمؤلفين الكلاسيكيين (in - 12) مع حروف صغيرة للغاية ، مما حدا بزبائنهم (وأكثرهم من الدارسين) للتذمر والشكوى .

أما في القسم الثاني من القرن ، فقد اتسع الجمهور المهتم بقضايا الفكر ؛ فكثرت الروايات والكتب التعميمية ، بينما كانت الشروط الاقتصادية غير مواتية للمشاريع الهامة فيما يتعلق بالطباعة والنشر ، مما أدى الى تزايد نجاح الكتب الصغيرة . أما في القرن الثامن عشر ، فلم تعد الطبعات النصفية (in - folio) تستخدم الا للمؤلفات ذات الحجم الكبير ، كالمعاجم مثلا أو الموسوعات ، حتى أصبحت مئات المؤلفات التي تحظى بحصة الاسد من الانتاج الطباعي ، هي التي تنشر بقياس (in - 4°) وخاصة الـ (in - 8°) : كالروايات والاعمال الادبية والابحاث العلمية والمؤلفات الجدلية والمنشورات اللاتينية واليونانية .

٤ ـ زخرفة النصوص

لقد جرت العادة كما نعلم ، على زخرفة وتزيين نصوص بعض المخطوطات بالرسوم ، ككتب الساعة والصلوات والمؤلفات الدينيةوروايات الفروسية ومقالات صيد الوحوش بالكلاب . الا أن هذه المخطوطات المصورة المكتوبة من قبل خطاطين مهرة ، والمزخرفة بواسطة مشاهير الرسامين أحيانا لم تكن في متناول سوى حفنة من المميّزين كالاسياد والكهنة أو العلمانيين والبورجوازيين الاثرياء .

هنا أيضا لم يحدث ظهور الطباعة أية ثورة . فقد تابع الخطاطون والمزخرفون أعمالهم ـ ولنذكر على سبيل المثال لا الحصر : « آن دي بريتاني » ، « بورديشان » (الذي توفي عام ١٥٢١) ، أو « كولومب ». وعندما كان يريد بعض الناشرين المتخصصين في الكتب النفيسة، من أمثال

(فيرار) ، أن يخرجوا نسخة من كتاب مطبوع تستطيع مضاهاة هذه المخطوطات النفيسة ، فانهم كانوا يعمدون الى زخرفة النص المطبوع من قبل نفس الرسامين الذين كانوا يزخرفون هذه المخطوطات .

الا أن مثل هذا الاسلوب كان طويلا جدا وباهظ التكاليف ، لذلك لم يكن استخدامه ممكنا الا في بضعة نسخ للاهداء تسحب على الرق وتخصص للشخصيات الكبرى . أما عندما وجب تزيين عدة مئات من النسخ المطبوعة ، وعندما عمّم الكتاب على كافة فئات الشعب ، أصبح لا بدّ من اللجوء الى وسيلة أخرى : فلا بد ان يقابل الانتاج الآلي للنصوص اسلوب آلي لانتاج سلسلة من الصور .

لقد كان رجال العصر يعرفون آنذاك ويستخدمون أسلوبا من هذا النوع بطريقة صناعية ــ وهو النقش على الخشب ــ حتى قبل ظهور الكتب المطبوعة الاولى : فمنذ نهاية القرن الرابع عشر ، لاحظنا ان الدمغات المنقوشة على الخشب قد بدأت تنتشر ، حتى بلغت أوجرواجها عند ظهور الطباعة . لقد كانت كل هذه العملية تتلخص في وضع قطعة من الخشب المنقوش داخل القالب ، وسط الحروف الطباعية ، ثم طبع الحروف والرسم معا في آن واحد (لم يكن في ذلك اية عقبة تقنية) ؛ لذلك وجدوا في هذه الوسيلة حلا سهلا تبنوه سريعا لحل مسالة زخرفة النصوص المطبوعة . وفي حوالي عام ١٤٦١ ، خطرت على بال رجل طباعة من « بامبرغ » ، يدعى (ألبرنخ بفيستر) ، فكرة زخرفة عدة كراسات بهذا الشكل ، منها مجموعة صغيرة من الحكايات الشعبية « l'Edelstein » (أو الحجر الثمين) لاولريش بونر . الا أن هذه الاشكال البسيطة الخالية من التظليل ، والملونة بسرعة بواسطة الالوان المائية ، لهذا الكتاب المصور الاول ، لم تكن مؤذية للعين رغم خشونتها وغلظتها ؛ ولا شك في أن مظهرها لم يفاجىء الجمهور الذي تعود على رؤية الطبعات الخشبية المنقوشة على المخطوطات .

بينما كان « بفيستر » ينشر قصصا مزخرفة اخرى بالطريقة نفسها ،

كالكتاب المسمى « بالقصص الاربعة » مثلا ، أخذ (غونتر زاينر) يقوم في « أوغسبورغ » ، باصدار عدد متزايد من الطبعات المزخرفة بالخشب من مؤلفات شعبية وكتب صغيرة للتقوى . كذلك في « أولم » ، قام (أولريش زيل) بنفس الاعمال ، كما قام سواه بأعمال مماثلة في مدن كثيرة اخرى من المانيا . كان المقصود من أعمال الزخرفة هنا ، كما كان عليه في المخطوطات ، هو شرح النص وتوضيحه بشكل ملموس ، وليس العمل الفني المجرد بحدّ ذاته .

وهكذا نجد انه في المانيا ، حيث ازدهرت صناعة النقش بواسطة الخشب ، قد درجت عادة زخرفة المؤلفات الشعبية بواسطة الخشب المنقوش ، ثم انتقل ذلك الاسلوب الى كافة أنواع الكتب بعد تطوروتحسن تقنية النقش على الخشب . الا أن رجال الطباعة الرينانيين الذين غادروا بلدهم وذهبوا يمارسون مهنتهم في أقاصي البلدان ، قد حملوا معهم اخشابهم المنقوشة ، أو قاموا بنقش اخشاب جديدة من أجل الكتب التي يطبعونها ، حتى أن الكتب المزخرفة الاولى التي ظهرت في كافة انحاء أوروبا ، كانت تحمل غالبا الطابع الجرماني . فمنذ عام ١٤٦٧ مثلا ، أي بعد مضي سنتين على ظهور أول كتاب مطبوع في ايطاليا ، قام عاملان من عمال الطباعة الالمان المقيمين في روما ، وهما « سوينهايم » و « بنّارتز » ، بنشر طبعة عن « التأملات » (Méditationes) للكردينال « توركمادا » مزخرفة بواسطة الخشب وبأيد المانية . كما أن أول كتاب مزخرف ظهر في نابولي (عام ١٤٧٨) ، « Baccace » قد طبع من قبل رجل الماني ، هو « ريسينجر » ، كما كان الخشب المنقوش المستخدم للزخرفة من صنع احد مواطنيه أيضا . كذلك ظهر التأثير الجرماني قويا في فينيسيا ، حيث أقام عدد كبير من عمال الطباعة الالمان . وأول كتاب مزخرف ظهر في فرنسا ، وهو

« le Mirouer de la Rédemption de l'humain lignaige »

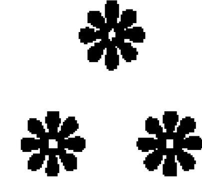
قد طبع في مدينة ليون من قبل رجل الماني ايضا ، يدعى (Mathieu Husz) ، استخدم للزخرفة أخشابا سبق لها أن استعملت في كولونيا عام ١٤٧٤ ، وفي بال عام ١٤٧٦ . كذلك



Von geistlichem leben·

Jns mals ein affe kam gerant·Do er vil guter
nusse vant·Der hette er gessen gerne· Im was
gesagt von dem kerne· Der wer gar lustiglich unde
gut·Beschwert was sein thumer mut·Do er der pit
terkeit enphant · Der schalen darnach zu hant· Be-
greiff er der schalen hertikeit· Von den nussen ist mir
geseit·Sprach er das ist mir worden kunt·Sie ha
ben mir verhonet meinen munt · Hyn warffe er sie
zu der selben vart·Der kerne der nusse im nye wart·
Dem selben affen sein gleich·Weibe iung arm unde
reich·Die durch kurze pitterkeit· Verschmehen lan
ge sussikeit·wenn man das feur enzunden wil·So
wirt des rauches dick zu vil · Der thut einem in den
augen wee·wenn man darzu pleset mee·Pis es en
zundet wirt wol·Und dann hize gibt als es sol·Das
feur sich kaum erzeigt·Das es hize und liecht gibt·
Also ist es umb geistlichs leben· welchs mensch sich

كان رجال الطباعة والزخرفة المنقوشة ، في كل من لوفين وبروكسل وبروغ وغودا وانفرس ، يستوحون فنهم من اسلوب النقاشين في كولونيا . وفيما بعد ، ستوجد التأثيرات الالمانية في أوائل الكتب المزخرفة الانكليزية أو الاسبانية .



هكذا نرى أن التأثير الجرماني كان واضحا اسلوبا وروحا في زخرفة الكتاب خلال مرحلة البداية هذه . الا أنه لن تلبث أن تظهر تأثيرات محلية وتتشكل مدارس اقليمية .

في بعض المراكز النادرة ، كانت هناك زخارف في الكتب الاولى ، تبدو وكأنها نفذت من قبل فنانين محليين ــ من صانعي ورق اللعب ولا شك ــ الذين لم يتأثروا مطلقا بالنماذج الالمانية : فلا يوجد أي اثر جرماني مثلا في اللوحات الموجودة على الكتاب المصوَّر (المزخرف) الاول الذي طبع في (فيرون) ، وهو « في الشؤون العسكرية » لـ (فالتوريوس) عام ١٤٧٢ ؛ كما لا يوجد أي اثر جرماني في الزخارف التي نجدها في القانون الكنسي لـ « ميسّيل دي فيردان » المنشور في باريس عام ١٤٨١ من قبل « جان دوبريه » . في هذا الكتاب أيضا ، تبدو لاول مرة اطارات مشكلة من مجموعة من رسوم الاغصان المورقة ، مع رسوم لبعض الحيوانات والزخارف الاسطورية المقتبسة مباشرة من المخطوطات : منذ البداية اذن، كان هناك اسلوب مبتكر للزخرفة أكثر مرونة من طراز النقوش الالمانية للفترة نفسها ، اخذ يتوسع في باريس ، فظهرت آثاره في مدينة (روان) وفي انكلترة ، ومن الثابت أن (فيرار) ، الاختصاصي الباريسي الكبير في الكتب المزخرفة عند نهاية القرن الخامس عشر ، كان يمتلك مشغلا في لندن يطبع فيه ترجمات انكليزية لبعض طبعاته الفرنسية .

أما في ايطاليا ، في روما ونابولي وفينيسيا ، حيث صنعت الكتب المزخرفة الاولى من قبل طابعين المان ، فقد تشكلت مدارس محلية تأثرت

أكثر من سواها بالرسم والفن الجدراني ؛ ويبدو أن الجمهور الايطالي ، المتعود على فن اقل خشونة ، لم يستسغ كثيرا الكتب المزخرفة حتى تم تكييفها مع أذواقه الخاصة . لذلك ، وبسرعة كبيرة ، قام النقاشون الالمان انفسهم ، ارضاءا لهذا الجمهور ، بتبني الطراز الايطالي ، ثم تلاهم في ذلك تلامذتهم الايطاليون ؛ ومن المحتمل أن يكون النقاش الذي نقش اخشاب « التأملات » (Meditationes de Torquemada) ، قد اقتبسها من رسوم فنان روماني استوحاها بدوره من أغصان الزخرفة لـ (سانتا ماريا سوبرا مينيرفا) ، كذلك ادى الميل الواضح في نابولي لنوع من اشكال الغنى الشرقي في الزخرفة ، الى التأثير على الفنان الذي قام بزخرفة مقدمات « لايزوب » المطبوع سنة ١٤٨٥ من قبل طابعين المان كانوا يعملون لصالح الانسي النابويتاني (توبّو) .

وهكذا تشكلت تدريجيا، في مراكز النشر الكبرى ، مدارس للمزخرفين المتأثرين غالبا بالاساليب الاقليمية للرسامين والمزخرفين ، وبفن العمارة للابنية الماثلة أمام أعينهم آنذاك . وشيئا فشيئا ، اخذت كل مدرسة تستأثر بأسلوبها الخاص وروحها المستقلة وتكون لنفسها خاصتها الفريدة . ففي فلورنسا مثلا ، كان النقاشون يزخرفون خاصة الكتب الشعبية المعدة للزبائن المحليين . اما في « فينيسيا » أو « ليون » ، هاتين المدينتين التجاريتين حيث يعمل الناشرون من اجل التصدير ، فقد توجهت العناية نحو زخرفة كتب التوراة والكتب الكنسية ؛ لقد ظهرت أيضا في (ليون) عدة كتب شعبية وكراسات اخلاقية ومؤلفات دينية ، علاوة على ترجمات عديدة للمؤلفين اللاتينيين المعروفين (من أمثال « تيرانس » و « أوفيد ») مزخرفة بالرسوم والاشكال . في باريس، نشرت كتب مزخرفة من كافة الانواع : كتب الايام ، مؤلفات دينية ، أشعار لـ « فيون » ، هرجات من نوع « Pathelin » ، كتب كنسية ، مجموعات أخبار وروايات فروسية . في (غودا) ، تفرّغ (جيرارد لو) ، الاختصاصي الكبير في الكتب المزخرفة في هولانده ، لطباعة ونشر مؤلفات التقوى وروايات الفروسية المعدّة لصالح البورجوازية الغنية في هذا البلد . في (نورمبرغ) ، قام « انطون كوبرجر » ، المتخصص اساسا في

نشر الكتب العلمية ، باصدار كتب مزخرفة أيضا ، حيث كلف النقاش (والغموت) بزخرفة الكتاب المسمى (Schatzebehalter) باحـدى وتسعين رسما يشغل كل منها صفحة كاملة ويمثل مشهدا من مشاهد التوراة أو بعض الصور الرمزية (عام ١٤٩١) ، كما قام بنقش حوالي / ٢٠٠٠ / قطعة خشبية لزخرفة كتاب (كتاب الوقائع) لمؤلفه « هارتمان شيـدل » ، والمعـروف تحـت عنـوان (أخبـار نورمبـرغ) أو (Chroniques de Nuremberg) عام ١٤٩٣ ، الذي قدم عنه طبعة باللاتينية واخرى بالالمانية ، والذي بيع في فرنسا وايطاليا وكراسوفيا وبودا . بعد ذلك ببضع سنين ، قام (كوبرجر) أخيرا ، بزخرفة لوحات « دورر » (رؤى القديسة بريجيت) عام ١٥٠٠ ، بالاضافة الى (أعمال هورسويتا) عام ١٥٠١ .

*
* *

ان وجود طراز خاص وروح خاصة لكل مدرسة من هذه المدارس ، لم يحل دون استمرار التأثيرات الخارجية . فكل كتاب مزخرف يصدر، كان يعرف في كافة انحاء أوروبا ويقلّد في أغلب الاحيان . وهكذا نجد أن « مجموعة أخبار نورمبرغ » لمؤلفها (كوبرجر) ، التي ذكرناها آنفا ، قد نقلت في (أوغسبورغ) من قبل (شونسبرغر) (١٤٩٦ ، ١٤٩٧ ، ١٥٠٠) . كما أن لوحات طبعة (بال) المسمـاة (Nef des fous) لسيباستيان براندت (عام ١٤٩٤) ، قد استخدمت كنموذج لنقاشين باريسيين (١٤٩٧) وآخرين من مدينة ليون (١٤٩٨) . الا أن الفنانين الذين كانوا يقومون بعمليات النقل هذه ، كانوا يسعون جاهدين أحيانا لاضافة بعض الاعمال المبتكرة : فكتاب « حلم بوليفيل » ، أحد أشهر المؤلفات المزخرفة الباريسية في عصر النهضة ، ليس سوى اقتباس لطبعة ظهرت منذ ما لا يقل عن خمسين عاما لدى آل (آلد) في فينيسيا ؛ الا أن اللوحات قد نقشت بروح تختلف كليا عن روح النموذج الايطالي : اذ أن تكييفها مع الذوق الفرنسي قد ترجم بشيء من السعي نحو الحذلقة أو التكلف . ولكن في كثير من الاحيان ، كان الاقتباس يصبح مجرد نقل



MA dame Je viens deuers vous.
Comme singuliere maistresse.
Et supplie a deux genoulx
Que par vostre noble largesse.
Acquites vers moy la promesse.
Soubz laquelle auec vous me tiens.
Et ay tenu par Jeunesse.
Affin dauoir de vous des biens.

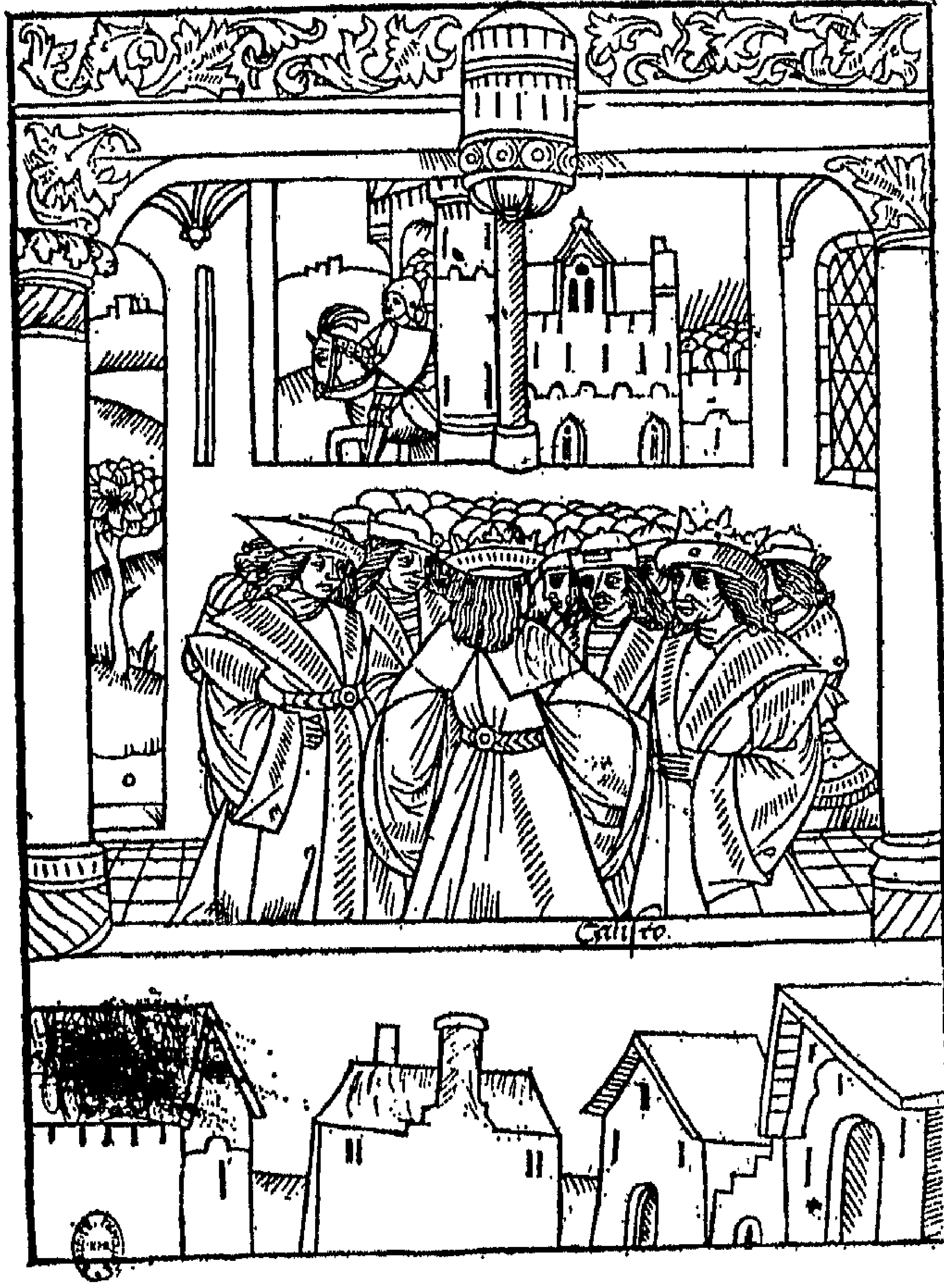
او نسخ ، عندما يكون النقاشون اقل مهارة وخبرة او على عجلة من أمرهم . فاذا كان النقاشون الفينيسيون في القرن الخامس عشر مثلا ، قد عرفوا كيف يستوعبون التأثير المزدوج للفرنسيين والالمان ، الا أن زملاءهم من القرن السادس عشر قد اخفقوا في ذلك ، لانهم كانوا واقعين تحت ضغط الطلبات الكثيرة التي كان يتقدم بها الناشرون المهتمون بالتصدير قبل كل شيء ، مما كان يدفعهم الى التقليد الاعمى دون بذل اي جهد يذكر في التكييف أو الابتكار .

وهكذا نجد اذن ان التأثيرات الاجنبية في الطراز كانت واضحة في كل مركز . وكثيراً ما كان يحدث أن تكون اللوحات الخشبية المستخدمة في هذه المدينة أو تلك ، من مصدر اجنبي . كما كان الناشرون ، الذين يمتلكون مراكز في عدة مدن ، يعمدون في أغلب الاحيان الى التصرف على النحو التالي : فالسيد (كورنارد ريش) ، وهو صاحب مكتبات في بال وباريس ، يستخدم لوحات منقوشة في بال لزخرفة الكتب التي ينشرها في باريس ؛ كما كان بعض الناشرين يعمدون في كثير من الاحيان الى مطالبة زملاء اجانب بتكليف من لديهم من الفنانين المشهورين ، بنقش اللوحات الخشبية التي يحتاجونها . وهكذا كان الفنان الشهير البالي (من مدينة بال) « أورس غراف » ، المزخرف المفضل لدى (فروبن) ، يعمل احيانا لصالح (ماتياس شورر) و (هوبفوف) من ستراسبورغ ، و (توماس انسيلم) من هاغنو ، و (بيير فيدو) و (كونراد ريش) من باريس .

*
* *

في هذه الظروف ، يمكننا أن ندرك مدى تعقيد القيام بدراسة زخرفة الكتاب ؛ خاصة وأن فن تصنيع الكتاب يجب أن يدرس على ضوء التيارات الفنية الكبرى ، الفكرية والاجتماعية لكل عصر أو فترة على حدة . الا ان هذه ليست غايتنا ، كما ان مجلدا كاملا لا يمكنه أن يفي مثل هذه الدراسة حقها .

De Boccace



(بوكاس ، «النبلاء التعساء» ، باريس ، أ. فيرار ، ١٤٩٢ ، طبعة نصفية)

الا اننا ندرك على كل حال ، اهمية الدور الذي لعبته الكتب المزخرفة ، مع فـن النقش على الخشب ، في نشر المواضيع الايقونية . لقد اظهر (ايميل مال) التاثير الذي خلفته « تـوراة الفقراء » بالاضافـة الى « مرآة الصحـة البشرية » كمـا قام المنمنم (miniaturiste) ، الذي زخرف « الساعات المنعمة بالغنى » للدوق دي بري ، باستخدام المخطوطة اللاتينية المسماة « Speculum humanae salvationis » الآنفة الذكر . كذلك كان كل من (فان ايك) عام ١٤٤٠ ، و (فان در ويدن) عام ١٤٦٠ ، يمتلكان هذا المؤلف مخطوطا او منقوشا بواسطة الحروف الخشبية ، فاقتبسا منه كل حسب حاجته . ولكن « توراة الفقراء » وال « مرآة » لم يصبحا مؤلفين شعبيين يتبناهما الفنانون ، الا بعد طباعتهما بالحروف الخشبية . وتعتبر لوحات الجدران ، الموجودة في (Chaise - Dien) وكاتدرائية (Reims) مستوحاة من هذه الاعمال ، بالاضافة الى لوحة جدارية موجودة في كاتدرائية (Sens) واخرى في (Chalon - Sur - Saône) كما ان الزجاجيتين الكبيرتين الموجودتـين في كنيـستي (Sainte - Chapelle) (Vic - le - Comte) منقولتان عن « توراة الفقراء » وال « Speculum » وكذلك الامر بالنسبة لبعض التماثيل على بوابة كنيسة (Saint - Maurice de Vienne) في (Dauphiné) او فوق البوابة الكبرى لكاتدرائية (Troyes) ، ولعـدد من الطلاءات الخزفية والصناديق العاجية المنحوتة والمزخرفة .

لا يمكن مطلقا اعتبار هذه الامثلة الآنفة الذكر كحالات استثنائية ؛ اذ غالبا ما تكـون اللوحات الجدرانية والزجاجيات المزخرفة مستوحاة من كتب الايام ، وخاصة « تقاويم الرعاة » و « رقصة الاموات » التي استخدمت كنماذج للكثير من الرسوم الجدرانية . فالرسـوم الجدرانيـة الموجـودة في (La Ferté - Loupière) (Meslay le - Grenet) و مستوحاة من « رقصة الاموات » المطبوعة من قبل « غوي مارشان » و « كوستيو » و « مينارد » . وبالمقابل ، من المحتمل ان « رقصة الاموات » لمارشان ، كانت نسخة عن « مقبرة الابرياء » . بعد ذلك في القرن السادس عشر ، يبدو ان عدة مزخرفين قد نقلوا زخارف بعض الكتب ، ككتاب ال « Enéide » الذي ظهر عـام ١٥٠١ لدى (غرونتجر) او « تاريخ غزو الجزءة الذهبية » لمؤلفه (جان دي موروغارد) ، بينما استوحيت عدة لوحات جدرانية مزخرفة من كتاب «Illustration des Gaules» لمؤلفه (جان لومايردي بالج) .

الا أن أوضح مثال عن الدور الذي لعبه الكتاب المزخرف فيما يتعلق بالنشر الفني ، هو الذي تقدمه لنا « التوراة » و « تحولات أوفيد » اللذان ظهرا لدى (جان دي تودن) عام ١٥٥٣ وعام ١٥٥٧ « مع "كريمات" » لبرنارد سالومون ؛ وقد أحرز هذان المؤلفان نجاحا كبيرا ، بينما كان المؤلف الثاني في الواقع دعاية للبروتستانتية . اوحت « كريمات » (من كرمة صغيرة) برنارد سالومون كثيرا من اللوحات الجدرانية والمنسوجات الحريرية والزجاجيات والقطع الخزفية المزخرفة والاثاث الخشبي . كما يبدو أن هذه الكريمات قد أوحت ، مباشرة أو عن طريق النقوش التي تقلدها ، بعدة سلاسل من اللوحات ، بينما استخدمت حواشي صفحات « تحولات أوفيد » بمثابة نماذج في كتب المخرمات (الدنتيلا).

سنكتفي هنا بذكر بعض المؤلفات المأخوذة من بين مشاهير القرن السادس عشر ، وبالتذكير بأسماء بعض الفنانين الذين سنتطرق الى ذكرهم في كثير من الاحيان .

كان الكتاب المزخرف بالاشكال والرسوم يجتاز آنذاك ، في كل من المانيا وفرنسا ، مرحلة استثنائية من الازدهار والرواج . ومع أن الامر لم يخرج عن كونه اساسا مجرد لوحات منقوشة ، الا أنه لا يسعنا ان نغفل ذكر السلسلة المتتابعة للسيد (البير دورر) : « نهاية العالم » (١٤٩٨) ، « الشغف الكبير » (١٤٩٨ – ١٥١٠) ، « حياة العذراء » (١٥٠٢ – ١٥١٠) ، التي ظهرت في بادىء الامر بشكل دفعات ثم بشكل مجلدات مرفقة بالنص . اعتبارا من عام ١٥١٢ ، كان (دورر) في أوغسبورغ يتعاون مع (شونسبرغر) ، رجل الطباعة الرسمي لماكسيميليان . واحتفاءا بمجد الامبراطور ، عمل على زخرفة « قوس النصر » ثم « الانتصارات » هذا الاخير ، كما قام (هانس بورغمير) بنقش هذه الاعمال في اغلب الاحيان . ثم ما لبث بورغمير وشوفلين وليونارد باك أن اجتمعوا لزخرفة (Teuerdank) الشهير ، وهو وصف رمزي للزواج الامبراطوري .

في الفترة نفسها ، اخذت مطابع ستراسبورغ ، وخاصة مطابع (غرونغر) ، تضاعف انتاجها من الكتب المزخرفة . ويمكن اعتبار الستراسبورجي (Hans weiditz le jeune) تلميذ (بورغمير) ، كأفضل رسام – نقاش في عصره ؛ فقد زخرف بشكل خاص توراة المانية لصالح « كنوبلوش » (عام ١٥٢٤) ، بالاضافة الى « Glucksbuch » لبيترارك الذي نشره ستاينر في أوغسبورغ عام ١٥٣٢ ، الا أن أفضل لوحاته توجد ولا شك في « رسوم



HERODOTI HISTORICI INCIPIT.
Laurentii Vallen. conuersio de Græco in Latinum.

h ERODOTI Halicarnasei historiæ explicatio hæc est: ut neque ea quæ gesta sunt ex rebus humanis obliterentur ex æuo: neque ingentia & admiranda opera: uel a Græcia edita uel a Barbaris gloria fraudentur: cum alias tum uero: qua de re ipsi inter se belligerauerint. Persarum eximii memoriæ dissensionum auctores extitisse Phœnices qui a mari quod Rubrum uocatur in hoc nostrum proficiscentes: & hanc incolentes regionem: quam nunc quoque incolunt: longinquis continuo nauigationibus incubuerunt: faciendisque Aegyptiarum & Assyriarum mercium uecturis in alias plagas: præcipueque Argos traiecerunt. Argos autem ea tempestate omni-

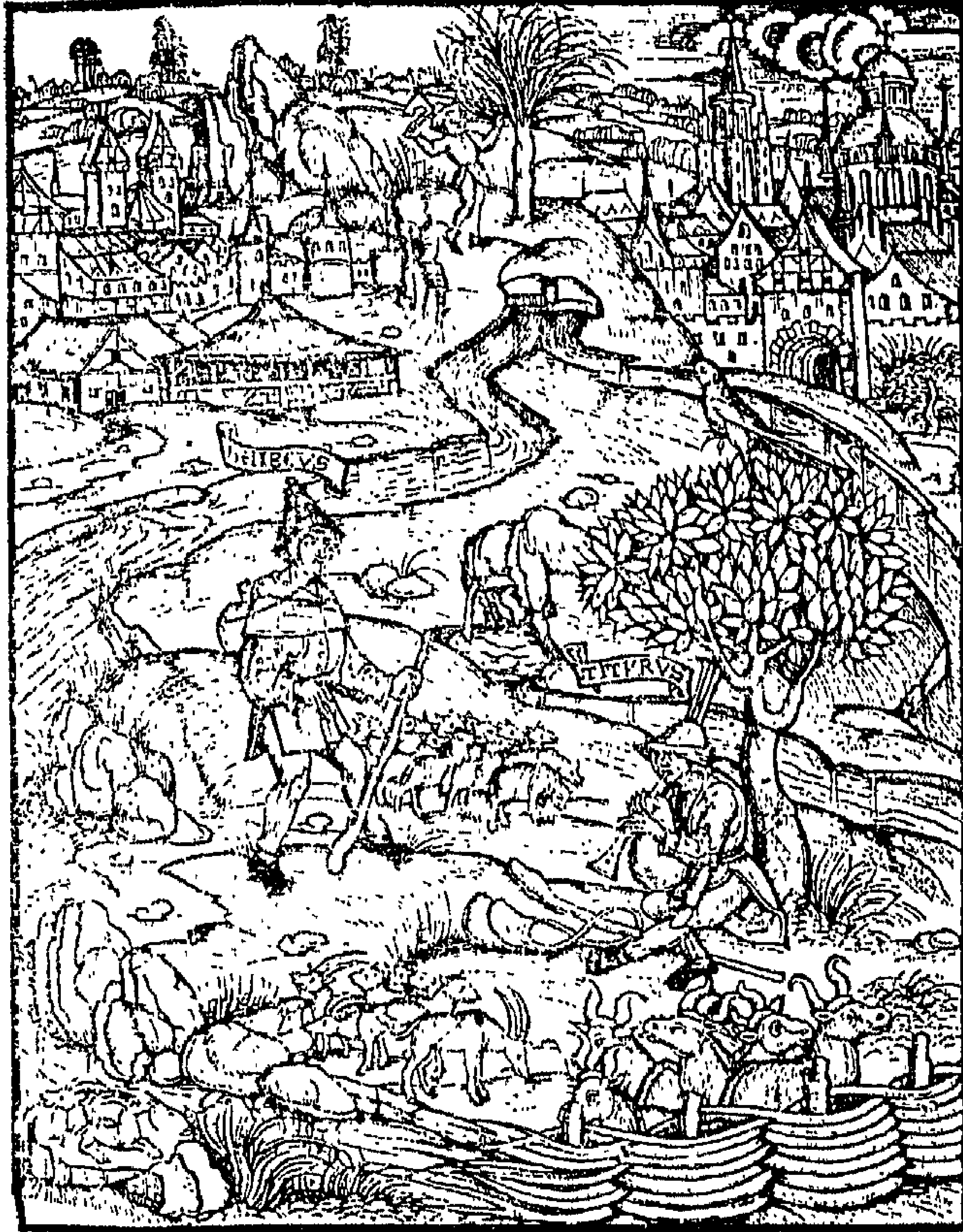
هيرودوت ، « تاريخ الكتاب الجديد » ، ترجمة ل. فالا ، فينيسيا ، ج. و. ج. دي غريغوريس ، ١٤٩٤ ، طبعة نصفية

حية عن الاعشاب » لـ (أوتو برونفل) (شوتن ، ١٥٣٠ ــ ١٥٣٦) : في هذا المؤلف الاخير ، وبينما استسلم آخرون للبحث عن الروعة في الرسم ، كان شغل (وايديتز) الشاغل والوحيد هو الصحة والدقة ، الا أنه استطاع رسم الحيوانات والنباتات بشكل طبيعي كامل لا تصنع فيه ولا تكلف . هناك أسلوب آخر من النوع العنيف والمبتذل ، يمثله فنان آخر من الالزاس ، هو (هانس بالدونغ ــ غرين) ، الذي أنجز / ٤٣ / لوحة منقوشة لصالح « بستان النفس الصغير » لصاحبه فلاش (١٥١١ ــ ١٥١٢) ، بالاضافة الى عدة لوحات اخرى لصالح غرونتجر . ولنذكر أخيرا نقاشين كبيرين من نورمبرغ ، هما (جوست أمان) و (فيرجيل سوليس) اللذان نفذا مجموعة من الاخشاب المنقوشة لصالح الناشر (فايرابند) .

لنذكر من جهة ثانية ، بأن آل (كراناس) كانوا يعملون في ويتنبرغ لصالح (لوثر) ، بينما كان (فوربن) في (بال) ، يتوجه الى (أورس غراف) ، الذي نوهنا عنه آنفا ، وخاصة الى (هانس) و (امبروزيوس هولبن) . لم يكن هذا الاخير ينقش بيده ، الا أن لوحاته كانت مترجمة بمهارة فائقة من قبل نقاشين من أمثال (لوتز لبورغر) ؛ ولا شك أن هذا الاخير هو الذي قام ، لصالح « أشكال التوراة » الشهيرة التي ظهرت عام ١٥٣٨ لدى تريشل في ليون ، بصنع الكريمات الصغيرة للوحات (هولبن) التي ما زالت رسومها المبتكرة محفوظة حاليا في متحف (بال) .

لم تكن زخرفة الكتاب الفرنسي لتقل في مستواها عن زخرفة الكتاب الالماني . فقد قام (سيمون فوستر) ، آل (هاردوين) ، ثم (بيير فيدو) وغيرهم كثيرون ، بمضاعفة طباعاتهم للكتب . هنا كان التأثيران الالماني والايطالي مختلطان . فالتأثير الالماني قد دخل عن طريق أصحاب المكتبات من أصل الماني (كيرفر وويشل) ، وبواسطة بعض الفنانين الكبار (دورر ، شونغوير وهولبن) ؛ عندئذ اتصل الفرنسيون « بالنهضة » عن طريق المانيا وخاصة بال : كما فعل (أورونس فينيه) ، العالم الرياضي الدوفيني الذي نقش عدة لوحات واطارات زخرفية . وقد كان هذا التأثير قويا في ليون بصورة طبيعية ، حيث يستخدم (تريشل) لوحات هولبن كما أسلفنا . خلال هذه الفترة ، كان التأثير الايطالي واضحا أيضا وبصورة مباشرة (جيوفروي توري مثلا) .

الا أن الكتاب الفرنسي ما لبث أن بدأ يتخلص شيئا فشيئا من التأثيرات الاجنبية ،



فيرجيل ، أوبرا ، ستراسبورغ ، « ج. غرونجر » ، ١٥٠٢ ، طبعة نصفية . لوحة منقوشة على الخشب في مطلع « القصائد الرعوية »

حتى بلغ أوجه حوالي منتصف القرن . من بين الروائع المنجزة آنذاك يمكن أن نذكر « حلم بوليفيل » الذي نسبت بعض لوحاته الى (جان غوجون) . ومن اعمال هذا النحات الشهير على الارجح ، زخارف طبعة لـ (فيتروف) ظهرت لدى (غازو) عام ١٥٤٧ ، وكذلك « دخول هنري الثاني » التي نشرها (روفيه) عام ١٥٤٩ . الا أن (جان كوزين) قدم عام ١٥٦٠ مؤلفه الشهير « Traité de perspective » . اما في مدينة ليون ، لقد استطاع (جان دي تورن) ان يجلب اليه افضل رسام ـ نقاش في المدينة وهـو (بيرنارد سالومون) ، الذي نفذ كريمات صغيرة كلها حيوية ، وباسلوب معبّر ومرن في آن واحد ، مع خلفية تمثل مناظر طبيعية مع وجود معابد فيها « على الطريقة الرومانية » في اغلب الاحيان . كما يجدر ان نذكر ايضا الرسوم التي نفذها من اجل قصة « عربـة السفـر » في الـ « La Marguerite des marguerites des princesses » (عام ١٥٤٧) ، وخاصة زخرفة « « Les buadrins historiques de la Bible » لكلود بارادين ، وكذلك « تحولات أوفيد المجازية » ؛ وسنرى فيما بعد النجاح الكبـير الذي لاقته هذه الاعمال .

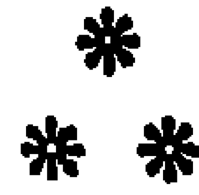
تسمح لنا هذه اللمحة السريعة بتصور اهمية ونوعية الكتب المزخرفة في القرن السادس عشر ، تلك الفترة الزاهرة الذهبية لهذا النوع من الكتب . وبدون أن نتوسع أكثر من ذلك في هذا المجال ، لنبحث الآن في فئات المؤلفات التي تمت زخرفتها في الفترة الواقعة بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر ، ما هي الحاجات التي قامت هذه الزخارف بتلبيتها ، والى اي جمهور كانت موجهة .

لقد رأينا أن الكتاب المزخرف ، وريث الطباعة الخشبية ، كـان يهدف في الاصل الى تحقيق غاية هذه الطباعة ، كما كان موجها الى زبائنها نفسهم ؛ فالغاية من الطباعة الخشبية ، وبالتالي من الاشكال التي وضعت في الكتب المزخرفة الاولى ، هي : تثقيف فئة واسعة من الجماهير التي لا تكاد تعرف القراءة ، شـرح النص بواسطة الصور ، تجسيـد وتوضيح الوقائع المختلفة من حياة المسيح والانبياء والقديسين ، وتجسيد اشكال الشياطين والملائكة الذين يتنازعون نفوس الخاطئين ، علاوة على تجسيد الشخصيات الخرافية والاسطورية المألوفـة لدى رجال ذلك

العصر . لذلك يجب الا نستغرب اذا كانت الكتب المزخرفة التي لقيت الحظ الاوفر من النجاح في القرن الخامس عشر ، هي أولا المؤلفات الشعبية ذات الصفة التقنية أو الاخلاقية ، التي كانت تنشر عادة باللغة العامية . واذا صدقنا فهرس الطبعات الاستهلالية ، فان الكتب المزخرفة في القرن الخامس عشر والتي طبعت مجددا في كل من فرنسا والمانيا ، هي في الواقع قصص عن حياة وآلام السيد المسيح ، كقصة الشيطان (le Bélial de Jaques de Theramo) ، و « مرآة خلاص البشر » ، و « مرآة الحياة البشرية » ، « فن الموت والحياة » ، « الاسطورة المذهبة» لجاك دي فوراجين ، « تاريخ التوراة » ، « تقويم الرعاة » بالاضافة الى عدد كبير من الحكايات الشعبية والتهذيبية المنسوبة الى (ايزوب) ، (بيد باي) أو (كاتون) . كانت الزخرفة في الواقع تلبية لحاجة عملية اكثر منها فنية : وهي تجسيد واظهار المشاهد التي كان الناس ينوون اثارتها كل يوم . لذلك لم يكن هنالك تلاعب بالظلال والاضواء الا فيما ندر ، بل مجرد اشكال بسيطة مرسومة ومنقوشة بالخطوط العريضة في أغلب الاحيان .

الا انه بفضل ظهور الطباعة ، ظل عدد مقتني كتب الايام وقراء روايات الفروسية في تزايد مستمر ، ثم ما لبثت أن تبعتها الطبعات المزخرفة للمؤلفين اللاتينيين التي تعود الناس على قراءتها باللغة العامية كفرجيل مثلا . لذلك لم يعد من الممكن زخرفة هذه المؤلفات باليد كما كان عليه الوضع بالنسبة للمخطوطات ، الا أن التخلي عن تلك الوسيلة المحببة المألوفة لم يتم دون أسف وتردد في كثير من الاحيان : ففي فينيسيا مثلا ، محاولات عديدة في البداية للجوء الى وسائل وسيطة ، كاستخدام الاطارات المنقوشة مثلا ، التي كان رسمها يستخدم بمثابة لوحة عمل للرسام ، بينما كان تلوين الزخارف في المانيا يتم بالالوان المائية . وهكذا استمرت هذه العادة مدة طويلة ، حتى مطلع القرن السادس عشر ، وظل الناس يتركون في كثير من الكتب ، فراغا أبيض من اجل رسم الحروف الاولية المزخرفة في مقدمة الفصول لكثير من الطبعات ، رغم أن ذلك لم يعد ممكنا الا في عدد محدود من النسخ . لارضاء الجمهور الذي يعرف

المخطوطات المزخرفة المتعلقة بنفس المواضيع ـ جتى لو لم يكن يمتلكها ـ أخذ النقاشون والناشرون (كفيرار مثلا) يعتنون بعملهم حتى أصبح الكتاب المزين بالاشكال والرسوم يبدو ككتا ب فخم نفيس . كما أصبحت طبعات « الايام » ، التي انتشرت في فرنسا انتشارا واسعـا ، تزيّن بواسطة قطع صغيرة من الخشب المقصوصة بمزيد من الفن والمجمعة بشكل تكوّن معه اطارات لكل صفحة . كذلك بدا الاهتمام يزداد بالتلاعب بالظلال والاضواء . ففي ايطاليا ، ازداد عدد « الرشمات » (الدمغات) المحفورة بواسطة الازميل من قبل فنانين كانوا يهتمون بمضاهاة الرسامين ، كما تغيّر طراز الخشب المنقوش المعد لزخرفة الكتب ؛ ففي فينيسيا مثلا ، كثر التظليل حتى اصبح يؤثر بشكل سيء على وضوح الرسم وصفائه ، كما ينتزع من اللوحة شيئا من طبيعتها الاصيلة .

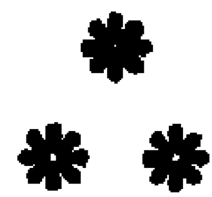


عما قريب سيظهر تأثير « النهضة » والفن الايطاليين في زخرفة الكتب داخل البلاد الجرمانية وفرنسا .

من المؤكد ، أن الانسيين (humanistes) الاوائل ، وخاصة في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، وهم اهل دراسات قبل كل شيء ، قد شعروا في الاصل بنفس الاحتقار الذي احسّ بـه علماء اللاهوت في جامعة السوربون تجاه الكتب المزخرفـة : اوليست الزخرفة مجرد وسيلة لتعليم اولئك الذين كانوا اجهل من ان يفهموا نصا من النصوص بصورة جيدة ؟ كما أن الاشكال التي كانت ترافق ترجمات المؤلفين القدماء من امثال (تيرانس) و (أوفيد) ، والموجهة الى جمهور يحتقرونه ، كانت تثير سخطهم لانها منفذة من قبل فنانين لا يهتمـون كثيرا بعلم الآثار ، ولصالح قراء يجهلون كل شيء عن العهد القديم ويسرون كثيرا عندما ترسم شخصيات (تيرانس) مرتدية زي القرن الخامس عشر . وعندما حاول (آلد) جاهدا نشر كتاب مزيّن بالاشكال ، واكثر انسجاما مع روح العصر القديم ـ « حلم بوليفيل » ـ قام زبائنه من الانسيين

بمقاطعة هذا الانجاز الرائع بعض الشيء ، حتى لم تسحب عنه أية طبعة جديدة في فينيسيا .

أما في فرنسا ، فان الاطارات الزخرفية المعرّاة والمجردة والمنسجمة مع النماذج الايطالية المنفذة من قبل (جيوفروي توري) ، قد انتشرت ولاقت رواجا كبيرا وقلدت في كل مكان ؛ وعما قريب ، سيقوم (كيرفر) في باريس باعادة طبع « حلم بوليفيل » مزخرفا بلوحات مستوحاة من الطبعات الخشبية الايطالية . الا ان هذه الطباعة ، التي لم تنل غير قسط ضئيل من النجاح في فينيسيا عام ١٥٠٠ ، قد قدرت حق قدرها في باريس اعتبارا من عام ١٥٤٩ . أما العالم الرياضي (أورونس فينيه) ، الذي قادته اعماله للاهتمام بزخرفة الكتب ، فقد ابتكر درجة (موضة) الاطارات الهندسية ذات المواضيع الرمزية ، والوفية لروح « النهضة » الالمانية ؛ وذلك لان جمهورا متزايدا بدأ يؤيد الاتجاه الجديد ، هو في الواقع من ابناء اولئك الذين كانوا يقرؤون في القرن الخامس عشر «حكايات ايزوب » ، « اشكال التوراة » ، « قصة الوردة » ، « تاريخ طروادة » أو « لانسلو » : لذلك اعتاد على الكتب المزينة بالاشكال ، وبدأ يطالب بنماذج تكون زخرفتها اكثر انسجاما مع أذواقه . وهكذا لن يلبث (هولبن) والناشرون الذين يستخدمونه في مدينة (بال) ، أن عمدوا الى زخرفة الكتب الشعبية بكريمات مصنوعة بشكل دقيق ، وذلك مثل « تاريخ العهدين القديم والجديد » ، أو « تحولات أوفيد المجازية » . وقد بدأ الناس بنقل هذه المؤلفات وتقليدها بسرعة كبيرة في كل مكان تقريبا ، في ليون ، لدى آل (تورن) ، في باريس ، لدى آل (جانو) أو (غرولو) . وهكذا تجددت زخرفة النصوص التي لاقت رواجا كبيرا في القرن الخامس عشر ، ورواجا أكبر في القرن السادس عشر . في الوقت نفسه ، بدات زخرفة كتب الشعارات بكريمات من النوع ذاته ، لاقت بدورها نجاحا كبيرا اعتبارا من منتصف القرن السادس عشر .



الا أن فئة كاملة من الجمهور ، هي فئة التجار والناس الـذين لا يكادون يحسنون القراءة ، قد ظلت مدة طويلة وفية للزخارف القديمة. لهذا الجمهور الذي لا تتطور اذواقه مطلقا ، كان يعمل رجال طباعـة وأصحاب مكتبات اقل غنى من سواهم ، ظلوا أوفياء مدة طويلة للحروف القوطية ، ومدة أطول للوحات الخشبية القديمة للقرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، التي كانوا يشترونها ويستعملونها حتى الاهتراء الكامل ، ثم يعيدون نقشها دون أي تعديل . ولا شك في أن اهمية هذه الفئة من الجمهور ، هي التي أدت ، اعتبارا من عام ١٥٧٠ ، الى تجدد درجة (موضة) النقش (الدمغات) على الخشب للحرف الشعبي . انها الفترة التي كان فيها فنانو شارع (الدمغات) على الخشب للحرف الشعبي . انها الفترة التي كان فيها فنانو شارع (مونتورغي) يضاعفون نسخ « قصص التوراة » ، وريشة « توراة الفقراء » ، حيث كانت في كل صفحة لوحة كبيرة وبعض سطور الشرح ، بينما كانت الدمغات الخشبية ، وهي من أسلاف صور (ابينال) ، التي أثيرت فيها أهم المشاهد من الحروب الدينية ، تلاقي نجاحا باهرا . وهكذا ظهرت في نهاية القرن السادس عشر ، فئة جديدة من الكتب المزخرفة : هي **كتب الجوالين** . اما في فرنسا ، فهناك عدد قليل من رجال الطباعـة وأصحاب المكتبات ، استمروا في باريس وخاصة في (تروي) ، ينشرونالـ « Amadis وألـ « Mélusine »» ، و « أشكال التوراة » و « تقاويم الرعاة » التي كان باعة الكتب الجوالون يوزعونها باعداد كبيرة خلالالقرن السابع عشر ، ثم القرن الثامن عشر ايضا ، وذلك في الارياف والمـدن الصغيرة وحتى في باريس نفسها . وعندما أطل القرن التاسع عشر ، واصبح الجميع يحسنون القراءة ، لاقى الادب الجوّال بعثا مذهلا ، كما ظهر في كل مكان تقريبا نوع من الادب درج في القرن الخامس عشر أصلا ولم يستطع كل من (ايراسم) و (رابليه) و (لافونتين) و (فولتير) أن يجعلوا الناس ينسوه .

*

* *

اعتبارا من عام ١٥٥٠ ، بدأ النشر والطباعة يتأثران بحركة ارتفاع الاسعار التي أصابت الاقتصاد الاوروبي ، ولاح على الابواب شبح أزمة ستجتاح أوروبا طيلة النصف الثاني من القرن السادس عشر . منذ ذلك الحين ، لم يعد الكتاب المزخرف يتجدد ؛ فالنقاشون الذين يصنعون الاخشاب الجديدة يبدون وكأنهم على عجلة من أمرهم ، لذلك كانوايكتفون بتنفيذ نسخ سيئة عن الزخارف السابقة ، ويقومون بالتالي بنشر عدد اقل من الكتب المزينة بالاشكال والرسوم . وعندما استأنف الناشرون ، في نهاية القرن السادس عشر، اصدار كتب مزخرفة ، لم يعودوايستعملون الخشب ، بل الاشكال المنقوشة على النحاس . وهذا تحول تقني يعبر عن وضع فكري جديد يجدر الوقوف عنده .

منذ زمن طويل ، اعتبارا من القرن الخامس عشر ، كان الناس يعرفون فن النقش على النحاس ـ اي الحفر على المعادن بواسطةالدمغات النافرة التي تترك اثرا أجوف . لقد أنجز هذا الاسلوب ، كالطباعة تماما، في أوساط الصاغة . وقد كان مفضلا دائما لدى الرسامين لانه يسمح بترجمة افضل للتلاعب بالظلال والاضواء مع الحصول على خطوط اكثر نعومة ودقة : فمنذ نهاية القرن الخامس عشر ، كان بعض الايطاليين من أمثال (أندريا) ، والالمان من امثال (شونغور) ، قد نفذوا بعض النقوش على النحاس بتقنية كاملة . ومنذ ذلك الحين أيضا ، جرت عدة محاولات لتطبيق هذه الطريقة في زخرفة الكتب ولكن دون نجاح ، لان عقبة تقنية كانت تعيق صنع الكتب المزخرفة بهذه الطريقة : اذ بينما كان من الممكن ان توضع معا في قالب واحد ، اللوحات الخشبية والحروف الطباعية ، فتحبَّر بنفس الطريقة ثم تطبع في آن واحد النص والزخرفة ، كان لا بد من طباعة النص والصفائح المنقوشة على النحاس كل على حدة . وهذه عملية دقيقة اذا أردنا الحصول على ضبط صحيح لاطوال السطور .

لقد ظل النقش على الخشب مفضلا على النقش على النحاس (رغم كونه اكثر خشونة الا انه اكثر حيوية) مدة طويلة ، طيلة الفترة التي

كان الجمهور يتطلب من الصور مداعبة خياله فقط . ولكن ، في نهايـة القرن السادس عشر ، لم يعد الامر كذلك ، اذ أن هذا القرن كان قرن الرسامين كما نعلم ، حيث انتشر الميل الى الرسم في كافة أنحاء أوروبا . فقد بدأ نبلاء فينيسيا وأنفر ، والبورجوازيون الاثرياء في باريس وليون ، يطالبون الرسامين ، الذين كان عددهم يتزايد باستمرار ، برسم صور لهم وبعمل لوحات لم تعد مقتصرة على تزيين الكنائس وانما لتزيين جدران منازلهم . وفي الوقت نفسه ، أصبح الرسامون الكبار نقاشين ولاقت الدمغات المنقوشة على النحاس ، التي تعتبر بحق أشبه « بلوحات الفقير »، رواجا كبيرا متزايدا . فقد قام كل من (مانتتنيا) في ايطاليا ، و (دورر) في المانيا ، بتنفيذ لوحات لاقت نجاحا كبيرا آنذاك وظلت شهيرة فيما بعد. وفي فرنسا ، ظل النقاشون على النحاس ، الذين يؤخذون من أوساط الصاغة ، اشبه بالمنعزلين حتى جاء فنانون ايطاليون ، مع (بريماتيس) و (لوروسو) ، ليزخرفوا قصر (فونتينبلو) ؛ عندئذ تشكلت مدرسة للنقاشين على النحاس حول (فونتينبلو) كان هدفها الاساسي نشر الطراز الزخرفي الجديد القادم من ايطاليا .

ظهرت اللوحات الخشبية غليظة وخشنة ازاء هذه اللوحات وهذه الدمغات ذات الخطوط الناعمة الدقيقة ؛ كما أصبح الازميل الوسيلة الوحيدة القادرة على تمثيل الروائع أو الاغراض الفنية وتنفيذ صورة منقوشة دقيقة ومشابهة للاصل . عما قريب ايضا ، وعلى الرغم من الصعوبات الفنية ، سوف يزداد استخدام النقش على النحاس لزخرفة الكتب ، حيث بدأ بالحالات الاستثنائية ، عندما يتعلق الموضوع بمؤلفات تقنية أو مجلدات مزخرفة بالصور الشخصية ، ثم ما لبث أن انتقـل الى الكتب بكافة أنواعها .

انطلق الدفع الحاسم في هذا المجال من مدينة (آنفرس) ، حيث كان الرسامون كثيرين وحيث كان (جيروم كوك) ، تاجر الرشمات الكبير، يرأس مشغلا جاء اليه الفتى (بروغل) ليتعلم تقنية النقش بالازميل .

كان (بلانتين) على علاقة يومية مع (جيروم كوك) والفنانين الذين يعملون في مشغله ؛ لذلك كان أول من تبنى عادة زخرفة بعض كتبه بواسطة اللوحات المحفورة على النحاس . وهكذا ، استعان بأفضل نقاشين من مدرسة (انفرس) ، كبيير فان دربورخ مثلا ، أو الاخوة (Huys) أو الاخوة (Wiericex . كما قام ، اعتبارا من عام ١٥٦٦ ، بنشر عدة مؤلفات باللغة اللاتينية منها « صور حية لاقسام الجسم » لفيسال وفالفيردا ، التي زخرفت ب ٤٢ لوحة ، وفي عام ١٥٧١ ، نشر « وثائق النجاة البشرية » لآرياس مونتانوس ، وفي عام ١٥٧٤ نشر كتاب « للاطباء والفلاسفة الجدد » بالاضافة الى « بعض صور الشباك » لسامبوك ، وتتضمن ٦٧ رسما منقوشا من قبل (فان دربورخ) . انتشرت هذه المؤلفات في جميع انحاء أوروبا ، وكانت موضع تقدير كبير ؛ ثم ما لبس الناس في كل مكان أن أخذوا يحذون حذو (بلانتين) : ففي باريس مثلا ، قام (جان توفيه) ، منذ عام ١٥٧٤ ، بنشر « رسوم العظماء » المزخرفة بلوحات منقوشة في منطقة الفلاندر . ثم بدأ تجار الوشمات (الاختام) والنقاشون الفلاندريون يتوافدون على باريس ، كما أصبح باستطاعة الناشرين الفرنسيين أن يجدوا محليا فنانين قادرين على تنفيذ الاشكال التي يحتاجون اليها .

اعتبارا من السنوات الاخيرة للقرن السادس عشر ، تم الاقلاع بصورة تامة تقريبا ، باستثناء الكتب الجوالة ، عن اللجوء الى النقش على الخشب . ولم يقتصر ذلك على زخرفة الكتب فقط ، بل شمل كافة المجالات والميادين .

وهكذا بدأ النقش على النحاس يسود ، ليستمر أكثر من قرنين ، بعد أن كانت بدايته أكثر من مجرد تبدل تقني : لقد انتصرت هذه التقنية لانها سمحت بالتقليد الامين وحتى في أدق التفاصيل ، للوحات والصروح والنماذج الزخرفية ، ثم جعلها في متناول الجميع في كل مكان ؛ اي تقليد الصورة الحقيقية للواقع وترك اثر عنه لا يمحي . وهكذا ستلعب

الرشمات من الآن فصاعـــدا ، وبصـــورة متزايـــدة ، بالنسبة **لنشر الصور** ، دورا مماثلا للدور الذي لعبه **الكتاب المطبوع** منذ أكثر من قرن ، بالنسبة **لنشر النصوص** . لذلك أدى تبني النقش على النحاس وتوسع تجارة الرشمات الدولية في نهاية القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر ، الى توسيع افق الرجال في ذلك العصر . ويكفي لكي نقتنع ، ان نتذكر ان المجموعة الهائلة لاسفار (توماس دي بري) ، تعطي للمرة الاولى (في مطلع القرن السابع عشر) وبفضل النقش على النحاس، تمثيلا خاطئا أحيانا ولكنه دائما دقيق ، عن بلدان نائية وسكانها ، من البرازيل الى لابونيا . كذلك لا بد من تذكر ذلك الانجاز الهائل الذي تم في مجال خاص ولكنه هام ، وهو مجموعات خرائط « اطلس » التي نفذها ناشرون هولانديون خلال القرن السابع عشر .

*

* *

من الآن فصاعدا ، بدأ الناس يزيدون من اقتنائهم « للكتب المصورة » ـ مجموعات الرشمات ـ حيث أصبح البورجوازيون وحتى عامة الشعب، الذين لا يملكون القدرة على شراء اللوحات العريقة ، يزينون جـدران منازلهم باللوحات الكبيرة المنقوشة : ولكـن ليس بواسطة الرشمـات الخشبية الغليظة ، وانما بواسطة رشمات منقوشة على النحاس ، تنقل بأمانة اكبر وتفاصيل أدق ، المواضيع الدينية والمشاهد التاريخية أو مختلف مظاهر الحياة اليومية .

من الآن فصاعدا ايضا ، سواء كان الامر متعلقا بالاحتفال بحدث هام يداعب المخيلات ، كقتال مظفر مثلا ، أو تكريس ملك أو الاحتفالات التي يقيمها أحد الامراء بمناسبة الاعياد أو لفرق الباليه والتمثيليات ، وسواء كان الناس يرغبون في معرفة شكل احدى الشخصيات العظيمة ، ام أراد أحد الادباء أو التجار الاغنياء توزيع رسمه على اصدقائه أو عملائه ، ام اراد بعضهم الاحتفاظ بذكرى مشهدجميل شاهدوه في الشارع ، فالنقاش موجود لتجسيد كل ما سبق ذكره وبصورة أفضل من الرسام ، لان

عمله سيسحب على عدة نسخ ؛ وبهذا **يكون النقاش قد لعب دور المصوّر الفوتوغرافي في عصرنا هذا** . وهكذا استطاع (كالو) أن يعرّف الجميع بالنبذات الاساسية عن حصار (بريدا) أو (لاروشيل) كما استطاع أن يحيي مشهد المعارض ويصوّر لنا من جديد أهوال الحرب أو حياة البوهيميين التائهة ، أو أن ينقش لهواة المسرح رسوم شخصيات الكوميديا الايطالية . كذلك قام (ابراهام بوس) ، بواسطة الازميل ، بتثبيت مشاهد عن حياة البورجوازيين الباريسيين ، كما قام (نانتوي) وتلامذته بزيادة انتاجهم من رسوم الامراء والبورجوازيين في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، بينما اعتبر نقاشو المدرسة الفرنسية انفسهم ، في القرن الثامن عشر ، نقادا للعادات آنذاك ، فمثلوا مشاهد الحياة اليومية للنبلاء أو البورجوازيين ، أو نقلوا المشاهد الجميلة من الشارع الباريسي .

في الوقت نفسه ، لعبت الرشمة (estampe) دورا اساسيا في نشر الاعمال الفنية . فاعتبارا من القرن السابع عشر ، وبفضل النقش ، أصبح كل واحد يعرف الروائع المبعثرة في أوروبا . كما أخذت جمهرة من النقاشين من كافة البلدان تقلد رسوم ايطاليا وصروحها وآثارها واطلالها . وفي اغلب الاحيان ، كان يكلّف نقاشون بتقليد لوحات الرسامين الكبار في عصرهم وبلادهم : حيث عمد كل من (نانتوي) أو (مودين) مثلا ، الى الاكثار من النقوش المنقولة عن رسوم (فيليب دي شمباني) ، مما أدى الى المساهمة بقسط وافر في زيادة شهرة هذا الرسام الكبير للاشخاص . وهكذا استطاع (روبنس) أيضا أن يستغل النقش في تعميم لوحاته ونشر صورها على الملأ ، حيث عمد الى اقامة مشغل للنقاشين المكلفين بنسخ لوحاته وأعماله . من الآن فصاعدا ، سوف تغص محلات التجار الكبار للرشمات (كمحل ماربيت في باريس مثلا) ،بالنقوش المطبوعة المنسوخة عن أعمال كبار الفنانين الايطاليين والفلمنديين والفرنسيين والالمان ، والتي تعرض كلها جنبا الى جنب ، حيث يستطيع كل انسان أن يتفحصها ويقارن بينها على هواه . كما أن النقاشين

سيصبحون من الآن فصاعدا أيضا ، هم الذين ينشرون النماذج والاساليب الزخرفية ويعرّفون الناس بها .

*
* *

وهكذا لعبت الرشمة ، اعتبارا من القرن السابع عشر ، دورا اعلاميا أساسيا في مجالات عدة . في غمرة هذه التحولات ، فقد الكتاب المزخرف شيئا من منفعته وقيمته . اذ لم تعد اللوحات بالنسبة للمزخرفين سوى فرصة لتنفيذ لوحات صغيرة ذات طابع صوري . كما أن الظروف الاقتصادية التي دفعت الناشرين في القرن السابع عشر للبحث عن أدنى الاسعار ، هي نفسها التي اضطرت هؤلاء الى الاقلال من الزخرفة والاكتفاء ببضعة لوحات منعزلة عن النص أو بعنوان مزخرف فقط ، تجنبا للتكاليف التي تتطلبها تلك العملية الحساسة ، وهي الطباعة المزدوجة للنص والشكل على صفحة واحدة . ولما كان النقاشون يتطلبون اجورا مرتفعة جدا ، فان الزخرفة المناسبة أصبحت تقتصر على المؤلفات الفخمة التي يعتبر بيعها مضمونا ، ككتاب « جان دارك » (La Pucelle) لشابلان مثلا ، الذي ظل المجتمع الادبي كله ينتظره بفارغ الصبر . في مثل هذه الحالات ، لم يكونوا يترددون في مطالبة أعظم الرسامين بتقديم رسوم يقوم النقاشون بنقلها : وهكذا ساهم في زخرفة الكتب كل من « روبنس »، « فينيون » ، « بوسّين » ، « فيليب دي شمباني » ، و « لوبرين » ، مع هؤلاء ، بدأت القطيعة تزداد بين النص والصورة ، لدرجة أصبحوا يكتفون معها غالبا ، لزخرفة الكتاب في نهاية القرن السابع عشر ، بوضع صورة مؤلفه فقط . لذلك لم تعرف الفترة الكلاسيكية من المزخرفين الحقيقيين سوء النذر اليسير .

*
* *

الا أن الامر لم يعد كذلك في القرن الثامن عشر ، حيث تطورت الظروف الاقتصادية ، وعاود الناشرون اهتمامهم بنوعية الانتاج ، كما عادت

الكريمات الى الظهور وسط الصفحات المطبوعة ، واصبح هناك جمهور كبير يتعشق الكتب المزخرفة . ولكن الزمن قد تبدل منذ القرن الخامس عشر ، أو حتى القرن السادس عشر ، حيث كانت الكتب المزخرفة توجه الى جمهور واسع جدا . ففي القرن الثامن عشر،اصبحت الكتب المزخرفة فخمة جدا وموجهة الى الارستقراطية الغنية واصحاب البنوك والمولين ، الذي أصبحوا فخورين بثروتهم الحديثة ويريدون امتلاك مكتبة خاصة أسوة بالنبلاء والامراء ؛ الا أنهم لم يكونوا يميلون الى المؤلفات الجدية التي تضجرهم ، بل يفضلون عليها الكتب المزينة بالصور والفخمة التجليد : انها الفترة التي قام فيها المولون الجباة بنشر « حكايات » و « قصص » (لافونتين) المزخرفة بشكل رائع ، وحيث كانت اشهر الكتب المزخرفة هي « اغاني » (لابورد) الجوفاء أو « هيكل سنيدَ » الذي يعتبر خطيئة الشباب لدى (مونتسكيو) . وهكذا عرف الكتاب المزخرف ـ في فرنسا على الاقل ـ بعثا فنيا حافلا ، واصبح كل من (بوشيه) و (فراغونارد) يعهدان برسومهما الى النقاشين الممتازين « للمدرسة الفرنسية » .

الا أن الكتاب المزين بالاشكال لا يمثل غير جزء يسير من كتلة الانتاج المطبوع الهائلة ولا يصل الا لجمهور محدود ، يمكن مقارنته احيانا مع الجمهور الحالي من هواة الكتب الثمينة والنادرة ، الذين كانوا يفضلون كتب الرسامين الفخمة التي تسحب بأعداد محدودة . في هذه الفترة اذن ، كان يمكن للكتاب المزخرف الا يتعلق بموضوعنا كثيرا ، لو لم يعهد الى النقاشين القيام بتزيين المؤلفات ذات الطابع التقني او العلمي بالزخارف الضرورية لفهم النص . وقد كانت المؤلفات من هذا النوع عديدة وهامة في زمن الفلاسفة ، نذكر منها على سبيل المثال اعمال (بوفون) وخاصة المشروع الهائل « **للموسوعة** » ، التي ما كان لها أن تتم لو لم تسمح تقنية النقش على النحاس بزخرفة نصوصها باللوحات الدقيقة والمفصلة . ولنذكر أيضا حكايات السفر التي اصبحت تتزايد تدريجيا في زمن

(كوك) و (لابيروز) ، والتي كانت تزيّن أيضا باللوحات التي تعطي صورة صادقة عن المخططات المأخوذة أثناء الرحلات .

٥ ــ كسوة الكتاب : ((التجليد))

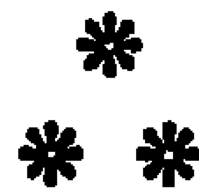
عندما نتفحص الجلود (الغلافات) القديمة التي حفظت على حالتها الاولية في المخطوطات والكتب المطبوعة قبل القرن التاسع عشر ، فاننا نلاحظ أولا : ان الجلود التي تغطي كتب العمل الدارجة تبدو متينة ومن نوعية تفوق كثيرا الجلود المقابلة في عصرنا الحاضر . ولنأخذ مثالا على ذلك كتب « المكتبة الملكية » (أو المكتبة الوطنية حاليا) ، التي كانت مجلدة ، في القرن السابع عشر ، بالسختيان الاحمر ذي الخطوط الدقيقة المذهبة ، ومطبوعة (مدموغة) بالشعارات الملكية ، بينما نجد معظم الكتب التي تصل الى المكتبة الوطنية في أيامنا هذه ، مغلفة بنسيج كتاني.

ولكن يجب الا نستغرب هذه المتانة ولا تلك النوعية الممتازة من المواد المستخدمة لتحسين الجلود التي ما زالت موضع اعجاب أصحاب المهنة حتى يومنا هذا . ففي تلك الايام ، كانت المخطوطة وحتى خلفها الكتاب المطبوع ، بضاعة نادرة باهظة التكاليف ، تستحق الحماية والتزيين ؛ من المؤكد أن جمهور القراء قد أخذ في الازدياد بعد ظهور الطباعة ، الا أن الكتاب ظل ، حتى القرن الثامن عشر على الاقل ، وقفا على نخبة محدودة وغنية نسبيا : ففي هذه الازمنة حيث كان الورق يصنع بواسطة القالب ، والاوراق تطبع على آلات طابعة يدوية ، كان لا بد للكتاب أن يظهر كحاجة ثمينة يجب المحافظة عليها وبالتالي تجليدها بعناية .

كيف كانت الجلود تبدو من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر ؟ وخاصة الجلود الدارجة ، تلك التي يمكن وصفها بالجلود التجارية ، اذ لا تدخل في حديثنا الغلافات الممتازة ، تلك التحف الفنية المخصصة للامراء وهواة الكتب . ثم كيف اضطر المجلّدون ، من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر ، الى تبديل تقنيتهم لانتاج الجلود بالجملة وبشكل

يتناسب مع تزايد النسخ التي تخرج من المطابع ؟ ما هي النتائج المترتبة على زيادة الكتب هذه فيما يتعلق بنوعية الجلود وتقديمها ؟ هذه هي الاسئلة الرئيسية التي سنحاول الاجابة عليها فيما يلي .

هنا أيضا ، لم يتسبب ظهور الطباعة بحدوث أي انقلاب ، لان الحرفيين انفسهم الذين كانوا يقومون سابقا بتجليد المخطوطات ، هم الذين اخذوا يجلّدون الكتب المطبوعة بنفس الطريقة . فقد استمروا في تغليف ظهر الكتاب ودفتيه (المصنوعتين من الالواح الخشبية المتينة والثقيلة) ، بنسيج ثمين (كالمخمل او النسيج المصنوع من الصوف ووبر الماعز ، والدمقس أو الجوخ المذهب) ، عندما يتعلق الامر بتجليد الكتب المتازة المخصصة للشخصيات الكبرى ؛ أما في سائر الحالات ، فكانوا يستخدمون دائما ، بدل القماش ، جلود (العجل الاسمر والخروف وكذلك الخنزيرة في المانيا) ويطبعون على الدفتين زخارف منقوشةبواسطة أختام صغيرة تتكرر عدة مرات في شبكة مؤلفة من خيوط مدموغة على البارد ومرتبة بشكل يختلف حسب المناطق . لذلك كانت هناك مواضيع وزخارف مختلفة جدا بصورة لا متناهية : فقد تكون أزهار الزنبق ، أو نسورا براس او براسين ، او حيوانات من كافة الانواع ، واقعية أو خيالية كالاسود أو عنقاء مغرب ، والكلب السلوقي أو التنيّن ، المنقوشة دائما على شعارات النسب (blasons) ؛ كما يمكن ان تكون رموز الانجيليين الاربعة ، مع رايات صغيرة (أو لافتات) وعبارات منقوشة ؛ وفي بعض الاحيان ، كنا نجد الاحرف المشبكة (I, H, S) أو الحمل الفصحي (١) او صورة قديس أو ادوات آلام المسيح أو صورته .



(١) الحمل الفصحي : هو حمل يضحّى ويؤكل في عيد الفصح عند اليهود .

هكذا كانت تقدم جلود المخطوطات في النصف الاول من القرن الخامس عشر . وهذا هو أيضا شكل الجلود التي كانت تغلف الطبعات الاستهلالية حتى عام ١٤٨٠ . انها جلود ثقيلة ومتينة ، مصحوبة بمشابك معدنية ومزينة على دفتيها بمسامير تهدف الى حماية الجلد نفسه ، لان الكتب توضع على بطنها او تحفظ ضمن أدراج خاصة . ومن المؤكد ان الكثيرين من هذه الغلافات قد نفذ في العديد من الاديرة ، حيث أقيمت ورشات التجليد الى جانب مشاغل النساخين . أما البعض الآخر فهو من عمل الورشات الخاصة ، حيث كان المجلدون يعملون بالارتباط مع النساخين (الخطاطين) الذين ينفذون المخطوطات لصالح العلمانيين ، وخاصة مع « الثابتين » من بائعي الكتب المقيمين بجوار الجامعات .

اعتبارا من عام ١٤٨٠ تقريبا ، بدأ ظهور الطباعة يحدث تأثيراته ؛ فازداد عدد الكتب حتى اصبح استعمالها دارجا ، كما اخذ يزداد عدد الاشخاص الذين يمتلكون مكتباتهم الخاصة . وهكذا لم يعد الكتاب رهبانيا بحتا ، حتى أن اهمية مشاغل (ورشات) الاديرة بدأت تتضاءل بينما يزداد عدد المشاغل الخاصة في الوقت نفسه ، في المدن الجامعية بشكل خاص ، حيث يكون المجلدون واثقين من العثور على زبائن . لذلك اقاموا عادة قرب أصحاب المكتبات ، كما كانوا هم انفسهم كتبيين وعمال طباعة في اغلب الاحيان . وقد كان الناشرون الكبار ، من أمثال آل (كوبرغر) ، يمتلكون ورشات للتجليد جيدة التجهيز حيث تنفذ الاعمال بالتسلسل والجملة . الا أن هناك ملاحظة تجدر الاشارة اليها نظرا لاهميتها بالنسبة لمن يريد أن يعرف أصل غلاف ما : اذ لم تكن الكتب ، كما هو الوضع اليوم ، تجلد بمعرفة ناشريها فور انتهاء طباعتها . ففي هذه الفترة ، حيث لا يمكن أن يصرّف في مدينة واحدة سوى عدد قليل جدا من النسخ للطبعة الواحدة ، حيث كان للعديد من الناشرين مخاطبون في جميع انحاء اوروبا يعهدون اليهم بتصريف قسم كبير من انتاجهم ، حيث كانت الجلود ثقيلة وغالية ، وحيث كانت أجور نقل البضاعة باهظة الثمن ، كانت الكتب ترسل على شكل ملزمات داخل براميل من مدينة

لاخرى ؛ ولا تجلّد الا على دفعات صغيرة حسب نسبة بيعها . وقد دلت كشوفات الحسابات لاصحاب المكتبات ، على أن هؤلاء لم يكونوا يمتلكون سوى عدد قليــل من النسخ المجلدة للكتاب الواحــد في مكتبــاتهم أو مستودعاتهم . ويمكن الافتراض بأن المشتري كان يفضل غالبا الحصول على كتاب غير مجلّد حتى يستطيــع أن يجلّده على هواه . لم يأخــذ مؤرخو التجليد هذه العادة بعين الاعتبار ، مما جعلهم يميلون ،حتى فترة قريبة ، الى الاستنتاج بان الكتب كانت تجلّد بصورة منتظمة في المدينة التي طبعت فيها .

ولكن ، مع ابتداء الآلات الطابعة بزيادة انتاجها من الكتب ، اصبح لزاما على المجلّدين ان يبدلوا تقنيتهم لكي يتمكنوا من تلبية الاحتياجات الجديدة ؛ فهم مضطرون الآن للعمل بسرعة وبالجملة مع تنفيذ غلافات من نوعية مناسبة وبكلفة اقل ، لارضاء زبائن أكثر عددا واقل ثراءا . ولما كانت الطباعة قد سهلت توسع تجارة الورق وضاعفت في الوقت نفسه الاوراق الفائضة والناقصة ، فقد جرت العادة على استبــدال اللوحات الخشبية بلوحات كرتونية اقل كلفة واخف وزنا ، مركبة من الاوراق القديمة بانواعها المختلفة والملصوقة ببعضها : كمسودات الطباعة والكتب القديمة التافهة والمراسلات أو سجلات الحسابات القديمــة للمؤسسات والمشاريع ، أو الارشيف القديم ، حتى أن فك الغــلافات من ذلك العهد كثيرا ما ينكشف عن مفاجآت هامة .

*

* *

بدأ المجلدون في الوقت نفسه يسعون جاهدين لكي يزخرفوا دفات الكتب بشكل مناسب أكثر سرعة واقل كلفة . لذلك أصبحوا يفضلون تقنية الصفيحة على تقنيةالحدائد الصغيرةالقديمة التي كانوا يستخدمونها في النقش الزخرفي . فبدلا من زخرفة سطح الدفة كله بواسطة الحدائد الصغيرة المصفوفة والخيوط الشبكية ، الامر الذي يتطلب جهدا طويلا وعناية فائقة ، اصبحت الطباعة تتم من الآن فصاعدا دفعة واحدة بواسطة

صفيحة خاصة محفورة تستطيع أن تغطي جلدة الكتاب كلها موفرة بذلك وقتا طويلا ومحدثة تاثيرا أكبر . لقد أصبح من الممكن الآن طبع مشهد حقيقي على الغلاف : ففي فرنسا مثلا ، استطاعت هذه الصفائح الجديدة ان تنقل مشاهد مأخوذة من التوراة بعهديها القديم والجديد ، وخاصة ما يوجد منها في كتب الايام ، علاوة على الرسوم المختلفة للقديسين . كان معظم المواضيع ينتقى لغاية دينية ، حتى لو طبع الرسم على جلدة كتاب دنيوي ؛ الا أن بعض أصحاب المكتبات كانوا ينقشون على هذه الصفائح شعاراتهم احيانا ، كما كان البعض الآخر يستخدمها كلوحات تزيينية بحتة . اما في بلاد الفلاندر ، فكانوا يفضلون احيانا نقش أشكال الحيوانات، والرسوم الصغيرة . وبعد فترة بسيطة ، استخدم الجرمانيون اللوحات الرمزية أو الاسطورية المستوحاة من عصر النهضة .

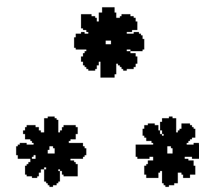
في السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، طرأ تبدل جديد : ازاء تدفق الكتب المطبوعة وتزايدها المستمر ، قام المجلدون ، رغبة منهم في التوصل الى تقنية اسرع للاقلال من الايدي العاملة وتخفيض أسعار منتجاتهم مع زيادة سرعة العمل ، باستخدام تقنية جديدة هي عبارة عن اسطوانة معدنية نقش عليها رسم زخرفي يكرر الى مالا نهاية . بهذه الوسيلة ، اصبح من الممكن تزيين الجلود (الغلافات) بسلسلة منالاشرطة المنفذة بسرعة . وفي بعض الاحيان ، كان يستخدم معا اسلوب الصفيحة والاسطوانة في آن واحد ، حيث يزخرف وسط الجلدة بواسطة الصفيحة بينما تستخدم الاسطوانات لزخرفة الاطار والحواشي .

هكذا ظهرت الغلافا تالتجارية في الثلث الاول من القرن السادس عشر . الا ان اساليب جديدة بدات تتبع في صناعة الجلود الفخمة ، فقد كانت النسخ المعدة للامراء تكسى بالقماش ، لان الجلود لم تكن تبدو مناسبة للاستخدام في مثل هذه المناسبات ، خاصة وأن الطريقة الوحيدة المعروفة آنذاك كانت هي الدمغ « على البارد » . الا أن الامر لم يعد كذلك عندما ظهرت ، في ايطاليا أولا ثم في سائر انحاء أوروبا ، مادة جديدة جاءت من البلدان العربية هي « **السختيان** » ، وعندما عرفت

تقنية طلاء الجلد بالذهب . منذ نهاية القرن الخامس عشر ، بدأ سختيان قرطبة يصل الى نابولي عن طريق جزر الباليار ، وسختيان الشرق يصل الى فينيسيا عن طريق القسطنطينية : وقد كان (آلد) ، منذ تلك الفترة، يستخدم السختيان في فينيسيا ؛ الا أن هذه المادة لم تستخدم بشكل دارج في فرنسا الا في الثلث الثاني من القرن . كما درج استخدام الجلد المذهب ، المعروف في الشرق منذ زمن طويل ، في ايطاليا ايضا في الوقت نفسه ، حيث تبناه اهل نابولي منذ عام ١٤٧٥ وزينوا به الغلافات المعدة لفرديناند ، ملك أراغون مثلا ، بواسطة الحديد الحامي الذي كان يطبع اوراقا رقيقة مذهبة او فضية . وقد بدأ الفينيسيون ينهجون النهج نفسه اعتبارا من نهاية القرن ، حيث يعتبر (آلد) ، الذي أسس مشغلا خاصا بالطباعة اليونانية ، أكثر من ساهم من أصحاب المكتبات والمطابع في نشر درجة (موضة) تزيين الجلود بواسطة الحرارة « على الحامي » ، وبزخارف شرقية ما لبثت أن انتشرت في شمال ايطاليا . أما الفرنسيون، الذين غزوا شبه الجزيرة هذه ، فقد استساغوا هذه الزخارف الفخمة بسرعة كبيرة . كما عمد ملوك فرنسا، بالاضافة الى (غروليبيه) الشهير الذي كان امينا لخزينة ميلان ، الى تنفيذ اعمال مماثلة في الورشات الايطالية ثم ما لبثوا ان ادخلوا هذه التقنية الجديدة الى فرنسا ، خلال الثلث الثاني من القرن السادس عشر ، استطاع الفنانون الفرنسيون ان يبذوا أساتذتهم الايطاليين وينجزوا اعمالا فنية عظيمة تعتبر من الروائع : كالغلافات المتعددة الالوان والمزينة بالفسيفساء وبالتشبيك والزخارف الزهرية المرسومة بمادة صحفية ، او الغلافات الاكثر بساطة والمزينة بزخارف هندسية من طراز عصر النهضة . لقد كانت غلافات لا تضاهي ، صنعت بتقنية كاملة وذوق رفيع ، الا اننا لن نتوقف عندها طويلا ، باعتبارها مجرد اعمال فنية محدودة تقتصر على الملوك والامراء والحفنة القليلة من هواة الكتب الاغنياء .

في تلك الفترة ذاتها ، انطلقت درجة الجلود (الغلافات) « شبه المترفة » وذلك بتطبيق تقنية الدمغ « على الحامي » في صناعة الجلود

التجارية . واعتبارا من عام ١٥٢٠ ، بدىء باستخدام هذه التقنية في التجليد المزخرف بواسطة الصفائح ايضا ، كالغلاف الشهير لـ « Pot cassé » (الاصيص المكسور) لجيوفروي توري ؛ كما استخدمت الصفائح المزينة بالخيوط الرفيعة والمشابك الزهرية لصنع غلافات اقتصادية شبيهة بالغلافات ذات الحدائد الصغيرة أو بكرات التذهيب . وفي بعض الاحيان ، كانت توضع في وسط دفة الغلاف رصيعة تمثل شارة الكتبي أو جذع احدى الشخصيات المعروفة ؛ الا أن هذه الجلود ما زالت تكلف غاليا ويستغرق صنعها وقتا طويلا نسبيا . لذلك أخذوا يكتفون اكثر فاكثر بتجليد الكتب بغلاف متين من جلد العجل ، دون أي اهتمام بالزخرفة . وعندما حلّ النصف الثاني من القرن السادس عشر ، واضطرت الظروف الاقتصادية الناس للبحث عن ادنى الاسعار ، بدىء بتجليد الكتببواسطة الرقّ الرخيص، بينما اكتفت الشخصيات الكبرى، كالكاردينال (شال دي بوربون) مثلا ، بالجلود المصنوعة من السختيان دون أن تزيّن دفاتها الا باطار من الخيوط الذهبية .

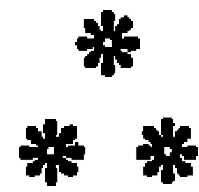


خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، استمرت الغلافاتالدارجة تغطى بجلد العجل ، دون اية زخرفة أخرى سوى اطار من الخيوط المذهبة ؛ اما بالنسبة للجلود المعتنى بها ، فظل السختيان هو المستخدم في معظم الاحيان ؛ وعندما تعود الكتب الى أحد كبار السادة أو هواة جمعها ، فان صاحب الكتاب يطبع شعاره في وسط دفته . الا أن هذا لم يمنع بعض هواة الكتب من الاستمرار في صنع الجلود المزخرفةبالحدائد الصغيرة والمذهبة طوال القرن السابع عشر . وعندما ازداد عدد هواة الكتب في القرن الثامن عشر ، عرف التجليد المترف الممتاز ازدهارا كبيرا وانطلاقة جديدة في فرنسا : كالجلود الموشاة بالفسيفساء للوصي على العرش وحاشيته ، والجلود المتعددة الالوان المزخرفة باسلوب مستوحى من الفن الصيني الذي كان دارجا آنذاك ، وخاصة جلود « الدنتيلا » أو المخرمة ، ذات الدفات المحاطة باطار عريض مطبوع « على الحامي »،

والتي تشبه زخارفها المذهبة الدنتيلا . انها نفس الفترة التي انجز فيها آل بادلوب وآل مونيبيه وآل ديروم اعمالهم الشهيرة على كتب فخمة مزخرفة كان الجمهور يتقبلها بشغف واعجاب . الا ان هذه الجلود ، تماما كالكتب التي تغلفها ، كانت موجهة الى جمهور محدود بينما اخذت العناية بالجلود العادية ، التي تنتج بالجملة ، تخف تدريجيا ، حتى انهم كانوا يلجؤون في نهاية القرن السابع عشر ، الى استخدام الورق المرخّم وحده بالنسبة للكتب الصغيرة أو الصحف المتزايدة .

وهكذا ، اذا قارنا بين مختلف الجلود التي تغلف الكتب الدارجة من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر ، فاننا نجد انه عندماكانزبائن اصحاب المكتبات محدودين نسبيا ، عمد المجلّدون ، خلال القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، الى زخرفة الجلود التجارية . اما عندما ازداد انتاج الكتب ، وتوسعت الطباعة والنشر خلال القرن السادس عشر ، ووصل الكتاب الى جمهور أوسع ، فان المجلّدين حاولوا جاهدين التوصل الى ايجاد وسائل تقنية تمكنهم من زخرفة الجلود بصورة اسرع وشكل افضل . الا انهم سيضطرون عما قريب للتخلي عن زخرفة دفات الجلود التجارية . لقد ازدهرت الجلود المترفة الفخمة كثيرا في منتصف القرن السادس عشر ، ثم خلال القرن الثامن عشر ، الا ان الكتب الدارجة عموما كانت تجلّد بشكل متين ولا شك ، حتى يتسنى الحفاظ عليها ، ولكنها كانت خالية من اية زخرفة على دفتي الغلاف ، باستثناء ظهر الكتاب ، الذي كان يبدو للعيان في رفوف المكتبات ، حيث كان يزيّن ببعض الزخارف بواسطة الحدائد الصغيرة وبقطعة من الجلد يكتب عليها عنوان الكتاب . (ومن الجدير بالذكر أن الكتب تحفظ اليوم واقفة ، مضمومة الى بعضها حتى لا تأخذ حيزا كبيرا ، وليس على بطنها كالسابق) .

في القرن التاسع عشر ، عندما سمح ظهور الآلة الطابعة البخارية واختراع آلة الورق بانتاج الكتب بسرعة اكبر وسعر أقل ، اقلع الناس عن تجليد هذه الكتب التي ستباع وتقرأ داخل غلاف بسيط . وهكذا، بينما كان عدد الكتب المطبوعة في ازدياد مستمر ، وبينما كان جمهور القراء يتضاعف ، أخذت الجلود الدارجة العادية تفقد جمالها تدريجيا ثم متانتها أيضا فيما بعد .



الفصل الرابع

الكتـــاب ، هـــذه السلعة ...

ظهرت الطباعة منذ البداية كصناعة تتحكم بها نفس القوانين التي تسيّر الصناعات الاخرى ، كما بدا الكتاب سلعة يصنعها الناس لكسب معيشتهم قبــل كل شيء ، حتى لــو كانوا من الانسيــين والعلمــاء مثل آل (آلد) و (ايستيين) . فقد كانت تلزمهم أولا رؤوس الاموال ليتمكنوا من العمل وطباعة الكتب التي ترضي زبائنهم ، وذلك بأسعار تستطيع الصمود أمام المزاحمة والتنافس ، لان سوق الكتاب كانت دائما مشابهة لغيرها من الاسواق الاخرى . فأمام الصناعيين الذين يصنعون الكتــاب كان هناك رجال الطباعة وعمالها ؛ وأمام التجار الذين يبيعونه كان هناك اصحاب المكتبات والناشرون ، الذين تطرح عليهم جميعا مسائل الاسعار والتمويل ، وهي مسائل نريد دراستها هنا مع محاولة تحديد كيفيــة تأثيرها وتحكمها ببنية مهن الكتاب نفسها .

١ ــ سعر التكلفـة

لنبحث أولا سعر التكلفة وعناصره . ما هي ، في تكلفة الطباعة ، حصة المادة الاولية ــ وخاصة الورق ــ ثم حصة اليد العاملة ؟ وهــل تغيرت العلاقات بين هذه العناصر المختلفة عبر الازمنة ؟

من الصعب أحيانا الاجابة على مثل هذه الاسئلة : لان ما وصلنــا من حسابات رجال الطباعة وأصحاب المكتبات ويومياتهم نادر جــدا ،

وخاصة بالنسبة للقرنين الخامس عشر والسادس عشر ؛ قد تكون العقود المسجلة الموثقة اكثر توفرا ، الا انه من العسير العثور على المعطيات المطلوبة مجتمعة في وثائق منبثقة من مصدر واحد وفي تواريخ متقاربة .

لنأخذ مثالا على ذلك وضع باريس ، التي نجد فيها معلومات كثيرة ردقيقة نسبيا بفضل الابحاث التي قام بها (ارنست كوييك) :

١ ــ بالنسبة لعتاد الطباعة ، يمكن ان نأخذ على سبيل المثال أولا مشغل عامل طباعة صغير ، هو (جاك فيربوك) ، مستندين الى جرد جرى عام ١٥١٣ : كان العتاد بسيطا للغاية ، يتألف من آلة طابعة واحدة خمّنت بثلاثة عشرة ليرة ، وعتاد متنوع قدّر بثماني ليرات ، وخمس مجموعات من الحروف المستعملة قدرت بحوالي اربعين ليرة . بهذا يصبح المجموع في حدود ستين ليرة .

٢ ــ هناك مشغل آخر أكثر اهمية ، هو مشغل (ديديه ماهو) ، كما وصفه جرد جرى عام ١٥٢٠ : ثلاث آلات طابعة خمّنت بستين ليرة ، قوالب لحرف (ميسيل) قدرت بـ ٢٤ ليرة ، قوالب لتفسير «bourgeois» ١٢ ليرة ، قوالب لحرف (Somme) ٨ ليرات ، قوالب لحرف « Somme angélique » ٧ ليرات وثمانية فلوس ، ثماني مجموعات حروف مستعملة تساوي ١٢٢ ليرة تضاف اليها لوحات وابجديات من النحاس قيمتها ١٦ ليرة . أما صناديق الحروف وما تبقى من العتاد فيقدر بحوالي ١٠٢ ليرة . بهذا يصبح مجموع قيمة هذه المطبعة الجيدة في حدود ٣٥١ ليرة .

٣ ــ المثال الاخير : مشغل مجهز بشكل ممتاز ، عائد لرجل الطباعة الشهير (والفغونغ هوبل) الذي قام بطباعة عدد من المؤلفات اللاهوتية والكتب المدرسية . كشف الجرد الذي تم بعد موته عام ١٥٢٣ ، عن وجود : خمس آلات طابعة قيمتها ٢٤ ليرة (و ٤٦ ليرة مع أطواق السطور)، عشر مجموعات من الحروف في حالة جيدة وكاملة خمّنت بحوالي ٣٦٠

ليرة ، كمية كبيرة من المناقش والقوالب في حدود ۲۰۰ ليرة ، حروف مزخرفة وكريمات وصفائح خشبية ونحاسية تقدر قيمتها بأكثر من ٧٥ ليرة . بهذا يربو مجموع قيمة العتاد على / ٧٠٠ / ليرة .

تدل هذه الارقام على أن أسعار آلات الطباعة كانت تتراوح فيباريس، بين عامي ١٥٢٠ ــ ١٥٢٣ ، من ٩ ــ ٢٠ ليرة حسب حالتها ، وهي قيمة ضئيلة نسبيا ولا شك . وقد كان بامكان رجال الطباعة ، اذا أرادوا تجنب هذا المصروف ، ان يستأجروا آلة طابعة بمقدار ٤٠ فلسا توريا (نسبة الى مدينة « تور » الفرنسية) في العام ، سنة ١٥١٥ ؛ أما بين عامي ١٥٤٠ ــ ١٥٥٠ ، فقد أصبحت هذه الاجرة تساوي ٦ ــ ٨ ليرات تورية . في هذه الفترة الاخيرة ، كان سعر الآلة الطابعة ذات الحالة الجيدة يتراوح بين ٢٣ ــ ٣٠ ليرة .

لا شك أن هذا مصروف ضعيف . الا أن الاغلى منه هو ثمن الحروف التي كان لا بد من تجديدها باستمرار : فسعر مجموعة الحروف الكاملة يتراوح ، وفق اعمال الجرد الآنفة الذكر ، بين ١٠ ــ ٧٠ ليرة ، وذلك حسب حالة الحروف وطبيعتها وأهميتها . هناك صفقة جرت عام ١٥١٥ بين (نيقولا لوروج) ، احد أصحاب المكتبات في (تروي) ، و (سيمفوريين باربييه) ، احد رجال الطباعة في باريس ، يظهر منها ان مجموعة من الحروف المخصصة لصنع كتب الصلاة ، مؤلفة من ثمانين الفا ، كانت كل الف منها تباع بمقدار خمسة فلوس تورية ، شريطة تقديم المادة الاولية . بهذا تصبح قيمة المجموعة عشرين ليرة ، وهذا هو السعر التقريبي لمجموعات الحروف « البورجوازية » التي وجدت لدى (ديدييه ماهو) عام ١٥٢٠ واخيرا ، في عام ١٥٤٣ ، سلم (جاك رينيو) السيد (بيير غرومورس) مجموعة من الحروف الرومانية (سيسرو) مؤلفة من ستين الفا ، سعر الالف ستة فلوس تورية ، زائد فلسين توريين لكل ليبره من المادة الاولية ، أي ١٨ ليرة للصناعة و ١٢ فلسا توريا للمادة الاولية . بعد ذلك ببضعة أشهر ، وبعد أن تسلمت القوالب في آن واحد

مع مجموعة الحروف ، دفع (غروموري) ٤٧ ليرة تورية ، اي حوالي ٢٨ ليرة للقوالب ، وهو رقم ينطبق مع الارقام التي وردت في كشوفات (ماهو) و (هوبيل) .

تعطينا هذه الارقام فكرة عن الاموال الواجب توفرها لدى رجل الطباعة لكي يباشر عمله ، ولكن جمع العتاد يجب أن يعقبه استغلاله ووضعه موضع الاستخدام . وعلى رجل الطباعة أن يقدم مبلغا ضخما من الاموال اذا أراد أن يقوم بنشر الكتاب الذي يطبعه بنفسه . هناك عدة عقود قديمة تعطينا فكرة عن المبالغ اللازمة لتمويل بعض اعمال النشر : ففي عام ١٥٢٤ ، وعد فرانسوا رينيو احد تجار (تول) بطباعة ٦٠٠ كراس لقاء ٥٥ ليرة تورية . وفي العام ذاته ، طبع (ديديه ماهو) ٤٠٠ كتاب قداس لاسقف « سانلس » لقاء ٣٥٠ ليرة تورية . في آب ١٥٢٣ ، كلفت طباعة / ٦٠٠ / كتاب للصلوات في باريس ، لصالح (نيفير) ، ٣٠٠ ليرة تورية ، وفي عام ١٥٢٨ ، قام السيد (جوس سيديد) بطباعة / ١٢٢٥ / نسخة نصفية من ترجمة « لتوسيديد » قام بها (كلود دي سيسال) ، بلغت تكاليفها / ٦١٢ / ليرة تورية .

كان لا بد اذن من توفر راسمال كبير للشروع بنشر طبعة هامة . وهكذا نجد انه ، على الرغم من ضرورة التجديد المستمر للحروف المصنوعة آنذاك من خليط ضعيف المقاومة ، لم يكن يلزم رجل الطباعة ، لكي يشتري آلة طابعة مع صناديق الحروف اللازمة وبعض المجموعات من الحروف ويستقر في مشغله ، سوى مبلغ زهيد من المال . الا ان ذلك لم يكن كافيا ، ولا بد من توفر مبالغ طائلة من المال لكي تعمل المطبعة بصورة منتظمة : فطباعة ونشر مؤلف واحد كانت تتطلب ، وفق الارقام الآنفة الذكر ، مبالغ تفوق ما يحتاجه شراء مطبعة جيدة التجهيز . لذلك نرى انه عندما يكون رجل الطباعة كتبيا ــ ناشرا في آن واحد ، فان راسمال المكتبة يفوق كثيرا راسمال المطبعة . وهذا ما كان عليه الوضع مثلا بالنسبة « لديديه ماهو » أو « فيربوك » . في الواقع ، كان الشيء

الوحيد الذي قيمته كبيرة ، من بين مجموع عتاد المطبعة ، هي الابجديات الاولية المزخرفة المنقوشة على الخشب ، تلتها فيما بعد الحروف الرمادية (اي المنقوشة على النحاس) والصفائح المنقوشة التي لا توجد الا في المطابع الكبرى المتخصصة غالبا في نوع معين من المؤلفات ككتب الايام مثلا . من هنا ندرك لماذا لا يبدو معظم رجال الطباعة غالبا الا كأجراء لكبار الكتبيين ــ الناشرين الذين يملكون بأنفسهم ، في معظم الاحيان ، ابجديات من الحروف المزخرفة والصفائح المنقوشة وأحيانا مجموعات الحروف التي يؤجرونها او يعيرونها لرجال الطباعة الذين يعملون لديهم .

الا ان تكاليف الطباعة لا تمثل القسط الرئيسي من المبالغ اللازمة لعملية النشر ، فالورق يكلف غاليا جدا .

لنأخذ اولا بعض المعطيات عن تكاليف الطباعة نفسها : في عام ١٥١٨، تكفّل رجل الطباعة الباريسي (جان فينيون) بأن يطبع كل يوم ورقة من كتاب للصلاة لصالح مدينة (نانت) ، على أن تسحب عنه / ١٣٠٠ / نسخة ، لقاء اجر يومي مقداره / ٢٠ / فلسا باريسيا . وفي عام ١٥٢٤ ، تكفل رجل طباعة آخر من باريس ، يدعى (جان كير بريان) ، بطباعة / ٦٥٠ / كتاب للصلاة لصالح مدينة (نانت) أيضا ، على أن يعمل على آلة طابعة بثلاثة قوالب في اليوم ، لقاء / ٦٠ / فلسا توريا . وفي العام نفسه ، تكفل (نيقولا هيفمان) بطباعة أنظمة المجالس الكهنوتية لاسقفية (سنس) على / ٧٥٠ / نسخة وثلاثة قوالب في اليوم لقاء ثلاثين فلسا توريا . وفي عام ١٥٢٦ ، طلب (جان كير بريان) مبلغ / ٦٥ / فلسا توريا في اليوم لطباعة / ١٢٠٠ / نسخة من كتاب للصلاة لصالح (بورج).

ان جميع هذه الاسعار تبدو ضئيلة اذا أخذنا بعين الاعتبار أن على صاحب المطبعة ان يطعم ويدفع اجرة عاملين للطباعة وعاملين للتنضيد، واذا تذكرنا ان اجرة عامل تنضيد من مدينة ليون بلغت عام ١٥٣٩ ، ستة فلوس وستة « دراهم » في اليوم : ان التمعن في هذه الارقام يمكننا ان ندرك لماذا كان ارباب العمل يسعون جاهدين للحصول من عمالهم

على اقصى مردود ممكن ، ولماذا يقومون باستخدام العديد من المبتدئين الاغرار الذين لا يتقاضون اجورا .

ما هي الاهمية النسبية لتكاليف الطباعة بالنسبة لتكاليف شراءالورق في هذه الفترة ؟ ان المعلومات التالية تعطينا فكرة عن هذا السؤال : ففي عام ١٥٣٩ ، طلب رجل الطباعة (بونمير) مبلغ / ١٤ / فلسا توريا على كل ماعون ، لطباعة كتاب « معهد سابيانس » لبيير دوريه . وفي عام ١٥٤٣ ، طلب (غروموروس) من (جاك رينيو) ١٨ فلسا توريا لطباعة كل ماعون من توراة مزينة بالاشكال والرسوم ، علما بأن سعر ماعون الورق كان يتراوح في تلك الفترة ، حسب نوعيته ، بين ١٠ — ٣٠ فلسا .

وهكذا نجد ان شراء كميات الورق اللازمة للطباعة كان يشكل قسطا هاما من المصروف الاجمالي . ولا يعتبر هذا الاستنتاج صحيحا بالنسبة للمثال الذي أخذناه فقط ، اي الطباعة الباريسية في مطلع القرن السادس عشر ، بل هو صحيح أيضا بالنسبة للقرن الذي سبقه : ففي عام ١٤٧٨، كان عامل الطباعة (ليونارد وايلد) ، من راتيسبون ، والمقيم في فينيسيا، يأخذ خمسة « دوكات » على كل ملزمة خماسية من كتاب للتوراة طبع على ٩٣٠ نسخة ، اي بمجموع قدره / ٢٤٣ / دوكا ؛ علما بأن سعر الورق العادي كان يتراوح في فينيسيا آنذاك بين ٢٫٥٠ ليرة ايطالية الى ٤ ليرة للماعون الواحد ، اي ما يعادل مجموعا كليا قيمته ٢٠٠ — ٣٠٠ دوكا .

لنأخذ مثالا آخر : في عام ١٤٨٣ ، شرعت مطبعة (ريبولي) بطباعة ترجمة لاتينية قام بها (مارسيل فيسين) عن « أعمال افلاطون » ، لقاء ثلاث فلورنسات لكل ثلاثين دفترا مطبوعا ، اي ما مجموعه ٩٠ فلورنسا . ولما كان المؤلف قد سحب على / ١٠٢٥ / نسخة ، وكل دفتر يتضمن اربعة طلحيات ، فان سعر شراء الورق قد كلف تقريبا بين ١٢٠ — ١٦٠ فلورنسا . وهكذا يكون الورق اغلى من أجور الطباعة نفسها .

ظل سعر الورق يشكل نسبة هامة من مجموع التكاليف ـ مع ميل ضئيل نحو التناقص ـ حتى القرن الثامن عشر . في عام ١٥٧١ ، كلف (بييررو) بطباعة / ٥٠٠ / نسخة من انظمة مدينة أفينيون ، فحصل على ١٨ فلسا ثمنا لشراء كل ماعون من الورق ، و ٣٧ فلسا لطباعته . كذلك هناك شواهد من نهاية القرن السادس عشر تظهر النسبة بين مختلف مصاريف النشر ، وهي العقود الموقعة لطباعة كتاب للقداس لصالح مدينة (بواتييه) ، أعيد النظر فيه مجددا وفق قرارات « مجلس الثلاثين » . وقد تشكلت هيئتان للشروع بهذا العمل : توجهت الاولى الى احد رجال الطباعة في مدينة ليون ، بينما توجهت الثانية الى مقاطعة (بواتفين) . الا أن هاتين الهيئتين ما لبثتا أن قررتا توحيد عملهما والقيام معا بتمويل طباعة واحدة بأموال مشتركة ، ثم سجّلت حساباتهما ومصاريفهما لدى كاتب عدل مأذون كما يلي :

١٣٠٠ كتاب للصلاة يتألف كل منها من ٧٢ طلحية ونصف طبعت في ليون لقاء / ٥٧٨ / ريالا و ٥٨ فلسا و ١٠ دراهم ، أي أن الطباعة : ٢٦٤ ريالا والورق : ١٣٧ ريالا و ٥٨ فلسا ؛ النقل من ليون الى بواتييه: ١١٠ ريالات ؛ أما الـ / ١٢٥٠ / نسخة المطبوعة في بواتييه فكلفت : / ٥٩٢ / ريالا و ١١ فلسا ، علما بأن تكاليف شراء مجموعات الحروف اللازمة وأجور نقلها قد بلغت ١٠٠ ريال ؛ ٢٠٤ ريالات للطباعة و ٢٦٤ للورق ، وهو مبلغ كبير جدا ولا شك لان المدينة كانت تعاني من الحصار الاقتصادي آنذاك . يلاحظ أن اجور النقل كانت تعادل ما يقرب من خمس ١/٥ سعر النسخ الليونيه(١) .

كذلك تؤدي دراسة اسعار الكلفة في القرنين السابع عشر والثامن عشر الى نتائج مماثلة : فقد دلّ الجرد الذي اجري بعد وفاة احد رجال الطباعة الباريسيين ، ميشيل برونيه ، الذي توفي عام ١٦٤٨ ، على أن

---

(١) قد يكون من المفيد التذكير هنا بان ماعون الورق كان يتألف من / ٥٠٠ / طلحية . (المترجم)

هذا كان يمتلك آلتين للطباعة خمنت الاولى بـ / ٩٠ / ليرة والثانية بـ / ٦٠ / . اما باقي العتاد الموجود والمؤلف من خمسة عشرة مجموعة من الحروف علاوة على الكريمات والحروف الرمادية (المنقوشة على النحاس) بالاضافة الى أدوات متفرقة اخرى ، فقد قدرت قيمته الاجمالية بحوالي ٧٤٦ ليرة و ١٠ فلس . وفي الفترة نفسها ، تم توقيع عقد (عام ١٦٣٧) ، بين صاحب مكتبة ومطبعة يدعى (كاموزا) ورجل متخصص في صب الحروف يدعى (جان-دي لافورج) ، يظهر منه أن مجموعة حروف كاملة للنصوص الرومانيـة القصـيرة ، تتـألف من / ١٥٠٫٠٠٠ / حرف و / ٢٥٫٠٠٠ / فاصلة للكلمات ، / ٥٠٠٠ / مربع وحرف روماني ، كانت تكلف أقل بقليل من / ٣٠ / ليرة زائد المادة الاولية اللازمة لصنع الاحرف والفواصل والحروف الرومانية . وأخيرا ، في عام ١٦٤٤ ، قام احد رجال الطباعة الباريسيين ، ويدعى (جوزيف بوييورو) ، بطباعة كتاب يسمى (جوديت) لحساب مؤلفه (نيقولا ليسكالو بييه) ، على / ١٠٠٠ / نسخة تتضمن كل منها خمسين طلحية قياس (in - 8°) بحروف (سان ـ اوغستينيه) ، تقاضى ست ليرات على الطلحيةالواحدة؛ بينما كان سعر ماعون الورق الجيد آنذاك يساوي ٦٣ فلسا توريا ، أي ٣ ليرات و٣ فلس . يمكن الاستنتاج بأن سعر الورق في نشرمؤلفمن قياس (in 8°) كان يمثل نفس سعر الطباعة . كمايمكن من جهة ثانية، ان نحسب على هذه الاسس أن سعر الكلفة لكتاب عادي قياس (in - 8°) مؤلف من / ٢٤٠ / صفحة ، مسحوب على / ١٠٠٠ / نسخة من الورق الجيد ، كان يقدر بحوالي / ١٩٠ / ليرة (١٠٠ ليرة للورق و ٩٠ ليرة للطباعة) .

ها هو الآن كشف آخر بحساب مصاريف نشر كتاب مدرسي باللغـة اللاتينية « مظاهر الانيقات » من قياس (in - 4°) ، مطبوع عـلى / ١٠٠٠ / نسخة باشراف (غليوم بينارد) و (جان جوليين) ، على ورق (جوزيف) بسعر ٥٠ فلسا للماعون الواحد ؛ أما سعر الطباعة فكان / ١٠ / ليرات للطلحية (اذا كانت الطباعة دقيقة نسبيا وصحيحة) . وهكذا يمثل سعر الورق اذن نصف سعر الطباعة . علاوة على ذلك ، تدخل هنا شخصية جديدة لم نصادفها بعد : وهي **المؤلف** ، الذي يتقاضى من جهته / ٣٠ / فلسا على الطلحية .

يمكن أن نخلص الى نفس الاستنتاجات تقريبا فيما يتعلق بطبعات القرن الثامن عشر . ففي كشف حسابي جرى عام ١٧٧١ ، نجد أن طلحية (سيسرو) ذات سطور متباعدة (مفسحة) ، مسحوبة على / ١٠٠٠ / نسخة ، كان تكلف ما يلي : ١٦ ليرة ثمن ماعونين من الورق ؛ ١٢ ليرة من اجل التنضيد والتجارب المطبعية وتنقيح المسودة الاخيرة ؛ ٦ ليرات للسحب ؛ ٩ ليرات (أو ٥٠٪ من تكاليف الطباعة) لاستهلاك العتاد والمصاريف العامة . فيكون المجموع العام / ٤٣ / ليرة .

اما المثال الاخير ، فيتعلق هذه المرة بكتاب شهير هو (الموسوعة) . فقد قدر (لونودي بواجيرمين) ان مصاريف كل طلحية من الورق تسحب على / ٤٢٥٠ / نسخة تتوزع على النحو التالي :

ـ سحب وطباعة	:	٢٤ ليرة و ١٥ فلسا
ـ ارباح الطابع واستهلاك العتاد	:	١٢ ليرة و ٧ فلس و ٦ دراهم
ـ سعر الورق	:	٦٨ ليرة
ـ المجموع	:	**١٠٥ ليرات ، ٢ فلس** ، ٦ دراهم

ما هي الاستنتاجات العامة التي يمكن استخلاصها من كل هذه البيانات ؟

ـ **الاستنتاج الاول** : لقد ظل سعر الورق من النوع الجيد ، من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر ، اعلى من سعر الطباعة نفسها ؛ لذلك لا نستغرب اذا لاحظنا ، في فترات الشح أو حتى الاستقرار ، أن الناس كانوا يلجؤون غالبا الى استخدام الورق الرديء ، مما يسمح لهم بتخفيض كلفة الكتاب الى حد كبير .

ـ **الاستنتاج الثاني** : من السهل جمع الاموال اللازمة لافتتاح مطبعة، لان العتاد « الاساسي » لم يكن يكلف غاليا ، كما يمكن لرجل الطباعة أن يحصل بسهولة ويسر على آلة طابعة وصناديق للحروف مع مطرحه (لوحة لصف الحروف) وبعض مجموعات الحروف الضرورية . الا ان

المشكلة فيما بعد كانت تكمن في العمل والاستثمار اللذين يتطلبان مبالغ طائلة لاصدار الكتاب . كما أن قسما من العتاد ــ هي الحروف ــ يحتاج الى التجديد باستمرار . كذلك يجب الا يغرب عن بالنا أن زبائن الكتبيين كانت محدودة آنذاك ، ولا يباع الكتاب الا ببطء شديد ، كما يحتاج تصريف الطبعة لارسال النسخ برزمات صغيرة الى كافة المراكز الكبرى في أوروبا . وهذا يعني صعوبة الاسترداد السريع لرؤوس الامـوال المستثمرة . ولكن ما أن تحدث أزمة ، حتى يتوقف بشكل نهائي تقريبا بيع الكتاب ، « هذه السلعة الكمالية » ، ولا يعود لرجال الطباعة أي مورد للرزق سوى طباعة المقالات الانتقادية التي تعبر عن سخط الجمهور. وأخيرا ، يعتبر اصدار الكتاب مشروعا غير مضمون في اغلب الاحيان ، لان الناشر لا يستطيع التكهن مسبقا بالاستقبـال الذي سيلقاه من قبـل الجمهور . وهذا هو سبب النَّهم الـذي يسعى به الناشـرون لتلقف المؤلفات ذات الرواج الاكيد ، كالكتب الكنسية مثلا ، التي تعتبر وحدها مضمونة التصريف أيام الازمات . من هنا أيضا تبرز ضرورة الشروع من هنا أيضا تبرز ضرورة الشروع باصدار عدة مؤلفات في آن واحـد بدلا من المجازفة باصدار كتاب واحد قد يصعب تصريفه . وهذا أمـر يحتاج الى رؤوس أموال كبيرة ، ويطرح مشكلة جديدة هي مسألـة التمويـل .

٢ ــ مسالـة التمويل

الا ان رؤوس الاموال هذه لم تكن متوفرة لدى عامل الطباعة ، هذا الحرفي البسيط . وهناك العديد من الوثائق التي تشير الى الافلاس المزمن لرجال الطباعة . فمنذ القرن الخامس عشر ، اضطر أرباب الطباعة في مدينة (بال) السويسرية ، الراغبون في اصدار الكتب بأنفسهم ، للتعاقد غالبا على قروض كانوا يقدمون عتادهم ضمانا لها . الا أن الامور كانت تنوء في معظم الاحيان ، حيث ينتهي الكثيرون منهم الى خسارة المناقش والقوالب التي صنعوها او جمعوها بشق الانفس ؛ أما اسعدهم حظا ،

فكانوا ينجحون في انقاذ قسم من العتاد والاختفاء هربا من دفع ديونهم، حيث يذهبون للاقامة في مكان آخر كفرنسا على سبيل المثال . وحتى القرن السادس عشر ، كان العديد من عمال الطباعة مضطرين في سبيل العمل الى التنقل من مدينة الى اخرى ، حسب الطلبا تالتي كانت تتقدم بها بعض البلديات او المجالس النيابية او رجال الكهنوت الذين كانوا يطبعون ما يحتاجونه على نفقتهم الخاصة . في القرن السابع عشر ، كان رجال الطباعة ـ وخاصة في المدن الاخرى غير العاصمة ـ يعيشون حياة بؤس وشقاء ، يوما بيوم وتحت رحمة الطلبات المقدمة من البلديات أو الطلبات الخاصة ، فهل كان هؤلاء عاجزين أو مقصرين ؟ كلا ولا شك ، ولكنهم لا يملكون رؤوس الاموال اللازمة . لذلك لم ينجح في اقامة المشاغل المناسبة والاستقرار الا اولئك الذين استطاعوا العثور على المموّل المنشود .

اما أكثر الامثلة دلالة في هذا الصدد ، فهي قصة الطباعة في (هاغنو)، هذه المدينة الالزاسية الصغيرة . الخالية من أية جامعة ، والتي لم تكن تبدو مؤهلة لان تصبح مركزا طباعيا هاما . الا أن قربها من مدينتي « ستراسبورغ » و « بال » ، حيث يكثر رجال الطباعة ، وعدم ابتعادها عن المراكز الالمانية الكبرى مثل (نورمبرغ) و (فرانكفورت) ، جعلها تحتل موقعا جغرافيا « كمدينة وسيطة » او محطة مرحلية ، يمر بها دائما عمال الطباعة خلال تنقلاتهم المستمرة ، كما يمكن للكتب المطبوعة فيها أن تنقل دون تكاليف كبيرة الى عدة مدن كبرى . في هذه الفترة التي عرفت بارتفاع اجور النقل ، كان يمكن ايضا للورق المصنوع في طواحين اللورين وبورغونيا العليا أن يصل الى هذه المدينة بسهولة كافية . كما أن اليد العاملة كانت متوفرة فيها دون اي عناء وبأجور زهيدة . ولكن مع ذلك، فعندما اقام في (هاغونو) ، عام ١٤٨٩ ، السيد (غران) ، كانت بدايته خاملة كما ظل نشاطه محدودا حتى عام ١٤٩٦ : حيث لم يكن يطبع سوى كتب القواعد ومجموعات المواعظ ، اي بمعدل ٢ ـ ٤ مجلدات في العام . اما سبب ذلك فهو انه عمل لحسابه الخاص وجازف دون رؤوس أموال كافيـة .

الا ان الوضع تبدل اعتبارا من عام ١٤٩٧ . فقد كثر رجال الطباعة في (هاغونو) خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٤٩٧ ــ ١٤٩٨ ، حتى أصبح لهم ناد خاص بهم . فما الذي حدث اذن ؟ كل ما في الامر أن (غران) قد اتصل بتاجر من (اوغسبورغ) يدعى « رينمان » كان يبيع كتبا «واشياء اخرى » (يحتمل أن تكون مجرد عتاد وحروف للطباعة) . وهكذا ما لبث مشغل (غران) أن دبّت فيه الحيوية والنشاط ، فاصبح يعمل كثيرا لصالح (رينمان) واتفق معه بشأن الورق والحروف والمقاس ؛ ثم ما لبث ايضا ان بدأ يعمل لصالح آخرين من اصحاب المكتبات الكبار الذين حذوا حذو (رينمان) : من أمثال لوشنر ، هيست ، وخاصة كنوبلوخ من ستراسبورغ . وهكذا أصبح (غران) يصدر ، من الآن فصاعدا ، دزينة من المؤلفات النصفية أو الربعية الكبرى في العام الواحد ، حتى بلغ المجموع حوالي / ٢٩٠ / كتابا منها / ٢٤٠ / لصالح (رينمان) وحوالي العشرين لصالح (لنوبلوخ) . لذلك اخذ عمال الطباعة يتدفقون على المدينة بتزايد مستمر . بينما كان (انغست) يعمل كمصحح لدى (رينمان) من عام ١٥١١ حتى عام ١٥١٥ ثم بعد عام ١٥١٩ ، قام (توماس انسهيلم) من « بادن ــ بادن » (وهو طالب سابق في جامعة بال) ، بمغادرة (توبنجن)، حيث كانت مطبعته راكدة ، الى(هاغونو) ليعمل لصالح « كوبرجر » و « بيركس دي كولوني » و « كنوبلوخ » . ثم جاء بعده كثيرون من أمثال (ج. سيتزر) من ميلنشتون .

وهكذا تدخل المموّل ــ الراسمالي ــ ليلعب دورا أساسيا في هـذا المجال . فهو الذي يتحمل مجازفة المشاريع ، وهو الذي يتكفل بتصريف الانتاج ، وهو الذي يقوم غالبا بانتقاء النصوص الواجب نشرها . لقـد كان يضطر احيانا الى تأسيس مشغل كبير يتم العمل فيه وفق طـرق الصناعة الكبرى وليس بوسائل الحرفيين فقط . أما الامثلة عن مثل هؤلاء الراسماليين فاكثر من أن تحصى . وقد يكون من المفيد اعطاء لمحة خاطفة عن سيماء بعضهم .

*
* *

لننتقل الى مدينة ليون ، لدى (بوييه) ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، حيث أخذت الطباعة ، التي ولدت على ضفاف نهر الرين، تنتشر عبر أوروبا . كانت المدينة آنذاك في أوج ازدهارها ؛ فأسواقها ومعارضها « ملتقى » جميع الاجناس ، يتوافد عليها التجار من ميلان وفلورنسا وفينيسيا ولوك ، وكذلك من البلدان الجرمانية ، اربع مرات في العام لتصفية حساباتهم . كما اقام فيها بعض أصحاب البنوك الالمان مؤسسات دائمة . وكذلك فعل الايطاليون . وقد كان للتجار الليونيين بالمقابل ، علاقات تجارية مع كافة المدن الاوروبية ، يذهبون اليها بأنفسهم عدة مرات في العام . لقد استفادت التجارة الليونية من الظروف الاقتصادية المناسبة التي ستضمن لها الربح والثراء . فوجود مدينة ليون على مقربة من المانيا وايطاليا ، على مفترق طرق بين فرنسا وبلدان البحر الابيض المتوسط . لذلك ما لبث أرباب الطباعة ان أخذوا يتوافدون عليها من المدن الرينانية ، مهد الطباعة ومن مدينة بال وايطاليا . ويبدو ان الكتب قد بيعت في اسواقها بصورة مبكرة .

كانت ليون في الوقت نفسه مركزا فكريا ، الا أنها لا تمتلك جامعة رغم جهودها . ولكن الانسية (النزعة الانسانية) دخلت البلاط الاسقفي حيث كان (جان ديبوربون) ، وكيل ابن اخيه شارل ، الذي عيّن أسقفا وعمره عشر سنوات ، رجلا يتمتع بحصافة كبيرة وذكاء لامع . لقد نشأ في مدينة (افينيون) واخذ يهتم بقضايا الفكر ، فأعاد تشكيل مكتبة دير (كلوني) التي نهبت بايعاز من دوق بورغونيا ، كما أقام في أسقفيته في (بوي) مكتبة انكليكانية رائعة . كان جميع أعضاء هذا الفرع من « آل بوربون » مثقفين ، قام الكثير منهم بتشجيع انشاء الورشات الطباعية ، كما تلقى (شارل دي بوربون) ، هذا الاسقف الفتي الذي اظهر نفس ميول أفراد اسرته نحو الآداب والفنون ، نسخة عن (la Rhétorique) او « علم البلاغة » لفليوم فيشيه ، وهو من أوائل الكتب التي طبعت في باريس وزخرف بالشعار الكاردينالي .

في الفترة نفسها ، كان مجلس كهنة (سان ــ جان) في أوج تألقه،

حيث اشتهر بانحدار اعضائه من طبقة النبلاء واتساع معارفهم وثقافتهم. صحيح أنهم كانوا يغيبون عن ليون دائما ، الا أن هذا الغياب كان غالبا بسبب الدراسات التي يتبعونها في الجامعات الفرنسية والاجنبية : حيث نجدهم مسجلين في كل من باريس وتولوز واورليان وافينيون وتورين وفلورنسا وبيز وبولونيا وباتي وفيرار . ثم ما لبث هذا الميل الى الدراسات أن انتقل الى البورجوازيين الذين حلوا في مقاطعاتهم محل النبلاء المفلسين. وهكذا نجد ابناءهم في كثير من الجامعات ، وخاصة في اورليان ، حيث يدرسون الحقوق ويتلذذون في القراءة لدرجة وجد معها احدهم ، وهو تاجر يدعى (لويس غارين) ، نفسه مضطرا لتحذير ابنه من الافراط في القراءة فيقول هذه الابيات من الشعر :

« ان في قراءة القصص والكتب الجميله
تمضية ظريفة ولا شك للوقت
ولكن لا يجوز ان تقرا حتى الثماله
لأن الكثيرين ممن فعلوا ذلك تعساء
فليس من المفضل ان يحبها اكثر من اللازم
أولئك الذين يسعون وراء الرزق ... »

هذا هو الوسط الذي عاش فيه (بار تيليمي بوييه) ، الذي لم يكن والده (بيير) مجرد تاجر كما توهم البعض لفترة طويلة ، بل من البورجوازيين الاغنياء ، وعضوا هاما في المدينة والبلدية . ويبدو انه كان مولعا بدراسات الحقوق ، حيث كان طالبا فيها عام ١٤٢٦ ، ثم حصل على الاجازة في القانون قبل عام ١٤٣٧ ، كما حصل على شهادة الدكتوراه عام ١٤٥٨ ، قبل وفاته ببضعة اشهر . فاصبح « المونسينيور » بيير بعد أن كان « المعلم » بيير : وهذه خطوة مرحلية على طريق المجد . اما والدة (بار تيليمي بوييه) وتدعى (ماري بواتييه) ، فكانت تنتمي الى أسرة غنية من بائعي « النوفوتيه » (او لوازم الخياطة) التي مارس معظم أعضائها وظيفة مستشار تجاري . كل هذه أمور تستحق الذكر ، اذ يبدو أن (بار تيليمي بوييه) قد انطلق في الطباعة والنشر بدافع حبه للآداب ،

الذي ورثه عن ابيه ، ثم استمر في هذا الميدان بدافع حبه للمال الذي ورثه عن عائلة أمه . وهكذا استطاع الاستفادة من الظروف المواتية واعطاء عمله امتدادا واسعا جدا . ففي عام ١٤٦٠ ، عند وفاة والده ، كان لا يزال في باريس يدرس في معهد الفنون ، حيث التقى ولا شك بالرجلين اللذين ارتبط اسماهما بمطبعة السوربون ، وهما : غليوم فيشيه وجان هينلن ؛ كانت تلك هي الفترة التي بدات فيها العاصمة تهتم بالطباعة منذ اقامة (شوفر) فيها . ومن المحتمل ان يكون (بوييه) قد اقام علاقات مع (نيقولا جنسون) ، عامل الطباعة الفرنسي في فينيسيا ، والذي كان ابنه يعمل في ليون عام ١٤٨٠ .

لقد ادرك جيدا مدى اهمية هذا الفن الجديد ، كأداة للثقافة من جهة ، ولتنمية رؤوس أمواله من جهة ثانية ، حتى أنه أقام في مسكنه الخاص عامل طباعة متجول جاء الى مدينة ليبج عن طريق بال وسويسره، يدعى (غليوم لوروي) ، وكلفه بالاشراف على ورشة (مشغل) سوف تقوم بنشاط كبير . في ١٧ ايلول ١٤٧٣ ، ظهرت أول ثمرة لهذا التعاون: « المختصر الوجيز » للكردينال (Lothaire) ، وهو أول انتاج معروف للمطابع الليونية .

ما هي حصة كل من هذين الرجلين او دوره في هذه المشاركة ؟ هل اكتفى (بوير) بلعب دور المموّل ، أم كان هو المدير الفعلي لهذا المشروع ؟ كان هذا الموضوع مجال خلافات عديدة من العبث عرضها هنا . الا أن الشيء الثابت والمؤكد : هو ان (بوير) كان يقوم شخصيا بانتقاء النصوص الواجب طباعتها واعطاء المطابع الليونية الاولى التوجيه الواجب التقيد به عند نشر نصوص باللغة العامية لصالح البورجوازيين والتجار ، أو نشر المجموعات القانونيةوالحقوقية . ولكنه كان يظهر كمموّل بالدرجة الاولى. فهو لا يكتفي بتصريف منتجات مشغله محليا فقط ، كما كان سائر رجال الطباعة الليونيين يعهدون اليه ببيع بعض كتبهم ، علاوة على أصحاب المكتبات الفرنسيين والاجانب الذين كانوا يتوجهون اليه من أجل تصريف

قسم من انتاجهم . خلال ذلك ، كان اصحاب المكتبات قد أخذوا يتدفقون على معارض ليون ، مما سمح لـ (بوير) باقامة علاقات جديدة وتأمين عدة أسواق ومنافذ خارجية . الا انه لم يكتف بذلك ، بل سعى لاقامة فروع له في سائر المدن الفرنسية التي كانت تشتد فيها الحاجة للقراءة أكثر من سواها ، وخاصة المراكز الجامعية الكبرى في باريس وتولوز وأفينيون .

ويمكن أن نذكر على سبيل المثال ، انه في عام ١٤٨١ ذهب (بارتيليمي) الى (افينيون) ، حيث عهد الى اثنين من كبار تجار المدينة ، هما الان وجواشيم دي روم ، بمهمة ، بمهمة تصريف ٨٧ مجلدا كان بعضها صادرا عن مشغله الخاص (وخاصة المؤلفات الدينية باللغة الفرنسية) ، بينما صدر البعض الآخر عن مختلف المشاغل الليونية (وخاصة كتب القانون باللغة اللاتينية التي كانت تحتاجها المدينة) . واذا كان قد اصطدم هنا بمنافسة مستميتة من قبل اصحاب المكتبات الالمان والليونيين ، فانه كان اسعد حظا في مدينة (تولوز) التي تعتبر محطة كبرى لترحيل الكتب الى اسبانيا ، حيث اعتمد (جان كلاريه) عام ١٤٨٢ ، قبل أن يتوجه الى كتبي ومجلّد من منطقة السافوا ، يدعى (جورج دي بوني) ، الذي عهد اليه (جاك بوييه) ، شقيق (بارتيليمي) ، فيما بعد بكمية من الكتب. وما كاد القرن السادس عشر يطل ، حتى كانت لعائلة (بوييه) مصالح كبرى في تولوز .

كذلك كان لبارتيليمي بوييه مستودع هام في باريس أيضا ، عهد به الى (نيقولا غيبو) عند وفاته ، حيث كان قد عقد صفقات وحقق أرباحا هامة لدرجة استطاع معها أن يقرض هناك مبالغ كبيرة كانت مدينة ليون تحتاجها في باريس للدود عن حقوقها . في عام ١٤٨١ ، اعتبر (بارتيليمي بوييه) في مدينته كشخصية هامة مسجلة في النقابة في عداد الكبار المكلفين بادارة المجلس الاستشاري للتجارة طوال السنتين التاليتين . عند وفاته ، عام ١٤٨٣ ، كان قد بلغ مرحلة من الثراء أوصى معها بمبلغ

/ ٢٠٠٠ / ليره لصالح احدى المؤسسات الدينية ، كما ترك لورثته ثروة طائلــة .

هذا هو واحد من كبار الرأسماليين الاوائل الذين اهتموا بالطباعــة وساهموا في توسيعها عن طريق تجارة الكتب . من خلال الوثائق التي لم يصلنا منها مع الاسف سوى القليل النادر ، نستطيع تصور العلاقات التجارية التي كانت تمتد ، ليس فقط بين ليون وافينيون ، وتولوز وباريس ، بل وصلت ولا شك حتى اسبانيا عن طريق تولوز ، وحتى المانيا وايطاليا على الارجح : ومن المؤكد أن (بارتيليمي) قد عمل بالتعاون مع اصحاب مكتبات فينيسيين .

*

* *

لقد راينا كيف اضطر (بارتيليمي بوييه) في البداية لاسكان عامل الطباعة (لوردي) في منزله الخاص مع ما يترتب على ذلك بالضرورة من اطعام واكساء وتعويض ، حتى يتمكن من التصرف بمطبعته وعمله على هواه . وقد كانت هذه هي العادة المتعارف عليها آنذاك . ولكن عنــدما انتشر فن الطباعة ، لم يعد الكتبيون ــ الناشرون يجدون ضرورة للجوء الى هذا الاسلوب ، بل اصبحوا يفضلون التوجه الى عمال طباعة مقيمين، واقراضهم الاموال اللازمة أو مساعدة بعضهم ، ممن عرفوا بكفاءتهم ، على تأسيس مشغل يكلفونه بتأمين طلباتهم دون أن يحتكروه بشكل كلي في معظم الاحيان . الا ان من الجدير بالذكر التنويه بأنه كان لدى هؤلاء المموّلين عتاد طباعي خاص بهم ــ كمجموعات الحروف والاحرف المزخرفة والصفائح ــ التي لا يسمحون باستخدامها الا للطبعات التي يموّلونهــا فقط .

يمكن أن نضرب مثالا على ذلك المموّل الشهير (أنطوان فيرار) ، الذي قام ، عند تطور الطباعة في باريس ، بادارة مشغل خاص لكتابة وزخرفة المخطوطات الفخمة المخصصة للملك وكبار السادة . لقد أدرك

(فيرار) بسرعة كبيرة فائدة الفن الجديد وأهميته . وعندما قام (جان دوبريه) و (باسكييه بونوم) باصدار الكتب الباريسية المزخرفة الاولى ، قرر تشغيل الآلات الطابعة ، فعهد اولا ، عام ١٤٨٥ ، الى (دوبريه بتنفيذ كتاب «Décaméron» لبوكاس . ثم ما لبث ان اصبح الاختصاصي الكبير في الطبعات المزخرفة التي تصدر باللغة الفرنسية ، التي كانت تستهدف عددا أكبر من الزبائن الذين كانوا يشترون منه المخطوطات المزخرفة . الا انه كان يعمد ، من اجل زبائنه القدامى ، الى سحب نسخ فاخرة على الرقّ ، مزينة بالزخارف والرسوم الصغيرة . ولكي يتسنى له تأمين النوعية الجيدة للطبعات الممتازة التي كان متخصصا بها ، كان يوصي بصنع لوحات خشبية ومجموعات حروف خاصة به ، الا انه لا يطبع بنفسه ، بل يعهدبهذا العمل الى حرفيين من خيرة عناصرالعاصمة: من أمثال جان دوبريه ، بيير لورورج، بيير لوفيه، بيير لوران، جان موبانيل، جيبه كوستيو ، بييرلو كارون ، جان مينارد ، وتريبيريل .

كان (فيرار) مثل (بوبيه) ، لا يكتفي بتصريف المؤلفات التي يصدرها محليا ؛ صحيح انه كان يملك مخزنين في باريس ، احدهما في القصر والآخر عند جسر (نوتردام) (١٤٨٥ ــ ١٤٨٩) ، ثم اصبح له مخزن في شارع سان ــ جاك قرب الجسر الصغير ، وآخر في شارع (نوف ــ نوتردام) بالقرب من (أوتيل ــ ديو) ؛ الا انه كان يملك ايضا مستودعا في مدينة (تور) ، حيث كانت له الباع الطولى في تجارة الكتاب ، كما اقام علاقات تجارية مع انكلترة حيث افتتح فرعا له في لندن (يصدر الكتب حتى باللغة الانكليزية) .

اخذ الكثيرون من الكتبيين ــ الناشرين في باريس يحذون حذو (فيرار) هذا ، فيمولون اعمال الطباعة المختلفة ويقدمون لعامل الطباعة العتاد اللازم ، كما يستأجرون له المطابع عند الحاجة ويسلّفونه رؤوس الاموال الضرورية . وهكذا قام (ميشيل لونوار) ، من كبار الناشرين لروايات الفروسية ، بالتعامل مع (بيير لوفيه) وتمويله ؛ كما توجه (دوران جيرلييه) ، للغاية نفسها ، الى كل من (هوبيل) و (لوجييه) ، وقام

(سيمون فوستر) . من كبار المتخصصين في كتب الايام ، بتعبئة كافة مطابع (بيفوشيه) لصالحه وحده تقريبا . الا أن اكبر من اتبع هـذه الوسيلة في باريس ، وعلى اوسع مستوى ، هو (جان بوتي) ، الراسمالي الحقيقي الذي اصبح بلا جدال . السيد المطلق لسوق الكتاب الباريسي في نهاية القرن الخامس عشر والسنوات الاولى للقرن السادس عشر . فقد قام ، خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٤٩٣ ـ ١٥٣٠ ، باصـدار اكثر من الف مجلد ـ يعتبر معظمها على درجة كبيرة من الاهمية ـ اي ما يعادل عشر الانتاج الاجمالي للمطابع الباريسية . وهكذا ظهر ، أكثر من (بوبيه) نفسه ، كنموذج للكتبي الكبير المموّل . ومن الجدير بالذكر، أن هذا الرجل ينحدر من أسرة من اللحامين الاغنياء ، الامر الذي لـم يحل بينه وبين الثقافة ، كما لم يمنعه من اقامة افضل العلاقات مـع علماء عصره . لقد كانت ثروته وثروة ابنه الذي خلفه على راس مشاريعه، هائلتين حقا . فالاثنان يمتلكان عدة ابنية في باريس وأراض في كلامار ، ايسي ، مودون ، بيافر أو بواسي .

ان ابن اللحام هذا ، الذي اصبح احد الكتبيين الاربعة الكبار المعتمدين من قبل جامعة باريس ، كان الناشر الرئيسي للطلاب ، واحد افضـل العناصر التي ساهمت في نشر الانسية (humanisme) في باريس . كما يعتبر اكثر من اصدر طبعات مبتكرة ؛ وفي اغلب الاحيان ، كان يتقاسم مع كتبيين آخرين ، أو مع رجال الطباعة انفسهم ، نفقات الطباعة والنشر . وقد استطاع الوصول الى رئاسة مجموعة تضم تقريبا افضل الكتبيين وامهر عمال الطباعة الباريسيين في عصره ؛ حيث تعاون مع كل من كيرفر، مارنيف ، بيرتولد رمبو ، بوكارد ، جان دي كوبلانس وأحيانا هنري ايستيان ، كما كان يعمل لديه بضع عشرات من عمال الطباعة المهرة : أولهم (غي مارشان) ، الذي كان بمثابة شريك ، ثم غاسبار فيليب ، اولريخ جيرنغ ، بيير لودرو ، فيليكس باليغو ونيقولا دي بريز . علاوة على ذلك كان ظهيرا لجيوفري توري وجوس باد .

ان قصة علاقاته مع (جوس باد) تستحق الذكر ، لانها تبين لنا كيف كان باستطاعة كتبي راسمالي كبير أن يشجع بعض الميول الفكرية :

في عام ١٤٩٩ ، وصـل من مدينة ليون ، حيث كان يعمل لدى (تريشيل) ، عامل طباعة شاب كان معروفا في أوساط الانسيين في العاصمة ، ويدعى (جوس باد) . ادرك (جان بوتي) مواهب هذا الشاب فسعى لضمه اليه ، حيث كلفه بالاشراف على تنقيح النصوص . الا أن (جوس باد) تذمر من اضاعة وقته في الذهاب والاياب بين مختلف عمال الطباعة ؛ فخطرت عندئذ على بال (بوتي) فكرة تسليمه احدى المطابع . وهكذا ولدت مطبعة (جوس باد) الشهيرة .

اصبح باستطاعة (بوتي) ، من الآن فصاعدا ، أن يتوجه غالبا الى (جوس باد) ، وخاصة بالنسبة للطبعات التي يتوخى فيها الدقة التامة والعناية الخاصة . الا أن أعمال (جوس) لم تكن وقفا على (بوتي) وحده؛ بل كان يعمل غالبا لحسابه الخاص وخاصة بالنسبـة للطبعات القليلـة التكاليف ؛ كما كان يعمل ايضا لصالح زملائه من أصحاب المكتبات . كذلك ظل (بوتي) من جهته ، يتوجه الى كثير من عمال الطباعة الآخرين الذين أوردنا ذكرهم آنفا ، ويمكن أن نضيف اليهم : باربييه ، بونمير ، غرومور ، فيدو ، كوستيو ، وغيرهم ... وبسبب صلاته الدائمة مع منطقة النورمندي ، فقد طبع عدة مجلدات باسمه في مدينة (روان) ، حيث صدر بحقه قرار من قبل مجلس النواب هناك ، ورد فيه « انه كان يطبع من الكتب أكثر من الف صاحب مكتبة مجتمعين » . كذلك كان على صلة مع (كليرمون) حيث أقام مكتبة ، ومع (ليموج) حيث كـان يطبع في أحد فروعه هناك على ما يبدو . وفي مدينة (ليون) أيضا ، كان يستخدم عدة مطابع ويمتلك مكتبة خاصة في المدينة . هذا بالاضافة الى تفاويض التوكيل التي كان يقدمها لاستيفاء الديون من مدن : تروي ، أورليان ، بلوا ، تور ، جزيرة بوشار وغيرها ...

الا أن هذه القوة ليست استثنائية البتة . فالنشر في جميع انحاء أوروبا بين أيدي راسماليين من هذا النوع . ففي المانيا ، نجد بعض

الكتبيين نقدمون العمل الى عمال طباعة كثيرين في عدد كبير من المدن المختلفة . فها هو (رينمان) يموّل طبعات منفذة ، ليس من قبل (غران) في مدينة « هاغونو » فقط ، بل كذلك من قبل (جان أوتمار) ، اوغلين وسيلفان اوتمار في « أوغسبورغ » ، جورج ستوش وجيروم هولتزر في نورمبرغ ، بيير ليشتنشتاين في فينيسيا ، ج. دي بفورز هايم وآدم بيتري في بال ، كنوبلوخ في ستراسبورغ .

وفي بعض الاحيان ايضا ، كان اعضاء العائلات الكبرى من أصحاب المكتبات ، ينشئون مؤسسات لهم في مدن مختلفة ، مما يسهل تصريف انتاج كل منهم . وهكذا تشكلت ، عبر الحدود ، « اممية » حقيقية لكبار اصحاب المكتبات .

لناخذ مثالا على ذلك عائلة (جيونتا) : فها هو (فيليبو) ، ابن تاجر صوف كبير من فلورنسا ، يصبح في مطلع القرن السادس عشر اقوى كتبي واعظم طابع في فلورنسا ؛ فيقوم ، بمعونة وارشاد نخبة مختارة من الادباء الانسيين ، بطباعة عدد كبير من المؤلفات بواسطة مطابعه الخاصة ومطابع الآخرين . وعندما توفي ، تولى ابنه (برنارد) ادارة المشروع ، فأصبح كونتا بلاطيا في نهاية حياته . الا أن أحد اخوة (فيليبو)، ويدعى (لوك انطونيو) ، استقر في فينيسيا بعد أن مارس المهنة في فلورنسا (عام ١٤٨٩) . هنا بدأ يعمل بالتعاون مع أكبر أصحاب المكتبات في المدينة ، فتوجه الى مختلف عمال الطباعة ، ثم ما لبث أن انشأ لنفسه مشغلا طباعيا ينافس مشغل (توريساني) و (آلد القديم) . وبعد وفاته تابع العمل عنه ابنه (توماس) .

كانت المؤسسات الكتبية مرتبطة بصلات وثيقة في كل من فينيسيا وفلورنسا ؛ ولما كانت اسرة (جيونتا) من الجمهوريين ، فقد أصبحت مؤسسة (لوك انطونيو) المقر العام للمنفيين الفلورنسيين الى فينيسيا . لذلك سعى (كوسم دي ميديسيس) جاهدا لعرقلة أعمال (فيليبو) ، وذلك بتشجيعه (انطون فرانسيسكو دوني) على تأسيس مشغل طباعي كبير في فينيسيا .

الا ان عضوا آخر من الاسرة ، ويدعى (جاك جيونتا) ، ابن فرانسوا، المولود في فلورنسا عام ١٤٨٦ ، ذهب للاقامة في مدينة (ليون) بعد أن تعلم المهنة في فينيسيا لدى خاله (لوك انطونيو) . هنلك أسس دارا للنشر بفضل رؤوس أمواله الخاصة ، وربما بمساعدة (لوك انطونيو) . وقد استطاع ، خلال سبعة وعشرين عاما ، من ١٥٢٠ حتى وفاته عام ١٥٤٧ ، ان يصدر عددا كبيرا من المؤلفات اللاهوتية والاحكام القضائية والطب. كذلك كان يعمل لديه اكثر من عشرين عامل طباعة ، كما اصبح على راس شركة الكتبيين الليونيين الكبرى .

وها نحن نراه يشترك احيانا في بعض الطبعات مع لوك انطونيو جيونتا أو مع كتبيين من نفس العائلة . وقد بلغ به الغنى حدا استطاع معه ، في عام ١٥٣٧ ، أن يقرض الكاردينال (دي تورنون) مبلغ / ٥٠،٠٠٠ / ليرة تورية لصالح بعض الاعمال الملكية ، كما استطاعت اعماله هو أن تغطي اوروبا كلها . وهو يمتلك علاوة على كل ذلك ، مستودعات ووكالات تجارية في كل من : فرانكفورت ، انفرس ، ميدينه ديل كامبو ، سالامانك، سرغسطه وباريس حيث يهتم ابن اخيه (فرانسوا بارتيليمي) بأعماله هناك . وقد حذا حذوه آخرون من أسرة (جيونتا) ، حتى انك تجد اصحاب مكتبات بهذا الاسم ، كلهم أقرباء ، وكلهم يعملون بالتعاون فيما بينهم ، ليس فقط في فلورنسا وفينيسيا وليون ، بل كذلك في جنوه وبورغوس وسالامنك ومدريد .

كان بعض أفراد هذه الاسرة يتوجهون الى عمال طباعة حرفيين ، بينما كان البعض الآخر يلجأ الى هذه الوسيلة علاوة على امتلاكه لمشغل خاص . كذلك نجد أن كبار أصحاب المكتبات يسعون غالبا لتأسيس مطابع كبرى يقسّم فيها العمل بحيث يعطى لكل عامل اختصاصه المحدد . وقد كان يدفعهم لذلك عاملان : أولهما الرغبة في تحقيق مردود افضل بفضل التنظيم العقلاني ، وثانيهما تحسين الانتاج . ولا شك أنه لم يكن من الممكن انجاز اشهر الطبعات في القرن السادس عشر لولا اللجوء الى هذه الطريقة . وهكذا قام (أندريا توريزانو) ، وهو مواطن غني من « أزولا »

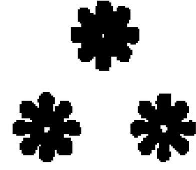
عمل ككتبي في فينيسيا حيث عمد الى تشغيل عدد من عمال الطباعة ، بانشاء مشغل ما لبث ان سلّم ادارته الى عالم فقير جدا يدعى (آلـد القديم) ، تزوج وهو في سن الخمسين من (ماريا) ، ابنة رئيسه التي لم تتجاوز العشرين . وهكذا استفاد من رؤوس أموال هامة ومن حماية قوية ، فاستطاع أن ينجز العمل الكبير الذي نعرفه ، ويصدر العديد من النصوص القديمة ـ وخاصة اليونانية ـ بمساعدة جماعة من العلمـاء الذين كانوا يعملون في فينيسيا مع (توريزانو) الذي يقوم بتمويلهم .

كذلك كان يتبع نفس الطريقة (انتوني كوبرجر) ، من نورمبرغ ، الذي يعتبر أكبر ناشر في عصره ، والذي اصدر ، من عام ١٤٧٣ حتى عام ١٥١٣ ، ما لا يقل عن / ٢٣٦ / مؤلفا هاما وبطباعة ممتازة . ولد (انتوني) هذا عام ١٤٤٠ ، من عائلة كان من بين اعضائها عمدة مدينة ، وبدأ عمله كصائغ ، ثم أصبح رجل طباعة بين عامي ١٤٧٠ و ١٤٧٢ . نشر أول كتاب له عام ١٤٧٣ ، ويدعى « في سلوى الفلاسفة » ، مع شرح وتعليق (سان توماس داكان) . تخصص (كوبرجر) منذ بدايته بنشر المؤلفات اللاهوتية والفلسفية المدرسية ، فنشر مؤلفات كل من : فينسون دي بوفيه ، غليوم دوران ، دانس سكوت ، سان توماس ، سان جيروم ، سان امبرواز وسان اوغستان ؛ وذلك بالاضافة الى عدة كتب للتوراة من بينها أول توراة باللغة الالمانية والرسائل البابوية وعدة قوانين كهنوتية، وبتعبير آخر ، كافة المراجع اللازمة لطلاب المعاهد اللاهوتية والمراسيم .

كان (كوبرجر) يهتم بتزويد الجامعات بالدرجة الاولى ، الا انه لم ينشر سوى النذر اليسير من المؤلفات الكلاسيكية اللاتينية . ولكنه كان يسهر على تنقيح النصوص التي ينشرها ، كما كان على صلة وثيقـة برجال انسيبين من امثال (كونراد سيلت) و (بيركايمر) . ويمكن ان نذكر من جملة المنقحين لديه كلا من : اميرباخ ، فريسنر ، بيركايمر ، فون ويل ، ويمبفيلينغ ، بيركنهوت وبوش . وعندما شرع في اصدار توراة (هوغ دي سان ـ شير) بثمانية مجلدات ، تكفل (بوش) اثنـاء اقامته في ايطاليا ، بالبحث عن افضل المخطوطات . الا أن (كوبرجر)

كان رجلا صناعيا قبل كل شيء ، وتاجرا يهتم باستثمار رؤوس أمواله . في عام ١٥٠٩ ، كانت مطبعته تحتوي على ما لا يقل عن ٢٤ آلة طابعة يتجمع حولها حوالي مئة من المنضدين وعمال الطباعة والمنقحين والنقاشين والمجلّدين . وقد كان عنده مشغل خاص وهام للتجليد ، حيث كانت الكتب تجلّد بمتانة وبالجملة . كذلك كان لديه صديق ومواطن يدعى (دورر) ، يقدم له النصائح والارشادات فيما يتعلق بتقديم بعض المؤلفات وزخرفتها .

الا أن مطابع (أنتوني كوبرجر) لم تكن تكفيه ، لذلك كان يلجأ ، هو والذين اتوا بعده ، الى طابعين آخرين عند الحاجة من أمثال : (جان غرونبجر) من ستراسبورغ وكذلك (آميرباخ) الذي عمل لدى كوبرجر قبل أن يستقر في مدينة بال ، والذي ظل على صلة وثيقة برب عمله القديم . من الطبيعي أن تصريف كل هذا الانتاج يحتاج الى شبكة تجارية حقيقية . لذلك كان لكوبرجر عملاء وممثلون ، ليس فقط في المدن الالمانية الكبرى ــ كفرانكفورت ، لايبزيغ ، فيينا ، كولونيا ، بال وستراسبورغ ــ بل في كافة المدن الاوروبية الهامة : بودابست ، فرسوفيا ، فينيسيا ، فلورنسا ، انفرس ، بروغ ، لايد وباريس . وهكذا اصبح الوسيط الطبيعي بين أصحاب المكتبات ذوي الامكانيات المحدودة والعلاقات التجارية الضعيفة .



الا ان ابرز مثال على تأسيس مطبعة كبرى بواسطة رؤوس اموال كبيرة ، هو دون ريب المطبعة التي أقامها (بلانتين) في مدينة (انفرس) .

تعتبر حالة (بلانتين) هذا وضعا خاصا ، الا أنها تبين لنا كيف يمكن لرؤوس أموال كبيرة في مركز تجاري هام (انفرس) ، على صلات دائمة بالمدن الاوروبية الكبرى ، أن تساعد على توسيع الصناعة الطباعية .

ولد (بلانتين) في (تورين) عام ١٥١٤ ، ولم تكن لديه أية ثروة شخصية . بدأ يعمل في مطابع مختلفة داخل مدينتي روان وباريس ؛

ثم ما لبث ان استقر في (انفرس) عام ١٥٤٩ ، حيث سيشرح بنفسه فيما بعد ، في رسالة الى البابا (غريغوار الثالث عشر) ، اسباب هذا القرار فيقول : « كان باستطاعتي ، لو كنت ابحث عن مصالحي الخاصة دون سواها ، ان اضمن لنفسي المزايا التي كانت تقدم الي في بلدان ومدن أخرى؛ الا انني فضلت عليها الاقامة في بلجيكا . وفي مدينة (انفرس) بالذات . ان ما أملى علي هذا الاختيار ، هو شعوري واعتقادي بانه لا توجد مدينة في العالم يمكنها ان تقدم لي تسهيلات أكبر لممارسة الصناعة التي أهدف اليها . فالوصول الى هذه المدينة سهل ، واسواقها ملتقى مختلف الامم، كما ان المواد الاولية اللازمة لممارسة هذا الفن متوفرة فيها ؛ كذلك توجد فيها الايدي العاملة التي يمكن اعدادها لكافة المهن خلال وقت قصير ... واخيرا توجد هنا « جامعة لوفين » الشهيرة في كافة العلوم والمعروفة بكفاءة اساتذتها والتي كنت مزمعا على الاستفادة ، لصالح الجماهير ، من ارشاداتها واعمالها العامة والانتقادية » .

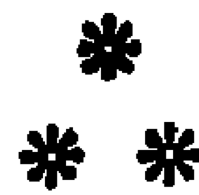
اضطر (بلانتين) ، لكي يعيش في البداية ، أن يعمل مجلدا وفي تصنيع الجلد . ثم اصبح بعد ذلك عامل طباعة ، الا ان بدايته كانت متواضعة جدا ، اذ لم يساهم حتى عام ١٥٦٢ ، الا في مؤلف هام واحد ، هو الكتاب الفخم والرائع المسمى :

« Pompe funèbre faite aux obsèques de Charles cinqiuème »

او « موكب الدفن في جنازة شارل الخامس » ، الذي قام بطباعته لصالح الدولة . الا انه اتهم في عام ١٥٦٢ بطباعة كتب الحاد ، مما اضطرهلمغادرة المدينة لبضعة اشهر ؛ وقد دلت الكشوف التي نظمت بأملاكه عند الحجز عليها بعد رحيله ، على انها لم تكن واسعة بعد .

ولكن اعضاء احدى الطوائف المسماة « عائلة الاحسان » بدؤوا يهتمون بـ (بلانتين) الذي كان عضوا فيها ، حيث استطاع بعد عودته الى (انفرس) عام ١٥٦٣ ، ان يشكل جمعية للنشر مع عدد من البورجوازيين الاثرياء في المدينة من امثال : كورناي وشارل فان بومبرغ ، جاكو بوسكوتي (صاحب مصرف) وطبيب يدعى غورو بيوس بوانو . صدرت خلال

السنوات الخمس التي مرت على هذه الجمعية مئتان وستون مؤلفا من المطابع العائدة لبلانتين ، منها طبعات لمؤلفين كلاسيكيين وكتب تورا باللغة العبرية ومؤلفات عن الطقوس المسيحية . وهكذا ، استطاع(بلانتين) بعد انطلاقته ان يكسب الى جانبه انصارا وحماة اقوياء كالكاردينال (غرانفيل) و (غبرييل دي كاياس) أمين سر فيليب الثاني . من هنا حصل على الدعم المالي والقانوني من ملك اسبانيا الذي أخذ على عاتقه نشر « توراة بوليغلوت » ــ وهو العمل الذي سيكون سببا لشهرة (بلانتين) ــ والذي سيضمن له احتكار نشر معظم الكتب الطقسية التي اعيد النظر فيها من قبل « مجلس الثلاثين » ، في اسبانيا ومستعمراتها . اعتبارا من عام ١٥٧٢ ، ارسلت عشرات الالوف من كتب الصلوات والقداس والمزامير والصلوات اليومية والحان القداس من مدينة انفرس الى فيليب الثاني الذي كلف رهبان (Escurial) بالسهر على توزيع وبيع هذه المؤلفات في اراضيه . كان لدى (بلانتين) آنذاك حتى ٢٤ آلة طابعة تعمل ؛ كما جمع نخبة فريدة من المناقش والقوالب ، وأصبح يعمل عنده اكثر من مئة عامل ؛ كذلك كان يملك مستودعات أو مراسلين في كافة المدن الاوروبية ، من فرانكفورت الى باريس ، من دانزيغ الى بيرجن ، من ليون الى نورمبرغ ، من فينيسيا الى مدريد ، من روان الى لشبونة ولندن . وهكذا سمحت رؤوس أموال (أنفرس) ، ثم العون الذي قدمته الدولة « لبلانتين » بانشاء أقوى « مصنع للكتب » عرفته اوروبا حتى القرن التاسع عشر .



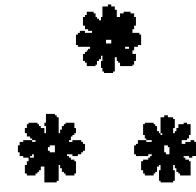
مع (بلانتين) ، نصل الى حالة قصوى ــ هي حالة مشغل مجهز وفق مبادىء الصناعة الكبرى . في الواقع ، اذا استثنينا بعض المشاغل الكبرى كمشغل (كوبرجر) ثم مشاغل (الزيفيير) و (بلو) في هولانده ؛ وكذلك بعض المطابع التي انشأها الملوك (كمطبعة باريس الملكية ومطبعة نابولي ومطبعة الفاتيكان) التي كانت تعمل غالبا بخسارة لانها تنفذ أعمالا ذات منفعة عامة ، فاننا نلاحظ أن الصناعة الحرفية تظل القاعدة الكبرى

للطباعة . ففي باريس ، خلال القرن السابع عشر ، كانت المشاغل التي تحتوي على أكثر من اربع آلاف طابعة وعشرة عمال ، تعتبر استثنائية . لقد كان كبار أصحاب المكتبات ، الذين يمولون الطبعات ، يفضلون هذا الاسلوب الذي يوفر عليهم العمل ويسمح لهم بالصرف بمرونة أكبر ، لانهم غير ملزمين بتغذية عدد معين من الآلات الطابعة بصورة منتظمة . اذا كان تمويل عمليات الطباعة والنشر يتطلب تشغيل رؤوس أموال هامة ، وبالتالي تدخل الممولين الاقوياء ، فان هذا التنظيم لم يكن مطلقا بهذه البساطة . فقد كان يدور في فلك كبار الكتبيين ــ الناشرين الذين رأيناهم ، مجموعة من الكتبيين الاقل غنى والذين يعيشون على بيع الكتب والنشر في آن واحد . كان معظم هؤلاء يدخلون مع الكتبيين الكبار في شركات أو جمعيات خاصة تدخل ضمن الشبكات التجارية التي انشأها هؤلاءللتموين بالكتب . وهكذا نرى (سيباستيان كراموازي) ، الذي أصدر وحده أو داخل احدى الجمعيات ما يقرب من عشر الكتب المنشورة في باريس بين عامي ١٦٢٥ ــ ١٦٦٠ ، يرأس شركتين كبيرتين تضمان تقريبا كافة الكتبيين الباريسيين من مستوى معين ، تخصصت احداهما في نشر اعمال « آباء الكنيسة » ، بينما اختصت الاخرى في نشر المؤلفاتالطقسية . كذلك كان (كراموازي) هذا المودع (dépositaire) الرسمي في باريس للعديد من أصحاب المكتبات في المدن الاخرى والخارج ، حتى أن شبكته التجارية قد غطت أوروبا بكاملها .

وهكذا يمكن القول بأن الكتبيين الكبار هم الممولون الاساسيون لزملائهم الاقل غنى . وقد كان أسلوب الدفع بالكمبيالات الثلاثية ، الذي كان سائدا في تجارة الكتاب ، يسهل هذا الوضع ؛ حتى أن صاحب المكتبة كان يعمد ، اذا احتاج في اعمال النشر لدعم مادي ، الى اخذ قرض من أحد زملائه الاغنياء لقاء اجرة بسند . وقد كان (دينيس تييري) من كبار المتخصصين بهذا النوع من التجارة في باريس خلال القرن السابع عشر .

واخيرا لا بد لنا من التنويه ، ونحن نبحث في تمويل النشر ، بالدور

الهام الذي لعبته السلطات العامة في أعمال التمويل هذه . ففي أحيان كثيرة ، كان الاساقفة ـ ومجالس الكهنة يقومون بتمويل الكتب الطقسية (المتعلقة بالطقوس) وكذلك فعلت الدول والمدن بالنسبة لبعض المؤلفات، وخاصة المستندات الادارية الضرورية . ويمكن القول أخيرا ، بأن اسلوب الامتيازات والاحتكارات التي كانت تمنحها الدولة لمختلف الكتبيين بالنسبة لبعض اعمال النشر ، قد سمح بتشجيع جماعات ومشاريع وطنية أو محلية ؛ وهكذا كانت الدولة تتدخل ، عن هذا الطريق ، في تمويل الطباعة والنشر أحيانا كثيرة ، فتشجع المشاريع الكبرى وتسعى جاهدة لكسب رجال الطباعة والنشر وجعلهم عملاء طيّعين ، ضامنة بذلك عدم نشر الكتب السيئة . بهذه الوسيلة أيضا ، تعززت اهمية الكتبيين والناشرين الكبار في اسواق الكتب .



الفصل الخامس

« العالم الصغير للكتاب »

وجدت الصناعة الطباعية من لا شيء ، الا انها ما لبثت أن اتخذت مظهرا حديثا نسبيا وبسرعة كبيرة . فقد ظهرت بشكل مبكر جدا ، مشاغل كانت ، على حد تعبير (هوزر) ، أشبه بالمشاغل الحديثة منها بالمشاغل الخيرية في القرون الوسطى . منذ عام ١٤٥٥ ، كان فوست وشوفر يشرفان في مدينة مايانس ، على مطبعة منظمة للانتاج بالجملة ؛ وبعد ذلك بعشرين عاما كانت المطابع الكبرى تعمل في أماكن شتى من أوروبا : حيث بدأ السعي منذ ذلك الحين ، لانجاز تحسينات تقنية تجعل عمل الآلة الطابعة اكثر سهولة واكبر سرعة ؛ وهكذا لم يعد المنضد يعمل جالسا ، بل واقفا حتى يحصل على مردود أفضل . لان ضرورة الاكثار الدائم من انتاج الكتب ، وبسعر أقل ، دفعت رجال الطباعة الى جعل طرق انتاجهم اكثر عقلانية وعلمية . كان هؤلاء العمال احرارا جدا في الاصل ، محترمين لمعرفتهم ، الا انهم ما لبثوا أن أصبحوا عمالا كالآخرين ، ملزمين بتادية واجب محدد خلال زمن معين ولقاء أجر محدود . ومنذ تلك اللحظة ، أعطت الطباعة نوعية جديدة من الرجال : هو عامل الطباعة ، الذي يعمل بيديه كأي عامل آخر ؛ فهو اذن حرفي ولكنه « مثقف » ، لانه يحسن القراءة ويلم قليلا باللغة اللاتينية في أغلب الاحيان . وهكذا كان عمال الطباعة هؤلاء ، الذين يعيشون بين الكتب وعلى صلة بالمؤلفين وأول من يطلع على الافكار الجديدة ، يميلون الى التفكير ويثورون دائما على

أوضاعهم المعيشية . لذلك نراهم ، منذ القرن السادس عشر ، ينظمون الاضرابات ذات الطابع الحديث ، ويكتبون ، لدعم مطاليبهم ، عرائض يقرها النقابيون الذين جاؤوا بعدهم بثلاثة قرون كما افاد (هنري هوزر) . لذلك أيضا ، رأينا العديد من عمال الطباعة في صفوف الاشتراكيين الاوائل خلال القرن التاسع عشر .

لنستعرض الآن ظروف عمل كل من العمال وارباب العمل ، وندرس كيف تؤدي ممارسة مهنية يدوية وفكرية معا الى خلق عقلية خاصة لدى أصحابها ، ونبحث في طبيعة العلاقات القائمة بين العمال وارباب العمل، وفي الشروط المادية والمعنوية لحياة هؤلاء وأولئك :

١ ــ العمال

لنأخذ أولا عامل المطبعة (imprimeur) :

كان على الطابع المنضد (typographe) المقبل أن يبدأ التدرب وهو لا يتجاوز الثانية عشر أحيانا ، او يتجاوز الخامسة والعشرين احيانا اخرى . اما العمر الوسطي للبدء في التدريب فيتراوح عادة بين الخامسة عشر والعشرين . يأتي المتدرب هذا من مهن مختلفة جدا : فهو في باريس ابن بورجوازي أو صيدلي أو وكيل محكمة او قوّاص (مرافق) في أحد القصور الصغيرة ، او تاجر خمور او مصلح اقفال أو اسكافي أو تاجر اخشاب أو حائك ؛ الا انه كان غالبا أيضا ابن عامل طباعة ؛ وفي أغلب الاحيان ، كان يأتي من خارج العاصمة وحتى من الريف . كذلك كان عليه مبدئيا أن يعرف القراءة والكتابة وان يلمّ باللاتينية واحيانا باليونانية . ولكن هذه المعارف الضرورية للمنضد لم تكن حتمية للطبّاع (pressier) كما كان أرباب العمل يقبلون غالبا متمرنين شبه أميين يصبحون في المستقبل عمالا اقل تشددا وتصلبا .

كانت شروط التدرب تحدد عادة بموجب عقد خطي أمام كاتب عدل بين أرباب العمل وأولياء الامور (الاهل) مع موافقة المتدرب وتوقيعه . اما مدة التدرب فتتراوح بين ٢ ــ ٥ سنوات ، يتعهد خلالها رب العمل

بتعليم المتدرب المهنة وايوائه واطعامه واكسائه واعطائه مصروف الجيب اللازم . كما يلتزم المتدرب من جهته باطاعة رب عمله وعدم مغادرة منزله، وبخدمته باخلاص ووفاء .

يعيش المتدرب خلال فترة التمرن حياة قاسية جدا : حيث يسكن في كوخ حقير ملحق بالمشغل ، أو في المشغل نفسه احيانا ، كما يكون خادما للعمال الذين لا يتصفون غالبا بلين العريكة وسهولة المعشر ؛ ينهض من نومه قبل وصولهم ليعدّ المشغل وينظفه ويخدمهم على موائد الطعام وبشعل النار في الشتاء ؛ انه يكلّف عادة بأسهل الاعمال ولكن اكثرها استهجانا : فهو الذي يحضّر الحبر أو يبلل الاوراق قبل الطباعة كما يلحق خاصة وفي معظم الاحيان بالعمل على الآلة الطابعة ، وهو عمل ابسط ولكنه منهك . اما اذا كان عليه أن يصبح منضّدا ، فيتدرب عندئذ ، في نهاية فترة التمرن ، على اعمال التنضيد بجانب احد العمال . واما اسعد اللحظات بالنسبة للمتدرب ، فهي في الحقيقة تلك التي يرسل فيها لبعض الاغراض في الخارج ، كحمل رزمة من الملازم التجريبية أو ما اشبه ذلك . في المساء ، عندما ينصرف العمال ، عليه أن يعيد ترتيب المشغل واعادة كل شيء الى مكانه قبل ان يخلد للراحة . اضف الى ذلك ان العمال كانوا ينظرون اليه غالبا بمنظار سيء جدا ، لان ارباب العمل يعمدون ، توخيا للحصول على ايد عاملة شبه مجانية ، الى الاكثار دائما من عدد المتدربين حتى يختصروا أكبر عدد ممكن من العمال .

عند انتهاء فترة التمرين ، يحصل المتدرب على شهادته ويصبح عاملا . ولما كان لا يزال فتيا وحرا واعزب (لان الزواج محظور عليه خلال مرحلة التمرين) ، فانه يسافر لعدة سنوات . وبينما كان الفلمنديون او الالمان يجوبون انحاء بلدهم ولا يترددون في السفر الى الخارج ، وخاصة الى باريس ، كان الفرنسيون يقومون بجولة داخل فرنسا فقط . كانت هذه الرحلات طويلة ينتقلون خلالها من مدينة الى أخرى ، فيضعون خدماتهم تحت تصرف رجال الطباعة المحليين ، وتطول اقامتهم هنا أو تقصر هناك حسب توفر العمل والصداقات التي يعقدونها . وهكذا

يستطيع هؤلاء العمال ، خــلال هذه الرحلات ، أن يحسنــوا تقنيتهم ويتعلموا استعمالات مختلف المطابع ، كما يقيمون علاقات تفيدهم اذا اصبحوا أرباب عمل في المستقبل . وعندما يتزوج أحدهم ، فانه يفضل ابنة أحد أرباب العمل ، حيث يستطيع الاستقرار مؤقتا بانتظار الفرصة السانحة والظروف الملائمة لافتتاح مشغل خاص به .

الا أن العامل كان يعود في معظم الاحيان ، وبمجرد انتهاء رحلته الى مدينته ليخدم عند أحد أرباب العمل ، حيث يأخذ مكانه في سلّم التسلسل المهني . فاذا كان على درجة كافية من الكفاءة ، يمكنه أن يصبح ناظــر مطبعة ، فيلعب تجاه العمال الآخرين نفس الدور الذي يلعبه حاليا رئيس العمال : فهو الذي يدير عمل المنضّدين والطبّاعين ويراقبهم ؛ وهــو المسؤول عن تصحيح التجارب المطبعية الاولى ؛ لذلك عليه أن يتقن الاملاء ويعرف اللغة اللاتينية ؛ وهو أخيرا ، الذي يدفع رواتب العمال ويشرف على نظافة المشغل .

يساعد ناظر المطبعة « العرفاء » الشهريون الذين يرتبون العتــاد ويقومون بالاعمال الدقيقة الحساسة ولا يتحملون الاجرة على القطعة . بعد هؤلاء يأتي « العمال الملتزمون » الذين ينقسمون الى فئتين متميزتين: المنضدون الذين يقومون بصف الحروف وتركيب الصفحات وتحضيــر القوالب ، ثم الطباعون المكلفون بعملية الطباعة نفسها . لذلك كان على المنضدين أن يحيطوا بشيء من الثقافة ، بينما لم يكن يطلب من الطباعين بالمقابل سوى العناية والذوق والقوة ، لان تحريك رافعة الآلة الطابعــة يعتبر من الاعمال المضنية . يوزع العمال عادة الى زمر صغيرة تقوم كل منها بتشغيل آلة طابعة . منذ القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر ، ظلت الزمرة هذه تتألف من أربعة أو خمسة عمال : ١ ــ ٢ منضدين، طباعين اثنين ، ومتمرن واحد لقضاء الحاجيات وتنفيذ الاعمال الصغيرة التافهة . لا بد لنا أخيرا ، لاكمال وصف العمال هذا ، من ذكر المصحح (المنقح) الذي لا يكون من العمال في أغلب الاحيان ، بل طالبا أو رجــلا مثقفا أو كاتبا : مثل « بياتوس ريناتوس » و « ميلانشتون » في القــرن

السادس عشر ، أو « تريشيه دي فريسن » في القرن السابع عشر . الا ان تصحيح التجارب الطباعية كان يؤمن عادة ، ما عدا المطابع البالغة الاهمية ، من قبل أرباب العمل انفسهم ، أو بواسطة احد أفراد العائلة ؛ وقد كان هذا هو احد الواجبات الاساسية لرجال من أمثال آلد ، جوس باد ، سيمون دي كولين ، روبير ايستيان وفيتريه .

ولكن لا يجوز أن ننخدع بهذا الوصف النظري لنشاط كل عامل في المطبعة : حيث يحق لنا أن نتساءل عما اذا كان تقسيم العمل هذا محترما ومتبعا في معظم المطابع . لا شك أنه كان لكل عامل وظيفته المحددة لدى كبار الطابعين ـ الناشرين من امثال كوبرجر ، فروبن ، بلانتين وبلو ، أو لدى المطبعة الملكية في باريس ، حيث كان يعمل أحيانا أكثر من خمسين عاملا على عشر آلات طابعة . كذلك كان الامر بالنسبة لارباب الطباعة النشيطين والمتقنين لاعمالهم مثل آل ايستيين الذين كانوا يمتلكون أربعة آلاف طابعة ، أو آل فيتريه ايضا . الا انه يجب الا يغرب عن بالنا ان الطباعة قد ظلت صناعة حرفية ؛ ففي مدينة جنيف عام ١٥٧٠ ، لم يكن هناك سوى ثلاثة مطابع من أصل عشرين ، تحتوي على اربعة آلاف طابعة ، وخمسة تحتوي على آلتين ، بينما لا توجد في الباقي غير آلة واحدة فقط . اما في القرن السابع عشر في فرنسا ، فكانت المطابع الغالبة هي التي تحتوي على آلة أو اثنتين كما أسلفنا ؛ وكذلك كان الوضع في لندن . لم يكن أرباب العمل يملكون آنذاك الوسائل الكافية للانفاق بصورة منتظمة على عدد كبير من العمال ، خاصة وأن الطلبات لم تكن كافية في معظم الاحيان . لذلك لم يكن رب العمل يحتفظ لديه عادة الا بعامل أو اثنين ؛ اما عند ورود طلب عاجل ، فكان يساعده زوجته وأولاده . في هذه الشروط ، يمكننا الافتراض بأن المنضدين كانوا يقومون غالبا بأنفسهم بتحريك ذراع (رافعة) الآلة الطابعة .

كان العمال يعيشون حياة قاسية جدا في المطابع الكبرى . كما ان يوم العمل هنا اطول منه في العديد من المهن الاخرى ؛ ففي جنيف ، كان يوم العمل يحدد بـ ١٢ ساعة عند نهاية القرن السادس عشر : من الساعة الخامسة صباحا حتى السابعة مساء ، تذهب منها ساعتان لتناول طعام

الغداء . وفي مدينة انفرس ، لدى آل بلانتين ــ موريتوس ، يصل العمال بين الخامسة والسادسة صباحا ، ولكنهم يستطيعون العودة الى منازلهم لتناول طعام الغداء بين الساعة الثانية عشر والواحدة ظهرا ، كما يعملون عادة حتى الثامنة مساء. اما في مدينة ليون، فكان العمال يعملون خلال القرن السادس عشر من الساعة الخامسة صباحا حتى الثامنة مساء ولا تترك لهم سوى ساعة واحدة لتناول طعام الغداء ؛ وقد كانوا يضطرون في كثير من الاحيان ، لانجاز العمل المطلوب ، ان يصلوا في الساعة الثانية والنصف صباحا ولا ينصرفون الا حوالي الساعة التاسعة مساءا . وأما في باريس ، عام ١٦٥٠ ، فكان العمل يبدأ عند الساعة الخامسة صباحا وينتهي في الثامنة مساء : حيث كان الوقت ثقيلا ، والعمل مضنيا على ضوء الشموع ، في اقبية تقع ضمن ازقة ضيقة ، لا تكاد تدخلها الشمس حتى عند الظهيرة .

كان يطلب من العمال طوال هذا الوقت ، مردود كبير . واذا كنا نفتقر تماما الى الشواهد والمعلومات الثابتة عن حجم العمل المطلوب من المنضّدين ، والذي كان يتغير حسب صعوبات المؤلفات (حيث اقترح ارباب العمل الطباعي في فرانكفورت عام ١٥٦٣ مثلا ، ان ينجز المنضّدون من ١ ــ ٣ قوالب في اليوم وفقا للحروف المستخدمة وطبيعة العمل) ، الا أن لدينا بالمقابل ، المعلومات الكافية فيما يتعلق بالطباعين : الذين كان عليهم ، في نهاية القرن السادس عشر ، أن يسحبوا يوميا / ٣٣٥٠ / ورقة في مدينة ليون و / ٢٦٥٠ / ورقة في باريس . وخلال هذه الفترة نفسها ، طالب ارباب الطباعة في فرانكفورت ان يسحب الطباعون من ٣٠٥٠ ــ ٣٣٧٥ ورقة حسب صعوبة العمل . في مطلع القرن السابع عشر ، كان على الطباعين الهولنديين أن يسحبوا / ٤٠٠٠ / ورقة حسب شهادة « مونتشر ستيان » ، الذي يقول بأن السحب في باريس خلال الفترة نفسها بلغ / ٢٥٠٠ / ورقة ؛ وفي منتصف القرن السابع عشر ، ارتفع الرقم في باريس الى / ٢٧٠٠ / ورقة للطبعات المنفذة بالاسود والاحمر .

انها ارقام هائلة ولا شك . فاذا اخذنا الرقم / ٢٥٠٠ / مثلا ، واعتبرنا أن يوم العمل يعادل اربعة عشر رجلا ، وجدنا أنه كان يجب طباعة / ١٧٨ / ورقة في الساعة ، اي حوالي ورقة كل عشرين ثانية ! ...

على الرغم من هذا العبء الكبير ، يبدو أن أجور عمال الطباعة لم تكن تزيد كثيرا على اجور سائر العمال . من المؤكد ، وفقا لبلاغ ملكي صدر في العاشر من أيلول ١٥٧٢ ، أن على المنضدين الباريسيين أن يتلقوا ١٨ ليرة تورية في الشهر ، اي ١٢ فلسا في اليوم ، بينما كانت أجور عمال البناء لا تتجاوز عشرة ليرات تورية شهريا ؛ ولكن في عام ١٥٣٩ ، كان ارباب العمل في مدينة ليون يدفعون للمنضدين ٦ فلسات و ٦ دراهم في اليوم ، وهي أجرة تكاد لا تزيد في شيء على أجور العديد من العمال الآخرين ، علما بان عمال الطباعة الفرنسيين ظلوا يتقاضون افضل الاجور في أوروبا كلها . في مدينة (أنفرس) ، كان المنضدون يتقاضون اجرة تقل عما يتقاضاه العامل المكلف باصلاح السقوف . وفي مدينة جنيف ، كان سكاب الحروف (بيير بوزون) يتقاضى من ٨ — ١٠ فلسات يوميا ، بينما كان أجر عامل البناء البسيط ستة فلسات عام ١٥٧٠ . ومن الغريب حقا ، أن بعض المنضدين كانوا يتقاضون اجورا اقل من الطباعين : ففي عام ١٦٤٥ بمدينة باريس ، كان اجر المنضد العادي يتراوح بين ٢٤ — ٢٧ ليرة شهريا ، بينما كان الطبّاع يأخذ ٣٣ ليرة — أي نفس المبلغ المدفوع للمنضد بالحروف اليونانية . ولكن من المؤكد أنه كانت تضاف على هذه الاجور عدة تعويضات (علاوات) : فقد كان العمال ينتهزون كافة الفرص لمطالبة ارباب عملهم بالمنح الاضافية ، كما كانوا يتقاسمون الاكراميات التي يوزعها عليهم المؤلفون ؛ كذلك كان على ارباب العمل أن يقدموا لهم غالبا المشروب والغذاء . الا أن هذا لا يمنع من القول بأن اجور عمال الطباعة لم تكن لتزيد كثيرا عن أجور الكثيرين من العمال الآخرين الاقل تخصصا وثقافة .

الا أن عمال الطباعة ، كجميع العمال الآخرين في تلك الفترة ، لم يكونوا آمنين على غدهم ولا ضامنين لمستقبلهم . صحيح أن المنضد الجيد

لا يعدم الوسيلة لايجاد عمل ثابت في مشغل كبير ، ولكنه كان عرضة للطرد دون سابق انذار ، وخاصة في الازمات أو لمجرد انخفاض حجم العمل . عندئذ يصبح العمال عرضة للبطالة ثم التسول . ففي المطابع المخصصة لطباعة المذكرات الدفاعية والدعاوى القضائية ، كانت العطل القضائية تؤدي الى بطالة موسمية حقيقية . لذلك لا نستغرب اذا وجدنا عمال الطباعة فقراء : يعيشون مع عائلاتهم في غرفة واحدة ، لا يملكون من حطام الدنيا سوى بعض الاسمال البالية والاثاث الذي لا بد منه . لذلك لا نستغرب أيضا ، عندما نجدهم يلجؤون الى مختلف الوسائل والحيل لزيادة اجورهم أو للعيش عندما تجرفهم البطالة : فيسرق بعضهم نسخا من كل ورقة يطبعونها ، حتى يحصلون على مجلدات يبيعونها عند الضرورة ؛ بينما يعمد البعض الآخر بواسطة نسائهم الى المتاجرة غير المشروعة بالكتب الممنوعة والمؤلفات المستعملة .

*

* *

على الرغم من كل ذلك نجد عمال الطباعة فخورين بمهنتهم ومعارفهم، وكأنهم يشكلون طبقة حقيقية . كذلك كانوا يحملون السيف ليظهروا انهم لا يمارسون مهنة «ميكانيكية» . كما كانوا يحبون المشاجرة والمماحكة، لهم نبرة عالية ، يلجؤون دائما الى السباب والشتائم واحيانا الى الشجار والعراك ، حتى انه اصطلح في كل مطبعة على غرامات لمعاقبة كل من يشتم او يهين احد رفاقه . أما لدى آل « بلانتين ــ موريتوس » مثلا ، فقد احتفظوا ضمن انظمة مطابعهم بتعرفة محددة لكل اهانة أو شتيمة . وفي باريس ، نجد غالبا في العقود المسجلة أن المهان قد أسقط دعواه لقاء مبلغ محدد من المال بالتراضي بين الاطراف .

كان العمال شديدي المراس ، حريصين على حريتهم ؛ لذلك لم يطيقوا هذا النظام الصارم في المشغل ، خاصة وان العمل على الآلة الطابعة هو عمل جماعي ، قد يؤدي غياب شخص واحد الى توقف عمل الآخرين . وهذا ما كان يدفعهم دائما الى الاحتجاج على منعهم من تناول طعامهم

خارج المطبعة ، او في الساعات التي تناسبهم . كذلك كانوا اكولين يحبون الشراب بشكل خاص ، فيرسلون المتدربين المبتدئين باستمرار لجلب الطعام والشراب من الخارج . وهكذا كان من الصعب جدا في هذه الشروط الحفاظ على النظام والانضباط . لذلك كثيرا ما كان العمال يطالبون بحق العمل عندما يحلو لهم وان يحصلوا على يوم عطلة اذا رغبوا بذلك . أما عشية الاعياد ، فهم يريدون التوقف عن العمل بصورة مبكرة ، على أن يعودوا لانهاء العمل في اليوم التالي . وفي حال تغيبهم وسؤالهم من قبل رب العمل عن الاسباب ، كانوا يردون عليه بالسخرية او الاجوبة اللاذعة.

ان الساعات الطويلة التي يمضيها العمال معا ، وطبيعة العمل الجماعي الذي يؤدونه ، والصعوبات المشتركة التي تعترضهم ، ووجبات الطعام التي يتناولونها مجتمعين ، كل ذلك ادى بالضرورة الى توحيدهم وقيامهم بتشكيل الجمعيات الاخوية في المشاغل الطباعية الكبرى كمطبعة (بلانتين)، وخاصة بين عمال المدينة الواحدة . كما كانوا يقومون في كل مكان تقريبا بانتخاب مكتب خاص ، ويؤسسون صندوقا مشتركا ، ويفرضون الرسوم على المبتدئين والعمال الجدد فور وصولهم ، ويحددون غرامات معينة للشتائم او الاعمال المنفذة بشكل سيء . وبفضل هذه المبالغ المجموعة ، كانوا يقومون باحتفالات القداس ويقيمون المآدب ، ويقدمون العون لاحد الرفاق المنكوبين او لارملة بائسة . الا ان ارباب العمل لم يكونوا يرتاحون لهذه الجمعيات التي تمكن العمال من الاجتماع من اجل المطالبة بتحسين اوضاعهم او الاعداد للاضرابات عند الحاجة . اذا كان آل (بلانتين – موريتوس) يقبلون بتشكيل هذه الجمعيات في مطابعهم ويقدمون التبرعات الى صندوقها ، ويعترفون برئيسها كممثل للعمال ، فان الاغلبية الساحقة من ارباب العمل ظلت تكافح دون هوادة ضد هذه الجمعيات التي تجمع عادة عمال مختلف المطابع ، كما تسعى جاهدة لتحريمها من قبل السلطات: الا ان هذا التحريم ، رغم تكراره مرات عديدة ، ظل دون جدوى ، لان الجمعيات العمالية التي يتم حلها رسميا ، لا تلبث أن تتشكل من جديد بصورة سرية الى حد ما ، ثم تستأنف الصراع والنضال .

تبيّن لنا اعمال (هوزر) كيف ثار عمال الطباعة في ليون ثم في باريس، بين عامي ١٥٣٩ ــ ١٥٤٢ ، مما ادى الى توقف شبه كلي لجميع المطابع : اما أسباب هذه الاضرابات ، فتعزى الى استياء العمال من انخفاض القيمة الشرائية لاجورهم من جرّاء ارتفاع الاسعار ، بينما كان أرباب العمل يحاولون دائما ، لتخفيض سعر الكتاب ، الحصول على مردود أكبر مع التوفير على حساب غذائهم ومضاعفة عدد المتدربين المبتدئين . لذلك كان لا بد من تدخل بلدية ليون والبرلمان الباريسي ثم السلطة الملكية لاعادة الامن والنظام . الا أن الازمة ما لبثت أن عادت للظهور بين عامي ١٥٧١ ــ ١٥٧٢ ، مما اضطر ارباب العمل أخيرا لمنح العمال بعض التنازلات ، حيث لم يعد يحق لهم من الآن فصاعدا أن يقبلوا في مطابعهم اكثر من متدربين اثنين . (بلاغ ملكي صدر في العاشر من ايلول سنة ١٥٧٢وسجل في ١٧ نيسان ١٥٧٣) .

ارتدت هذه الحركات الاجتماعية اهمية واتساعا كبيرين في كل من ليون وباريس في القرن السادس عشر بشكل خاص ، لان هذين كانـا مركزين كبيرين للطباعة والنشر ، حيث يعمل أكثر من الف عامل جنبا الى جنب . الا أن هذه الحركات لم تكن حالات خاصة منعزلة ؛ فقد أدى ارتفاع الاسعار والازمة الاقتصادية آنذاك ، في جميع انحاء أوروبا ، الى نشوء صراعات بين ارباب العمل والعمال خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر : فخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٥٦٩ ــ ١٥٧٢ مثلا ، قام عمال (بلانتين) بالاضراب ثلاث مرات ؛ وفي عام ١٥٩٧ ، طلب (جاهان لوور) ، أحد كبار أرباب الطباعة في فرانكفورت ، من عماله جلب الماء من البئر ، فقرروا الاضراب قائلين بأن هذا ليس من واجبهم ولا يدخل في متطلبات مهنتهم ؛ انتهت هذه الحادثة التافهة في ظاهرها الى اقامة دعوى في المحكمة ، حيث رفضت دعوى كل من الطرفين ، فلم يوافق لرب العمل (لوور) على الثمانين « غولدن » التي طالب بها كتعويض عن الخسائر والفوائد نتيجة توقف العمل ، كما لم توافق المحكمة للعمال على تقاضي اجورهم خلال فترة الاضراب . وهكذا كانت الدولة مضطرة للتدخل في

كل مكان تقريبا ، لحل الخلافات المماثلة بين العمال وارباب العمل . ففي جنيف مثلا ، حيث كان معظم ارباب العمل من الفرنسيين اللاجئين يحرصون على تجنب مثل هذه الاضطرابات الاجتماعية التي من شأنها عرقلة ازدهار الطباعة في هذا البلد الذي يستفيد من انحدار الطباعة والنشر في مدينة ليون ؛ لذلك صدرت مجموعة من الانظمة عام ١٥٦٠ ، تتناقض في روحها العادلة المنصفة مع قسوة بعض القرارات الملكيةالصادرة في فرنسا خلال الفترة نفسها : فقد حظّر على ارباب العمل أن يستخدموا اكثر من متدرب واحد على كل آلة طابعة ؛ كذلك لم يعد يحق لرب العمل والعامل ان ينفصلا دون سابق انذار وبدون عذر مقبول ؛ كما حدّدت بعناية مسؤوليات كل طرف في حالة افساد العمل او اضاعة المؤلف .

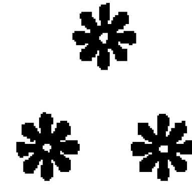
لا شك في ان هذه النصوص جميعها تتميز بالاعتدال والروحالانسانية، فتحمي المتدربين والعمال بشكل ظاهر ، مع المحافظة على حقوق ارباب العمل في الوقت نفسه . الا ان السلطة لم تتمكن مع ذلك من الحيلولة نهائيا دون وقوع خلافات شتى بين ارباب العمل والعمال . فهنا أيضا ، كما في فرنسا ، كان عمال الطباعة يحبون الحصول على ايام استراحة اضافية علاوة على ايام الآحاد والاعياد . وفي عام ١٥٦١ ، نشبت خلافات بسبب اعطاء العمال عطلة اضافية يوم الاربعاء في بعض المطابع دون سواها؛ واخيرا ، ووفق على عطلة الاربعاء للجميع كل خمسة عشر يوما ، بعد اجتماعات عقدتها لجان خاصة للتحكيم ، لم يتورع بعض العمال خلالها عن توجيه الشتائم الى ارباب عملهم . أما في فرانكفورت ، فقد تقدم أرباب العمل ، في ٢٢ نيسان ١٥٦٣ ، بعريضة يطالبون فيها مجلس المدينة بوضع نظام خاص للمطابع تحدد فيه الواجبات اليومية للمنضّدين والطباعين ، كما تحدد ايام العطل على النحو التالي : يوم في عيد الميلاد ، يوم في رأس السنة ، يوم في ثلاثاء المرفع ، يوم بمناسبة عيد صعود المسيح ، ويوم اضافي ، مثل مدينة جنيف ، كل اسبوعين . وقد صدر على أثر هذه العريضة (الالتماس) ، أول نظام قانوني عام ١٥٧٣ ، سوف يكمّل ويعدّل كثيرا فيما بعد .

الا ان هذه الحركات لم تقتصر على القرن السادس عشر فقط ، بل تعدّته الى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حيث ظل العمال الفرنسيون يصرون على مطاليبهم ويوحدون كلمتهم من اجل تحقيقها ، على الرغم من الانظمة التعاونية والدعم الذي كانت الدولة تقدمه لارباب العمل بشكل مكشوف . وقد ظلت هذه المطالب على وضعها دون تغيير تقريبا : المطالبة بزيادة الاجور عند ارتفاع الاسعار والمطالبة بتخفيض مدة العمل ومعدلات الانتاج . ففي القرن السابع عشر ، حيث كان العمل المطلوب من الآلات الطابعة قليلا في اغلب الاحيان ، وحتى خلال القرن الثامن عشر أيضا ، كانوا يسعون جاهدين لطرد العمال الغرباء عن مدينتهم ، والذين كانوا يتقاضون أجورا أقل بسبب تجوالهم وبحثهم عن العمل . لذلك طالب عمال الطباعة الباريسيون ، عام ١٧٠٢ ، بعدم بقاء زملائهم من الفلاندر او المانيا أكثر من ثلاثة أشهر في باريس ، وهي الفترة الكافية بنظرهم لزيارة العاصمة . كما كانوا يعمدون ، دفاعا عن مصالحهم ، الى مكافحة الجهود المستمرة التي يبذلها ارباب العمل في بعض المطابع الكبرى لزيادة عدد المتدربين المبتدئين ، حتى أصبحوا يطالبون بأن يكون هؤلاء ملمين باللاتينية واليونانية ، وان يبقى عددهم محدودا وفق ما نصت عليه الانظمة السارية . اما أرباب العمل ، فكانوا يعمدون بدورهم ، لمجابهة العمال الباريسيين واختصار نفقاتهم ، الى استخدام المستخدمين « الاجراء » . وهكذا ظهرت تدريجيا ، وعلى الرغم من شكاوي العمال واحتجاجاتهم ، فئة جديدة من العمال : وهم « الاجراء » الذين أصبح وجودهم معترفا به رسميا بموجب أنظمة القرن الثامن عشر . الا ان العمال استطاعوا ، خلال نضالهم المستمر ، الحصول على بعض الامتيازات : ففي القرن الثامن عشر مثلا ، لم يعد يسمح بفصلهم عن العمل الا بعد مهلة شهر على الاقل . ولكن شروط عملهم ومعيشتهم تظل تبدو قاسية جدا بالنسبة لنا نحن أبناء القرن العشرين ، رغم أنها أصبحت أفضل مما كانت عليه آنذاك بالنسبة لمعظم زملائهم من أصحاب المهن الاخرى . وقد بلغت هذه القسوة مرحلة أصبح من المستحيل عليهم ، اعتبارا من عام ١٦٦٦ (وهو التاريخ الذي حدد فيه « كولبير » عدد المطابع في مختلف المدن الفرنسية)،

ان يطمحوا عمليا في ان يصبحوا ارباب عمل الا اذا اتيح لهم الزواج من ارملة رب عمل متوف" .

٢ ـ ارباب العمـل

بعد ان تحدثنا عن العمال ، ياتي الآن دور ارباب العمل ، أصحاب مطبعات واصحاب مكتبات ، الذين سندرس أوضاعهم المسلكية والمعيشية في آن واحد ، لان غالبيتهم العظمى تمارس المهنتين معا : لا شك في أن الكثيرين من الكتبيين ، وخاصة صغارهم ، الذين يبيعون الكتب ولا ينشرونها الا في حالات نادرة جدا ، لا يملكون مطبعة خاصة بهم ؛ الا أن معظم أصحاب المطابع يديرون مكتبة ويستثمرون الارباح التي يحققونها عن طريق الطلبات التي توجه اليهم ، في اصدار الكتب التي ينشرونها على نفقتهم الخاصة ، أو شراكة مع آخرين ، كما كان يفعل (جوس باد) على سبيل المثال . أما اذا كان بعض الناشرين الراسماليين الذين يسيطرون على سوق الكتاب ، من امثال (كراموازي) أو (جيونتا) ، لا يملكون مطبعة خاصة بهم ، فان كثيرين غيرهم ، مثل (كوبرجر) أو (بلانتين) ، كانوا يملكون كما رأينا مطبعتهم الخاصة التي يطبع فيها على الاقل قسم من الكتب التي يموّلون نشرها .



لندرس اولا النشاط المهني لهؤلاء الرجال ، وبالدرجة الاولى صاحب المطبعة في مشغله .

ان الحالة الاكثر شيوعا هي رجل الطباعة الصغير الذي لا يملك سوى آلة أو آلتين ، كالكثيرين في اوروبا كلها من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر . كان هؤلاء الحرفيون يعيشون في أغلب الاحيان وبصورة اساسية على « اعمال المدينة » : كالاخطارات والاعلانات والنشرات التمهيدية بكافة انواعها ، بالاضافة الى طباعة كتب الابجدية أو أوراق الصفوف للمعاهد المجاورة ؛ كما كان بعض أصحاب المكتبات يوصونهم احيانا على كتب صغيرة سهلة الطباعة مخصصة لفئة بسيطة من الزبائن .

اما أرباب العمل الذين يديرون مثل هذه المطابع فكانوا غالبا ، خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر ، من العمال القدماء الذين نجحوا واستقروا ؛ لذلك فهم يعملون وحدهم ، لا يساعدهم احد غير ابنائهم أو حتى زوجاتهم أو بناتهم . وعند توفر توصية أو طلب مستعجل ، فانهم يلجؤون الى عمال عابرين . وفي بعض الاحيان ، نجدهم يحتفظون لديهم ، وبصورة دائمة ، بعامل واحد موثوق يشاطر الاسرة حياتها وكأنه احد افـرادها .

اذا كان احد هؤلاء الرجال على درجة كافية من المهارة في مهنته ، واذا كان لديه العدد الكافي من الحروف الطباعية ، عندئذ قد ينتبه اليه احد الناشرين فيعتاد على تزويده بالتوصيات (الطلبات) المنتظمة ؛ وهنا يصبح مشغله بحاجة الى عدد اكبر من العمال : حيث رأينا سابقا ان الحدّ الادنى لتشغيل آلة طابعة بأقصى مردودها ، هو خمسة اشخاص. من الآن فصاعدا ، يبدو صاحب المطبعة وكأنه مدير مؤسسة هامة . لقد طبع معظم الكتب التي نشرت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، في مطابع من هذا النوع ، التي تحتوي على ٢ ــ ٣ آلات طابعة ، وحيث يعمل بصورة منتظمة ما يقرب من عشرة عمال ومتدربين .

يجب على مدير مثل هذه المؤسسة ان يبرهن عن نشاط فعال واتقان جيد للمهنة : لان استياء الناشر من العمل المنجز قد يؤدي الى زعزعة ثقته بهذه المؤسسة وعدم التعامل معها . ولما كانت الاجرة تعطى عـادة على الورقة ، فان رب العمل يسعى دائما لتخفيض سعر الكلفة الطباعية طالبا من عماله مردودا متزايدا . لذلك عليه أن يعطي المثال الجيد والقدوة الحسنة : فينهض مبكرا ، ويصل الى المشغل قبل العمال أحيانا ، كما يراقب العمل ويوجه العمال ويساعدهم في الاعمال الصعبة ؛ وعليه ايضا أن يشرف على تصحيح النصوص بنفسه ، مكتفيا بمساعدة أفراد أسرته. على رب العمل اذن ان يكون عامل طباعة جيدا يتقن اللغة اللاتينية . وهو في أغلب الاحيان ابن رب عمل أيضا ، تابع دراسته حتى سن الخامسة

عشر أو السادسة عشر قبل ان يعمل في مشغل والده أو عند أحد الاصدقاء، حتى يتعود على مختلف أعمال الطباعة والتنضيد .

وهكذا نجد ان رب العمل كان غارقا في العمل حتى اذنيه ، بين اقامة علاقات مع أصحاب الطلبات والتوصيات ، وبحث دائم عن العمل حتى لا تتوقف الآلات الطابعة ، وتوزيع منتظم للاعمال ، ومراقبة مستمرة لانتاج العمال ، بالاضافة الى ما يستفرقه تصحيح النصوص والطبعات الاختبارية التي لا بد من تسليمها في اوقاتها المحددة ضمانا لاستمرار عمليات السحب . علاوة على كل ذلك ، كان رب العمل هذا يقوم عادة بادارة مكتبة قرب مشغله . اما اذا استطاع ان يحقق أرباحا كافية ، ويجمع ما يلزمه من رؤوس الاموال ، فانه يصبح عندئذ ناشرا أيضا ، قد يعمل شراكة مع أحد أصحاب المكتبات الذي يتقاسم معه احتمالات الخسارة والربح ، ويتكفل بتصريف جزء من الانتاج . بهذا الاسلوب ، استطاع صاحب المطبعة ان يصبح ناشرا كبيرا في بعض الاحيان .

*
* *

أما مهنة التاجر الكتبي ، فلا تقل تعقيدا عن مهنة صاحب المطبعة . فهو أيضا ناشر الى حد ما ، يستثمر رؤوس أمواله في اصدار الكتب . ويمكن تلخيص مظاهر مهنته ونشاطه بالآتي : انتقاء النصوص الواجب نشرها ، اقامة علاقات مع المؤلفين (اذا كان يصدر كتبا جديدة) ، تأمين الورق اللازم (لانه هو المسؤول عن ذلك وليس صاحب المطبعة) ، انتقاء رجل الطباعة الجيد ومراقبة عمله . . . الا أن واجبه الاساسي هو تصريف المطبوعات التي يصدرها والسهر على أن تظل مكتبته مزدانة بكل ما يسعى اليه الزبائن من مؤلفات . لذلك عليه أن يقيم علاقات واسعة ، وأن تكون له شبكة من المخاطبين والعملاء ، وأن يمسك محاسبة معقدة ، ويعرف جيدا طبيعة الكتب التي تعرض عليه بما يتناسب مع أذواق زبائنه . كل هذا يتطلب منه ان يكون كاتب رسائل (مراسل) لا يعرف الكلل ؛ فلا يمضي يوم الا ويكتب فيه عشرات الرسائل ، ولا يساعده في انجاز هذه

الاعمال المتعددة ، حتى لو كان ناشرا هاما ، الا مستخدم او اثنان ينحصر عملهما الاساسي في تحضير رزم الكتب الواجب ارسالها والتحقق من محتوى التي تصل الى المكتبة ، وهو عمل حساس في زمن ترسل فيه الكتب عادة بشكل أوراق .

قد لا تكفي الرسائل في اغلب الاحيان للاتفاق مع المخاطبين على القضايا الحساسة والتفاصيل ، مما يضطر التاجر الكتبي للسفر بنفسه . وقد يحدث في احيان كثيرة ، وخاصة في المؤسسات الكبرى ، أن توكل مهمة السفر هذه الى احد الشركاء أو الاقارب او المستخدمين . ففي هذه الفترة التي ترتدي فيها المؤسسات طابعا عائليا بالدرجة الاولى ، كثيرا ما يعهد الكتبي ، الذي قام برحلات عديدة في صباه ، الى خلفه المحتمل (ابنه أو أخيه أو ابن أخيه) ، بمهمة الذهاب عوضا عنه الى المعارض الكبرى أو لزيارة المخاطبين والعملاء . هنا يظل هذا المنتدب يجوب أنحاء أوروبا بصورة مستمرة .

وهذه هي ، على سبيل المثال ، رسالة أرسلها (لوران أنيسون) ، الناشر الليوني الكبير في القرن السابع عشر ، عام ١٦٧١ ، الى أحداولاده يعطيه فيها تعليماته ويذكره بواجباته كتاجر خلال رحلة الى المانيا والفلاندر . فليسمح لي بذكر هذه الوثيقة كاملة :

ليون في ٢٨ تشرين الثاني ١٦٧٠

اي بني :

لو لم استلم احدى رسائلك المكتوبة في (امستردام) ، لاعتقدت بانك قمت بوثبة واحدة من (فرانكفورت) الى (انفرس) . لقد مررت بمدينة (كولونيا) دون ان تقابل احدا فيها ، مع أنها تعتبر اغنى المدن على طريقك بالكتب المباعة بالمقايضة وسواها . ذكرت في رسالتك الآنفة الذكر من امستردام ، وبمنتهى الاستخفاف ، انك سترسل الي طردا سوف ينقل بعد خمسة عشر يوما ، دون ان تعلمني شيئا عن محتوياته او عما فعلته مع (فاسبرغ) وغيره من أصحاب المكتبات ، سواء في امستردام او سواها من الاماكن التي

مررت بها . كذلك كتبت لي رسالة من (انفرس) في السابع عشر من الشهر الجاري ، وجدتها مشوشة ، كان تعابيرها صادرة عن رجل فاجر فاسق وليس عن انسان مؤمن . ولم اجد فيها شيئا جوهريا ، سوى انك كتبت الى السيد (كونغ) من مدينة (بال) ، تحتج عليه لعدم التزامه بالمقايضة التي اجريتها مع ابنه . لقد كان عليك ان تحتاط للامر بشكل لا يستطيع معه التملص او النكوص . هناك فرق بين ملاحقة السيد (شينون) قضائيا او محاولة الحصول منه على شيء ما بطريقة حبيّة .

اما فيما يتعلق بالسيد (مورسيوس) ، فانك تقول بانه لم يعد لديه (Cornelius) ولكنك ستجمله يجده ، وانك لا تستطيع ان تتقايض معه الا بعد اعطائه مهلة لا اوافق عليها مطلقا . منذ زمن طويل ادركنا أن اسعار الفلمنديين والهولنديين لا تناسبنا لانها ظلت على ما كانت عليه ولم تساير الاسعار الجديدة عندنا . من الذي نصحك أن تعمل على هواك مع (كورناي هاكيوس) طالما انك غادرت المنطقة . لقد كان عليك ان تستعلم وتتحقق لمن سلّم الطرد الذي زعم انه ارسله الي ، ولمن ارسله في فرنسا ، علما بأن الطرد المذكور يجب انيتضمن ثلاثة (مفكرات) بسعر ٢٢،١٠ فرشا لكلقطعة ، بالاضافة الى (Gasseud) بسعر ٥٠ فرشا والتي تعادل الآن اكثر من ذلك بكثير بسبب ندرتها ، شريطة الا تفرط باحدى النسخ في مقايضة مقابل كتاب جيد . لذلك ادعوك للاحتراس .

لقد استلمت كافة البضاعة التي ارسلتها من فرانكفورت وبحالة جيدة باستثناء احد الطرود . كذلك تنقص كتب كثيرة عادية تناسب تجارتنا اكثر من سواها ؛ كما ارسلت ٥٠ نسخة من (ترياق الكآبة) قياس (in - 12) بينما كان يكفي ارسال دزينة واحدة ، وارسلت ايضا ١٢ (Menzius) قياس (in - 4) بدلا من ثلاثة او اربعة . واخيرا يجب عليك أن تاخذ بعين الاعتبار ان رحلتك هذه تكلف نفقات باهظة ، لذلك لا يجوز التهور كما فعلت ، وكان عليك الاتصال بالشركات العديدة المتوفرة على طريق سفرك . فاحرص على تلافي هذه الاخطاء واستفد منها في المستقبل .

والدك المحب
(انيسون)

تمتاز هذه الرسالة بانها تبين لنا جيدا طبيعة الاعمال التجارية التي كان على الكتبي تعاطيها خلال رحلاته ، كما تبين ايضا كيف كان أصحاب المكتبات مضطرين الى التجول في جميع انحاء اوروبا لتصريف أعمالهم هذه ، لان مثل هذه الرحلات كانت مألوفة تماما بالنسبة للناشرين الكبار. وقد ذهب ابن (لوران انيسون) (الذي رايناه من خلال الرسالة في بال وكولونيا وفرانكفورت وانفرس) الى اسبانيا وايطاليا أيضا .

*

* *

كان من الطبيعي ان يقيم اصحاب المكتبات والمطابع في المدينة الواحدة علاقات وثيقة فيما بينهم . فيجتمعون باستمرار للتحدث عن مهنتهم وتبادل الخبرة والمعلومات في هذا المجال ، واتخاذ التدابير لمساعدة زملائهم المحتاجين ، وكذلك لاقامة الصلوات والاحتفال بالاعياد وخاصة عيد شفيعهم (القديس حنا). وهكذا كانت هناك دوافع عديدة تحض أصحاب المكتبات والمزخرفين والمجلدين على تأسيس جمعيات خاصة بهم حتى قبل ظهور الطباعة . لذلك كان من الطبيعي ان يأتي اصحاب المطابع والمكتبات وتجار الكتب فيما بعد ، للانضمام الى هذه الجمعيات .

ففي باريس خاصة ، ظلت جمعية (القديس حنا الانجيلي) ، التي أسست عام ١٤٠١ ، نشيطة جدا حتى نهاية القرن الثامن عشر . كان أصحاب المطابع والمكتبات يجتمعون مرتين في السنة ، في السادس من ايار ، عيد القديس حنا (Porte - Latine) وفي ٢٧ كانون الاول ، عيد القديس حنا (l'Evangéliste) ، حيث يقومون بأداء الصلوات ويقيمون الاحتفالات الرسمية التي تليها غالبا الولائم الفخمة . وفي كل يوم احد ، كانت الجمعية تلتقي في الكنيسة لسماع القداس . كان الدخول الى هذه الحفلات يكلف غاليا ، مما يؤمن المبالغ الكافية لتغطية النفقات واملاء صندوق الاسعاف او المساعدات .

كانت هذه الجمعيات تضم مبدئيا كافة رجال المهنة من ارباب عمل وعمال ومتدربين . الا أن اجتماعاتها كانت تقتصر عمليا على ارباب العمل

فقط ، لان العمال يفضلون تشكيل جمعياتهم الخاصة التي تصبح غالبا ، كما راينا ، مراكز مقاومة ضد أرباب العمل . لذلك كانت مكافحة هذه المراكز من الاسباب الرئيسية التي دعت الى تشكيل جمعيات أصحاب المطابع والمكتبات في كل مكان تقريبا ، وذلك في النصف الثاني من القرن السادس عشر وخلال القرن السابع عشر .

كانت مهن الكتاب حتى ذلك الحين تعتبر من المهن الحرة . وقد ظل اصحاب المكتبات والمطابع مدة طويلة لا يخضعون الا للنظام الجامعي الموروث عن عهد المخطوطات ، وفي المدن التي توجد فيها جامعة فقط . استمر هذا النظام حتى حوالي منتصف القرن السادس عشر ، طيلة استمرار الازدهار العام ؛ ولكن عندما ادت الازمة الاقتصادية الى اثارة الاضرابات والحركات الاجتماعية التي تحدثنا عن اتساعها لدى أرباب الطباعة ، وعندما تعددت الدعاوى بين ارباب العمل والعمال ، واضطرت الدولة للتدخل وسن الانظمة المعقدة ، اضطر أرباب العمل للتكتل وتكليف بعضهم بتمثيلهم لدى المراجع القضائية . ثم ما لبث تناقص حجم الاعمال ان دفعهم الى مزيد من التكتل والاتحاد للحيلولة دون مجيء مزاحمين جدد في المهنة . كما ساهم نقص العمل هذا ، الذي ادى الى شيوع التزوير والتقليد ، في دفعهم للاجتماع بصورة منتظمة من أجل القيام سوية بحل المسائل المتعلقة بمهنتهم . وقد ساهمت الدولة من جهتها في تشجيع هذه الحركة التي ادت الى ظهور الاتحادات ، ظنا منها بأن ذلك من شأنه المحافظة على النظام ، وخاصة الحيلولة دون اصدار « الكتب السيئة » التي اخذت تتكاثر ، علاوة على ما يمكن أن تؤمنه هذه الاجهزة من سهولة أكبر في مراقبة نشاط أصحاب المطابع والمكتبات اعتبارا من عام ١٥٨٤ في فينيسيا ، و ١٥٥٧ في لندن ، وحوالي ١٥٧٠ في باريس ، وقريبا في كافة المدن الاوروبية الكبرى عدا هولانده على الارجح ، بدأت الجمعيات تنتظم ، بمهمة مراعاة الانظمة الموضوعة التي تزداد تعقيدا بصورة مستمرة ، وباشراف رئيس ومعاونين منتخبين . كانت اجتماعات هذه الجمعيات تعقد بصورة منتظمة ، يحضرها أصحاب المطابع والمكتبات وتجار الكتب واحيانا المجلّدون فيتناقشون ويتداولون في المسائل التي

يفضل حلها بصورة مشتركة . وما يكاد بائع لوازم الخياطة مثلا ، يقوم ببيع الكتب حتى تتدخل الجمعية على الفور . ولا يكاد كتاب ممنوع ينزل الى السوق حتى تقوم الدولة فورا بتكليف رئيس الجمعية بالتحقيق ومعرفة اسماء المذنبين . كذلك تتدخل الجمعية عندما يلاحظ احد اصحاب المكتبات في المدينة ان زميلا له من خارج المدينة قد قام سرا بتقليد احد مؤلفاته . واذا منح احد اصحاب المكتبات امتيازا دون استحقاق ، يتقدم المعترضون بشكواهم ويعرضون مآخذهم على الجمعية. هنا ايضا : كان اصحاب المكتبات في المدينة الواحدة يتفقون على عدم اصدار طبعتين لمؤلف واحد في نفس الوقت ، كما يتحدون لمكافحة اصحاب المكتبات من المدن الاخرى الذين يصيبونهم بشيء من الاذى أو الضرر .

لا شك في أن المنافسات كانت متعددة في هذا العالم الصغير . ففي المدن الكبرى تتشكل غالبا المعسكرات المختلفة ؛ وعندما ينتمي اصحاب المطابع والمكتبات الى جمعية واحدة ، فان كلا منهم يتحيز غالبا الى فئته ضد الفئة الاخرى ؛ واحيانا يتحد الكتبيون الصغار مع اصحاب المطابع ضد الناشرين الكبار الذين يسعون دائما للسيطرة على الجمعية . وفي احيان أخرى ، يتجمع اصحاب المكتبات وفق مصالحهم في تكتلات متناوئة فيما بينها ، وخاصة عندما يتعلق الامر بالتصدي لامتياز جائر حصلت عليه جماعة دون اخرى . اما انتخابات المكاتب فلم تكن تخلو غالبا من المنافسات ، حتى ان الدولة تجد نفسها مضطرة ، في فرنسا على الاقل ، للتدخل لصالح اصحاب المكتبات الاغنياء او كبار اصحاب المطابع الذين يمثلون عناصر وأدوات النظام في نظرها . واما دور رؤساء الجمعيات ومعاونيهم فكان حساسا جدا ، لانهم الحكام في كافة النزاعات التي تنشب بين أعضاء الجمعية ، والوسطاء بين السلطة وزملائهم ، على صلة شخصية ومباشرة بالوزراء في اغلب الاحيان ، كما كان دورهم هذا يرتدي أهمية خاصة بالنسبة لمراقبة الكتاب .

*
* *

وهكذا كانت مرتبة أصحاب المكتبات والمطابع تبدو مختلفة حسب الاحوال . الا أن طبيعة مهنتهم كانت دائما موضع الاعتبار والتقدير ، وخاصة في القرن السادس عشر . وقد كانوا يتباهون دائما بممارسة مهن « متميزة تماما عن الفنون الميكانيكية » . اما في المدن الجامعية ، فكانت طبيعة كونهم « عملاء » للجامعة ، تضعهم في مكانة جيدة في الاحتفالات بعد الاساتذة والطلاب . الا أن هذه الامتيازات لم تحل دون بقائهم في الواقع في عداد بورجوازيي المدينة ؛ حيث يتزوج أبناؤهم وبناتهم من أولاد التجار ذوي الثراء المماثل ، وتتحد اغنى عائلات الكتبيين في اغلب الاحيان مع عائلات الصاغة ، أو مع بائعي لوازم الخياطة والشماعين أو تجار الخمور . وفي باريس . كان كتبييوا القصر ، الذين ينشرون المؤلفات الكلاسيكية الكبرى ، يزوجون أولادهم في أغلب الاحيان لابناء الحوانيت المجاورة من بائعي لوازم الخياطة و « النوفوتيه » . أما القاعدة السائدة في جميع الحالات ، فكانت تستند على قيمة « الدوطة » ومبدأ المساواة فيما يقدمه الطرفان .

اما كبار أصحاب المكتبات الذين يملكون ثروة كافية فكانوا يوضعون في الصف الاول من بورجوازيي المدينة ؛ ففي باريس وليون ، أصبح الكثيرون منهم قناصل او مسؤولين عن البلديات والشرطة . وقد ظل الكتبيون الفرنسيون يحلمون ، كما كان متوقعا ، بالحصول على وظيفة رسمية تسمح لاولادهم بارتقاء درجة في السلم الاجتماعي . عندئذ يصبح من الطبيعي ان يتخلى هؤلاء عن ممارسة مهنة آبائهم ؛ أما خارج فرنسا ، فلم يكن الامر كذلك دائما : فقد احتفظ آل (موريتوس) مثلا بمطبعتهم عندما حصلوا على لقب النبلاء ؛ وفي بعض الاحيان ، وخاصة في ايطاليا وهولانده ، اصبح بعض اصحاب المكتبات أصحاب بنوك بعد أن أثروا من تجارة الكتاب . وكذلك الامر بالنسبة لآل (هوغوتان) الذين يرجع أصلهم الى مدينة ليون ثم لجؤوا الى هولانده ، حيث ظلوا أصحاب بنوك رغم حصولهم على لقب كونت . الا أن هذه الحالات تبقى استثنائية ، بينما بقيت العادة في كافة انحاء أوروبا ، أن يتزاوج أصحاب المكتبات

والمطابع فيما بينهم وان يستمروا في ممارسة مهنتهم خلال عدة اجيال ؛ حيث بقي آل (دي تور) مثلا ، يمارسون مهنة الطباعة في ليون ثم في جنيف ثـم في ليـون من جـديد ، اعتبـارا من القـرن السـادس عشر حتى الثامن عشر . كما استمر آل (باربو) يمارسون المهنة ابا عن جد ، في ليون وليموج وباريس ، من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر . وكذلك الامر بالنسبة لآل (ديبورد) في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، في « سومور » وهولانده . وقد ساهمت هذه الاسر العريقة المتواصلة خلال قرون عدة ، في قلب الرجال الذين يمارسون مهن الكتاب الى عالم صغير مغلق له عقلية خاصة .

٣ ـ من رجل الطباعة الانسي الى الكتبي" الفيلسوف

كان لا بد لاصحاب المطابع والمكتبات ، حتى يمارسوا مهنتهم جيدا ، من ان يهتموا بقضايا الفكر تماما كاهتمامهم بالمسائل التجارية ، خاصة وانهم يعيشون من الكتب ووسط الكتب ، على صلة يومية برجال الادب والعلماء واللاهوتيين ، وبتعبير آخر بكل من يمارسون القراءة والكتابة من طلاب ومثقفين .

لذلك لا نستغرب عندما يصبح الكتاب أصحاب مطابع ومكتبات في كل زمان ومكان . فقد كان وسيظل الكثيرون من الادباء والعلماء يطمحون دائما لان يقوموا بطباعة مؤلفاتهم بانفسهم وعلى آلاتهم الطابعة ، فيسهرون على تصحيحها وتنقيحها وتقديمها ، كما يشرفون خاصة على نشرها فيمارسون هكذا تأثيرا مباشرا على الجماهير ، وخاصة في عهود ادى معها صراع الافكار وأزمات الضمير الى ظهور أدب كفاحي . الا أن عمل مثل هؤلاء لم يحدث مطلقا مثل هذا التأثير العميق الا عند مطلع القرن السادس عشر ، وفي عهد كانت فيه احدى المهمات الرئيسية للطباعة هي نشر النصوص القديمة في صفائها الاصلي ، حيث كان فقه اللغة يحتل مكان الصدارة . وقد تطوع العديد من العلماء والكتاب آنذاك كمنقحين لدى الناشرين ، كما انقاد بعضهم بصورة طبيعية لان يصبحوا بدورهم أصحاب

مطابع ومكتبات . لقد كان هؤلاء رجال عمل بالاضافة الى كونهم انسيين ، يعيشون في فترة ازدهار اقتصادي استثنائي ، يدعمهم ناشرون أو ممولون يقدرون امكانياتهم حق قدرها ؛ لذلك لاقوا في أغلب الاحيان نجاحا باهرا ، واضعين مطابعهم في خدمة المذهب الانسي (humanisme) ومساهمين في انتصار القضية التي نذروا أنفسهم لاجلها .

هذا هو اذن رجل الطباعة الانسي (humaniste) . ولنضرب مثالا عليه (جان اميرباخ) ، احد أقدم هؤلاء الرجال ، حيث ولد حوالي عام ١٤٣٤ في مدينة (روتلنجن) ، في الفترة التي كان فيها (غوتنبرغ) يباشر ابحاثه في ستراسبورغ . لقد بدأ دراسته في باريس على يد استاذ الماني آخر يدعى (جان هينلن) من مدينة (ستان) ، لن يلبث أن يؤسس مطبعة السوربون . وهكذا سلك باشراف مثل هذا المعلم طريق « المعلم جيهان ديكوس » لجان سكوت . ثم ما لبث أن أصبح معلما للفنون يعمل كمستخدم لدى (كوبرجر) ، رجل الطباعة الكبير من نورمبرغ . كشف هذا التماس الاول مع مهن الكتاب ، لرجل الفكر هذا ، الامكانيات التي يمكن أن تقدمها الطباعة من اجل نشر النصوص . وفي حوالي عام ١٤٧٥، استطاع ، وربما بمساعدة (كوبرجر) ، أن يفتتح مشغلا في مدينة (بال) . جاءت هذه المبدرة استجابة لهدف محدد : وهو ان (أميرباخ) قد تكفل بأن يقدم للجمهور طبعات صحيحة عن أعمال « آباء الكنيسة » ؛ وهو عمل سيتابعه طيلة حياته : ففي عام ١٤٩٢ ، نشر « سان امبرواز » ، وفي ١٥٠٦ نشر « اوغوستان » . ثم ركز جهوده مع (ايراسم) على (سان جيروم) ، كما رضي أكبر علماء المانيا بأن يدققوا له المخطوطات . وقد أقام (روشلين) في منزله وعمل لصالحه عام ١٥١٠ . كذلك عدل (بياتوس رينانوس) ، الانسي الكبير ، عن السفر الى ايطاليا لكي يعمل عنده كمنقح ايضا . واذا أردنا أن ندرك تماما المكانة التي كان يحتلها (أميرباخ) في عالم أرباب الطباعة والانسيين ، يكفي أن نستعرض الرسائل التي كان يتلقاها من جميع أنحاء أوروبا : من كولونيا وباريس ، من ديجون وستراسبورغ ، من « دول » ونورمبرغ ، من سبير ولندن ، من فرانكفورت ، فريبورغ ، بيرن ، سيليستات ، توبنجن وهايدلبرغ ، كانت

هذه الرسائل متنوعة المصادر ؛ فمنها رسائل من اصحاب المطابع المؤقتين و الدائمين ، من امثال : انتوني كوبرجر ، ادولف راش من ستراسبورغ، بيير ميتلنجر ، عامل الطباعة المتجول من (بيزونسون) ؛ دول وديجون (١٤٨٨ ــ ١٤٩٢) ، بول هوروس من كونستانس ، الذي اقام في برشلونه عام ١٤٧٥ ، وفي سرغوسطه عام ١٤٨٠ ، جان هنلن ، جان بتري ، خال آدم ، جان سكوت من ستراسبورغ ، حفيد مانتلين . كذلك كانت هناك رسائل من اللاهوتيين والانسيين المعروفين او المجهولين : وقد كان بين هؤلاء رجال لامعون من امثال لوفيفر ديتابل ، روشلين ، ألبرت دورر ، وآخرون معروفون مثل ويمفيلينغ ، سيباستيان برانت ، أولريش زاسيوس ، الحقوقي ، وتريتام ، الجغرافي المعروف في سان ــ دييه وغيرهم ...

الا ان (جان اميرباخ) ، هذا العامل القاسي ورجل الطباعة الذي لا يعرف الكلل ، هو ايضا رب اسرة بكل معنى الكلمة . وعندما أرسل ولديه ، برونو وباسيل ، للدراسة في معهد (ليزيو) بباريس ، من أجل الحصول على الشهادة الجامعية ، فانه لم ينقطع عن مراسلتهم وتزويدهم بنصائحه . تذكرنا هذه المراسلة بخلافات المدارس آنذاك ، وبنشاط الجالية الباليّه (نسبة الى مدينة بال) في باريس . وهكذا لا ينفك الاب يحذر ولديه من الاخطار المحدقة بهما ، ويدعوهما الى ان يحذوا حذوه في اتباع دروس (سكوت) وعدم سلوك سبيل (أوكهام) ، لانه كان مخلصا لاساتذته القدامى يناصرهم ويفضلهم على المحدثين . كما كان رب العمل العصامي هذا يهتم ايضا بالمسائل الاخرى الاكثر مادية : كابتعاد ولديه عن عشرة السوء ، وتسجيل المصروف في سجل خاص كل مساء ، وتجنب المصاريف التي لا مبرر لها . ولكن جان اميرباخ لا ينسى ، وسط كل ذلك ، آلاته الطابعة ولا سان جيروم . اذ ما كاد ولداه يعودان ، حتى عهد اليهما بالعمل في هذه المطبعة الشهيرة ، مع تكليف (جان كوهن) ، الراهب الدومينيكي الشهير من نورمبرغ ، باكمال تربيتهما . اما أصغر أولاده والمعهم ، فهو (بونيفاس) الذي سيساعد والده أيضا . لذلك

سنجده فيما بعد ، يعمل منقحا لدى (فروبن) ، خليفة (أميرباخ) ، وناشر (ايراسم) الذي سيصبح من جهته منفذا لوصية الوالد .

كانت المهمة الاساسية التي اختطها الالماني (اميرباخ) لنفسه هي اصدار الطبعات الصحيحة عن اعمال « آباء الكنيسة » . بينما القيت مهمة اصدار الطبعات الكلاسيكية اللاتينية واليونانية وتعريف الناس بهذه المؤلفات بنصوصها الاصلية الصحيحة ، على عاتق رجل انسي آخر ـ ايطالي هذه المرة ـ يدعى (آلد) ، كان مثل (أميرباخ) تماما ، رجل علم وثقافة ، بل استاذا ، قبل ان يعمل في الطباعة . اما الاسباب التي دفعته لتغيير اتجاهه فهي ذات مدلول خاص .

ولد (آلد مانوس) في الفترة الواقعة بين عامي ١٤٤٩ ـ ١٤٥٤ ، في مدينة (سيرمونيتا) قرب (فيلليتري) التابعة لروما . تلقى أولا دروسا في العلوم التربوية التقليدية ، فحفظ عن ظهر قلب القواعد الازلية الايقاعية لالكسندر دي فيلديو ، مما دفعه فيما بعد لكتابة ونشر كتاب منهجي للقواعد . ثم توجه الى روما ، حيث انهى دراساته اللاتينية باشراف (غسبار دي فيرون) و (دوميزيو كالديرينو) ، وهما استاذان مشهوران . بعد ذلك ذهب لدراسة اليونانية في (فيراري) ، حيث تتلمذ على يدي خبير ممتاز بالادب اليوناني يدعى (غاريني) . عندئذ بلغ المستوى الذي كان يسمح لطلاب تلك الفترة بممارسة التعليم ، فشرع يقرأ ويشرح خيرة الكتاب اليونانيين واللاتينيين . ولا شك في أنه بدأ ، منذ ذلك الحين ، يأسف لعدم توفر نشرات مطبوعة لهؤلاء المؤلفين ، يمكنه استخدامها وتوزيعها على مستمعيه ـ ومن بينهم (هرقل ستروزي) من فلورنسا ، و (جون بيك دي لاميراندول) . ولكن الحرب نشبت بين فينيسيا و (هرقل ديست) ، دوق فيراري ، فلجأ (آلد) عند تلميذه (جان بيك) ، الذي بدأ آنذاك أعماله الشهيرة . وقد تمتع في (ميراندولا) بكرم الضيافة طيلة سنتين ، فارتبط « بعمانوئيل أوراميتينوس » من جزيرة (كريت) ، كما اقام صلات مع (بوليتيين) واصبح مدرسا ومربيا لكل من ليوناردو والبيرتو بيو (وهما من ابناء اخت جان) . وقد استند في تعليمه على اليونانية واللاتينية على حد سواء .

ادى سقوط الدولة البيزنطية الى لجوء عدد كبير من العلماءاليونانيين الى ايطاليا . عندئذ خطرت على بال (آلد) فكرة انشاء مشغل طباعي متخصص بالمطبوعات اليونانية يستطيع (جان بيك دي لاميراندول) أن يقوم بتمويله . استقر معظم اللاجئين اليونانيين في فينيسيا ، حيث يكثر أصحاب المطابع والمكتبات وتسهل المواصلات . لذلك وقع اختيار (آلد) على هذه المدينة بالذات ، من اجل افتتاح مشغله الجديد . وقد اختار المنقحين ــ وربما المنضدين ايضا ــ من الخطاطين الكريتيين اللاجئين . ثم ما لبث أن بدأ ينشر قصائد (موزيه) مرافقة بترجمة لا تينية ، بالاضافة الى الزبور و « حرب الجرذ الغالية » ، التي رسم في مقدمتها برنامجا طموحا للاصدار والنشر . وقد قام بالفعل ، منذ عام ١٤٩٤ ، بنشر كتاب القواعد اليونانية لـ (لاسكاريس) مع ترجمة لاتينية ، كما أصدر خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٤٩٥ ــ ١٤٩٦ ، كتاب (Organon) لارسطو ، والقواعد اليونانية « لتيودور غازا » مرافقة بأبحاث النحويين اليونانيين ، وكذلك أعمال (تيوكريت) . عندئذ فقط ، اصدر اول طبعة لاتينية (l'Aetna) لـ (Bembo) . الا انه لم يعد يمر عام منذ ذلك الحين ، الا وتخرج فيه من مطابع (آلد) عدة طبعات كبرى لمؤلفين لاتينيين بوجه عام ، ويونانيين بشكل خاص : نخص بالذكر منها طبعة هائلة لاعمال ارسطو بمجلدات متتالية .

لكي ينجح (آلد) في مهمته هذه ، قام بصك حروف يونانية انيقة للغاية ، كما أحاط نفسه بخيرة ما في ايطاليا واوروبا من علماء ومتبحرين في اللغة اليونانية وآدابها . وهكذا تشكلت في فينيسيا الاكاديمية « الآلدية » المنبثقة من الاكاديمية الصغرى لامراء (كاربي) . كانت الاجتماعات تعقد لديه في أيام ثابتة لتحديد النصوص الواجب طباعتها والمخطوطات التي يفضل اتباع ترجمتها . أما أعضاء هذه الاكاديمية ، فشيوخ فينيسيون وأساقفة مستقبل وأساتذة وأطباء وعلماء يونانيون. ويمكن أن نذكر من هذه اللائحة الطويلة : بمبو الشاعر ، ألبيرتو بيو أمير كاربي ، أوربان بولزاني ، باتيستا ايغنازيو الاستاذ الشهير ، سابيلليكو ،

غريغورو بولوس ، جيروم الياندر الـذي سيصبح كاردينـالا ، مارك موزوروس ، دي كونـدي الذي سيصبـح اسقف (Monemvasie) وايراسم . ثم ما لبث (آلد) ان بسط حقل منشوراته : ففي عام ١٥٠١ ، كلف (فرانسيسكو غريفو) من بولونيا ، بنقش حرف طباعي جديد هو الايطالياني (italique) واطلق مجموعة « الجيب » الشهيرة من قياس (in - 8°) بهدف تعميم المؤلفات الكلاسيكية اللاتينية والشعراء الايطاليين. وكان من جملة ما اصدره : فيرجيل وهوراس ، بيترارك ودانتي ، أوفيد، جوفينال ، بيرس ، ستاس وبمبو، وكذلك « الاقوال المأثورة » لايراسم، و (Décaméron) لبوكاس . وعند وفاته عام ١٥١٥ ، كانت هناك لائحة طويلة بالمؤلفين الذين اصدر لهم عدة طبعات اصلية ، من بينهم : ارسطو، ارسطوفان ، توسيديد ، سوفوكل ، هيرودوت ، كزينوفون ، ديموستين، ايشين ، افلاطون وغيرهم من اليونانيين فقط .

*

* *

وهكذا نصل اخيرا ، في مجال استعراضنا لارباب الطباعة الانسيين، الى (جوس باد) . فهو من أصل فلمندي ، اتم دراساته في معهد « الاخوة في الحياة المشتركة » في (غاند) ، ثم توجه الى (لوفين) لاتمام تأهيله . الا أن ايطاليا جذبته اليها ، تحدوه الرغبة الاكيدة بدراسة اليونانية في افضل الشروط ، فقصد مدينة (فيراري) ، حيث تعلم الادب اليوناني على يد (باتيستا غاريني) ، ثم اتبع في (مانتو)أو(فيراري)،دروس« فليبوبيروالدو البكر » ، المعلم الكبير للآداب القديمة ، والذي لاقت كتاباته المطبوعة في كافة انحاء اوروبا نجاحا ورواجا كبيرين . وهكذا بدأ (جوس باد) يحقق لنفسه سمعة طيبة كعالم . الا أن رحلته الى ايطاليا اشرفت على نهايتها ، فذهب تلميذ (بيروالدو) ليقوم بالتدريس في فالنسيا ثم في ليون . ورغبة منه في مشاطرة طلابه الدروس التي تلقاها على أيدي اساتذته القدامى ، اعدّ في عام ١٤٩٢ ، وفي مدينة ليون ، طبعة جديدة عن الـ (orationes) لبيروالدو التي ظهرت في بولونيا العام السابق ؛ ثم اتبعه بـ (اجمـات اخلاقية) ، وهي عبارة عن مجموعة من القطع المختارة لافضل المؤلفـين

القدامى والحديثين ، مرافقة بالتعليق الوافي ، ثم طبعة اخرى لتيرانس مرافقة بالتعليق والشرح ايضا . كان (جوس باد) منذ ذلك الحين ، يقدّر قوة الطباعة حق قدرها ؛ وقد صدرت كافة المؤلفات التي نشرها (جوس باد) ، من قبل (تريشيل) ، الناشر الليوني الكبير ؛ كما أدت انصلات الدائمة بين الرجلين الى تفاهم وتقدير متبادلين . كذلك عهـد (تريشيل) الى (جوس باد) بدور كبير في مؤسسته ، حيث كلفه باعادة النظر في المخطوطات وتصحيح الطبعات التجريبية وصياغة رسائل الاهداء. وهذه مهمة شاقة ولا شك ، علاوة على متابعته للدروس ، مما حال مؤقتا دون متابعته لاعماله الشخصية . الا انها كانت مهمة محببة بالنسبة لهذا الأنسي الذي أصبح يفرض على أكبر دار للطباعة والنشر في ليون ، التوجيه المتناسب مع الافكار التي يدافع عنها منذ زمن طويل : أصبح (جوس باد) آنذاك في قلب الانسية الليونية ؛ وقد اكدت رسائل الاهداء التي كان يصوغها سمعته الادبية ودعمتها ، حتى أن (جان تريتام) يذكره ، وهو لا زال فتى ، في عداد أشهر المؤلفين الذين عالجوا القضايا الكهنوتية . وأثناء قيامه برحلة الى باريس عام ١٤٩٧ من أجل نسخ مخطوطة لابـن سينا ، تعرف على الدوائر والاندية العلمية الباريسية وارباب الطباعـة المؤيدين للاتجاهات الجديدة ، كآل (مارنيف) وغيرهم . وعند وفاة (تريشيل) ، يتزوج (جوس باد) احدى بنات رب عمله السابق. ، الا انه لم يكن على وفاق مع خلفائه ، ففقد مكانته عندهم . لذلك اخذ يعمل لصالح مختلف ارباب الطباعة في ليون ، ثم قصد باريس ، بناءا على دعوة وجهها اليه (روبير غاغين) . هناك اتصل بـ (جان بوتي) ، الناشر القوي الذائع الصيت ، واصبح يعمل في خدمته . وقد قام ، في الوقت نفسـه ، باستئناف منشوراته . لقد رأينا كيف قام (جان بوتي) بتمويل (جوس باد) ومساعدته على انشاء مشغله الطباعي . وهكذا ، بعد ان اصبح (جوس باد) من ارباب الطباعة ، بدأ يطبع عدة مؤلفات لصالح (بوتي) ؛ كما بدأ في الوقت نفسـه باصدار طبعات عديدة بالتعاون مع هذا الاخـير او على نفقته الخاصة . وعما قريب ، سيصبح منزله مقرا للاجتماعات

التي يلتقي فيها الانسيون الباريسيون بالعلماء الاجانب العابرين . أما من بين المقرّبين اليه ، فيمكن ان نذكر على سبيل المثال : لو فيفر ديتابل، غليوم بوديه ، بيير دانيس ، جاك توسين ، جان فاتابل ، لويس دي بيركين، نيقولا دوبوي الملقب بـ (Bonaspes) ، وبياتوس ريناتوس او فرانسوا دوبوا ، علاوة على (ايراسم) الذي اختلف معه في النهاية كما فعل (آلد) من قبل . لقد سهلت هذه النخبة المختارة من العلماء مهمة (جوس باد) الى حد كبير ، حيث ارشدته الى افضل المخطوطات ، ونفذت له عدة نسخ عنها احيانا اثناء تنقلاتها . وهكذا تابع (جوس باد) اعماله الشخصية وسط هذه الصفوة من اهل العلم ، متخذا لمطبعته اتجاها أدبيا واضحا ، مركزا في نشر اعماله على المؤلفين القدامى ، مضاعفا من انتاج « كتب العمل » التي كان فهمها يزداد سهولة باستمرار ؛ وعند وفاته ، عام ١٥٣٥ ، كان على راس مؤسسة مزدهرة تراسها من بعده صهره (روبير ايستيين) .

وهكذا تشكلت سلالات مشاهير ارباب الطباعة الانسيين . أما اشهرها فهي سلالة (آلد) في فينيسيا ، وآل موريل وفاسكوزان من باريس ، وايستيين وسيمون دي كولين وجوس باد في باريس أيضا ، وجميعهم حلفاء أو من احفاد (غويون فيار) التي تزوجت ثلاث مرات ، كانت الاولى من داميان هيغمان ، والثانية من هنري ايستيان ، والاخيرة من سيمون دي كولين . أما احدى بناتها من داميان هيغمان ، فقد تزوجت من ناشر شهير يدعى (رينيو شوديير) ، كما مارس احفادها أيضا مهنة اصحاب المكتبات في القرن السابع عشر . ولكن (غويون فيار) انجبت من هنري ايستيان ابنة وثلاثة بنين ، عملوا ثلاثتهم في الطباعة ، ومن بينهم (شارل ايستيين) الطبيب ورجل الطباعة الشهير ، مؤلف كتاب « دليلة طرق فرنسا » وكتاب « الزراعة والمنازل الريفية » بالاضافة الى بحث شهير عن علم التشريح ؛ وكذلك (روبير ايستيين الاول) بشكل خاص ، هذا العالم الشهير الذي ألف عدة كتب وترجمات عن التوراة ، والذي تزوج ، بعد ان تعلم فن الطباعة في بيت حماه ، سيمون دي كولين،

من (بيريت باد) ، ابنة جوس باد ، التي تعتبر من الضالعين في معرفة اللاتينية ، والتي كانت تساعده في تنقيح الطبعات التجريبية . كان منزل (روبير ايستيين) قبلة العلماء الاجانب ، يقيمون فيه غالبا ، حتى أصبح كل من فيه يتحدث اللاتينية ، حتى الاولاد والخدم . لقد ظهر بين أولاد (روبير ايستيين الاول) و (بيريت باد) عدة علماء عملوا في الطباعة أيضا وهم : هنري الثاني ، العالم في اللغة اليونانية والذي مارس الطباعة في باريس وجنيف ، وكذلك فرانسوا الثاني وروبير الثاني الذي تزوجت أرملته (وهي ابنة الكتبي جان باربيه) من (مامير باتيسون) ، العالم في اللغة اليونانية ، والذي عمل كمنقح في مشغل زوجها الاول .

لا يعتبر هؤلاء الناشرون الانسيون مجرد علماء مهتمين بزيادة انتاج النصوص الصحيحة او اصدار الاعمال الشخصية فحسب ، بل هم ايضا وقبل كل شيء ، رجال طباعة متمرسون في مهنتهم ومهتمون بتقديم طبعاتهم وبنوعيتها الجيدة . وقد رأينا كيف عمد (آلد) الى نقش حروف يونانية اسهل قابلية للقراءة واكثر اناقة من المستخدمة حتى ذلك الوقت وكيف اطلق الحرف الايطالياني . لقد احدث رجال الطباعة الانسيون آنذاك انقلابا في كيفية تقديم الكتاب المطبوع الذي اصبح اكثر وضوحا ، كما عرف آل (ايستيين) كيف يضفون على صفحات العنوان بساطة متوازنة ومنسجمة . وقد بلغ من تعلق بعض ارباب الطباعة الانسيين بمهنتهم أن أصبحوا يهتمون بالشكل أكثر من الجوهر . فالسيد (جيوفروي توري) مثلا ، الاستاذ السابق في معهد (بلاسي) ومعهد (كوكريه) ، ثم في معهد (بورغونيا) ، المعجب بايطاليا التي زارها عدة مرات ، قد أقام مشغلا خاصا به بعد ان عمل لصالح (جيل دي غورمون) و (هنري ايستيان) ، الذي تزوج أرملته ؛ وهو الذي أصدر كتابا خاصا عن نسب الحروف ، وهو Champfleury الشهير ، كما جدد تقديم الكتاب الفرنسي مستوحيا ذلك من عصر النهضة الايطالية . وقد بلغ من حماس استاذ المدرسة السابق هذا للكتب المطبوعة ، انه قام بنفسه بنقش الصفائح وصنع الزخارف الطباعية ، كما تدخل في حجم الحروف وصبّها .

لا شك في ان السهر على حسن سير العمل في المشغل الطباعي ، وتصحيح الطبعات التجريبية التي تخرج من الآلات الطابعة دون توقف ، وكذلك ادارة مؤسسة للنشر ، والقيام بالاتصالات النشيطة مع أصحاب المكتبات الاجانب والعديد من رجال الادب ، علاوة على القيام أحيانا ببعض الاعمال العلمية الشخصية ، كل ذلك يعتبر مهمة شاقة يحق لنا ان نستغرب معها كيف استطاع أن ينجزها رجال من امثال (آلد) و (جوس باد) أو (روبير ايستيين) . انها ولا شك عمل جبار لا يمكن ان يضطلع به سوى رجال عصر النهضة المتحمسون الذين لا يعرفون الكلل او الملل . الا ان ذلك لم يكن بالامر اليسير : فهنري ايستيان مثلا، يشرح في مقدمة كتابه (Thucydide) كيف كان يوزع وقته اليومي بين اعمال التنقيح الدقيقة والمتطلبات العديدة لوظيفته كرب عمل ومدير مؤسسة ، حتى انه كان يضطر للاستيقاظ ليلا ليعمل كاستراحة أو ترويح عن النفس في اعداد طبعاته العلمية ! في الواقع ، لم يكن الوقت ولا الرغبة متوفرين لدى الكثيرين من اصحاب المطابع والمكتبات في القرن السادس عشر ممن نصفهم بالانسيين ، لكي يقوموا بعمل شخصي . الا انهم كانوا أصحاب ذوق رفيع وعلى درجة كافية من الثقافة ، فعرفوا بدراية الناشر وفطنته كيف يجمعون حولهم ولمصلحة اعمالهم ، نخبة من الكتّاب والعلماء ، كما عرفوا كيف يشجعونهم على الانتاج ويحولونهم الى معاونين واصدقاء احيانا .

ها هو على سبيل المثال ، سيباستيان غريف ، « أمير » الكتبيين الليونيين ومعمم الطبعات « الالدية » ، والناشر الذي لا يتعب لكتابات (ايراسم) ، ورجل الاعمال الخبير . ولد عام ١٤٩١ في (روتلنجن) من منطقة (سواب) ، من اب يعمل في الطباعة ، فتعلم المهنة في المانيا وفينيسيا . بعد ذلك توجه الى مدينة ليون كوسيط لشركة أصحاب المكتبات الفينيسيين ، ثم أقام فيها كرجل طباعة ، حيث عمل في البداية لصالح هذه الشركة ، فبدأ باستخدام الحروف القوطية في طباعة الاحكام القضائية ، ثم اشترى حروفا ايطاليانية ورومانية وتخصص في اصدار الاعمال الكلاسيكية اللاتينية من القياس الصغير والمأخوذة على غرار

الطبعات « الآلدية » ؛ كما نشر ترجمات لاتينية لمؤلفين يونانيين واعاد غالبا طباعة ترجمات خيرة الكتاب الانسيين في عصره من أمثال : بوديه، ايراسم وبوليتيان . واليه بالذات عهد (سادوليه) ، أسقف كاربنتراس المتحرر ، باصدار معظم مؤلفاته ؛ وكذلك فعل (بالياريو) بالنسبة لمؤلفه حول خلود النفس . وهو الذي كلف أيضا بطباعة « أسباب اللغة اللاتينية » أول مؤلف كتبه « جول سيزار سيكاليجر » ، و « الكنز العبري » لساكنتت باغنينوس ، و « شرح اللغة اللاتينية » لدوليه ، علاوة على مؤلفات (رابليه) العلمية . والى جانب هذه المؤلفات العلمية كانت هناك أيضا كتب أقل جدية ككتاب (Arresta amorum) لمؤلفه (بنواكور) على سبيل المثال . لذلك يعتبر (غريف) هذا ، الذي كان يزوّد نصف أوروبا بأرقى الكتب ، هو المحرك الاساسي للانسية في ليون . كما قام خيرة الكتاب واكبر العلماء بامتداحه في رسائلهم ، وكانوا يداومون على زيارته في منزله ويعملون فيه كمنقحين احيانا . وهكذا استطاع رجل الطباعة المثقف هذا ، ان يجمع حوله رجالا من امثال : رابليه ، آلسيات ، سادوليه ، هوبير سوسانو ، كلود بادويل ، فرانسوا هوتمان ، فرانسوا بودوان ، انطوان دي غوفيرا ، كلود غويان ، اميل فيريه . كما عرف هذا البيت المضياف ايضا : كليمون مارو ، فيزاجييه، نيقولا بوربون ، موريس وغليوم سيف ، سلمون ماكرين ، بارتيليمي انو ، وغيرهم كثيرون . . . وهكذا يظهر (غريف) كنموذج للناشر صديق الادباء، الذي لا يكتب بنفسه ولكنه لا يقل ثقافة عنهم .

في بعض الاحيان ، كان أصحاب المكتبات والمطابع ، امناء سر رجال الادب وحماتهم أحيانا ، يضطرون ، ولو بدافع من المصلحة التجارية ، الى اصدار كتاب جريء يزداد رواجه بمقدار الفضائح التي يثيرها ؛ كما كانوا يضطرون في أحيان كثيرة ايضا لاستقبال ومساعدة بعض الكتاب المشتبه بهرطقتهم او الحادهم أو خروجهم على المألوف . وهكذا لم يتردد (غريف) في استضافة (دوليه) بعد أن خرج لتوه من سجون تولوز . وقد كان أصحاب المطابع والمكتبات اول من يقرأ المخطوطات الجديدة وأول من يطلع على الافكار الجديدة ، لذلك كانوا غالبا اول من يؤمن بها ايضا

ويناضل من اجلها في تلك الفترة . فها هو على سبيل المثال ، توماس انسيلم ، من ارباب الطباعة في توبتجن ثم في هاغونو ، وصديق (روشلين)؛ وها هو خلفه وصهره (ستزر) ، صديق (ميلانشتون) ، الذي جمع حوله حاشية صغيرة من المسّرحين اللوثريين. لقد وضع هذان الاثنان مطبعتهما كلها تقريبا في خدمة (لوثر) و (ميلانشتون) واصدقائهما ، ولم يترددا ، لمواجهة خصوم هؤلاء ، في أن يقوما سرا بطباعة المقالات الانتقادية لطبيب اسباني شاب يدعى (ميشيل سيرفيه) . وها هو ايضا في خدمة القضية نفسها ، (سيمون دوبوا) ، رجل طباعة في باريس ثم في (ألنسون) ، الذي كان يقوم بنشر كتابات (لوثر) وافكاره دون كلل او ملل .

لم يكن اصحاب المطابع والمكتبات في النسق الاول من المناضلين لنشر الافكار الجديدة فحسب ، بل كانوا ايضا أكثر الناس عرضة للملاحقة والتفتيش والسجن والحرق . ولم يكن المحققون يرحمونهم في القرن السادس عشر . فأية وسيلة افضل ، للقضاء على الهرطقة ، من انزال العقاب الصارم بهؤلاء الذين يشكلون مصدر نشر الكتب المشبوهة ؟ وقد اضطر أشهر ارباب الطباعة الانسيين من باريس وليون ، الذين اعتنقوا جميعهم تقريبا الافكار الجديدة ، الى الهرب من فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، تجنبا لقسوة الرقابة والبرلمان وجماعات التجسس والوشاية . وهكذا اجتمع في جنيف (روبير ايستيان) و (دي تورن) وكثيرون غيرهما ! . . . كما اضطر (بلانتين) للهرب من مدينة (انفرس) التي خضعت على التوالي لغليوم دورونج ودوق دالنسون ، ثم ثارت على الاسبانيين بعد ان تفشت فيها الهرطقة ، ثم استعادتها قوات دوق دالب . الا أن بعض اصحاب المكتبات والمطابع كانوا اسوأ حظا ا، اقل مهارة او اكثر اقتناعا ، فدفعوا حياتهم ثمنا للجسارة الواردة في الكتب التي كانوا يصدرونها او يبيعونها ، كذلك (اوجرو) مثلا ، صانع الحروف الماهر والناشر الخاص لمارغريت دي نافار ، الذي مات على المحرقه .

من ابرز أصحاب المطابع والمكتبات الذين أحرقوا مع كتبهم ، السيد « ايتيان دوليه » ، وهو من رجال القرن السادس عشر الذين يصعب على فكر القرن العشرين ادراك نفسيتهم ومفاهيمهم المعقدة . وهذه حالة كان يمكن اغفالها لو لم يصبح هذا الكاتب صاحب مطبعة ومكتبة ، ولو لم يدفع الى المحرقة بسبب نشاطه ككتبي ، وكذلك لو لم يطرح هذا النشاط مسائل نفسية تطفو على السطح كلما عمدنا الى دراسة تاريخ أصحاب المكتبات الآخرين .

هذا هو (دوليه) اذن ، الرجل العنيف الحاد الطباع وغير المتزن ، الذي قام من خلال عراك حاد بقتل رجل في ظروف غامضة . كان من المتحمسين المتطرفين لسيسرون وتلميذا سابقا في جامعة (باتو) ، يريد أن يبقى بعيدا عن الاحزاب والصراعات الدينية ، الا انه كان يشعر بالاختناق في تلك الاوساط المغلقة والعقول الضيقة التي صادفها في تولوز عند عودته من ايطاليا ؛ لذلك لم يتمالك نفسه عن اعلان كراهيته للاضطهاد وحبه للحرية عندما رأى الكاهن (جان دي كاتورس) ، أحد اتباع (لوثر)، يحرق حيا عام ١٥٣٢ . وهكذا وجه هذا المتمرد الثائر الشتائم لاعضاء البرلمان ، فسجن ثم أطلق سراحه بعد تدخل أصدقائه . وقد أوصى به أحد هؤلاء ، ويدعى (جان دي بواسون) لدى (سيباستيان غريف) فاستقبله بكل مودة وترحاب عند وصوله الى ليون ، حيث عمل عنده كمنقح . هناك تابع أعماله ، فكتب عدة مؤلفات ، وترجم لاعز المؤلفين اللاتينيين لديه ، وشرع في تكديس العتاد اللازم من أجل مؤلف ضخم يهدف الى اثبات تفوق أسلوب (سيسرون) ، كما دخل للدفاع عن مؤلفه المفضل في معركة هجائية معروفة مع (ايراسم) . وكان يقوم في الوقت نفسه ، ولصالح (غريف) ، باصدار مجموعة كبيرة من الطبعات بلغت الخمسين كتابا ، حيث ادى ذلك لتآلفه مع مهنة الطباعة . ولم يتوقف نشاطه هذا الا عند اغتيال (نيقولا كومبانغ) والصفح عن قاتليه من قبل الملك خلال فترة قصيرة .

في عام ١٥٣٨ ، تزوج (دوليه) لكي يرزق بولد عما قريب . فهل هي الرغبة في تأمين مستقبل عائلته التي دفعته لان يصبح من رجال الطباعة ؟ المهم هو انه انشأ مطبعة بمساعدة مموّل بقي مجهولا حتى الآن رغم الابحاث . وفي السادس من آذار عام ١٥٣٨ ، حصل من (فرانسوا الاول) على امتياز باستثمار مطبعته ؛ ثم ما لبث أن أصدر كتابه الاول . الا أن ذلك كان مفاجأة غير متوقعة : اذ أن هذا المتحمس الشديد لاسلوب (سيسرون) الرائع ، والذي كان يفاخر ببقائه فوق الاحزاب ، قد اختار ان يقدم كأول انتاج له للجمهور ، ليس طبعة كلاسيكية او مجموعة قصائد لاتينية او مؤلفا فلسفيا، وانما كتاب ديني صغير (Cato christianus) امتدحه (غليوم دوران) مدير معهد ليون ، الا انه ادين من قبل البرلمان الباريسي فيما بعد . فهل كان هذا تضحية لارضاء اذواق الجماهير ؟ أم رغبة في البرهان عن استقامته ؟ أم عجرفة من قبل مؤلف يريد ان يثبت بأنه قادر ، كأي شخص آخر ، على معالجة المواضيع الدينية ؟ لا يمكن البت في ذلك ؛ الا ان الامر يمكن ان يعود لهذه الاسباب مجتمعة . والمهم أن هذا المنحى لم يعط اكله طيلة الفترة الواقعة بين عامي ١٥٣٨ — ١٥٤١ . لذلك تخلى (دوليه) عن المواضيع الدينية وشرع في طباعة اعمال أصدقائه من امثال كوترو ، وكلود فونتان ، واعمال مورو ، والكتب الطبية والمؤلفات اللاتينية بطبيعة الحال : مثل فيرجيل ، تيرانس ، سواتون وسيسرون بوجه خاص . في عام ١٥٤١ أصدر « العهد الجديد » باللغة اللاتينية بالاضافة الى مؤلّف صغير لسافو نارول . وأخيرا جاء عام ١٥٤٢ يحمل معه نهاية (دوليه) المحتومة ، حيث قام بتوسيع اعماله واستقر في شارع (ميرسيير) بين كبار أصحاب المكتبات ، كما أصدر ٣٢ مؤلّفا : خمسة منها فقط كلاسيكية ، سبعة كتب طبية ، ستة مؤلّفات أدبية وشعرية (جميعها بالفرنسية وكلها حسنة الاختيار ، منها « لرابليه » و «مورو»)، واربعة عشر كتابا مسيحيا ، جميعها مشبوهة : منها(l'Enchiridion) لايراسم ، وكتابات لـ (Lefèvre)، و (سادوليه) و (بيركين) ، مع ترجمة « لمزامير داوود » ، و « مزامير مارو » وكتاب « العهد الجديد » باللغة الفرنسية طبعا . لم يكن هناك اي مخرّب بين هؤلاء المؤلفين : بل

مجموعة من الاعمال التي توصي وتدعو الى محبة الانجيل . كذلك كان (دوليه) يقوم في الوقت نفسه باعداد ترجمة للتوراة على طريقة (اوليفيتان). ويكفي هذا كله لكي يجلب اليه انتباه ذوي الآراء المستقيمة (orthodoxes). فما لبث أن تعرض لحملة تفتيشية وجدوا لديه من خلالها كتاب « الدستور المسيحي » لصاحبه (كالفان)، والتوراة الفرنسية لاوليفيتان، بالاضافة الى مجموعة من الكتب الصغيرة لميلنشتون . ولم يكن ذلك سوى مرحلة اولى من العذاب الذي سينتهي في ٣ آب ١٥٤٦ ، في ساحة (موبير) ، حيث تم احراق (دوليه) مع كتبه .

هذه هي الوقائع التي تطرح مسألة نفسية : كيف ولماذا رضي (دوليه)، هذا الاديب المحب للاسلوب الجميل والمتعلق بالحرية ، الذي طالما اعلن عن احتقاره للمقاتلين من اي معسكر كانوا ، أن ينزل فجأة الى الحلبة ويقبل بالانحياز ؟ هل كان ذلك نتيجة دافع تجاري لكسب المال ؟ أم انه اراد ارضاء الجمهور فأصدر مؤلفات ميالة الى التجديد لان ذلك من شأنه أن يعود عليه بربح أوفر ؟ أم أنه شعر بالشيخوخة تقترب ، فالتفت نحو المسائل الدينية بعد ولادة ابنه ؟ كلها فرضيات مفرطة في التبسيط ولا شك . والخلاصة أننا لا ننوي هنا حل « حالة » (دوليه) ، بل مجرد التنويه عنها لكي نبين المسائل التي كانت تطرح نفسها كلما التقينا بصاحب مكتبة أو مطبعة يقبل بالمجازفة دعما للقضية التي يؤمن بها .

*
* *

الا انه اعتبارا من نهاية القرن السادس عشر ، تبدلت عقلية اصحاب المطابع والمكتبات ، كما تبدلت في الوقت نفسه طبيعة العلاقات بين المؤلفين والناشرين . فقد اختفت الاجيال الكبرى لارباب الطباعة الانسيين في دوامة نهاية القرن السادس عشر ، ووجدت الطباعة نفسها امام أزمة بعد أن عرفت فترة استثنائية من الازدهار خلال القرن الاول من وجودها. وهكذا بدأت الكتب ، التي ظهرت منذ قرن ، تتكدس في الاسواق ، بينما حالت الازمة الاقتصادية بين الناشرين ورؤوس الاموال اللازمة ، واثارت

التململ والتذمر والاضرابات في أوساط عمال الطباعة . واصبح البقاء والاستمرار هما الهدف الاول لمؤسسات النشر في فرنسا بشكل خاص . أما البلاد الجرمانية التي كانت الازمة فيها أخف وطأة من سواها ، فما لبثت أن اجتاحتها حرب الثلاثين عاما ، بينما أخذ العمل يعود الى مجراه الطبيعي في سائر أنحاء أوروبا شيئا فشيئا مع مطلع القرن السابع عشر . الا أن عالم الكتاب خرج من المحنة فقيرا ومتضائلا ، كما اصبح رجال الطباعة والمكتبات يشكلون فئة مهنية محترفة ، ولم يعد رجال الفكر يؤسسون مطابع جديدة . وهكذا انحدرت مكانة ارباب الطباعة بعد ان اصبح عددهم كبيرا ولم تعد سبل المعيشة سهلة امامهم ، حتى صار الكثيرون منهم يعيشون حياة بائسة مزرية كسواد الشعب . اما الكتبيون ـ الناشرون ، فلم يعودوا يهتمون بخدمة عالم الفكر ، بل باصدار الكتب المضمونة التصريف . كما أصبح اكثرهم غنى يهتمون قبل كل شيء باعادة نشر الكتب القديمة ذات الرواج المضمون ، كالكتب الدينية وأعمال « آباء الكنيسة » بشكل خاص . انها الفترة التي أصبح فيها كبار أصحاب المكتبات هم انصار الردة على الاصلاح (الاصلاح المعاكس) ، وتجارا كبارا مسخرين لخدمة السياسة اليسوعية المخلصة للمعسكر البابوي المتطرف .

لم يعد هؤلاء الرجال ، الذين ينفرون من الابتكار ويخضعون للسلطات، يهتمون مطلقا باصدار المؤلفات الجديدة التي أصبحت لا تكتب من الآن فصاعدا الا بلغة البلد في اغلب الاحيان . كما انحدرت مكانة ناشري المؤلفات الكلاسيكية الكبرى ، والفرنسية منها بشكل خاص ؛ ولم يعد الكتّاب يسعون مطلقا لمصادقة اصحاب الحوانيت (المكتبات) هؤلاء ، الذين أصبحوا عادة ذوي ثقافة محدودة ومن مستوى اجتماعي دون مستواهم . كذلك لم تعد اجتماعات الكتاب والعلماء تعقد من الآن فصاعدا في المكتبات او المطابع ، بل في « الصالونات » الادبية ، لدى رجال المجتمع او في مكتبات الكبار ، حول الكتبيين العلامين ، والذين يعيشون تحت حماية شخصيات هامة ، أو حتى في الاديرة . ولا شك في أن كبار

الناشرين من أمثال (كراموازي) مثلا ، أو (ليونارد) فيما بعد ، كانوا يقيمون علاقات وطيدة مستمرة مع الوزراء ، ومع المستشار (ساغييه) المكلف بالاشراف على شؤون المكتبات مثلا . ومما لا شك فيه أيضا ، أن بعض الرجال من امثال (كاموزا) ، كتبي الاكاديمية الفرنسية ، أو (دسبريز) ، كتبي « الجنسينيين » (Jansénistes) ، استمروا في تأدية خدمات كثيرة لرجال الفكر والادب . الا أنهم أصبحوا أشبه بالخدم ازاء هؤلاء ، ولم يعودوا أندادا لهم أو حتى حماة كما كان عليه الوضع في القرن السادس عشر : فقد قام (غبرييل نوديه) ، الكتبي الخاص لـ (مازارين) ، باهداء (كاموزا) عدة مساطر للمنحنيات بمناسبة رأس السنة الجديدة ؛ كما قام (بلزاك) ، في رسائله ، بتعريض (روكوليه) للسخرية ؛ أما (شابلين) ، الذي كان بطبيعته أكثر حبا للخير ، فكان يعامل كبار أصحاب المكتبات من أمثال (روكوليه) و (ليونارد) « كرجال بسطاء » أو « صبيان طيبين » ! ...

وهكذا تبدلت الاحوال كثيرا ، منذ عهد آل (آلد) و آل (ايستيين) الذي يتذكره أصحاب المكتبات بحنين شديد . ويبدو في الواقع ، أن العلامين وحدهم من بين رجال الادب هم الذين حافظوا على علاقات صداقة مع أصحاب المطابع والمكتبات الذين يحتاجون اليهم لتنفيذطبعاتهم الدقيقة الحساسة . فالسيد (دي كانج) و (مابيون) على اتصالمستمر مع آل (انيسون) من مدينة ليون ؛ وكذلك قام ابنا (لوران انيسون) بتوجيه (مابيون) الذي ذهب سعيا وراء المخطوطات في أديرة ايطاليا . كما كان اساتذة جامعة (لايد) يكنون احتراما كبيرا للمعارف والقدرات التي يتمتع بها آل (آلزوفييه) الذين كانوا تحت حماية صديقهم (هانسيوس) ، العالم ورجل الدولة المعروف . وقد كان آل (آلزوفييه) هؤلاء ، المواصلون لتقاليد أرباب الطباعة الانسيين من القرن الفائت ، يستقبلون خلال أسفارهم المتواصلة بحفاوة بالغة من قبل (شابلين) أو (بيريسك) .

وهكذا لم يبرز في هذه الفترة ، سوى القليل من وجوه أصحاب المطابع والمكتبات ، وسط ذلك الجو المكفهر حيث يختلط التجار والحرفيون الذين يشكلون كتلة أعضاء مهنتهم . ومع ذلك ، فقد ظلت فئة قليلة من اصحاب المطابع والمكتبات ، تعمل لخدمة العلوم والآداب ، وتحافظ بصورة أكثر تواضعا من أرباب الطباعة الانسيين ، على تقاليد المهنة وشرفها . ففي باريس ، قام (أنطوان فيتريه) ، الذي لم يكن يعرف حتى اللغة اللاتينية ، بتكريس جزء هام من حياته لطباعة نسخة ضخمة من (توراة بوليغلوت) ، تضاهي توراة (بلانتين) ، وذلك بخمس لغات وسبعة مجلدات . كذلك كان (ايدم مارتين) ، العالم الممتاز بأصول اللغة اليونانية ، المسموع الكلمة من قبل علماء عصره ، رجل الطباعة الوحيد في باريس ، القادر آنذاك على طباعة كتاب يوناني بشكل صحيح . أما في (ديجون) ، فكان هناك علامة ونسّاب مشهور يدعى (باليوت) ، استطاع أن يقدم لنا انتاجا شخصيا جيدا . وفي (امستردام) بشكل خاص ، نجد (بلو) ، تلميذ (تيكو براه) ، يصنع أدوات دقيقة ، ثم يحترف الطباعة فيؤسس مشغلا هاما ، كما يحسن الطباعة وينجز في مجال مصورات (اطلس) المعروفة عملا هائلا . الا أن مثل هذه الحالات تظل نادرة ، الا في هولاندة على الارجح .

بدأت مهن الكتاب في الوقت نفسه ، تنحصر ضمن اطار من الانظمة يزداد ضيقا ودقة باستمرار ؛ حيث أصبح أصحاب المطابع والمكتبات يخضعون لمراقبة شديدة من قبل الكنيسة ، أو بالاحرى الكنائس : الكاثوليكية والبروتستانتية ، عن طريق التشريعات العلمانية العديدة والقرارات المتناقضة في أغلب الاحيان ، مما أدى ، حتى بالنسبة للكتبي المستقيم الخاضع للسلطة كل الخضوع ، الى صعوبة تجنب المراقبة ووطأتها . لذلك نجد أن (كراموازي) نفسه ، قد تلقى يوما من روما بضعة نسخ من كتاب (سانتاريلي) الشهير « هجاء الطغاة » ، فحكم عليه البرلمان بدفع غرامة كبيرة . ومن النادر أن تجد صاحب مطبعة أو مكتبة لم يلاحق بهذا الشكل مرة واحدة في حياته على الاقل . ولكن الادانات

تظل خفيفة بصورة عامة . لقد ظل عدد الكتبيين « الملتزمين » على حاله في تلك الفترة ، لان طبيعة المهنة تتطلب ذلك ، الا انهم لم يصلوا ابدا الى مستوى أسلافهم من القرن السادس عشر . وكان السلطة أحسست بذلك ، فأخذت تتساهل معهم لدرجة مدهشة ، في الوقت الذي كانت تقسو بشدة على المؤلفين . وهكذا نجد أن السلطات لم تلاحق كلا من «سومافيل»، «ايستوك» و «ريكوليه» ، الذين قاموا بنشر كتاب (Parnasse satyrique) بينما أدين (تيوفيل دي فيو) بالحرق غيابيا ؛ حتى ظن الناس بأنهما من عملاء الاب (غاراس) ، العدو اللدود لتيوفيل ! ولكن السلطة كانت تعلم جيدا بأن الضرب على أيدي هذين الرجلين لن يفيد بشيء ، لان قيام أصحاب المطابع والمكتبات بطباعة أو بيع الكتب الممنوعة ، كان يتم بدافع من المصلحة وليس عن قناعة أو عقيدة ، اذ أن كل همهم ينحصر في ارضاء الزبائن . الا أن الدافع قد يكون أيضا الاخلاص للمؤلفين والجهات التي تحميهم ، كما فعل بعض أصحاب المكتبات في (Port - Royal) من امثال (ديسبريز) أو (لوبوتي) « Le Petit » ، اللذين قاما بنشر كتاب (les Provinciales) ، حيث لم يترددا في تحمل مجازفات كبيرة على الرغم من الصداقات التي كانت تربط حماتهم بوزارة العدل ؛ الا انهما كانا يسعيان جاهدين لايقاف النشر في الوقت المناسب قبل أن تبدأ الملاحقات الجدية ، معتمدين على الاخبار التي كانت تتسرب بواسطة عضو المجلس البلدي ، عن ردود الفعل لدى وزارة العدل والوزراء .

أما أرباب الطباعة المنعزلون فكانوا اكثر عرضة للتهديد : اذ لم يكن هؤلاء المساكين يجدون ما يغذون به مطابعهم ، فيضطرون بصورة دورية ، لطباعة بعض المقالات الانتقادية او الهجائية . وقد زادت ملاحقة هؤلاء دون هوادة أو رحمة في عهد (كولبير) بشكل خاص ، واودع الكثيرون منهم في سجن الباستيل . كذلك كان الوضع بالنسبة لمن يقومون بطباعة مزورة ؛ أما (ريبو) مثلا ، الذي أودع السجن عدة مرات لقيامه بطباعة منشورات هجائية معادية للملك ، فلم ينقذه من الاشغال الشاقة سوى ضعف بنيته واعتلال صحته .

في نهاية القرن السابع عشر ، تبدل الوضع ، وخاصة عندما اتسع النضال ضد الحكم الملكي المطلق ، وبعد الغاء « قرار نانتد» ، وعندما جاء القرن الثامن عشر ، بعهد الفلاسفة و « الموسوعة » . هنا اشتعلت الاهواء الدينية من جديد ، ودفع الاضطهاد العديد من أصحاب المطابع والمكتبات الفرنسيين للهرب الى الخارج حيث استمروا في ممارسة المهنة وحاولوا، عن طريق طباعة المنشورات الهجائية العنيفة ، الاساءة قدر الامكان الى الملك الذي طردهم . وهكذا بدأ الادب النضالي في التوسع دون توقف ، ودخلت الصحيفة في العادات ، فظهر نموذج جديد لرجل الطباعة : وهو رجل الطباعة الصحفي . وفي خضم هذه الصراعات ، اكتسب أرباب الطباعة والمكتبات اهمية جديدة ؛ كما اضطر الفلاسفة ، الذين يعتبرون في صراع ازلي مع الرقابة من اجل نشر اعمالهم ، الى التعاون مع الناشرين من جديد . وفي أحيان كثيرة ، تماما كما حدث في القرن السادس عشر ، كان بعض رجال الادب يعملون في الطباعة والنشر حتى يتمكنوا من نشر الافكار الجديدة . فهكذا فعل (بورمارشيه) مثلا ، الذي افتتح في مدينة (كهل) مشغلا للطباعة حتى يطبع فيه ، بمأمن عن المراقبة الفرنسية ، طبعة كاملة عن مؤلفات (فولتير) . وهكذا فعل أيضا الكتّاب من الدرجة الثانية ، وهم غالبا صحفيون ، يحاولون نشر كتابات الفلاسفة وافكارهم عن طريق انشاء المطابع على أبواب المملكة ، تخرج منها الكتب والصحف بآن واحد . فها هو (بيير روسو) مثلا ، الذي ولد عام ١٧١٦ في مدينة تولوز ، حيث تتلمذ على أيدي اليسوعيين ، ثم دخل كلية الطب في مدينة (مونبلييه) ، الا انه ذهب الى باريس وهو لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره ، حتى قبل أن ينهي دراسته . كان مولعا بالادب ، ذا مزاج جدلي ، لذلك كان يداوم على قصر (التويلري) ، (باليه ــ روايال) ، المقاهي وكافة الاماكن العامة ، وبكلمة واحدة كل مكان تناقش فيه الآداب والسياسة . كما عقد صداقات مع الكثيرين ومنهم (دالمبير) وكتب عدة مسرحيات ، ثم قام سنة ١٧٥٠ بتأسيس صحيفة (Les Affiches). انها الفترة التي تنشر فيها المجلدات الاولى من « الموسوعة » ، مما دفع (روسو) الى التحمس للحركة التي تنمو وتتوسع . أما حلمه من الآن

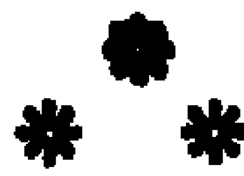
فصاعدا ، فهو انشاء « صحيفة موسوعية » وتشكيل هيئة نشر تتكفل باصدار اعمال العلماء الموسوعيين .

الا ان نشر المجلدين الاولين من الموسوعة قد اجّل ، وصار (دالمبير) و (ديدرو) يتخبطان وسط آلاف الصعوبات . لذلك كان من العبث المطالبة في باريس بالحصول على امتياز خاص لاصدار «صحيفةموسوعية». عندئذ فكر (روسو) بمدينة (لييج) ، حيث يسهل عليه الاتصال مع كافة البلدان الاوروبية مع بقائه قريبا من فرنسا ، وقد استطاع ، بفضل الاخوة (باريس) ، من كبار أصحاب المصارف الذين يحمون الفلاسفة ، ان يلقى حظوة لدى وزراء امير لييج وأسقفها ، فحصل على موافقة بأن يؤسس في هذه المدينة صحيفة خاصة تصدر كل خمسة عشر يوما . الا انه ما لبث ، بعد اربع سنوات (١٧٥٥ ـ ١٧٥٩) ، وازاء احتجاجات كهنة لييج ، ان اضطر للهرب والاقامة في (بروكسل) ، ثم استقر في (بويون) ، حيث لم تتوقف اعماله عن الازدهار منذ ذلك الحين . وقد اضطر للاهتمام بتحرير صحيفته ، ان يستحضر الى جانبه عددا من رجال الادب ، بينما كان صهره (موريس ويسنبروخ) يدير المطبعة التي تصدر عنها صحيفة سميكة كل خمسة عشر يوما .

الا ان (روسو) و (ويسنبروخ) لم يتوقفا عند هذا الحد ، بل عمدا ، لتسهيل نشر اعمال الفلاسفة ، الى تشكيل مؤسسة كبيرة للنشر عام ١٧٦٩ ، سميت « الشركة الطباعية » ، بالاضافة الى مطبعة جديدة تحتوي على ست آلات طباعية ، وهذا كله مشروع جريء سيظل طيلة ما يقرب من عشرين عاما ، ينشر في كافة انحاء أوروبا ، مؤلفات عديدة نذكر منها : قصص وروايات (فولتير) ، قصص وحكايات (لافونتين) ، التاريخ العام للعقائد والآراء الفلسفية ، محاولة حول حكم كلود ونيرون، علاوة على مختارات من الاعمال الكاملة لديدرو ، والاعمال الكاملة لـ (هيلفيتيوس) ، مذكرات عن مصرف مدريد لميرابو ، وغير ذلك من الكتب لفولتير وجان ـ جاك روسو وأصدقائهما ...

في هذه الفترة بالذات ، ازداد عدد الناشرين والكتّاب الذين أقاموا مشاغل طباعية تصدر عنها الصحف والكتب التي تهدف الى نشر الحركة الفلسفية . وهكذا ظهر الكتبي ــ الفيلسوف : هذا التاجر الماهر الذي يتمتع بذوق رفيع ، مثل (سيباستيان غريف) في عهد (رابليه) ، الذي يضع نفسه في خدمة الافكار الجديدة بدافع من القناعة والمصلحة معا ؛ حتى أصبح من خلال الصراعات المشتركة ضد المراقبة ، صديقا وأمينا على اسرار الكتاب والفلاسفة من أمثال ديدرو ، فولتير أو روسو . ويمكن ان نضرب مثالا على ذلك (Le Breton) الذي يظن بانه أول من فكر « بالموسوعة » ولعب دورا أساسيا في تاريخ ولادة هذا العمل واصداره. كما يمكننا الاستشهاد أيضا ببعض الاجانب الذين يستطيعون النضال بأمن وطمانينة ، ضد الشرطة الملكية ، ملتجئين داخل حدود بلادهم ، مثل (مارك ــ ميشيل راي) ، الكتبي الهولندي الكبير ، صديق (جان ــ جاك روسو) ، الذي عرف كيف يهدىء من تخوفه المرضي فيجعله اشبينا لابنته ويصدر له معظم مؤلفاته . كذلك يمكن ان نأخذ ، كمثال متميز على كبار الناشرين ــ الفلاسفة ، (غبرييل وفيليبير غرامر) من جنيف ، الناشرين الرسميين لفولتير ، اللذين كانا من رجال المجتمع الراقي ، دبلوماسيين لبقين ، يتمتعان بذوق رفيع وحس تجاري سليم . ينحدر هذان الاخوان من عائلة كتبيين ، وينتسبان عن طريق والدتهما الى آل (دي تورن) ، الكتبي الانسي الليوني في القرن السادس عشر ، يقيمان علاقات تجارية في كافة انحاء أوروبا ، من ستوكهولم الى نابولي ، من فينيسيا الى كاديكس أو لينز ، اليكانت ، لشبونه وباريس ولما كانا يملكان ثروة طائلة ، فقد ساهما بنشاط وفعالية في كافة القضايا العامة لمدينتهما ؛ حتى أن أحدهما ، وهو فيليبير ، تخلى تدريجيا عن مهنته ككتبي لكي يتفرغ لوظائفه الرسمية التي أوصلته الى كل من (شوازول) و (نيكر) . انه رجل مجتمع بارز يستقبل في فندق (لاروشفوكو)ويتمتع بشهادة فولتير نفسه « بفكر ثاقب وذوق مرهف » . أما شقيقه (غبرييل)، فكان أقل تألقا، حيث ثابر على مهنته ككتبي ، الا أنه كان موسيقيا يتمتع بحظوة كبيرة لدى النساء ؛ وقد أصبح لفترة ما ، عضوا في « مجلس

المثنين ».التابع لمدينة جنيف ، ثم مستمعا فيه ؛ لكنه ما لبث أن تخلى عن وظائفه لكي يتفرغ كليا لمؤسسة النشر . كان صديقا لفولتير وممثلا ممتازا ، اشترك مع زوجته في معظم التمثيليات التي كان يقدمها (فيرناي) و (ديليس) . أما زوجته فكانت نشيطة مرحة ، حاضرة البديهة ، وعلى اتصال دائم بالمراسلة مع (روسو) . وهكذا كان آل (كرامر) ، الكتبيون البارزون في المجتمع ، والمثقفون المقربون من النبلاء ، يجمعون كافة الصفات والمؤهلات التي تعجب فولتير . لذلك قاموا ، خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٧٥٦ ـ ١٧٧٥ ، باصدار كافة اعماله تقريبا ، حتى اكثرها جراة « كالمعجم الفلسفي » ؛ كما استطاعوا ، عن طريق فولتير ، أن يصدروا مؤلفات فلاسفة كثيرين من امثال (دالمبير) والاب (موريليه)، وأن ينشروها في كافة انحاء أوروبا ثم يدخلوها سرا الى فرنسا .



اذا كان (بيير روسو) و (بورمارشيه) وكثيرون غيرهم ، قد استطاعوا أن ينشئوا في القرن الثامن عشر مطابع خاصة بهم ، واذا استطاع ناشرون كبار من امثال (مارك ــ ميشيل راي) أو (كرامر) ، أن يقوموا بمثل هذا النشاط ، فان ذلك يعود ، كما حدث في القرن السادس عشر ، الى توفر الظروف الملائمة لتوسع المشاريع المكتبية . ففي فترة الازدهار المادي هذه ، وانتشار حمى الفكر ، أصبح الجميع يهتمون بالمسائل الفكرية ، وأصبح باستطاعة أصحاب المكتبات النشيطين والمثقفين أن ينطلقوا في مشاريعهم الكبرى : حتى أن رجلا مثل (كوستلييه) ربط اسمه بمجموعة شهيرة من المختارات لشعراء فرنسيين قدماء ، كما قام رجل مثل (باربو) باصدار بعض المؤلفات الكلاسيكية اللاتينية ضمن سلسلة من الطبعات الانيقة ؛ كذلك شرع (بانكوك) في اصدار موسوعة ضخمة تتألف من / ١٦٦ / مجلدا ، بينما أصدر (زيدلر) في لايبزيغ معجما مختصرا شاملا يتألف من / ٦٤ / مجلدا كبيرا . وهكذا نجد أن كبار الناشرين كانوا يلعبون دورا أساسيا في عالم الادب آنذاك .

الا ان توسع تجارة المكتبة ، وميل قسم كبير من المجتمع الى الطبعات الجميلة ، وازدياد المنشورات بكافة انواعها ، وخاصة الصحف ، كل ذلك دفع ارباب الطباعة الى بذل جهودهم لتحسين تقديم الكتاب والسعي من اجل التوصل الى تحسينات تقنية تمكنهم من العمل والانتاج بصورة اسرع . لذلك لا نستغرب اذا ظهر ، في القرن الثامن عشر وفي كافة انحاء اوروبا ، رجال طباعة من الناقشين القدامى للحروف ، جديرون بأن يكونوا خلفاء لآل (آلد) و (توري) فانتجوا نماذج جديدة من الحروف، كما استطاعوا بأبحاثهم التقنية المتعلقة بالآلة الطابعة وصناعة الورق ، ان يمهدوا السبيل امام الثورة الميكانيكية التي ستحدث انقلابا في مهنتهم عند مطلع القرن التاسع عشر .

فها هو الانكليزي (باسكرفيل) مثلا (١٧٠٦ — ١٧٧٥) ، الذي بدا يهتم بالطباعة عام ١٧٥٠ ، بعد ان كان معلما في فن الخط والكتابة ونقاشا على حجارة القبور . لقد امضى عامين في رسم حروفه وصنع مناقشه ، وابتكر طريقة جديدة لصنع الورق المصقول دون اثر للاسلاك النحاسية (الذي سمي بالورق القضيم) . وفي عام ١٧٥٧ ، اصدر كتابه الاول عن (فيرجيل) ، فكان على درجة استثنائية من الجودة ؛ الا انه توفي مفلسا ، فقام (بورمارشيه) بشراء ادواته من ارملته ، حيث استخدمت في طبعة (كاهل) عن فولتير . وها هو ايضا الايطالي(بودوني)، الذي قبل يافعا كمنضد في « مطبعة الدعاية » بمدينة روما ، والذي شرع في نقش نموذج جديد من الحروف ؛ وفي عام ١٧٦٨ ، كلفه (فرينانند) بانشاء مطبعة رسمية في (بارم) ، حيث لم ينفك يعمل في نقش الحروف واصدار المؤلفات ذات الجودة المدهشة .

وهكذا اقترنت اسماء (باسكرفيل) و (بودوني) وكذلك (كاسلون) بنماذج من الحروف ما زال الناس يستوحون منها حتى يومنا هذا . الا ان اشهر ارباب الطباعة التقنيين هؤلاء ، هم آل (ديدو) الذين يتعشقون مهنتهم ويهوون الطباعة الجميلة . تبدا هذه الاسرة مع (فرانسوا ديدو) ، الناشر الخاص للقس (بريفو) وللكتاب الشهير « التاريخ العام

للاسفار » . وقد قام احد ابنائه الاحد عشر ، « فرانسوا ـ أمبرواز ديدو » بتحسين ادوات الطباعة التي ظلت على حالها منذ القرن السادس عشر ، كما صنع آلة طابعة تعمل بضربة واحدة ، ونقش حروفا جديدة ، وادخل الى فرنسا صناعة الورق القضيم ؛ وقد استطاع ايضا أن يضع حدا للغموض والارتباك اللذين كانا يسودان الدلالة على الحروف وقوتها ، فاوجد قياسا جديدا هو النقطة الطباعية ، كما اصدر الكثير من المؤلفات الجميلة المزخرفة بأسلوب (دافيد) . وفي ظل الامبراطورية ، تابع ولداه (بيير) و (فيرمين) عمله ، بينما قام فرد آخر من أسرة (ديدو) يدعى (بيير ـ فرانسوا) ، بشراء مصنع « ايسون » للورق عام ١٧٨٩ ؛ حيث ستصنع ، بعد سبع سنوات ، أول آلة لصنع الورق المتواصل .

٤ ـ المؤلفون وحقوق المؤلف

ان آخر مهنة ترتبط اخيرا بالطباعة وولدت بفضلها : هي مهنة المؤلف بالمعنى الحديث للكلمة .

فاستفادة المؤلف من الارباح الناجمة عن بيع نسخ من كتابه قد اصبحت اليوم اسلوبا متبعا وجزءا من عادات الناس وتقاليدهم ، ولكن ذلك لم يتم الا بعد مرور زمن طويل ؛ إذ لم يكن من الممكن تصوره أو قبوله قبل ظهور الطباعة . من المؤكد ان المخطوطات كانت تسحب عنها نسخ بالجملة من قبل النساخين ، ولكن كيف يمكن تصور قيام هؤلاء ، في القرون الوسطى ، بمنح قسم من الارباح للمؤلف عن نص لم يكن يحتكره لنفسه ، بل كان مشاعا لكل الناس ينسخون عنه كما يشاؤون ؟ لذلك لم يكن في وسع المؤلفين الذين لا يكتبون لمجرد المجد ولا يملكون دخلا ماديا كافيا ومضمونا ، الا اللجوء لحماية احدى الشخصيات الكبرى أو لاحد حماة الادباء والعلماء ، وبيع بعض النسخ المكتوبة باشرافهم عند ظهور الطباعة لم تحدث تغييرات فجائية ، اذ لم يكن أرباب الطباعة ولا النساخون يحتكرون اصدار المؤلفات التي ينشرونها . كما انهم كانوا يضعون تحت المطبعة المؤلفات القديمة بشكل خاص ، ولم يكن الناشرون

بحاجة الى خدمات العلماء الا من أجل انتقاء المخطوطات الواجب نشرها ولتنقيح اعمال عمال الطباعة . وهكذا دخل رجل الآداب الى المطبعة بصفة منقّح في البداية . كما أصبح الكثيرون من الانسيين المهتمين بالآداب منقّحين ، اتينا آنفا على ذكر العديد منهم .

الا ان النصوص الجديدة ما لبثت ان استنفذت ، فكثرت اعمال التقليد والتزوير ، وبدأ الناشرون ، حفاظا على سمعتهم ، يطالبون بامتيازات تمنحهم لفترة معينة حق احتكار طباعة وبيع المؤلفات التي يصدرونها ؛ كما أخذوا يبحثون ، اكثر فاكثر ، عن مؤلفات جديدة ينشرونها . وهكذا شعر المؤلفون بالتأثير الكبير الذي يمكن أن يمارسوه بفضل الطباعة ، فانهالت مخطوطاتهم على اصحاب المكتبات والمطابع في تزايد مستمر . وقد كانت مسألة الحياة المادية تطرح نفسها بحدّة على الكثيرين من هؤلاء عندما ينضب معين أفكارهم .

لم يكن جميع هؤلاء على درجة كافية من الحظ أو الانضباط حتى يجدوا عملا مستقرا كمنقحين . كما ان مطالبة صاحب المكتبة بالدراهم ، لقاء المؤلفات التي عهدوا بها اليه لكي يربح من ورائها ، وبالتالي بيعه خلاصة فكرهم ، لم يكن هذا قد اصبح مألوفا بعد : وقد ظل مؤلفو القرن السادس عشر — وعدد من مؤلفي القرن السابع عشر — يرفضون الانحدار الى مثل هذا المستوى . لذلك ظل اسلوب التوجه الى أحد « الحماة » متبعا من قبل الكثيرين من المؤلفين لمدة طويلة . فعندما يخرج المؤلف من المطبعة ، يطلب المؤلف نسخا عنه — وهذا أمر طبيعي تماما — ويرسلها الى أحد السادة الاغنياء من محبي الادب ، مرافقة برسالة اهداء يمدحه فيها . عندئذ يقبل هذا الاخير الهدية ويكافىء مرسلها بمبلغ من المال تقديرا له واستحسانا لعمله . في القرن السادس عشر ، كان هذا يبدو طبيعيا ومشرفا ؛ وكذلك كانت عادة القيام بطباعة بعض الرسائل أو الإبيات الشعرية ، في مقدمة الكتاب أو نهايته ، يمتدح فيها بعض الكبار من حماة الادباء الذين يدفعون مقابلها أيضا . أما اذا كان المبلغ ضئيلا ، فان المؤلف لا يتوانى عن هجاء هذا الحامي والتشهير ببخله .

وهكذا راينا رجلا انسيا مثل بيتروس دي بونت ، « أعمى بروج » ، لا يتورع عندما خيب حماته امله ، عن اهداء مؤلفه الى تلامذته مشهرا فيه ببخل هؤلاء الحماة .

ان هذا الاسلوب الذي يصدمنا الآن ، كان يبدو طبيعيا جدا آنذاك ، ومشرفا اكثر بكثير من بيع المخطوطة للناشر . لذلك نجد « ايراسم » مثلا ، يرد على احد خصومه الذي ينكر عليه اخذ الاموال من أصحاب المكتبات ، فيحتج بأنه لم يفعل ذلك الا نتيجة تقصير الاصدقاء الذين يهديهم مؤلفاته . الا انه لا بد من التنويه هنا منعا لكل التباس ، بأن (ايراسم) كان يعيش من قلمه في بحبوحة زائدة . فقد كان يكثر من رسائل الاهداء ، كما كانت سمعته وشهرته تسمحان له بأن يطلب من ناشريه عددا كبيرا من النسخ الخاصة ، حتى انه نظم عبر أوروبا شبكة حقيقية من العملاء الذين كانوا يقومون بتوزيع نسخه ويجمعون لـه المكافآت .

الا أن المؤلفين من أمثال (ايراسم) ، الذين يحصلون على عدد كبير من النسخ ، فقد ظلوا قلائل جدا طيلة القرن السادس عشر ، كما تثبت ذلك الوثائق الخاصة بآل (بلانتين ــ موريتوس) . حتى انه في بعض الحالات ، عندما كانت الدلائل تشير الى أن بيع احد المؤلفات سيكـون محدودا ، كان (بلانتين) يطالب المؤلف أن يتعهد بشراء قسم من الاصدار (الطبعة) ؛ وهكذا اضطر (نيقولا ماميرانوس) ، في عام ١٥٨٦ ، أن يتعهد بشراء ٤٠٠ ــ ٥٠٠ نسخة من كتابه « أناشيد الاعراس لمؤلفه اسكندر فارنيز » كما قام (سيريانوس) ، عام ١٥٧٢ ، بشراء / ١٨٦ / نسخة من أصل / ٣٠٠ / عن كتابه « شرح اسفار تثنية الاشتراع » لقاء / ٢٠٠ / فلورين . كانت هذه الحالات كثيرة شائعة ، وخاصة بالنسبة للمؤلفين الموسيقيين . من المؤكد ان المؤلف ما زال حتى اليوم يساهم أيضا بالنسبة للمؤلفات المحدودة التصريف ، الا اننا نستغرب اكثر عندما نلاحظ أن معظم مؤلفي (بلانتين) لم يكونوا ياخذون مكافآت من اي نوع كان ؛ ولكن (بلانتين) يهديهم أحيانا بعض الكتب : ويمكن أن ناخذ

(جورج بوكانام) مثالا على ذلك . لذلك يعتبر في هذه الشروط كل من (جان اسحاق) ، الذي استلم / ١٠٠ / نسخة من كتابه «القواعدالعبرية» (Grammatica hebraea) (١٥٦٤) ، او (اوغوستين هونو) الذي اعطاه (بلانتين) / ٢٠٠ / نسخة من كتابه (الديالكتيك) « Dialectica » مميزين فعلا . الا أن (بلانتين) كان يقدم لمؤلفيه هدايا ثمينة : ففي عام ١٥٦٧ ، تلقى (ادريان فونيوس) من اجل كتابه (Nomenclator) قطعة فاخرة من المخمل الناعم ، كما أقام في ضيافة (بلانتين) مدة ثلاثة ايام . وفي بعض الحالات النادرة ، كان (بلانتين) يقبل أن يعطي بعض المؤلفين مبلغا من المال علاوة على عدد من نسخ الكتاب : ففي عام ١٥٦٧ ، تلقى (بيير دي سافون) ، من أجل كتابه « تعليمات عن طريقة مسك دفاتر الحسابات » ، مئة نسخة و / ٤٥ / فلورين ؛ وفي عام ١٥٨١ ، تلقى (غيشاردين) ، من اجل مراجعة كتابه اللاتيني المعروف « Descrittione di tutti i Paesi Bassi » ، خمسين نسخة علاوة على /٨١/ فلورين .

عما قريب ، سيعتاد المؤلفون على بيع مؤلفاتهم لاصحاب المكتبات لقاء مبلغ معين من المال . الا ان بعضهم ، من ذوي المؤهلات العالية خاصة ، يرفضون قبول الاموال ؛ وهؤلاء قلة لان السواد الاعظم من رجال الادب ليسوا فخورين الى هذا الحد ، وخاصة كتاب المسرحيات والروائيون . اما اذا رأينا (بوالو) و (لابروييار) لا يبيعان مخطوطاتهما (علما بأنهما كان يعتزان بذلك دائما ويرددانه لكي يستفيدا منه) ، فان كلا من بنسيراد ، روترو ، كورناي ، لافونتين وموليير كانوا يبيعون مسرحياتهم الكوميدية والماساوية . في عام ١٦١٤ ، قام (هونوريه دورفيه) ، وهو من كبار النبلاء الذين لا يليق بهم اخذ دراهم من أصحاب المكتبات ، باعطاء خادمه الخاص الجزء الثالث من (Astrée) ، فاستلم هذا الخادم من الكتبي / ١٠٠٠ / كتاب كرشوة ، بالاضافة الى ستين نسخة للمؤلف . وقد بدات الارقام ترتفع اعتبارا من عام ١٦٦٠ ؛ حيث استلم (سكارون) / ١٠٠٠ / كتاب من أجل « الحكاية الهزلية » ،

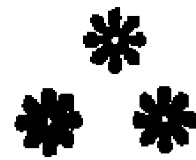
و /٠٠٠ر١١/ كتاب من اجل « فرجيليوس المتنكـر » ؛ كمـا استلم (فارياس) من (باربين) / ٠٠٠ر٣٠ / كتاب من اجل قصيدته «الهرطقه»؛ كذلك استلم ورثة (م. دي ســاسي) /٠٠٠ر٣٣/ كتاب من الكتبـي (ديسبريز) مقابل مخطوطات للمتوفي .

في مثل هذه الظروف ، يمكننا ان نفهم بصورة افضل هذه الابيات التي نظمها (بوالو) ، والتي تقول :

« انني استطيع ان افهم كيف يمكن للمفكرين ان يستفيدوا من عصارة افكارهم بشكل مشروع بلا ذنب او خجل .

ولكنني لا استطيع تحمل هؤلاء المؤلفين المشهورين ،
الذين اشمأزوا من المجد وانقادوا للمال ،
فوضعوا (ابولون) رهينة لدى الكتبي
جاعلين من الفن الآلهي مهنة تجارية » .

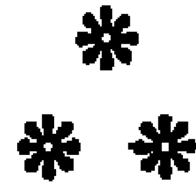
الا ان المؤلفين الذين ينجحون هكذا في سحب مبالغ كبيرة من المال من اصحاب المكتبات كانوا قلائل جدا . وقد كانت المبالغ التي يتلقاها المؤلفون ، باستثناء بعض الحالات المنفردة ، ضئيلة في الواقع ، وخاصة عند نهاية القرن . لذلك كانوا مضطرين ، في سبيل العيش ، للجوء الى وسائل اخرى ؛ حيث استمروا في بيع المقدمات ورسائل الاهداء : فقد قام (كورناي) على سبيل المثال لا الحصر ، باهـداء كتابـه (Cinna) الى ممول يدعى (دي مونتورون) ، فأعطاه هذا بالمقابل / ٢٠٠ / ريال . وهكذا استمر السادة النبلاء والاغنياء في مساعدة المؤلفين وايوائهم ، ليس فقط بدافع من حبهم للآداب ، بل بدافع من حب الظهور والحفاظ على الهيبة . وكم من اعمال التزلف والوضاعة ارتكبت للحصول عـلى الرواتب والمنح التي كان يقدمها لويس الرابع عشر للادباء والكتاب ! في الحقيقة ، لم يكن رجل الآداب قد حصل على استقلاله بعد تجاه الكبار والسلطة ، في فرنسا على الاقل .



لقد كانت الامور تسير على هذا المنوال لان حقوق المؤلفين لم تكن محفوظة بعد . فعندما كان أصحاب المكتبات يشترون مخطوطة ما ، عندئذ لا تعود للمؤلف اية علاقة باصدار كتابه أو نشره . بل كان الامر يذهب ابعد من ذلك ، لان عدم وجود مبدأ الملكية الادبية يسمح لاي كتبي باصدار المخطوطات التي يمكنه الحصول على نسخة منها دون استشارة المؤلف . فنحن نعرف مثلا ، كيف استطاع الكتبي (ريبو) أن يحصل على نص «المتحذلقات المضحكات» (Précieuses ridicules)، ويقوم باصدارها دون موافقة (موليير) ، بل حصل ايضا على امتياز يحظر قانونيا على المؤلف طباعتها بدوره . صحيح أن (موليير) نجح في الغاء هذا الامتياز ، الا أن كافة المؤلفين لم يكونوا على مثل هذه الدرجة من التوفيق والحظوة. وخلاصة القول ان اسلوب التعويض على المؤلفين كان يثير العديد من الاعتراضات والحزازات والاحقاد : فالمبلغ المدفوع للمؤلف لقاء شراء المخطوطة ، كان يحدد ويعطى قبل الاصدار ، بغض النظر عن النجاح الذي يمكن أن يلاقيه الكتاب . لذلك لم يكن المؤلف يحصل على شيء اذا أعيدت طباعته مرة او مرات . في مثل هذه الشروط ، يمكن فهم التذمر الذي كان يبديه أصحاب المكتبات دائما من مغالاة المؤلفين في تقييم اعمالهم ومطالبتهم بمبالغ باهظة . كما يسهل ايضا فهم الكثيرين من الكتّاب الذين كانوا يشعرون بالغبن ، خاصة وان العرف الذي كان سائدا في القرن الثامن عشر ، يعطي أصحاب المكتبات حق تحديد الامتيازات ، فيحتكرون بهذا الشكل حق اصدار المؤلفات التي اشتروا مخطوطاتها الى الابد ؛ وهكذا يجمعون الثروات الطائلة ، بينما يحتمل أن يعيش الكتاب أو احفادهم ، أصحاب الحق الحقيقي ، في البؤس والفاقه .

لذلك نجد ، اعتبارا من نهاية القرن السادس عشر ، أن الكثيرين من المؤلفين حاولوا طباعة مؤلفاتهم على حسابهم الخاص ، حفاظا على الارباح من جهة ، ولكي يتمكنوا من الاشراف بأنفسهم على نشرها من جهة ثانية. هكذا فعل كل من (سان ــ أمان) و (سيرانو) على سبيل المثال ، كما حذا حذوهم العديد من الكتّاب في فرنسا وانكلتره والمانيا . الا ان اصحاب المطابع والمكتبات لم يكونوا ينظرون الى مثل هذه المحاولات بعين الرضى ،

ويحاولون بكافة الوسائل عرقلة تصريف الكتب المطبوعة « على نفقة المؤلف » . كذلك كانت الجمعيات والمنظمات المهنية تتدخل أيضا ، وتسعى جاهدة لمنع المؤلفين من سلوك هذا السبيل ؛ وقد كانت تنجح في ذلك أحيانا كثيرة . مع ذلك ، وتحت ضغط الراي العام ، فان هذا الاسلوب الذي يلزم المؤلف بأن يتحول نوعا ما الى رجل أعمال ، قد أوشك أن يعمّ فرنسا كلها سنة ١٧٧٣ ، بينما نجد في المانيا ، حيث كان الكتّاب من أمثال (ليسنغ) يقومون باصدار كتبهم بأنفسهم ، أن عدة دور تعاونية للنشر قد بدأت بالظهور ، أهمها « جمهورية العلماء » لصاحبها كلوبستوك (١٧٧٤) .



الا أن الاتجاه كان يميل شيئا فشيئا نحو الحل الحالي : وهو الاعتراف القانوني « بالملكية الادبية » للمؤلف ، خلال فترة محددة من الزمن ، يصبح الكتاب بعدها تابعا « للميدان العمومي » ، مع اشتراك المؤلف في الارباح الناجمة عن بيع النسخ كلما أمكن ذلك عمليا .

تعتبر انكلتره هي أول من فتح هذا الطريق : فاعتبارا من القرن السابع عشر على ما يبدو ، بدأ أصحاب المكتبات يقبلون أحيانا أن يتعهدوا للمؤلف بعدم القيام بأية اعادة طبع دون موافقته ، وبالتالي دون اعطائه مبلغا جديدا من المال . وفي ٢٧ نيسان سنة ١٦٦٧ خاصة ، عندما قام الشاعر (ميلتون) ببيع مخطوطته (الفردوس الضائع) «Paradise lost» لقاء خمسة جنيهات ، تعهد ناشره (صموئيل سيمونز) بأن يعطيه خمسة جنيهات أخرى عندما تنفذ الطبعة الاولى (١٣٠٠ نسخة) ، وأن يعطيه المبلغ ذاته عندما يتم بيع كافة نسخ الطبعتين الثانية والثالثة . وفي عام ١٧١٠ ، أصدرت الملكة (آن) انظمة جديدة تحل فيها المسألة على الصعيد القانوني : حيث أعطيت « حقوق الطبع » ، من الآن فصاعدا ، للمؤلف وليس للكتبي ؛ وأصبح المؤلف هو الذي يسجل كتابه في السجل الرسمي، كما أصبح مالكا شرعيا له . كما يحتفظ في الوقت نفسه باحتكار طباعته

وبيعه لمدة اربعة عشر سنة قابلة للتمديد اربعة عشر سنة اخرى اذا كان لا يزال حيا عند انتهاء المهلة الاولى . وهكـذا اصبح المؤلفون الانكليز يتقاضون ، من الآن فصاعدا ، من الكتبيين مبالغ كبيرة جدا في بعض الاحيـان .

أما على القارة الاوروبية ، فقد مضى وقت اطول من ذلك بكثير قبل ان يتم الاعتراف بحقوق المؤلفين الذين ظل أصحاب المكتبات يشترون منهم مخطوطاتهم ويدفعون لهم تعويضهم سلفا . الا ان الاسعار ارتفعت خلال القرن الثامن عشر : ففي المانيا ، كان اصحاب المكتبات في (لايبزيغ) يدفعون مبالغ كبيرة في النصف الثاني من هذا القرن . أما في فرنسا ، فقد ظلت الاسعار متدنية حتى حوالي عام ١٧٥٠ ؛ فقد دفـع الكتبي (برولت) مبلغ / ١٠٠٠ / ليرة لفولتير لقاء كتابه «الشاب العائد التائب»، الا أن هذا المبلغ يظل مع ذلك أعلى بكثير مما كان يتقاضاه (كريبيون) و (ديتوش) اللذان لا يعتبران من المبتدئين . وقد ذكر (روسو) بأن (كونديياك) وجد صعوبة كبرى حتى باع كتابه « محاولة حول أصـل المعارف الانسانية » للكتبي (دوران) بمبلغ مئة ريال عام ١٧٤٧ . كما تلقى (روسو) نفسه مبلغ / ٢٥ / ليرة ذهبية فرنسية لقاء كتابه « مقالة عن عدم المساواة » ، و / ٣٠ / ليرة ذهبية من أجل « رسالة الى دالمبير »، و / ٦٠٠٠ / ليرة من أجل كتابه (آميل) (l'Emile)، اما (بو فون) فحصل على اكثر من / ١٥٫٠٠٠ / ليرة مقابـل كل مجلد من مؤلفه المعـروف « التاريخ الطبيعي » ؛ صحيح أنه كان يتكبد نفقات كبيرة لصنع اللوحات، الا ان جميع المؤلفين ، حتى الثانويين منهم ، بدؤوا يتقاضون مبالغ مرتفعة أعتبارا من عام ١٧٧٠ بشكل خاص .

اذا كان أصحاب المكتبات قد قبلوا زيادة أسعار شراء المخطوطات ، فانهم كانوا مزمعين على عدم مشاركة المؤلفين في الارباح . وصحيح ان (توماس كورناي) شارك منذ مطلع القرن في بيع « معجمه » ، الا أن هذه كانت حالة استثنائية جدا . في بعض الحالات الخاصة ، كان اصحاب المكتبات يقبلون بأن يدفعوا للكاتب قسما من الارباح بعد سداد كافـة

النفقات . فقد وقّع (روسو) عقدا من هذا النوع عام ١٧٤٢ ، من أجل كتابه « بحث في الموسيقى الحديثة » ، الا انه لم يقبض شيئا البتة . كذلك فعل (دالمبير) عام ١٧٥٣ من أجل مؤلفه « مزيج من الادب والتاريخ والفلسفة » . ولكن هذه الطريقة ، التي كانت تتطلب حسب قول (ديدرو) « ثقة زائدة من طرف ونزاهة كاملة من الطرف الآخر » ، ظلت استثنائية ونادرة .

الا ان مسألة حقوق المؤلفين في اعمالهم ، ظلت طوال القرن تثير الانتقادات والدعاوي المتزايدة المتفاقمة ، حتى بدا مذهب واضح يتبلور بصورة تدريجية . عند بيع مؤخر المكتبات ، كان بعض المؤلفين يستنكرون بيع امتيازات اعمالهم دون أن ينالوا منها شيئا . ففي عام ١٧٣٦ مثلا ، قامت جماعة من اصحاب المكتبات بشراء مستودع (ريبو) الذي كان يضم خمسة مؤلفات لـ (كريبيون) ، فاعترض هذا على هؤلاء وهاجمهم في المجلس ؛ عندئذ عرضوا عليه / ٥٠٠ / فرنك شريطة ان يجري على اعماله بعض التصحيحات ، فقبلها على التو بسبب ضيق ذات يده . الا انه ما لبث ، بعد ذلك بخمسة عشر سنة ، أي في عام ١٧٥٢ ، أن حصل على امتياز من الملك باصدار مجموعة اعماله المطبوعة في المطبعة الملكية . هنا هبّ في وجهه أصحاب المكتبات ، الذين كانوا قد اشتروا مخطوطاته ، واعترضوا على تسجيل هذا الامتياز الذي يبدأ مفعوله في عام ١٧٥٥ فقط ، اي بعد انتهاء مفعول الامتياز الذي حصلوا عليه في عام ١٧٤٦ (والذي كانوا سيقومون عادة بتمديده) .

لا نعلم بالضبط ماذا تم بشأن هذه القضية ؛ الا ان أصحاب المكتبات ما لبثوا أن فشلوا فشلا ذريعا : ففي عام ١٧٦١ ، حصلت حفيدات (لافونتين) على امتياز من أجل « حكايات » و « قصص » جدّهن . فحاول أصحاب المكتبات الاعتراض على ذلك محتجين بأن ملكية هذه الاعمال تخصهم وحدهم بموجب الحقوق المكتسبة عام ١٦٨٦ من قبل (باربين) ، كتبي لافونتين ، واستنادا الى الامتيازات والتمديدات التي

اعطيت منذ ذلك الحين ؛ الا أن اعتراضهم هذا رفض بموجب قرار المجلس المؤرخ في ١٤ كانون الاول من عام ١٧٦١ ، والذي أوصى به (ملزيرب) « Malesherbes » وعما قريب سيتم التأكيد على حقوق المؤلفين ، عندما يصدر حكم قضائي بالغاء الحجز الذي نفذه اصحاب المكتبات ضد الكاتب (لونو دي بواجيرمين) ، الذي كان يصدر اعماله على نفقتهالخاصة ويتدخل في تصريفها وبيعها .

منذ ذلك الحين والمذكرات تتتالى حول الحقوق الخاصة بكل من المؤلفين واصحاب المكتبات . فقد قام هؤلاء الاخيرون بتكليف (ديدرو) بالدفاع عن وجهة نظرهم ، بينما كان كل من (ملزيرب) ثم (مارتين) مؤيدين لوجهة نظر المؤلفين . واخيرا ، في آب ١٧٧٧ ، صدرت خمسة قرارات تحاول حل المسألة ، ثم تلاها قرار آخر في ٣٠ تموز ١٧٧٨ . أصبح المؤلفون ، من الآن فصاعدا ، يتمتعون بامتيازات غير محددة ، بينما يتمتع الكتبيون بامتيازات مؤقتة لمدة عشر سنوات على الاقل ، لا يمكن تجديدها الا بزيادة الربع . كما يحق لكل مؤلف حصل على امتياز، أن يبيع كتابه لديه ، وأن يعيد طباعته على نفقته ولحسابه متى أراد ، أو أن يطبعه لدى أي صاحب مطبعة يشاء أو يبيعه بواسطة أي كتبي يريد ، دون أن تؤدي العقود أو الاتفاقات التي يعقدها الى الغاء امتيازه .

واخيرا ، وبعد ستة عشر سنة ، أصدرت الجمعية التأسيسية قانونا ينظم حقوق المؤلف ويرسي القواعد الاساسية للتشريع الحالي : حيث اصبح من حق المؤلف أن يبيع ويوزع مؤلفاته أو أن يتنازل عن ملكيتها جزئيا أو كليا ، كما أصبح حقه في الملكية يمتد لصالح ورثته لمدة عشر سنوات بعد وفاته (وقد ارتفعت هذه المهلة اليوم الى خمسين سنة) . وهكذا ، عند نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر ، بدأت القوانين المماثلة تنتشر تدريجيا في كافة أنحاء اوروبا معلنة حقوق المؤلفين. وهكذا أصبح باستطاعة هؤلاء من الآن فصاعدا ، أن يدافعوا عن مصالحهم بوسائلهم الخاصة . في القرن التاسع عشر ، وقع معظمهم مع ناشريهم عقودا تتعلق بطباعة مؤلفاتهم على عدد معين من النسخ مع الاحتفاظ

بحقوقهم في حالة اعادة الطباعة . لا شك في أن « مهنة المؤلف » لا تؤمن دائما دخلا كبيرا : لذلك رأينا أن (بلزاك) ، الذي لم يكن يحسن الحساب، قد عاش مثقلا بالديون رغم عمله المتواصل المستميت . الا أن المؤلفين اصبحوا يستطيعون على الاقل ، ان يحصلوا على تعويضات تتناسب مع نجاح أعمالهم .

وهكذا تشكلت بالتدريج مهنة المؤلف ، وقبل كما جعل الآخرين يقبلون ويسلمون بحقه في أن يستفيد ماديا من عمله ، وأن يصبح سيد هذا العمل ومالكه دون منازع . كما استطاع في الوقت نفسه ، أن يتحرر غالبا من القيود التي ظلت تكبله مدة طويلة ، وتربطه بكرم الممول والمحسن والحامي ، أو تخضعه لاعانات السلطة ومساعداتها . ولكنه لم يستطع التخلص من جميع القيود : فقد أصبح عليه من الآن فصاعدا ، بعد أن أصبح شريكا في الارباح ، ان يسعى نحو « السحب الكبير » والانتاج القابل للتصريف ؛ وهذا يفرض عليه محاولة ارضاء أكبر عدد ممكن من القراء ، مما يؤدي بالضرورة الى تشجيع الكم على حساب الكيف .



الفصل السادس

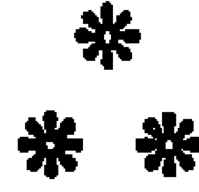
(جغرافيــة الكتــاب)

وكلاء التوزيع

بعد انجاز الصيغة النهائية لتقنية الطباعة في (مايانس) ، داخل ورشات « غوتنبرغ » و « فوست » و « شوفر » ، لا بد أن يكون السؤال التالي قد راود أذهان عمال الطباعة الاوائل : هل سيظل الفن الجـديد وقفا عليهم واحتكارا خاصا بهم ؟ أم على العكس ، سيشهدون ولادة مطابع جديدة مزاحمة ؟ لقد بذل (شوفر) من جهته قصارى جهـده للحيلولة دون أي تسرب للسر ، فجعل عماله يقسمون ، وفق التقليد المتبع ، على عدم افشاء الاسرار التي علمهم اياها . الا أن كثيرين من الباحثين كانوا قد قاموا ، منذ بضع سنوات ، يبذل الجهود الحثيثة لكي يتوصلوا بانفسهم الى حل مسألة الطباعة . وقد كانت فائدة الاختراع الجديد ، من الناحيتين الفكرية والتجارية على حد سواء ، تبدو كبـيرة جدا لدرجة يستحيل معها الحفاظ على السر .

وهكذا لم يتمكن أولئك الذين اخترعوا الطباعة من الاحتفاظ باحتكارهم اكثر من عشر سنوات . منذ عام ١٤٥٨ ، من المحتمل ان يكون ملـك فرنسا قد ارسل أحد رجاله الى « مايانس » لتسقط أخبار الاساليب الجديدة. وفي عام ١٤٥٩ ، اصدر (مانتلان) كتاب التوراة في ستراسبورغ. بينما كانت عدة ورشات تقام في (مايانس) نفسها ، كانت مدن الوادي

الريناني ، ثم مدن منطقة (بو) في ايطاليا تشهد تدفق عمال الطباعة باعداد كبيرة قبل عام ١٤٧٥ ؛ كذلك كان الامر في باريس وليون واشبيليا وغيرها من المدن .



ظلت مهنة عامل الطباعة وقفا على الجرمانيين دون سواهم تقريبا (تماما كما كان عليه الوضع بالنسبة لسدنة المدافع سابقا) . كما كان ارباب المطابع الاولى من العمال القدماء لغوتنبرغ أو شوفر ، أو من الرجال الذين تعلموا المهنة بالتماس معهم .

غريبة حقا هي قصة هذه الحفنة من الرجال ، الذين تدهشنا فيهم روح المبادرة والمفاخرة ، والذين تركوا مشغل رب عملهم ، واخذوايجوبون ارجاء أوروبا ، على طريقة الكثيرين من معاصريهم ، حاملين معهم عتادهم ، يمارسون الفن الجديد ويعلمونه . فهم غالبا اشبه بالقبائل الرحل ، يحطون رحالهم في المدن وفق الطلبات والتوصيات ، رأسمالهم الوحيد هو المعرفة التي تزودوا بها والعتاد المحدود الذي يحملونه . كان هؤلاء جميعا يبحثون عن الممول الذي يتيح لهم الاستقرار ، والمدينة التي تتجمع فيها الشروط اللازمة لاقامة مطبعة ثابتة . لم يكن يقعدهم عن مواصلة اسفارهم أي حائل : أولم يصادف احد أطباء نورمبرغ (جيروم مونزر) ، ثلاثة من عمال الطباعة الالمان الذين اقاموا في غرناطة عام ١٤٩٤ ــ اي بعد سنتين فقط من تحرير المدينة من النير العربي ؟ كذلك لم يتردد عاملان آخران من (ستراسبورغ) و (نوردلنجن) في الاقامة في (ساو ــ توميه) ، هذه الجزيرة الافريقية على خليج غينيا رغم ما فيها من مناخ ضارومعيشة قاسيــة .

من بين هؤلاء الرجال « جوهان نوماستر » ، وهو أحد الكهان الذي يحتمل جدا أن يكون قد عمل مع « غوتنبرغ » كشريك له خلال عــام ١٤٥٩ ــ ١٤٦٠ . بعد ذلك ببضع سنوات ، غادر ضفاف الراين ، يشده

كالعديد من رواد الطباعة الالمان ، اغراء ايطاليا ، هذا البلد الذي تقدس فيه الكلمة وتزدهر الآداب ، وحيث يمكن أن يأمل عمال الطباعة وأربابها في النجاح . فهل انضم « نوماستر » هذا الى تلك المستعمرة من العمـال الالمان الذين قادهم سوينهايم وبنارتز عـام ١٤٦٤ الى « سوبياكـو » و « روما » ، أو استدعي الى روما مع (أولريخ هاهن) من قبل الكاردينال « توركمادا » ؟ المهم انه أقام عام ١٤٧٠ في (فولينيو) ، وهي مدينة صغيرة من مقاطعة (أومبري) ومقر لاحدى الاسقفيات ، حيث وجد ممولين وشركاء من أمثال : الصائغ (اورفيني) واخيه (ماريبتو) ، ثم (ايفا نجيليستا انجيليني) . وبمساعدة هؤلاء ، أصدر « تأريخ الحرب المشهورة على الغوط » لليونارد بروني ثم « رسائل الى الاهل » لشيشرون ، وكذلك الطبعة الاولى لاعمال (دانتي) .

الا ان هؤلاء الشركاء ما لبثوا ان ملوا لانهم وجدوا أن هذه الطبعات غير مربحة بما فيه الكفاية . كما أن ظروف العمل كانت صعبة بالنسبة لرجال الطباعة الالمان في ايطاليا ، لان تجارة الكتاب وسوقه لم تكونا قد نظمتا بعد : ففي روما نفسها ، نجد كلا من سوينهايم وبانارتز على وشك الافلاس ، بينما مستودعاتهمـا تغص بالكتب غير المباعـة ، حتى انهما اضطرا الى رفع استرحام الى البابا سيكست الرابع . وهكذا اضطر (نيمايستر) لمغادرة المدينة بعد ان اودع السجن فترة من الزمن بسبب الديون المتراكمة عليه . اما العمال الذين جمعهم فقد تفرقوا أيضا ؛ فقصد بعضهم (بيروز) حيث افتتح (براكيو بغليون) ، وهو من النبلاء الاثرياء، مشغلا جديدا . الا ان (نيمايستر) لم يلحق بهم ، بل توجه ولا شك الى (مايانس) : حيث قام على الارجح ، في عـام ١٤٧٩ ، باعادة طباعـة (تأملات) « Meditationes » (توركمادا) ، مزخرفة بالنقوش المحفورة على المعدن والمستمدة من أصل ريناني . ولكنه لم يتأخر طويلا في هـذه المدينة ، حيث التزاحم على اشده وحيث لم تتوفر له رؤوس الامـوال اللازمة . ومن المحتمل انه مر أولا بمدينة (بال) حيث التقى مجددا بالعديد من زملائه القدامى ، ثم عرج على (ليون) حيث يتدفق عمـال

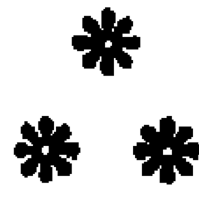
الطباعة الالمان من كل حدب وصوب ؛ ثم ما لبث أن سلك درب (تولوز) الذي كان يعج بالتجار الليونيين الذين يحملون معهم كتبهم . واخيرا نجده يقيم في (ألبي) عام ١٤٨٠ ، وهي مدينة أسقفية هامة وغنية ، حيث يستطيع رجل الطباعة ان يامل في العثور على عمل مستقر . ومن المحتمل ان يكون قد جرّه اليها الاسقف الايطالي (ليريكو) . على كل ، قام هناك بطباعة كتيّب اخلاقي لانياس سيلفوس ، يدعى « في علاج الحب » بالاضافة الى « تاريخ الحكماء السبعة » ، والى طبعة جديدة ، بواسطة نفس اللوحات ، لكتاب « التأملات » لتوركمادا ، علاوة على كتاب نصفي روماني ضخم للصلاة ، مضمون التصريف أوصى عليه مجلس كهنة ليون . غادر (نيمايستر) مدينة البي قاصدا ليون ، بناء على دعوة وجهها اليه الاسقف (شارل دي بوربون) . وفي عام ١٤٨٥ ، قام في هذه المدينة بطباعة كتاب للقداس والصلاة طباعة ممتازة . عندئذ عثر على حام جديد يدعى (انجيلو كاتون) ، أسقف وكونت فيينافي دوفينيه ، صديق (كومين) الذي يكتب « مذكراته » بناء على طلب من الحبر الكبير . وقد قام (كاتون) بنفسه باعادة تنظيم وتنقيح كتاب قداس لأبرشيته ، طبعه (نيمايستر) عام ١٤٨٩ . وفي عام ١٤٩٥ ، قام هذا الاخير أيضا باصدار كتاب (أوزاس) للقداس بالاشتراك مع (توبييه) . الا أن جميع هذه الرحلات وكافة هذه الاعمال لم تغن الرفيق القديم لغوتنبرغ ؛ ففي عام ١٤٩٨ ، اعفي من الرسوم بسبب فقره ، كما اضطر في العام نفسه للعمل كعامل بسيط لدى شريكه القديم (توبييه) ، قبل أن يموت بصورة غامضة بين عامي ١٥٠٧ ــ ١٥٠٨ .

لا شك ان أمثال (نيمايستر) لم يلاقوا جميعهم نفس المصير ولم يعرفوا نهاية مماثلة ؛ فقد نجح الكثيرون منهم بصورة افضل واستقروا بسرعة أكبر . الا ان هذا المثال يبين لنا جيدا كيف قام رجال الطباعة الاوائل ، رفاق غوتنبرغ وشوفر ــ ثم تلاميذهما فيما بعد ــ بتعليم أوروبا فن الطباعة . كما يبين لنا أيضا كيف كان الترحال من السمات المميزة لمهنة رجل الطباعة . وهكذا ظل عمال الطباعة الجوالون

مدة طويلة يبحثون من خلال اسفارهم ، عن المكان الذي يؤمن لهم العمل والاستقرار . لذلك شهد جنوب غرب فرنسا خاصة ، طوال القرن السادس عشر وحتى في القرن السابع عشر ، افواجا من عمال الطباعة الجوالين الذين يتوقفون لمدة بضعة أشهر ، واحيانا لبضع سنين ، في مدينة صغيرة وجدوا فيها عملا قبل ان ينزحوا مجددا الى مكان آخر . ولم تكن تلك حوادث فردية ؛ بل كانت هذه هي حال الكثيرين ، ومنهم ايضا صانعو رافدات المذبح الفرنسيون ـ الفلمنديون الذين كانوا يهيمون على وجوههم بحثا عن الرزق خلال تلك الفترة نفسها . في القرن السابع عشر ، توقف العديد من هؤلاء العمال في هذه المدينة أو تلك ، اثناء تجوالهم حول فرنسا ، حيث عثروا على زوجة ورؤوس اموال تكفي لاستقرارهم في العمل والاقامة . أما البعض الآخر ، فقد رجع خلال بضع سنين ، الى المدينة التي وجدوها انسب من سواها لممارسة نشاطهم ، سواء باقامة مشغل طباعي او افتتاح مكتبة .

٢ ـ العوامل المؤثرة في اجتذاب الورشات الطباعية وثباتها

كيف عمد رجال الطباعة الاوائل الذين انطلقوا من (مايانس) ومن مدن المنطقة الرينانية ، ثم تلاميذهم ومنافسوهم من بعدهم ، الى اقامة مطابعهم في هذه المدينة او تلك ؟ ومن الذي دفعهم الى ذلك ؟ من الذي قدم لهؤلاء الرجال الذين لا يملكون شيئا ، رؤوس الاموال والوسائط اللازمة لمباشرة الطباعة والنشر ؟ وبتعبير آخر ، ما هو الاسلوب الذي اتبعته الطباعة للانتشار تدريجيا خلال ثلاثة قرون في كافة انحاء اوروبا الغربية ؟



ان العامل الاول الهام في فترة البداية خاصة : هو العمل الذي قام به بعض الرجال والجماعات المهتمين بالحصول على بعض النصوص ونشرها .

اما أول هؤلاء فهم « حماة » الآداب والعلوم ، من امثال (جان دي روهان) سيد « بريهان ــ لودياك » ، الذي كان أقل ثراءا مما يوحي به اسمه ، لانه كان من احد فروع أسرة (روهان) ؛ الا انه كان محبا للآداب، يمتلك قصرا جميلا جدا يعود الى القرن الخامس عشر ما زال يشاهد الى الآن على بضعة كيلو مترات من قضاء (سان ــ ايتيان دوغيه دي ليسل) . بالقرب من هذا القصر ، وفي عام ١٤٨٤ ، أسكن (جان دي روهان) اثنين من رجال الطباعة هما (جان كريس) و (روبين فوكيه)، استطاع مشغلهما انتاج ما لا يقل عن عشرة مؤلفات خلال تسع سنوات ؛ وقد شكلت مجموعة المؤلفات هذه موسوعة حقيقية من المعارف التي كان يرغب في الحصول عليها كل سيد مثقف آنذاك :

« وفاة السيدة العذراء » ؛

« Les Loys des Trépassés avec le Pèlerinage Maistre Jean de Mung en airsion. »

صبر (غريز يليديس) ؛ كتاب النبلاء للصلاة (وهو عبارة عن قصيدة مؤلفة من ٤٤٥ بيتا من الشعر ؛) دعاء « بيير دي نيسون » ؛ حلم العذراء « جان دارك » ؛ المرآة الذهبية للنفس الخاطئة ؛ العادات والدساتير في بريطانيا ؛ حياة السيد المسيح ؛ سر اسرار ارسطو .

لم تكن مثل هذه الحالات استثنائية ولا نادرة ؛ بل كان يحدث أحيانا ان يقوم اناس من سواد الشعب باستدعاء رجال الطباعة للعمل لديهم ، وذلك بسبب الاهتمام الواسع الذي لقيته الطباعة . الا أن معظم الذين شجعوا الطباعة واخذوا بيدها في خطواتها الاولى ، هم من رجال الدين في اغلب الاحيان ، لان الكنيسة وجدت في هذا الفن الجديد ضالتها المنشودة . ومما زاد في اظهار اهمية الخدمات التي يمكن للطباعة تقديمها، هي الحروب التي نشبت في القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ، والتي ادت الى تدمير عدد كبير من الكنائس واتلاف الكثير من الكتب الدينية فيها . ففي عام ١٥٠٨ مثلا ، اخذ كهنة (دول) « Dole » يصرخون ويتذمرون من عدم وجود كتب للصلوات والقداس بعد اختلال

المدينة من قبل الفرنسيين وما رافق ذلك من اعمال السلب والنهب . وهكذا اخذ رجال الطباعة يعملون دون كلل أو ملل في انتاج الكتب التي كانت الكنيسة بحاجة ماسة اليها آنذاك : ويكفي اثباتا لذلك ذكر تاريخ كتاب قداس (Besançon) الذي كان قد طبع في (سالين) عام ١٤٨٤ ، ثم اعيدت طباعته في باريس من قبل (نيقولا دي بريه) عام ١٤٩٧ ، كما تم تقليده في (ليون) في العام نفسه ، من قبل (مييه) ضمن غلاف يحمل عنوانا مزيفا لمدينة البندقية . تدل هذه الطباعات المتعددة لنفس كتاب القداس هذا على مدى الحاجة الماسة آنذاك الى نسخ كثيرة من مثل هذه المؤلفات . وهكذا كان الاساقفة يعمدون في أماكن كثيرة الى استدعاء رجال الطباعة لسد حاجتهم من الكتب ؛ ويعتبر تاريخ (نيمايستر) خير برهان على ذلك . وفي أحيان كثيرة ، كان الكهنة البسطاء هم الذين يقومون بتمويل اقامة الورشات اللازمة لطباعة كتب الصلوات والقداس ، كما السيد (جان دي بريه) ، أفضل رجل طباعة في باريس ، حيث قدم له مسكنا تابعا للكنيسة لكي يقوم فيه بطباعة كتاب للصلاة وآخر للقداس لصالح الابرشية (١٤٨٢ ــ ١٤٨٣) .

لا شك ان الكهنة كانوا يركزون في مطاليبهم على طباعة الكتب الدينية بالدرجة الاولى لانهم كانوا بحاجة ماسة اليها . الا أن مطاليتهم هذه لم تقتصر على هذا النوع وحده ، بل كانت تشمل أيضا النصوص المقدسة والمؤلفات اللاهوتية التي تسهل عمل العلماء ، وكذلك النصوص الكلاسيكية القديمة والمؤلفات المخصصة للطلاب التي من شانها تسهيل الحصول على المعرفة . الا ان ابرز شيء كان الاكثار من طباعة النصوص الشعبية المتعلقة بالتدين والتقوى . هذا هو دور الطباعة الاساسي آنذاك ؛ وهذا ما يبرر أن أول كتاب هام طبع في مدينة (مايانس) كان هو التوراة . لذلك لا نستغرب عندما نسمع كبير أساقفة (مايانس) ، « بيرتولد دي هانبيرغ » يصف الطباعة عند بدايتها بأنها « فن الهي » ، وعندما نرى الاساقفة الالمان يقومون غالبا بمنح الغفران لمن يعملون في الطباعة ويبيعون الكتب . ويبدو أن تحمس رجال الدين للطباعة كان عاما شاملا آنذاك،

حتى ان محرر « اخبار كولهوف » كتب يقول عندما اطلع على عمل رجال الطباعة الاوائل : « كم نحن مدينون حقا لهذه الكتب العديدة التي زودتنا بها الطباعة بهذا الارتقاء نحو الخالق وهذا الاحساس الداخلي العميق بالورع والتقوى » . كما نستطيع أن نقرأ ، في احدى طبعات « كراس الازمنة » ، السطور التالية :

« ان الطباعة التي تم اكتشافها في (مايانس) هي بحق فن الفنون وعلم العلوم . فبفضل انتشارها السريع ، زود العالم بكنز رائع من الحكمة والعلم ظل مدفونا حتى ذلك الوقت . وهكذا نجد ان عددا لا متناهيا من المؤلفات التي كانت في متناول فئة قليلة من الطلاب في باريس وأثينا وغيرهما من مكتبات المدن الجامعية الكبرى ، قد ترجمت الآن الى كافة اللغات وانتشرت بين كافة أمم الارض » .

في أحيان كثيرة ، كان رجال الدين ، الذين يهتم معظمهم بالعهد القديم الكلاسيكي ، هم الذين أقاموا أو دعموا المطابع التي قامت بمثل هذا العمل . وهكذا ، منذ عام ١٤٦٦ ، نجد الكاردينال (توركمادا) يساهم في احضار (أولريخ هاهن) من « انغو لستاد » الى روما ، ليعهد اليه بطباعة كتابه « تأملات » ، بينما قام الكاردينال (كارافا) بدوره ، عام ١٤٦٩ ، باحضار (جورج لووير) من « وورزبورغ » الى روما أيضا ، حيث قدم بين عامي ١٤٧٠ – ١٤٨٤ ، ما لا يقل عن ثلاثة وثلاثين طبعة ، منها « Canzoniere » لبيترارك . وهكذا نجد حالات كثيرة مماثلة في كل مكان تقريبا ، وخاصة في مدينة باريس .

فكثيرة هي الاديرة التي تستقبل عمال المطابع ، وكثيرون أيضا هم الرهبان الذين يعملون في الطباعة . ففي فرنسا ، استقبل رهبان (كلوني) رجل الطباعة المعروف (وينسلر) ، بينما قام في « ديجون » ، (جان دي سيراي) ، رئيس دير « سيتو » ، باستقبال (جان ميتلنجر) القادم من « دول » والذي يرجع أصله الى مدينة « أوغسبورغ » ، وذلك عام ١٤٩٠ . أما في المانيا ، فقد قام « رهبان الحياة المشتركة » في روستوك ،

بتاسينس مطبعة خاصة ، ووصفوا الطباعة في احد أوائل الكتب التي طبعوها ، بانها « الام المشتركة لكافة العلوم » وكذلك « معينة الكنيسة ». وهم الذين اطلقوا على انفسهم تسمية « كهنة الرب الذين يعلمون كلمته المكتوبة بدلا من الملفوظة » .

وهكذا ظهرت آنذاك ، في عام ١٤٧٠ ، مطابع لدى رهبان «بيرمونستر» في ارغوفيا ؛ وفي عام ١٤٧٢ ، لدى الرهبان البندكتيين في (سان ـ اولريش) وارفا واوغسبورغ ؛ وفي عام ١٤٧٤ ، لدى رهبان بامبرغ ؛ وفي عام ١٤٧٥ ، لدى رهبان بلوبيرن ؛ وفي عام ١٤٧٨ ، لدى كهنة شوسنريد ؛ وفي عام ١٤٧٩ ، لدى النساك الاوغستينيين في نورمبرغ ، وكذلك لدى البندكتيين في (سان ـ بيير) و (ارفوت) . حدثت هذه الحركة نفسها في ايطاليا ايضا ، حيث لا نريد ان نستشهد بحالة(سوبياكو) التي تقبل الجدل ، بل نكتفي بالقول ان مطبعة عملت لما يزيد على عشرين عاما في دير (سان ـ جاك دي ريبولي) في فلورنسا حيث تمت طباعة اعمال كثيرة نخص منها بالذكر اعمال (مارسيل فيسين) .

ان الامثلة على ذلك اكثر من ان تحصى . الا ان الكنيسة لم تكن قادرة ، في عهد الطباعة ، على ان تلعب نفس الدور الذي قامت به فيما يتعلق بنشر النصوص في عهد المخطوطات . اذ لم يكن يكفي استدعاء عمال الطباعة وتقديم العون المادي اللازم لهم ، وتكليفهم ببعض الاعمال ، او حتى اقامة المطابع في الاديرة وتعليم الرهبان مهنة الطباعة . فالطباعة هذه صناعة قائمة بذاتها ، محكوم عليها بالفشل مسبقا ، سواء كان ذلك عاجلا أم آجلا ، اذا لم تستند على اسس صلبة متينة وسليمة ، حتى تحقق ارباحا أو تستطيع تغطية نفقاتها على الاقل . لذلك لم يكتب البقاء والاستمرار ، من بين كافة المطابع التي اقامها الحماة او رجال الدين أو ساعدوا على اقامتها ، الا لتلك التي وجدت في ظروف تجارية مناسبة.

*
* *

ان اول مسألة كانت تطرح نفسها هي مسألة **الاسواق** : فقد كان لا بد من العثور ، محليا اذا امكن ، على زبائن ثابتين وبأعداد كافية . وهذا ما ادى الى تزايد عدد المطابع وازدهارها في المدن الجامعية الكبرى . ولا ادلّ على ذلك من العودة الى تاريخ بداية الطباعة الباريسية ، الذي يظهر لنا بصورة جيدة باية روح ولاية أسباب كانت مجموعة صغيرة من الكهنة تعمد الى استدعاء رجال الطباعة الى المدينة ، وكيف كان هؤلاء ينجحون في اقامتهم وتوسيع اعمالهم بفضل الشروط المناسبة المتاحة لهم ، حتى انهم كانوا يعمدون ، عند الحاجة ، الى تغيير اتجاه مشروعهم حسب الظروف .

على الرغم من الدمار المادي والمعنوي ، الذي خلفته الحروب والاحتلال الانكليزي ، والذي اعاق عملية التعليم طوال النصف الاول من القرن الخامس عشر ، فان باريس عادت ، عندما ظهرت الطباعة في مايانس ، مدينة جامعية كبرى تغص بالعلماء والاساتذة والطلاب القادمين من كل حدب وصوب . وقد كان هؤلاء كثيرين جدا في كليات الحقوق والطب ، وخاصة في كليتي الفنون الجميلة واللاهوت . وفق التنظيم التقليدي المتبع آنذاك ، كان هناك اربعة وعشرون مقيما ثابتا ، يراقبهم اربعة كتبيين كبار ، يكلفون بنسخ المؤلفات الكلاسيكية الضرورية : هيبوقراط ، غاليين ومترجموهما من أجل كلية الطب ؛ النصوص القانونية مع التعليق عليها من أجل كلية الحقوق ؛ أما بالنسبة للفنون ، فكانت تقدم اعمال ارسطو مع تعليقات سان — توماس ، أوكهام ، سكوت ، بوريدان ، وكذلك الـ (Doctrinal)لالكسندر دي فيلديو ، وكتاب الحساب لبويسن ، وابحاث كل من جان دي هوليود وبيير ديلي حول الكوكب السيار . أما بالنسبة لجمهور اللاهوتيين فكانوا يقدمون لهم نسخا من التوراة والاقوال المأثورة لبيير لومبارد . لدى هؤلاء الكتبيين بالذات ، كان الرهبان المداومون على الجامعة يتسوقون بالمؤلفات الاخرى التي تشكل النواة لكل مكتبة كهنوتية: من امثال سان — أوغستين ، سان — بيرنارد ، سان بونافونتور ، نيقولا دي لير ، فينسون دي بوفيه الذي كان امتلاكه مصدر اعتزاز الاغنياء ، وخاصة (مواعظ) جاكدي فوراجين ، و(Vita Christi)للودولب شارترو،

بالاضافة الى نصوص اخرى مختلفة عن التقوى والاخلاق العملية أو الكتب المعدة لاستعمال المعترفين التي كان الاقبال عليها شديدا لسهولة حملها وتداولها وأسعارها الزهيدة بالمقارنة مع النصوص الكبرى للعلماء ورجال الدين .

*

* *

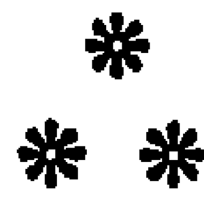
الا ان أعمال الانسيين (humanistes) الايطاليين بدات تتسرب الى فرنسا . ولم يكن الجامعيون الباريسيون الكبار في نهاية القرن الرابع عشر ومطلع القرن الخامس عشر يجهلون اكثر من اسلافهم في القرن الثالث عشر ، الادب القديم واللغة اللاتينية الجميلة ، التي لم تضع تقاليدها تماما بأي حال من الاحوال . فالعلاقات مع ايطاليا ما زالت وطيدة ونشطة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر . فهـا هو (غليوم فيشيه) ، الذي قام بعدة رحلات الى ايطاليا والذي سيموت في روما ، وسط جماعة تدعو حوالي عام ١٤٧٠ ، الى احترام مبادىء سكوت وسان ـ توماس ، وكذلك الى محبة الادب القديم والمؤلفات الكلاسيكية اللاتينية . وفي هذه الجماعة بالذات ، ظهرت الحاجة الى الحصول على نصوص صحيحة لبعض المؤلفين القدماء . لا شك أن مخطوطات المؤلفين المطلوبين في المنهاج كانت كثيرة نسبيا ، ولكن النسخ المتوفرة عن أعمال شيشرون او فيرجيل او سلوست كانت نادرة ومغلوطة . وقد كان من المستحيل اعادة نسخ هذه النصوص بشكل صحيح وبالعدد الكافي من النسخ ، لولا وجود هذه الوسيلة الجديدة وهي الطباعة . فقد أصبحت الكتب المطبوعة معروفة ومستخدمة في باريس منذ بضع سنوات : وها هما فوست وشوفر يرسلان بقسم من انتاجهما الى هذه المدينة ، كما نجد ان فوست ، الذي سجل في صباه ضمن سجلات الجامعة الالمانية ، يقوم بعدة رحلات تجارية الى باريس ؛ وقد كان له فيها ممثل يـدعى (هيرمان دي ستاتبووين) . لذلك لا غرابة اذا راينا المانيا آخر يـدعى (جان هينلن دي ستاين) ، كان رئيسا للسوربون يعمد الى جلب عدد من رجال الطباعة من بلده الاصلي ، ويسكنهم في ابنية المعهد الذي يديره .

وهكذا تأسست اول ورشة طباعية باريسية ، عمل فيها كل من اولريخ جيرنغ ، دي كونستانس ، ميشيل فريبورجر وكولمار (احد أساتذة الفنون في جامعة بال ، تعرف على هينلن اثناء الدراسة) ، يساعدهم في ذلك عامل يدعى (مارتين كرانتز) من ستاين ، اي نفس مدينة هينلن . خلال ثلاث سنوات استطاعت مطابع السوربون ان تقوم بنشر اعمال « غاسبارينو دي بيرغام » (رسائله وابحاثه عن الاملاء) ، وكذلك اعمال كل من سلوست ، فالير مكسيم ، « De officiis » لشيشرون ، « الرشاقة » للوران فلا ، و « علم البلاغة » الذي يقوم فيه غليوم فيشيه، الذي كان يشجع جهود هينلن وجيرنغ ، بتلخيص معرفته العملية برشاقة البيان اللاتيني .

الا ان جماعة الانسيين الباريسيين كانت لا تزال محدودة ، ولا يزال عدد هواة الآداب قليلا ، مما كان يؤدي الى اشباع السوق واكتفائه بسرعة كافية . كما كان الحصول على النصوص القديمة اللازمة للنشر صعبا ولا شك ؛ وقد ادى ذهاب فيشيه الى الحد من نشاط هذه الدائرة الصغيرة التي كان هو محركها الاساسي . وهكذا ما لبث جيرنغ ورفاقه أن وجدوا انفسهم مضطرين الى تغيير اتجاه عملهم والتوجه ، ليس الى بعض المثقفين الذين استدعوهم الى باريس ، بل الى الجامعة بكاملها . كما استطاعوا بفضل الارباح التي جنوها من اعمالهم في السوربون ، ان يتركوا مشغلهم القديم ويجددوا عتادهم ويكيفوه ويدفعوا النفقات اللازمة لاقامة مشغل جديد أفضل من الاول ، مشكلين بذلك مشروعا مستقلا سيكون له دور بارز ونشاط ملحوظ . ولكنهم مع ذلك لم يقطعوا صلاتهم بحماتهم القدامى : أو لم يقم (هينلن) ، على نفس الآلات التي استخدمت لاصدار « Tusculanes »شيشرون و « رسائل » أفلاطون في السوربون، بطباعة « تعليقات » سكوت على الجزء الرابع من « حِكَم » بيير لومبارد ؟ وقد رأينا هذا الجامعي ، الذي كان يعلم عقيدة (سان توماس) ، يجتذب اليه الاصدقاء من بين « القدامى » ، تلاميذ سكوت وسان توماس وهواة الادب الرفيع في آن واحد .

لذلك لا غرابة اذا راينا (جيرنغ) و (فريبورجر) يعمدان ، بعد استقرارهما في شارع سان ــ جاك (الشمس الذهبية) ، ولكي يصلا الى جمهور اوسع ، الى طباعة النصوص الفلسفية واللاهوتية والكنسية التقليدية بالحروف القوطية وليس بالحروف الرومانية كما جرت عليه العادة ؛ وذلك مع الاستمرار في اصدار أعمال الكتاب الكلاسيكيين ــ وخاصة فيرجيل ــ : وهكذا قاما مثلا باصدار بعض اعمال ارسطو ، النقولا دي لير ، أو باعادة طبع « تعليقات » (Les Postilles) سكوت على الكتاب الرابع من « الحِكَم » التي طبعاها سابقا في السوربون . الا انهما اخذا يعكفان من الآن فصاعدا على طباعة المؤلفات الدينية وكتب الاخلاق والكراسات المعدة للمعترفين ، التي يثقون في سهولة تصريفها ، ومن بينها : « راتب الكهنة » لمؤلفه (غي دي مونروشيه) ، والكتيبات الدينية لجوهان نيدر ، و « المواعظ » لاوتينو ، علاوة على « الاسطورة المذهبة » لجاك دي فوراجين .

وهكذا ادت الحاجة لتكييف الانتاج مع جمهور أوسع بغية خلق التوازن في المشروع وتحقيق الارباح ، الى دفع رجال الطباعة الباريسيين الاوائل للبدء في اصدار النصوص التي يقبل عليها الجمهور أكثر من سواها. ويبين هذا التطور الكلاسيكي كيف اضطر مدراء دور النشر الكبرى ، عاجلا أم آجلا ، لعدم الاقتصار على اصدار المؤلفات المكتبية والطبعات العلمية ، بل الاهتمام باصدار الكتيبات التي تباع بأسعار أقل وتعاد طباعتها عدة مرات .



في الفترة التي كان يقوم فيها (جيرنغ) باصدار مؤلفات السلسلة الجديدة ، لم يكن هو رجل الطباعة الوحيد المقيم قرب الجامعة : ففي نفس شارع (سان ــ جاك) وبعد منزلين من دار (الشمس الذهبية) ، مقابل شارع فرومنتال ، وفي مواجهة معهد (كومبريه) ، كان اثنان من رجال الطباعة الجرمانيي الاصل أيضا ، قد أقاما مطبعة تحت شعار

(الفارس ذو الاوزّة) وهما : بيير سيزار ، أحد أساتذة الفنون ، وشريكه جان ستول . بدأ سيزار هذا عام ١٤٧٤ ، بالمؤلف الازلي « راتب الكهنة » ؛ ثم قام مع (ستول) باصدار « مرآة الحياة البشرية » لرودر يغيز ، أسقف زامورا ، ثم « Casus longi »للمستشار القانوني (بيرنارد دي بارم) (١٤٧٥) . كما قام الرجلان باصدار ابحاث (اينياس سيلفيوس) ، « حواشي على رسائل البابا أكليمنتوس » . وقد عمدا ، كما فعل (جيرنغ) ، الى تخصيص جزء من نشاطهما للدراسات الجديدة، فاصدرا المؤلفات التالية : « مبادىء الصرف والنحو » لبيروتو ، « لآلىء شعرية » لايب ، أعمال شيشرون وسلوست وتيرانس وسينيك ، التي قام جيرنغ باصدارها غالبا والمعدة لصالح نفس الزبائن من الاساتذة والطلاب في جامعة باريس .

هذا هو تاريخ ظهور الطباعة في باريس ، والذي يبين لنا جيدا كيف اسست المطابع وتوسعت بفضل رجال الدين المثقفين الذين كانوا يرتادون الجامعة . يمكن أن نقول الشيء نفسه عن كافة المدن الجامعية الكبرى في أوروبا ، وكولونيا بشكل خاص . بعد ذلك ايضا ، في نهاية القرن السادس عشر ، وفي مدينة (لايذ) ، أدى تاسيس جامعة ما لبثت أن احتلت مكانة كبرى ، الى ولادة مركز طباعي من الدرجة الاولى . وقد اقام فيه (بلانتين) بعض الوقت ؛ كما قام صهره (رافيلنجيوس)بتأسيس مشروع طباعي دائم ؛ كذلك هنا بدأ آل (ايلزيفييه) ، الذين اصبحوا كتبيي الجامعة ، بممارسة مهنة الطباعة التي ستجعل منهم أكبر الناشرين في عصرهم على الارجح . وقد اقام بجانبهم كتبي كبير آخر ، يدعى (جان مير)، ناشر الكتاب الشهير : (رسالة المنهج) « Discours de la méthode » كما يمكن أن نخرج بنفس الاستنتاجات في مدينة (سومور) أيضا ، حيث أقام البروتستانتيون الفرنسيون جامعة كانت موضع اقبال شديد في مطلع القرن السابع عشر ، حيث نشط العديد من رجال الطباعة من أمثال آل (ديبورد) وغيرهم .

*
* *

ولكن الزبائن الجامعيين ليسوا وحدهم الذين يجتذبون أصحاب المكتبات والمطابع . بل ساهم في ذلك أيضا وجود عدد كبير من رجال الدين الاغنياء ، في المدن المطرانية واحيانا في مقرات الاسقفيات الكبرى . وكذلك وجود سلطات قضائية في بعض المدن ، وبالتالي توفر عدد كبير من رجال القانون : لان هؤلاء يعتبرون ، مثل رجال الكنيسة بل أكثر منهم ، افضل زبائن للمكتبات . فهم يسعون دائما للحصول ، ليس فقط على المؤلفات الدينية ، بل على كتب الاعراف والقانون والمؤلفات الدنيوية . في أحيان كثيرة ، كان أصحاب المكتبات والمطابع يقيمون قرب المجالس النيابية. ففي باريس نفسها ، حيث توجد معظم المكتبات والمطابع على جبل (القديسة جنفييف) وطوال شارع (سان ـ جاك) ، في الحي الجامعي، اقامت جماعة نشطة جدا من أصحاب المكتبات في قاعات قصر العدل وأروقته ، وكذلك في الشوارع المجاورة ؛ هناك نجد ، في القرن الخامس عشر ، المحل الرئيسي (لفيرار) ، وفي السادس عشر محل (كوروزيه) ، وفي السابع عشر محلات (باربين) و (تييري) ، ناشري المؤلفاتالكلاسيكية الكبرى . وهكذا نجد هؤلاء الكتبيين ، الذين كانوا أشبه ببائعي لوازم الخياطة و « النوفوتيه » ، يتوجهون الى البرلمانيين والمحامين والنواب (الوكلاء) ، والمترافعين العديدين ، علاوة على المتأنقين والبورجوازيين الذين يأتون الى القصر كما يذهب المرء الى النزهة ، ويبيعونهم كتب القانون والاخبار المحلية والاحداث الجارية والنصوص الادبية باللغة الفرنسية . ويمكن أن نقول الشيء نفسه بالنسبة للمدن الاخرى والمهجر : مثل مدينة (روان) و (بواتييه) ، حيث كان قصر العدل فيهما يغص « ببسطات » العديد من الكتبيين ؛ وبعد ذلك أيضا في (لاهاي) ، خلال القرن السابع عشر ، حيث كان الكتبيون يقيمون في « قصر الدول » . (Palais des Etats)

وهكذا يمكن القول اذن ، بأن وجود جامعة أو سلطة قضائية هامة في فرنسا ، أو مجلس نيابي ، مع كل ما يمثله ذلك من زبائن مضمونين : هذا ما كان يجتذب غالبا ، خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، أصحاب المكتبات والمطابع ؛ وهذا هو أصل منشأ العديد من الورشات

الطباعية والمكتبات . كذلك أدى الاستمرار في انشاء الجامعات ـ وخا
في البلدان البروتستانتية كما رأينا في (لايد) و (سومور) ـ الى ظ
مكتبات ومطابع جديدة اجتذبها جمهور الجامعيين . الا أن الامر لم
كذلك في معظم اوروبا ، وخاصة أوروبا الكاثوليكية ؛ ففي عصر نـ
النقود هذا ، أصبح أصحاب المكتبات ، الذين اقاموا قرب البرلمانا
يعيشون عيشة ضنكا ، كما أصبحت المنافسة على اشدها ؛ كذلك فق
الجامعات الكثير من اهميتها ، وادى انحدارها الى خراب المحلات الم
بجوارها . وهكذا اصبح اصحاب المكتبات والمطابع الراغبون في الاستقر
ينجذبون من الآن فصاعدا ، نحو المدن الاقل أهمية ، بحثا عن ز
اكثر استقرارا ؛ ولم يعودوا يتمركزون قرب البرلمان بل بجانب مـ
قضائية ثانوية ، أو في منطقة محكمة للاقطاعيين . فهم يعيشون قبل
شيء على طباعة الاحكام الرسمية والاعلانات والمذكرات الدفاعية (الردو
وخاصة في هذه الفترة التي انتشرت فيهـا الاوراق القديمة والوثائ
المتراكمة . كذلك نجدهم يتمركزون من الآن فصاعدا ، بالقرب من المع
اليسوعية والكنسية التي بدأت تظهر في كل مكان ، وتنوب عن الجامعا
الا أن المدارس اليسوعية كانت مرغوبة أكثر من سواها لانها تشجع ا
الورشات الطباعية الجديدة التي تمكنها من طباعة الاوراق المدر
والكتب اللازمة للطلاب ، علاوة على المؤلفات الدينية المختلفة المعتبرة
مستلزمات مهمتها . ففي (لافلاش) مثلا ، هذه المدينة الصغيرة ا
لم يستقر فيها اي رجل طباعة حتى الآن ، استطاع اليسوعيون ، الـ
اقاموا فيها معهدا دراسيا عام ١٦٠٣ ، أن يحضروا عامل طباعة يـ
(جاك روزيه) قام بطباعة عدة مؤلفات لصالح المعهد والشركة التي ت
شعارها . وقد قامت حول هذا المعهـد فيما بعد ، ثلاث مطابع وعـ
كبير من المكتبات .




الا أن قيام الورشات الطباعية وازدهارها لم يقتصرا على مثل
المدن فقط ، لان رجال الدين والقانون لم يكونوا الوحيدين الذين يشتر

الكتب المطبوعة . ففي المدن التجارية ، كان التجار الاغنياء والبورجوازيون الموسرون ، وحتى الحرفيون ، يميلون خلال القرن السادس عشر الى اقتناء المكتبات الخاصة . كذلك لم يتردد بعض رجال الاعمال الجسورين في المساهمة باقامة المشاغل التي تعمل للتصدير . ولقد راينا ان (بارتيليمي بوييه) التاجر ، هو الذي أنشأ أول دار للنشر في مدينة (ليون) ؛ كما قام صانعو الفراء وبائعوها في مدينة (لايبزيغ) ، خلال القرن السادس عشر ، بتمويل مشاريع أصحاب المكتبات في المدينة . ومن الجدير بالذكر اخيرا ، أن (بلانتين) استطاع العثور بسهولة في مدينة (أنفرس) ، على المموّلين اللازمين لانطلاقة عمله في البداية . في مثل هذه المدن ، التي كانت لها صلات تجارية مستمرة مع كافة انحاء أوروبا ، أصبح تحويل الاعتمادات ووصول الورق وارسال الكتب على درجة كبيرة من اليسر والسهولة .

ولما كان النقل عن طريق البحر أقل كلفة ، فقد اصبح من مصلحة الناشرين أن يتمركزوا بالقرب من المرافىء : ففي (رو"ان) مثلا ، يمكن ارسال الكتب بحرا الى مناطق الفلاندر وهولانده واسبانيا وانكلتره ، بينما يمكن ارسالها الى باريس ايضا عن طريق نهر (السين) . كما أن آل (كرومبرجر) ، المقيمين في اشبيليه ، يستطيعون ارسال جزء من انتاجهم بحرا الى أمريكا ، بينما قام (رينييه ليرز) ، خلال القرن الثامن عشر ، بالانتقال من (لاهاي) الى مرفأ (روتردام) ، لكي يسهل عليه هكذا نشر مؤلفات (لوكلير) و (بايل) وتوجيهها نحو فرنسا وانكلترة وشمال المانيا . وهكذا نجد أن الامثلة كثيرة عن المرافىء التي اصبحت مقرا للمشاريع الكبرى للطباعة والنشر ؛ علما بأننا اغفلنا ذكر (لوبيك) في القرن الخامس عشر ، و (انفرس) في القرن السادس عشر ، و (أمستردام) في القرن السابع عشر .

٣ ــ جغرافية النشر

لنحاول الآن تحديد التواريخ التي قامت فيها الطباعة ، التي ولدت في منطقة (مايانس) ، بالانتشار في مختلف البلدان الاوروبية . فلنتبع

كذلك تقدم هذا الانتشار ومراحله ؛ ولنحاول تمييز مراكز النشر الكبرى واستعراض تاريخها خلال هذه القرون الثلاثة والنصف .

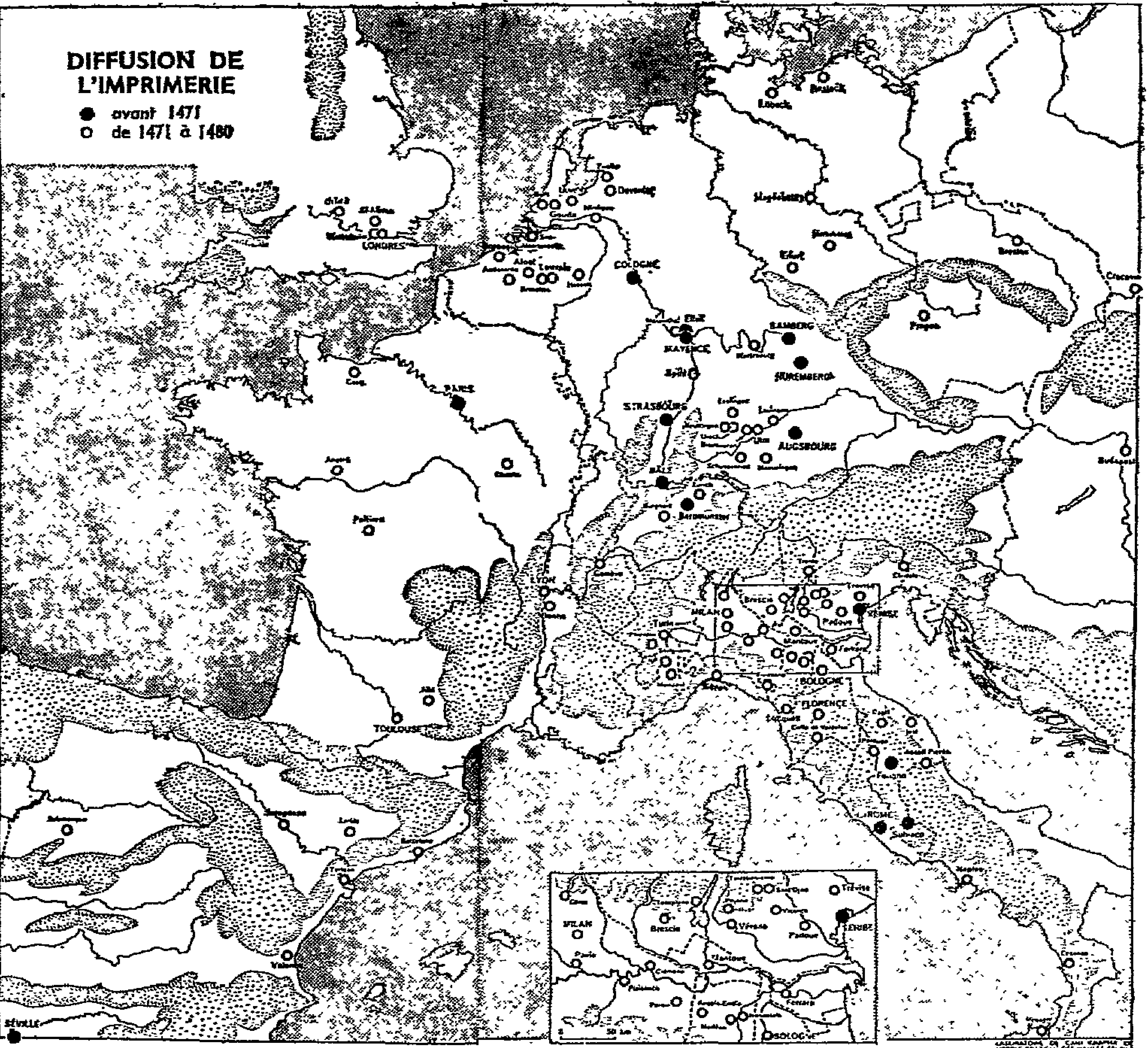
ان أول استنتاج نخرج به نحن رجال القرن العشرين الذين تآلفنا مع كافة الانقلابات التقنية ، هو ان الطباعة كانت بطيئة الانتشار كما يبدو للوهلة الاولى . فلنفكر مع ذلك في تلك الصعوبات العديدة التي توجب على رجال القرن الخامس عشر تذليلها ، هذا القرن الذي كانت فيه المواصلات بطيئة والتقنيات بدائية متخلفة ؛ لنفكر أيضا في تلك الحفنة من الرجال الذين عرفوا سرّ الطباعة فتجمعوا يعملون في بعض المشاغل بين عامي ١٤٥٠ و ١٤٦٠ في هذا الفن الدقيق والمعقد وفي تلك الشروط الصعبة ؛ لنفكر أيضا بالعقبات الكثيرة التي اعترضت سبيل أصحاب المطابع الجديدة وهم يسعون للحصول على المادة الاولية الضرورية : كفولاذ المناقش ونحاس القوالب وخليط الرصاص والقصدير من أجل الحروف ؛ لنتذكر ندرة التقنيين والنقاشين وعمال صب الاحرف والمنضدين . فلنفكر باختصار ، في كافة الصعوبات التي صادفها تنظيم هذه الصناعة الجديدة التي وجدت من لا شيء ، وتشكيل شبكة تجارية تهدف الى تصريف الكتب التي أصبحت تنتج بالجملة وبأعداد كبيرة .

اذا أخذنا كل هذا بعين الاعتبار ، يصبح انتشار الطباعة في الحقيقة سريعا للغاية ، كما يبدو لنا رجال القرن الخامس عشر جدّ مولعين بالتجديد .

ويكفي لكي نلمس ذلك ان نستعرض بعض التواريخ ونلقي نظرة على الخارطة : في الفترة الواقعة بين عامي ١٤٥٥ — ١٤٦٠ ، هناك عدة ورشات غير معروفة جيدا تعمل في (مايانس) ، أهمها ورشة (فوست) و (شوفر) . منذ ذلك الحين ، ورجال الطباعة يهتمون بانشاء شبكة تجارية ويتوجهون الى البائعين الثابتين في المدن الجامعية من أجل تصريف انتاجهم . وها هو (فوست) و (شوفر) يبيعان الكتب في فرانكفورت ولوبيك وآنجيه ، ثم لا يلبثان ان يفتتحا محلا لهما في باريس ؛ كما نجد الكتب المطبوعة ، بصورة مبكرة جدا ، تباع في مكتبات (افينيون) .

في السنوات العشر الواقعة بين عامي ١٤٦٠ — ١٤٧٠ : تبدأ الطباعة بالانتشار ، وتنتظم تجارة الكتاب . ففي المانيا اولا ، بلد المناجم والمدن الفنية التي يعرف سكانها معالجة المعادن ، وحيث يكثر التجار الاثرياء القادرون على تمويل انشاء المشاغل الطباعية . وحتى قبل عام ١٤٦٠ ، قام (مانتيلين) ، المزخرف وكاتب العدل السابق للاسقف ، بافتتاح ورشة طباعية في (ستراسبورغ) ، حيث ما لبث أن اصطدم بالمنافسين من امثال : هنري اغستاين ، القاضي الاسقفي ووزير العدل ، و (أدولف راش) ، رجل الطباعة الغامض وغيرهما ... وحوالي نفس التاريخ ، قام (بفيستر) ، احد تلامذة غوتنبرغ ، بانشاء مطبعة في (بامبرغ) ثم ما لبث أن بدأ في اصدار الكتب المزخرفة . واعتبارا من عام ١٤٦٥ ، اخذ عمال غوتنبرغ وشوفر القدماء يفتتحون الورشات في كل مكان : حيث استقر (اولريخ زيل دي هانو) ، أحد أفراد أبرشية (مايانس) ، في كولونيا (١٤٦٦) ، (بيرتولد روبل) في بال (١٤٦٨) ، (هنريخ كيفر) و (جوهان سنش شميد) في نورمبرغ (١٤٧٠) ، كما قام (انطوني كوبرجر) حوالي هذا التاريخ نفسه بممارسة مهنة الطباعة والنشر في نفس المدينة ايضا . في عام ١٤٦٨ ، أصدر (غونتر زاينر) اول كتاب مطبوع في (اوغسبورغ) ، بينما غادر (كونراد سوينهايم) و (ارنولد بنارتز) المانيا الى ايطاليا ، منذ عام ١٤٦٤ أو ١٤٦٥ ، حيث اصدرا في دير « سوبياكو » (أو في روما) أول كتاب مطبوع في هذا البلد ؛ ولكن في عام ١٤٦٩ ، قام (جان دي سبير) ، القادم ايضا من المانيا، بطباعة « رسائل الى الاهل » لشيشرون ، وذلك في مدينة (فينيسيا) . وفي عام ١٤٧٠ ، بدأ (نيمايستر) ، الذي تحدثنا عنه آنفا ، العمل في (فولينيو) .

ازدادت هذه الحركة سرعة وانتشارا بين عامي ١٤٧٠ — ١٤٨٠ . ففي المانيا ، أقام عدة عمال للطباعة في سبير (١٤٧١) ، في أولم (١٤٧٣) ، في لوبيك شمالا (١٤٧٥) ، في بريسلو (١٤٧٥) ، وفي مدن كثيرة أخرى كذلك . أما في ايطاليا ، فكان هناك عدد كبير من عمال الطباعة ، معظمهم



توزع الطباعة : ● قبل عام ١٤٧١
○ من ١٤٧١ — ١٤٨٠

من الالمان ، يعملون في فينيسيا بين عامي ١٤٧٠ ــ ١٤٨٠ ؛ كما ظهرت عدة ورشات في تريفي (١٤٧٠) ، فيراري ، ميلان ، بولونيا ، نابولي ، بافي ، سافيغليانو ، تريفيز ، فلورنسا ، جيسي ، بارم ، موندوفي، بريسيا، فيفزانو ، مانتو (١٤٧١ ــ ١٤٧٢) ، وفي العديد من المدن الاخرى كذلك في السنوات التالية . وأما في فرنسا ، فقد قام (أولريخ جيرنغ) ورفاقه، المقيمون في السوربون ، باصدار أول كتاب مطبوع في باريس ، وذلك منذ عام ١٤٧٠ ؛ وفي عام ١٤٧٣ ، قام (غليوم لوروا) بطباعة « المختصر الوجيز » للكردينال (لوتير) ، وذلك لدى (بارتيليمي بوييه) منذ ذلك الحين ، بدأت المطابع تتكاثر في باريس وليون حيث أقام العديد من عمال الطباعة الالمان . وفي عام ١٤٧٦ ، افتتحت عدة مطابع في أنجيه وتولوز ، ثم في بواتييه عام ١٤٧٩ . اما في بولونيا ، فقد أقام أول عامل للطباعة في مدينة (كراسوفيا) عام ١٤٧٤ ، بينما نجد في هولانده ، أن (تييري مارتين) و (جان دي ويستفالي) قد اخذا يعملان في مدينة لوفين (١٤٧٣) ، وان (جيرار لو) قد قام عام ١٤٧٧ ، بافتتاح مطبعة في (غودا) ، خرج منها العديد من الكتب المزخرفة . واخيرا ، في عام١٤٧٦، قام (كاكستون) ، وهو تاجر انكليزي تعلم الطباعة في كولونيا كما عمل على آلة طابعة في (بروغ) ، بالانتقال الى انكلتره حيث استقر في (ويستمنستر) . في هذه الاثناء أيضا ، كان عمال الطباعة الالمان يفتتحون الورشات الطباعية في بعض المدن الاسبانية .

في عام ١٤٨٠ ، بدأت الورشات الطباعية تعمل في أكثر من مئة وعشر مدن واقعة في كافة انحاء أوروبا الغربية ، منها خمسون في ايطاليا ، ثلاثون في المانيا ، خمسة في سويسره ، اثنتان في بوهيميا ، تسعة في فرنسا ، ثمانية في هولنده ، خمسة في بلجيكا ، ثمانية في اسبانيا ، واحدة في بولونيا وأربعة في انكلتره . منذ هذا التاريخ ، أصبحت الكتب المطبوعة تستخدم في كل مكان . فقد تشكلت في كل من المانيا وايطاليا خاصة، شركات كبرى ذات شبكة تجارية جيدة التنظيم . وبفضل تدفق عمال الطباعة الالمان ، لم تعد مراكز الطباعة الكبرى وقفا على المانيا وحدها ، بل تعدتها الى ايطاليا ، التي لم تعد فيها مدينة هامة الا ولديها مطبعة مجهزة بصورة جيدة . واذا رجعنا الى سجلات الطبعات الاولى لانتاج الكتب

المطبوعة بين عامي ١٤٨٠ و ١٤٨٢ ، فاننا نلاحظ أن فينيسيا قد اصبحت عاصمة رجال الطباعة ، بفضل موقعها الجغرافي وغناها ونشاطهاالفكري : حيث تعرّف (بورجر) بصورة مؤكدة على / ١٥٦ / طبعة صدرت بين عامي ١٤٨٠ و ١٤٨٢ ، وذلك بغض النظر عن المؤلفات التي اختفت أو لم يتم التعرف عليها . وقد وجدت في هذه المدينة مؤسسات ودور قوية: كمؤسسة هيربورت ، جنسون ، مانزولي ، موفير ، جان دي كولوني ، بلافيس ، سكوتو ، تورتي ، جيرارد نجيس وراتدولت وكثيرين غيرهم . أما في المرتبة الثانية ، فتأتي مدينة ايطالية اخرى هي ميلانو (٨٢ طبعة)، حيث كان آل باشيل وزاروتي وفالدافر يصدرون غالبا الطبعاتالكلاسيكية اللاتينية . بعد ذلك تأتي مدينة أوغسبورغ (٦٧ طبعة) ، وهي مركز هام لصانعي أوراق اللعب والنقاشين على الخشب حيث يقوم كل من سورغ وشونسبرغر وباملر باصدار العديد من الطبعات المزخرفة . ثم تأتي بعدها مدينة نورمبرغ (٥٣ طبعة) حيث تعمل أكثر مطابع ذلك العصر نشاطا وتنظيما ، وهي مطبعة آل (كوبرجر) . ثم تأتي فلورنسا (٤٨ طبعة) مدينة الفنانين والمثقفين ، حيث يسعى رجال الطباعة لارضاء الزبائن المحليين بشكل خاص ؛ كولونيا (٤٤ طبعة) ، وهي مركز الحياة الدينية والجامعية للمنطقة الرينانية، حيث يقيم آل كانتيل وآل كولهوف، وحيث تصدر خاصة الكتب الدينية والمؤلفات المدرسية . ثم تأتي بعد ذلك كل من باريس (٣٥ طبعة) ، روما (٣٤ طبعة) ، ستراسبورغ (٢٨ طبعة) ، بال (٢٤ طبعة) ، غودا ، بولونيا ، تريفيز ، ليون ، بادو ، دلفت ، لوفين (من ١٥ ـــ ٢٥ طبعة) .

منذ تلك الفترة اذن ، فقدت (مايانس) ، مهد الطباعة ، شيئا من أهميتها ؛ لا شك أن المراكز الطباعية الكبرى ظلت كثيرة في المانيا الوسطى والجنوبية ، ولكن عمال الطباعة اصبحوا اكثر عددا وأقوى نشاطا في ايطاليا منهم في المانيا . فهذه هي الفترة التي تنشر فيها داخل هذا البلد، بالحروف الرومانية وعلى ورق جميل يصنع هناك ، الطبعات الاولى من المؤلفات الكلاسيكية اللاتينية أو لكبار الكتّاب الايطاليين ؛ وكذلك كتب الحقوق والكتب الدينية بالقوطية او شبه القوطية . ولكن ، اذا كانت

الورشات الطباعية كثيرة ومتعددة ، حوالي عام ١٤٨٠ في ايطاليا والبلاد لجرمانية ، فان عمال الطباعة كانوا لا يزالون نادرين ، ليس فقط في انكلتره واسبانيا ، بل كذلك في فرنسا . ففي باريس مثلا ، حيث لا توجد في الواقع سوى مطبعة كبرى واحدة ، هي مطبعة (جيرنغ) ، كان طلاب الجامعات واساتذتها يجلبون المنشورات من المانيا ؛ بينما لا تزال صناعة الكتاب ، التي ادخلت الى ليون منذ بضع سنين ، في مرحلة البداية .

تسمح لنا هذه الملاحظات ، بأن نلمس بصورة أفضل تقدم الطباعة في السنوات التالية . أما انكلتره واسبانيا ، فلا تزالان تعتمدان على الخارج رغم ظهور بعض المطابع الجديدة فيهما . وأما فرنسا ، فقد استطاعت بالمقابل ان تعوّض تأخرها في السنوات العشرين الاخيرة من القرنالخامس عشر : ففي عام ١٤٨٠ ، لم تعرف الطباعة سوى تسع مدن فرنسية فقط ؛ بينما نجد ان عدد هذه المدن قد ارتفع الى أربعين في عام ١٥٠٠ . وقد تطورت الصناعة الطباعية في باريس بشكل خاص ، بفضل كل من (مارشان) و (فيرار) وكثيرين غيرهما ؛ ثم انتقلت بعد ذلك الى ليون حيث نشط الالماني (تريشل) . كذلك نلمس تطورا مماثلا ، ولكنه أقل اثارة للانتباه ، في المانيا الشمالية حيث اصبحت (لوبيك) مركزا هاما انتقلت منه الطباعة الى البلدان الاسكندينافية . أما في الوسط والجنوب، فقد ظلت المراكز الكبرى على حالها دون توسع كبير ، باستثناء (لايبزيغ) ، التي بدات تصبح مركزا طباعيا على درجة كبيرة من الاهمية بفضل كل من كاشلوفن ، ستوكل ، لوتر ولندسبرغ . أما في ايطاليا أخيرا ، فبينما استمرت الطباعة في الانتشار في مدن أقل أهمية ، ظلت الصناعة الطباعية الكبرى مركزة في فينيسيا ، بينما بدات ميلان بالانحدار .

ان دراسة الكتب المطبوعة خلال السنوات ١٤٩٥ ــ ١٤٩٧ ، تسمح لنا بلمس أهمية هذا التطور : فمن بين الـ /١٨٢١/ طبعة التي احصيناها، نجد / ٤٤٧ / ، اي ما يقرب من الربع ، قد ظهرت في فينيسيا ، حيث العديد من المطابع الكبرى . انه عهد كبار رجال الطباعة الفينيسيين من امثال : آل لوكاتللي ، تورتي ، بيفيلاكا ، تاكوينو ، توريزاني ، آلد ،

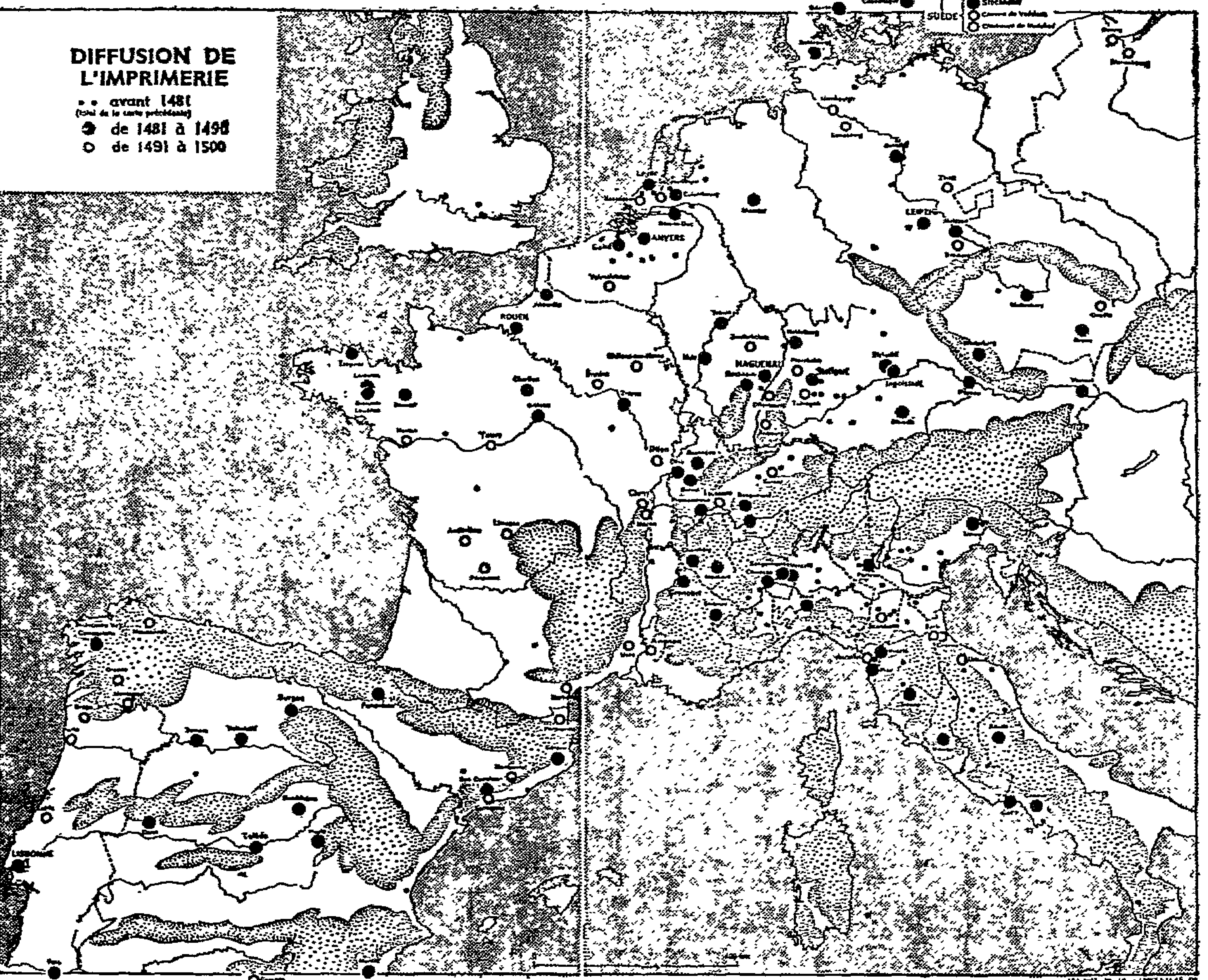
بينسيو وغريغوري . ولكن ، اذا ظلت فينيسيا في الطليعة تتقدم غيرها بمراحل ، فقد كانت تليها مباشرة مدينتان فرنسيتان هما : باريس (١٨١ طبعة) حيث لم يكن هناك ناشرون كبار عديدون ، ولكن كانت توجد جمهرة من أصحاب المطابع والمكتبات ؛ ثم مدينة ليون (٩٥ طبعة) ، حيث كان (تريشل) اكثرهم نشاطا ولا شك . بعد ذلك تأتي فلورنسا ، لا يبزيغ (القادمة الجديدة) ، ديفنتيه (وهي قادمة جديدة أخرى بفضل نشاط كل من جاك وبريدا وبافرويه) ، ميلان بفضل باشل سينزنزلر ، ستراسبورغ حيث يعمل غروننجر وفلاش ، ثم كولونيا ، أوغسبورغ ، نورمبورغ وبال .

وهكذا ، في نهاية القرن الخامس عشر ، أي بعد حوالي خمسين سنة من ظهور أول كتاب مطبوع ، كان قد ظهر ما يقرب من / ٣٥٫٠٠٠ / طبعة على الاقل ، تمثل حوالي ١٥ ــ ٢٠ مليون نسخة على أقل تقدير ، كما انتشرت الطباعة في كافة البلدان الاوروبية . كذلك تشكلت مراكز طباعية كبرى في البلدان الجرمانية ثم في ايطاليا ثم في فرنسا . وهكذا يكون مجموع المدن التي عرفت الآلات الطابعة / ٢٣٦ / مدينة على الاقل (أنظر الخارطة على الصفحة التالية) .

*

* *

في القرن السادس عشر ، ظلت هذه الحركة مستمرة ، كما ظلت المطابع تنشأ في مدن جديدة دون توقف . وقد كان القسم الاول من القرن السادس عشر ، عهد ازدهار اقتصادي استثنائي ، عهد النزعة الانسية ، والعهد الذهبي لتوسع صناعة الكتاب تحت سيطرة كبار الرأسماليين . وهو في الوقت نفسه عصر الطباعة الذهبي ، حيث أصبحت تجارة الكتاب تجارة دولية كبرى ، أيام كل من : فروبن ، كوبرجر ، بيركمان ، آلد ، جان بوتي ، وهم جميعا من كبار أصحاب المكتبات الانسيين ، الذين يقيمون علاقات تجارية مع أوروبا كلها ، وتلك هي الدعامة للعلاقات الفكرية بين العالم المثقف . وهكذا ، بدفع من كبار أصحاب المكتبات



توزع الطباعة .. قبل عام ١٤٨١

● من ١٤٨١ — ١٤٩٠

○ من ١٤٩١ — ١٥٠٠

الراسماليين هؤلاء ، رغم استمرار الورشات الصغيرة في الظهور هنـا وهناك ، اتجهت صناعة الكتاب نحو التمركز في المدن الجامعية والمدن التجارية الكبرى .

كانت هذه الظاهرة ملفتة للنظر بشكل خاص في هولانده ، حتى قبل زمن (بلانتين) . حيث نجد أن (أنفرس) ، هذه المدينة التجارية الكبرى التي كانت في أوج تطورها ، والتي تجيء في سلتم المراكز الطباعية بعـد مدينة (ديفنتيه) عند نهاية القرن الخامس عشر ، قد انتقلت بسرعـة كبيرة الى النسق الاول . حاول الناشرون في هذه المدينة الوصول في بادىء الامر الى ارضاء زبائنهم من التجار والبورجوازيين الاثرياء ، الذين كانوا كثيرين في هذا المركز التجاري الهام ، وذلك بتقديم الكتب الدينية وروايات الفروسية المزخرفة باللغتين الفلمندية والفرنسية ؛ الا انهم ما لبثوا أن شرعوا سريعا في العمل من أجل التصدير ، واخذوا يقومون مثلا بطباعة مؤلفات باللغة الانكليزية . كذلك ما لبث عمال الطباعة من مدينة أنفرس ، ان بدؤوا يمارسون سيطرة وسيادة حقيقيتين في هولانده: وقد بلغت نسبة عمال الطباعة المقيمين في مدينة انفرس هذه ، بين عامي ١٥٠٠ ـ ١٥٤٠ ، ٦٦ عاملا من اصل /١٣٣/ موزعين على أنحاء هولانده، أي ما يقرب من النصف . ومن بين /٤٠٠٠/ كتاب ظهرت في هذه المنطقة، كان هناك / ٢٢٥٤ / ، أي اكثر من النصف ، صدرت في انفرس .

أما في البلدان الجرمانية ، حيث تقع بين نهري الراين والالب مدن غنية تعيش فيها طبقة بورجوازية غنية ومثقفة ، فلم تتوقف صناعـة الكتاب عن التوسع في نهاية القرن الخامس عشر وخلال الربع الاول من القرن السادس عشر . وقد أصبحت (ستراسبورغ) خاصة ، وبسرعة فائقة ، مركزا على درجة كبيرة من الاهمية . في القرن الخامس عشر ، قام صهر (مانتلان) ، ويدعى أدولف راش (١٥٦٦ ـ ١٤٨٩) ، بتمويل عدة طبعات ، كما وسع اعماله عن طريق تجارة الورق ، بينما كان أحد اخوة زوجته ، ويدعى مارتين سكوت (١٤٨١ ـ ١٤٩٩) ، يقوم بنشاط كبير هو الآخر ؛ الا أن هذا النشاط يظل أقل مما كان يبذله جان بروس

(١٤٨٠ ـ ١٥١٠) أو هنري كنوبلو شتزر (١٤٧٦ ـ ١٤٨٤) . منـذ ذلك الحين ، اتسع فن الزخرفة في العاصمة الالزاسية حتى بلغ أوجه مع جان غروننجر (١٤٨٢ ـ ١٥٣١) . كما اشتهرت الآلات الطابعـة الستراسبورغية بجودة الطبعات التي تصدرها ، حتى أن الناس كانوا يقصدونها من كل مكان : فقد قام (غروننجر) مثلا ، ببيع طبعة كاملة مؤلفة من / ١٠٠٠ / نسخـة لنـاشر شهير من أوغسبـورغ يـدعى (شونسبرغر) ، بينما قام جان سكوت بتنفيذ عدة طبعات لصالح أصحاب مكتبات من لايبزيغ وفيينا وميلانو .

هناك مدينة اخرى قد تكون اكثر اهمية أيضا ، هي (بال) ، حيث قام (أمير باخ) ، الكتبي الانسي ، كما سنرى ، بنشاط كبير ؛ الى جانبه، نجد جان بتري يصدر ابحاثا قيمة عن اللاهوت والقانون الكنسي ، كما يصدر طبعة لسان ـ أوغوستين في احد عشر مجلدا . بعد وفاة هذين الاثنين ، في عام ١٥١١ و ١٥١٣ ، نجد (فروبن) ، الذي ظـل ناشر « ايراسم » ، هذا العالم الانسي الكبير الذي زاره لمدة أيام ثم مدد زيارته هذه سنوات ثلاث (١٥١٤ ـ ١٥١٧) ، يقوم مع صهره (والف ـ غانغ لاشنر) بزيادة اهمية مشروعه ، كما ينشر الحرفالروماني ويبتكر الحرف الايطالياني (italique) المستوحى من الحرف الالدي ؛ كذلك استخدم الحروف اليونانية وباع منها لجوس باد ، كما باع بعض القوالب لميلشيور لوتر ، وقام في عام ١٥٣٦ ، بشراء ورشة (شوفر) لصب الحروف ؛ وقد استعان ، لنقش اطارات صفحات العناوين والزخارف والحروف الاولية ، « بأورس غراف » ، ثم بعد عـام ١٥١٦ ، بكـل من هانس وامبروزيوس هولبن . أما المنقحان اللذان عملا لديه فهما : صهره بونيفاس امير باخ ، وبياتوس ريتانوس .

كان النشاط بالغا أشده لدى المطابع في معظم المدن الالمانية الكبرى . ففي مايانس ، ظلت دار (شوفر) القديمة تعمل زمنا طويلا ، حيث قام (بيترشوفر) الابن ، صديق (أولريش دي هوتن) ، بطباعة كتابات هذا الاخير . وقد كان يمتلك عتادا ضخما ـ هو الذي سيقوم (فروبن)

بشرائه ـ يحسّنه باستمرار . في مدينة (أوغسبورغ) ، نجد (أرهارد رادولت) يطبع حتى حوالي عام ١٥٢٠ ، عدة مؤلفات طقسية ، كان بعضها مزخرفا بشكل ممتاز ككتاب كونستانس للقداس (١٥١٦) ؛ أما (جوهان شو نسبرغر) ، فيعمل لصالح الامبراطور (ماكسيميليان) ويطبع عدة مؤلفات منها « Teverdank » ، وهو وصف رمزي لزواج الامبراطور ، استخدم فيه حروفا ـ من نموذج « Fraktur » ـ المأخوذة عن أسلوب المخطوطات في الديوان الامبراطوري ؛ وأما (هانس أوتمار) فيصدر « مواعظ جيبر » لكايزرسبرغ ، ثم يقوم ابنه (سيلفان) باصدار العديد من الطبعات عن الكتابات اللوثرية ، بينما يصدر (جوهان ميلر) عدة طبعات لكونراد بيتنجر وأولريش دي هوتن . أما في (نورمبرغ) ، حيث يستمر آل (كوبرجر) في اصدار كتلة هائلة من الكتب ، فان (هيرونيموس هولتزل) يبذل نشاطا جبارا حتى عام ١٥٣٢ ، كما تظهر عدة مطابع جديدة على درجة كبيرة من الاهمية : كمطابع « فريدريخ بيبوس » (١٥١٠ ــ ١٥٣٥) ، « جوبست غونتنخ » (١٥١٤ ــ ١٥٤٠) ، « جوهان بيتروجوس » (١٥١٩ ــ ١٥٥٠) . وأخيرا ، في مطبعة أكثر تواضعا ، نجد (هيرونيموس أندريا) يستخدم حرف الطباعة الجميل « Fraktur » الذي قام بنقشه ، ويطبع « Triumphwagen » وكتابات (دورر) النظرية .

وهكذا نرى أن المراكز الطباعية الكبرى كانت كثيرة في ألمانيا عند بداية الاصلاح اللوثري . كان من الواجب أيضا ذكر مراكز أخرى لا تقل أهمية كمركز (لايبزيغ) مثلا ، وسنرى فيما بعد أن الكثير من المراكز قد توسعت في عهد (لوثر) ثم في النصف الثاني من هذا القرن . ولكننا نكتفي الآن بالاشارة الى أهمية المطابع في (كولونيا) ، هذه المدينة الكاثوليكية العريقة . من المؤكد أن انتاج المطابع قد تضاءل في هذه المدينة في السنوات الاولى من ذلك القرن ، وكان (هنريخ كنتل) هو الوحيد الذي أصدر عدة أبحاث في اللاهوت . الا أن عدة مطابع ما لبثت أن عادت تعمل قرب الجامعة التي تضم آلاف الطلاب . وقد استطاع الناشر (هيتروب) أن يقوم وحده بتشغيل العديد من الآلات الطابعة ، وأن يرسل الطلبات

والتوصيات الى باريس وبال وتوبنجن ، حتى أن شبكته التجارية امتدت الى كافة انحاء أوروبا ؛ كما استطاع ، مع شريكه (هورنكن) ، أن يمتلك عدة فروع في باريس ، لايبزيغ ، ويتنبرغ وبراغ . في كولونيا أيضا ، ضاعف (أوكاريوس سيرفيكورنوس) من انتاج الطبعات اللاتينية المعدة من قبل الانسيين (هيرمان فون دم بوش) و (مورمليوس) بينما كان الكتبي (بيركمان) ، الذي أضاف الى مكتبته مطبعة خاصة في عام ١٥٢٦ يعمل فيها عمال من مدينة انفرس ، يمتلك بدوره فرعا في لندن . وهكذا ادت هذه المطابع مع ورشات طباعية كثيرة اخرى ، الى جعل (كولونيا) احد المراكز الكبرى للطباعة والنشر في المانيا : حتى انها اصبحت المركز الاول في فترات معينة من هذا القرن ، والثالث ، وفق سجلات معارض فرانكفورت ، عند نهاية القرن ، بعد فرانكفورت ولايبزيغ .

*

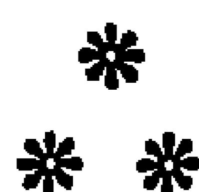
* *

وهكذا نجد خلال القرن السادس عشر في المانيا ، المطابع تعمل ، لفترة معينة على الاقل ، في حوالي / ١٤٠ / محلة جديدة . كذلك عرفت الطباعة في فرنسا أيضا ، خلال النصف الاول من ذلك القرن على الاخص، نشاطا استثنائيا محموما . فقد انشئت المطابع في العديد من المدن (حيث قدرها « لوبرو » بـ / ٣٩ / من عام ١٥٠١ حتى ١٥٥٠ ، و بـ/٤٠/ في النصف الثاني من القرن) . الا أن باريس وليون وفينيسيا كانت اكثر المراكز الاوروبية نشاطا . وقد كانت تلك الفترة على درجة من الخصوبة يصبح من العبث معها الادعاء بامكانية الاكتفاء بذكر اهم رجال الطباعة والنشر . في الفترة الواقعة بين عامي ١٥٠٠ ـ ١٥٩٩ ، بلغ مجموع الكتب التي طبعت في باريس / ٢٥٫٠٠٠ / ، وفي ليون / ١٥٫٠٠٠ / . بعد هاتين المدينتين (المركزين) بمسافة بعيدة ، تأتي كل من : روان ، تولوز ، بواتييه ، تروي ، انجيه ، غرينوبل وبوردو . فيما يتعلق بعام ١٥٣٠ ، استطاع (فيليب رينوار) مثلا ، أن يحصي / ٢٩٧ / مجلدا مطبوعا في باريس ، / ١١٠ / في ليون ، / ٥ / في كان ، ـ ٥ ـ في روان ، ـ ٤ ـ في بواتييه ، / ٣ / في بوردو وغرينوبل وتولوز ، بينما خرج من مطابع

ستراسبورغ / ٣٢ / كتابا و / ١٩ / من مطابع هاغنو . وهكذا بـدت فرنسا موزعة آنذاك الى منطقتين : فرنسا الشمالية ، حيث تباع بصورة رئيسية الطبعات الباريسية ؛ أما (تروي) وخاصة (روان) ، فكانتا مركزين متممين لباريس ، حيث يعمل رجال الطباعة غالبا لصالح أصحاب مكتبات العاصمة ، الذين كانوا على صلة مستمرة برجال الطباعـة في كولونيا أو بال الذين يأتون بأنفسهم الى باريس للاقامة فيها أحيانا . وفي احيان كثيرة أيضا ، كان الباريسيون والنورمانديون يتوجهون الى انكلترة أو يعملون لصالحها . اما في جنوب فرنسا بالمقابل ، فقد كان تأثير مدينة ليون مسيطرا ؛ فالكتبيون الليونيون هم أيضا على صلة وثيقة دائمة مع بال والبلدان الرينانيه . وبفضل معارض ليون ، نجد الصناعة الطباعية الليونية تبدو كصناعة تصدير ، والكتبيين الليونيين على صلات وثيقـة مع زملائهم في الخارج ، وخاصة الايطاليين منهم . انها الفترة التي تمتلك فيها أسرة (غينتا) مطابع في كل من فينيسيا وفلورنسا وليون واسبانيا . وهكذا كان الليونيون يسعون جاهدين لتقليد الطبعات الايطالية ويزاحمون الفينيسيين مزاحمة شديدة . وقد كانت لهم في اغلب الاحيان فروع في تولوز وممثلون عديدون في مدريد وسلمنك وبورغوس وبرشلونة .

اذا كان مطلع القرن السادس عشر ، بالنسبـة لفرنسا والبلـدان الجرمانية ، عصر نشاط استثنائي ، فانه لم يكن كذلك بالنسبة لايطاليا حيث الظروف لم تكن مواتية بشكل موحد في كل مكان . فلا شك أن فينيسيا ظلت ، لفترة طويلة ، تسيطر على سوق الكتاب ، وفي مطلـع القرن السابع عشر أيضا ، ستكون أكثر نشاطا من (أنفرس) في السوق الالمانية . ولكن ، اذا ظل آل (آلد) يقدمون طبعاتهم الشهيرة وظل النشاط على أشدّه لدى آل جيونتا ، نيكوليني داسابيو ، ماركوليني ، وباغنانيني ، الا أن الميل قد ازداد نحو التضحية بالنوعية والابتكار لصالح الكمية . واذا كانت الطباعة قد حافظت على مستواها بصورة أفضل في روما ، مع آل (بلادو) والمطبعة الفاتيكانية ، حيث ادى وجود البابوات وحركـة « الاصلاح ــ المعاكس » الى تنشيط تجارة الكتاب والصناعة الطباعيـة ، فقد كان الانحدار جليا في (ميلانو) منذ عام ١٥٠٠ وعلى الرغم من نشاط

آل (باشيل) و (بوناكورس) و (ليغنانو) و (لوسينيبيريه) . كذلك في (بولوني) ، رغم آل (فيللي) و (بوناسي) ، وفي فلورنسا ، رغم آل (جيونتا) ومنافسيهم من آل (دوني) ، فقد أصبح الانتاج يبدو موجها اكثر فأكثر لارضاء الحاجة المحلية .



في هذه الاثناء ، لم تحرز الطباعة في اسبانيا اي تقدم . فقد ظل الناس هناك مدة طويلة ، يستخدمون الحروف القوطية القديمة ذات المظهر الثقيل ؛ كما ظلوا حتى منتصف القرن يستعملون الخشب بالطراز المستوحى من الخارج . صحيح أن الكاردينال (Ximenez) قد قام بين عامي ١٥١٤ ــ ١٥١٧ ، وبمساعدة الانسي (أنطونيو دي نيبريجا) ، بتنفيذ كتاب التوراة الشهير الذي طبع بعدة لغات في مدينة (الكالا) من قبل (أرنو غيون دي بروكاس) الذي يعتقد بأنه من المدينة الفرنسية التي تحمل هذا الاسم في جنوب فرنسا . الا أنه لم تكن هناك سوى مراكز ثلاث عرفت نشاطا مماثلا وهي : سلمنك وبرشلونة واشبيليا ، حيث كان آل (كرومبرغر) يكثرون من اصدار روايات الفروسية ؛ ولم تكثر المطابع في مدريد الا في النصف الثاني من القرن ، حيث ستتوسع صناعة الكتاب وخاصة في القرن التالي ، دون أن تتوقف اسبانيا مع ذلك عن الظهور كسوق لاصحاب المكتبات الاجانب . كذلك ظلت اسبانيا تقوم غالبا باستخدام الكتب المطبوعة في الخارج كمدينتي ليون وأنفرس بشكل خاص .

أما في انكلتره ، فقد نجح أصحاب المطابع والمكتبات في ايجاد صناعة طباعية مستقلة . وقد أدت الرغبة في تشجيع العمل الوطني وضرورة تجنب كل تماس مع الخارج أثناء حركة « الاصلاح » ، الى حث آل (تودور) على ممارسة سياسة حماية قاسية . لذلك اتسم تاريخ الطباعة الانكليزية بصبغة خاصة جدا خلال تلك الفترة . فقد كان السعي حثيثا في البداية ، خلال القرن الخامس عشر ، من أجل اجتذاب أصحاب المكتبات والمطابع الى انكلتره : ففي عام ١٤٨٤ ، صدر قرار من البرلمان يعفي هؤلاء ،

مهما كان موطنهم الاصلي ، من القيود والتحفظات المفروضة على العمل الاجنبي . عند نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر ، كان اكثر رجال الطباعة نشاطا في البلاد من أصل أوروبي أجنبي : فالسيد (وينكن دي وارد) ، خليفة كاكستون ، الذي قام حتى عام ١٥٣٥ بطباعة ما يقرب من / ٧٠٠ / مجلد ، هو من « وارث » في الالزاس . كذلك (غليوم فاك) ، الذي حرّف اسمه بالانكليزية وجعله (فاوكس) ، و (بينسون) ، اللذان أنتجت مطابعهما ما يقرب من / ٤٠٠ / مجلد بين عامي ١٤٩٠ ـ ١٥٣٠ ، هما رجلا طباعة تابعان للملاك من أصل نورماندي . ومن المحتمل أن يكون هناك فرنسيون آخرون من أمثال (نوتاري) وغيره . في الفترة الواقعة بين عامي ١٤٧٦ ـ ١٥٣٦ ، كان ثلثا رجال الطباعة والكتبيين أو المجلدين الذين يعيشون في انكلترة من الاجانب . وفي أحيان كثيرة ، كان العتاد المستخدم يأتي من فرنسا ، وكذلك الامر في اسكتلنده، حيث يقوم (أندرو ميلن) باستخدام حروف مماثلة للتي كان يستعملها آل (مارنيف) . كذلك ما زال الناس في باريس وروان ثم في أنفرس ، يطبعون الكتب لصالح انكلترة . وكثيرون هم أصحاب المكتبات الباريسيون الذين يملكون فروعا لهم في لندن .

عندما بدأ عدد رجال الطباعة البريطانيين بالازدياد ، حاول الانكليز التصدي لهذه السيطرة . ففي عام ١٥٢٣ بشكل خاص ، كان يحظر على الاجانب استخدام العمال المبتدئين من غير الانكليز ، وكذلك استخدام أكثر من عاملين اثنين من الاجانب . وأخيرا ، صدر قرار في عام ١٥٣٤ يلغي قرار عام ١٤٨٤ المتعلق بامتيازات الاجانب . وفي عام ١٥٤٣ ، لاحظ الملك أنه أصبح باستطاعة الرعايا البريطانيين ان يقوموا بأعمال الطباعة بأنفسهم ، فمنح كلا من (رتشارد كرافتون) و (ادوارد وايتشورسن) امتيازا خاصا باحتكار اصدار الكتب المعدّة للخدمةالالهية. وأخيرا ، في عام ١٥٥٧ ، منحت ماري تودور أصحاب المكتبات والمطابع المجموعين في الـ « Stationner's Company » صك امتياز خاص .

في الوقت نفسه ، بدأ انتاج المطابع الوطنية بالازدياد . ففي الفترة

الواقعة بين عامي ١٥٢٠ ــ ١٥٢٩ ، طبع ما يقرب من / ٥٥٠ / كتابا ؛ و / ٧٣٩ / كتابا بين ١٥٣٠–١٥٣٩ ؛ و / ٩٢٨ / كتابا بين ١٥٤٠–١٥٤٩. الا ان هذه الارقام تظل ضئيلة ، اذ كان يطبع في باريس آنذاك / ٣٠٠ / مجلد سنويا ، ولكنها تعتبر مع ذلك مؤشرا للتقدم . في النصف الثاني من القرن ، بدات تزداد كمية الكتب المطبوعة وتكثر المطابع . وقد حدت الرغبة في مراقبة نشاط المطابع مع الحيلولة دون تزايد الانتقادات بتزايد هذه المطابع ، بالحكومة الى تركيز الصناعة الطباعية في لندن (١٥٨٦) والى الحد من عدد الورشات ؛ ففي عام ١٦١٥ ، حدد عدد رجال الطباعة في لندن باثنين وعشرين ؛ أما خارج العاصمة ، فلم يسمح بالعمل الا لمطابع المتمركزة قرب جامعتي (أوكسفورد) و (كامبريدج) ؛ وفي عام ١٦٦٢ ، سمح ليورك ايضا بأن تكون لها مطبعتها الخاصة . ولم يتم الغاء هذا التشريع الجائر الا في عام ١٦٩٥ . منذ ذلك الحين ، بدات المطابع تكثر في كل مكان : حيث نجدها عام ١٧٢٥ ، في كل من مانشستر ، برمنغهام ، ليفربول ، بريستول ، سيركنستل ، أكزيتر ، وارسيستر ، نورويتش ، كانتربوري ، تانبريدج ويلز ، يورك ، نيوكاستل ونوتنغهام .

*

* *

الا أن حركة الاصلاح التي دفعت ملوك انكلترة لعرقلة تبادل الكتب بين بلادهم والقارة الاوروبية ، قد اثارت في المانيا انقلابا في خارطة مراكز النشر الكبرى . منذ عام ١٥٢٠ ، بدات حركة الاصلاح اللوثرية تحدث مفعولها في المانيا . اما مدينة (لايبزيغ) ، التي كانت نشطة جدا في مطلع الفرن مع كل من مارتين لاندسبرغ ، والفغانغ ستوكل ، جاكوب تانر ، وخاصة ميلشيور لوتر ، فقد عرفت بعض الكسوف عندما شرع الكاثوليكي المتطرف جورج دي ساكس (١٤٧١ ــ ١٥٣٩) في ملاحقة رجال الطباعة الذين ينشرون افكار حركة الاصلاح ومبادئها . فقد اضطر (ستوكل) مثلا ، للتخلص من قسوة المراقبة ، للانتقال الى مدينة ايلنبورغ . الا أن تأثير (لوثر) قد ساهم منذ ذلك الحين بالمقابل ، في تسهيل توسع مركز طباعي هام ونشيط في ويتنبرغ . وقد ادى انشاء جامعة في هذه

المدينة عام ١٥٠٢ ، الى اجتذاب رجل الطباعة المعروف (جوهان رو ـ غرونتبرغ) ، وذلك عام ١٥٠٨ ؛ وهذا الاخير هو الذي أصدر في سنة ١٥١٦ ، أولى كتابات (لوثر) ، كما نشر له عام ١٥١٧ ، أبحاثه الشهيرة عن العطف والتساهل . لم تتوقف الطباعة ، منذ ذلك الحين ، عن التوسع والتطور في (ويتنبرغ) : ففي عام ١٥١٩ ، افتتح فيها ميلشيور لوتر ، من مدينة لايبزيغ ، فرعا خاصا عهد بادارته لابنه (ميلشيور الفتى) سنة ١٥٢٠ . وقد خصص هذا الفرع لخدمة (لوثر) ، حيث كانت تطبع ثم تطبع دون توقف بالترجمات التي كان يقدمها هذا الاخير عن النصوص المقدسة . ثم تلت ذلك مطابع كثيرة تدين جميعها بالولاء للحركة الاصلاحية من امثال مطبعة (كريستيان دورنغ) التي كانت تعمل أيضا في نشر التوراة اللوثرية باللغة الالمانية . وعما قريب سنرى مجموعة كبيرة من المطابع اهمها : مطبعة كل من نيكل شيرلنتنر ، جوزيف كلوغ ، هانس ويس ، وهانس لوفت . وخلاصة القول ، اصبحت هناك مطابع عديدة تنشر ، بمئات الآلاف ، الكتابات اللوثرية : من ترجمات ومواعظ واعمال تربوية وجدلية توزع وتعاد طباعتها في المدن المؤمنة بالحركة الاصلاحية . وهكذا اصبحت المطابع الالمانية منهمكة من الآن فصاعدا في اصدار المقالات الانتقادية والاعمال الدعائية باللغة الالمانية ، كما ظهر نوع جديد من ادب الكفاح « الادب النضالي » الذي تكفل الدعاة بنشره .

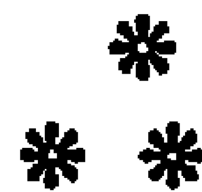
سنلمس فيما بعد نتائج كل هذا النشاط ؛ الا اننا نكتفي الآن بذكر ما يتعلق منها بالانتاج الطباعي الالماني : فبينما كانت المطابع كثيرة متعددة حتى الآن ، وخاصة في جنوب المانيا ، بدات المطابع في الشمال ، والتي كانت محدودة النشاط حتى عام ١٥٢٠ تقريبا ، بانتاج كمية هائلة من المؤلفات بين عامي ١٥٢٠ ـ ١٥٤٠ . الا انها أخذت تنحدر في الفترة الواقعة بين عامي ١٥٤٠ ـ ١٥٧٥ قبل أن تعاود نشاطها وحيويتها في نهاية القرن . ومجمل القول ، أن تفوّق الانتاج الطباعي لالمانيا الشمالية على المناطق الجنوبية أصبح أقل وضوحا خلال تلك الفترة ، وذلك بفضل (لوثر) والحركة الاصلاحية .

*

* *

الا أن الخلافات والمنازعات الدينية لم تقتصر على المانيا وحدها ؛ كما أن الازمة الاقتصادية التي تميز بها النصف الثاني من القرن السادس عشر ، قد ادت في الوقت نفسه الى انحدار بعض مراكز الطباعة والنشر بل خرابها . ومن هنا نجمت انقلابات عديدة . ففي فرنسا مثلا ، أدى انتشار « الكالفينية » الى ظهور ورشات مؤقتة تخدم القضية البروتستانتية في العديد من المدن في جنوب فرنسا ؛ ولكن ، اعتبارا من عام ١٥٥٠ تقريبا ، عرفت الطباعة الليونية انحدارا لن يتوقف عن التزايد حتى حوالي عام ١٦٣٠ . وهكذا اصبح اصحاب المطابع والمكتبات الليونيون الموالون للافكار الجديدة او المعتنقون للمذهب « الكالفيني » والذين ترهقهم مطاليب العمال المتزايدة ، مضطرين للهجرة بأعداد كبيرة هربا من الاضطهاد وطلبا للعمل الهادىء في ظروف افضل . وهكذا عمد (كالفين) ، كما فعل (لوثر) في ويتنبرغ ، الى انشاء مركز للطباعة والنشر قرب مدينة ليون ، في منطقة تتوفر فيها اليد العاملة الاكثر انضباطا والاقل متطلبات ، وذلك في مدينة جنيف حيث ما لبثت طواحين الورق أن تضاعفت ؛ وهكذا اصبح هذا المركز ملجأ كبار ارباب الطباعة ، ثم ما لبث أن أصبح هدفا ومقصدا للعمال أنفسهم ، الذين لا يجدون عملا في ليون ، فيسلكون طريق جنيف .

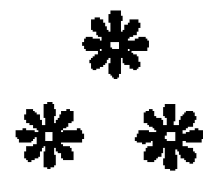
الا ان هناك مدينة ثالثة ستستفيد آنذاك ، بفضل معارضها ، من التنافس بين ليون وجنيف : هي مدينة (فرانكفورت) . لم تكن الطباعة قد ظهرت في هذه المدينة الا بصورة متأخرة نسبيا عام ١٥١١ . ولكن اعتبارا من عام ١٥٣٠ ، كان (ايفينولف) ، الذي سيصبح من كبار الناشرين ، قد استقر فيها ، وما لبثت معارض فرانكفورت أن أضحت ، كما سنرى ، ملتقى أرباب الطباعة من كافة انحاء العالم ، يأتون اليها لعرض أعمالهم ومبتكراتهم ؛ وقد بقيت هذه المدينة حتى عام ١٦٢٥ ، موئل تجارة الكتاب الاوروبي .



الا انه ، اعتبارا من حوالي عام ١٥٧٠ ، بدات « النهضة »الكاثوليكية تحدث آثارها ، مما ادى الى انقلاب جديد في خارطة مراكز النشر الكبرى. وقد ادى القرار الذي اتخذه « مجلس الثلاثين » بتوحيد الكتب الطقسية الدينية واعادة النظر بها بشكل يجعلها منسجمة مع الاستخدام الروماني، الى تسهيل بعث النشر الكاثوليكي وتجدده . فاستطاع عدد من كبار الناشرين ، تدعمهم الكنيسة او الامراء الكاثوليك ، الحصول على احتكار اصدار هذه المؤلفات ، وتمكنوا بذلك من توسيع اعمالهم الى حد بعيد ؛ وهذا ما كان ، كما راينا ، مصدر الثروة الطائلة التي جمعها آل بلانتين ــ موريتوس . في الوقت نفسه ، نجد أن عمل اليسوعيين ، الذين اخذوا يكثرون من انشاء المعاهد في كافة انحاء اوروبا ويساعدون على اقامة المطابع بالقرب من هذه المعاهد ، وكذلك قيام عدة اديرة في أوروبا الكاثوليكية وسعيها الحثيث للحصول على مكتبات خاصة بها ، ثم انبعاث التتوى الشعبية وما رافقه من ظهور ادب خاص بالتقوى والتدين ، كل ذلك ساعد على توسيع اعمال النشر الدينية .

ففي أوروبا الكاثوليكية ؛ نجد ان مراكز النشر الكبرى كانت آنذاك هي المراكز الكبرى للنهضة الدينية : ففي المانيا ، عاودت الطباعة نشاطها جنوب البلاد وفي كولونيا ؛ في البلاد ــ الواطئة الاسبانية ، في انفرس ، التي اصبحت منذ الفتح الاسباني معقلا للاصلاح ــ المضاد ، نجد آل (موريتوس) يستمرون طويلا في اصدار عدد هائل من كتب الاستعمال ، المعدلة وفق قرار مجلس الثلاثين ، ونشرها في كافة انحاء أوروبا وأمريكا؛ كما نجد آل (فيردوسن) ، من كبار الناشرين الانفرسيين ، يطبعون كمية كبيرة من الكتب المتبحرة العميقة لمؤلفين يسوعيين . اما في فرنسا ، فان (كراموازي) وأقاربه وشركاءه يسيطرون بنفس الطريقة على النشر الباريسي ، بفضل حماية الكنيسة واليسوعيين . بفضل اليسوعيين أيضا، عرفت الطباعة الليونية ، اعتبارا من عام ١٦٢٠ بشكل خاص ، نوعا من البعث والتجدد . وكذلك الامر في فينيسيا . وفي روما اخيرا ، حيث أقام (بول مانوس) قرب المقر البابوي ، نجد الآلات الطباعية في خدمة الـدين .

مقابل شبكة المطابع الكاثوليكية هذه ، نجد شبكة اخرى للمطابع البروتستانتية : ففي فرنسا مثلا ، عرفت مدينة (لاروشيل) نشاطا ملحوظا ؛ وكذلك (سومور) بشكل خاص ، حيث أدى وجود جامعة بروتستانتية يدرس فيها الطلاب من انكلترة وهولاندة والمانيا ، الى توسيع عدة مشاريع طباعية في هذه المدينة الصغيرة ؛ في (سيدان) ، في امارة (بويون) ، ظهرت مطابع عديدة للاسباب ذاتها . اما في سويسره ، فقد لوحظ ان الطباعة « البالية » (نسبة الى مدينة بال) في انحدار ، بينما اضطر اهل جنيف ، للحفاظ على نشاط مطابعهم ، الى طباعة الكتب المعدة للبلدان الكاثوليكية تحت عناوين مزيفة . وأما في البلاد الواطئة الشمالية ، التي تحررت من النير الاسباني ، فقد بدات المطابع تتكاثر وتنمو ؛ وهكذا اصبحت هولنده موطن النشر البروتستانتي : فظهرت عدة ورشات طباعية ، وخاصة في (لويد) ، حيث ساعد (غليوم دورانج)، منذ عام ١٥٧٦ ، على اقامة جامعة ؛ وحيث أقام آل (آلزفييه) . كانت الفلسفة هي السائدة فيهذه الجامعة ، تماما كالعلوم اللاهوتية ؛ لذلك لن يلبث آل (آلزفييه) أن يضاعفوا من انتاجهم لاعمال المؤلفين الكلاسيكيين ، التي كان يتهافت عليها كافة المتعلمين في أوروبا . وبينما كان (بلو) يؤسس في (امستردام) دارا كبرى للطباعة والنشر ، متخصصة في اصدار الخرائط الجغرافية ومجلدات « أطلس » ، بدأ آل (آلزفييه)، الذين اقاموا مطبعة في امستردام ، بالاضافة الى مطبعة (لويد) ، يعيدون طباعة اكبر الكتاب الفرنسيين والانكليز ، وينشرونها في كافة انحاء أوروبا تحت عناوين مزيفة ، وذلك بواسطة شبكة تجارية رائعة التنظيم .



اعتبارا من منتصف القرن السابع عشر ، حدثت تبدلات جديدة اخرى ، وانتهت فترة ازدهار النهضة الكاثوليكية . فقل تصريف أغنياء الناشرين للكتب الدينية ، كما ضعف الاقبال على الاعمال الضخمة كطبعات « آباء الكنيسة » . كذلك ضعف انتاج الاديرة ، واكتملت مكتبات الاديرة المشكلة حديثا والتي اعيد تشكيلها في الاديرة التي نهبت اثناء الحروب

الدينية . في الوقت نفسه ، نجد ان الادب غير الديني ، الذي يكتب بلغة البلاد ويوجه غالبا الى الجمهور الذي يجهل اللاتينية ، وخاصة النساء فد لاقى رواجا جديدا في كل من فرنسا واسبانيا وانكلتره ، ثم في هولانده. وقد ادت الندرة النقدية التي كانت تعيق توسع الاعمال في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، الى دفع الناشرين آنذاك للاكثار من « المشاريع الصغيرة » . اصبح الاصدار والبيع من الآن فصاعدا ، يقتصر على المؤلفات الادبية التي تنشر باللغة العامية والتي يمكن تصريفها بسهولة وسرعة .

ادت هذه التبدلات أيضا الى انقلاب جديد في خارطة مراكز النشر . وقد لوحظ بين عامي ١٦٤٠ و ١٦٦٠ ، انفجار حرب حقيقية في التزوير ، تسبب بافلاس ودمار العديد من الناشرين . في مدينة (أنفرس) ، بدأ ناشرو المؤلفات الدينية الكبرى يلمسون تناقص أرباحهم عاما بعد عـام . كما قرر آل (موريتوس) الاقتصار على طباعة الكتب الكنسيـة ذات التصريف المضمون . أما في مدينة (ليون) ، فقد لوحظت ظاهرة تحشد حقيقية ، حيث أصبح آل (أنيسون) الناشرين الكبار الوحيدين في المدينة ، وأعلنوا على الباريسيين حربا لا هوادة فيها . الا أن كولونيا وفينيسيا كانتا في انحدار مستمر .

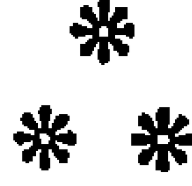
في الوقت نفسه ، وخلال هذه الفترة التي لم تعد تطبع فيها أغلب الكتب باللاتينية بل باللغات الوطنية ، لم تعد تجارة الكتاب ، أو معظمها على الاقل ، أوروبية كما كانت . ويبدو أن الناشرين الانكليز بشكل خاص، لا يقيمون علاقات هامة مع زملائهم من القارة الاوروبية . ففي المانيا ، لم تعد فرانكفورت السوق الكبرى لتجارة الكتاب بعد الازمة التي سببتهـا حرب « الثلاثين عاما » ؛ واصبحت لايبزيغ ، بفضل معارضها ، تلعب هذا الدور من الآن فصاعدا ؛ ومن الجدير بالذكر ، أنه بينما كان أصحاب المكتبات من كافة البلدان يتواجدون في فرانكفورت ، لم يعد يشاهد في لايبزيغ سوى الالمان ، كما بدأ العلماء الفرنسيون يتذمرون من الصعوبات التي يلاقونها لجلب الكتب عبر نهر الراين . اما في فرنسا ، فقد ظلت باريس ، حيث يزداد النشاط الفكري باستمرار ، مركزا نشيطا جدا ،

الا انه الوحيد الهام حقا آنذاك ، لان رجال الطباعة في روان وليون وتروي او تولوز ، الذين لا يملكون مخطوطات جديدة ، كانوا مجبرين على العيش من اعمال التزوير والتزييف .

الا ان الطباعة لاقت في فرنسا صعوبات هائلة خلال هذه الفترة من الازمة المغطاة التي ما لبثت أن أصبحت مكشوفة ، وقد زاد في حجم هذه الصعوبات ، التكاثر اللامتناهي للمطابع منذ قرنين وحتى حوالي عام ١٦٥٥ . اذ لم تعد هناك قرية كبيرة الا وتمتلك ورشة طباعية ، حيث يعيش صاحبها يوما بيوم ، من طباعة المعاملات الادارية وكتب القراءة الاولى أو كتب الصفوف الابتدائية ، أو المقالات الانتقادية ، لان العديد من عمال الطباعة لم يستطيعوا ، خلال تنقلاتهم وأسفارهم ، أن يقاوموا اغراء الحصول على عتاد مستعمل بأسعار زهيدة من اجل العمل المستقل والحياة الحرة . لذلك نجد في باريس نفسها ، عام ١٦٤٤ ، ٧٥ ورشة طباعية : منها ١٦ لا تحتوي الا على آلة واحدة ، و ٣٤ على آلتين فقط ؛ وهكذا ، من بين الـ / ١٨١ / آلة الموجودة في العاصمة ، كان ما يقرب من النصف يفتقر آنذاك الى العمل المنتظم . لمواجهة هذا الوضع ، والحيلولة دون اعمال التزوير ، ولتجنب قيام رجال الطباعة الذين يفتقرون الى العمل باصدار المقالات الانتقادية أو الكتب الفاضحة ، اضطر (كولبير) لاتخاذ تدابير مشددة صارمة . لذلك حدد نظام الامتيازات ، كما قام سنة ١٦٦٦ خاصة ، باتخاذ قرار باغلاق عدد من الورشات ومنع تسمية أرباب عمل جدد أو تشكيل ورشات جديدة ؛ وقد استمر هذا الحظر دون هوادة حتى عام ١٦٨٦ .

وهكذا ، من الآن فصاعدا وحتى الثورة الفرنسية ، تم تنظيم عدد المطابع بقسوة ؛ الا ان هذه السياسة الجائرة ، التي تشبه السياسة التي مارستها انكلترة قبل قرن ، كانت ذات عواقب وخيمة ولم تحقق هدفها الرئيسي : وهو الحيلولة دون طباعة وتصريف الكتب السيئة . لذلك سنجد من الآن فصاعدا ، كمية كبيرة من الكتب الفرنسية ، التي لا تقل أهمية عن سواها ، تطبع في الخارج ؛ اذ بينما كانت الطباعة والنشر في

فرنسا يتخبطان في ازمة رهيبة عند نهاية القرن السابع عشر ، بدء حكم الطباعة والنشر الهولنديين .



يعتبر تاريخ « الكتاب الهولندي » مدهشا حقا ! فقد بدأ توسع النشر الهولندي ، كما لاحظنا ، منذ السنوات الاولى للقرن السابع عشر . فبعد أن تحرر الهولنديون من الوصاية الاسبانية ، وانطلقوا في غزو امبراطورية استعمارية ، عرفوا في القرن السابع عشر « عصرهم الذهبي » وازدهارهم الكبير . لم يكن هناك اكثر مناسبة من تجارة الكتاب بالنسبة لهؤلاء التجار المولعين بالحرية ، الذين يقدسون قضايا الفن والفكر . ففي تلك الفترة ، التي استطاع خلالها كل من (فيرمير) و (رامبرانت) و (فرانس هالس) ان يعطوا مدرسة الرسم الهولندي بريقا استثنائيا اخاذا ، كان العلماء في هولنده كثيرين ، يقيمون مع رجال الادب في الخارج امتن العلاقات وأوثقها . ويكفي ان نذكر هنا اسم (قسطنطين هيغنز) على سبيل المثال . وهكذا أصبحوا على ارتباط بالمفكرين من ثلاث دول هي انكلتره والمانيا وفرنسا ، وبمثابة همزة وصل بين هؤلاء (ويكفي أن ننوه هنا بالعديد من الصحف الهولندية) . لذلك كانت هولندة مقصد الكثيرين من الفرنسيين من امثال بلزاك وتيوفيل دي فيو وخاصة ديكارت. وقد كانت الفرنسية متداولة في بلاط موريس دي نسو ، كما كانت مكتبات (لاهاي) تغص بالعديد من الكتب الفرنسية . وعلى اثر كل فترة اضطهاد، كان الفرنسيون البروتستانتيلجؤون الىهذا البلد ذي الاغلبيةالكالفينيه، تحت حكم لويس الرابع عشر بشكل خاص ، ايام الحملات « الدراغونية » والغاء « قانون نانت » ، نجد بعض كبار أصحاب المكتبات الهاربين من فرنسا من أمثال آل ديبورد أو آل هوغيتان ، يلتقون هناك بلاجئين من (Wallonie) مثل آل مورتييه ؛ كما يلتقون أيضا بعدد من كبار الكتاب الفرنسيين ، حتى أن (أمستردام) أصبحت ، منذ نهاية القرن السابع عشر وبعد باريس مباشرة ، المركز الثاني للطباعة والنشر الفرنسيين ، كما بدأ كبار الكتبيين الهولنديين ، من أمثال آل (ليرز) من روتردام ،

ينشرون اعمال (بايل) والطبعات الباريشية المنسوخة أو المنقولة لخيرة المؤلفين الفرنسيين ، وذلك في كافة انحاء أوروبا ، من لندن الى برلين ، بفضل علاقاتهم التجارية الواسعة وموقع بلادهم المناسب . وعما قريب ، سنجدهم من المنافسين الاشداء لاصحاب المكتبات الفرنسيين ، لان طبعاتهم تدخل باريس دون صعوبة تذكر ، الا عندما يتعلق الامر بكتب ممنوعة او مزورة أو مقلدة ؛ وحتى في هذه الحالة الاخيرة ، كان يكفي عادة اتخاذ بعض تدابير الحيطة والحذر . في القرن الثامن عشر ، سوف تنمو هذه التجارة وتتصاعد مع تحول الفرنسية الى لغة دولية . عما قريب أيضا ، يصبح الكتبيون الهولنديون ، مع بعض الناشرين البلجيكيين والسويسريين ، افضل دعامات للفلاسفة . ويكفي للبرهان على ذلك ، ان نذكر اسم (مارك ــ ميشيل راي) . وهكذا نجد خلال قرن كامل، من ١٦٩٠ الى ١٧٩٠ ، أن اعمال أشهر الكتاب الفرنسيين قد قرئت في كافة انحاء أوروبا في طبعات تمت كلها خارج فرنسا .

٤ ــ الطباعة تغزو العالم

وهكذا انتشرت الطباعة بسرعة كبيرة في أوروبا الغربية . ولم تبق مدينة هامة في المانيا أو ايطاليا أو فرنسا أو هولندة الا واشتغلت فيها المطابع منذ القرن الخامس عشر . اما في اسبانيا والبرتغال وبولونيا ، فقد بدأت الطباعة منذ القرن الخامس عشر أيضا ، الا انها لم تأخذ مجراها الطبيعي الا في القرن السادس عشر ، بينما كان النظام المتبع في انكلتره يقضي بحصر كافة المطابع في مدينة لندن دون سواها . ولكن كيف ومتى ظهرت الطباعة وتوسعت في بلدان شمال أوروبا الاكثر بعدا والاقل سكانا؟ كيف تأقلمت في البلدان السلافية ، وخاصة تلك التي كانت تستخدم ابجدية مختلفة ؟ كيف انسجمت ايضا عندما انطلق الاوروبيون لغزو « العالم الجديد »، مع الشروط الجديدة التي كانت تمليها ضرورةالسيطرة على مساحات شاسعة ظلت شبه خالية من السكان مدة طويلة ؟ وكيف تمكنت اخيرا تقنية الطباعة ، التي انجزت في الغرب ، من فرض نفسها على آسيا ، في بلدان ذات حضارة قديمة تستخدم تقنيات قد تكون أكثر بدائية ، ولكنها أكثر انسجاما وتكيفا ؟ اسئلة عديدة لا بد من الاجابة عليها اذا أردنا أن ندرك الابعاد الكاملة للدور الذي لعبه الكتاب المطبوع .

٢ ـ البلدان السلافية

بوهيميا ومورافيا

كانت بوهيميا ، على أرض تشيكوسلوفاكيا الحالية ، هي أول بلد سلافي دخله اختراع (غوتنبرغ) . في هذا البلد ذي الثقافة العالية ، كانت هناك مدينتان مسيطرتان : براغ ، العاصمة التي انشأت أولى جامعاتها منذ عام ١٣٤٨ ، و (بيلسن) . هنا أيضا ، كما في سائر أوروبا الغربية ، نشأت الى جانب النبلاء طبقة من التجار ذوي المكانة الاقتصادية والنفوذ الاجتماعي . وقد أدت النهاية المفجعة لـ (جان هوس) عام ١٤١٥ ، على عتبة عصر النهضة ولسنوات طوال ، الى حدوث خلافات دينية وسياسية شديدة . ومن المحتمل ان تكون الظروف التي من شأنها عرقلة الطباعة هي التي ساعدت على دخولها وانتشارها . ففي بوهيميا فعلا ، اكثر من أي بلد سلافي آخر ، سادت فكرة ممارثة التأثير على اكبر عدد ممكن من القراء .

بينما كانت (براغ) تضج ، تحت الاشراف العطوف والنظرة الخيّرة للملك (جوري بود يبراد) ، بمقالات (هوس) الانتقادية ، نجد (بيلسن) ، هذه المدينة الشهيرة بآرائها الكاثوليكية ، الغنية بتجارتها المزدهرة ، الواقعة على تقاطع الطرق الرئيسية والانهار العديدة ، تعرف أول آلة طابعة عام ١٤٦٨ .

يعود الفضل في دخول الطباعة الى بوهيميا لرجل طباعة مغمور . اما أول طبعة استهلالية معروفة فهي « أخبار طروادة » لصاحبها (غيدو دي كولونا) (١٤٦٨) ؛ وهي في الوقت نفسه أول كتاب طبع باللغة التشيكية . وليس من قبيل الصدفة أن يكون صاحب المطبعة قد انتقى لتجربته الاولى على الارض البوهيمية ، ليس مؤلفا دينيا ، بل كتابا دنيويا لاقى بشكله المخطوط رواجا كبيرا وشعبية متزايدة لدى قراء أوروبا الغربية ، ثم حافظ عليها فيما بعد بشكله المطبوع . اما في سائر البلدان السلافية ، فقد كانت الكتب المطبوعة الاولى ذات طابع ديني

بحت . طبع هذا المؤلف « البيلسيني » بالحروف المستديرة ذات الاثر الجميل . ان طريقة الطباعة (التي تتضمن عددا كبيرا من الاشرطة الرابطة) تمت بالصلة الى اسلوب (أولريش زيل) من كولونيا ، الا انها أكثر غنى باستخدام اشارات شكلية جديدة خاصة باللغة التشيكية . ولا بد أن تكون اليد العاملة المحلية قد ساعدت رجل الطباعة (الالماني ؟) المجهول الذي استوحى عمله من المخطوطات التشيكية القديمة . في عام ١٤٧٦ ، ظهرت « قرارات ارنست » باللاتينية ، مطبوعة بالحروف انطباعية « النسجية » .

في حوالي نهاية القرن ، كان « ميكولاس باكالار » (١٤٨٩ — ١٥١٣) قد أقام في مدينة (بيلسن) ورشة دائمة طبع فيها ما لا يقل عن اثنين وعشرين مؤلفا لاقت جميعها رواجا وانتشارا كبيرين ، نخص بالذكر منها : « الرحلات المقدسة » لبيرنهارد دي بريدنباخ ، « العالم الجديد والبلاد المكتشفة حديثا » لاميريغو فيسبوسي ، « بارلام وجوزافات » ، علاوة على « الزبور » التشيكي الاول (١٤٩٩) ، و « المعجم » التشيكي الاول (١٥١١) ؛ تحمل طبعات (باكالار) المختلفة سمات مشتركة : فقد طبعت كلها بحروف (Schwabach) ، وتتألف الصفحة فيها من عمود يضم عشرين سطرا ، كما كانت جميعها باللغة التشيكية .

نحن مدينون لهذا الرجل ايضا بأول كتاب من وحي هجائي « Podkoni a Zak » (صبي الاسطبل والطالب) الذي طبع عام ١٤٩٨ عن مؤلف كتب باللاتينية في الربع الاخير من القرن الرابع عشر . وقد عمل (باكالار) هذا ، الذي كان يعرف عدة لغات ، ناشرا وكتبيا وحتى عامل طباعة على الارجح .

اقيمت في براغ ثلاث آلات طابعة مختلفة أقدمها آلة (جوناتادي فيكو هيفو ميتو) (١٤٨٧) ، التي قدمت لنا كتاب « زبور » بالاضافة الى « Historia Trojanska » . وقد طبع الكتابان الاولان في براغ بحروف تشيكية صرفة تقدم مزيجا من الخط المقبب والمستدير .

بعد ذلك تأتي مطابع الشريكين (ايان كامب) و (ايان سيفرين) (١٤٨٨ – ١٥٢٠) . يعتبر (سيفرين) هذا ، الناشر وصاحب المطبعة ، مؤسس أسرة صغيرة من أرباب الطباعة ، ستصبح ، بعد عام ١٥٢٠ ، تحت ادارة (بافيل سيفرين) ، اهم أسرة في براغ . يعود لهذين الشريكين شرف اصدار أول كتاب كامل للتوراة باللغة التشيكية (عام ١٤٨٨) ، سمي « توراة براغ » ، وهو من أجمل الطبعات البوهيمية الاولى . تلقى « سيفرين » و « كامب » أول امتياز ملكي عام ١٤٩٩ ؛ وقد أصدرا عشرين كتابا مزخرفا بالنقوش على الخشب التي تشبه بعض الشيء النقوش الخشبية لنورمبرغ : في عام ١٤٨٨ ، طبعة لايزوب ، هي من أقدم الطبعات التشيكية المزخرفة ؛ وفي عام ١٤٩٥ ، كتاب مصور يمثل آلام الشهداء ؛ وفي عام ١٥٠١ ، ترجمة بيترارك باللغة التشيكية ، « علاجات الثروتين »، تتضمن أول عنوان مصوَّر . كانت المطبعة ، حتى عام ١٥١٣ ، تستخدم الحروف الطباعية المستديرة ، ثم انتقلت الى النسيجية (النصيّة) بعد هذا التاريخ .

بالنسبة للجماهير العريضة ، كان هناك شخص يدعى (بينيدا) ، يمارس المهنة في براغ ، حيث اكتسب شهرة واسعة بفضل تقاويمه المطبوعة بحروف (Schwabach) ، المزخرفة بالنقوش على الخشب ، والتي كانت عناصرها تقدم من قبل أعضاء الجامعة كل عام . قبل نهاية القرن ، توسعت الطباعة في عدة مدن من بوهيميا بتأثير من « اخوة بوهيميا » ، تلاميذ (Chelêicky) ، الذي يعتبر أشبه بتولستوي القرن الخامس عشر ، وبفضل وجود عناصر ثقافية واقتصادية . ففي (كوتونو) عام ١٤٨٩ ، قدم (مارتين دي تيسنوفا) كتابين للتوراة على الطريقة « النورمبرغيه » ؛ أما في (وينتربيرغ) ، فقد عمل (الاكراو) منذ عام ١٤٨٤ ؛ وفي (بيرنو) ، عام ١٤٨٦ ، أدار (كونراد ستاهل) أول آلة طابعة في مورافيا ؛ وفي (أولوموك) ، بدأت الطباعة عام ١٤٩٩ . وحوالي نفس التاريخ ، دخلت أيضا الى (براتسلافا) في سلوفاكيا .

بلغ عدد الطبعات الاستهلالية في بوهيميا / ٣٩ / طبعة ، منها / ٥ /

طبعات باللاتينية ، والباقي بالتشيكية ؛ اما الطبعات الاستهلالية الورافية الاحدى عشر ، فجميعها باللاتينية ما عدا واحدة . الا أن رجال الطباعة التشيكيين ، على الرغم من نشاطهم ، لم يتوصلوا الى تلبيــة الطلبات المتزايدة باستمرار ، وخاصة بالنسبة للكتب الدينية الطقسية . لذلك كانت الطلبات ترسل الى المطابع الاجنبية من أمثال مطابع ستراسبورغ ونورمبرغ وفينيسيا وغيرها ...

بولونيــا

اذا كان سكان المدن البوهيمية الاثرياء هم باعثي الطباعة ومؤسسيها، فان الامر لـم يكن كذلك في بولونيــا . عند مطلع القرن الخامس عشر ، كانت بولونيا على عتبة توسعات اقتصادية وسياسية . فقد فتح لهـا الاستيلاء على (دانزيغ) الطريق الى الخليج والاشراف على الشاطىء . كما ادى انتصارها على النظام التوتونيكي عام ١٤١٠ الى توطيد قوتهـا السياسية والعسكرية . الا أن (كراسوفيا) كانت المدينة الوحيدة التي تمتلك ورشات طباعية في القرن الخامس عشر . كانت هذه العاصمــة مدينة جامعية ومركزا ثقافيا هاما مشهورا عبــر الحدود ، حيث كان العلماء مضطرين ، بسبب نقص المطابع المحلية ، للتوجه الى رجــال الطباعة الاجانب . لقد دخلت الانسية (humanisme)هنا مبكرا بفضل الشبان البولونيين الذين كانو يرتادون الجامعات الفرنسية والالمانيــة والايطالية .

كانت (كراسوفيا) آنذاك ملتقى الهنغاريين والتشيكيين والاوكرانيين والبافاريين والسيليزيين والالزاسيين والفرنكيين . من هــذا الخليط الغريب خرج عمال الطباعة الاوائــل ، جميعهم من الغرباء مــع بعض البورجوازيين من كراسوفيا .

اما أول كتاب مطبوع في بولونيا ، من عمل أحد عمال (غونتر زاينر)، فهو « شرح سفر المزامير » لجان دي توركمادا (حوالي ١٤٧٤ ــ ١٤٧٥)،

تبعه قريبا « كل الكتب » لسان أوغستان . شهدت سنتا ١٤٧٦ ــ ١٤٧٧ ولادة مطابع البافاري (غاسبارد هو شفيدر دي هيلزبرون) و (إيان كريفر) و (إيان بيبلوف) . الا ان الشخصية التي تسيطر على تاريخ الطباعة لدى السلافيين الاورثوذكسيين فهي (سوبيا توبولك فيول) من فرانكوني (١٤٧٥) . كان (فيول) هذا يعمل في مهنة التطريز بالذهب ، ومسجلا في جمعية الصناعة في كراسوفيا ، اخترع آلة لتجفيف ميادين سباق الخيل ، وعلى درجة كبيرة من الحيوية والنشاط . كما كان على صلات وثيقة مع « البندكتيين السلاف » الذين كانوا يحلمون بتوحيد الكنيستين، يأمل في تصريف بضاعته بين السلافيين الاورثوذكس ، مما جعله يكرس كل انتاجه للادب الديني وكان أول من طبق طريقة (غوتنبرغ) على الحروف السلافية . انتشرت طبعاته في أماكن عديدة : حيث توجد نسخ عنها في لينينغراد وموسكو . حصل (فيول) على عتاد الطباعة عام ١٤٨٣ ؛ بعد ذلك بثماني سنوات ، عام ١٤٩١ ، انتجت ورشته خمسة كتب هي :

Osmoglasnick (Octoèque) , Psaltir (Psautier) , Casoslovec (Horologium). Triod cvètnaja (Pen_técostaire) , Triod Postnaja.

عمّ البكون مطبعة (فيول) بعد هذا التاريخ ، حيث اتهم بالخروج على الدين وأودع السجن ثم اخلي سبيله وغادر بولونيا الى هنغاريا .

هناك شخص آخر اسس مطبعة دائمة في كراسوفيا يدعى (جان هللر) من فرانكونيا ، كان تاجر خمر وحيوانات ورأسماليا كبيرا . ارتبط اسمه بعالم الكتاب منذ نهاية القرن . وقد بلغ نشاطه كناشر ابعادا واسعة اعتبارا من عام ١٥٠٥ ، وهو التاريخ الذي حصل فيه من الملك الكسندر على امتياز يشمل كافة الاراضي البولونية . عندئذ اسس مطبعة اصدرت سلسلة من الكتب باللاتينية والبولونية . اما المؤلف الذي احتكر بيعه وطباعته فهو تحفته الفنية « كتاب كراسوفيا للصلاة » . أقام (هللر)

على حسابه الخاص طاحونة للورق وورشة للتجليد ، فكان أول رجل في بولونيا يجمع بين وظائف رجل الطباعة والكتبي والناشر كزملائه الكبار في أوروبا الغربية . وهكذا اغرق السوق بكتب القداس والصلوات والتراتيل ، علاوة على الكميات الكبيرة من الكتب الصغيرة والكراسات . وقد نص الاحتكار ـ الامتياز لعام ١٥٠٥ على عدم السماح باستيراد أي مؤلف من الخارج اذا كان واردا في كشف الكتبي (هللر) . ساهم هذا الاجراء لفترة معينة في تسهيل نشر الكتاب المحلي داخل البلاد ، بعد أن حرّره من المزاحمة المرهقة للكتب المستوردة ، وخاصة الايطالية المنشأ . ساهم (هللر) بقسط وافر في تطوير الحياة الثقافية في بولونيا ، كما قدم الحماية للشعراء والكتّاب .

اما (فلورجان انغلر) ، من الرعايا البافاريين ، فلم يكن سوى رجل طباعة . والى مطبعته يرجع الفضل في اصدار أول كتاب بولوني وصل الينا ، وهو « بستان النفس الصغير » لبيرنات دي لوبلينا (حوالي عام ١٥١٤) ، وهو مقتبس عن بحث (نيقولا دي ساليست) الشهير « ترياق الروح» . اضيفت على « بستان النفس الصغير » نصائح عملية كما زخرف بسلسلة من النقوش على الخشب . كان (انغلر) هذا على صلة برودولف اغريكولا وباول دي كروزنا وغيرهما من المشاهير ، مما جعله على اطلاع بالنشاط العلمي . كذلك يعتبر اول من كيّف الطباعة مع اللغة التي تتعلمها الجماهير العريضة من البولونيين . ومن المحتمل الا يكون بحث الاملاء لزابوروفسكي ، الذي صدر آنذاك ، غريبا بالنسبة لهذه الحركة. يمكن اعتبار « بستان النفس الصغير » مع ملاحقه واضافاته الخطوة الاولى نحو تعميم الكتاب الشعبي .

أدى احتكار (هللر) ، لعام ١٥٠٥ ، الى تأخير تطور المطبعة البولونية الثالثة الكبرى ، وهي مطبعة (ويتور) من سيليزيا . عند انتهاء امتياز (هللر) عام ١٥١٧ ، انتقل (ويتور) الى كراسوفيا بعد ان كان قد اقام مطبعة في فيينا . وقد قام هنا ، بين عامي ١٥١٨ ـ ١٥٤٦ ، بطباعة

العديد من الكتب باللاتينية والمغيارية والبولونية ؛ وقد دلّت دقة التنفيذ على تفوقه الواضح على طبعات (هللر) في الجودة والاتقان .

في النصف الاول من القرن السادس عشر ظهرت شخصية (مارك شارفنبرغ) ، الشهير بصراعه مع (هللر) وانتصاره عليه ؛ حتى مطلع القرن السابع عشر ، ظل آل (شارفنبرغ) يعملون في الطباعة ابا عن جد. وخلال حكم « ايتيان باتوري » (١٥٧٦ ــ ١٥٨٦) ، استطاع (نيقولا)، بن مارك شارفنبرغ ، أن يصبح رجل الطباعة الخاص للملك ، حيث قام خلال الحرب الروسية ــ البولونية (ايفان الرهيب ــ باتوري) ، بطباعة العديد من البيانات والبلاغات والتعليمات . وهكذا احتل آل (شارفنبرغ) في بولونيا المكانة التي وصل اليها آل (كوبرغر) في المانيا او آل (بلانتين) في هولانده .

*
* *

اجتاحت حركة الاصلاح بولونيا في منتصف القرن السادس عشر ، وبدأت المطابع تفتتح في كل مكان ، سواء في المدن او الضواحي او الارياف.

أما عصر الطباعة الذهبي في تشيكوسلوفاكيا -فكان القرن السادس عشر .

استأنف عمل (فيول) التجديدي شخص يدعى (فراسيسك سكورينا) ، وهو مهاجر من بولوزك ، احدى المدن الشمالية ــ الغربية من روسيا . كان هذا قد درس الفلسفة في جامعة كراسوفيا ، ثم درس الطب في جامعة (بادو) ، ثم عرّج على فينيسيا حيث تعرف برجل الطباعة والنشر (بوزيدار فوكوفيك) الذي كان يمتلك ادوات طباعية للابجدية السلافية . الا انه ما لبث أن استقر في (براغ) حيث انحصر نشاطه في طباعة كتب الطقوس الاورثوذكسية . وهكذا يعود الفضل الى (سكورينا) في اصدار أول كتاب للتوراة باللغة السلافية (٢٣ كتابا توراتيا) مع عدة نقوش على الخشب (براغ ، ١٥١٧ ــ ١٥١٩) .

كان لـ (سكورينا) ، بفضل معلوماته العلمية وطبعاته وترجماته ، تأثير كبير على ثقافة السلافيين الذين يعتنقون المذهب الاورثوذكسي . في عام ١٥٢٥ ، ودون سبب معروف ، غادر براغ مع عتاده واقام في مدينة فيلنا (ليتوانيا) ، لدى ضابط الامن (جاكوب بابيك) ، حيث طبع كتابين آخرين عام ١٥٢٥ .

من بين رجال الطباعة في براغ خلال القرن السادس عشر ، يتميز مشغلان ، أحدهما يعود لـ (ميلانتريش) ، تلميذ ميلانشتون ، والآخر لخلفه وصهره (آدم فيلسلافين) ، وكلاهما على صلات دائمة مع جامعة براغ . كان (ميلانتريش) يستخدم الحروف الطباعية « antiqua » « Schwabach »؛ كما كان يعتني كثيرا باصدار كتبه التي كانت تظهر بأربع لغات . اما مطبعته فكانت تضم أحد عشر منضدًا تتراوح أجورهم الاسبوعية بين ١٨ « غروس » تشيكي وليرة ذهبية .

أما (آدم فيلسلافين) (١٥٤٥ ـ ١٥٩٩) ، فكان أستاذا في الجامعة، استطاع أن يرقى بالكتاب التشيكي الى أقصى درجات الكمال . وهكذا ، مع هذا الرجل العالم ـ الطابع ، الشبيه بـ (أمير باخ) ، دخلت «النهضة» الى بوهيميا .

اذا كان كل من الكتاب التشيكي والبولوني قد عرفا عصرهما الذهبي خلال القرن السادس عشر ، فانهما انحدرا في القرن التالي بسبب الرقابة والحرب والازمة الاقتصادية ؛ ولم يستأنفا انطلاقتهما مجددا الا خلال القرن الثامن عشر .

السلافيون الجنوبيون

رأينا أن ألمانيا كانت الاصل في دخول الطباعة الى السلافيين الغربيين؛ اما بالنسبة للبلدان الواقعة على الاراضي الحالية ليوغوسلافيا ، فيعود الفضل في يقظة الطباعة لديها الى فينيسيا ، التي كانوا على صلات دائمة بها ؛ بفضل هذه المدينة الايطالية ، استطاع السلاف في الجنوب تطوير

هذا الفن على أرضهم ، كما عرفوا في بعض الحالات كيف يصنعون تحفا فنية حقيقية .

عملت أول آلة طابعة لـ (مونتينيغرو) في (سيتينيه) ، وهي مدينة تقع على بضعة كيلومترات من الادرياتيك ، تحت حماية الامير الحاكم (دوراد كرنو جيفيك) المتزوج من امرأة فينيسية . ولكن الاعتقاد السائد بانه في حوالي عام ١٤٩٠ ، كان (ايفان كرنوجيفيك) ، والد الامير الحاكم، قد أقام في (أوبود) ورشة طباعية نقلت فيما بعد الى (سيتينيه) . وقد كلف بادارة هذه الورشة رجل الطباعة ، الاسقف (ماكاري) ، الذي كان قد تعلم المهنة في فينيسيا ، فقام باكمال عتادها عن طريق شراء الحروف الطباعية المصنوعة في هذه المدينة نفسها .

تعتبر مطبعة (ماكاري) الثانية بعد مطبعة (فيول) خلال القرن الخامس عشر ، التي استخدمت الحروف السلافية . أما أول كتاب ظهر لـ (مونتينيغرو) ، عام ١٤٩٤ ، فهو (Octoèque) ، تلاه في عام ١٤٩٥ « زبور سيتينيه » ، وهو كتاب نادر جدا يحمل تنفيذه الرائع بصمة « النهضة » الفينيسية . بعد ذلك ببضع سنين ، عام ١٥٠٨ ، انتقل الاسقف (ماكاري) الى (تيرغوفيزيه) ، بالقرب من حاكم فالاشي ومولدافي ، حيث أدخل الطباعة وترك ثلاثة كتب طقسية (١٥٠٨، ١٥١٠، ١٥١٢) مطبوعة بحروف تختلف قليلا عن حروف (سيتينيه) . وفي مطلع القرن السادس عشر ، أقام (بوزيدار فوكوفيك) مطبعة سلافيه في فينيسيا نفسها .

أما في بلاد الصرب ، فقد دخلت الطباعة في القرن السادس عشر ، تحت السيطرة العثمانية ؛ وقد استقرت في الاديرة او تحت اشراف الامراء ورعايتهم . في الحالتين ، كان معظم رجال الطباعة من الرهبان الاورثوذكس ؛ أما انتاجهم فكان مقتصرا على كتب الطقوس الدينية دون سواها . في عام ١٥٣١ ، طبع « كتاب للصلوات » في (غورازد) ؛ وفي عام ١٥٣٧ ، وفي دير (روجنسك) ، قام الراهب (تيودوز) بطباعة

« الاناجيل » ، معتمدا لسدّ النقص في صناديق الصف على حروف منقوشة على الخشب ؛ وفي عام ١٥٣٩ ، ظهر « Octoèque » في مدينة (غراسانيكا) ؛ ثم في عام ١٥٤٤ ، وفي دير (ميليزيفا) ، قدم الراهبان (مارداري) و (فيدور) طبعة خاصة للزبور ؛ وفي عام ١٥٥٢ ، أسس الامير (راديزا ديميتروفيتش) مطبعة في (بلغراد) ، استعادها بعد موته (تروجان غوندوليتش) ؛ وهنا بالذات قام الراهب (مارداري) بطباعة « الانجيل » . واخيرا ، في عام ١٥٦٢ ، في دير (ميركسين) ، وفي عام ١٥٦٣ ، في (سكودار) ، اقام الرهبان المطابع .

كانت حياة جميع هذه المطابع الصربية سريعة الزوال : حيث لم تعمّر سوى ما يقرب من خمسين عاما . فقد كان العتاد يبلى ، كما كان رجال الطباعة الرهبان يكافحون الشح المتزايد ، حتى أنهم اضطروا ، بسبب النقص الكبير في عمال صبّ الحروف المهرة ، الى أن يصنعوا الحروف بأيديهم من الحديد او النحاس . لذلك قاموا بطباعة بعض الكتب ثم ما لبثوا أن وجدوا انفسهم مضطرين للعودة الى الوسائل القديمة للنسخ باليد .

اما زخرفة الطبعات الاستهلالية السلافية الجنوبية (باستثناء كتاب « سيتينيه » للقداس) ، فكانت مقتبسة في خطوطها الاساسية من المخطوطات السلافية ـ البيزنطية . انها عبارة عن زخارف عربية من اشكال متداخلة متشابكة على خلفية سوداء أو بيضاء ، ولكن مهارة الرسم لم تستطع أن تخفي أخطاء النقاشين وعيوبهم .

كان الوضع مبهما ومعقدا في (كرواتيا) خلال القرن الخامس عشر . فاذا كان لشمال البلاد مع (زغرب) صلات بوهيمية ـ هنغارية ، الا أن شاطىء الادرياتيك كان واقعا تحت التأثير المباشر لفينيسيا . أقيمت الطباعة بصورة متأخرة في هذا البلد : حيث لم يبدأ العمل الدؤوب في (زغرب) الا في القرن السابع عشر ، ولم تعلّق على محاولات كل من « نيديليزيه » (١٥٧٤) و « فارازدين » (١٥٨٦) سوى اهمية ضئيلة .

لذلك كانت اعمال المؤلفين الكرواتيين باللاتينية تطبع أساسا في ايطاليا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر .

في فينيسيا ، بدىء منذ عام١٤٨٣ ، بطباعة الكتب الكرواتيةبالحروف الطباعية الغلاغوليتيكية المخصصة لطقوس كل من دالماتيا ، ايستريا وجزيرة كارنيرو ؛ الا أن هذا النوع من المطابع لم يعرف الا نشاطا محدودا جدا على الارض الكرواتية نفسها ، في سانج (١٤٩١ — ١٥٠٨) وفي ريجيكا (١٥٣٠ — ١٥٣١) .

دخلت الحركة « الاصلاحية » الى (سلوفينيا) مع « بريموس تروبار» (١٥٠٨ — ١٥٨٦) ، وهو جامعي وكاهن قانوني في (لجوبلجانا) ، اكسبته مواعظه شعبية واسعة ، الا أنه اضطر ، تحت ضغط الكنيسة الكاثوليكية، الى الهجرة والبحث عن ملجأ له في المانيا . في عام ١٥٥٠ — ١٥٥١ ، أصدر في (توبنجن) « كتابا للتعليم الديني » و « كتابا للالفباء » بالسلافية . ثم ارتبط بالبارون (أونفناد) الذي اعتنق الحركة الاصلاحية أيضا واسس مع (أوراش) ، مطبعة متخصصة في اصدار الكتب باللغةالكرواتية والسلافية المعدّة للتصدير .

لم تبدأ الطباعة في (لجوبلجانا) الا اعتبارا من ١٥٧٥ — ١٥٧٨ ؛ أما في (دالماتيا) فلم تبدأ في مدينة (دوبروفنيك) الا في عام ١٧٨٣ .

الا أنه بالمقابل ، في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، قام عدد كبير من رعايا هذه المقاطعات ، المقيمين في فينيسيا وبادو وغيرهما من المدن الايطالية الهامة ، بالمساهمة في مجد الكتاب الايطالي ؛ وقد ظهر من هؤلاء أشخاص عديدون نذكر منهم : الكرواتي (أندريا بالتاشييه دي كوتور) الذي سمي في ايطاليا (أندرياس دي بالتاسيشيس كاتار نسيس)، والكرواتي (دوبروسكو دوبريتش) الذي سمي في بلد التبني (بونينو بونينيس) ، والدالماتي (غرغور دالماتين) ، واخيرا السلوفيني (ماتيوس سيردونس دي ويندِيس) . الا أن أحدا من هؤلاء لم يستخدم الحروف السلافية والغلاغوليتيكية .

روسيـــا

لا يعرف أحد بالضبط عن اي طريق دخلت الطباعة الى روسيا . فهل كان هناك مماس على المنحني المنطلق من (فيول) الى الـراهب (ماكاري) في سيتينيه ، ومن هنا الى (بوزيدار فوكوفيتش) ، ثم منه الى (سكورينا) ؟ ولكن من المؤكد أن الناس في (موسكو) كانوا يعرفون طبعات السلافيين الغربيين والجنوبيين .

ان اول كتاب مؤرخ صدر في موسكـو في الواقع هو « Apostol » (١٥٦٣ ــ ١٥٦٤) ؛ ويمكن بصورة عامة اعتبار هذا التاريخ بداية الطباعة الموسكوفيه . الا أنه يجب ارجاع هذا التاريخ حتى عام ١٥٥٣ اذا أخذنا بعين الاعتبار الطبعات المغفلة وغير المؤرخة . كانت الطباعة هنا منذ بدايتها من أعمال الدولة أو الكنيسة ؛ وقد اعتبرت احد التدابير الادارية التي اتخذها القيصر ايفـان غروزنيج (ايفـان الرهيب) في منتصف القرن السادس عشر ، بعد غزو (قازان) ، بهدف مواجهة توسع الطبقات الحرفية والتجارية والضرورة الملحة لفرض رقابة حكومية فيما يتعلق بكتب الطقوس الدينية . وهكذا كانت الطباعة اداة لسياسـة المركزيـة والالزام والاكراه .

ان اول مطبعة أقيمت في موسكو ، سمّيت « مغفلة » ، وطبعت ستة كتب : الانجيل لعام ١٥٥٦ ــ ١٥٥٧ ، ثم ١٥٥٩ و ١٥٦٥ ــ ١٥٦٦ ، الزبور لعام ١٥٥٧ ، و١٥٦٦ ــ ١٥٦٧ ، وأخيرا ثلاثية الصوم (١٥٥٨ ــ ١٥٥٩) . في هذه المطبعة نفسها على الارجح ، عمل رجلا الطباعة ماروسا نيفيديبف وفاسجوك نيكيفوروف . بعد عام ١٥٦٧ ، اختفت الحروف السلافية (السيريلية) نهائيا ، خلال احدى الحرائق على الارجح .

أما أول موظف معروف ترك اسمه على كتب مطبوعة فهو الشماس الانجيلي (ايفان فيدوروف) ، الذي طبع الـ « Apostol » (١٥٦٤) وكتابين سميـا « Casovnik » (١٥٦٥) ، وهما أول كتابين مزخرفين بالنقوش

على الخشب . وقد كان مساعده المباشر شخص يدعى « بيتر مستيسلافيك . وفي حوالي عام ١٥٦٦ ، غادر الاثنان موسكو ، حاملين معهما قسما من عتادهما الطباعي وجميع أخشابهما المنقوشة تقريبا ، ليقيما في (زابلودوف) ، في ليتوانيا ، بالقرب من الامير (كودكوفيتش) . لقد سمح لهما (ايفان الرهيب) بالنزوح الى هذا البلد ، وربما كان ذلك حتى يستطيعا تعزيز التأثير الروسي هناك . وبعد ضم ليتوانيا الى بولونيا ، انتقل (فيدروف) مجددا ليستقر في « لوف » (١٥٧٢) ، ثم في « اوستروغ » التابعة لـ (فولهيني) حيث قام بطباعة التوراة عام ١٥٨١ ، بواسطة حروف مختلفة عن التي استخدمت سابقا .

لعب (ايفان فيدورف) دورا هاما جدا في تاريخ الكتاب المطبوع بالسلافية ؛ وقد ظل تأثير كتابه « Apostol »ملموسا طيلة ما يقرب من قرنين كاملين ؛ كما نجد من جديد اللوحات الخشبية لهذا الكتاب تستخدم عام ١٧٢٢ في طبعات (لوفوف) .

في موسكو ، حلّ (أندرونيك نيجيفا) محل (فيدوروف) ، فقام بطباعة زبورين ، وثلاثية صيام عام ١٥٨٩ ، ثم ثلاثية عن عيد العنصرة عام ١٥٩١ ، بالاضافة الى « Apostol »عام ١٥٩٧ سحبت عنه /١٠٥٠/ نسخة . استمر نشاطه حتى مطلع القرن التالي . منذ ذلك الحين ، كانت الكتب تطبع في مطابع موسكو وكييف ولفوف ونوفغورود وتشيرنيفوف وغيرها من المدن والاديرة المختلفة .

ظلت الطباعة وقفا على كتب الطقوس طوال ما يقرب من قرن ؛ ولم تظهر الكتب الدنيوية الا حوالي منتصف القرن السابع عشر ، حيث كان أولها كتابا للابجدية من تأليف وطباعة « بورسيف » (١٦٣٤) ، ثم تلته قريبا طبعة جديدة عام ١٦٣٩ ، صدرت عنها / ٦٠٠٠ / نسخة مزخرفة للمرة الاولى بنقوش دنيوية . اما الكتاب الثاني ، فهو ترجمة المانية لكتاب عسكري تدريبي (١٦٤٧) ، نقشت صفحة العنوان فيه برسوم نفذها « غريغوري بلاغوشين » .

على الرغم من نشاط المطابع ، المحصور بكتب الطقوس خاصة ، فان تقليد الكتاب المخطوط لم ينقرض ، بل استمر خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وحتى خلال القرن الثامن عشر ؛ وهكذا ظلت حياة القديسين وحكايات الاسفار وكتب التاريخ والعلوم وغيرها ، تكتب باليد في محلات الخطاطين المختلفة .

على الرغم من اختلاف الكتب وتنوعها آنذاك، ظلت هناك صلة مشتركة تربط بينها : وهي الاستخدام الدائم للحروف السلافية الكنسية .

تطورت الطباعة في روسيا وتوسعت كثيرا ، رغم ظهورها المتأخر ، حتى سجل النشر في القرن العشرين أرقاما قياسية .

ب ـ عالَم جديد

في نفس الوقت تقريبا ، الذي ظهرت فيه الطباعة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وخاصة في السنوات الاولى من القرن السادس عشر ، ظهرت كذلك « اكتشافات كبرى » ، جغرافية هذه المرة ، وسّعت فجأة أفق العالم الذي يعرفه رجال الغرب . هنا دخل هؤلاء في سباق كبير ، سيحاولون خلاله جاهدين لكي يسيطروا على الحيّز الجديد الذي انفتح امامهم ، ويؤمنوا التماس مع عوالم كانت مجهولة حتى ذلك الحين، أو تتراءى لهم فحسب من خلال القصص والروايات الاسطورية . انها بداية مباراة ، لم تنته بعد ، كانت الحضارة الغربية خلالها أشبه بالخميرة الاساسية . ومن الطبيعي ان يكون للطباعة دورها في هذه المباراة .

ففي أمريكا اولا ، كان للطباعة منذ البداية تأثير اساسي في هذه الفتوحات . لا شك في أن الدافع الاول لاولئك الفاتحين الذين انقضوا على هذا العالم الجديد ، كان السعي وراء الذهب وحب المغامرة . الا أن الحافز الاول لهذه الرغبة هي روايات الفروسية المتعددة التي كانت تصدرها المطابع الاسبانية والتي كانت تصف تلك الاراضي النائية السعيدة التي تسكنها شعوب واسعة الثراء . كانت هناك أيضا رغبة في عيش

مغامرات أبطال القصص هؤلاء : ولم يكن من قبيل المصادفة تطابق عصر الفاتحين مع العصر الذي قام فيه الكتبي الاشبيلي (كرومبرغر) باصدار « Sergias de Esplandian » ، الرواية الثانية للمؤلف (مونتيفيرد) ، التي أعقبت « اماديس الغالي » ، هذا الكتاب الذي يتحدث عن شعب (الامازون) الذي يعيش في جزيرة كاليفورنيا ؛ وليس من قبيل المصادفة أيضا ، أن تعاد طباعة هذه الرواية باستمرار أثناء قيام (كورتيز) بغزو واخضاع ممالك المكسيك الواسعة ، بينما كان (بينرارو) ثم (الماغرو) ينطلقان في حوض الامازون ، بحثا عن الذهب . كل هذا يبين لنا كيف ادى ادب روايات الفروسية ، الذي انتشر بفضل الطباعة ، الى خلق المناخ المناسب لاستثمار العالم الجديد . كما ظلت هذه الروايات والقصص ماثلة باستمرار في أذهان اولئك الفاتحين ، حتى أن طبعات (كرومبرغر) كانت ترسل الى امريكا داخل صناديق ملأى ؛ ولم يكن هناك مركب تخلو حمولته من الكتب في بعض الفترات .

وهكذا دخل الكتاب المطبوع بسرعة الى الاراضي التي غزاها الاسبانيون ؛ كما ظهرت المطابع بصورة مبكرة جدا في المراكز البارزة الكبرى التي آلت اليها عاصمتا هذه الامبراطورية ، مكسيكو وليما . الا أن هذه المطابع لم تقم بطباعة روايات الفروسية ، بسبب معارضة السلطات الكهنوتية القوية ؛ كذلك منعت نظريا حتى الكتب الخيالية ولم تكن تصدر الا بصعوبة بالغة . لذلك ظلت أمريكا ، لمصلحة آل (بلانتين — موريتوس) تستورد من أوروبا ما تحتاجه من الكتب الكنسية . وهكذا سيظل العالم الجديد زمنا طويلا ، مرتبطا بمطابع اسبانيا أو انفرس . لقد انشئت المطابع الامريكية في الواقع من قبل رجال الكهنوت ، بهدف اساسي هو تامين الكتب اللازمة لنصرنة الهنود وتقديم المصادر والمراجع التعليمية للمستعمرة الناشئة ، وخاصة كتب الصلوات ومراسيم العبادة الضرورية . لذلك نجد في تاريخ أول مطبعة أقيمت بصورة اكيدة في مدينة مكسيكو ، دلالات خاصة في هذا المجال .

*
* *

بعد ثلاثة عشرة سنة فقط من معركة تولومبا ـ بداية مغامرة كورتيز ـ ابدى اسقف مكسيكو ، جوان دي زومارافا ، رغبته أمام (شارل كانت) في اقامة طواحين للورق ومطبعة محليا . ثم ما لبث في عام ١٥٣٩ ، أن راي امنيته هذه تتحقق بموافقة نائب الملك (مندوزا) : ففي العام نفسه، ارسل (كرمبرغر) الى مكسيكو آلة طابعة مع عاملها (جوان بابلو) ، بعد ان ضمن نفسه ضد اية مزاحمة محتملة ، وذلك بموجب عقد في منتهى الدقة . ويبدو أن (بابلو) هذا قد بدأ يطبع أبجديات ومؤلفات معدة لتعليم الهنود الديانة المسيحية ، بالاضافة الى بعض كتب الصلوات والطقوس وبعض الابحاث ذات الطابع الحقوقي . كان الانتاج لا يزال متواضعا ، الا انه يثبت ان عامل الطباعة الجديد قد وجد محليا الزبائن المناسبين . وهكذا بدات الطباعة تتوسع في مكسيكو شيئا فشيئا . ففي عام ١٥٥٠ ، وصل الى المدينة سكّاب للأحرف من اشبيلية ، يدعى (انطونيو دي ايسبينوزا) ؛ حيث بدأ يصب لصالح (بابلو) ، حروفا رومانية وايتاليانية جديدة ، جاءت لتحل محل الحروف القوطية التي ظل هذا الاخير يستخدمها حتى ذلك الحين ، ثم ما لبث أن أنشأ مطبعة ثانية عام ١٥٥٩ . بعد ذلك ، قبل نهاية القرن السادس عشر ، وخاصة خلال القرن السابع عشر ، بدأ رجال طباعة آخرون يتوافدون للعمل في المدينة ، حتى بلغ مجموع المؤلفات المطبوعة في مكسيكو خلال القرن السادس عشر / ١١٦ / ، و / ١٢٢٨ / في القرن السابع عشر ؛ وهو انتاج يفوق في حجمه ما كان ينتج في كثير من المدن الاوروبية الهامة ، رغم اضطرارهم آنذاك لجلب الورق اللازم للطباعة من أوروبا .

اذا كانت الطباعة قد توسعت بهذا الشكل في مكسيكو ، فان هذا يرجع ولا شك الى الاهمية الكبرى التي كانت تتمتع بها هذه المدينة : ففي مطلع القرن السابع عشر ، كان عدد سكانها لا يقل عن / ٢٥٫٠٠٠ / نسمة ، منهم / ١٢٫٠٠٠ / من البيض . ثم ما لبثت الآلات الطابعة ان بدات تعمل ايضا في مدينة اخرى كبيرة من الامبراطورية الاسبانية ، وهي (ليما) . ففي عام ١٥٨٤ ، جاء اليها رجل طباعة ايطالي كان قد

عمل فترة في مكسيكو ، يدعى (انطونيو ريكاردو) ، اغراه اليسوعيون الذين كانوا يملكون في المدينة معهدا هاما ، والذين كانوا قد عبروا ، منذ عام ١٥٧٦ - عن رغبتهم في وجود مطبعة محلية تعمل على طباعة الكتب الضرورية لنصرنة الهنود . اما أول مؤلف هام قام (ريكاردو) بطباعته ، فكان كتابا للتعليم الديني بثلاث لغات . منذ ذلك الحين ، توسعت الطباعة في هذه المدينة التي تعد في القرن السابع عشر / ١٠,٠٠٠ / نسمة (بما فيهم المولدون) ، وحيث توجد خمسة معاهد خصص احدها للسكان الاصليين ، وجامعة تضم / ٨٠ / استاذا ؛ وفي حوالي عام ١٦٣٧ ، كانت هناك ثلاث مطابع تعمل في آن واحد . وهكذا تشكل بسرعة كافية مركزان طباعيان كبيران في اكبر مدينتين من الامبراطورية الاسبانية في أمريكا . الا انهما ظلا وحيدين مدة طويلة . هناك ولا شك اربعة كتب تحمل عنوان (جولي) ، على ضفاف بحيرة (تيتيكاكا) ، حيث انشا اليسوعيون معهدا ، ولكن يبدو ان هذه الكتب قد طبعت في الواقع في مدينة (ليما) . في عام ١٦٢٦ – ١٦٢٧ ، ظهرت مطبعة في (كوانسا) ؛ واعتبارا من عام ١٦٦٠ ، ظهرت مطبعة ثانية في (سانتياغو) من غواتيمالا . وهكذا ظل عدد المطابع قليلاً نسبيا قبل القرن الثامن عشر خارج مدينتي مكسيكو وليما : وهذا دليل على عجز الاسبانيين عن السيطرة على المساحات الشاسعة التي غزوها وكذلك عن تنظيمها . أما في أمريكا الانغلو – ساكسونية ، فسيكون الوضع مختلفا كل الاختلاف ، حيث ستنتشر المطابع بصورة تدريجية ومنظمة في إثر الرواد الاوائل .

*
* *

في عام ١٦٣٨ ، ظهرت اول مطبعة على الارض الحالية للولايات المتحدة الامريكية ، في انكلترة – الجديدة ، داخل المستعمرة المقامة حول خليج (ماساشوستس) ، منذ ما يقرب من عشرين عاما ؛ من قبل ركاب « ماي فلاور » . وقد كان في عداد هؤلاء المهاجرين والذين لحقوا بهم ، الكثيرون من المثقفين : كرجال القانون والكنيسة ؛ المتخرجين غالبا من جامعة « كامبردج » ، والذين تركوا بلدهم لاسباب دينية . وعندما توسعت

المستعمرة ، شعروا بالحاجة الى انشاء معهد . وهكذا استطاعوا ، بفضل الهبات والمساعدات ، التي كان أهمها / ٨٠٠ / كتاب و / ٣٢٠ / مؤلفا تبرع بها (جون هارفرد) ، أن يحققوا مشروعهم عام ١٦٣٦ ، حيث أقاموه في قرية (نيو تاون) واطلقوا عليه في عام ١٦٣٨ اسم (كامبردج) . اثناء ذلك كان احد القساوسة غير الملتزمين ، ممن هاجروا حديثا ، قد سافر الى انكلترة بهدف البحث عن العتاد اللازم لاقامة مطبعة مع العمال القادرين على تشغيلها . هناك عمد الى شراء الاغراض الضرورية ، كما وقع عقدا مع صانع الاقفال « ستيفن داي » ، ومع ولديه اللذين كان احدهما ، ويدعى « ماتيو داي » ، عامل طباعة في الثامنة عشرة من العمر . وقد تعهد الثلاثة بأن يلحقوا بالقس « غلوفر » في امريكا . الا أن هذا الاخير توفي أثناء رحلة العودة ، وتسلمت أرملته ادارة المشروع ؛ كان من الطبيعي أن تقيم المطبعة الجديدة في (كامبريدج) ، بالقرب من المعهد الذي انشىء حديثا . اما المؤلفات الاولى التي طبعت فيها ، فكانت « Freeman's Oath » اي صيغة يمين الولاء الذي يؤديه المواطن للحكومة ، بالاضافة الى تقويم وترجمة للمزامير ، بينما ظهرت في عام ١٦٤٣ مجموعة القوانين الاساسية المسماة : « The Capital Laws of Massachusett's Bay » . وهكذا استطاعت مطبعة كامبريدج ، تحت ادارة « ماتيو داي » ثم « صموئيل غرين » (١٦٩٢ — ١٦٩٤) ، أن تبرهن عن فعالية ونشاط كبيرين ، حيث طبعت فيها خاصة المراجع المتعلقة بالنشاط المدرسي ، علاوة على التقاويم وكتب التعاليم الدينية ؛ كما أصدرت في عام ١٦٦٣ ، ترجمة للتوراة باللغة الهندية .

كان لا بد من الانتظار فترة طويلة قبل ظهور مطابع اخرى . وفي عام ١٦٧٤ ، انشأ (جون فوستر) مطبعة في بوسطن ؛ وفي عام ١٦٨٥ ، اسس (ويليام برادفورد) مطبعة في فيلادلفيا ، كما قام سنة ١٦٩٠ ، مع شريكين له ، باقامة اول طاحونة أمريكية للورق قبل أن يذهب ليستقر في نيويورك (١٦٩٣) . أما في الجنوب ، فقد أقام رجل الطباعة « ويليام نوتيد » في (جيمس تاون) بمقاطعة فرجينيا (١٦٨٢) . ولما طرده الحاكم منها ،

اقام في (ماريلاند) بمدينة سانت ماري سيتي (١٦٨٥) . وهكذا نرى ان المطابع ظلت قليلة العدد في المستعمرات الانكليزية في امريكا خلال القرن السابع عشر .

الا ان هذا لا يدعو في الواقع للاستغراب . ففي مطلع القرن الثامن عشر ، لم يكن عدد السكان فيما ستصبح « الولايات المتحدة » ، أكثر من / ٤٠٠ر٠٠٠ / نسمة مبعثرين في مساحات شاسعة : تصلهم الكتب المطبوعة في انكلترة . في هذه الشروط كان ارباب الطباعة الامريكيون يعيشون على اصدار القرارات الرسمية او الادارية ، ومجموعات المواعظ للقساوسة المحليين ، علاوة على التقاويم والابجديات وكتب الصلوات أو الكتب الوجيزة للتجار . وقد ظل اصدار القرارات الرسمية والادارية مدة طويلة موردهم الاساسي للدخل ، لدرجة لم يكتب معها البقاء والاستمرار الا لاولئك المعتمدين الرسميين في مختلف المستعمرات ؛ كما أن وضع هؤلاء انفسهم ظل دقيقا وحرجا في معظم الاحيان : لان الحكام كانوا غالبا يحذرون رجال الطباعة ، ويترددون في منحهم الترخيص اللازم للعمل والاقامة كما يراقبون نشاطهم عن كثب ، بينما تقوم الغرف المحلية، التي تدفع اجورهم ، هي ايضا بالمطالبة بحق الاشراف على ما يطبعونه .

في الواقع ، لم تتوسع الطباعة في أمريكا ، خلال القرن الثامن عشر ، الا اعتبارا من اللحظة التي عثر فيها رجال الطباعة على مصدر جديد للدخل : وهو **الصحيفة** . كان الامريكيون يقيمون بعيدين عن موطنهم الاصلي ، في مراكز ما زالت قليلة السكان في أغلب الاحيان ، فيشعرون بالعزلة وفقدان التماس مع سائر العالم : ولهذا السبب ولا شك ، توسعت لديهم الصحيفة اسرع من اي مكان آخر . كانت الصحف الامريكية الاولى، وخاصة قبل فرانكلين ، تنقل غالبا اخبار الصحف الاوروبية ، الا انها تضم أيضا معلومات قيّمة تتعلق بالحياة المحلية . لا شك ان التوزيع ظل متواضعا ومحدودا ، كما اختفت صحف كثيرة بعد ظهور مؤقت عابر ، الا انه صدرت في ثلاثين مستعمرة ودولة ، بين عامي ١٦٩١ ـ ١٨٢٠ ،

/ ٢١٢٠ / صحيفة منها / ٤٦١ / استمرت في الظهور اكثر من عشر سنـوات .

وهكذا ، سوف يعمد كل من يؤسس مطبعة جديدة من الآن فصاعدا، الى اصدار صحيفة خاصة يكون هو غالبا محررها الرئيسي واحيـانا الوحيد . ويعتبر رجل الطباعة ـ الصحفي نموذجـا أمريكيـا بصورة اساسية . الا أن المشكلة الرئيسية في هذه المساحات الشاسعة ، كانت تكمن في الوصول الى القارىء ، وهذا لم يكن ممكنا الا بمساعدة شخص جديد هو مأمور البريد . لذلك لا نستغرب عندما نرى عمال الطباعة ، الذين يعملون على اصدار الجريدة ، يتعاونون تعاونا وثيقا مع مأمـور البريد ، أو عندما ينقلب هذا الاخير الى عامل طباعة ، او يتحول عامل الطباعة الى مأمور بريد . كذلك لا نستغرب خاصة عندما يكون عامـل طباعة هو الذي أوجد النظام البريدي الرسمي الامريكي . وهكذا كانت المطابع تضم غالبا محطات بريدية وسيطة ومحلا لبيع الكتب وسواها ، فتصبح بهذا الشكل مركزا للاخبار وللحياة العامة احيانا .

بفضل هذا النظام المتماسك ، المتفق تماما مع حاجات البلد ، كثرت المطابع في امريكا خلال القرن الثامن عشر ، كما كان ظهور مطبعة تصحبه في معظم الاحيان ولادة صحيفة ، حتى أصبح لدى كل مستعمرة أو دولة مطابعها الخاصة تقريبا . وبعد كل من ماساشوستس ، فيرجينيـا ، ماريلاند ، بنسلفانيا ودولة نيويورك ، التي حصلت على مطابعها في القرن السابع عشر ، جاء القرن الثامن عشر حاملا معه دور كل من : كونيكتيكوت (لندن الجديدة ، ١٧٠٩) ، نيوجيرسي (بيرث أمبوي ، ١٧٢٣) ، رود ايلاند (نيوبور ، ١٧٢٧) ، كارولينا الجنوبية (شارلستون ، ١٧٣١) ، كارولينا الشمالية (نيو بيرو ، ١٧٤٩) ، نيوهامشاير (بورتسموث ، ١٧٥٦) ، ديلاوير (ويلمينغتون ، ١٧٦١) ، جيورجيا (سافانا ، ١٧٦٢)، لويزيانا (أورليان ـ الجديدة ، ١٧٦٤) ، فيرمونت (دريسدن ، والآن هانوفر ، ١٧٧٨) ، فلوريدا (سانت ـ أوغوستين ، ١٧٨٣) ، ماين (فالموث ، والآن بورتلاند ، ١٧٨٥) ، كنتاكي (ليفينغتون ، ١٧٨٧) ،

كولومبيا (جورج تاون ، ١٧٨٩) ، فيرجينيا الغربية (شيفردستاون ، ١٧٩٠) تينيسي (هوكنز كورت هاوس ، والآن روجرز فيل ، ١٧٩١) ، أوهايو (كنكيناتي ، ١٧٩٣) ، ميشيفان (دوترويت ، ١٧٩٦) .

يدل هذا التعداد على ان الانكلو ـ ساكسون عرفوا كيف ينظمون المساحات التي احتلوها ، كما يثبت انهم استطاعوا ، رغم اقتصارهم مدة طويلة على طباعة المؤلفات المتواضعة ذات الطابع النفعي ، أن ينجحوا سريعا في خلق صناعة طباعية نشيطة ، ما لبثت أن واكبتها صناعة ورقيــة جعلتهم يستغنون ويستقلون عن القارة القديمة .

ج ـ الشرق الأقصى(١)

اذا انتقلنا ، من أمريكا التي يسيطر عليها الاسبانيون والانكلو ـ ساكسون ، الى الاراضي الخاضعة للنفوذ البرتغالي منذ عام ١٥٠٠ ، فاننا نلاحظ أولا ، وفق الملاحظة الايحائية للسيد « كورنو » ، أن « اختراع الكتابة قد شكل لحظة أساسية في كل مكــان » . لم يكن « أزتيك » المكسيك ، ولا « أنكا » البيرو ، يعرفون الكتابة ؛ كما لم تكن تعرفهــا بالاحرى مختلف القبائل الهندية في اسبانيا الجديدة والبرازيل البرتغالي، ويكفي هذا التفسير التأخير النسبي للكتاب الاوروبي في أمريكا .

الا أن البرتغاليين كانوا قد فهموا فورا فائدة هذه الوسيلة الدعائية في أراضي أفريقيا وآسيا بشكل خاص . لقد ظهر أول كتاب مطبوع في روسيا عام ١٥٦٣ ، وفي القسطنطينية عام ١٧٢٧ ، ثم في اليونان عام ١٨٢١ ، بينما نجد أن الطباعة دخلت الى « غووا » عام ١٥٥٧ ، والى « ماكاو » سنة ١٥٨٨ ، ثم الى « ناغازاكي » عام ١٥٩٠ ! . . . اما الحروف الاجنبية الاولى ، التي تم صبها في الغرب ، فترجع الى عام ١٥٣٩ـ١٥٤٠ في مدينة (لشبونه) لصالح الكاتب الاخباري (جوان دي باروس) من أجل الاولاد « الاثيوبيين والفرس والهنود على طرفي الكانج » : كتاب للقواعد

(١) وضعت هذه الفقرة من قبل الاب المحترم (بيرنارد ـ ماتر) .

وآخر لتعاليم الديانة المسيحية ! وعلاوة على ذلك ، فقد تبنى الملوك البرتغاليون بصورة مبكرة جدا مبدا تزويد المستكشفين الاوائل بحمولات من الكتب : وهكذا جرى عام ١٤٩٠ من اجل الكونغو ، حيث ارسل اثنان من عمال الطباعة الالمان (علما بأننا لا نعرف ماذا استطاعا ان يفعلا هناك آنذاك) . وعندما قام (فرانسوا كزافييه) بمغادرة لشبونة عام ١٥٤١ ، زوّده (جان الثالث) بمكتبة كلفت مئة « كروزادوس » .

ولا بد من الاعتراف هنا ، بأن الاتصالات في الهند البرتغالية لم تتم مع المثقفين الهنود الا عند مطلع القرن السابع عشر (ب . دي نوبيلي) ، وان المؤلفات الصغيرة المطبوعة بالتالي اعتبارا من عام ١٥٥٧ ، في غووا (ثلاثة مؤلفات) ، في راشول (خمسة) ، كوشين ، فايبيكوتا ، بونيكال وامباكالات ، لم تكن سوى كتب للتعاليم الدينية أو الصلوات . وقد عرف منها حتى الآن ستة عشر باللغة البرتغالية ، اربعة وعشرون أو سبعة وعشرون بلغتين وبمختلف اللغات المحلية الشرقية (واحد باللغة المالايالامية، اثنان بالحبشية ، واحد بالبرتغالية ــ التامولية لمدينة لشبونة ، اربعة أو خمسة باللغات الهندية للبرتغال ، وترجمة من الهندية الى البرتغالية ، الخ ...) .

الا أن الوضع كان مختلفا تماما عندما وصل البرتغاليون الى الصين (١٥١٣) ، وخاصة الى اليابان (حوالي ١٥٤٢) فقد وجدوا هناك فنا وطنيا أصليا رفيعا ومتطورا للغاية : وهو النقش على الخشب . وكان المبشرون ، وخاصة اليسوعيون منهم ، هم الذين قاموا بمبادهتهم بنقل آخر وأحدث تطورات وتحسينات الطباعة الغربية الى الشرق الاقصى ووضعوها في خدمة هذه الامم ذات الحضارة الرفيعة . ولكن ، يجب الا ننسى ان هناك كراسات دينية طبعت في نهاية القرن السادس عشر باللغة الصينية بواسطة النقش على الخشب في ضاحية (مانيلا) ، تحت اشراف الآباء الدومينيكان .

الا أن (سان فرانسوا كزافييه) (اعتبارا من عام ١٥٤٩) وخلفاءه

الاوائل (الاب روغييري في الصين حوالي عام ١٥٨٤) لم يفكروا أولا الا باستخدام الطرق والوسائل المحلية ؛ ولكن الاب « الكسندر فالينيانو » ، الذي غادر اليابان مع اربعة « سفراء » عام ١٥٨٤ ، فكر مبكرا في تزويد هذه المناطق بالحروف المتحركة المصبوبة على الطريقة الاوروبية . وقد تحقق هذا المشروع منذ عام ١٥٨٩ في « ماكاو » باصدار مؤلّف مدرسي ، وفي عام ١٥٩٠ بتنفيذ حكاية باللاتينية عن الرحلة الكبرى للوفد الرسمي. وفي اليابان أيضا ، تم خلال « القرن المسيحي » (١٥٤٩ — ١٦٤٤) اصدار مـا لا يقل عن عشـرين مؤلفـا متنوعـا ، منهـا طبعـات تعديليـة للقاموس الاوروبي « Calepin »، يسعى الناس للحصول عليها حاليـا بنفس النهم الذي كانوا يفتشون فيه عن الطبعات الاولى لـ (غوتنبرغ) أو (شكسبير) . وقد ارتدت هذه الطبعات الاستهلالية اليابانية في تاريخ الادب نفس الاهمية التي أخذتها اعمال النسخ الاولى للمؤلفات البوذية ، التي نقلت النصوص من اللغة السنسكريتية الى الصينية . وما زال العلماء حتى الآن لا يتعبون مطلقا من تحليلها في أدق تفاصيلها ، ليس فقط من أجل اكتشـاف الفروق اللغوية لتلك الفترة ، بل لملاحظة التعديلات الطفيفة للمصطلحات والقواعـد اليابانيـة تحت تأثـير اساليب الفكـر الاوروبيـة .

كذلك نجد وقائع مماثلة في الترجمات،التي ظلت عادة منسوخة باليد، لكثير من المؤلفات الغربية باللغات : الصينية والفيتنامية والكوريةوالهندية وغيرها . . . الا أن تجربة الصين تظل ذات قيمة اوسع ازاء هذه المحاولات. فبجانب هذه المؤلفات المنقوشة بواسطـة الخشب باللغات الاوروبيـة (حوالي العشرة) ، شكلت مكتبة حقيقية من الطبعات المنقوشة بواسطة « آباء بكين » . لذلك يستحق هذا التاريخ الطويل منا تلخيصا سريعا .

ان اول ناقـل للمؤلفـات المسيحية في الصـين هو النابوليتـاني (روجييري) ، الذي ما لبث أن التحق به عام ١٥٨٣ ايطالي آخر ذو امكانيات كبيرة ، وهو الاب (ماتيوريتشي) . وقد عمد هذا الاخير ، بعد أن كرّس سنوات عديدة لدراسة اللغة الصينية المتداولة المكتوبة آنذاك

في اوساط مثقفي الامبراطورية ، الى الشروع في عمله كمترجم مستخدما بعض كتب العلوم (وخاصة الرياضيات والفلك) والآداب (مجموعات الامثال والحكم على طريقة « ايراسم » و « الرواقيين ») . وبعد وفاته (في ١١ أيار ١٦١٠) ، قام خلفاؤه اليسوعيون في الصين بارسال الشاب (نيقولا تريغو) الى أوروبا ، وهو من (Douai)، بغية جمع عدة أشياء منها اكبر عدد ممكن من الكتب المطبوعة . وصل (تريغو) هذا الى روما عام ١٦١٦ ، حيث عثر فورا كرفيق على طبيب سابق يدعى (جوهان شريك) ، الملقب بـ (تيرانتيوس) ، قبل مع (غاليليه) في اكاديمية(لينساي) الحديثة . وبفضل العلاقات مع اصحاب النفوذ ، وخاصة مع الكاردينال (فريديريكو بورميو) مؤسس مكتبة (أومبروزيانا) في ميلان ، توصل « تورانتيوس » و « تريغو » خلال بضعة أشهر الى ان يجمعوا (في المعرض الدولي لفرانكفورت مثلا) مجموعة من المؤلفات يعتز بها افضل اصحاب المكتبات في اوروبا . وبعد عدة أحداث وتقلبات ، وصلت هذه المجموعة الفريدة الى بكين (علما بأن مجموعة الطب وحدها قد بلغت أكثر من مئتي مؤلف) . خلال الاحقاب المختلفة ، حفظت هذه الثروة سليمة تقريبا ، رغم عاديات الزمن (كحريق العاصمة عند نهاية آل (مينغ) عام ١٦٤٤ ، وحصار الـ (Bcseers) عام ١٩٠٠) ، كما اضيفت عليها عدة هبات وخاصة من قبل البعثة الفرنسية التي ارسلها الملك لويس الرابع عشر عام ١٦٨٨ ، بالاضافة الى بقايا هبات من بعثات اخرى في نهاية القرن الثامن عشر . وقد بقي من هذه المجموعة حتى الآن أكثر من اربعة آلاف مؤلف منها العديد من الطبعات الاستهلالية في مكتبة « بيتانغ » في بكين (وقد نظمت بها لائحة دقيقة قام بوضعها السيد « فيرهارن » العازري بمساهمة مالية من « روكفلر ») .

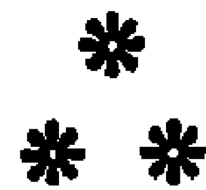
اما اهم ما يميز هذه « المؤسسة » حقا ، فهو انه كان على هذه المكتبة قبل كل شيء ان تستخدم لكي تنقل الى اللغة الصينية أروع ما انجزته الثقافة الغربية في كافة ميادين المعرفة . وأما أول من نهض بهذا العمل الجبار ، فهو الماني من كولونيا يدعى (آدم شال) ، يساعده في ذلك

منقف صيني اسمه (بول سيو كونغ ــ كي) . فتوصلا الى اصدار « موسوعة » عن الرياضيات والعلوم تضم مئة مجلد . ادى سقوط حكم « مينغ » ومجيء سلالة آل « تسينغ » المنشورية (عام ١٦٤٤) الى توقف هذا المشروع فترة من الزمن ؛ الا ان (شال) الذي اصبح رئيسا لديوان الرياضيات . استطاع ان يعيد طباعة هذه الموسوعة بتشجيع من اول امبراطور منشوري وهو « شوان تشي » . وعندما فقد (شال) مكانته وحظوته عام ١٦٦١ ، خلفه رجل فلمندي يدعى (فرديناند فيربياست) الذي اصبح الاستاذ الاول للامبراطور العظيم (كانغ ــ هي) (١٦٦١ ــ ١٧٢٢) .

كان وصول « علماء الرياضيات الخمسة الذين ارسلهم لويس الرابع عشر » ؛ برئاسة الفرنسي « فونتاناي » عام ١٦٨٨ ، يهدف أساسا الى تشكيل فرع تابع لاكاديمية العلوم الباريسية . اما اكثر اعمالهم جدارة بالتقدير والاكبار فكان وضع خارطة للامبراطورية المنشورية اعتبارا من عام ١٧٠٦ . كانت جميع هذه الاعمال ؛ المطبوعة باللغة الصينية مثار اعجاب (ليبنز) ، المحامي المتحمس عن الاوراسية . ولكن عند وفاة (كانغ ــ هي) ، اكتفى خليفته (كيان ــ لونغ) بتحمل وجود المبشرين الغربيين في ديوان الرياضيات . الا ان « كيان ــ لونغ » (١٧٣٥ ــ ١٧٩٩) استانف جزئيا الموقف المتسامح الخيّر الذي وقفه جده (كانغ ــ هي) ؛ واستنادا الى اوامره ارتفعت الابنية الاوروبية لما سمي ب « فرساي بكين » ، كما اعيد وضع خرائط جديدة لهذه الامبراطورية المترامية الاطراف .

الا ان هذه الطبعات الصينية ، التي ارتفع عددها الى عدة مئات من العناوين ، توقفت تدريجيا لاسباب مختلفة منها الغاء « شركة يسوع » (عام ١٧٦٢) . الا انه تم التعويض عنها بصورة غير مباشرة ، بمجموعة مؤلفات « آباء بكين » ، وخاصة الفرنسية منها ، التي نشرت في اوروبا خلال القرن الثامن عشر (كالرسائل التربوية والغريبة منذ عام ١٧٠٢ ، ووصف الصين للاب « هالد » عام ١٧٣٥ ، والاجزاء الستة عشر للمذكرات المتعلقة بالصينيين ...) والتي ارست أسس « الصينوية » العلمية .

على نفس النموذج الصيني ، في القرن الثامن عشر ، ولكن على نطاق اضيق ، بدات الهند تبني مراصد فلكية (وخاصة في اغرا) ، وتترجم العديد من كتاباتها الاساسية (وخاصة الفيدا) . وقد وضعت بعض الملاحم باللغة التامولية (بيير بيشي) . الا أن أحداث الثورة الفرنسية (١٧٨٩) والحروب الاوروبية في عهد نابليون (١٨٠٢ ــ ١٨١٥) قطعت الاتصالات بين الشرق والغرب . وما ان انتهت فترة الاضطرابات هذه حتى استؤنفت الاتصالات شيئا فشيئا ، وخاصة بواسطة البعثات البروتستانتية ، ولكن في جو مختلف تماما . فقد ادى الانحدار المؤقت لحضارات الشرق والتفوق التقني للغرب الى الوقوف في وجه المبادلات الثنائية : حيث بسطت اوروبا ، وخاصة بعد حرب الافيون (عام ١٨٤٠) سيطرتها وتفوقها التامين تقريبا ولعب الكتاب المطبوع في ذلك دورا أساسيا، ولكن في اتجاه واحد حتى اليوم الذي بدات فيه اليابان أولا (حكم «مايجي» ١٨٥٣) ، ثم تلتها الصين تدريجيا (النهضة الادبية عام ١٩١٩) ، باستئناف الطريق الذي فتحاه في القرن السادس عشر .



الفصل السّابعُ

« تجــارة الكتــاب »

لاحظنا ان المطابع بدات تتكاثر اعتبارا من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر . كذلك ظل الانتاج المطبوع في تزايد مستمر ، ولكنه لا يقارن مطلقا مع الانتاج الحالي . فقد كان جميع الناس يقرؤون : التقاويم والنشرات الفلكية والابجديات وكتب الساعة وكتب التقوى والطقوس الدينية ؛ واعتبارا من نهاية القرن السادس عشر ، درجت قراءة روايات الفروسية . هذا هو ما كان يشاهد في الطرود العائدة للباعة الجوالين . كما أدت زيادة المعاهد اعتبارا من نهاية القرن السادس عشر الى ظهور حاجة متزايدة للكتب المدرسية . أما سائر الكتب ــ وهي الاغلبية الساحقة ــ فلم تكن تهم الا عددا قليلا من القراء . وهكذا كانت أمام الناشرين في تلك الايام مشكلة أكبر مما هي عليه في أيامنا هذه : وهي مشكلة يواجهها جميع الذين يديرون صناعة هدفها انتاج أغراض متماثلة بالجملة ، وهي قضية الاسواق والتصريف . لذلك ظل الشغل الشاغل الدائم للناشرين منصبا على تنظيم شبكة تجارية تمكنهم من تصريف انتاجهم بأكبر سرعة ممكنة .

١ ــ بعض المعطيات :

سحب الكتب وطرود الارساليات

هذه هي أولا « معطيات » المسألة ؛ ولنبدأ ببعض الملاحظات المتعلقة بعمليات السحب :

لقد راينا انه بمجرد تنضيد النص ووضعه في القوالب ، يمكن ان يسحب عنه عندئذ عدد لا متناه من النسخ . لذلك يمكن القول بانه منذ بداية الطباعة تقريبا ، لم تكن هناك صعوبات تقنية لتنفيذ عمليات السحب « الكبرى » . الا أن أجور التنضيد والتكاليف الضرورية لسير العمل تشكل جزءا هاما من تكاليف عملية النشر . لذلك كان من مصلحة اصحاب المطابع والمكتبات بدهيا أن يسحبوا عن المؤلف الذي يصدرونه اكبر عدد ممكن من النسخ نسبيا ، حتى يخففوا ما أمكن من سعر الكلفة. الا انهم لم يكونوا يتجاوزون ، بالنسبة لهذا العدد سقفا معينا : لان الارباح الناجمة عن توزيع الاجور الاولية تصبح طفيفة نسبيا ، ولان مسألة التصريف (التي نحن بصددها) تقف حائلا أساسيا دون ذلك ؛ فلم يكن باستطاعة الناشر أن يسحب عن المؤلف عددا كبيرا لا تستطيع الاسواق امتصاصه خلال فترة زمنية معقولة ، حتى لا تتكدس لديه البضاعة ، وحتى لا يؤدي ذلك الى تجميد رؤوس اموال كبيرة نتيجة التصريف البطيء .

ها هي بعض الارقام في هذا المجال : حيث تتعلق الاولى منها بعمليات السحب المنفذة عند بداية الطباعة حتى سنوات ١٤٨٠ – ١٤٩٠ ، اي في الفترة التي لم يكن فيها تنظيم سوق الكتاب قد اكتمل بعد . تبدو هذه الارقام غالبا متواضعة جدا : ففي عام ١٤٦٩ مثلا ، طبع (جان دي سبير) في فينيسيا مئة نسخة فقط عن كتاب « رسائل الى الاهل » لشيشرون . كذلك نجد الرقم نفسه في عام ١٤٧٧ و ١٤٨٠ بالنسبة لـ « Confessionale » لسان انطونين وكتاب الـ «Stace» اللذين خرجا من مطابع دير (سان – جاك دي ريبولي) في فلورنسا . وحوالي الفترة نفسها ، كما يذكر لنا (جو هان فيليبوس دي لينيامين) عام ١٤٧٢ ، نفذ هذا الاخير في روما عدة عمليات سحب بمعدل / ١٥٠ / نسخة لكل منها . الا ان منافسيه في المدينة ذاتها ، وهما (سوينهايم) و (بنارتز) ، سحبا عن الـ « Donat » / ٣٠٠ / نسخة كما كانا ينفذان عدة عمليات سحب تتألف كل منها من / ٢٧٥ / نسخة . صحيح ان عمليات السحب هذه تبدو كبيرة بالنسبة لتلك المرحلة ، لان (سوينهايم) و (بنارتز) كانا يشكوان من قلة بيع

الطبعات الكلاسيكية التي كانت اسواق روما عاجزة عن امتصاصها ؛ الا أن (جوهان نومايستر) طبع في (فولينيو) / ٢٠٠ / نسخة من كتابه شيشرون) (عام ١٤٦٥) ، كما سحب (اندريا بلفورتيس) نفس الرقم في عام ١٤٧١ عن كتاب « مؤسسات » جوستينيان في فيراري . منذ ذلك الحين ، نلاحظ زيادة ملموسة بالنسبة للسحب في فينيسيا بشكل خاص، باعتبارها مركزا هاما من الناحيتين الفكرية والتجارية ، يمكن منه ارسال طرود الكتب في كافة الاتجاهات : فمنذ عام ١٤٧١ ، طبع فيها (وندولين دي سبير) تعليقات (Panormitain) حول « الرسالتين البابويتين » الاولى والثانية وسحب عنها / ١٠٠٠ / نسخة ؛ وفي عام ١٤٧٨ ، قام (ليونارد وايلد) ايضا بسحب / ٩٣٠ / نسخة عن توراة لاتينية لصالح (نيقولا دي فرانكفورت) . انها أرقام هائلة بالنسبة لذلك العصر ، قد تفسر لنا لماذا وجد (وندولين دي سبير) نفسه فجأة في وضع مالي صعب .

الا ان سوق الكتاب بدأ ينتظم حوالي عام ١٤٨٠ ، وهي الفترة التي بدأ فيها نشاط آل (كوبرجر) الكبير ، الذين كانوا حقا أوائل الناشرين الدوليين . بينما كانت أسعار الكتب تنخفض بنسب هائلة ، ظل الرقم الوسطي للسحب يتزايد بسرعة . فمنذ ١٤٨٠ – ١٤٩٠ ، أصبح من الممكن ، حسب أقوال (هابلر) ، أن نعتبر السحب على ٤٠٠ أو ٥٠٠ نسخة كأرقام متوسطة تتزايد باستمرار . ففي عام ١٤٩٠ مثلا ، قام (هانس ريكس) بطباعة رواية « Tirant lo Blancho » في فالنسيا على أكثر من / ٧٠٠ / نسخة ؛ وبعد ذلك بعدة سنوات ، طبع (ألونزو دي ألوبا) في فلورنسا أعمال أفلاطون على / ١٠٢٥ / نسخة ؛ وفي عام ١٤٩١، طبع (ماتيو كابكازا) في فينيسيا كتابا للقداس على / ١٥٠٠ / نسخة ؛ ومنذ عام ١٨٤٩ بلغ (ماتياس مورافوس) ، في مدينة نابولي ، / ٢٠٠٠ / نسخة ؛ بالنسبة لكتاب « مواعظ في مدائح القديسين » لروبيرتو كاراشيولي ، بينما سحب (باتيستا تورتي) في فينيسيا عام ١٤٩٠ ، « قانون جوستينيان » على / ١٣٠٠ / نسخة ، وفي عام ١٤٩١ و ١٤٩٤ ، اصدر طبعتين عن « الرسائل البابوية » لغريغوار التاسع على / ٢٣٠٠ / نسخة لكل منهما .

منذ نهاية القرن الخامس عشر ، بلغ بعض الناشرين اذن رقم/١٥٠٠/ نسخة ؛ بهذا الرقم تقريبا ، اطلق (كوبرجر) في الاسواق طبعاته الكبرى. ويبدو أن رقم عمليات السحب بدأ يستقر منذ ذلك الحين ، مستمرا في استقراره هذا مدة طويلة . اما اذا كان (جوس باد) قد أعلن عام ١٥٢٦، انه لم ينشر سوى / ٦٥٠ / نسخة عن « تعليقات » (نويل بيدا) على كتابات (لوفيفر ديتابل) (ردا على تحقيق اجراه البرلمان الفرنسي الذي حظر نشر هذا المؤلف الامر الذي لم يكن ليشجع « جوس باد » على تنفيذ سحب كبير) ؛ الا اننا نعلم بالمقابل أنه قام بعد سنتين باصدار كتاب « توسيديد » على / ١٢٢٥ / نسخة . واذا كان (Bonnemère) لم يطبع في السنة نفسها سوى / ٦٥٠ / نسخة من « تعليق » سان ـ أوغوستان على كتاب « المزامير » ، الذي أوصاه عليه (ويشل) الا انه قام سنة ١٥٣٩ ، ولصالح (بريت) و (بروبي) ، بسحب / ١٥٠٠ / نسخة عن « معهد سابيانس » لبيير دوريه . وفي حوالي تلك الفترة نفسها ، طبع في مدينة (افينيون) /١٥٠٠/ نسخة عن الكراس الرقيق « Luciani Palinurus »وذلك سنة ١٤٩٧ ؛ وفي عام ١٥١١ ، تم سحب / ٧٥٠ / نسخة عن « Ars brevis » لريمون لول . وفي مدينة هاغونو اخيرا ، قام رجل الطباعة (غران) ، سنة ١٥١٥ ، بسحب / ١٥٠٠ / نسخة عن كتاب « Sanctorale » للمبشر الاسباني (بيتروس دي بورتا). من هذه الارقام كلها ، يمكننا الاعتقاد بأن معدل السحب كان يتأرجح عند مطلع القرن السادس عشر بين ١٠٠٠ ـ ١٥٠٠ نسخة مع وجود ارقام أقل من ذلك في بعض الاحيان . وقد غلب الظن احيانا بأن بعض المؤلفات التي كان يقدر لها نجاح كبير ، قد سحبت على نسخ أكثر مما ذكر . ويستند هذا التأكيد على رسالة لايراسم يعلن فيها أن (سيمون دي كولين) كان قد طبع خلسة / ٢٤٠٠٠ / نسخة عن كتابه المعروف « أحاديث » ، وذلك عام (١٥٢٧) : لقد ذكر (ايراسم) هذا الرقم على ذمة الرواة ، لذلك يظل موضع شك وطعن من قبل اكبر المتعمقين في دراسة تاريخ الكتاب ؛ وهو رقم خيالي ، لا بد أن يكون (ايراسم) قد ساقه على سبيل التباهي والمبالغة . فالواقع ان المؤلفات المضمونة النجاح،

لم تسحب عنها نسخ اكثر من الاخرى بكثير . وهكذا نجد أن طبعة (ايراسم) المعروفة « مديح موريا » قد سحبت عام ١٥١٥ ، من قبل (فروبن) في مدينة بال ، على / ١٨٠٠ / نسخة ، كما طبعت توراة (لوثر) في البداية على / ٤٠٠٠ / نسخة . ليس المقصود هنا انكار الانتشار الواسع الذي لاقته هذه المؤلفات ، وانما لان هذا الانتشار كان نتيجة عمليات السحب المتكررة التي كان يقوم بها ناشرون مختلفون .

اعتبارا من هذه الفترة اذن ، بدأ رقم السحب يستقر على ما يبدو . فخلال النصف الثاني من القرن ، كان (بلانتين) ، رجل الطباعة والنشر المعروف بنفوذه وثرائه وامتلاكه لشبكة تجارية رائعة ، يسحب عادة بين ١٢٥٠ ـــ ١٥٠٠ نسخة . كما كان يقوم ، استثنائيا وبالنسبة لبعض المؤلفات الخاصة من أمثال « تواريخ الحبوب » لـ (Dodoens) ، بعمليات سحب أقل (٨٠٠ نسخة) ، ولا يسحب أعدادا أكبر من ذلك الا في حالات نادرة : / ٢٥٠٠ / نسخة عن الكتب المدرسية والمتعلقة بالطقوس الدينية وكتاب القواعد اليوناني لـ « كليناردد » (١٥٦٤) ، وكتاب « مجموعات القوانين المدنية » (١٥٦٦ ـــ ١٥٦٧) ؛ ثم ٢٦٠٠ ـــ ٣٠٠٠ نسخة بالنسبة لبعض الكتب الاخرى كالتوراة العبرية التي كان يزمع تصريفها جزئيا في المستعمرات اليهودية في البلدان الافريقية . الا أنه في الفترة نفسها ، أي في عام ١٥٨٧ ، كان معدل السحب في انكلترة يقتصر على ١٢٥٠ ـــ ١٥٠٠ نسخة وقد يرتفع بعضها استثنائيا الى / ٣٠٠٠ / .

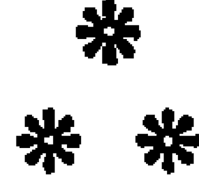
نفس الارقام نجدها أيضا في القرن السابع عشر : فقد طبعت مؤلفات (كورناي) الثلاثة (« نيكوميد » ، « بيرتاريت » و « أندروميد ») على ١٢٠٠ ـــ ١٢٥٠ نسخة ؛ أما ناشر الشاعر الكبير (بوالو) ، فيعتبر الرقم / ١٢٠٠ / مشرفا بالنسبة لقصيدة مثل « لوترين » . كذلك نجد (Luynes) ، أحد الناشرين الرئيسيين لاهم المؤلفات الكلاسيكية ، يطبع « تاريخ الحرب الهولندية » لـ (بريميري) على / ١٠٠٠ / نسخة بالنسبة للطبعة الفرنسية ، وعلى / ٥٠٠ / نسخة فقط بالنسبة للطبعة الايطالية . كذلك يبدو أن كلا من الطبعات الثمانية الاولى لكتاب « الطبائع » لـ

(La Bruyère) قد سحبت بمعدل / ٢٠٠٠ / نسخة . اما في هولاندة ؛ فنجد (Elzevier) ينفذ اعادة طباعة جديدة عن البحث « حقيقة الديانة المسيحية » لـ (Grotius) (١٦٧٥) ، المعدة لصالح انكلترة ؛ ويسحب عنها / ٢٠٠٠ / نسخة ؛ وفي عام ١٦٣٧ ، قام رجل الطباعة (جان مير) ؛ من « لايد » ، بطباعة / ٣٠٠٠ / نسخة عن الطبعة الاولى من كتاب (ديكارت) الشهير «بحث في المنهج» او « Discours de la méthode » اذا كانت بعض المؤلفات البالغة الاهمية والمزخرفة تسحب على اقل من / ١٠٠٠ / نسخة ، فان معظم الطبعات الاخرى كانت تتراوح بين ١٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ نسخة : فالطبعة الاولى عن « معجم الاكاديمية الفرنسية » التي خصصت للبيع والتجارة ، قد سحبت من قبل (كوانيارد) على /١٥٠٠/ نسخة ؛ كذلك بلغت الطبعة الاولى لـ (Pithon) / ١٥٠٠ / نسخة عن كتاب القانون الكنسي « Corps de Droit Canon » عام ١٦٨٧ ؛ كما صدرت طبعة عن اكثر المتمرسين الفرنسيين تواضعا ، وذلك من المطابع الليونية لانطوانيت كارتيرون ، على / ١٥٠٠ / نسخة (عام ١٧٠٤) ؛ الا ان ناشرا من مدينة (انفرس) يدعى (فيردوسين) سحب في عام ١٦٧٧ / ١٥٣٠ / نسخة عن كتاب في اللاهوت لـ « أرياغا » يدعى « النزاعات اللاهوتية » ، بينما كان (انيسون) يطبع نفس الكتاب في مدينة ليون ويسحب عنه / ٢٢٠٠ / نسخة . وفي عام ١٧٠١ ، قام (فرانسوا هالما) ، في مدينة امستردام ، بطباعة / ١٥٠٠ / نسخة عن « المعجم الهولندي ـ الفرنسي الجديد » لبيتر مارين . وهكذا يبدو ان المؤلفات التي تجاوزت عادة الـ / ٢٠٠٠ / نسخة في تلك الفترة هي الكتب الدينية وكتب الدراسة : فقد طبعت بعض كتب التوراة في هولندة على اكثر من / ٣٠٠٠ / نسخة او حتى / ٤٠٠٠ / في بعض الاحيان . وفي حوالي نهاية القرن ، قام بعض المزيفين والمقلدين من لوكسمبورغ ولييج ، بسحب ٢٥٠٠ ـ ٣٠٠٠ مجلد عن التوراة الفرنسية للسيد (ساسي) ، التي كان امتيازها وحقوق طبعها وقفا على (ديسبريز) . وفي (ناربون) ، قام رجل الطباعة (بيس) بسحب / ٣٠٠٠ / نسخة عن احد كتب الابجدية ، بينما قام (اندريه مولين) بطباعة / ٦٥٠٠ / نسخة مزودة عن معجم لاتيني ـ فرنسي يدعى « المعجم الملكي الصغير » .

في نهاية القرن الثامن عشر ، ظلت عمليات السحب التي تقل عن / ٢٠٠٠ / هي الغالبة ؛ الا انه في بعض الحالات ، كانت المؤلفات ذات النجاح الكبير المضمون تطبع بأعداد أكبر من ذلك . فالمجلدات النصفية « العهد القديم المشروح » لـ (مونغوكون) ، قد طبعت الطبعة الاولى منها على / ١٨٠٠ / نسخة ، نفذت جميعها خلال شهرين ؛ عندئذ صدرت طبعة ثانية على / ٢٠٠٠ / نسخة لم يتم تصريفها بنفس السهولة . كما طبع « معجم » (موريري) عدة مرات في باريس من قبل الكتبي (كوانيارد)، وسحبت عنه في كل مرة / ٢٠٠٠ / نسخة ؛ ويبدو أن « معجم » (بايل) قد تجاوز الـ / ٢٥٠٠ / . في عام ١٧٧٠ ، قرر (بانكوك) طبع «موسوعته» على / ٢١٥٠ / نسخة ، بينما سحبت / ٤٢٥٠ / نسخة عن «موسوعة» (ديدرو) في طبعتها الاصلية . الا أن « جمعية الطباعة » في مدينة لييج أصدرت في آن واحد ثلاث طبعات من أعمال (هيلفيسيوس) : طبعت احداها بقياس (in - 4°) على / ٥٠٠ / نسخة ، بينما طبعت الاثنتان الباقيتان بقياس (in - 8°) على / ٢٠٠٠ / و / ١٠٠٠ / نسخة ؛ كما قامت الجمعية نفسها بسحب / ١٥٠٠ / نسخة مقلّدة عن « لوحات باريس » لـ (سيباستيان ميرسييه) ، نفذت بسرعة كبيرة في المنطقة، بالاضافة الى طبعة مزخرفة مصورة عن « Daphnis et Chloé » ؛ وقد كانت مزمعة أيضا على طبع / ١٥٠٠ / من « أعمال روسو » عام ١٧٨٨ .

تدل هذه الارقام على ان الناشرين في القرن السابع عشر كانوا يترددون دائما في انجاز طبعات كبيرة . أما المؤلفات الادبية الوحيدة التي كانت تشذ على هذه القاعدة ، فهي اعمال بعض الفلاسفة وخاصة (فولتير) . فقد طبع (كرامر) / ٧٠٠٠ / نسخة عن كتاب « محاولة حول العادات »؛ كما وعد بأن يرسل الى باريس / ٢٠٠٠ / نسخة عن « تاريخ الامبراطورية الروسية » فور انتهاء طباعته ، مما كان يفرض بالضرورة سحبا كبيرا ؛ واخيرا ، ظهر في برلين كتاب « عصر لويس الرابع عشر » على / ٣٠٠٠ / نسخة . اذا استثنينا الكتب المدرسية وكتب الباعة الجوالين ، يمكننا أن نستنتج أن عمليات السحب ظلت متواضعة نسبيا في القرن الثامن

عشر : كما نشعر بانه حتى عندما يكون الكتاب ذا نجاح كبير مضمون ، فان ناشره لم يكن يجرؤ على طبعه بأعداد اكبر من المعتاد . وسنرى سبب ذلك فيما يلي .



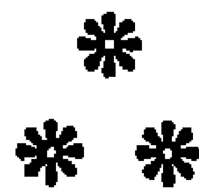
اذا أمعنا النظر في حسابات دور النشر ، فاننا نندهش في أيامنا هذه أيضا ، عندما نلاحظ (عدا بعض الاستثناءات كجائزة « غونكور » مثلا) بأن عددا قليلا من نسخ احد المؤلفات كان يكفي عادة لاشباع فضول سكان مدينة متوسطة الاهمية . لذلك يسهل علينا في هذه الشروط ، تصور الصعوبات التي كان يصطدم بها الكتبي ـ الناشر ، لتصريف كافة نسخ الطبعة ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وحتى في القرن الثامن عشر ، في زمن كانت فيه المدن أقل سكانا من الآن بكثير ، علاوة على قلة نسبة القراء وصعوبة المواصلات ومحاذير التقليد والتزوير واحتمالاتهما الكبيرة .

فلنتقدم هنا بعض الارقام التي تسمح لنا بتصور كيفية توزيع الطبعة آنذاك ، كما تبين لنا كيف كانت الكتب ترسل للنشر برزمات صغيرة جدا لا تضم سوى بضعة نسخ من مؤلف واحد ، او نسخة واحدة أحيانا . فها هو (جوس باد) مثلا ، يقوم سنة ١٥٢٦ بتصريف نسخ « تعليقات » (نويل بيدا) حول (لوفيفرديتابل) و (ايراسم) على النحو التالي : ٣٢ نسخة الى (ميلشيور كوبرغر) في نورمبرغ ، ٥٠ الى مراسل (جوس باد) في ليون لكي يبيعها في ايطاليا ، ٥٠ الى مراسل آخر ، ٢٠ الى (كونراد ريش) الكتبي في بال وباريس ، ٦٢ نسخة الى انكلترة ، ٤٠ الى روان ، ٦ الى أورليان . في القرن السابع عشر ، يبدو أن طرود الكتب كانت تحتوي أيضا على عدد قليل من المؤلفات . فها هي ، كمثال مأخوذ من امثلة كثيرة اخرى ، قائمة بالمؤلفات التي اوصى عليها (موريتوس) في سيباستيان كراموازي بتاريخ ١٧ شباط سنة ١٦٣٩ : ٣ نسخ من أعمال الفقيه (شوبان) ، ١٠ من كتاب « براهين على تحرر

الكنيسة الفاليكانية » بيير دوبوي ؛ ٦ من كتاب « المدوّنة التشريعية في القضايا المدنية والجنائية ؛ ٣ من « أيام القيظ » لـ (سيمون نايولي) ؛ ٣ من أعمال (يوليب) ؛ ٣ من أعمال أرسطو ؛ ٦ من « شروحات على شرائع الآباء في بريطانيا » ؛ ٣ من أعمال (Du Perron) . وقد ظلت الطلبات من نفس المستوى في النصف الثاني من القرن . أثناء احدى عمليات التفتيش، اعلن الكتبي الباريسي (غليوم دي لوين) انه أرسل ٢٤ نسخة من « تاريخ الحرب الهولندية » لـ (بريمي) ، الى (أنيسون) و (بوزييل) في مدينة ليون ، ٥ الى (هوغوفيل) من نانت ، ٨ الى احد أصحاب المكتبات في (Douai) ؛ من المؤكد أن هذا كان عند بداية نشر الكتاب ، الا أن هذه الارقام تثبت أن أصحاب المكتبات لم يكونوا يطلبون سوى كميات قليلة من الكتب .

من العبث ، كما نعتقد ، أن نلح أكثر من ذلك ونستمر في ذكر الارقام. الا أننا نكتفي بذكر مثال أخير يلفت النظر بشكل خاص ، وهو كيف قام آل (كرامر) بتصريف المجموعة الكاملة عن « أعمال فولتير » خلال العام الذي صدرت فيه : لقد أرسلوا ، بالجملة أو بالمفرق ، / ١٦٠٠ / نسخة الى (روبين)و ٦٠٠ الى (لامبير) ، وكلاهما من أصحاب المكتبات في باريس ؛ ١٤٢ الى أصحاب مكتبات في أفينيون ؛ ٨٠ الى أصحاب مكتبات من بال ؛ ٣٦ الى مركز المبيعات في ديجون ؛ ٥٠ الى (مارك ــ ميشيل راي) في امستردام ؛ ٧٥ الى (بيير ماشويل) في روان ؛ ٢٥ الى (بسومبيير) ٢٥ الى (غود) من مدينة نيم ؛ ٢٥ الى (جلبير) ، وهو كاهن من كاتدرائية (بيزانسون) ؛ ٢٥ الى (ريسند) و (كولومب) في ميلانو ؛ ٢٠ الى (جان دي لافيل) ، ١٨ الى (حنّه ــ ماري برويسست) ، ١٢ الى (دولا روش) و ١٥ الى (كامب) ، وجميعهم من أصحاب المكتبات في مدينة ليون ؛ ٢٤ الى (كريتيان هيرولد) في هامبورغ ؛ ١٦ الى (بوابيه) ومثلها الى (جوزيف كولومب) ، وكلاهما من مرسيليا ؛ ١٢ الى (كلود فيليبير) في « كوبنهاغن » ؛ ١٢ الى (باربو) في ليموج ؛ ١٠ الى (بيير فاس) في بروكسل ؛ ٧ الى (بيير شواد) في بروكسل أيضا ؛ ٦ الى (جان ــ جورج

لوكنر) في نورمبرغ ؛ ٦ الى (الياس لوزاك) في لا يد ، كما أرسلت نسخ اخرى باعداد اقل الى كل من جنوه ، كاديكس ، تورينو ، ميلانو ، بارما، بيرن أو فينيسيا ، علاوة على المجلدات الفرادى التي ارسلت الى بعض الخاصة .



٢ ـ المسائل الواجب حلهـا :

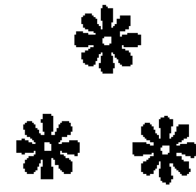
وهكذا نرى كم كان الناشرون في أمس الحاجة الى امتلاك شبكة تجارية جيدة التنظيم ؛ الا انه كانت هناك صعوبات جمة بالنسبة لارسال الكتب هكذا الى كافة انحاء اوروبا بكميات قليلة .

أول هذه الصعوبات هي النقل : فالكتاب بضاعة ثمينة ولاشك ، الا انها ثقيلة ومزعجة ايضا ، حيث كان سعر الكتاب يتأثر دائما بأجور النقل الباهظة في تلك الفترة . لذلك ، ولتخفيف الوزن والزحمة ، جرت العادة آنذاك على ارسال وبيع الكتب دون تجليد . ولكن هذا الاسلوب لم يكن يخلو من المسـاوىء : فالموظفون التجاريون المكلفون باعـداد الارساليات ، كانوا ملزمين في كل مرة بانتقـاء الاوراق وتجميعهـا في المستودع ، الامر الذي كان لابـد ان يؤدي الى الكثير من الاخطـاء ؛ ومراسلات أصحاب المكتبات مليئة بطلبات استكمال الاوراق الناقصة .

الا ان الكتاب يعتبر أيضا بضاعة سريعة العطب ؛ ولم يكن هنـاك آنذاك غير وسيلتين للنقل : السفينة او العربة . وهكذا كانت الاوراق عرضة للبلل في قعر السفينـة أو للعوامل الجوية المختلفة فوق العربة ؛ لذلك كان لابد لحمايتها قدر الامكان ، من وضع طرود الكتب داخـل براميل من الخشب . وعلى الرغم من هذه الاحتياطات ، كثيرا ما كانت الكتب تصل مبللة أو تالفـة . وفي أحيان كثيرة ايضا كان على البراميل هذه ، قبل الوصول ، ان تنتقل من عربة الى اخرى عدة مرات . ونحن نعلم على سبيل المثال - كيف كان اصحـاب المكتبات في مدينـة (انفرس)

يرسلون كتبهم : فمـا كان منهـا مخصصا لباريس ، يرسل غالبـا في عربات يقودها سائقون مختصون تقريبا ، كما يرسل ايضا بواسطةالسفن التي تبحر نحومدينة (روان) ، حيثتنتقل الىزوارقنهرالسين.أماماكان يرسل منها الى مدينة ليون ، فيسلم الى سائقي العربات الذين يقطعون المسافة مباشرة أو يعرّجون غالبا على باريس ، حيث تسلم البضاعة الى احد عملاء الكتبي الليوني ، الذي يتكفل بارسال نصفها برا والنصف الآخر نهرا . كذلك كان آل (بلانتين) يرسلون العديد من الكتب الى اسبانيا على متن باخرة ذاهبة الى (روان) أو الى أحد المرافيء البريتانية (breton) حيث توجه من هناك الى مرفأ اسباني ، ثم تأخذ غالبا طريق أمريكا . كما كان (موريتوس) مثلا ، يرسل الكتب الى دانزيغ وبيرغن وانكلتره ، مترقبا مواعيد سفر المراكب باستمرار ، منتظرا نبأ وصولها بفارغ الصبر ، وفي خوف دائم من العواصف ، أو من سفن القرصنـة أوقات الحرب (مثل « جان بارت » وسواها) . كانت مثل هذه التجارة في خطر أثناء الحروب ؛ كما حدث خلال صراع فرنسا تحت حكـم (ريشيليو) ضد اسبانيا ، حيث كان من المستحيل مثلا المتاجرة مباشرة مع فرنسا نتيجة أوامر الحظر الملكية : لذلك كان لا بد للاستمرار في التجارة ، من اللجوء الى التحايل الذي كان دارجا آنذاك : كان ترسل الكتب تحت علم محايد الى احد اصحاب المكتبات في (دوفر) ، الذي كان يقوم بدوره بتوجيهها نحو باريس . وحتى في زمن السلم ، كانت المجازفات كبيرة : ويكفي لذلك أن نفكر في الجهد الذي كان يبذله اصحاب المكتبات في مدينة ليون ، وهم عادة كبار مصدري الكتب نحو ايطاليا واسبانيا : نحو ايطاليا عن طريق البر ، عبر جبال الالب ، بواسطـة العربات ؛ اما نحو اسبانيا ، فكانت الكتب ترسل عن طريق البر حتى نهر اللوار ، ثم توجه في النهر حتى مدينة نانت ، ومن هناك بواسطة الاطلسي الى أحدالمرافيءالاسبانية، ثم تحمل برا ايضا حتى « Medina del Campo » حيث يعاد توزيعها .

وهكذا اذن في معظم الاحيان ، كان لا بد من نقل الكتب من سفينة الى اخرى ، الامر الذي يتطلب حتما أن يكون لصاحب المكتبة مراسل محلي، لان احتمالات الخطأ كبيرة خلال عمليات النقل هذه ، خاصة وأن العمال الذين يقومون بذلك لم يكونوا يحسنون القراءة : فالذي يدل على عنوان المرسل اليهم ، اكثر من العنوان المكتوب ، كان عبارة عن شارة خاصة على شكل كتابة متشابكة الاحرف تطبع على البراميل وتفسح المجال واسعا أمام التأويل والالتباس . ان جميع هذه الصعوبات تفسر لنا لماذا قامت الصناعة الطباعية غالبا بالتوسع ، كما رأينا سابقا ، في المرافىء أو في المراكز التجارية الكبرى ، حيث كانت المواصلات أكثر سهولة .



ها هو الطرد قد وصل الآن الى غايته وفي حالة جيدة . يبقى اذن موضوع دفع ثمن الكتب التي يحتويها . وهكذا تنتظر صاحب المكتبة أيضا صعوبات اكبر ، خاصة وأن التنظيم المصرفي كان لا يزال غير منسجم مع مثل هذا النوع من التجارة . فقد كان من المستحيل في الكثير من الاحيان ان يتم الدفع نقدا بالنقود المعدنية ؛ ولكن كيف يمكن اذن للكتبي المقيم في الخارج ان يرسل الثمن كلما استلم طردا جديدا من الكتب ؟ لذلك كان لا بد ازاء هذه الصعوبات الكبيرة من اللجوء الى أساليب أخرى ولو ادى ذلك الى رفع السعر .

اما الاساليب المستخدمة عادة حتى نهاية القرن السابع عشر ، فكانت تعتمد على المقايضة او الكمبيالة او الاثنتين معا . فلنستعرض اذن كيف كانت الامور تجري بصورة عامة : عند استلام الطرود ، كان صاحب المكتبة يسجل في دفتره المبالغ المترتبة عليه ، كما كان يسجل ايضا ما له هو على الزبون أو العميل الذي يرسل اليه بدوره هذا الطرد أو ذاك . وقد كانت الحسابات توقف خلال فواصل زمنية كبيرة ، حيث يقوم المدين بتسديد الحساب بالاسلوب التقليدي المعتمد على الكمبيالة المثلثة : فالسيد (كراموازي) في باريس ، الذي كان يتلقى من السيد (موريتوس)

في « انفرس » مثلا ، عددا من الكتب يزيد عما كان يرسله اليه ، مما يجعله بالضرورة مدينا له ؛ ولكنه كان يرسل الكثير من الكتب الى أصحاب المكتبات في (بروكسل) ، وخاصة السيد (ليونارد) ، فيحول الى (موريتوس) المبالغ التي له في ذمة (ليونارد) . كانت انفرس وبروكسل مدينتين متجاورتين تقعان في بلد واحد ، لذلك لم تكن هناك مشكلة . الا أن هذه الطريقة البسيطة نظريا كانت معقدة عملياً ، لان الكمبيالات تنتقل غالبا من يد الى اخرى . ويبدو ان هذه الطريقة قد حدت احيانا بأصحاب المكتبات الى الاتجار الممنوع ، كالعديد من التجار ، بهذه الكمبيالات . ولكنها طريقة لم تكن تخلو من الخطر : فقد كان توقف التجارة بين بلدين يكاد يؤدي ، نتيجة عدم الدفع ، الى شل نشاط الناشرين ودفع بعضهم الى حافة الافلاس ، علما بأن كل افلاس يؤدي الى سلسلة من الافلاسات ، حتى ان زملاء الكتبي المهدد بالخطر كانوا يعمدون ، حفاظا على مصالحهم الخاصة ، الى تقديم العون المالي لهذا الزميل ومساعدته على النهوض من كبوته . وقد ظل هذا الاسلوب متبعا عادة حتى القرن الثامن عشر .

٣ ـ الطرق التجارية ـ زمن المعارض

كان من جملة الصعاب التي اعترضت طريق رجال الطباعة الاوائل اذن ، ضرورة تشكيل شبكة تجارية واسعة تمكنهم من القيام سريعا بتصريف كمية كافية من النسخ .

ان اول طريقة تم اللجوء اليها في هذا المجال ، كانت هي « الموزعين » . فقد قام رجال الطباعة الاوائل بصورة مبكرة بتكليف رجال موثوقين ، يمكن أن نسمي مهمتهم « البحث عن الزبائن » . لذلك كان هؤلاء الموزعون يتنقلون بين المدن الكبيرة أو الصغيرة ، باحثين عن الاشخاص القادرين على شراء الكتب التي يعرضونها للبيع . وقد كانوا يحملون معهم غالبا قائمة بالمؤلفات التي يستطيعون تقديمها ؛ كما كانوا ، فور وصولهم الى احدى المدن ، يعلقون هذه القوائم ويوزعونها ذاكرين في أسفلها اسم

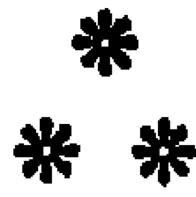
الفندق الذي نزلوا فيه والايام التي يستطيعون خلالها استقبال الزبائن . انه اسلوب بدائي جدا كما نرى ، الا انهم كانوا مضطرين بصورة طبيعية ، حتى يوفروا لمهمتهم افضل شروط ممكنة للنجاح ، أن يقصدوا المدينة ايام الاعياد المحلية التي تمكنهم من الالتقاء بأكبر جمهور ممكن . كما كان من الطبيعي أيضا ، ان يقصدوا المعارض التي يتجمع فيها أكبر عدد ممكن من التجار القادمين من المناطق الاخرى ، والذين أصبحوا سعداء بتحقيقهم بعض الارباح ، وصار بامكانهم شراء بعض الكتب أو التقاويم والنشرات الفلكية . كذلك كانوا يستطيعون بشكل خاص ، أن يرسلوا طلبات تقدم بها أحد المواطنين ممن لم ينتقلوا بأنفسهم ، كما يستطيعون تسهيل تحويل الاموال وعمليات النقل . وفي بعض الاحيان ايضا ، كان بعضهم مستعدا لان يتكفل بتصريف بعض طرود الكتب لديه . في الواقع ، عندما كان الموزعون يحققون فياحدى المدننجاحات خاصة ، فانهم يرجعون اليها غالبا ويختارون فيها مقرا دائما لهم ، حيث يفتتحون متجرا على حساب رب عملهم أو على حسابهم الخاص . وهكذا ظهر في العديد من المدن أصحاب مكتبات يبيعون بالمفرق ويتكفلون بتزويد الجمهور بالمؤلفات التي اشرف على طباعتها كبار الناشرين .

وهكذا انتظم سوق الكتاب آنذاك بسرعة كبيرة عبر أوروبا . أما باريس ، التي كانت في الاصل مركزا هاما لصناعة وبيع المخطوطات ، فقد اصبحت ، منذ سنوات ١٤٦٠ ـ ١٤٧٠ ، قبلة (شوفر) وعملائه ، الذي أقام فيها ، منذ ذلك الحين ، موزعا ثابتا يعمل لحسابه هو (هيرمان ستاتبووين) ، الذي كان يمتلك عند وفاته عام ١٤٧٤ ، كتبا كثيرة تعود الى (شوفر) ، قدر مجموع ثمنها بحوالي / ٢٤٢٥ / كورون . الا ان سوينهايم وبنارتز كانا يرسلان عملاءهما من روما حتى المانيا ؛ كما كان هناك أصحاب مكتبات ومطابع ، أقل قوة ونفوذا ، يكلفون بعض الناشرين الكبار ببيع الكتب التي تخرج من مطابعهم ، أو يتشاركون معا لتصريف انتاجهم . وهكذا استطاع (جوهان ريناردي) ، من مدينة (اينتجن) ، والذي لم يصدر الا كتابا واحدا ، ان ينجح في بيعه سنة صدوره ، بفضل

علاقاته مع اصحاب مكتبات ايطاليين ، وذلك في كل من روما وبيروز ، بينما قامت جماعة من اصحاب المكتبات في (بيروز) بالتشارك فيما بينهم، وافتتحوا متاجر خاصة بهم ، بين عامي ١٤٧١ - ١٤٧٦ ، في كل من روما ، نابولي ، سيان ، بيزا ، بولوني ، فيراري وبادو . واخيرا ، في عام ١٤٧١ ، قام كل من (انطونيوس ماتيا) و (لامبيرتوس دي دلفت) ، وهما من رجال الطباعة المقيمين في (جنوه) ، ببيع الكتب ليس فقط في مدن اخرى كلومبارديا مثلا ، بل كذلك في ممالك اخرى كمملكة (نابولي). وقد راينا أن التاجر الليوني (بارتيليمي بوييّيه) كان يمتلك قبل عـــام ١٤٨٥ شبكة تجارية واسعة جدا ، وكذلك كان (كوبرجر) الناشر الكبير من نورمبرغ . ومنذ تلك الفترة ايضا ، كانت تجارة الكتب منظمة بصورة جيدة جدا في فينيسيا . ويبدو أن (نيقولا جنسون) نفسه ، قد توقف عن الطباعة قبل موته بعدة سنوات ، لكي يتفرغ لبيع الكتب . لذلك شكل شركة قوية مع عدة تجار كتبيين المان ، كان لها عملاء في عدد كبير من المدن الايطالية ، وخاصة في روما وبيروز ونابولي . وعندما توفي (جنسون) ، اتحد شركاؤه لمدة خمس سنوات مع مؤسسة (جان دي كـولوني) و (جان مانتن) ، وشكلوا شركة كبيرة ذات شبكة تجارية رائعة التنظيم. لذلك لا نستغرب في مثل هذه الشروط ، نتيجة لاتساع الاسواق ، اذا راينا أرقام سحب الكتب تتزايد باستمرار خلال تلك الفتــرة ، بينما تنخفض في الوقت نفسه أسعار الكتب .

في حوالي عام ١٤٩٠ ، كانت الشبكة التجارية للكتاب قد انتظمت عبر أوروبا كلها . فانتشر أصحاب المكتبات الذين يبيعون الكتب بالمفرق في كل مكان ، بعد أن يتسلمونها من كبار الناشرين ؛ كما أصبح لهؤلاء من جهة ثانية ، موزعون في عدة مدن . وهكذا بدأ يظهر نوع من التسلسل في تجارة الكتب . من بين كبار الناشرين ، نجد (كوبرغر) مثلا ، الذي كان يمتلك ثلاثة متاجر في فرنسا (باريس ، ليون وتولوز) ، قد بلغ من القوة ما جعل رجل الطباعة التولوزي (جان دي باريس) ، منذ عـــام ١٤٩١ ، يرسل أحد عملائه الى اسبانيا للاتفاق مع ممثلي (كوبرغر) .

الا اننا ، قبل هذا التاريخ ، عام ١٤٨٩ ، نجد (هانس ريكس) الذي يعمل بنفسه كرجل طباعة ـ كتبي في (فالنسيا) ، يبيع كتبا للشركات الفينيسية في مناطق مختلفة من اسبانيا . وقد ظهر اخيرا في هذه الفترة نفسها ، وخاصة في فرنسا والمانيا ، بائعون جوالون للكتب يقومون بتصريف الكراسات والتقاويم الفلكية في القرى والارياف . وقد لعب هؤلاء الباعة الجوالون ، خلال القرن السادس عشر ، دورا اساسيا في نشر الافكار الاصلاحية .



وهكذا درجت في وقت مبكر جدا عادة بيع الكتب في المعارض . وسيظل الوضع كذلك مدة طويلة في معارض المنطقة الباريسية مثلا ، وخاصة في معارض (ستوت بريدج) الكبرى في انكلترة . وقد أدت الامتيازات الممنوحة للتجار الذين يرتادون المعارض ، الى تسهيل عمليات النقل ، كما أدى وجود الصرافين الى تسهيل المعاملات التجارية ، وساعد تدفق السكان على تبادل البيع ، حتى أصبحت المعارض الكبرى ملتقى أصحاب المطابع والمكتبات ، الذين كانت هناك أسباب كثيرة تحضهم على ذلك : منها الالتقاء مع بعضهم خلال فواصل زمنية منتظمة وتصفية الحسابات وتسديد الديون وشراء العتاد الطباعي اللازم للسباكين ونقاشي الحروف الذين يرتادون هذه المعارض أيضا لمناقشة المسائل المشتركة والاعلان عن الاصدار القادم لاحد الكتب والتأكد من عدم تفكير أي ناشر آخر بطباعة هذا الكتاب بالذات ؛ وكذلك الاتفاق مع اصحاب المكتبات في المدن الاخرى ، على أسس المبادلات المنتظمة ، الخ ... وهكذا نستطيع ضمن هذه الشروط ، أن ندرك الدور الذي لعبته المعارض في تجارة الكتاب ، ونخص بالذكر منها معارض كل من ليون ، مدينة دلكامبو ، فرانكفورت ولايبزيغ .

أما أهم هذه المعارض في الاصل ، فكان معرض ليون . وقد رأينا أن هذه المدينة قد اصبحت مركزا طباعيا هاما بصورة مبكرة . كما كانت

في الوقت نفسه مقر المعارض الدولية الكبرى ؛ منذ نهاية حرب المئة عام ، راينا جهود السكان ، تشجعها التنازلات والامتيازات الملكية ، قد انتهت باقامة المعارض بعد الكثير من التقلبات ، منتصرة على كافة العقبات في نهاية حكم لويس الحادي عشر . وقد زادت حروب ايطاليا من نشاط المبادلات التجارية بين هذا البلد وفرنسا ، مما أعطى اهمية أكبر لمعارض ليون التي بلغت أوج ازدهارها عند منتصف القرن السادس عشر .

اذا كانت معارض ليون قد عرفت مثل هذا النجاح ، فان ذلك يعود قبل كل شيء الى كونها مفترقا تجاريا كبيرا للطرق . فقد عرفت حركة المراكب آنذاك نشاطا ملحوظا ومكثفا على نهري السون والرون ؛ أما بالنسبة للطرق البرية ، فكان هناك طريقان يرتديان اهمية خاصة : يمر احدهما فوق جسر (غوبيوتيير) ، ثم ينتهي في ايطاليا عبر « الدوفينيه » ومضائق جبال الالب ؛ أما الآخر فيلتقي مع نهر اللوار عند (روان) « Roanne » ، وهكذا تعتبر ليون عقدة تجارية نشيطة ؛ وقد كتب الفينيسي (ليبومانو) يقول عنها : « أنها تقع تقريبا على تخوم ايطاليا وفرنسا ، على صلة مع المانيا عن طريق سويسرة ؛ لذلك فهي أشبه بمستودع لاكثر ثلاثة بلدان سكانا وغنى » .

وهكذا كانت ليون تستقبل كافة البضائع التي تتاجر بها أوروبا ، وخاصة الاقمشة الحريرية والتوابل . فمن ليون نفسها يوزع على جميع أنحاء فرنسا الارز واللوز والبهارات والحشائش الطبية والنباتات الصباغية القادمة من ايطاليا والبرتغال والشرق .

وهكذا كان لمعارض ليون اهمية استثنائية فيما يتعلق بالمبادلات التجارية . ولتشجيع هذه المعارض ، قام ملوك فرنسا والسلطات المحلية بمنح التجار من مختلف البلدان ، الذين يقصدونها ، أوسع الامتيازات ؛ وقد كان سر المهنة محترما فيها ، فلا يطلب من التجار مطلقا اظهار دفاتر حساباتهم ؛ كما كان الدين بالفائدة مسموحا به ؛ كذلك كان يسمح للاجانب المتوجهين الى هذه المعارض بالدخول الى المملكة والخروج منها بحرية

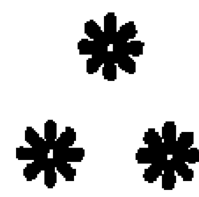
تأمة ، بالاضافة الى اعفائهم من الاعمال الانتقامية وتراخيص لتجهيز السفن الحربية وحق وراثة الطارىء ؛ أما البضائع التي كانوا يحضرونها، فكانت محمية بالعديد من الامتيازات ومعفية من ضرائب المرور .

وهكذا كان التجار يتدفقون على المدينة مع عرباتهم مرتين في العام ، ولمدة خمسة عشر يوما . ولما لم تكن هناك أسواق خاصة (اجنحة) يقيم فيها رجال الاعمال ، فان كل واحد منهم كان يتدبر أمره كيفما اتفق ، في الساحات والشوارع ، في المتاجر أو الملاجىء المرتجلة أو حتى في الفنادق ، فيعرض بضاعته ويستقبل زبائنه ؛ أما مركز هذه التجارة فكان على جسور نهر السون وفي الشوارع الصغيرة المجاورة لسان ـ نيزييه .

عند انتهاء فترة البيع كانت تليها فترة الدفع . فكانت المبادلات التجارية تسدّد عادةبالتعويض عن الدين، وتأتي سوق المبادلات النقدية لتختتم المفاوضات التجارية البحتة: حيث يتم، خلال يومين أو ثلاثة، قبول الكمبيالات من قبل الذين يترتب عليهم دفع قيمتها . بعد ذلك ، يجتمع مندوبوا التجار لتحديد مهل دفع الكمبيالات في الاماكن الاخرى ، والقيمة الرسمية للفائدة المترتبة حتى موعد افتتاح المعرض القادم . واخيرا ، وبعد ذلك بثلاثة أيام ، كان تسديد الديون يتم اما بالنقود أو بالتعويض (التقاص) . من العبث القول بأن كافة هذه العمليات المالية قد اجتذبت الى (ليون) العديدين من أصحاب المصارف ، وخاصة الايطاليين منهم ، كما جعلت من هذه المدينة أكبر مركز مصرفي في فرنسا .

أما أصحاب المكتبات والمطابع في ليون ، الذين يقيم معظمهم في شارع (ميرسييير) ، فنجدهم في قلب هذه العمليات وخضم هذه التجارة . الا أن الكثيرين منهم كانوا من الاجانب : فمن أصل الـ / ٤٩ / رجل طباعة الذين كانوا يعملون في هذه المدينة قبل عام ١٥٠٠ ، لم يكن هناك سوى اقلية فرنسية لا تتجاوز العشرين مقابل عشرين أو اثنين وعشرين من الالمان ، خمسة ايطاليين ، بلجيكي واحد ، واسباني . وهكذا كانت ليون، بسبب موقعها الجغرافي ، أشبه بحجر الرحى لجزء هام من تجارة الكتاب

الدولية : فاصحاب المكتبات الليونيون هم الذين ادخلوا الى فرنسا انتاج الآلات الطابعة الايطالية الذي كان على درجة كبيرة من الاهمية آنذاك ، علاوة على الانتاج السويسري والالماني ؛ كما لم يكونوا يتورعون عن تقليد هذا الانتاج وتزويره . وفي معظم الاحيان ، كانت لهؤلاء فروع في مدينة (تولوز) ، مما جعلهم يلعبون دورا اساسيا في تصدير الكتب الى اسبانيا. وهكذا نستطيع ان ندرك في مثل هذه الشروط لماذا لم يتردد كبار أصحاب المكتبات الايطالية (كآل غيونتا وآل غبيانو او آل بورتو ناري) في تأسيس فروع لهم في هذه المدينة ، ولماذا اصبحت هده الفروع سريعا على درجة كبيرة من الاهمية تحولت معها غالبا الى مشاريع مستقلة ، ولكنها ظلت على صلات وثيقة مع المؤسسة الام . وهكذا ما لبثت معارض ليون أن أصبحت معارض كبرى للكتب ، حيث يتم التفاوض ، ليس فقط في ارسال الكتب الايطالية والالمانية أو السويسرية الى فرنسا ، بل كـذلك في ارسال الطبعات القانونية الكبرى التي تصدر عن المطابع الليونية الى كل من ايطاليا والمانيا واسبانيا . وقد قدمت المعارض اخيرا مؤازرة كبرى للشعب ، حيث كانت تباع بالمفرق كميات هائلة من التقاويم الفلكية وكتب التنبؤات والكراسات الشعبية ، التي كانت مصورة في معظم الاحيان . في هذه المعارض ايضا لاقت (مجموعات الاخبار القيّمة وقصص العملاق الهائل « غارغنتوا ») نجاحا منقطع النظير ، حيث كان عدد نسخها المباعة في معرض واحد يفوق ، حسب قول « رابليه » ، ما كان يباع من كتب التوراة في عشر سنين .



الا انه في القرن السادس عشر ، تطورت وتوسعت معارض أخرى للكتب وأخذت اهمية اكبر : كمعارض فرانكفورت .

كانت مدينة فرانكفورت مركزا هاما جدا للمعارض منذ زمن طويل ، عندما ظهرت الطباعة بالقرب منها في مدينة (مايانس) . وهكذا أصبحت معارض فرانكفورت ملتقى تجاريا للمنطقة الرينانية كلها ، بعد أن تفوقت

على كافة منافسيها . وقد عثرنا على نصوص كثيرة تعود الى القرن الخامس عشر ، وخاصة السادس عشر ، تشير جميعها الى الدور الكبير الذي لعبته هذه المعارض آنذاك : فهناك يلتقي تجـار الاجواخ الانكليز والهولنديون ؛ وفيها تباع التوابل الآتية من المشرق ، وخمور جنوب اوروبا ، والمنتجات الصناعية للمدن الالمانية ؛ هناك ايضا يلتقي تجـار لوبيك وفيينا وفينيسيا وليون وانفرس وامستردام ، بالاضافة الى تجار ستراسبورغ وبال واولم ونورمبرغ واوغسبورغ . وفيها تنظم تجـارة الاسماك والخيول والجنجل ومعادن مدن (الهانس) ، بالاضافة الى تجارة المنتوجات والمصنوعات الزجاجية لمنطقـة بوهيميا ، فولاذ (ستيريا) وفضتها وقصديرها ، نحاس (تورينج) ، كتان (اولم) ، خمور الالزاس، أجواخ ستراسبورغ وصياغتها الذهبية والفضية ، خمور سويسرة ، خمور ايطاليا وزيوتها ، بالاضافة الى المنتجات الغريبة الدخيلة : معارض دولية اذن ، كانت تشاهد فيها الفيلة حتى قبل أن يعرف طريق الهند . انها معارض للفضة والبضائع المتنوعة ، حيث تتوارد قوافل العربـات والتجار من كل حدب وصوب ، يحميها جنود الامبراطور الذي كان الحارس الامين لامتيازات المعارض .

لم تتوسع الطباعة في فرانكفورت الا بصورة متاخرة : وخاصة اعتبارا من عام ١٥٣٠ ، عندما استقر فيها (ايغنولف) الشهير . الا أن معارض فرانكفورت اجتذبت اليها في وقت مبكر جدا « موزعي » كبار أصحاب المكتبات : وهكذا كان يرتادها (بيتر شوفر) ، ثم (ونسلر) و (امير باخ) اعتبارا من عام ١٤٧٨ . وقد كان هذا الاخير يعود اليها بصورة منتظمة ، حيث ما لبث أن التقى فيها بأصحاب المكتبات القادمين من نورمبرغ وايطاليا . اعتبارا من عام ١٤٩٥ ، بدأ (كوبرغر) بدوره يأتي اليها بطرود الكتب ؛ ولم يعد يفوته معرض واحد خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٤٩٨ و ١٥٠٠ بشكل خاص . وفي عام ١٥٠٦ ، بنى له صاحب الفندق الذي كان ينزل فيه ، حانوتا خاصا يستطيع ان يعرض فيه كتبه تماما كمـا كان يفعل في مدينة نورمبرغ ، كما يستطيع ان يودع فيه المجلدات ويتركها

من معرض لآخر . ومن فرانكفورت ايضا، كان (كوبرغر) يقوم بتجارة نشطة مع أصحاب المكتبات في (بال) .

من الآن فصاعدا ، بدأ عدد أصحاب المكتبات ، الذين يقصدون معارض فرانكفورت يتزايد باستمرار عاما بعد عام ، حيث أصبحنا نشاهد فيها كتبيي ماربورغ ، لايبزيغ ، ويتنبرغ ، توبنجن ، هايدلبرغ وبال ، بالاضافة الى العديد من الاجانب . ولدينا آثار تدل على مرور الكتبيين الفينيسيين منذ عام ١٤٩٨ . كذلك نجد الباريسي (جاك دوبوي) يتوجه الى هناك بصورة منتظمة اعتبارا من عام ١٥٤٠ ، ثم يحذو حذوه (روبير ايستيان) . وفي آخر معرض لعام ١٥٥٧ ، نجد اثنين من أصحاب المكتبات الليونيين ، أربعة من باريس ، اثنين من جنيف ، خمسة من انفرس ، بالاضافة الى آخرين من أوتريشت وأمستردام ولوفين . أما في معارض عام ١٥٦٩ ، فنجد آثار ٨٧ كتبيا ، منهم ١٧ من فرانكفورت ، ٣ من فينيسيا ، ٤ من ليون ، ٥ من جنيف ؛ كما كان كل واحد من هؤلاء يصل مكلفا بطلبات من الزملاء الذين لم تساعدهم الظروف على الحضور شخصيا .

كان أصحاب المكتبات هؤلاء يلتقون فور وصولهم في شارع (بوشر غاس)، أو « شارع الكتب » ، الواقعبين (مان) وكنيسة سان ـ ليونارد . لم يكن لديهم اي وقت للاستراحة او الفراغ طيلة اقامتهم : فقد كان عليهم أن يفكوا الطرودوينشروا البضائع التي احضروها، ويعرضوا الكتب، بالاضافة الى انتقاء ما يلزمهم من كتب جديدة لصالح كل مكتبة ، ثم القيام ببيع مؤلفاتهم الى أصحاب المكتبات الآخرين أو الى الافراد . أما الناشرون ، الذين كان لا بد لهم إن يلتقوا ويتجاذبوا أطراف الحديث ، فنجدهم يتبادلون الاخبار فيما بينهم ، ويعلنون عن الكتب التي ما زالت قيد الطباعة أو التي يزمعون طبعها ، كما يستلمون الطلبات والتوصيات من اجل المعارض التالية . كانت المبادلات التجارية تنحصر غالبا في الكميات الهائلة من النسخ ، ففي رسالة مؤرخة في ١٠ تشرين الاول عام ١٥٣٤ ، يشير الكتبي (فروشووير) مثلا الى انه احضر الى المعارض الفي نسخة من طبعته النصفية و (in - 8°) لمؤلفه « موجز في اقسام

الارض الثلاثة » ؛ ثم يضيف الى ذلك انه استطاع تصريف نصف هـذه الكمية وانه ينوي بيع الباقي في المعرض القادم .

كذلك اصبحت فرانكفورت ، وبسرعة كبيرة ، سوقا كبيرا لعتاد الطباعة . فمن هناك يشتري أصحاب المطابع مجموعات الحروف والقوالب للسكابين والنقاشين الالمان ، وبالدرجة الاولى لصالح المقيمين منهم في فرانكفورت نفسها . كما بدأ النقاشون على الخشب والنحاس ، الذين يبحثون عن عمل ، يتوجهون أيضا الى المعارض ، التي أصبحت تدريجيا ، في نهاية القرن السادس عشر ، ملتقى جميع من يهتمون بقضايا النشر . وهكـذا كان يتجمع هنـاك دائما جمع غفـير من الناس كله حركة دائمة ونشاط مستمر ، مشكلا بذلك منظرا رائعا كان كتاب ذلك العصر يتلذذون في التحدث عنه ، ومنهم (هنري ايستيان) . بينما كان أصحاب المكتبات وممثلوهم ، الواقفون أمام ابواب محلاتهم ونوافذها ، ينادون معلنين عن عناوين الكتب الجديدة التي يقدمونها للمارة ، كان الباعة الجوالون يجوبون الشوارع ويبيعون التقاويم الفلكية والصور والكراسات المتضمنة آخر اخبار الساعة وترابط الاحداث الاخيرة . وفي عداد الجمهور المتجول ، كنت ترى المؤلفين الذين جاؤوا لمراقبة بيع أحد الكتب أو الراغبين في نشر مؤلفاتهم ، بالاضافة الى رجال الآداب الباحثين عن العمل : كالترجمات أو تنقيح المسودات والنسخ التجريبية ؛ حتى أن (هنري ايستيان) لم يتردد في نعت فرانكفورت « بأثينا الجديدة » ، حيث يمكن مشاهدة مشاهير العلماء يتباحثون فيما بينهم باللاتينية أمام الجمهور المشدوه ، وذلك جنبا الى جنب مع الممثلين الكوميديين الذين جاؤوا الى المعارض أيضا يطلبون العمل من اصحاب الفرق المسرحية الذين جاؤوا بدورهم يسعون وراء العناصر المناسبة لتشكيل هذه الفرق . انه مشهد يستحق فعلا أن يثير اعجاب (شكسبير) واهتمامه .

*
* *

من جملة التجديدات المبتكرة التي ندين بها لمعارض فرانكفورت ، يمكن أن نذكر اصدار « كاتالوغات » المعارض التي تعتبر باكورة العديد

من نشرات الكتب التي تمكننا اليوم من الاطلاع على المؤلفات الجديدة فور ظهورهـــا .

كان اصدار « كاتالوغات » الكتب عملية تمارس منذ زمن بعيد . فمنذ عام ١٤٧٠ ، وحتى قبل هذا التاريخ ، كان موزعوا الناشرين الكبار قد اعتادوا ، كما راينا ، على اعداد لوائح مخطوطة باليد في البداية ثم مطبوعة ، بالكتب التي ينوون تقديمها . وقد كانت هذه الكشوفات او « الاعلانات » الجماعية كما كانت تسمى آنذاك تنشر بصورة مبكرة جدا لتسهيل عملية البيع : وهكذا نجد الكتبي (البرخت) ، من مدينـــة « ميمنجن » ، يصدر عام ١٥٠٠ قائمة بما يقرب من / ٢٠٠ / عنوان اطلق عليها اسم :

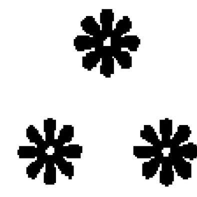
. « Libri venales Venetiis , Nurembergaeet Basileae »

في القرن السادس عشر ، ادت ضرورة قيام الناشرين باطلاع الجمهور على المؤلفات التي يصدرونها ، الى دفعهم لطباعة ونشر « الكاتالوغ » الخاص بهم .

في عام ١٥٤١ ، أصدر (آلد مانوس الصغير) كاتالوغا مماثلا في فينيسيا . وقد حذا حذوه (سيمون دي كولين) في باريس قبل عـــام ١٥٤٦ ، ثم تبعهما (كريستوف فروشووير) في زوريخ (عام ١٥٤٨) ، و (سيباستيان غريف) في ليون و (جان فروبن) في بال عام ١٥٤٩ ، و (روبير ايستيان) في عامي ١٥٥٢ و ١٥٦٩ ، واخيرا (بلانتين) في أنفرس في الاعوام ١٥٦٦ ، ١٥٦٧ ، ١٥٧٥ و ١٥٨٧ .

كانت هذه الكشوفات توزع غالبا في معـــارض فرانكفورت . الا انه ما لبث أن بدا من المفيد اصدار كشف عام بكافة الكتب المعروضة ، حيث كان أصحاب المكتبات الالمان والاجانب يعرضون للبيع لاول مرة المؤلفات التي طبعوها حديثا والتي يريدون لها أوسع قدر ممكن من الانتشار : لذلك ، ومنذ عام ١٥٦٤ ، اخذ احد أصحاب المكتبات ، من أوغسبورغ ، ويدعى (جورج ويلر) ، على عاتقه أن يقدم في كل معرض لائحة كاملة

بالكتب المعروضة للبيع . وقد كان كشفه هذا يصدر مرتين في العام حتى سنة ١٥٩٢ ، حيث ما لبث كتبيون آخرون من أمثال جوهان سوور ، فايرابند وبيتر شميد أن حذو حذوه أيضا . اعتبارا من عام ١٥٩٨ ، قرر مجلس المدينة ان يقوم بنفسه باصدار « كاتالوغ رسمي » ظل يصدر دون انقطاع حتى القرن الثامن عشر ، كما استخدم بمثابة الاساس في الاعمال الاولى لكشوفات الكتب التي بدأتها المانيا في القرن السابع عشر .

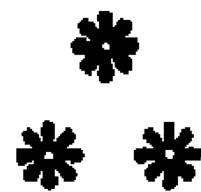


ان دراسة هذه « الكاتالوغات » تسمح بمعرفة المؤلفات التي كانت تباع في معارض فرانكفورت ؛ فقد تضمنت ، من عام ١٥٦٤ حتى ١٦٠٠ ، اكثر من / ٢٠٫٠٠٠ / عنوانا مختلفا ، اي / ١٤٧٢٤ / طبعة المانية من / ١١٧ / مؤسسة مقامة في / ٦١ / مدينة ، و (٦١١٢) طبعة اجنبية و (١٠١٤) طبعة مجهولة العائدية . اما « كشوفات » القرن السابع عشر، فتتضمن عددا اكبر من العناوين : حيث نجد خلال النصف الاول من القرن / ١٨٣٠٤ / طبعة المانية و / ١٧٠٣٢ / اجنبية ؛ اما خلال النصف الثاني فنجد / ٣٨٦٦٢ / طبعة المانية و / ٤٩٦٢ / اجنبية . كان الكثير من الكتب المعروضة للبيع باللغة الالمانية الا ان المطبوعة باللاتينية ظلت اكثر تداولا مدة طويلة . فخلال الفترة الواقعة بين عامي ١٥٦٦ــ١٥٧٠، ومن اصل ٣٢٩ كتابا معروضا ، كان هناك / ١١٨ / باللغة الالمانية و / ٢٢٦ / باللاتينية ؛ في ١٦٠١ ــ ١٦٠٥ ، من اصل / ١٣٣٤ / ، نجد ٨١٣ باللاتينية و ٤٢٢ بالالمانية ؛ وفي ١٦٣١ ــ ١٦٣٥ ، من اصل / ٧٣١ / ، نجد ٤٣٦ باللاتينية و ٢٧٣ بالالمانية . ولم تنقلب هذه النسبة رأسا على عقب الا اعتبارا من ١٦٨٠ ــ ١٦٩٠ ، حيث بدأت تباع في فرانكفورت الكتب باللغة الالمانية اكثر منها باللاتينية .

وهكذا كانت معارض فرانكفورت اذن ، خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر والنصف الاول من القرن السابع عشر ، مركزا كبيرا لنشر

الطبعات بالالمانية وسوقا دوليا للكتب اللاتينية . فقد كان (بلانتين) مثلا ، يجري فيها مبادلات تجارية هامة ، كما أقام فيها متجرا خاصا ، واصبح يزورها أو يرسل احد رجاله الموثوقين في كل معرض (وخاصة صهره جان موريتوس) ؛ هنا أيضا كان يلتقي بكافة عملائه ويصفي حساباته معهم ؛ ومن هنا ايضا كان يشتري كل ما يحتاجه من عتاد الطباعة . اعتبارا من مطلع القرن السابع عشر ، بدأ آل (ايلزوفييه) بدورهم يقصدون معارض فرانكفورت . كما كان يقصدها في كل مرة ثلاثة أو اربعة من أصحاب المكتبات الباريسيين على الاقل ، بالاضافة الى الكثيرين غيرهم ، وخاصة الانكليز منهم : حيث كان هؤلاء يأتون الى هذه المدينة بالذات لشراء الكتب التي ينوون بيعها في بلادهم . وفي عام ١٧١٦ قام الكتبي الشهير (جون بيل) نفسه باعادة طباعة «كاتالوغات» معارض فرانكفورت بصورة منتظمة في لندن .

لا شك في أن هذه المعارض كانت تعتبر سوقا دولية للكتب اللاتينية والمنشورات الكاثوليكية ؛ الا انها اصبحت أيضا ، وخاصة في القرن السادس عشر ، ملتقى أصحاب المكتبات البرونستانت ، حيث كان الكتبيون من ليون وستراسبورغ وجنيف وبال يجدون الطبعات « الاصلاحية » الالمانية الصادرة عن (ويتنبرغ) و (لايبزيغ) ، وحيث كان الكتبيون من جنيف يأتون غالبا ، محاولين أن ينهوا في الوقت المناسب طباعة الاعمال الانتقادية البروتستانتية التي يعلنون عنها تمهيدا لعرضها. الا أن هذا الوضع ما لبث أن أقلق السلطة الامبراطورية وأدى في مطلع القرن السابع عشر الى ردود فعل عنيفة من قبل اللجنة الامبراطورية للكتاب . لذلك أصبح أصحاب المكتبات البروتستانت يشعرون بالمضايقات في فرانكفورت ، حتى اضطروا في النهاية الى ترك معارض فرانكفورت والتوجه الى لا يبزيغ حيث لا يصادفون نفس الصعاب .



الا أن حرب الثلاثين عاما ، التي خفضت الى الصفر تقريبا انتــاج المطابع الالمانية ، قد وجهت طعنة نجلاء الى معارض فرانكفورت . فبينما كان الناشرون الالمان يصدرون / ١٥١١ / مؤلفا سنة ١٦١٠ ، و /١٧٨٠/ في عام ١٦١٣ ، لم يعودوا يصدرون في عام ١٦٢٦ سوى ١٠٠٥ وفي عــام ١٦٣٥ ، ٣٠٧ فقط ، حتى اقلع الكتبيون الاجانب عن التوجه الى هذه المعــارض ؛ ومن عــام ١٦٢٠ حتى ١٦٢٥ ، لم يعد يشاهد هنــاك الا الفرنسيون . عند انتهاء الحرب استعادت هذه المعارض بعض نشاطها ، الا أنها لم تعد سوقا دولية للنشر ، بل لم تعد كذلك الملتقى الرئيسي للناشرين الالمان انفسهم . كان لذلك عدة أسباب اهمها تبدل اتجاه النشر الالماني : فحتى ١٦٣٠ ــ ١٦٤٠ كانت تطبع في المانيا كتب لاهوتية كاثوليكية أكثر من الكتب البروتستانتية ، كما كانت مطابع جنوب المانيا أكثر نشاطا من مطابع الشمال ؛ الا أن الامر لم يعد كذلك منذ عام ١٦٤٠ كما رأينا .

مع تزايد نشاط الطباعة في المانيا الشمالية ومضاعفة الكتــابات البروتستانتية الناجمة عن مرور (غوستاف أدولف) ، كان لا بــد أن يؤدي ذلك الى توسع معارض (لايبزيغ) وازدهارها .

كانت لا يبزيغ تنافس فرانكفورت منذ زمن طويل ؛ فقد ظهرت فيها الطباعة منذ عام ١٤٧٩ ، اي بصورة مبكرة أكثر منها في فرانكفورت . ومنذ عام ١٤٧٦ ، كان (بيترشوفر) ورجال الطباعة الباليين (نسبة الى مدينة بال) ، يبيعون فيها الكتب المطبوعة . كما عام بالاعمال التجارية فيها فيما بعد رجال من أمثال « كوبرغر » و « هانس رينمان » ومختلف اصحاب المكتبات من أوغسبورغ ونورمبرغ . وما كاد يطلع القرن السادس عشر حتى كانت الطباعة قد توسعت في لايبزيغ بشكل خاص . من المؤكد ان بعض كبار رجال الطباعة البروتستانت ، من أمثال ميلشيور لوتر ، قد اضطروا لترك المدينة عندما قرر جورج دي ساكس اضطهادهم ، الا أن « الناخبين »(١) البروتستانت مارسوا بعد ذلك سياسة تساهل

---

(١) الناخبون : هم الذين كانوا ينتخبون الامبراطور الالماني .

سمحت حتى للكتبيين الكاثوليك انفسهم بالتوجه الى المعارض ؛ وقد استمرت سياسة التساهل هذه تمارس تجاه البروتستانت بعد أن أصبح « الناخب » من انصار الديانة الكاثوليكية في عام ١٦٩٧ . ومنذ ذلك الحين اذن ، ظلت معارض لايبزيغ تأخذ اهمية متزايدة . ومما ساعد على تطورها حركة « الاصلاح » وتزايد عدد المطابع البروتستانتية في شمال المانيا الذي نجم عن ذلك ، بالاضافة الى توسع الدولة البروسية شرق أوروبا . في عام ١٦٠٠ ، بدىء بنشر لوائح الكتب الخاصة بمعارض لايبزيغ ، حتى تساوت هذه في اهميتها مع معارض فرانكفورت منذ ذلك الحين ؛ وبعد حرب الثلاثين عاما ، اصبحت السوق الكبرى لاعمال الطباعة والنشر الالمانية .

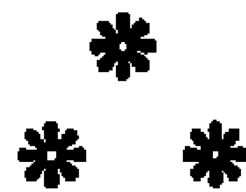
وهكذا سجل توسع معارض لايبزيغ وانحدار معارض فرانكفورت في القرن السابع عشر ، مرحلة جديدة على درجة كبيرة من الاهمية فيما يتعلق بتطور تجارة الكتاب . لقد رأينا أن معارض فرانكفورت كانت ملتقى جميع كبار الكتبيين الاوروبيين ؛ بينما نجد أن معارض لايبزيغ تجمع قبل كل شيء الكتبيين الالمان بالاضافة الى الروس والبولونيين والهولنديين ، حتى ان نجاح معارض لايبزيغ قد سجلت حوالي ١٦٣٠ ــ ١٦٤٠ ، من ناحية النشر ، بداية تجزئة : اذ بينما كانت اعمال النشر باللاتينية تتضاءل باستمرار ، ونسبة النصوص المطبوعة باللغة الوطنية تستمر في الارتفاع ، بدأت تجارة الكتاب تتجزأ في أوروبا .

٤ ــ نحو طرق تجارية جديدة

الا أن الطرق والاساليب التجارية كانت تتبدل تدريجيا فيما يتعلق بنشر الكتب وبيعها .

كان اول ما تبدل هي طرق الدفع . فقد كانت المقايضة في القرن السادس عشر كما أسلفنا ، هي أكثر الوسائل استخداما من قبل الكتبيين

الناشرين لتصريف انتاجهم والحصول على الكتب المناسبة التي يحتاجون اليها . كانت هذه الطريقة المستخدمة في المانيا ، وكذلك في العلاقات بين الناشرين من مختلف البلدان ، تتمتع بمزايا عديدة ولا شك ، لانهاتبسط وتسهل تصفية الحسابات . الا انها لم تكن تخلو كذلك من المساوىء : ففي أحيان كثيرة ، كان كبار الناشرين يضطرون لان يقبلوا مؤلفات يصعب تصريفها مقابل الكتب التي يرسلونها الى هذا العميل أو ذاك . وهذا ما دفع هؤلاء ، خلال القرن السابع عشر ، للتخلي تدريجيا عن هذه الطريقة . الا انها ظلت مع ذلك مستخدمة لمدة طويلة ، حتى جاء القرن الثامن عشر ، وأصبح الدفع يتم بواسطة الحوالات المصرفية . أما المانيا ، فبقيت امينة على اسلوب المقايضة مدة اطول ؛ وهكذا نجد الهولنديين يقبلون بهذه الطريقة في علاقاتهم مع أصحاب المكتبات الالمان ، ولكنهم لا يرضون مقايضة طبعاتهم الانيقة مع الطبعات الالمانية التي كانت اقل جودة في معظم الاحيان ، الا على أساس واحد مقابل ثلاثة او أربعة . وهكذا كان لا بد من انتظار نهاية القرن الثامن عشر حتى يتوصل الكتبيون في لايبزيغ ، الذين تخصصوا في نشر المؤلفات الجديدة والطبعات الجيدة، الى الاقلاع عن هذا الاسلوب الذي كان يضر بمصالحهم ويعيق توسع المشاريع الكبرى للطباعة والنشر .



بينما كان عدد الكتب المطبوعة يتزايد كل عام ، اصبح من العسير جدا معرفة كل ما يصدر من المؤلفات الجديدة ، وذلك ليس فقط بالنسبة لاصحاب المكتبات الراغبين في الاطلاع دائما على احدث ما ينشر ، بل كذلك بالنسبة للعلماء والعالم المثقف بوجه عام .

لقد ذكرنا آنفا بأن « الكاتالوغات » أو الكشوف الصادرة عن معارض فرانكفورت ظلت مدة طويلة تلعب نفس الدور الذي تلعبه حاليا «النشرات البيبلوغرافية » . الا انه أصبح لا بد من اللجوء الى ادوات أخرى بعد أن فقدت هذه المعارض الكثير من اهميتها .

لذلك اعتاد كبار الناشرين شيئا فشيئا ، خلال القرن السابع عشر ، على اصدار « الكاتالوغات » الخاصة بهم في أحيان كثيرة . كما أصبحوا يعمدون في معظم الاحيان الى طباعة هذه « الكاتالوغات » في نهاية الكتب التي يصدرونها . الا أن هذه الكشوف (اللوائح) الفردية لم تكن كافية . وطالما أن المانيا كانت تمتلك اداة ثمينة ، وهي « كاتالوغات » معارض لايبزيغ ، فقد ساد الشعور في فرنسا ، وخاصة في انكلترة ، بضرورة اصدار نشرات دورية تتضمن المؤلفات التي ظهرت حديثا . منذ عام ١٦٤٨ ، شرع أحد علماء التاليف وهو الاب جاكوب ، يصدر كل عام « Bibliographia parisiona »، و« Bibliographia gallica » ، حيث يجد القارىء قائمة بالكتب التي ظهرت في باريس وجميع أنحاء فرنسا . تعتبر هذه النشرة السلف البعيد لنشرة البيبليوغرافيا الفرنسية الحديثة ؛ وقد استمرت في الظهور بصورة منتظمة حتى عام ١٦٥٤ ، ثم توقفت مدة طويلة بدون بديل . أما في انكلترة ، فقد بدىء آنذاك باصدار نشرات المؤلفات الوطنية . ومنذ عام ١٦٥٧ ، ظهر

« Cataloyue of the most aendible books in England »

أو ما يسمى « نشرة الكتب الاكثر رواجا في انكلترة » ، ثم بدات تليه نشرات عديدة اخرى من هذا النوع . وفي عام ١٦٦٨ ، شرع أحد أصحاب المكتبات فيلندن، ويدعى(جون ستارلي)، في اصدار « Term Catalogue » بمساعدة أحد علماء المؤلفات المدعو (روبرت كلافل) ، الذي ظهر تحت اسم « مركوريوس الكتبي » ، والذي كان يظهر أربع مرات في العام . وقد ظل يطبع بصورة منتظمة حتى عام ١٧٠٩ ، حيث حلّت محله نشرات اخرى مماثلة . كذلك كان (روبرت كلافل) يستفيد من الوثائق التي كان يجمعها لصالح « مركوريوس الكتبي » فيصدر أربع طبعات مدققة ومصححة عن « نشرة عامة » بالكتب المطبوعة في انكلترة منذ عام ١٦٦٦ .

كانت الطبعات من هذا النوع مخصصة لصالح الكتبيين أكثر منها لصالح العلماء أو رجال الآداب . لذلك لم يكن لدى هؤلاء ، لكي يظلوا

على اطلاع دائم بالكتب التي تهمهم ، سوى المعلومات التي كان يقدمها اليهم الاصدقاء والمراسلون في كافة انحاء أوروبا . في هذه الشبكة من الاتصالات والمراسلات ، كان بعض العلماء في وضع يساعدهم على أن يلعبوا دور الوكالة المركزية للمعلومات ؛ من هؤلاء على سبيل المثال : (بيريسك) الملقب « بالمدعي العام لجمهورية الآداب » ، وكذلك (شابلين) والاخوة (دوبوي) .

الا ان هذه الاساليب أصبحت غير كافية في النصف الثاني من القرن السابع عشر . ولما كانت الصحافة الدورية تتطور آنذاك ، فقد بدأت تظهر سلسلة من الصحف المتضمنة أحدث المؤلفات الصادرة مع شيء من النقد .

يعود الفضل في أول مبادهة من هذا النوع الى (كولبير) ، الذي كان يرغب في توجيه الحياة الفكرية للبلد ؛ لذلك قام ، بناءا على نصيحة (شابلين) ، بتكليف مستشار برلماني متبحر في العلوم ، وهو (دنيس دي سللو) ، باصدار صحيفة شهرية تقدم المعلومات عن الاكتشافات العلمية مع تعليق انتقادي حول أحدث المؤلفات الصادرة . ولا شك أن الغاية من هذا النقد كانت هي « توجيه » الرأي العام العلمي والادبي اذا دعت الحاجة . وقد كان هذا هو هدف « صحيفة العلماء » التي ظهر العدد الاول منها في أول شهر كانون الثاني من عام ١٦٦٥ . استطاع (سللو) ، بمساعدة عدة معاونين ، أن يجمع في صحيفته العديد من المعلومات ، الا أن انتقاداته الصريحة جدا اثارت حفيظة قسم من الجمهور وخاصة المؤلفين . لذلك ما لبث (سللو) أن تخلى عن مكانه للراهب (غالوا) ، الذي كان أشد حذرا ، فعدل عن انتقاد المؤلفات التي يعلن عنها . لاقت « صحيفة العلماء » نجاحا كبيرا وسريعا ، حيث ترجمت في ايطاليا والمانيا ، كما صدرت عنها طبعة خاصة باللغة اللاتينية ؛ وفي عام ١٦٧٨ ، عمد (غالوا) الى تصغير حجمها حتى يتمكن من ارسالها بالبريد الى الخارج والى سائر المدن بنفس السهولة التي توجه بها الرسائل العادية .

الا انه منذ عام ١٦٦٨ ، وبينما كانت « شركة لندن الملكية » تشرع في اصدار « المبادلات الفلسفية » ونشرها في انكلترة ، هذا المؤلف الذي صدر باللغة اللاتينية في مدينة لايبزيغ اعتبارا من عام ١٦٧٥ ، وجدت « صحيفة العلماء » نفسها اعتبارا من عام ١٦٨٠ ، أمام طبعات أخرى منافسة ذات ايحاءمختلف، كصحيفة «تريفو» (Journal de Trévoux) مثلا ، التي كان يصدرها « اليسوعيون » في امارة (دومب) المستقلة بين عامي ١٧١٢ ــ ١٧٦٨ ، وخاصة الجرائد العديدة التي ظهرت في هولندة ، وعلى رأسها « اخبار جمهورية الآداب » لـ (Bayle) التي بدأت بالصدور عام ١٦٨٤ ، و « المكتبة الكونية والتاريخية » التي أصدرها (Le Clerc) اعتبارا من عام ١٦٨٦ ، و « تاريخ مؤلفات العلماء » التي أصدرها (Basnage). بينما كانت « صحيفة العلماء » تتجنب التحيز واتخاذ المواقف ، كان كل من (Bayle) و (Le Clerc) و (Basnage) يهتمون بالنقد قبل كل شيء . ولما كانت اقامة هؤلاء في هولنده ، فقد كانوا أول من أتاح للفرنسيين الاطلاع على أفكار الفلاسفة والمفكرين الانكليز ، وخاصة (لوك) . وقد كانت الصحافة البيبلوغرافية المؤسسة حديثا ، تمارس تأثيرا عميقا على تطور الافكار .

*
* *

الا أن الكتب المطبوعة كانت تحتفظ بفائدتها لمدة أطول بكثير مما هي عليه اليوم . وفي القرن السابع عشر أيضا ، ظل الكتاب ، وخاصة كتاب الدراسة ، حاجة ثمينة يحتفظ بها بعناية ، كما تباع مجددا في بعض الاحيان وتبقى محتفظة بقيمتها مدة طويلة . ففي الطبعات « الالدية » مثلا ، حقق (راسين) أول تماس له مع المؤلفين المأساويين اليونانيين . في مثل هذه الظروف ، كان لا بد لتجارة الكتاب المستعمل أن تتطور وتلعب دورا كبيرا .

كانت هذه التجارة في ايدي تجار الكتب القديمة والكتبيين الذين

يبيعون الكتب على « البسطات » ، الذين نجدهم في كافة المدن الكبرى : في ليون على جسر « السون » ؛ في باريس ، على جسور « السـين » وأرصفته . ولكن في أغلب الاحيان أيضا ، كان بعض كبار أصحاب المكتبات يتفرغون لهذا النوع من التجارة : ففي مدينة باريس مثلا ، نجد في نهاية القرن السادس عشر ، (دافيد دوسور) ، الذي استفاد من نهب العديد من المكتبات أثناء الحروب الدينية لكي يجمع لديه مخزونا هائلا من الكتب؛ وفي القرن السابع عشر ، نجد (توماس بلينر) ، ثم (لويس بيان) الذي اشترى من الخارج ، وخاصة من انكلترة ، آلاف المؤلفات التي قام فيما بعد ، تحت عنوان « Milliaria »، باصدار « الكاتالوغات » من أجـل بيعهـا .

وهكذا استطاع تجار الكتب القديمة أن يلعبوا غالبا دورا هاما في عالم الآداب . وبينما كان (نوديه) يفتش على الارصفة عن كتب مكتبة (مازارين) ، التي نهبت أثناء حرب « المقلاع » ، تخصص (كاموزا) ، كتبي الاكاديمية الفرنسية ، في شراء الكتب القديمة من الخارج ، والتي كان يحتاج اليها أعضاء الاكاديمية . كما مارس هذا النوع من التجارة الكثيرون من كبار الكتبيين الناشرين .

تماما كما هو الوضع عليه اليوم ، كان الكتبيون المتخصصون في تجارة الكتاب القديم يتموّنون عن طريق الشراء بالجملة لمكتبات العلماء او رجال الآداب الذين يتوفون . عندما توسعت هذه التجارة خلال القرن السابع عشر ، بدأت تظهر تقنية تجارية جديدة لا زالت تستخدم حتى يومنا هذا : وهي طريقة البيع « **بالمزاد العلني** » . من الآن فصاعدا ، عندما يتوفى شخص عنده مكتبة مشهورة ، فان كتبه تعرض في مزاد علني بعد اصدار وتوزيع « الكاتالوغ » الخاص بها . وقد كان يحدث غالبا أن يعمد الاختصاصيون الذين يبحثون عن كتاب نادر ، ثم تلاهم هواة الكتب الذين أخذوا يتكاثرون ، الى منافسة أصحاب المكتبات والمزاودة عليهم في هذا

الكتاب أو ذاك . أما أول عملية بيع نعرفها من هذا النوع ، فهي التي قام بها الكتبي (كريستوف بوريه) بالنسبة لمكتبة (مارنيكس دي سانت-الدوغونت) في « لايد » عام ١٥٩٩ . عندئذ أصبح البيع بالمزاد العلني يستخدم بسرعة وبشكل عام في هولنده حيث كـان آل (ايلزوفييه) يراسون أسواق المزاد من هذا النوع ؛ وما كاد القرن ينتصف حتى انتشرت هذه العادة في ألمانيا وانكلترة ، ثم في فرنسا عند مطلع القرن الثامن عشر .

*
* *

أما آخر مظهر لتجارة الكتاب ، فهو ما اصطلح على تسميته « بتجارة الجوالين » . فقد رأينا آنفا أن كبار الناشرين قد درجوا بصورة مبكرة جدا على أن يرسلوا الى المدن التي ليس لهم فيها وكلاء ، بمن سميناهم « الموزعين » الذين كانوا يقصدون هذه المدن بصورة دورية ليعرضوا فيها الكتب التي يراد بيعها . وعما قريب سنجد الكتبيين المتخصصين ببيع التشكيلات المتجانسة من الكتب يقصدون المدن الهامة ويقيمـون فيها بصورة دائمة ، واضعين بذلك حدا لنشاط موزعي الكتب . أما في المدن الصغيرة والقرى والارياف ، حيث لم يكن الوضع يسمح لاصحـاب المكتبات بالاقامة الدائمة ، فكنت تشاهد ، منذ القرن الخامس عشر ، الباعة الجوالين الذين لا يحملون معهم الكتب وحدها ، بل كذلك الصور الدينية ولوازم الخياطة . ولما كان تعامل هؤلاء الباعة يجري عادة مـع زبائن محدودي الثقافة ، فانهم كانوا يعمدون بشكل خاص الى بيـع الكتيبات البسيطة والتقاويم الفلكية أو التنبؤات ، بالاضافة الى تقاويم الرعاة أو الابجديات . وعندما بدات الافكار الاصلاحية الدينية تنتشر ، اخذ عدد هؤلاء الباعة يتزايد ، حيث كانت سهولة تهربهم من مراقبة الشرطة (أكثر بكثير من أصحاب المكتبات الثابتين) تمكنهم من أن يصبحوا من أنشط عملاء الافكار الجديدة ودعاتها . وقد لعب هؤلاء دورا في غاية الاهمية ، خاصة عند بداية « الاصلاح الديني » الالماني ، حيث قاموا

بنشر المقالات الانتقادية الكاثوليكية وخاصة البروتستانتية التي كان من أبرزها الهجمات على روما وعلى السلطة البابوية التي كانت تهدف الى نسف هيبة رجال الدين واضعاف سلطتهم . وهم الذين تكفلوا اعتبارا من سنوات ١٥٤٠ ـ ١٥٥٠ بتوزيع الكتابات المطبوعة في جنيف على انحاء فرنسا . وهكذا تشكلت ، خلال القرن السادس عشر ، في المانيا أولا ، ثم في فرنسا وكافة أنحاء أوروبا ، شبكات تجارية شبه سرية مكلفة بأن تنشر قبل كل شيء المقالات الانتقادية والمؤلفات الدعائية الممنوعة .

سنرى فيما بعد أبعاد النتائج المترتبة على كل ذلك . فقد كانت هذه الكتب الموزعة تحت المعاطف ، والمرغوبة لانها ممنوعة ، تباع غالبا بأسعار باهظة ؛ عندئذ أصبحت مهنة البائع الجوال مربحة للغاية ، فبدأ الجوالون يتكاثرون في فرنسا خلال النصف الثاني من القرن ، خاصة وان هـذه الفترة تميزت آنذاك بتزايد عدد العمال والحرفيين العاطلين عن العمل . وقد كان من بين هؤلاء الجوالين وباعة الكتب الممنوعة ، الكثير من الاطفال والنساء ، علاوة على الكثيرين ايضا من عمال الطباعة العاطلين عن العمل ، والذين كانت علاقاتهم في عالم الطباعة تمكنهم بسهولة من التزود بالكتب، بل تساعدهم أحيانا على القيام سرا بطباعة بعض الاهجيات والمقـالات الانتقادية ، وكذلك العقود الرسمية والنشرات المتضمنة آخر الاخبـار اليومية والتي كانت تتزايد يوما بعد يوم .

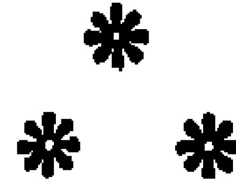
عندما عاد السلام ، بذلت جهودجبارة لايقاف هذا النوع من التجارة. ففي المدن الكبرى ، حاولت الجمعيات منع بيع الكتب الا من قبل أصحاب المكتبات ؛ كما أقيمت عدة دعاوى ضد تجار الخردوات الذين كانوا يقومون تقليديا ببيع الابجديات وكتب الساعات والتقاويم الفلكية . وقد بذلت جهود كثيرة في العديد من المدن ، وفي باريس بشكل خاص ، لترسيم نوع من البيع عن طريق التجول وجعله مشروعا : حيث تم اخذ بعض عمـال الطباعة القدماء الذين أصبحوا عاجزين عن العمل على الآلة الطابعة أو

التنضيد ، وعينوا باعة جوالين مكلفين بأن يبيعوا بالمزاد العلني المراسيم الرسمية المطبوعة بأمر من السلطة العامة ، وأن ينشروا بعض الكتيبات المطبوعة بموافقة الشرطة . الا أن هذا النظام ظهر عرضة للكثير من التجاوزات . فقد كان الباعة الجوالون في الواقع ، يحملون معهم الكثير مما لم يكن يسمح لهم ببيعه . وقد رأينا ، خلال الازمات ، أن عددا كبيرا من الاشخاص كانوا يبيعون سرا المقالات الانتقادية والاخبار التي كان من المحظر عرضها في المكتبات بصورة علنية . كما تم خلال القرن السادس عشر احراق العديد من الباعة الجوالين الذين ضبطوا متلبسين في جريمة بيع كتب الهرطقة ، بينما أودع آخرون في سجن الباستيل في فرنسا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر لقيامهم ببيع المقالات المعادية للسلطة الملكيـــة .

هكذا كان وضع الباعة الجوالين في المدن الكبرى . أما في المــدن الصغيرة والارياف ، حيث لم يكن هناك أي نظام يعيق تجارتهم عمليا ، فقد استمروا في اعمالهم وتجوالهم . فهم الذين قاموا في القرن السابع عشر ، وخاصة في القرن الثامن عشر ، باصدار اللوحات المنقوشة على الخشب التي تمثل الحياة الشعبية والتي كانت تعلق عادة على جدران المنازل والاكواخ . وهم الذين كانوا يقومون أيضا بتوزيع تقاويم الرعاة وكتب التوراة المصورة والتقاويم الفلكية وروايات الفروسية التي كانت تقرأ في السهرات وتخرج بالآلاف من آلات رجال الطباعة المتخصصين . وهم الذين تكفلوا في فرنسا ، خلال القرن التاسع عشر ، بنشر الصحف المحلية التي انبثقت منها الصحافة المحلية فيما بعد ، بالاضافة الى صور (Epinal) واللوحات التي تمجد أعمال الامبراطور وتسبّح بحمده في الارياف ، وكذلك الادب التجوال التقليدي المزخرف نقلا عن اللوحات الخشبية للقرن السادس عشر والذي ظل يلاقي نجاحا متزايدا طيلــة ثلاثة قرون ونيف . وهكذا بدأ يطبع شكل من أشكال الثقافة ظل شفهيا حتى ذلك الحين .

٥ ـ الامتيازات والتزييف

على الرغم من الطابع الدولي لتجارة الكتاب من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر ، قد يخطيء من يتوهم أن سوق الكتاب كانت بدون حواجز ، او أن عمل الناشرين كان محميا بتشريع مناسب ، او أن الكتاب كان يتداول بحرية . اذ لم يكن هناك اي اتفاق دولي فيما يتعلق بالمكتبات، بل مجرد حماية ناقصة دائما من التقليد أو التزييف ، وتشريعات محلية ناقصة ، وشرطة مزعجة عاجزة عن قمع التجاوزات والمخالفات القانونية، علاوة على اجراءات الحظر والمراقبة العديدة والمتناقضة . هـذه هي العقبات التي كانت تقف غالبا امام تطور النشر وانتقال الافكار ، والتي يتطلب تاريخها مجلدات لا مجال للحديث عنه في هذا الكتاب الا بمجرد الذكر والتنويه .



في الايام الاولى لظهور الطباعة ، وعندما كان يقوم الناشر باصدار احد المؤلفات ، لم يكن هناك ما يمنع كتبيا آخر من طباعة النص نفسه اذا وجد فائدة في ذلك . ولم يكن لهذا الاسلوب في البداية سوى القليل من المساويء : فقد طبعت في البداية نصوص قديمة معروفـة سابقا ومنتشرة كمخطوطات ؛ كما كان مجال الانتقاء واسعا من بين المؤلفات الواجبة طباعتها ، والحاجة الى الكتب كبيرة لدرجة كان يتم معها غالبا اصدار عدة طبعات عن نص واحد هام في آن واحد دون أن تضر احداها بالاخرى ؛ لذلك لم يكن من مصلحة الناشرين مطلقا أن يلحقوا الضرر ببعضهم او أن يتنافسوا على أشياء لا تدعو للتنافس .

الا أن الوضع تبدل عندما تم تنظيم سوق الكتاب ، وعندما اصبحت النصوص المألوفة الشائعة تنتشر باعداد كبيرة ، وعندما بدات تظهر أعمال المؤلفين المعاصرين وتتزايد باستمرار . وهكذا بدات المنافسة حاميـة

الوطيس بين الناشرين ، وتدخلت مسألة الاسعار فزادت من اغرائهم باعادة طباعة المؤلفات التي ظهرت حديثا ، خاصة وان المزيفين والمهربين كانوا لا يدفعون اجور التجليد لانهم يبيعون الكتب « بالملزمات » ولا يدفعون للمؤلف اي تعويض ؛ لذلك كان باستطاعة هؤلاء ان يبيعوا الطبعة الجديدة بسعر اقل من السعر الاصلي وبمستوى ادنى من الجودة والاتقان . وهكذا كانت طبعات « الانسيين » (humanistes) تقلد وتزيف باستمرار عند مطلع القرن السادس عشر . اما في باريس ، فكانت طبعات (جوس باد) تنسخ من قبل جماعة من الكتبيين ورجال الطباعة ، حتى ان احد اصحاب المطابع ، ويدعى (ديبريز) ، قد عمد لكي يكون التقليد كاملا ، الى نقش الاطار الذي كان (جوس باد) يضعه على رأس طبعاته . كذلك في مدينة ليون ، لم يترددوا في اعادة طبع الطبعات القادمة من مدينتي بال وفينيسيا ، حتى ان كلا من (ايراسم) و (ديسبوتير) كانا يفاجآن دائما آنذاك برؤية اعمالهما تطبع من جديد هنا وهناك دون موافقتهما .

كانت مثل هذه الاساليب تهدد بشل مبادهات اكثر الناشرين جرأة وعناية ، حيث اصبحوا يخشون دائما من عدم امكانية تصريف طبعاتهم التي تكلفهم غاليا ، لانها كانت تنقل وتزيف فور صدورها . لذلك ولتجنب هذه المساوىء ، اصبح الناشرون يعمدون ، عند اصدارهم طبعة هامة ، الى مطالبة السلطات العامة بمنحهم امتيازا يؤمن لهم احتكار طباعتها وبيعها لفترة معينة . اما اول من اتبع هذا الاسلوب فهم اصحاب المكتبات الايطاليون على ما يبدو ، وخاصة اهل (ميلانو) : ففي عام ١٤٨١ ، منح الناشر (اندريا دي بوسيبيس) امتيازا خاصا من اجل الكتاب (Sforziade) لمؤلفه (جان سيمونيتا) ، الذي قام بطباعته شخص يدعى (انطونيو زاروتي) ؛ وفي عام ١٤٨٣ ، منح دوق ميلانو (بيتروس جوستينوس) من تولنتينو ، امتيازا لمدة خمس سنوات من اجل طباعة الـ « Conoivium » لمؤلفه (فرانسيسكو فيلالفو) . وعما قريب ، سيعتاد مجلس الشيوخ في فينيسيا على منح الامتيازات ايضا . في مطلع القرن

السادس عشر ، نجد ان مثل هذه الامتيازات قد بدات تمنح في فرنسا كذلك من قبل الملك أو البرلمانات واحيانا بواسطة محاكم الاقطاعيين ؛ أما في المانيا ، فمن قبل الامبراطور او السلطات المحلية . في هذين البلدين حاول الملوك حصر صلاحية منح الامتيازات في ايديهم ، وتحويلها الى سلاح يمكنهم من مراقبة نشاط رجال الطباعة بصورة افضل . لذلك اصدر ملك فرنسا ، في عام ١٥٦٣ ، مرسوما يقضي بأن على كل من يريد طباعة كتاب ما ، ان يحصل مسبقا على امتياز ملكي ممهور بالخاتم الرسمي للديوان الملكي ، الامر الذي اصبح يمكنه من الاشراف على عمل المطابع ؛ وهكذا اصبح الملك هو السلطة الوحيدة المخولة بمنح الامتيازات في فرنسا من الآن فصاعدا . كذلك حاول الامبراطور في المانيا ان يطبق هذه السياسة نفسها ، الا انه لم ينجح في فرض سلطته : حيث الامتيازات المحلية قائمة الى جانب الامتياز الامبراطوري رغم الجهود والمحاولات المتكررة .

تسبب اسلوب الامتيازات هذا في حدوث مساوىء عديدة كانت التشريعات الهائلة والمتناقضة تزيدها تعقيدا . وقد كان من بين المسائل المختلف عليها كثيرا ، مسألة تمديد الامتيازات وامتيازات الكتب القديمة، حيث كانت تمنح بالنسبة للمؤلفات القديمة والجديدة على حد سواء . لذلك كان الاغراء شديدا بالنسبة للناشرين لكي يحصلوا بأموالهم على الاحتكارات الحقيقية ، وكذلك بالنسبة للسلطة العامة لكي تفضل وتميز الاشخاص الاكثر طاعة وولاء . وهكذا نجد أن كلا من شارل التاسع وهنري الثالث ، الراغبين في تشكيل منظمة قوية تستطيع اصدار الطبعات الجيدة ، لم يترددا في منح جماعة من أصحاب المكتبات الكاثوليكيين الاعضاء ، الامتياز الفادح لاصدار اعمال « آباء الكنيسة » الرئيسيين ، بالاضافة الى الكتب المقررة والمعدلة من قبل « مجلس الثلاثين » . أما خارج فرنسا ، فقد تلقى (بول مانوس) من البابا ، كما تلقى (بلانتين) من ملك اسبانيا ، امتيازات مماثلة . وبينما كانت هذه الامتيازات الهائلة تمنح أحيانا لمدة ثلاثين عاما ، كان بعض الناشرين الحديثين يكتفون بتمديد الامتيازات التي حصلوا عليها عند نفاذ مفعولها .

اما جمهرة الكتبيين والناشرين الذين كانوا يشعرون بالغبن ازاء هذه الاساليب ، فلم ينفكوا يعترضون ويحتجون . وقد لقي هؤلاء في فرنسا الدعم والتأييد من المجلس النيابي في باريس الذي كان مناوئا لمثل هذه الاحتكارات . لذلك اضطرت السلطة الملكية ازاء هذه الشكاوى الى منح الامتيازات الاستثنائية بالنسبة للكتب القديمة ، الا انها ظلت بالمقابل تتساهل في منح الامتيازات للكتب الجديدة حفاظا على حقوق الناشرين الذين أصدروها .

بهذا التصميم ، كان نظام امتيازات الطباعة يسمح بمؤازرة هذا الكتبي على حساب الآخرين : أما في فرنسا ، فكان يميز كبار الناشرين الباريسيين الاكثر قربا من السلطة الملكية والاكثر ولاء وشهرة ، على حساب أصحاب المكتبات في المناطق الاخرى . واعتبارا من النصف الثاني من القرن السابع عشر ، لم يعد المؤلفون يطبعون اعمالهم الا في باريس ، مما أدى سريعا الى افتقار المطابع والناشرين في المدن الاخرى الى العمل والنصوص . لذلك عندما ينشر كتاب في باريس ، فانهم كانوا يترقبون انتهاء مدة الامتياز بفارغ الصبر ، حتى يعمدون بدورهم الى نشره ، معترضين محتجين عند سماعهم بأي تمديد للامتياز . ولكي يتمكنوا من المحافظة على نشاط مطابعهم ، كانوا يضطرون في أحيان كثيرة الى القيام سرا بطباعة المؤلفات رغم الامتيازات التي حصل عليها أصحاب المكتبات الباريسيون ورغم أنف الشرطة المتواطئة حينا والعاجزة أحيانا .

قد لا تكون هذه هي السيئة الرئيسية لنظام الامتيازات . فقد كان كل بلد ، بل كل أمير أحيانا ، يمنح امتيازات لا يسري مفعولها الا في حدود أقاليمه وليس خارجها . فاذا كانت فرنسا وانكلترة واسبانيا ، التي توحدت قبل سواها ، تستطيع ان تمتص عادة طبعات كاملة ، الا أن الامتيازات الممنوحة من قبل الامراء الايطاليين أو الالمان ، وحتى من الامبراطور نفسه ، لم تكن تمثل بالنسبة للناشرين في الواقع الا ضمانة وهمية في اغلب الاحيان . في مثل هذه الشروط ، كان لا بد لكبار أصحاب المكتبات الذين يتعاطون التجارة الدولية للكتاب ، من أن يعيشوا في خوف

دائم من تزييف وتقليد الطبعة التي اصدروها مؤخرا والتي كلفتهم مبالغ طائلـة .

في الواقع ، لم يكن من مصلحة الكتبيين أن يتعدوا على بعضهم البعض. ففي تلك الفترة التي كان كل ناشر كبير يقيم فيها علاقات تجارية مـع زملاء أجانب ، فان افلاس احدهم قد يؤدي الى افلاس كثيرين آخرين . لذلك كان هناك لكل كتبي وكل مدينة « اصناف » من المؤلفات التي تحول الاصول التجارية والمنفعة المتبادلة دون تزييفها وتقليدها . أما اذا ظهرت أية عملية تزييف ، فان ممثلي الطرفين يسرعون فورا لخنق النزاع في المهد عن طريق اتفاق حبي قبل تطور الخلاف واستفحاله ، لان فشل المساعي سيدفع بالضحية الى اتخاذ تدابير انتقامية وطباعة « اصناف » المزيّف على مبدأ « واحدة بواحدة » ... لذلك كثيرا ما كانت حـروب التقليد والتزييف هذه ، حيث كان لا بد لعملاء الطرفين أيضا من الانحياز، تتفاقم وتنقلب الى اختبارات للقوة مخيفة ووخيمة بالنسبة للجميع .

اذا كان من مصلحة أصحاب المكتبات عموما تجنب تزييف أعمال بعضهم البعض ، فان ذلك لا يعود صحيحا عندما يجتاز النشر فترة من الازمات. لذلك اذا ظلت اعمال التزييف محدودة نسبيا خلال القرن السادس عشر، وحتى في النصف الاول من القرن السابع عشر ، فان الاحوال ما لبثت ان تبدلت اعتبارا من عام ١٦٥٠ على وجه التقريب . وهكذا تعتبر الفترة الواقعة بين عامي ١٦٤٠ ــ ١٦٦٠ ، تاريخا هاما فيما يتعلق بتاريخ النشر عموما ، وبالنسبة لتجارة الكتاب بشكل خاص . فاذا استثنينا المانيـا وحدها ، نجد أن المعارض قد فقدت من أهميتها ، كما انقطع عنها كبار الناشرين من كافة البلدان . أما الطبعات الدينية الكبرى التي تضاعفت في عهد « النهضة الكاثوليكية » وكانت موضع تجارة دولية هامة ، فقد بدأ بيعها يتضاءل ، كما تناقصت نسبة المؤلفات المطبوعة باللاتينية ، وبوشر في طباعة المؤلفات العلمية باللغات الوطنية ، واتسع انتشار أدب الخيال وأدب العوام ، كما بدات أوائل الصحف بالظهور . وهكذا حدث انقطاع

في العديد من المجالات في فترة مجاعة نقدية نسبية ، كما برزت أزمة النشر ومالت سوق الكتاب نحو التجزئة . ومنذ ذلك الحين ، لم يعد باستطاعة أصحاب المكتبات في كل من انفرس وليون وكولونيا وفينيسيا تصريف الطبعات الدينية الضخمة التي تعودوا اصدارها من أمثال (Ariaga) و (Escobar) و « القديس جيروم » .

بينما كانت الطباعة والنشر ينحدران في (انفرس) كل يوم ، لم يعد امام اصحاب المكتبات في كولونيا وروان وليون سوى مورد واحد : هو التزييف . لذلك نشبت اعتبارا من حوالي عام ١٦٥٠ حرب تجارية ضروس استمرت عشرات السنين . فشاع في كافة مناطق فرنسا تزييف المؤلفات المطبوعة في باريس ، والتي لاقت بعض النجاح ، كما بذلت الجهود لتدمير المنافسين المزعجين . وهكذا دفع الى الافلاس السيد (بيرتييه) ، الهارب من ليون والمقيم في باريس ، والذي كان يتعاطى مع اسبانيا تجارة نشطة . كما كان من بين أصحاب المكتبات الاكثر استهدافا : أكثرهم شهرة في باريس وهم : « كوربيه » « وكراموازي » ثم « ديسبريز » .

لا شك في ان اصحاب المكتبات الباريسيين قد دافعوا عن أنفسهم ؛ ولكن بينما كان النشر الفرنسي يجتاز هذه الازمة ، كان النشر الهولندي ينتظم ويتسع ؛ لقد رأينا كيف أصبحت امستردام ، منذ نهاية القرن السادس عشر ، أكبر مركز للنشر باللغة الفرنسية بعد باريس . كان رجال الطباعة الهولنديون مقيمين بعيدا عن متناول الشرطة الملكية ، الامر الذي كان يمكنهم من العمل بكل طمأنينة على تزييف الكتب المطبوعة في فرنسا وتقليدها ، ثم ادخال الطبعات المزيفة هذه الى باريس دون صعوبة تذكر . كذلك كان باستطاعتهم ايضا القيام بحرية تامة بطباعة الكتب المحظورة في فرنسا وادخالها الى هذا البلد دون اية مجازفة شخصية ، نظرا لعدم وجود تشريع دولي فيما يتعلق بامتياز النشر .

٦ ــ الرقابة والكتب الممنوعة

وهكذا ادى تنظيم النشر ، أو بالاحرى تنظيمه الناقص ، من القرن الخامس عشر حتى الثامن عشر ، الى مضاعفة التقليد والتزييف بصورة مستمرة ، كما ادى بالتالي الى توسع التجارة السرية للكتاب . كذلك ساهمت قسوة الرقابة مع العجز التقليدي للشرطة فيما يتعلق بنشر الافكار ، في جعل تجارة الكتاب نوعا من النشاط السري في أغلب الاحيان.

لعبت الكنيسة الكاثوليكية في هذا المجال ، وخاصة في البداية ، دورا اساسيا . فعندما ظهرت الطباعة ، صفّق لها الكثيرون من رجال الدين، مرحبين بهذا الاختراع الجديد، كما ساعدوا على اقامة الورشات الطباعية. الا أنه كان لا بد للكنيسة ، حامية العقيدة الدينية وحارسها الامين ، من الحيلولة دون نشر المؤلفات المتسمة بطابع الهرطقة أو الزندقة ؛ لذلك رأينا ، في القرون الوسطى ، نصوصا كثيرة حظرت قراءتها ونسخها او بيعها . وهكذا ، وخاصة عندما بدأت حركة الاصلاح الديني تطفو على السطح ، ما لبث القلق ان راود السلطات الكهنوتية عندما رأت المطابع تعمل في خدمة الافكار الجديدة المنحرفة ، مما جعلها تسارع بالضرورة الى وضع حد لطباعة الكتب السيئة . ولهذا السبب بالذات ، قام البابا في عام ١٤٧٥ بمنح جامعة كولونيا امتيازا يخولها حق فرض الرقابة على أرباب الطباعة والناشرين والمؤلفين وحتى قراء الكتب الضارّة . في عام ١٤٨٦ ، قام (بيرتولد) ، أسقف مايانس (رغم تحمسه الشديد للفن الجديد) ، واستنادا الى قرار من البابا (Innocent VIII) ، بتكليف اثنين من رهبان الكاتدرائية مع اثنين من الدكاترة بدراسة الكتب ومراقبتها؛ وفي عام ١٤٩٦ ، منع تحت طائلة الحرمان ، اصدار اي كتاب لم توافق عليه السلطة الاسقفية . الا انه في عام ١٤٩١ ، وفي ايطاليا ، قام (نيقولو فرانكو) ، أسقف تريفيز والممثل البابوي في فينيسيا ، باصدار دستور يمنع طباعة اي مؤلف يتعلق بالايمان او بسلطة الكنيسة الا بموافقة الاسقف أو القس العام للابرشية ؛ كما ادينت في الوقت نفسه « ابحاث

انطونيو روزيللي » عن الملكيـــة وكتـــابات « Pic de La Mirandole »
ولم يبرا هذا الاخير من تهمة الهرطقة الا بعد ذلك بست سنوات .

في القرن السادس عشر ، استمرت مداخلات الكنيسة فيما يتعلق بالمراقبة والحظر في التزايد . فمنذ عام ١٥٠١ ، اقرّ (الكسندر السادس) في المانيا الحظر الوقائي الذي يمنع طباعة اي كتاب دون موافقة الكنيسة، كما يكلف الاساقفة « الناخبين » الثلاثة ، مع أسقف (ماغدوبورغ) ، باجراء وممارسة الرقابة اللازمة . وفي عام ١٥١٥ ، أصدر (ليـــون العاشر) في مجلس (لاتران) ، امرا يمنع طباعة أي كتاب دون موافقـــة السلطات الكنسية : الممثلة في روما بالقس الحبري أو « سيد القصر المقدس » ، وفي المناطق الاخرى بالاسقف او المفتش العام او من يفوضاهم .

من العبث ، بل من المستحيل المضي في تعداد القرارات المماثلةوالادانات التي تضاعفت في القرن السادس عشر بشكل لا يصدق . لذلك نكتفي بالقول أن عدد الكتب الممنوعة قد بدا يزداد منذ ذلك الحين بوتيرة أصبح من الضروري معها القيام باستمرار بتجميع العديد من الفهارس التي تحصي اهم الكتب المحرّمة . ولكن السلطات الكنسية لم تكن تستطيع عمل شيء فيما يتعلق بأمن الكتب دون مساعدة السلطات المدنية . ولم يكن باستطاعة السلطات المدنية هذه عدم الاهتمام بهذه المسائل ، خاصة وانه كان يهمها أساسا منع المؤلفات المعادية للأمير أو الحكومة .

قد يكون الامبراطور هو اول من رأى ضرورة التدخل ، حيث قام بصورة مبكرة جدا ، منذ مطلع القرن السادس عشر ، بتعيين (جــاك أوسلر) ، من مدينة ستراسبورغ ، رقيبا ومشرفا عاما على المطابع في الامبراطورية المقدسة ؛ ثم ما لبث أن كلف لجنة امبراطورية بالاهتمام بمسائل الرقابة وملاحقة الكتب السيئة . وقد حاولت هذه اللجنة ، بعد انتقالها الى أيدي اليسوعيين في نهاية القرن السادس عشر ، أن تعرقل تجارة أصحاب المكتبات البروتستانت في معارض فرانكفورت ولكن على الرغم من هذه الجهود ، فقد ظلت سلطة الامبراطور ، فيما يتعلق

بالرقابة ، كبيرة جدا : حيث كان الامراء الالمان يهتمون بأمن الكتاب في مجالاتهم الخاصة ؛ كما كان عدد كبير منهم خصوما للشرطة الامبراطورية والكنيسة الكاثوليكية ؛ وقد كان من اهم نتائج قسوة الشرطة الامبراطورية وتشددها ، تمهيد السبيل أمام تطور معارض لايبزيغ ، هذه المدينة الواقعة في الارض الساكسونية ، على حساب معارض فرانكفورت .

الا أن الامور لم تكن كذلك تماما في فرنسا : فخلال النصف الاول من القرن ، وبينما كانت جامعة السوربون والبرلمان يشددان قبضة الرقابة والحظر والملاحقات ، اصبح الملك يتدخل اكثر فأكثر وبصورة مباشرة فيما يتغلق بأمن الكتاب . وقد سمح له القرار الذي اتخذه عام ١٥٦٣ ، والقاضي بعدم السماح بطباعة اي كتاب الا بعد منحه امتيازا خاصا ، بأن يضع يده من الآن فصاعدا على اي اصدار جديد ، لان الامتيازات لم تكن تمنح بطبيعة الحال الا بعد موافقة رجال الرقابة الذين كانوا في البداية من أساتذة « السوربون » ، ثم اصبحوا من العلمانيين في القرن السابع عشر . لقد طبق هذا الاسلوب معظم امراء أوروبا ، مما سمح لهم بمراقبة الانتاج الطباعي تحت ستار الاحتكارات التجارية . ولكن على الرغم من كافة هذه الجهود ، لم يتوقف ابدا تداول « الكتب السيئة » . وسنرى فيما بعد كيف استمر رجال الطباعة الفرنسيون غالبا ، وطوال فترة « عصر النهضة » ، في تقديم كتب الهرطقة والالحاد ، بينما اقيمت على أبواب المملكة مطابع هامة تخصصت في هذا النوع من الكتب . أما خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، فقد استمر تداول الكتب الممنوعة في كل مكان وبنفس الدرجة من السهولة . وقد تعددت الكتب المعرضة للملاحقة حتى بلغت حدا أصبح معه اكثر الكتبيين احتراما للقوانين يتوقعون الملاحقة بصورة دائمة ، متقبلين هذا الوضع بصورة طبيعية ، خاصة وأن دخول السجن لمثل هذه الاسباب لم يعد معيبا على الاطلاق . أصبح الوضع في فرنسا خطيرا عندما شرع (كولبير) في تشكيل شرطة فعالة تساعده على التحكم بالطباعة على هواه . عندئذ أصبحت العقوبات أشد قسوة . ولم يتردد (كولبير) ، لوضع حد للتزييف ولانتشار الكتب الممنوعة ، في الحد من عدد رجال الطباعة وتدمير الطباعة،

والنشر في المدن الفرنسية الاخرى عدا العاصمة . كان (كولبير) قلقا من دخول الكتب الاجنبية الى فرنسا ، وخاصة الهولندية منها ، المطبوعة بمنأى عن رقابة شرطته والمعادية غالبا للديانة الكاثوليكية وللملكية ؛ لذلك فكر في منع دخول الكتب الهولندية الى فرنسا ؛ ولم يمنعه من تنفيذ فكرته هذه سوى السلطة الكهنوتية التي اثبتت له أن من بين هذه الكتب مؤلفات صالحة جدا لا يمكن للعلماء أن يستغنوا عنها في عملهم .

بينما كان الضعف يتسرب الى النشر الفرنسي الذي ما لبث أن وجد نفسه في ظروف اقتصادية صعبة ، اخذ المزيفون وناشروا الكتب الممنوعة يستغلون هذا الفراغ الحاصل . وقد كان من السهل عليهم ادخال كتاباتهم الى فرنسا ، وحتى الى السجون أحيانا ، حيث يقيم المعتقلون البروتستانت . وهكذا بدأت « الشبكات » السرية تتشكل في كل مكان تقريبا ، حتى أن رؤساء النقابات المكلفين بمراقبة الطرود « البالات » القادمة من الخارج ، كانوا يشاركون سرا في اعمال التهريب تلك ، ولا يتخذون الاجراءات الزجرية أو القمعية الا مزغمين . وكيف كان من الممكن آنذاك بشكل خاص ، مكافحة تهريب الكتب ، تلك الاغراض الصغيرة التي يسهل اخفاؤها ؟ لذلك نجد أن النتيجة الرئيسية التي نجمت عن تشديد الرقابة الملكية في القرن الثامن عشر ، كانت التشجيع على اقامة سلسلة من المطابع المحيطة بفرنسا ، حيث يمكن دون مخاطرة اصدار الطبعات المزورة والكتب الممنوعة . هناك أيضا تمت طباعة الاعمال الرئيسية للفلاسفة . وقد كان يحدث احيانا ان يفاجأ رئيس القضاة بأن سائقه الخاص قد أدخل الى عربته الخاصة الكتب الممنوعة في باريس . الا أنه مع ظهور « Malesherbes » قريبا ، سوف تسعى السلطات المكلفة بالرقابة لتخفيف وطأة النظام واعطائه شيئا من المرونة عن طريق الاجازات الضمنية وغيرها من التسهيلات : وهذا دليل قاطع على فشل الرقابة بمفهومها آنذاك .

الفصل الثامن

الكتـــاب كخمـــيرة

في نهاية هذه الدراسة ، سنحاول الخروج بحصيلة اجمالية ، مع قياس الشوط الذي قطعناه ، مسجلين بذلك ما قدمته الطباعة الى رجال القرن الخامس عشر الموشك على الانتهاء وبداية القرن السادس عشر . لذلك سنحاول جاهدين ، أثناء دراستنا للانتاج الطباعي في القرن الذي تلي ظهور الطباعة ، أن نشير الى الدور الذي لعبته التقنية الجديدة في الانقلابات التي حصلت في عهد « النهضة » و « الاصلاح الديني » .

١ ـ من المخطوطة الى الكتاب المطبوع

خلال القرون التي سبقت الطباعة ، رأينا آنفا أن المكلفين بنسخ الكتب من جديد قد عرفوا كيف يكيفون انتاجهم بشكل يستطيع معه تلبيـة احتياجات جديدة . ففي النصف الاول من القرن الخامس عشر ، كانت الورشات منتشرة في كل مكان تقريبا ، حيث كان يعاد نسخ المخطوطات الاكثر رواجا بالعشرات بل بالمئات : ككتب الساعة أو التقوى بالاضافـة الى مؤلفات التعليم الاولي . لذلك يمكن القول بأنه من المحتمل أن يكون معاصروا (غوتنبرغ) لم يروا في الانتاج الميكانيكي للنصوص الا تجديدا تقنيا مناسبا ، يفيد خاصة في مضاعفة النصوص الدارجة .

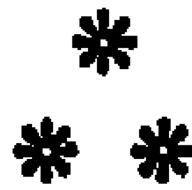
الا انه ما لبثت أن تكشفت الامكانيات التي يمكن أن يقدمها هـذا الاسلوب الجديد وتأثيراته الهائلة . اذ ان الطباعة قد أدت بسرعة كبيرة الى جعل النصوص في متناول عدد اكبر من الجماهير ، كما امنت لها قوة

توغل واختراق لا تقارن مع قوة المخطوطات أبدا . ويكفي هنا الاستشهاد ببعض الارقام التي تثبت اتساع هذه الحركة : هناك ٣٠ ــ ٣٥٠٠٠ طبعة مختلفة منفذة بين عامي ١٤٥٠ ــ ١٥٠٠ ، وصلت الينا ، تمثل ما يقرب من ١٠ ــ ١٥٫٠٠٠ من النصوص المختلفة . وقد يرتفع هذا الرقم كثيرا اذا اخذنا بعين الاعتبار الطبعات المختفية . أما اذا أخذنا الرقم / ٥٠٠ / كمعدل وسطي للسحب ، نصل الى ما يقرب من عشرين مليـــون نسخة مطبوعة قبل عام ١٥٠٠ . وهو رقم مرتفع جدا ، حتى بالنسبة لنا نحن رجال القرن العشرين . ومما يزيد في أهمية هذا الرقـــم ،ان كثـــافة السكـــان في أوروبا كانت أقـــل مما هي عليه اليـــوم بكثير : اذ من المؤكد أنه كان هناك أقل من مئة مليون نسمة في البلدان التي انتشرت فيها الطباعة ، كما كان الذين يعرفون القراءة قلّة ضئيلة .

وهكذا يمكن اعتبار ذلك اذن انقلابا سريعا نسبيا : فكيف اذن ستكون النتائج ؟ ما هي الكتب المطبوعة التي سيطلبها الجمهور من أصحاب المطابع والمكتبات ؟ الى أي مدى ستؤمن الطباعة انتشارا أوسع لنصوص القرون الوسطى التقليدية ؟ وما الذي ستحتفظ به من تراث القرون الوسطى هذه ؟ ثم الن تقوم الطباعة بتشجيع تطور أدب جديد ، بعد أن تسببت في حدوث انقطاع في العتاد المستخدم للعمل الفكري ؟ أم انها على العكس من ذلك ، ستؤدي ، في البداية على الاقل ، الى مضاعفة عدد نصوص القرون الوسطى التقليدية ، مؤمنة لها ، لبضع عشرات من السنين ، بقاءا غير مأمول كما كتب (ميشليه) ؟ هذه هي الاسئلة التي نجد من المناسب أن نجيب عليها الآن .

هناك أولا واقع يجب الا يغرب عن بالنا ابدا : فمنذ البداية ، كان أصحاب المطابع والمكتبات يعملون بقصد الربح بصورة أساسية . وان قصة كل من (فوست) و (شوفر) تؤكد ذلك بما فيه الكفاية . كان أصحاب المكتبات في القرن الخامس عشر ، كالناشرين الحاليين تماما ، لا يقبلون بتمويل طباعة كتاب ما ، الا اذا كانوا متأكدين من امكانيةتصريف عدد كاف من النسخ خلال فترة معقولة من الزمن . لذلك لا نستغرب اذن اذا كان التأثير شبه المباشر لظهور الطباعة هو زيادة انتشار النصوص

التي لاقت نجاحا كبيرا كمخطوطات ، مع طيّ الاخـرى غالبا في عـالم النسيان . وهكذا استطاعت الطباعة اخراج هذه النصوص بالمئـات ، وقريبا بآلاف النسخ ، منجزة بذلك عمل توسيع واصطفاء في آن واحد . ان هذا سيساعدنا على أن نفهم بصورة أفضل طبيعة الانتاج الطبـاعي في القرن الخامس عشر .



لنبدأ أولا ببعض الارقام التي تعطينا دلالات عامة : ففي كتلة الكتب المطبوعة قبل عام ١٥٠٠ ، والمصطلح على تسميتها « بالطبعات الاستهلالية » ، نجد نسبة هائلة من الكتب باللاتينية : ٧٧٪ من المجموع تقريبا ؛ ثم حوالي ٧٪ من الكتب بالايطالية ، ٥ ــ ٦٪ بالالمانية ، ٤ ــ ٥٪ بالفرنسية وأكثر من ١٪ بقليل بالفلمندية .

من بين هذه المؤلفات ، نجد أن النصوص الدينية هي الغالبة بطبيعة الحال : ٤٥٪ من المجموع . بعد ذلك تأتي الكتب ذات الطابع الادبي ، الكلاسيكية ، والعائدة للقرون الوسطى فالمعاصرة : أكثر من ٣٠٪ بقليل ؛ ثم تأتي كتب الحقوق (أكثر من ١٠٪ بقليل) فالكتب ذات الطابع العلمي (حوالي ١٠٪) .

وهكذا نجد أن الاغلبية تكاد تكون من الكتب الدينية مع عدد كبـير من طبعات الكتاب المقدس بطبيعة الحال . واية طبعات كان بامكانها أن تكون أكثر ربحا من هذه في فترة كان معظم القراء فيها من الكهنة ؟ وليس من قبيل المصادفة بالتأكيد ، أن نجد بين أولى الانجازات الكبرى للطباعة كتابين للتوراة ، احدهما بـ ٤٢ سطرا والآخر بـ ٣٦ سطرا . كذلك نجد طبعات عديدة للتوراة طيلة القرن الخامس عشر : حيث احصى منهـا (هاين) ١٠٩ باللاتينية ، بينما عدّد (كوبنجر) ١٢٤ ، مع أو بدون تعليقات وشروح لكل من (والافريدوس سترابو) ، (رابان مور) ، (الكوين) أو (أنسيلم دي لاون) . علاوة على هذه الطبعات اللاتينية ، المعدّة خصيصا للكهنة والدراسات الجامعية ، كانت هناك أيضا الترجمات

التقليدية للتوراة الكاملة : ١١ بالالمانية ؛ ٣ بالالمانية العامية ، ٤ بالايطالية، واحدة بالفرنسية واخرى بالاسبانية والفلمندية او التشيكية ؛ بغض النظر عن الترجمات الجزئية التي كانت اكثر عددا ايضا ، وخاصة فيما يتعلق « برؤيا القديس يوحنا » و « المزامير » أو « كتاب جوب » .

بالتوازي مع النصوص المقدسة : كانت هناك اعداد اكبر بكثير من الكتب التي لا بد منها للقيام بالمراسيم والطقوس والصلوات من قبل الرهبان والعلمانيين ، والتي يستحيل حصرها بشكل صحيح لان اكبر نسبة للكتب المنقرضة كانت من هذه المؤلفات بالذات . على كل ، كانت هناك ولا شك كمية هائلة من كتب الصلوات والقداس : او ليس من اجل طباعة مثل هذه المؤلفات ، كان يتم استدعاء رجال الطباعة غالبا من قبل رجال الكنيسة الى المدن التي لم تكن فيها اية مطبعة ؟ واكثر من ذلك ايضا كانت كتب الساعات التي كان العلمانيون ، من كبار السادة أو البورجوازيين ، يجدون فيها نصوص الصلوات اليومية . لذلك نجد ان كتب الساعات هذه ، التي كانت منذ أيام المخطوطات موضع الكثير من أعمال النسخ والزخرفة ، قد امتصت ، منذ القرن الخامس عشر ، نشاط عدد كبير من المطابع ؛ وسنلاحظ ان هذا النشاط قد ازداد أيضا خلال القرن السادس عشر .

أما عدد الطبعات « الكلاسيكية » الكبرى عن الفلسفة واللاهوت في القرون الوسطى ، فكان يبدو أقل من ذلك بكثير ، لانها كانت تتوجه الى جمهور محدود ؛ الا أن هذا الجمهور ، جمهور أساتذة وطلاب الجامعات، كان هاما نسبيا : عدة آلاف من الطلاب في باريس ، وحتى في كولونيا ، على سبيل المثال ؛ من اجل هؤلاء ، كان الناشرون يعمدون الى اصدار المؤلفات الواردة في المنهاج وكذلك التي كانت تشكل أدوات العمل التي لا بد منها للدراسات : فعلاوة على التوراة وما يلزم لشرح الكتب المقدسة، كانت هناك « حكم » (بيير لومبارد) وكبار شارحيه والمعلقين عليه من امثال « سكوت » و « اوكهام » و « بوريدان » و « سان توماس » . ومما له دلالته ، ان هؤلاء الناشرين لم يكونوا يقيمون في المراكز الجامعية الكبرى،

بل في المدن التجارية الكبرى ، كمدينة بال وفينيسيا ونورمبرغ ، حيث يسهل عليهم ان يرسلوا الى كافة انحاء اوروبا الابحاث الثقيلة التي قاموا بطباعتها على التو ، مما يسمح لهم بتصريف اسهل للطبعات التي يصدرونها . وهكذا نجد أنه من بين الطبعات الستة عشر التي صدرت عن « حكم » (بيير لومبارد) قبل عام ١٥٠٠ ، كانت هناك ثمانية على الاقل ظهرت في مدينة (بال) ، منها سبعة صدرت من مطبعة (كيسلر) بينما لم تصدر اية واحدة في باريس رغم كونها مركزا لاكبر جامعة في ذلك العصر . كذلك نجد ان طبعات (ارسطو) قد صدرت بشكل خاص في كل من فينيسيا واوغسبورغ وكولونيا ولايبزيغ . الا انه في الوقت الذي لم تصدر فيه سوى اعداد محدودة عن بعض هذه النصوص الكبرى، نجد ان مجموعات منتخبات القرون الوسطى (المصممة غالبا على شكل مفردات او معاجم) ، قد لاقت نجاحا اكبر . ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك كتاب «الدواء لكل داء» لجيو فاني بالبي، وكتاب « Mammetractus » لجيو فاني مارشيسيني ، و « قصة مفتش المدارس الاسقفية » لبيير كومستور .

ها هي أيضا كتب التقوى والتدين التي لاقت تجاوبا ورواجا أوسع مما عرفته النصوص اللاهوتية ؛ من بين هذه الكتب نجد خاصة الكتابات الصوفية التي تمثل وحدها أكثر من سدس الانتاج الطباعي . لذلك يعتبر كتاب « تقليد المسيح » مع التوراة اكثر كتاب طبع حتى يومنا هذا . أما من بين « آباء الكنيسة » ، فقد كان الاقبال على طباعة الكتابات ذات الطابع الصوفي أشد منه على المؤلفات العقائدية : فقد طبع لـ «سان ــ أوغوستين» كتابه الشهير (مدينة الاله) بالاضافة الى مؤلفات أخرى كانت تنسب اليه ، مثل « التأملات » ، « مناجاة النفس » ، وكذلك « احاديث النفس مع الله » ؛ أما بالنسبة لـ (سان ــ بيرنار) ، فقد كانت تطبع غالبا أيضا الاعمال الصوفية التي تختلط بها كتابات كثيرة مزيفة ؛ وأما بالنسبة لـ (سان ــ بونافونتور) ، فقد طبعت « تأملات في حياة السيد المسيح » مع سلسلة من مؤلفات من هذا النوع تنسب تقليديا الى « الدكتور

سيرافيك » . كذلك كان اقبال رجال الطباعة على طباعة واعادة طباعة الابحاث الصوفية الصغيرة لكل من (جيرسون) و (بيير دللي) اشـد منه على المؤلفات العقائدية . وفي الوقـت نفسه ، بدات تتكاثر طبعات كل من (فيوريتي) و (سان فرانسوا دسيز) ، وكذلك كتاب « التمعن في العناية الالهية » أو « Libro della Divinae Providenza » لكاترين دي سيان ، علاوة على « الرؤى » أو التجلي لسانت بريجيت ، وذلك بغض النظر عن الكتابات الاكثر رواجا أيضا لبعض المؤلفين الروحانيين الجرمانيين الذين تركوا تأثيرهم على أجيال كثيرة : ويمكن ان نذكر على سبيل المثال « مرآة الكمال » لهنري دي هارب ، و « ساعة الحكمة الازلية » لهنري سوزو ، ومؤلفات كثيرة غيرهما . . .

يعزى نجاح هذه النصوص بهذا الشكل الى كونها تتوجه ، ليس فقط الى خريجي الجامعات ، بل كذلك الى الرهبان البسطاء ، وحتى الى العلمانيين الاتقياء ، الذين تصدر من أجلهم طبعات خاصة باللغة العامية . الا أن عددا كبيرا من المؤلفات المعدة خصيصا لرجال الدين ، كانت تصدر بشكل طبعات متعددة جدا . اما من اجل الرهبان ، فكانت تصدر ابحاث موحية : ككتاب « رسالة عن بؤس كهنة الرعايا » (٢٥ طبعة ذكرهـا « Peddie ») أو « راتب كهنة الرعايا » لـ (غي دي مونروشيه) ذات العنوان الموحي ايضا ، التي طبعت حوالي مئة مرة (٩٨ طبعة ذكرهـا « Peddie ») كما كثرت ايضا المؤلفات ذات الطابع النفعي المعدة لرجال الكهنوت : كمجموعة المواعظ التي كانت واسعـة الانتشار على شكـل مخطوطات ، ودليل النجي ككتاب « Confessionale » الذي ينسب عادة الى (سان انطونين) ، الذي اعيدت طباعته مئات المرات ، و « طريقـة الاعتراف » لـ (اندريا ايسكوبار) الذي لاقى نفس الحظ من النجاح ، و « الصوم الاربعيني » لـ (غريتش) ، الواعظ الذي كان يزين مواعظه بالحكايات (٣١ طبعة ذكرها « Peddie ») وكذلك مؤلفات (جوهان نيـدر) .

وهكذا ظهر نوع جديد من الادب في آن واحد ، يهدف الى تغذيـة

الورع الشعبي . في هذه الفتـرة التي كان يتوسع فيها تقـديس مريم العذراء ، بدات تظهر اعداد كبيرة من المؤلفات التي تطبع وتعاد طباعتها مرات ومرات ، والتي تحتفي بالحياة الرائعة والفضائل الكريمة لام السيد المسيح ؛ ويمكن أن نأخذ مثالا على ذلك المؤلفات التالية : « Quodlibeta » لـ (فرانسيسكو دي انسولا) ، أو « حياة السيدة العذراء » لـ (كورنزانو) (١٥ طبعة وفق ما ذكره « Peddie ») . وكذلك كان الامر بالنسبة لحياة القديسين ، حيث يكفي ان نذكر بالنجاح الهائل الذي لاقته « الاسطورة المذهبة » لـ (جاك دي فوراجين) (٨٨ طبعة لاتينية ؛ ١٨ فرنسية ، ٥ انكليزية ، ٢ المانيتين ، ٢ تشيكيتين ، ١٣ فلمندية ، ٦ ايطالية) ، مع العديد من كتب « حياة القديسين » التي ظهرت آنذاك .

واخيرا ، كان هناك الى جانب هذه المؤلفات أبحاث دينية واخلاقية عملية ، منقولة غالبا عن النقوش الخشبية التقليدية ، ومزخرفة في اغلب الاحيان : منها « فن الموت بشكل مناسب » وغيره من الكتب المتعلقـة « بفنون الموت » بكافة اللغات و « الحياة قبل المسيح » أو « حياة المسيح» لـ (لودولف لوشارترو) ، بالاضافة الى كتب التوراة المفسرة أخلاقيـا وغيرها من المؤلفات العديدة المماثلة .

ازاء هذه الكتلة الهائلة ، لا بد من الاستنتاج بأن احد أوائل التاثيرات التي خلفتها الطباعة ، كان تزايد المؤلفات المتعلقة بالورع الشعبي واثبات عمق المشاعر الدينية لدى رجال النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

*

* *

وهكذا نجد ان احدى المهمات الرئيسية للطباعة اثناء خطواتها الاولى، كانت تتضمن جعل التوراة مباشرة في متناول عدد أكبر من القراء ، ليس فقط باللاتينية ، بل كذلك باللغات العامية ؛ تقديم الابحاث الهامة الكبرى من الترسانة المدرسية التقليدية الى طلاب الجامعات واساتذتها ؛ زيادة انتاج كتب الاستعمالات اليومية وكتب القداس والساعات الضرورية

للاحتفالات والمراسيم الدينية والصلاة اليوميه والمؤلفات الصوفية وسب الورع الشعبي ، وجعل قراءة هذه المؤلفات في متناول أوسع الجماهير .

ساهمت الطباعة ايضا في تحقيق معرفة افضل واصح للغة اللاتينية ولمؤلفي العهود القديمة . ففي الوقت الذي ظهرت فيه الطباعة ، كانت امثولات « المذهب الانسي » الايطالي على وشك الانتشار في كافة انحاء أوروبا . وفي كل مكان تقريبا ، وخاصة في ايطاليا ومنذ زمن طويل ، كان حب الاطلاع يتوسع وينمو بالنسبة لكل ما يتعلق بالعهود القديمة وباللغة اللاتينية . وهكذا رأينا رجالا من امثال (غليوم فيشيه) و (جان هينلن)، يعمدون ، دون التخلي عن شيء من الدراسات التقليدية ، الى الاشراف على حلقات دراسية كانت تعقدها جماعات صغيرة من الرجال المولعين بأصول اللغة اللاتينية ؛ وقد لاحظنا أن رغبة هؤلاء الرجال بامتلاك النصوص الصحيحة للمؤلفين القدامى ، وتعريف الناس بها ، هي التي كانت تجعلهم يقدمون دون تردد على تشجيع اقامة الورشات الطباعية المعدة لطباعة هذه النصوص .

وهكذا كان الدور الاساسي للطباعة في هذا المجال ، وحتى السنوات الاخيرة للقرن الخامس عشر ، ليس مجرد نشر النصوص التي تم العثور عليها مؤخرا أو تم تنقيحها وتصحيحها من قبل العلماء الانسيين ، بل كذلك زيادة انتاج الكتابات التي كان رجال القرون الوسطى يدخلون بواسطتها تقليديا في تماس مع الآداب الكلاسيكية .

لذلك فان اول ما يلاحظه المرء هو قيام الطباعة بانتاج عدد هائل من نصوص التدريب على اصول القواعد اللغوية ، وقبل كل شيء (المذهبي) أو « Doctrinal » لالكسندر دي فيلديو وكذلك « في اقسام اللغة اللاتينية الثمانية » لـ (دونا) . وقد وصلتنا اكثر من / ٣٠٠ / طبعة عن كتاب « Doctrinal » لالكسندر دي فيلديو : وهو من اعمال نحويّ (عالم بالصرف والنحو) من القرن الثالث عشر ، استفادت منه اجيال من الطلاب منذ ذلك الحين ؛ انه مؤلَّف من القرون الوسطى كتب بالشعر المصرّع ،

وظل نصه محترما لدرجة كان معها خلفاء (ألكسندر فيلديو) لا يتجرؤون على تحويره أو تعديله ، بل اكتفوا بأن يضيفوا اليه الشروح والتعليقات : انه مؤلف كثيرا ما تناوله الانسيون بالتهكم والتجريح ، ولكن (جوس باد) اعتبره مفيدا لدرجة أصدره مع عدة ملاحق ، كما صنفه (ابراسم) من جهته في عداد المؤلفات « الممكن تحملها » . أما كتاب « Donat » فقد طبع عدة مرات ككتاب الـ «Doctrinal» تماما ، كما اعتبر أول كتاب مطبوع : انه مؤلف تقليدي ايضا لاحد علماء الصرف والنحو من القرن الرابع ، استاذ سان جيروم ، ظلت دراسته مقررة حتى عام ١٣٦٦ في منهاج « الليسانس » ، حيث تعلم من الاصل كافة تلامذة القرون الوسطى.

اضف الى ذلك أن المؤلفين الكلاسيكيين اللاتينيين الذين لاقوا أكبر قسط من النجاح ، ظلوا بالتاكيد هم الاكثر رواجا في القرون الوسطى ، وهم الذين كانوا موضع أكثر الدراسات والتعديلات والترجمات باللغة العامية . من هؤلاء يمكن أن نذكر بشكل خاص اصحاب العديد من « Ysopet - Catonet » الذين أوحوا بالكثير من نصوص القرون الوسطى ، Esope و Caton . في اعمال هذين المؤلفين استطاع معظم التلاميذ قراءة الاعمال الكلاسيكية اللاتينية : بعد الانتهاء من دراسة المنطق وقبل الولوج في دراسة العلوم الاخلاقية. وقد ظلت معرفة اعمال (Caton) تعتبر هامة في عام ١٥٠٣ ، حتى أن رئيس جامعة باريس استنكر مستغربا عدم معرفة المتخرجين الجدد لهذا المؤلف في حال جهلهم لارسطو . اذا كان الطلاب يجهلون هذه الابيات الزوجية من الشعر ، التي قدم (ايراسم) عنها طبعة مشروحة ، فان ذلك لا يرجع الى فقدان النشرات المطبوعة : فحتى عام ١٥٠٠ ، عرف منها ما لا يقل عن ٦٩ طبعة باللاتينية ، ٣٦ بالالمانية واللاتينية ، ٩ بالايطالية واللاتينية ، ٢ بالاسبانية واللاتينية ، وذلك بغض النظر عن الطبعات الصادرة باللغة العامية : واحدة بالفلمندية، تسعة بالفرنسية وثلاثة بالالمانية . اما « حكايات » Esope ، فقد لاقت نفس الدرجة من الرواج : قبل عام ١٥٠٠ ، نجد اكثر من ٨٠ طبعة لاتينية (طبع معظمها في ايطاليا) ، ١٥ ايطالية ـــ لاتينية ، ١ يونانية

و ١ يونانية ـ لاتينية ، ١٥ بالالمانية والالمانية العامية ، ٧ بالفرنسية ، ١ تشيكية ، ٣ انكليزية و ٢ بالفلمندية ؛ كان معظم هذه الأخيرة مزخرفا بالصور ومعدا لجمهور بورجوازي ولا ريب .

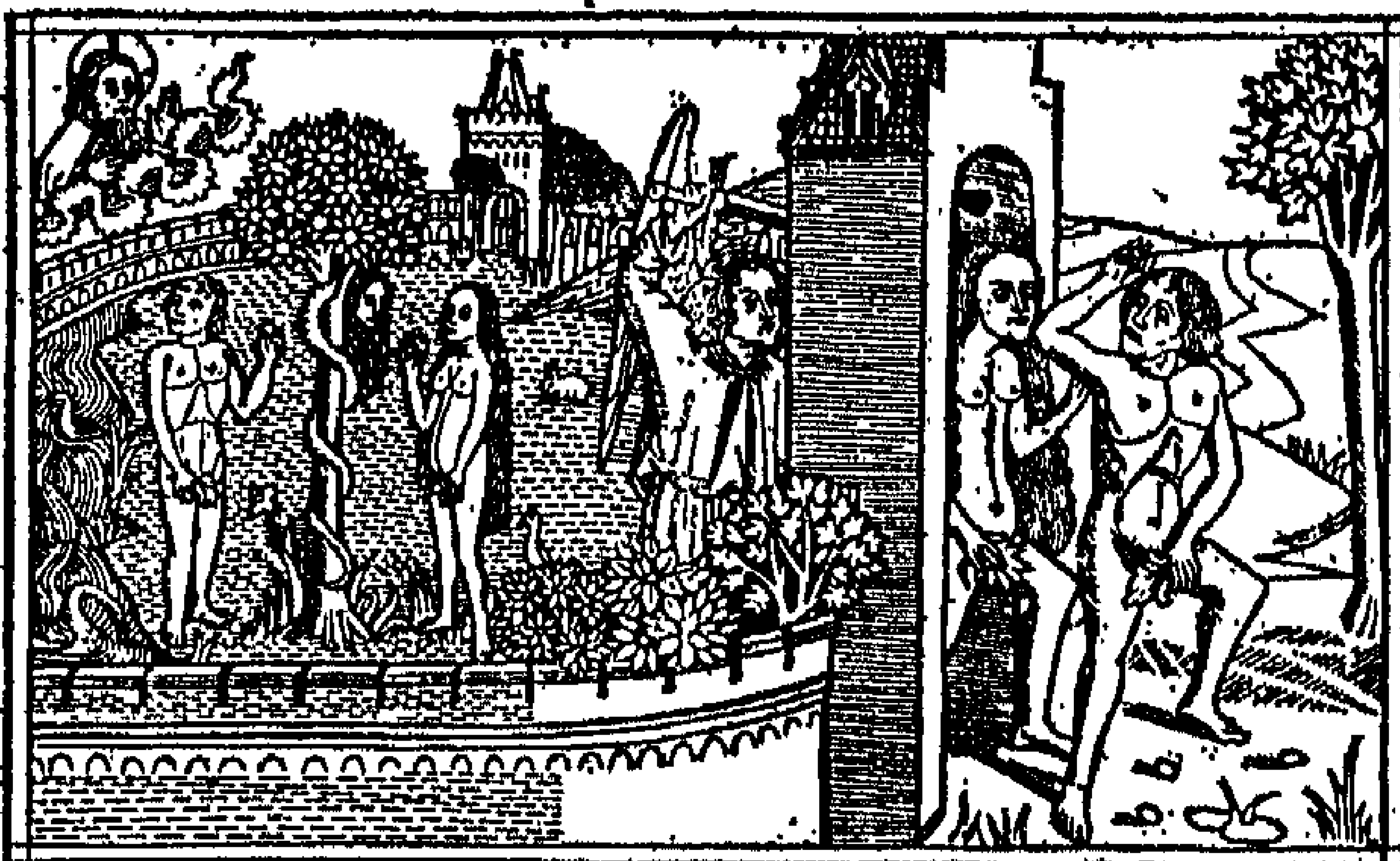
وهكذا ، عند ظهور الطباعة ، نجد الناس يتابعون التطرق الى الدراسات اللاتينية في النصوص التقليدية المعروفة ، مما دفع بأرباب الطباعة الى البدء بزيادة انتاج هذه النصوص بالذات : كأعمال (Esope) و (Caton) ، بالاضافة الى « Auctores octo » وهو مؤلف صغير يستعمل في المدارس بصورة دائمة ، كانت ورشات الخطاطين والنساخين تعمل على انتاجه بالمئات ، كما لاحظنا ، والذي كان يتضمن ، علاوة على اشعار (Caton) وحكايات (Esope) ، نصوصا اخرى من القرون الوسطى أيضا: Tobias Floretus ,, Facetus , Theodolus (ماثيو دي فندوم) و Paraboles (الين دي ليل) ، بالاضافة الى بحث بأبيات مقفاة من الشعر باللغة اللاتينية ، « في ازدراء العالم » . انه العهد الذي نجد فيه مؤلف (Boèce) ، « في سلوى الفلاسفة » ، يحافظ على رواجه الهائل (أكثر من ٧٠ اعادة طباعة قبل عام ١٥٠٠) ، لان (Boèce) كان يمثل همزة الوصل بين العهد القديم والفكر في القرون الوسطى ، وذلك في نظر الاغلبية الساحقة من رجال الدراسة عند نهاية القرن الخامس عشر ، وحتى في نظر أسلافهم ومنذ قرون .

*

* *

في الحقيقة ، تعلم الناس اللغة اللاتينية الجميلة آنذاك وقبل كل شيء ، عن طريق قراءة « آباء » القرون الاولى : سان جيروم ، لكتانس ، وخاصة سان أوغوستين ، الذين لاقوا رواجا هائلا لهذا السبب بالذات جزئيا على اغلب الظن . كما تعلموا التعمق بها عن طريق قراءة المؤلفين الكلاسيكيين اللاتينيين الذين كانت القرون الوسطى أفضل من عرفهم ونسخ أعمالهم وترجمها وكيفها . من بين المؤلفين القدامى ، الذين طبعت أعمالهم كثيرا قبل عام ١٥٠٠ ، (فيرجيل) خاصة الذي صدرت عنه

ende alle vogell des hemels ende alle dyer der erden met adams en waert niet gevonden eyn hulpe eme ghelyck. darumb got de here sande einen slaep in adam. Ende do hy intslapen was do nam hy ein van sinen ribben ende vervulde vleys vor se ende got de here de makede de ribbe de hy had ghenoemen van adam in ein wiff ende brachte se to adam. ende adam sprak, dat is nv ein been van mynen beynen en vleys van mynen vleysche dese wert genoemet ein manninne want se is ghenomen van den manne vmb dese dinghe lest dye man vader ende moeder ende wert anhanghen sinen wiue. ende sullen twe sin in einen vleysche. sunder se waren beyde naket Adam ende sin huisfrouwe. ende se en schemeden sich niet



¶ Dat derde Capitell. wo de slanghe Euen bedroch ende Eua adam ende verdreff se got vyt den paradyse ende vermaledyede dye erde dor er werck.

Unde dye slange was lystyger aller levendyger creaturen der erden de got de here hadde ghemaket de sprack toe den wiue. Warumme heft uw got verbaeden dat ghy niet en eten van einen ygheliken holte des paradyses dat wiff antwoorde wy eten van der vrocht der holter dye dar sin in dem. sonder van der vrocht des holtes dat dar is in den myddell des paradyses heft vns got geboden dat wy dar van niet eten off ruren. vp dat wy niet en sterven Ende de slange sprack to den wiue gy en wert gy sterven des dodes want got dye weet an wellichen dage gy eten van em er uwe ogen werden vpgedan ende gy werdet also de gade. wetende dat gude en de quade. darumb do dat wiff sach dat holt dat et guet was to eten ende schoen den ogen ende genoechelyck aen to sien Sy nam van sin er vrocht ende at ende gaff de em manne. hy at ende worden erer beyder oghen vpghedan

Ende do se sich bekanden dat se naket waren. do bonden se sich to samen dye louer der vygenbome ende makeden sich vmbhenge en bedecketen sich ende do se hadden gehoert de stymme des heren gades gan in den paradise an den siden des paradyses tusschen suden ende westen na myddages siden Do verbarch sich Adam ende sin huisfrouwe in dat myddel des paradises van den anghesichte des heren gades. ende got dye here riep adam ende sprack to em. wo bystu hy sprack here ich hoerde din stymme in den paradyse. ende ich vruchtede my darumb. dat ik naket was ende verhoedde my God de here sprack to em wye heft dy gesacht dat du naket werest dan allene dattu hefst gheten van den holte dat ich dy ghebot niet to eten Ende Adam sprack dat wiff dattu my gegheuen hefst toe einer ghesellinnen de gaff my van den holte en ich ath. De here sprack toe den wiue. warumme heuestu dat ghedaen? Sy antwoorde de slanghe heft my bedraghen. ende ich ath ende got de here sprack to der slange Darumb dattu hefst ghedan dese dinghe du bist vermaledyet vnder allen leuendygen creaturen

أعداد كبيرة من الطبعات ، التي صدرت في ايطاليا غالبا ولصالح المثقفين ، علاوة على الترجمات العديدة باللغة العامية . على غرار (فيرجيل) ، كان هناك أيضا (أوفيد) ، الذي كان يعتبر أيضا من المؤلفين الكلاسيكيين في القرون الوسطى ، والذي كانت الطباعة ، استمرارا منها في عمل النساخين ، تصدر عنه أعدادا كبيرة من الطبعات العلمية ، بالاضافة الى الترجمات الشعرية والطبعات المعدلة المصورة : وقد صدرت عنه طبعات عديدة من هذا النوع أيضا في القرن السادس عشر وحتى خلال السابع عشر .

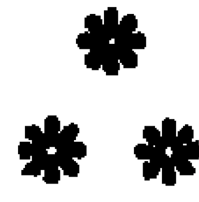
الى جانب هذين الشاعرين ، يمكن ذكر « جوفينال » (٦١ طبعة عن كتاباته الهجائية كشف عنها « هاين ») ، وكذلك « بيرس » (٣٣ طبعة)، « لوسيان » (١٩) ، « بلوت » (١٣) ، بالاضافة الى « تيرانس » ، الذي لقي تكريما خاصا في القرون الوسطى ، والذي قلدت مسرحياته الهزلية مرات عديدة في القرنين السادس عشر والسابع عشر (٦٧ طبعة) . أما من بين المؤرخين ، فيمكن ان نذكر أخيرا « سلوست » (ذكر « هاين » ٥٧ من أعماله) ، و « تيت ـ ليف » الذي لخصت أعماله وعدلت عدة مرات في القرون الوسطى (٢٣ طبعة ذكرها « هاين » بدون الخلاصات)، وكذلك « فيجاس » (٩٩ طبعة ذكرها « هاين ») ، و « سيزار » (١٦ طبعة) وغيرهم ...

أما من بين الفلاسفة ، فنجد أن (سينيك) يلاقي نجاحا كبيرا (٧١ طبعة ذكرها له « هاين ») . الا أن الذي يعبر أكثر من سواه عن روح جديدة في هذا الانتاج : هي الشعبية الهائلة التي حظيت بها مؤلفات (شيشرون) ، الذي تعتبر أعماله الكلاسيكية أغزر الاعمال طباعة في القرن الخامس عشر (وذلك ليس فقط بالنسبة لكتاباته الفلسفية وحدها، بل كذلك لاعماله الخطابية وخاصة رسائله الشهيرة) . وقد أصدرت له الطباعة ما لا يقل عن / ٣١٦ / طبعة قبل عام ١٥٠٠ ، ظهر معظمها في ايطاليا ، وعدد كبير منها في المانيا وخاصة في فرنسا . لا شك في أن الكثير من هذه الطبعات كان يتعلق بكتاباته الفلسفية : ٤٠ طبعة عن « الواجبات » و « الشيخوخة » و « الصداقة » وأعماله الرئيسية ،

ولكن كان هناك أيضا ٣٨ طبعة عن خطبه المختلفة ، و ٨٤ طبعة عن رسائله وخاصة « رسائل الى الاهل » .

كان لا بد لهذه العودة الى الآداب القديمة ، التي كانت واضحة جدا في ايطاليا ، أن تقلق بعض الافكار كما نعلم ، حتى بين اولئك الذين كانوا يسلمون بضرورة العودة الى صبغة لاتينية أفضل . كانت « الانسية » قد ادخلت الوثنية الى المدارس في ايطاليا . ولكن الم يكن هناك مع ذلك مؤلفون مسيحيون قد كتبوا أشعارا سداسية المقاطع على غرار (فيرجيل)؟ أو لم يكن هناك أيضا خطباء مسيحيون بفصاحة (شيشرون) ؟ فلا شك أن هذا كان تفكير كل من « دومينيسي » في فلورنسا ، « ويمبفيلين » في الالزاس ، وحتى « روبير غاغين » في باريس . بل أكثر من ذلك ، لم يكن من الممكن اهمال هؤلاء المؤلفين المسيحيين نهائيا ، لانهم كانوا المورد الذي يستمد منه مؤلفوا كتب القواعد في القرون الوسطى التي ما زالت رهن الاستخدام . ويبدو أن هذه هي الاسباب التي حضت على طباعة أعمال الكثيرين من الشعراء المسيحيين ومحاولة بعثهم من جديد : من أمثال جوفينكوس ، برودانس سيدوليوس أو أوراتور ، حتى يدفعوا الناس الى نسيان فيرجيل ، أو مؤلف (بيير دي بلوا) ، « الصداقة المسيحية » ، الذي كان يقارن مع كتاب شيشرون ، « الصداقة » . الا أن جميع هذه المحاولات باءت بالفشل ، ولكنها بعثت الحياة من جديد في بعض الكتّاب بطباعة مؤلفاتهم . في الوقت نفسه ، وبنجاح أكبر ، حاول بعض المعاصرين المعجبين بالآداب القديمة ، أن يقدموا الى التلاميذنصوصا مسيحية بصيغة لاتينية جيدة : كما فعل « باتيستا منتيانوس » (١٤٤٨ـ١٥١٦) ، الذي اعيدت طباعةاشعاره، وخاصة الـ « Parthenicae والـ « Bucoliques »، اكثر من مئة مرة بين عامي ١٤٨٨ و ١٥٠٠ فقط، والذي سيستمر نجاحه ويمتد زمنا طويلا حتى القرن السادس عشر . أما اذا وجدنا من جهة ثانية أن عمل الانسيين الايطاليين لم يصل بعد الى جمهور كبير خارج ايطاليا ، وأن المؤلفين الذين ينبشون أعمالهم (من أمثال « تاسيت » وغيره) ما زالوا غير معروفين الا من قبل جمهورمحدود، واذا كان لا بد من التريث حتى السنوات الاخيرة للقرن الخامس عشر

ومطلع القرن السادس عشر لكي نشاهد تزايد الطبعات المصححة من قبل علماء فقه اللغة ، أو ظهور عدد كبير من طبعات (هوميروس) و (أفلاطون) فان نماذج الصيغة اللاتينية الصحيحة الموضوعة من قبل الانسيين بدأت تلاقي نجاحا كبيرا : وخاصة كتابات أشخاص من امثال « أندريليني » أو « بيروالد » أو « فيلالفو » أو « غاسبارينو دي برزيزا » الذي كان كتابه « البلاغة » أول مؤلف طبع في باريس . انها مؤشرات كثيرة تدل كلها على تبدل في التفكير لن يؤتي ثماره الا في مطلع القرن السادس عشر .



بالنسبة للاعمال المكتوبة باللاتينية ، نجد أن النصوص باللغة العامية التي كانت تطبع آنذاك ، لا تشكل كما أسلفنا سوى أقلية : ٢٢٪ تقريبا من الانتاج الاجمالي للمطابع في القرن الخامس عشر . كان الكثير من هذه النصوص ، بل معظمها ولا شك ، عبارة عن ترجمات للمؤلفات اللاتينية ، او كتبا في التقوى والاخلاق ، او نصوصا مقدسة ، أو مؤلفات كلاسيكية لاتينية أو اعمالا ادبية من القرون الوسطى كتبت أصلا باللغة اللاتينية . وهكذا نجد أذن انه من بين الكتب المطبوعة آنذاك ، كانت الاعمال المكتوبة مباشرة باللغة العامية قليلة جدا في الاصل . الا أن بعض هذه المؤلفات لقي تجاوبا من عدد كبير من القراء ، وخاصة في ايطاليا بالذات . لذلك نجد أن (دانتي) قد لاقى رواجا كبيرا (١٥ طبعة معروفة عن كتابه الشهير « الكوميديا الالهية ») . كذلك كان الوضع بالنسبة لـ (بوكاس) أيضا، حيث جرت عدة ترجمات لكتابه المعروف «Décaméron» (١١ طبعة بالايطالية ، اثنتان بالالمانية ، واحدة بالفرنسية وواحدة بالاسبانية) . كما كانت أعمال (ليوناردو بروني) وكذلك « موشحات » (بيترارك) موضع العديد من الطبعات والترجمات .

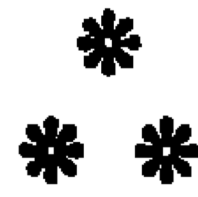
أما في فرنسا ، فقد كانت تطبع المؤلفات الادبية الغزلية التي وضعها الادباء المحيطون بدوقات بورغونيا . لذلك نجد أن « قصة الوردة » (Roman de la Rose) التي صدرت عنها ثمانية طبعات ظهرت جميعها

في القرن الخامس عشر ، قد لاقت رواجا امتد حتى القرن السادس عشر . كما طبع أيضا كتاب « بطل السيدات » لـ (مارتين لوفران) ؛ أما من بين ما يمكن تسميتها بكتابات « البلاط » ، فنخص بالذكر منها « عقيدة البلاط » لـ (بيير ميشو) و « المخدوع في البلاط » ، الذي كان ينسب عادة الى الملك (رينيه) ، « اللبادة » لـ « جان دراس » ، « محاكمة بيليال » ، وكذلك اعمال (كريستين دي بيزان) و (الان شارتييه) . وعند نهاية القرن توطد النجاح الكبير الذي احرزه كتاب « نظارات الامراء » لـ (ميشينو) ، و « قصر الحرائة » لـ « غرينغور » ، و « الوصايا » لـ (فيون) ، و « مغزى آلام المسيح » لـ (جان ميشيل) .

يبدو ان بعض هذه المؤلفات لم تطبع سوى مرة أو مرتين . كما يبدو ان الاعمال التي لاقت رواجا أكبر،الىجانب « قصة الوردة»، هي: «محاكمة بيليال » ، « المخدوع في البلاط » ، وكذلك اعمال (ألان شارتييه) ، (غرينغور) ، (ميشينو) و (فيون) . الا انه بدىء بصورة مبكرة جدا في طباعة فئة أخرى من المؤلفات التي لاقت نجاحا كبيرا منذ زمن بعيد ، نجاحا مستمرا لا يوشك على التوقف ؛ من هذه المؤلفات : روايات الفروسية ، وخاصة تلك التي تمجد المآثر الاسطورية لابطال القرون الوسطى من امثال : «Fiera - bras» ، الذي كان يعطى أحيانا عنوانا آخر « فتح شارلمان الكبير » ، والذي طبع ثلاثة عشر مرة بالفرنسية ومرتين بالايطالية ؛ وكذلك « وقائع وحركات غودفروا دي بويون » الذي طبع مرة بالفرنسية ، مرة بالانكليزية ، مرة بالالمانية ومرتين بالفلمندية؛ وكذلك: « ميرلين » ، « بيير دي بروفانس » ، « روبير الشيطان » ، « لانسلو » ، « تريستان » وغيرها من المؤلفات الكثيرة التي يفضل ربطها ، رغم كونها ترجمات وتعديلات للنصوص اللاتينية ، بالعديد من المؤلفات المتعلقة بقصة « طروادة » : وخاصة ترجمات « قصة تدمير طرواده » واعمال أخرى مثل « بحر الحكايات » الذي سنتحدث عنه فيما بعد .

من بين المؤلفات الاكثر رواجا وتقديرا ، يمكن أن نذكر أيضا القصص الاخلاقية العديدة ذات النفحة الورعة أو الغولية كقصة «مئة خبر جديد»،

التي الفها كتاب من البلاط ، او الكتابات الشعبية المتنوعة التي تعتبر السلف الحقيقي للوحات القوطية في القرن السادس عشر . انها مؤلفات غير معروفة جيدا ، اختفت في معظم الاحيان ؛ ويبدو انها كانت متوفرة بكثرة في المكتبات ، الا انها لم تكن تعرض بصورة جيدة في واجهات مكتباتنا : فها هي على سبيل المثال الابحاث العديدة التي تعرض بلهجات مختلفة افراح الزواج واتراحه : ابتداءا من « مسرات الزواج الخمسة عشر » المنسوبة الى (انطوان دي لاسال) حتى « عقيدة البنات المتزوجات » و « عقيدة المتزوجين الجدد » ، المملوءة كلها بنصائح أكثر جدية مما توحي به عناوينها . كلها مؤلفات تواجدت في المكتبات مع « أهواء العالم » المنسوب الى (غليوم الكسيس) ، وكذلك بعض المسرحيات الهزلية من امثال « Pathelin » ، « فنون الموت » ، « تقاويم الرعاة » ، والتقاويم الفلكية ، وكلها اندر من ان تصل الينا ؛ وذلك بالاضافة الى التقاويم المطبوعة على جهة واحدة والقصائد الشعبية المزخرفة التي تعلق على الجدران ، الا انها طبعت حتما أعداد كبيرة ، في المانيا بشكل خاص ، منذ القرن الخامس عشر .



.. كذلك لم يحصل تقدم مباشر في الميدان العلمي ايضا . الا ان قسما هاما من الانتاج الطباعي ، حوالي العشر ، أي ما يقرب من / ٣٠٠٠ / طبعة ، كان يتألف مما يمكن تسميته بالنصوص العلمية . ولكن يبقى علينا ان نعرف ما هي هذه المؤلفات . ففي الاعمال الكبرى المجمعة والمقتبسة للقرون الوسطى ، يتم البحث دائما عن موسوعة كافة المعارف. يشهد على ذلك النجاح المنقطع النظير الذي احرزه ، خلال السنوات الخمسين التي أعقبت ظهور الطباعة ، « مرآة العالم » ، وهو عبارة عن موسوعة هائلة مؤلفة من اربعة أجزاء ، يبحث كل منها في احد المجالات الكبرى للمعرفة (المرآة العقائدية ، المرآة التاريخية ، مرآة الطبيعة ، المرآة الاخلاقية) ؛ تعتبر الاجزاء الثلاثة الاولى من عمل رجل الدين



Cõment Villon voit a son aduis la belle heaulmiere soy cõplaignant.

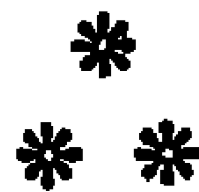
Aduis mest que ioy regretter
La belle qui fut heaulmiere
Soy ieune fille souhaicter
Et parler en ceste maniere
Ha viellesse felonne et fiere
Pour quoy mas si tost abatue
Qui me tient qui:que ne me fiere
Et que a ce coup ie ne me tue

الدومينيكي (فينسان دي بوفيه) ، المعلم والمربي لاولاد (سان لويس)، الذي توفي قبل قرنين (عام ١٢٦٤) . كذلك نقرأ ، في مجـال قضايا الطبيعة ، اعمال المقتبسين في القرن الثالث عشر ، ككتاب « في خصائص الاشياء » على سبيل المثال ، لمؤلفه (بيير دي كريسنز) ، الذي أعيدت طباعته مرارا بكافة اللغات . في الحقيقة يبدو أن هذه الاعمال المقتبسة كانت تسمح غالبا بتجنب اللجوء والعودة الى كبار المؤلفين كما كـانت مرغوبة لنفس التسهيلات التي دفعت رجال اللاهوت آنذاك للجوء الى المعاجم والمعاجم المختصرة والاعمال الموجزة عوضا عن العودة الى النصوص الاصلية . واخيرا ، يمكن القول بأنه كان يتم التركيز في النشر على كل من ارسطو واقليدس وبلين وبطليموس من بين اساتـذة الفكر العلمي القديم ، وعلى (**ابن سينا**) من بين العلماء العرب .

الا ان جمهور القراء لم يكن يبحث عن هذه النصوص بالذات . لذلك نجد علماء اللاهوت يفضلون ، بدلا من العودة الى اعمال ارسطو ، دراسة « Auctoritates Aristotelis » ، « سر الاسرار » ، المنسوبة خطأ ، تارة الى ارسطو ، وطورا الى (ألبير لوغران) ، والتي سبق لها ان نسخت في كثير من الاحيان ، كما طبعت مرات عديدة ؛ وهكذا كانوا يفضلون غالبا الكتابات من هذا النوع على المؤلفات الاصلية التي تمثل في نظرنا فائدة علمية حقيقية . الا أن هذا لم يحل بطبيعة الحال دون طباعة عدد كبير من الكتابات المعاصرة التي لا تشكل اقـل من ٥٧٪ من الطبعـات الاستهلالية العلمية (٢٥٥ نصا ايطاليا ، ١٢٤ المانيا ، ٤٦ فرنسيا ، ٤٤ اسبانيا وبرتغاليا ، ٢٦ هولنديا ، ٢١ انكليزيا وسكوتلنديا) . ولكن ، في هذا المجال الذي لم يفعل فيه الزمن فعله من حيث الانتقاء ، نجد أن السيء ما زال هو السائد . واذا كان عدد المؤلفين الذين يطبعون اعمالهم يزداد عاما بعد عام ، فان معظم هذه الكتابات لم تكن مفيدة من الناحية العلمية . أما العلم السائد آنذاك فكان « التنجيم » . لذلك لا نستغرب والحالة هذه ، اذا رأينا أن قصة رحلات (ماركو بولو) ، هذا النص الجغرافي الهام في القرون الوسطى ، لم يطبع سوى اربع مرات قبل عام

١٥٠٠ ، كما كان الاهتمام به اقل بكثير من اهتمام الناس بالاكاذيب التي تضمنتها مجموعة اسفار (ماندفيل) : وهذا ان دل على شيء فانما يدل على فقدان روح النقد من وجهة نظرنا على الاقل . ولكن اليس الامر كذلك في جميع العصور ؟ كذلك لا يجوز لنا أن نستغرب اذا كان الوضع مماثلا فيما يتعلق بعلوم الرياضيات . فقد كانت العلوم الرياضية تطبع غالبا وبصورة مبكرة جدا : في تريفيس منذ عام ١٤٧٨ ، في فينيسيا عام ١٤٨٤ ، في برشلونة عام ١٤٨٢ . الا أن أكثر الابحاث ابتكارا في الحساب والجبر من النصف الثاني للقرن الخامس عشر ، .وهو « Triparty » لمؤلفه (نيقولا شوكيه) (١٤٨٤) ، ظل مخطوطا ولم يطبع . زد على ذلك ان اول عالم معاصر استخدم الفن الجديد ، وهو (ريجيو مونتانوس) عالم الرياضيات والفلك الشهير ، الذي اعطاه حاميه آلة طابعة مع الادوات اللازمة لطباعة النصوص العلمية ، لم يطبع الا جزءا من أعماله فقط . أما معظم اعماله فظهرت بعد وفاته ؛ وكذلك كتابه الشهير « علم المثلثات »، الذي يعتبر أول بحث غربي في حساب المثلثات المسطحة والكروية ، فلن يطبع الا في عام ١٥٣٣ .

وهكذا يبدو ان الطباعة لم تلعب اي دور تقريبا في تطور المعارف العلمية النظرية . الا انها ساهمت بالمقابل في لفت انتباه الجماهير الى المسائل التقنية . في عام ١٤٨٥ ، ظهر كتاب « بحث الهندسة المعمارية » لـ (البيرتي) ؛ وفي عام ١٤٨٦ ، ظهر « بحث الزراعة » لـ (بيير دي كريسنز) ؛ ومنذ عام ١٤٧٢ ، كان قد ظهر « بحث الآلات » لـ (فالتوريو دي ريميني) ، الذي أعيدت طباعته في عامي ١٤٨٢ و ١٤٨٣ في (فيرون)، وعام ١٤٨٣ في بولوني ، وعام ١٤٩٣ في فينيسيا . كل هذه تعتبر مؤشرات لتبدل في المناخ ، كانت بوادره قد ظهرت مع المنجزات العديدة للتقدم التقني التي تمت عند مطلع القرن الخامس عشر ، في ميادين كثيرة ، كانت الطباعة اكثرها اذهالا .



هذه هي المظاهر الرئيسية للانتاج الطباعي خلال السنوات الخمسين التي تلت ظهور الطباعة . فما هي اذن الاستنتاجات التي يمكننا استخلاصها ، من الملاحظات التي أوردناها ، حول تأثيرات ظهور التقنية الجديدة (الطباعة) على انتاج النصوص ؟

من الملاحظ أولا أن ظهور الطباعة لم يحدث أي انقلاب مفاجيء ، كما أن ثقافة العصر لم تتبدل كما يبدو لنا للوهلة الاولى ، أو لم يتبدل اتجاهها بتعبير أدق . ولكن ، من بين المخطوطات الكثيرة التي كانت تشكل تراث القرون الوسطى ، كان من المستحيل طباعتها كلها ، وسحب مئات النسخ عن كل نص من النصوص . لذلك كان لا بد من الانتقاء : وقد جرى هذا الانتقاء كما رأينا من قبل اصحاب مكتبات يهتمون قبل كل شيء بتحقيق الارباح وتصريف الانتاج : لذلك كانوا يبحثون قبل كل شيء عن المؤلفات التي من شأنها اثارة اهتمام أكبر عدد من معاصريهم . وهكذا يمكن اعتبار ظهور الطباعة بهذا المعنى مرحلة نحو ظهور حضارة جماهيرية ذات نمط موحد .

كان هناك انتقاء اذن ، ولكنه منسجم مع أذواق رجال القرن الخامس عشر . وهذا ما أدى بالتالي الى اختفاء دون جدوى للمؤلفات التي كان هؤلاء يعتبرونها بطلت بالتقادم أو أكل الدهر عليها وشرب : كالموسوعات التي سبقت موسوعة (فينسان دي بوفيه) ، وكذلك العديد من الابحاث اللاهوتية التي سبقت الاعمال الكبرى للقرن الثالث عشر . كما اختفت أيضا بعض الاشكال الادبية : منها معظم القصائد المقفاة من ادب الـ (Goliards) التي لم يحتفظ الا بالقليل منها فقط ، ومن قبيل المصادفة، لكي تطبع مثلا في نهاية كتاب لاملاء صفحة بيضاء .

الا أننا نلمس في الوقت نفسه أحيانا بعث بعض الكتابات المنسية منذ زمن طويل ، والتي بدت ذات فائدة من جديد في القرن الخامس عشر . ولكن هذا البعث لم يقتصر فقط على النصوص القديمة التي بدأ العلماء الانسيون الايطاليون يبحثون عنها منذ قرن ، في المخطوطات القديمة ،والتي

ستلاقي في القرن السادس عشر رواجا كبيرا سنتحدث عنه فيما بعد ، بل تعداه كذلك الى بعض نصوص القرون الوسطى التي ظهرت أهميتها وفائدتها من جديد في القرن الخامس عشر : وهكذا نبشت نصوص لاتينية لشعراء مسيحيين ، وذلك وفق الاحتياجات الآنية (لذلك اهملوا مثلا طباعة كتاب « Anti - Claudianus » لالان دي ليل ، و « Aurora » لبيير دي ريغا اللذين كانت توجد عنهما عدة مخطوطات) ولكن الاهتمام كان منصبًا بصورة خاصة على الكتابات الغيبية للقرنين الثاني عشر والثالث عشر ، التي سعى الكثيرون ، ومنهم (Lefèvre d'Etaples) لاحيائها من جديد . الا أن الزمن فعل فعله في انتقاء الافضل من بين جميع هذه الكتابات التي انتجتها الطباعة بأعداد كبيرة : حيث نجد مؤلفات كثيرة لم تتم اعادة طباعتها ابدا بعد عام ١٥١٠ . ولكننا نجد أيضا، من خلال الانتقاء الذي قامت به الطباعة بين عامي ١٤٥٠ و ١٥٠٠ ، أن الكثير من المؤلفات ، حتى العريقة منها ، قد اختفت كذلك ولن تبعث الا في القرنين التاسع عشر والعشرين من قبل فقه اللغة المعاصر ، الا اذا أسعفها الحظ وصادفها عالم انسيّ من القرن السادس عشر أو أحد العلماء من الرهبان « البندكتيين » في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ومن بين هذه الاعمال المختفية مثلا ، « رسائل هيلوييز وأبيلارد » التي كان يعرفها (بيترارك) ؛ الا انها لن تطبع للمرة الاولى سوى عام ١٦١٦ ؛ كذلك معظم كتابات (جان سكوت أيريجين) و (روجيه باكن) ، ورسائل (لو دي فيرير) و (جيربير) ؛ مذكرات (ايكهارت دي سان ــ غال) ، مجموعة أخبار وحكايات (جيرفيه دي تيلبوري) ، (ماتيو دي باري) ، (غليوم دي ماليسبوري) ، وكذلك اعمال (هيلدبرت دي لافاردين) و « انشودة رولان » . وهكذا نجد انه كان هناك انتقاء ولكنه تم من قبل رجال القرن الخامس عشر وفق أذواقهم ومشاغلهم .

الا ان هذه الاذواق ليست بمجملها هي التي من المناسب وصفها بالانسية . ولكن هل يعني هذا أن الطباعة لم تشجع الحركة الانسية ؟ كلا بالتاكيد : اذ أن هناك العديد من الطبعات الكلاسيكية القديمة بالحروف

الرومانية التي تنشرها المطابع الايطالية كما اسلفنا . كذلك نجد تجارة الكتب منظمة بصورة جيدة تستطيع معها نشر هذه الطبعات في كافــة انحاء أوروبا : وها هو يقترب عهد آل (آلد) يتبعه عما قريب عهـد منافسيهم الفرنسيين . في الوقت نفسه ، نجد ان الطباعة ، هذه التقنية الصحيحة ، ستجبر رجال الطباعة وعما قريب كافة القراء على اعادة النظر بالكثير من المعلومات والمفاهيم المكتسبة : فالسعي نحو الطباعـة الصحيحة ، والرغبة في اصدار النصوص في « المخطوطة الجيدة » ، كل ذلك سيحرض الدراسات الفقهية اللغوية ويحض عليها . وبينما كان رجال القرون الوسطى من جهة ثانية ، لا يهتمون مطلقا بوضع الاسم على العمل ، فان رجال الطباعة اصبحوا ملزمين بطبيعة الحال ، بالبحث عن المؤلفين الحقيقيين للكتب التي يطبعونها ، أو اختراعها في بعض الاحيان . لذلك نجد في القرن الخامس عشر ، العديد من المؤلفات لا زالت تطبـع بشكلها المعروف في القرون الوسطى ، باسم مؤلف مزيف ؛ الا ان ذلك سيتوقف عما قريب . ولا ننسى أخيرا الامكانية المتاحة للمؤلفين المعاصرين من اجل القيام من الآن فصاعدا بطباعة ونشر أعمالهم على العديد من النسخ ، مع ذكر أسمائهم عليها : انه حافز هام ومؤشر لعهد جديد ، قيام الفنانين والمؤلفين عما قريب بالتوقيع على اعمالهم ، حيث ستأخذ « مهنة المؤلف » شكلا آخر بصورة تدريجية . وهكذا ، وبسرعة كبيرة ، سيفقد تراث القرون الوسطى اهميته أمام المدّ الصاعد للاعمال الجديدة المعدة لصالح جمهور أوسع .

٢ ـ الكتاب والانسية (humanisme)

في حوالي عام ١٥٠٠ ـ ١٥١٠ ، ربحت الطباعة الرهان ، حيث قفزت الكتب المطبوعة الى النسق الاول في المكتبات ، دافعة بالمخطوطات الى النسق الثاني ؛ وفي حوالي عام ١٥٥٠ ، لم يعد يرجع الى هذه المخطوطات الا المتبحرون في العلم .

لا يمكن تفسير مثل هذا التحول الا بالنشاط الهائل للآلات الطابعة التي بدات تنتج النصوص المطبوعة بوتيرة متزايدة باستمرار : ٣٠,٠٠٠

ــ ۳٥٫۰۰۰ طبعة مختلفة تعود الى ما قبل عام ١٥٠٠ ، وصلت كلها الينا ، تمثل ١٥ ــ ٢٠ مليون نسخة . كما اسلفنا . بل نجد أكثر من ذلك ايضا في القرن السادس عشر : ويكفي لذلك ان نذكر ببعض الارقام التي ذكرناها آنفا : فقد طبعت في باريس أكثر من ٢٥٫۰۰۰ طبعة نشرت خلال القرن السادس عشر ؛ في ليون ، ١٣٫۰۰۰ ؛ في المانيا ، ٤٥٫۰۰۰ ، في فينيسيا ١٥٫۰۰۰ ؛ في هولنده أكثر من ٤٫٢٠٠ خلال النصف الاول من القرن ؛ في انكلتره ، ٢٦٫۰۰۰ باللغة الانكليزية حتى عام ١٦٤٠ ، منها ما يقرب من / ١٠٫۰۰۰ / في القرن السادس عشر . من كل هذا يمكننا من وضع لائحة مؤلفة من ١٥٠٫۰۰۰ ــ ٢٠٠٫۰۰۰ طبعة مختلفة ظهرت بين عامي ١٥٠٠ ــ ١٦٠٠ . فاذا اخذنا الرقم / ١٠٠٠ / كمعدل وسطي للسحب ، نجد أن هناك ١٥٠ ــ ٢٠٠ مليون نسخة طبعت في القرن السادس عشر . ويعتبر هذا الرقم حدا ادنى اقل من الحقيقة بكثير ولا شك . من المؤكد أن هذا الانتاج لا يقارن مع الانتاج الحالي ؛ ففي فرنسا وحدها ، نجد ما يقرب من / ١٥٫۰۰۰ / مجلدا مختلفا ، يسحب عنها ٥٠٠٠ ــ ١٠٫۰۰۰ نسخة ، تصل كل عام الى « المستودع الشرعي » ، بغض النظر عن الكراسات والنشرات الدورية التي يسحب عن أكثرها انتشارا أكثر من / ٥٠٠٫۰۰۰ / نسخة . ولكن الانتاج في القرن السادس عشر بلغ حدا أصبح معه الكتاب المطبوع في متناول جميع من يحسنون القراءة ، كما لعب دورا أساسيا في نشر الآداب القديمة عند مطلع القرن ، ثم في نشر الافكار الاصلاحية . وقد ساهم أيضا في تثبيت اللغات وساعد على تطور الادب الوطني .

سنقدم أولا بعض المعلومات المتعلقة بجمهور القراء . فلا نستغرب بالدرجة الاولى اذا كان عدد الذين يسعون جاهدين لتاسيس مكتبة شخصية يتزايد خلال القرن السادس عشر ، واذا كانت اهمية هذه المكتبات في صعود مستمر . لذلك نجد أن كشوفات جرد المكتبات الخاصة ، التي تمت امام كتّاب العدل في حالات الوفاة ، تعطينا ارشادات قيمة في هذا المجال بالنسبة لفرنسا ، وخاصة فيما يتعلق بقراءات أفراد الطبقات الميسورة .

اما بالنسبة لاصحاب المكتبات الخاصة أولا ، فنجد انه من بين حوالي / ٣٧٧ / مكتبة

من القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، والتي نملك كشفا كاملا بها ، كان هناك ١٠٥ مكتبات عائدة لرجال الدين (٥٢ منها لرجال الكنيسة والاساقفة ، والمطارنة والكهنة القانونيين والرهبان ، ١٨ لاساتذة وطلاب الجامعات ، ٣٥ للخوارنة ورعاة الكنائس) ؛ كما كان هناك عدد أكبر للقضاة والمحامين : ١٢٦ مكتبة ، منها ٢٥ لاعضاء من مجلس النواب وافراد البلاط ، ٦ للمنتخبين او الكتبة ، ٤٥ للمحامين ، ١٠ للوكلاء والنواب ، ١٥ لكتاب العدل . وهكذا نجد ، كما هو متوقع ، ان نسبة المكتبات العائدة للقضاة والمحامين ظلت في صعود مستمر بالمقارنة مع المكتبات العائدة لرجال الدين :

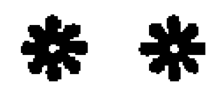
	رجال القانون	رجال الدين
١٤٨٠ — ١٥٠٠	١	٢٤
١٥٠١ — ١٥٥٠	٥٤	٦٠
١٥٥١ — ١٦٠٠	٧١	٢١

وهكذا ، بينما كانت الاهمية النسبية للزبائن الكهنوتيين تتناقص باستمرار ، كانت اهمية رجال القضاء ، هذه الفئة الاجتماعية الصاعدة ، في ارتفاع دائم ، وخاصة في باريس ، حيث يوجد العديد من الاجهزة الحكومية ودور للبلاط ، وحيث بلغ تعداد هذه الفئة / ١٠٫٠٠٠ / عضوا . من بين الـ / ١٨٦ / مكتبة التي تم احصاؤها بين عامي ١٥٠٠ و ١٥٦٠ ، كان هناك / ١٠٩ / مكتبات عائدة لرجال القانون والضباط الملكيين ، بينما لم يكن منها سوى / ٢٩ / فقط لرجال الدين . بينما نجد بالمقابل أن عدد المكتبات العائدة لنبلاء السيف ورجال الحرب قليل جدا ومنحصر أساسا في المقاطعات والريف (في حدود الثلاثين من أصل ٣٧٧) . الا اننا نجد عددا كبيرا من الكتب لدى الكثيرين من البورجوازيين والتجار واصحاب بعض المهن : حوالي ٦٦ مكتبة من أصل ٣٧٧ عائدة لتجار الخردوات والاجواخ والدباغين والبقالين والجبانين وصانعي الاقفال وبائعي الحلويات وتجار الجلود والصباغين والحذائين أو الحوذيين . الا أن أهمية جميع هذه المكتبات متفاوتة جدا . فالى جانب المجموعة الهائلة العائدة للراهب «Guillaud d'Autun» (٤٠٠٠) مجلد ، كانت هناك مكتبات لا تضم سوى بعض الكتب . ولكن على الرغم من هذه الاختلافات وهذا التفاوت ، يلاحظ أن عدد الكتب في المكتبات ظل يتزايد باستمرار خلال القرن . اما أقدم هذه المكتبات ، التي بدىء بتاسيسها في نهاية القرن الخامس عشر ، فقد كانت عادة متواضعة جدا : ١٥ — ٢٠ مجلدا على الاغلب ، منها العديد من المخطوطات . ولكن ، منذ عام ١٥٢٩ ،

توفي تاجر باريسي غني مخلفا وراءه / ١٧٠ / مجلدا . وحوالي عام ١٥٢٥ ، نجد مكتبات كبيرة عائدة لبعض رجال القانون والضباط الملكيين . فقد كان السيد (فيليب بوت) ، رئيس لجنة التحقيق في البرلمان ، يمتلك عام ١٥٢٦ ، / ٣٠٩ / مجلدات ؛ وفي عام ١٥٢٩، كان (فرانسوا دي ميدولا) ، مستشار البرلمان ، يمتلك / ٢٣٥ / مؤلفا .

ظل التزايد هذا مستمرا : فاعتبارا من عام ١٥٥٠ ، اصبحت المجموعات المؤلفة من / ٥٠٠ / مجلد دارجة ومالوفة لدى كبار القضاة او الحكام : ففي عام ١٥٥٠ ، استطاع (بودري) ، رئيس التحقيقات في البرلمان ، أن يجمع /٧٠٠/ كتاب؛ وفي عام ١٥٥٤ ، جمع الرئيس الاول (ليزيه) / ٥١٣ / كتاب . اعتبارا من هذه الفترة ، لم يعد هناك نائب في البرلمان او مستشار محكمة او حتى محام ، علاوة على العديد من الصيادلة والحلاقين والوكلاء ، الا ولديهم عدد كبير من الكتب .

الا أنه لا بد من التنويه ، منعا لاي التباس ، بان مالكي مثل هذه المكتبات لا يمثلون غير جزء من زبائن الكتبيين . لا شك أن عدد رجال القانون كان كبيرا في القرن السادس عشر ، الا انهم لم يكونوا الوحيدين ، مع بعض الاثرياء البورجوازيين أو الحرفيين ، الذين يشترون الكتب . فقد كانت هناك مؤلفات أكثر تواضعا : كالتقاويم والتقاويم الفلكية وحياة القديسين وكتب التقوى والساعات والروايات وغيرها ، منتشرة لدى جمهور أوسع بكثير . فالى هذا الجمهور بالذات ، كان يتوجه الكتبي (جان جانو) الذي كان يمتلك عام ١٥٢٢ في مخازنه / ٥٠٫٠٠٠ / مؤلفا للتقوى والكتب الشعبية . والى هذا الجمهور أيضا كانت معدة الـ / ١٠٫٢٨٥ / نسخة عن كتب الساعات والتقوى التي نجدها لدى (روايبه) عام ١٥٢٨ ، أو الـ / ٢٧١٫٩٣٩ / مؤلفا من النوع نفسه لدى (غليوم غودار) عام ١٥٤٥ .



عندما نتفحص الانتاج المطبوع خلال السنوات العشر الاولى من القرن السادس عشر ، فاننا نلاحظ تطورا واضحا جدا بالنسبة للفترة السابقة: لا شك أن حصة الكتب الدينية ظلت حصة الاسد ، بل كان يطبع منها أكثر مما كان يطبع في القرن الخامس عشر . ولكن لو أخذنا الزيادة العامة للانتاج بعين الاعتبار ، لوجدنا أن نسبة هذه الكتب في تراجع واضح

بالنسبة للمجموع ؛ كما نستغرب في الوقت نفسه تزايد طباعة الكتب القديمة المستمر آنذاك . ففي ستراسبورغ ، نجد أكثر من ٥٠٪ من الكتب الصادرة في القرن الخامس عشر ذات طابع ديني ، بينما لم يكن يصل نصيب اعمال المؤلفين القدامى الى ١٠٪ . اما في الفترة الواقعة بين عامي ١٥٠٠ ــ ١٥٢٠ ، فنجد على العكس ، أن ٣٣٪ من المجلدات كانت للمؤلفات اللاتينية او اليونانية ، (أو لكتابات الانسيين) ، و ٢٧٪ فقط تتعلق بالدين . أما بالنسبة لباريس بالذات ، فان الجدول التالي يمكننا من ملاحظة تطور مماثل ، ولكن بصورة متأخرة بعض الشيء :

العام	الانتاج الكلي	الكتب الدينية	مؤلفون لاتينيون ويونانيون واعمال الانسيين
١٥٠١	٨٨	٥٣	٢٥
١٥١٥	١٩٨	١٠٥	٥٧
١٥٢٥	١١٦	٥٦	٣٧
١٥٢٨	٢٦٩	٩٣	١٣٤
١٥٤٩	٣٣٢	٥٦	٢٠٤

وقد دلت مثل هذه التحريات في كل مكان على نفس الاتجاه في التطور. وليس ذلك بمستغرب لان تلك الفترة قد شهدت في أوروبا انتصار ما اصطلح على تسميته بالفكر « الانسي » (humaniste) .

فمنذ القرن الخامس عشر ، كانت الطبعات الجميلة للنصوص القديمة التي خرجت من المطابع الايطالية والفينيسية أو الميلانية بشكل خاص ، والتي أشرنا الى نشاطها آنفا ، قد بدأت تعرف الناس بشكل افضل على أعمال مؤلفي العهد القديم الذين لم تغفل القرون الوسطى ذكرهم ، كما أخذت تكشف النقاب لجمهور محدود عن أولئك الذين اكتشفتهم أعمال الانسيين . كان ذلك بداية لحركة لن تتوقف عن النمو . وفي السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر والسنوات الاولى للقرن السادس عشر ، بدأ (آلد) يكثر من الطبعات العلمية اليونانية واللاتينية،

ويحاول جاهدا جعلها أسهل تداولا وفهما بتبني حجم صغير الطف . ما لبث هذا العمل أن حرك العديد من المنافسين في كل من ليون وبال وستراسبورغ وباريس . انها لطويلة حقا قصة هذا الصراعات وانتصار رجال الطباعة الانسيين فيها ؛ وقد تحدثنا عنها آنفا ، لذلك لن نكررها هنا ، ولكن من المناسب التذكير ببعض نتائجها . فحتى حوالي عام ١٥٠٠ ــ ١٥١٠ ، احتفظت ايطاليا بتقدمها الواضح في هذا المجال . أما خارج ايطاليا فنلاحظ أولا ، في ستراسبورغ لدى (ماتياس شورر) و (جان سكوت) وفي باريس لدى (جوس باد) أو (جيل دي غورمون)، وفي كل مكان تقريبا ،تزايد عدد لوحات الاشعار ، هذه النماذج اللاتينية التي الفها أساتذة ايطاليون مهاجرون من أمثال آل (اندريليني) و (بيروالد) و (مانتوان) أو تلامذتهم . وقد لاقى كتاب (لوران فللا) المسمى « الاناقة » نجاحا كبيرا ؛ كما تم تجديد المؤلفات التقليدية لتعليم اللاتينية الصحيحة ، وذلك من قبل (جوس باد) أو (ايراسم) ، واستعيض عنها غالبا بأبحاث جديدة : ككتاب القواعد لـ (ديسبوتير) الذي سيلاقي نجاحا هائلا ، وكذلك أعمال (تارديف) و (ليناكر) وكتاب (أولريش دي هوتن) « فن نظم الشعر » ، أو Rudimonta لـ (نيقولو بيروتو) . ثم ما لبثت أن ظهرت معاجم جديدة لكل من (كالوبين) أو « Cornucopiae » لـ (بيروتو) ، بانتظار ظهور معجم « الكنز اللاتيني » لـ (روبير ايستيان) الذي سيعرف مسيرة طويلة .

في الوقت نفسه ، أخذ قراء المؤلفين القدامى يتزايدون باستمرار ، كما بدأت تنتشر الاعمال التي كان الناس يقرؤونها في القرن الخامس‌عشر . كذلك ازداد رواج (تيرانس) مثلا ، حتى أن الطبعة الوحيدة التي قام بها (غي جوينو) و (جوس باد) ، والتي ظهرت لدى (تريشيل) في ليون عام ١٤٩٣ ، قد أعيدت طباعتها / ٣١ / مرة خلال ٢٥ سنة ، أي حتى عام ١٥١٧ . أما أعمال (فيرجيل) المختلفة ، التي طبعت ١٦١ مرة في القرن الخامس عشر ، فقد أعيدت طباعتها / ٢٦٣ / مرة في القرن السادس عشر (وذلك بغض النظر عن ترجماتها العديدة التي سنتحدث عنها فيما بعد) . وهكذا بدأت كافة الاعمال اللاتينية الاساسية تنتشر

شيئا فشيئا في كل مكان : لذلك نجد أن (تاسيت) ، الذي لم ينشر له سوى النذر اليسير قبل عام ١٥٠٠ ، قد صدرت له عشرات الطبعات . خلال الربع الثاني من القرن السادس عشر ، نجد في معظم المكتبات الخاصة في باريس ، مجموعة كبار الكلاسيكيين اللاتينيين ، مع ميل خاص نحو شعراء الرثاء من أمثال (كاتول) و (تيبول) و (بروبيرس) ، ومن بين شعراء النقد والهجاء نحو (هوراس) وخاصة (بيرس) (الذي طبعت طبعته ، التي نفذها « جوس باد » عام ١٤٩٩ ، حوالي خمسة عشر مرة قبل عام ١٥١٦) ؛ أما من بين المؤرخين ، فكان هناك ميل نحو (سللوست) و (تيف ـ ليف) و (سويتون) و (سيزار) وخاصة (فالير مكسيم) .

وهكذا بدىء اذن بالمؤلفين اللاتينيين ، الذين سيتلوهم اليونانيون عما قريب . هنا أيضا قام (آلد) باعطاء الدفعة النهائية . وفي هذا المجال، كانت هناك مسألة تقنية تطرح نفسها على رجال الطباعة ، هي مسألة انجاز الابجديات اليونانية . ومما زاد في صعوبة حل هذه المسألة ، أن الابجدية اليونانية تضم عددا من الاشارات أكبر مما هو عليه في الابجدية اللاتينية ، علاوة على الحركات المختلفة التي ترافق الحروف والتي لا بد من انجازها كتلة واحدة اذا اردنا الوصول الى نتائج مناسبة .

دخلت اللغة اليونانية أصلا في الكتاب المطبوع عن طريق الاستشهادات ، التي كانت كثيرة في أعمال (شيشرون) بشكل خاص . في الاصل ، كان معظم رجال الطباعة ينقلون هذه الاستشهادات الى اللاتينية ، أو يتركون مكانها فراغا أبيض يمكنهم املاءه فيما بعد باللغة اليونانية كتابة . ولكن اعتبارا من عام ١٤٦٥ ، شرع بعضهم بنقش بعض الحروف اليونانية ذات المظهر البدالي ، الخالية من الحركات والاشارات أحيانا ؛ كما كانوا يعمدون في معظم الاحيان ، للحصول على ابجدية كاملة ، الى اضافة نماذج لاتينية من الحروف المشابهة في مظهرها وشكلها للنماذج اليونانية (مستخدمين حرف « A » مثلا بدلا من « a » او « c » بدلا من « o » الخ ...) ؛ اما أول من لجا الى هذا الاسلوب ، فهم رجال الطباعة في (سوبياكو) (من اجل مؤلفهم « Lactance » في ٣٠ تشرين الاول ١٤٦٥) ، و « بيتر شوفر » (من اجل طبعته « De officiis » لشيشرون عام ١٤٦٥) . ثم ما لبث ان حذا حذوهم الكثيرون من رجال الطباعة الايطاليين ؛ وهكذا نجد الحروف اليونانية في

الاستشهادات الواردة في الكتب التي طبعها (هاهن) و (لينيامين) في روما عام ١٤٧٠ ، او (ويندلين دي سبير) في فينيسيا ، او (زاروتو) في ميلانو عام ١٤٧١ ؛ ثم في (فيراري) عام ١٤٧٤ ، وفي (تريفيز) و (فيسانس) عام ١٤٧٦ . واعتبارا من عام ١٤٧٤ ، شرع الايطاليون في طباعة كتب كاملة باللغة اليونانية ، أو باليونانية في حقل مع ترجمتها اللاتينية في حقل آخر . وفي حوالي عام ١٤٧٤ ، أصدر (توماس فيراندوس دي بريسيكا) طبعتـه الشهيرة «Batrachomyomachia»، واعتبارا من عام ١٤٧٦ ، بدأ كل من (ديونيزيوس بالافيسينوس) و (بونوس أكورسيوس) ثم (هنري سينزنولر) بطباعة مؤلفات يونانية في ميلانو . ومنذ ذلك الحين ، بدات في كل مكان من ايطاليا تقريبا ، وخاصة في ميـلانو وفلورنسا وفينيسيا ، طباعة مؤلفات الكلاسيكيين اليونانيين بلغتهم الاصلية . وفي نهاية القرن ، انتقلت طباعة المؤلفات باليونانية الى خارج ايطاليا . فقد اقتدى رجال الطباعة الالمان والفرنسيون بالمثل الايطالي ، وشرعوا أحيانا في نقش بعض الحروف اليونانية لطباعة الاستشهادات . ومنذ عام ١٤٨٦ ، أصدر (أمير باخ) في مدينة بال ، « رسائل فيليلفو » المتضمنة العديد من فقرات الاستشهاد . أما في (ديفنتر) ، فقد اقتدى بهذا المثل أيضا كل من « ريشارد بافروويه » (١٤٨٨) ، و « جاك دي بريدا » (١٤٩٦) . وفي عام ١٤٩٢، نجد استشهادات يونانية في التعليق على احدى طبعات (فيرجيل) التي قدمها (كوبرجر). كما ظهرت بعض الكلمات اليونانية :

١ ــ في بعض الطبعات الليونية اعتبارا من عام ١٤٩٢ (لدى تريشل) .

٢ ــ في طبعات باريسية اعتبارا من عام ١٤٩٤ (لدى جيرنغ وريمبولت) .

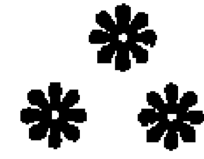
الا أنه كان لا بد من انتظار السنوات العشر الثانية من القرن السادس عشر حتى نرى كتبا كاملة مطبوعة بلغة (هوميروس) خارج ايطاليا . ففي باريس ، عمد (جيل دي غورمون) ، عام ١٥٠٧ وتحت ادارة (تيسارد) ، الى انجاز أبجدية يونانية بكامل حركاتها واشاراتها ، استخدمت في اعادة طبع قسم من طبعة (آلد) عن (تيوكريت) وفي عام ١٥١٢، نقش سلسلة كاملة مع حركاتها وشاراتها . وفي عام ١٥١١ ، قام (جوهان رو ــ غرونئبرغ) في (ويتنبرغ) ، باصدار طبعة باليونانية جزئيا ، ثم قام في عام ١٥١٣ ، باصدار نص الـ « Batrachomyomachia » مع ترجمته باللغة اللاتينية . منذ ذلك الحين ، اندفع العمل قدما الى الامام ؛ حيث استبدلت الابجديات البدائية ، التي استخدمت في هـذه الطبعات الاولى ، بأبجديات أكثر أناقة .

بينما كان الكاردينال (Ximénès) ينقش حروفا يونانية من اجل كتابه « العهد الجديد » ومن اجل توراة (بوليغلوت) (١٥١٤ ــ ١٥١٧) لاحظ الكثيرون من كبارالناشرين انه اصبح هناك كمية كبيرة من الطبعات للكلاسيكيين اللاتينيين ، فشرعوا في طباعة واصدار النصوص اليونانية . عندئذ ظهرت نماذج جديدة في كل مكان ، كان معظمها على غرار نماذج (آلد) : في نورمبرغ ، لدى كونراد سيلت ؛ في ستراسبورغ ، لدى ماتياس شورر ؛ في اوغسبورغ ، لدى جوهان ميلر ؛ في لايبزيغ ، لدى فالنتين شومان ؛ في كولونيا ، لدى سيرفيكورنوس ، وسوتر ، وغيمنيخ ؛ لدى توماس انشيلم الذي كان يعمل في بفورزهايم وتوبنجن وهاغونو ؛ وخاصة لدى (فروبن) في مدينة بال ؛ حتى ان هذا الاخير كان يبيع الحروف في المانيا ، وكذلك في فرنسا ، الى رجال الطباعة الباريسيين والليونيين . واخيرا، وكتتويج لهذه الحركة ، اراد (فرانسوا الاول) أن يشجع تطور الدراسات اليونانية في باريس ، فكلف (غاراموند) بنقش الحروف الشهيرة التي سميت « يونانيات الملك » (١٥٤١ ــ ١٥٥٠) ، والتي كانت تقليدا لكتابة الخطاط الكريتي (آنج فيرجيس) ، والتي سيستخدمها آل (ايستيين) وكثيرون غيرهم من رجال الطباعة الباريسيين .

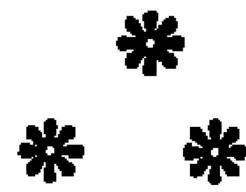
ان هذه الملاحظات تمكننا من أن نفهم كيف انتشرت معرفة اللغة اليونانية ، وكيف تشكلت تدريجيا فئة من القراء الراغبين باقتناء اعمال المؤلفين اليونانيين بلغتهم الاصلية . ففي فينيسيا ، رأينا كيف اهتم (آلد) في البداية باصدار الابحاث المتعلقة بالقواعد اللغوية والكتب الصغيرة التدريبية المعدة لتسهيل دراسة اللغة ، وذلك قبل المباشرة باصدار الطبعات الكبرى . كذلك فعل كل من (جيل دي غورمون) في باريس ، و (ماتياس شورر) في ستراسبورغ ، اللذان كانا يمتلكان عتادا اكثر بداءية . بفضل هذه الجهود المنسقة ، تطورت معرفة اللغة اللاتينية . واعتبارا من حوالي عام ١٥٢٥ ، اثارت دراسة اليونانية ، خارج ايطاليا، شغفا وولعا حقيقيين ، حتى اصبح تعليمها رسميا في اوكسفورد ولوفين (١٥١٧) ، في ألكالا (١٥٢٨) ، في باريس (١٥٢٩) وفي عدة مدن المانية كذلك . ففي باريس ، أخذ في الاكثار من الطبعات اليونانية كل من(جوس باد) ، ثم (سيمون دي كولين) ، (أنطوان أوجيرو) ، (كريستيان وبشل) ، ثم آل (ايستيان) عما قريب . في عام ١٥٣٠ ، كتب (كليناردا) بأنه سبق أن بيع في هذه المدينة ، وخلال بضعة أيام ، ٥٠٠ نسخة من

كتابه « تعليم اللغة اليونانية » : قد تبدو لنا هذه الشهادة مشكوكا فيها لو لم نكن نعلم أنه تمت في فرنسا ، خلال العام نفسه ، طباعة أعمال ٤٠ / مؤلفا يونيا ، منهم ٣٢ بلغتهم الاصلية مقابل ٣٣ طبعة للمؤلفين الكلاسيكيين اللاتينيين . وفي عام ١٥٤٩ أيضا ، سيظهر في باريس ٣٣ مؤلفا باللغة اليونانية مقابل ما يقرب من أربعين باللاتينية ، وذلك بغض النظر عن الترجمات .

وهكذا استطاعت الطباعة ، خلال النصف الاول من القرن السادس عشر ، أن تضع في متناول يد جمهور واسع ، في كافة انحاء أوروبا ، العصر القديم اللاتيني ثم اليوناني ــ والعبراني الى حد ما .



الا أن هذه المؤلفات بدأت تثير أكثر فأكثر اهتمام جمهور أوسع كان لا يتقن غالبا اللغات القديمة ، ولكن الطباعة أهلته تدريجيا وخلقت فيه حب القراءة وتذوقها . كما ان رجال الطباعة من جهة ثانية ، كانوا يلاحظون اشباع السوق فيجدون أن مصلحتهم تقتضي توسيع جمهور زبائنهم . ففي المجال الذي يهمنا ، نجد هذا التطور ظاهرا في زيادة الترجمات وشدة الاقبال عليها . لذلك نلاحظ فعلا ، اعتبارا من عام ١٥٢٠ ، العديد من الناشرين ، وليس أقلهم شأنا ، يحولون محلاتهم الى مكاتب للترجمة مثل (جان دي تورن) في ليون على سبيل المثال . وهكذا نجد أن اللغات الوطنية ، التي كانت لا تزال في أوج تطورها ، قد بدأت تزداد غنى وتطهرا وصفاء بالتماس مع اللغات الاجنبية ، بفضل العديد من المترجمين وعملهم الدؤوب .



لقد ولدت هذه الحركة في ايطاليا ، ثم ما لبثت أن أصبحت واضحة في فرنسا بشكل خاص . فقد بدأ الملوك يشجعونها ويسعون جاهدين لتطوير استخدام اللغة الوطنية دعما لسياستهم التوحيدية : ففي عام ١٥٣٩ ، صدر قرار (Villers - Cotterêts) القاضي بجعل استخدام اللغة

العرنسية الزاميا لممارسة العدالة . كما أصبح دعم وتشجيع المترجمين سياسة تقليدية للملوك في كل مكان تقريبا ؛ ففي فرنسا مثلا : كانت هذه سياسة لويس الثاني عشر بشكل خاص ، ثم تلاه فرانسوا الاول . لقد قام لويس الثاني عشر من جهته بتكليف (كلود دي سيسئال) بترجمات جاء بعده فرانسوا الاول ليسحبها من مكتبة (فونتينبلو) ويأمر بطباعتها. الا أن هذه الحركة اتسعت بشكل خاص عندما اعتلى العرش شقيق مارغريت دي نافار) ، حيث نشطت الترجمات المنفذة بأمر من الملك ولاقت غالبا نجاحا كبيرا جدا .

وهكذا نجد من بين اكثر المترجمين نشاطا ، أسماء لامعة : مثل غليوم دي سيسئال ، ميلين دي سان ـ جيليه ، غليوم ميشيل دي تور، مارو ، أميوت ، دي بايبف ، ودوليه .

وهكذا ازدادت ترجمات المؤلفين القدماء في فرنسا منذ النصف الاول من القرن . ففي هذا البلد الموحد ، الآهل بالسكان والغني ، كان أصحاب المكتبات واثقين من العثور على جمهور كاف لتصريف مثل هذه الترجمات؛ الا أنه من الطبيعي أن تكون الحركة أكثر بطء في اسبانيا أو انكلترة . ففي هذا البلد الاخير خاصة ، الاقل سكانا من فرنسا ، لم يجد أصحاب المكتبات ما يكفي من الزبائن الا في النصف الثاني من القرن فقط : اذ لا نجد قبل عام ١٥٥٠ ، سوى ٤٣ طبعة لمؤلفين كلاسيكيين باللغة الوطنية ، بينما يرتفع هذا العدد الى / ١١٩ / خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٥٥٠ ـ ١٦٠٠ . لا نستغرب أخيرا اذا كانت الحركة أقل وضوحا في المانيا ، أثناء حركة الاصلاح الديني ، واذا لم تظهر مطلقا في هولندة حيث لا يمكن لقصر العهد اللغوي الا أن يحضّ على طباعة المؤلفات الاسهل تناولا باللغة العامية : كروايات الفروسية وكتب الصلاة والتقوى والعبادات .

أما المؤلفون الذين انصبّت عليهم الترجمات اكثر من سواهم ، فهم الاقدم رواجا والاكثر ضمانة : مثل (فيرجيل) بطبيعة الحال ، الذي صدرت عنه ترجمات عديدة في القرن السادس عشر ؛ كما اعيدت طباعة أعماله المختلفة / ٢٦٣ / مرة باللاتينية ، وصدرت عنها خلال القرن/٧٢/

طبعة بالايطالية (٦ منها في القرن الخامس عشر) ، ٢٧ فرنسية (واحدة منها في القرن الخامس عشر) ، ١١ انكليزية (واحدة منها في القرن الخامس عشر) ، ٥ المانية (لا شيء منها في القرن الخامس عشر) ، ٥ اسبانية (لا شيء في القرن الخامس عشر) ، ٢ بالفلمندية (لا شيء في القرن الخامس عشر) . أما المؤلف الثاني ، الذي قد تكون له ترجمات أكثر من فرجيل ، فهو (أوفيد) الذي لا تحصى ترجماته . كذلك كان هناك معظم كبار الكلاسيكيين ، وخاصة المؤرخين منهم من امثال : سيزار ، سويتون ، فلافيوس ، جوزيف ، تاسيت ، فالير مكسيم ، بلوتارك ، أوزاب ، بوليب ، هيروديان ، بول دياكر ، كزينوفون أو توسيديد .

منذ ذلك الحين ، وضع العهد القديم في خدمة جميع من يحسنون القراءة ، وهذه نتيجة لتطور الطباعة . وقد لعبت الترجمات أحيانا ، في مجال التعريف بهذه الاعمال ، دورا أكثر اهمية من الدور الذي لعبته الطبعات بالنص الاصلي : فأفلاطون مثلا ، لم ينشر له نص يوناني كامل (مع ترجمة لاتينية) الا في عام ١٥٧٨ . لذلك لم يعرف في فرنسا حتى ذلك الحين ، عن طريق الطبعات اليونانية الجزئية بقدر ما عرف عن طريق الترجمة اللاتينية التي قام بها (مارسيل فيسين) ، والتي أعيدت طباعتها خمس مرات في فرنسا خلال النصف الاول من القرن ، وكذلك بواسطة الترجمات الفرنسية لبعض مقاطع حواره التي ظهرت غالبا لدى غريف ، دي تورن أوفاسكوزان .

ليس من المستغرب كذلك ، اذا رأينا نفس الانسيين ونفس الفلاسفة ونفس الكتّاب ونفس رجال الطباعة الذين كانوا يكثرون من ترجمات العهد القديم ، هم الذين قاموا أيضا بترجمة النصوص المقدسة ؛ وسوف نشير فيما بعد الى اتساع هذه الحركة الاخيرة ونتائجها . وليس من المستغرب أيضا أن تترجم النصوص الاكثر رواجا من الادب اللاتيني الجديد الذي بدأ يتطور مع ظهور الحركة الانسية : كقصائد (مانتوان) مثلا ، أو « المدينة الفاضلة الخيالية » لـ (توماس موروس) ، أو « المزاح الثقيل » لـ (Pogge) ، وخاصة أعمال المؤرخين من أمثال (بول ايميل) ، (بول جوف) أو (غيشاردين) وغيرهما .

وهكذا كانت هناك ترجمات من اللاتينية الى لغة حديثة ، وكذلك ترجمات من لغة حديثة الى أخرى ، في تلك الفترة ، وبينما كانت اعمــال الانسيين والشعراء الايطاليين (الذين يكتبون بلغتهم الوطنية منذ زمن بعيد) تمارس تأثيرها الكبير في كافة انحاء أوروبا ، ازداد استعمال اللغات الوطنية شيئا فشيئا ، وكثرت الترجمات بالفرنسية والانكليزية والالمانية للاعمال والمؤلفات الايطالية والاسبانية . استمرت ترجمة أعمال (بيترارك) و (بوكاس) في كل مكان ، وكذلك كتاب « المركب الشراعي للمجانين » لمؤلفه (سيباستيان براندت) الذي يرجع نجاحه الى القرن الفائت ؛ ولما كان من المتعذر هنا سرد كشف بالترجمات العديدة للمؤلفين الايطاليين والاسبان التي تمت آنذاك في كافة انحاء أوروبا ، لذلك نكتفي بأن نذكر بأكثر المؤلفين شهرة ورواجا من أمثال : سنازار ، بومبو ، ماكيافيل ، ثم أريوست وتاس . كما نكتفي بالاشارة الى رواج المؤلفات المستوحاة بشكل أو بآخر من النظرية الافلاطونية في الحب لـ (مارسيل فيسين)، وذلك مثل : « كتاب السائح » لـ (Caviceo) ، « معاهدة الحب » لـ (Léon l'Hebreux) ، وخاصــة « كتــاب المواكب » لمؤلفــه (بلتــازار كاستيفليون) ، وهو عبارة عن صورة مثالية لرجل البــلاط الكامل ، ستصدر تكملته عما قريب من قبل (أماديس دي غول) .

وهكذا ، وبفضل جهود العديد من المترجمين من كافة البلدان ، استطاعت الثقافة الاوروبية أن تحافظ على تجانسها على الرغم من تفتح الآداب باللغات (الوطنية) . وفي بعض الاحيان ، كانت الترجمات تزيد في عددها على الطبعات باللغة الاصلية : ويكفي لذلك أن نذكر بعض الامثلة المأخوذة من الادب الاسباني ، ككتاب «الكتاب الذهبي لماركوس أوريليوس» لـ (غيفارا) ، الذي صدر عام ١٥٢٩ ، وطبع ثلاثين مرة بالاسبانية حتى سنة ١٥٧٩ . كما ترجم الى الفرنسية عام ١٥٣٠ ، والى الانكليزية ؛ عام ١٥٣٢ ، وطبع أكثر من عشرين مرة بالفرنسية وخمس مرات بالانكليزية؛ وكذلك كتاب « سجن الحب » لـ (دييجو دي سان بدرو) الذي صدر عام ١٤٩٢ ، ثم نشرت عنه ١٥ طبعة اسبانية ، وحوالي ١٢ بالفرنسية

والاسبانية أو بالفرنسية ، و ١٠ بالايطالية وواحدة بالانكليزية ؛ ثم المسرحية الهزلية المسماة « السيليستينية » لـ (فرناندو دي روجاس)، التي صدرت عنها ٦٠ طبعة اسبانية ، ١٢ فرنسية ، ١١ ايطالية ، ٣ المانية ، ٣ هولندية ، ٢ لاتينية ، ٢ انكليزية وواحدة كاتالانية . وهكذا كان لا بد من انتظار القرن السابع عشر ، حتى يؤدي أفول اللغة اللاتينية وتطور الآداب الوطنية الى تجزئة سوق الكتاب ، التي ساعد عليها أيضا توسع الرقابة السياسية والدينية ، والى خلق حواجز حقيقية بين مختلف البلدان الإوروبية .



وهكذا ، منذ القرن السادس عشر ، لاقت بعض المؤلفات المعاصرة رواجا كبيرا . من بين هذه المؤلفات ، هناك عدد منها لا بد من الوقوف عنده بشكل خاص : ونقصد بذلك كتابات كبار الانسيين ، الذين مارسوا آنذاك تأثيرا كبيرا .

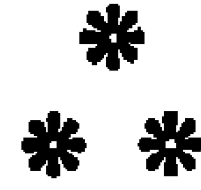
ها هي اذن بعض الملاحظات المتعلقة بنشر اعمال بعض هؤلاء : حيث يأتي بالمرتبة الاولى (ايراسم) ، الذي رأينا كيف كانت كتبه موجودة في معظم مكتبات القرن السادس عشر . من عام ١٥٠٠ الى ١٥٢٥ ، نجد ٧٢ عملية سحب واعادة طبع لكتابه « حكم وامثال » باشكاله المختلفة . ومن عام ١٥٢٥ حتى ١٥٥٠ ، حوالي الخمسين ، ومن عام ١٥٥٠ حتى ١٥٦٠ ، في حدود الاربعين . أما كتابه « المناظرة » ، فنجد عنه من عام ١٥١٨ حتى ١٥٢٦ ، حوالي ستين طبعة معروفة ، ومن عام ١٥٢٦ حتى ١٥٥٠ حوالي ٧٠ ؛ من عام ١٥٥٠ حتى ١٦٠٠ ، حوالي العشرين ، بدون المقتطفات والترجمات . وهكذا يصل المجموع الكلي ولا شك ، الى عدة مئات الآلاف من النسخ عن هذين المؤلفين لـ (ايراسم) ، طبعت جميعها خلال السنوات الخمسين التي تلت اصدارهما وحتى تم استبعادهما بصورة نهائية .

مثال آخر : الى جانب (ايراسم) ، الذي كانت أعماله باللاتينية منتشرة في كافة أنحاء أوروبا ، كان هناك (رابليه) الذي يكتب بالفرنسية. فها هو أولا كتابه « العملاق بانتا غرييل » (Pantagruel) الذي ظهر عام ١٥٣٣ تحت اسم « Alcofribas Nasier » ؛ الى جانب الطبعة الاصلية (التي لا نعرف عنها سوى نسخة واحدة) ، هناك خمس عمليات سحب ، تمت في العام نفسه ، علاوة على نسخ اخرى لا بد انها ضاعت اليوم . كذلك نجد ، بين عامي ١٥٣٣ و ١٥٤٣ ، ٢٧ اعادة طباعة لهذين الكتابين ولكتابه Prognostication .

بعد اثني عشر عاما من اصدار « Pantagruel » اصدر (رابليه) « الكتاب الثالث » ، ليس بالحروف القوطية وتحت اسم مستعار ، بل بالحروف الرومانية وباسمه الصريح . صدر هذا الكتاب في باريس ، لدى رجل الطباعة الانسي (ويشل) ؛ وقد كان معدا لجمهور أكثر ثقافة ، حيث اعيدت طباعته تسع مرات على الاقل ، بين عامي ١٥٤٦ و ١٥٥٢ . أما « كتابه الرابع » ، الذي ظهر عام ١٥٤٨ ، فقد أعيدت طباعته ثماني مرات على الاقل خلال السنوات الخمس التي تلت اصداره ؛ وأما « كتابه الخامس » ، فقد أعيدت طباعته خمس مرات بين عامي ١٥٦٢ و ١٥٦٥ . واخيرا ، بين عامي ١٥٥٣ و ١٥٩٩ ، اعيدت طباعة أعمال (رابليه) ٢٤ مرة على الاقل ، كل هذهشواهدثابتة على ان مختلف كتابات (رابليه) قدانتشرت منذ القرن السادس عشر بعشرات الآلاف من النسخ وربما بأكثر من مئة ألف اذا أخذنا الطبعات المفقودة بعين الاعتبار .

بالاضافة الى (ايراسم) و (رابليه) ، كان هناك أيضا (بوديه) ، الذي نجد أن بحثه العلمي الشهير « De asse »قد أعيدت طباعته لا أقل من عشرين مرة ، بالفرنسية واللاتينية ؛ كما كان هناك أيضا (توماس موروس) صاحب الكتاب المعروف « المدينة الفاضلة الخيالية » ، الذي ظهر لاول مرة عام ١٥١٦ في مدينة انفرس ، والذي أعيدت طباعته فيالقرن السادس عشر ، احدى عشر مرة بدون الترجمتين الفرنسيتين ، الأربعة الالمانية والثلاثة الانكليزية ومثلها بالايطالية .

هذه أمثلة تعتبر غيضا من فيض ؛ وقد برهن (فيفيس) انه كان هناك آنذاك جمهور واسع قادر من الآن فصاعدا على فهم مثل هذه المؤلفات والاهتمام بها : ولا يمكن لغير الطباعة ارضاء حاجات مثل هذا الجمهور . بل أكثر من ذلك ، فقد أدى بعث « القديم » أحيانا الى خلق أنواع من الاعجاب الزائد (بل الدئرْجات) التي ترجمت الى احراز المكتبات نجاحات هائلة مدهشة . فلنأخذ أولا دُرْجة « الشعارات » مثلا : في عام ١٥٣١ ، اصدر المستشار القانوني (ألسيات) في اوغسبورغ ، كتيبا يحتوي على العقوبات المعنوية في العهد القديم ، ورمز لكل منها برسم منقوش . وقد استطاعت « شعارات » (ألسيات) هذا ، بفضل زخرفتها المصورة ، أن تلاقي نجاحا هائلا ، حيث تم احصاء ٣٩ طبعةمن عام١٥٣١ الى ١٥٥٠، و ٥٤ طبعة من عام ١٥٥١ حتى ١٦٠٠ . ثم ما لبثت أعمال تقليد هـــذا الكتاب أن بدأت تظهر على أيدي جان سامبوك ، كلود بارادين وغليــوم غيرو ؛ وقد ظل كتاب الشعارات يلاقي رواجا متزايدا حتى في صميم القرن السابع عشر .



كذلك كان الشغل الشاغل للانسيين ، في المجال العلمي ، منصبا على الرجوع الى المؤلفات الكلاسيكية اليونانية واللاتينية ، وتجريدها من الشروح والتعليقات .

منذ القرن الخامس عشر اذن ، بدأ الناس يطبعون ويعيدون طباعة أعمال أساتذة العهد القديم الكلاسيكي وجهابذته . ففي عام ١٤٩٩ ، ظهر في فينيسيا ، لدى (آلد مانوس) ، مجموعة الاعمال الاساسيـــة للفلكيين القدامى ، « Astronomici veteres » ، وذلك باللغتين اليونانية واللاتينية . ومنذ الفترة الواقعة بين عامي ١٤٩٥ ــ ١٤٩٨ ، كان قد ظهر لدى (آلد) نفسه ، الطبعات الخمس النصفية للنص اليوناني لارسطو : في الجزء الثالث ، « تاريخ الحيوان » ؛ في الجزء الرابع ، « تاريخ النبات » لـ (تيوفراست) ، ومعه « المسائل » و « الميكانيك » ؛ ومنذ عام ١٤٧٥ ،

كانت « الكوزموغرافيا » لبطليمس قد ظهرت بدون خرائط ، ثم في عام ١٤٧٨ ، في روما ، مع الخرائط المنقوشة على النحاس . في عام ١٥٣٣ ، قدمت (هيرواغن) الى (بال) الطبعة الاولى من « عناصر » اقليدس ، وفي عام ١٥٤٤ ، الطبعةالاولى عن أعمال أرخميدس . ظهر كتاب « غاليان » لدى (آلد) على شكل خمس طبعات نصفية صغيرة منذ عام ١٥٢٥ ؛ كما ظهر لدى (آلد) أيضا ، في عام ١٥٢٦ ، النص اليوناني لـ (ابو قراط) الذي صدرت عنه طبعة في روما السنة الفائتة . الا أن العالم العربي (ابن سينا) سبق هؤلاء (١٤٧٣ ، ١٤٧٦ ، ١٤٩١) ، ولكن (Pline) الذي صدر في فينيسيا لدى (جان دي سبير) عام ١٤٦٩ (ثم في الاعوام ١٤٧٠ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٩ ، الخ ... ، كان قد سبق الجميع . وهكذا وضعت في متناول الجميع : الميكانيك ، الفلك ، الجغرافيا ، الفيزياء ، التاريخ الطبيعي وطب القدماء ، وذلك في طبعات جديدة وترجمات جديدة حلت محل نسخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وقد أصبح بالامكان ، منذ ذلك الحين ، تأويل تعاليم المعلمين القدماء وتكملتها والتعليق عليها ؛ أو بالاحرى ، كان بامكانهم القيام بذلك لولا الهالة القدسية التي احاطوهم بها والاحترام الزائد الذي يكنّونه لهم . اذ يبدو أن الانسيين كانوا يعتقدون في معظم الاوقات ، ان الرجوع الى النص اليوناني أو اللاتيني الاصلي ، الى بطليموس وتيوفراست وارخميدس ، يكفي لحل كل شيء ؛ كما كان يبدو في اغلب الاحيان ، أن مصلحتهم كانت مشدودة الى الكفاءات الادبية للعمل اكثر منها الى قيمته العلمية . وقد كانوا ، في الوقت نفسه ، يعلنون غالبا عن ازدرائهم الكلي لمؤلفي القرون الوسطى ، ويحيطون أعمالهم بسكوت تآمري مقصود بينما يستشهدون دائما بالادباء الكلاسيكيين ويشيدون بعلمهم الواسع . الا أن ذلك لم يمنع بعض رجال الطباعة الانسيين من نسخ الكتابات العلمية للعصر الوسيط وطباعتها غالبا مع تزييف أصلها الحقيقي .

وهكذا خلق ، بالتوازي مع التقليد المدرسي المستند على تعاليم ارسطو ، تقليد آخر كلاسيكي . كما حرّضت الطباعة في الوقت نفسه على ظهور نوع جديد من الادب باللغة العامية الموجهة الى الجماهير ، من

خلاصات ووصفات وتشخيص للامراض وتقاويم فلكية ، بينما كان رجال الطباعة يترددون في ان يقدموا لمطابعهم الاعمال اللاتينية ذات الطابع العلمي والموجهة الى جمهور محدود . اما فيما يتعلق بالمجال العلمي ، فيبدو انهم لجؤوا ، للوصول الى النصوص ، الى المخطوطات التي استندوا عليها في هذا المجال اكثر من اي مجال آخر ؛ وهكذا نجد أن بحوثا علمية قيّمة ظلت أحيانا مخطوطة أو لم تطبع الا بعد وفاة مؤلفيها . فالبحث الذي كتبه (جيورجيو فللا) والمسمى « ما يجب السعي وراءه أو الهرب منه » ، لم يظهر الا عام ١٥٠١ ، بعد وفاة مؤلفه . كذلك كان (جوهان ستوفلر) ، الذي توفي عام ١٥٣١ عن عمر يناهز الثمانين ، قد أصدر العديد من التقاويم الفلكية ؛ الا ان كتابه الفلكي المعروف ، « بعض الاوصاف الكونية » لم يظهر للمرة الاولى الا في عام ١٥٣٧ ، في مدينة (ماربورغ) . والامثلة على ذلك اكثر من أن تحصى . من بين المؤلفات التي لاقت نجاحا أكيــدا آنذاك ، وكذلك في القرن الخامس عشر : كانت قبل كل شيء المتعلقة منها بعلم التنجيم العملي . لذلك كان الكثيرون من رجال القانون أو البورجوازيين الباريسيين يملكون « الاسطرلاب »(١) . وهكذا نجد أن تجمع الكواكب في شكل « سمكة » خلال شهر شباط من عام ١٥٢٤ ، وهو انذار بالمصائب والكوارث ، قد ادى الى اصدار ابحاث الّفها / ٥٦ / مؤلفا مختلفا من بينهم : ستوفلر ، اغوستينونيفو ، وبيير مارتير . الا أن هذا لا يدعو للاستغراب ، لان علم التنجيم كان يعتبر ، وفق معارف ذلك العصر ، اسلوبا معقولا تماما . ولكن عندما قرر (كوبرنيك) في عام ١٥٤٣ ، وبعد تردد طويل ، أن ينشر نتيجة ابحاثــه في كتابه الشهــير « الكتب الستة في دورات الاجرام السماوية » ، لدى (جان بيتري) من نورمبرغ ، لم يثر ذلك اهتمام الجمهور مطلقا ؛ وكان لا بد من الانتظار مدة / ٢٣ / سنة أخرى ، حتى عام ١٥٦٦ ، حتى تتم طباعة هذا الكتاب من جديد .

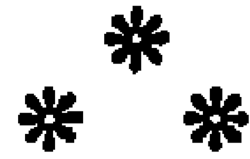


(١) الاسطرلاب = هي آلة قديمة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم . (المترجم)

في الواقع ، يمكن القول بأن الطباعة قدمت اكبر الخدمات في مجال ما يمكن تسميته بالعلوم الوصفية (كالعلوم الطبيعية والتشريح) ، وذلك عن طريق الزخارف والرسوم .

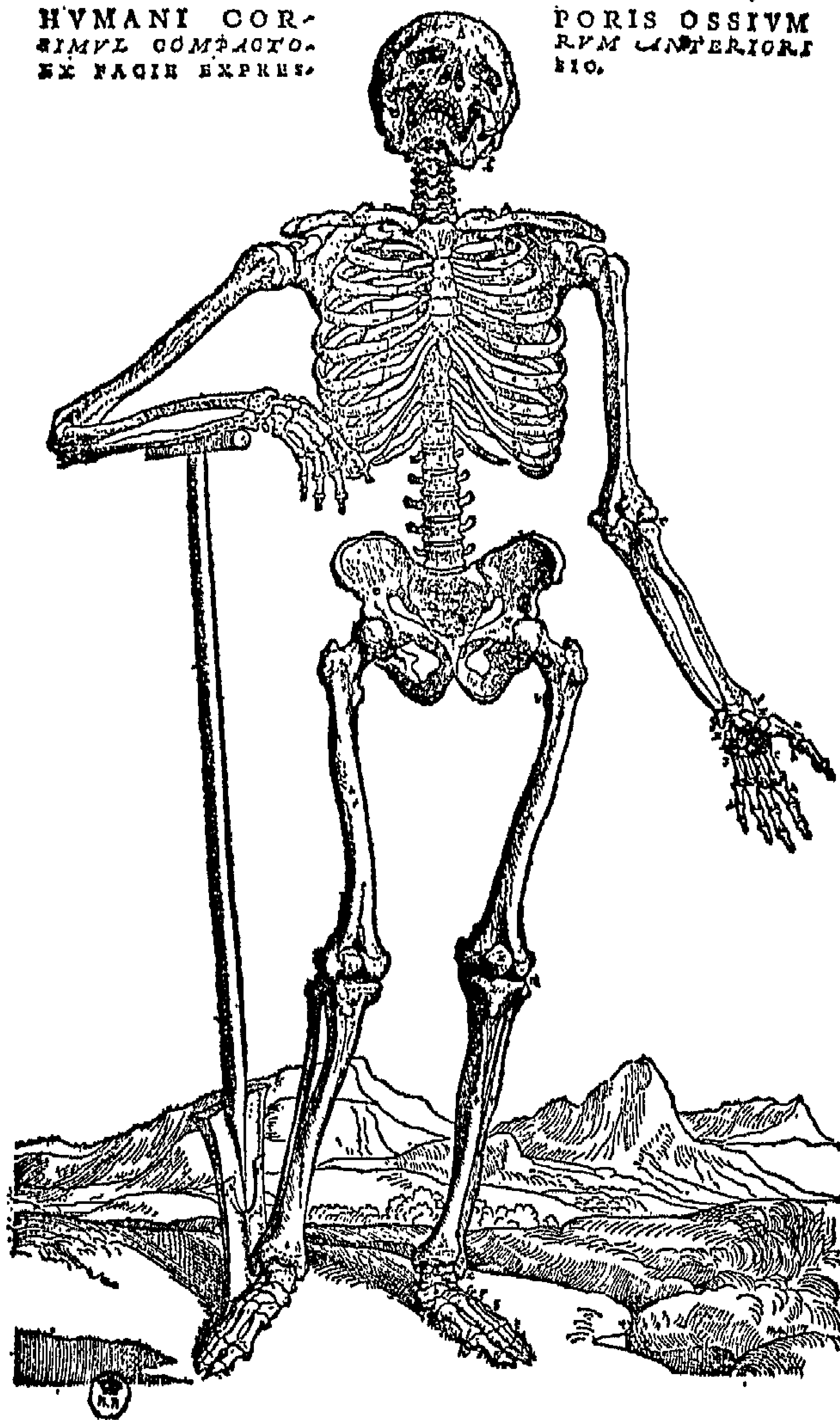
ففي عام ١٥٤٣ ، اي نفس العام الذي نشر فيه (كوبرنيك) كتابه الآنف الذكر ، كان (فيزال) يصدر في بال ، ولدى (أوبورين) ، كتابه المتعلق بجسم الانسان والمسمى «الكتب السبعة في تكوين الجسم البشري»، مع لوحات جميلة منقوشة على القوالب الخشبية من قبل (جان دي كالار) ، تلميذ (تيتيان) ، والتي استخدمت سنة ١٥٣٨ في فينيسيا من اجل الطبعة التي قدمها (فينرال) عن كتاب التشريح المسمى «مبادىء التشريح » لـ (جوهان غنتيروس) . وقد ظل هذا الكتاب يطبع وينسخ ويقلد ، كما تعرف الناس بفضل هذه اللوحات والنقوش على تشريح الجنس البشري . في حوالي تلك الفترة نفسها ، مل علماء النبات من محاولات التعرف على نباتات بلادهم في كتابات « القدماء » ، الذين كانوا يجهلونها غالبا ، فالتفتوا نحو المشاهدة والملاحظة المباشرتين ؛ ثم ما لبث علماء الحيوان ان حذوا حذو هؤلاء. وقد انجز عمل ضخم في هذا المضمار، حيث ظهر في ستراسبورغ ، منذ عام ١٥٣٠ ، اول مجلد لاقدم الكتب المصورة عن النباتات ، هذا المؤلف الرائع المسمى « صور اعشاب اقتدى في رسمها بالطبيعة » للعالم المعروف (أوتو برونفيلز) ؛ ثم تلاه في بال ، سنة ١٥٤٢ ، « تاريخ الاغراس » لـ (ليونارد فوش) ؛ وفي عام ١٥٥١ ، ظهرت في زوريخ الطبعات الاربع النصفية الكبرى التي نشر فيها (كونراد جيسنر) احصاءا بكافة الحيوانات التي عثر على ذكرها في اي مرجع كان ، واضعا الحقيقية والاسطورية منها جنبا الى جنب ؛ بعد ذلك بقليل ظهر بحث عن « السمك » لـ (روندوليه) ، باللاتينية أولا كما يجب (١٥٥١) ، ثم بالفرنسية (١٥٥٨) ، مع رسوم منقوشة رائعة . وفي الوقت نفسه تقريبا، قام (بيير بيلون) ، من (مان) ، هو الآخر بنشر بحث عن « الاسماك » و « العصافير » ، بينما قام (جورج اغريكولا) ، الذي كان يدرس المعادن، باصدار كتابه « منابع وأسباب الاحداث الجوفية » في مدينة بال سنة

١٥٤٦ ؛ وفي عام ١٥٥٥ ، في بال ايضا ، اصدر طبعته النصفية الرائعة « عن المعادن » . كانت كافة هذه المؤلفات مزخرفة بالرسوم التفسيرية والايضاحية التي بدأ النقاشون ينحتونها على الخشب بالآلاف ، وفق التعليمات المعطاة لهم من قبل العلماء الطبيعيين ؛ وما زال محفوظا منها في متحف (بلانتين ــ موريتوس) ، ما يقرب من / ٣٠٠٠ / حتى اليوم . أما الطبعات الفخمة المنفذة بواسطة هذه النقوش الخشبية ، فكانت تلاقي رواجا لدى جمهور من الهواة المطلعين ، الذين كانت تحدوهم في مشترياتهم هذه احيانا ، دوافع واهتمامات لا تمتُ الى العلم بصلة .



وهكذا قامت الطباعة ولا شك بتسهيل عمل العلماء في بعض المجالات. الا انه يمكن الاعتقاد اجمالا بأنها لم تساهم مطلقا في التعجيل بتبني النظريات أو المعلومات الجديدة . بل على العكس من ذلك ، فقد ساهمت في تعميم بعض المعلومات والافكار المكتسبة منذ زمن بعيد ، كما ساعدت على تثبيت جذور بعض الاحكام القديمة المسبقة أو الاخطاء المغرية ، فكانت بمثابة تجميد وتعطيل للكثير من التجديد . وقد كان الناس آنذاك يثقون في أغلب الاحيان بسلطة التقاليد ، ولا يأخذون بعين الاعتبار المكتشفات المعاصرة : لذلك نستغرب جدا عندما ندرس موقف الجماهير في القرن السادس عشر ازاء الاكتشافات الجغرافية والفتوحات البعيدة التي لم يقدَّر تأثيرها على الحياة اليومية ، ولم تدرك أصولها واهميتها الا بصورة متأخرة .

من المعروف أن نتائج الاكتشافات البرتغالية ظلت مدة طويلة طي الكتمان ؛ ولم يطلع عليها سوى جماعة صغيرة من الضالعين في العلم . ويبدو في الواقع أن انتباه الجمهور لم ينجذب للمرة الاولى الى نشاط المكتشفين ، الا عندما ظهرت رسالة (كريستوف كولومبس) الشهيرة ، التي يصف فيها رحلته الاولى . من المفروغ منه ، أن اعلان هذه الانباء قد اثار موجة كبيرة من حب الاطلاع ، لان هذه الرسالة قد طبعت في آن واحد سنة ١٤٩٣ ، في كل من برشلونة وروما وبال وباريس ، كما اعيدت طباعتها في بال سنة ١٤٩٤ وفي ستراسبورغ


DE HVMANI CORPORIS FABRICA LIBER I. 163
HVMANI COR-
SIMVL COMPACTO-
EX FACIE EXPRES-
PORIS OSSIVM
RVM ANTERIORI
SIO.

عام ١٤٩٧ ، باللغة الالمانية هذه المرة . الا أن الستار بدأ يرتفع بشكل خاص خلال السنوات الاولى من القرن السادس عشر . ففي عام ١٥٠٤ ، ظهر في فينيسيا كتاب (بيير مارتير) ، « Libretto »، الذي يروي قصة الرحلات الثلاث الاولى لكريستوف كولومبس . وفي السنوات التالية ، من ١٥٠٥ حتى ١٥١٤ ، ظهرت ، في روما خاصة ، وكذلك في نورمبرغ وكولونيا وغيرها ، سلسلة من القصص عن أعمال البرتغاليين في بلاد الهند الشرقية ، التي تمت صياغتها على شكل رسائل موجهة الى البابا باسم ملك البرتغال ، والتي طبعت عادة باللاتينية وأحيانا بالالمانية . وفي الوقت نفسه ، بدأت تنتشر كراسة متعلقة « بالعالم الجديد » ، « Mundus Novus » ، مستندة الى رسالة كتبها (أميرجيو فيسبوسي) الى (لوران دي ميديسيس) . وقد لاقى هذا الكراس ، الذي ما لبث أن تلته كراسات أخرى ، نجاحا كبيرا ، كما اعيدت طباعته اعتبارا من عام ١٥٠٤ بعدة لغات ، في كل من باريس وروما وفيينا وأوغسبورغ ؛ كما صدرت عنه ست طبعات فرنسية وواحدة لاتينية ، وذلك في فرنسا خلال الربع الاول من القرن . كذلك ، من عام ١٥٢٢ الى ١٥٣٢ ، صدرت عن رسائل (كورتيز) الثلاث ، ١٤ طبعة في اسبانيا وايطاليا وفرنسا والمانيا . كما نجد في الوقت نفسه ، أن الاهتمام الذي أثارته الفتوحات ودعم الملوك وتشجيعهم للاعمال المتعلقة بالبلدان الجديدة ، كل ذلك أدى في كل من اسبانيا والبرتغال ، الى ظهور أدب خاص بهذه الاعمال والفتوحات . ففي اسبانيا ، قام (بيير مارتير) ، الذي مر ذكره آنفا ، في عام ١٥١١ ، باصدار « سنواته العشر » الاولى التي تلتها كتب اخرى . وفي عام ١٥١٩ ، ظهر كتاب « موجز في الجغرافية » لـ (مارتين فرنانديز دي انسيزو) . واعتبارا من عام ١٥٢٦ ، بدأ (فرنانديز دي أوفيدو فالدس) باصدار سلسلة من المؤلفات المتعلقة بجغرافية الهند وتاريخها . كل هذا يدل على أن الاكتشافات الجغرافية الكبرى ، والفتوحات الاسبانية والبرتغالية لم تمر خلسة ؛ ولكن لا بد من التحذير هنا من الوقوع في الخطأ أو الالتباس : فحتى حوالي عام ١٥٥٠ ، لم تكن هذه الاعمال لتثير اهتمام احد ، خارج حدود شبه الجزيرة الإيبيريه ، باستثناء فئة محدودة نسبيا من العلماء والمثقفين وكبار التجار . كما أن المفاهيم الجديدة لم تستوعب بشكل كامل ، حتى أن عددا كبيرا من المخطوطات ذات الفائدة الكبرى لم تجد طريقها الى النشر ؛ ومن الجدير بالذكر هنا ، أنه صدرت في فرنسا ثلاث طبعات جديدة بالفرنسية ، سنة ١٥٣٠ ، عن « رحلات ماندفيل»، بينما لم ينشر خلال النصف الاول من القرن ، لبيير مارتير ، سوى مستخرج (مقتطفات) عن « الجزر المكتشفة » عام ١٥٣٣ . بل أكثر من ذلك أيضا : فقد صدرت خلال الفترة

الواقعة بين عامي ١٥٢٩ و ١٥٥٨ ، سبع طبعات جديدة بالفرنسية عن جغرافية (Boemius) التي لم يرد فيها أي ذكر لامريكا ، بل وردت فقط بعض الوقائع الجديدة المتعلقة بافريقيا وآسيا .

لم يتبدل هذا الوضع الا اعتبارا من عام ١٥٥٠ ، حيث تنبهت اوروبا بصورة أوضح للآفاق الجغرافية الجديدة التي انفتحت أمامها . ففي اسبانيا ، قام (فرانسيسكو لوبيز دي غومارا ، أمين سر (كورتيز) ، باصدار كتاب عن « تاريخ الهند وفتح المكسيك » ، بينما قام الاب الدومينيكي الشهير (LasCasas) باصدار سلسلة من الرسائل التي يدافع فيها عن الهنود . اما في البرتغال ، فقد كانت هذه الحركة اكبر اهمية أيضا ، كما بدات تظهر سلسلة رائعة من النشرات الاخبارية التاريخية ـ الجغرافية : واعتباراً من عام ١٥٥٢ ، اصدر (جوان دي بروس) كتابه المعروف « السنوات العشر » ؛ في عام ١٥٥١ بدأ يظهر تاريخ (قصة) فتح البرتغاليين للهند ، الذي نشر تحت عنوان :

« Historia do descobrimento e Conquista da India pelos Portuguezes »

وفي عام ١٥٥٧ ، ظهرت « تعليقات » .(Albuquerque) بقلم ابنه . انتهت هذه الحركة اخيرا بكتاب « Luisiades » لـ (كاموينز) ، الذي لاقى رواجا هائلا . وهكذا بدات تظهر اذن عدة مؤلفات تتعلق بالبلدان المكتشفة حديثا ، وخاصة الفتوحات الاسبانية والبرتغالية . عما قريب ، سنجد المبشرين يشرعون في ارسال حكايات مفصلة ، وبصورة منتظمة ، عن نشاطهم هناك ، وفي الوقت نفسه ، نجد أن كتاب « وصف الكواكب الكونية» ، لـ (مونستر) ، وهو عبارة عن وصف عام للعالم ظهر في بال عام ١٥٤٤ ، قد لاقى نجاحا هائلا أيضا (٤٦ طبعة بست لغات خلال القرن الذي تلا نشره) . بينما لم يصدر في فرنسا سوى ٨٣ مؤلفا جغرافيا باللغة الفرنسية قبل عام ١٥٥٠ ، نجد أنه طبع منها ٤٨ بين عامي ١٥٥١ ـ ١٥٦٠ ، ٧٠ بين عامي ١٥٦١ ـ ١٥٧٠ ، ٨٢ في الفترة من ١٥٧١ ـ ١٥٨٠ ، ٧٦ بين ١٥٨١ ـ ١٥٩٠ ، ٥٤ بين ١٥٩١ ـ ١٦٠٠ (ويعزى هذا الانخفاض الى الحروب كما يبدو) ، و ١١٢ بين ١٦٠١ ـ ١٦٠٩ . كذلك لا بد أن نجد نسبا مماثلة بالنسبة للمؤلفات المطبوعة باللغات الاخرى . فقد لاقت كتب (بيير مارتير) نجاحا كبيرا آنذاك ، كما ترجمت النشرات الاخبارية لـ (كاستنهيدو) الى الاسبانية واللاتينية والفرنسية . كذلك لاقت قصص كل من (غومارا) و (ألبوكيرك) رواجا هائلا أيضا . أما من بين الاعمال

الجديدة التي كانت مطلوبة أكثر من سواها ، فيمكن أن نذكر على سبيل المثال وبدون تعيين : « الابواب الستة عشر في فهارس كتب التاريخ » للاب اليسوعي « منتّي » (فينيسيا ١٥٨٨ ــ ١٥٨٩) والمجلدات المتعلقة بالكونغو لـ (بيغافيتا) ، والمجلدات المتعلقة بالصين لـ (بيرناردينو دي ايسكالانت) و (غونزالس دي مندوزا) . هذا بالاضافة الى أعمال كثيرة أخرى ، يمكن ان نخص بالذكر منها وصفا شاملا لافريقيا « De totius Africae descriptione » وضعه عالم عربي من مدينة غرناطة ، كان قد جاب أنحاء أفريقيا قبل أن يقع أسيرا بين أيدي بحارة مسيحيين سلموه الى (ليون العاشر) ، فوضع هذا الكتاب بتشجيع من البابا نفسه(١) .

وهكذا بدات تنهال منذ ذلك الحين ، الكتب المتعلقة بالاراضي الجديدة ، حتى أصبح احصاؤها يزداد صعوبة اكثر فاكثر . وقد ادى الاهتمام المتزايد الذي أبداه الجمهور تجاه هذه الاعمال ، الى ظهور العديد من المجلدات الكبرى في كل مكان تقريبا . ويمكن أن نخص بالذكر من اكثرها شهرة مؤلفات (راموزيو) من ايطاليا ، وخاصة (هالكوغ) و (بوركاس) عن انكلترة . عماقريب سنجد في فرانكفورت (Francfort-sur-le-Main) عائلة من تجار الاختام تدعى (دي بري) ، تشرع في اصدار مجموعات هائلة ، على غاية من الفخامة ومزخرفة بالصور والرسوم ، عن الرحلات الكبرى والقصيرة ، دامت طباعتها ٤٤ عاما ، كما اعيدت طباعة مجلداتها باللاتينية والالمانية في أحيان كثيرة ، بينما عدل الناشر عن محاولة ترجمتها الى الفرنسية بسبب عدم توفر الزبائن الكافين لشراء مثل هذه المجموعة الثمينة على الارجح .

وهكذا نجد أن الناس لم يبدؤوا فعلا ، الا بعد عام ١٥٦٠ ، بالتسليم بصورة أوسع بوجود عوالم أخرى يهتمون بها ؛ ولم يصبح هذا الاهتمام عاما الا في السنوات الاخيرة من القرن . كل هذا يبين لنا بوضوح ، كيف كان الراي العام بطيئا خلال القرن السادس عشر ، في تقبل أو «استيعاب» المعطيات الجديدة التي كانت تقلب نظرته الى العالم رأسا على عقب . لذلك يحق لنا ان نتساءل الى اي مدى تبدلت هذه النظرة كليا حوالي عام ١٦٠٠ . وفي هذا المجال ، تعطينا اعمال (أتكنسون) دلالات مذهلة فيما يتعلق بالادب الجغرافي الفرنسي . ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ،

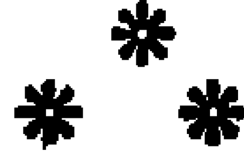
(١) من المؤسف حقا أن يعج هذا الكتاب بما هب ودب من الاسماء ، بينما لم يكلف المؤلف نفسه عناء ذكر اسم هذا الانسان العربي أو البحث عنه . (المترجم)

التنويه بأنه من بين المؤلفات التي كانت تقرأ اكثر من سواها في فرنسا خلال القرن السادس عشر ، لا يمكن ادراج رحلة (ماركوبولو) (التي لم تطبع سوى مرة واحدة بالفرنسية خلال القرن كله ، وذلك في باريس سنة ١٥٥٦) ؛ كذلك كان الوضع في حينه بالنسبة لروايات كل من (جاك كارتييه) و (شامبلان) . اما المؤلفات التي كانت تطبع دائما بالفرنسية خلال القرن السادس عشر ، فهي : الرسائل التي كتبها من اليابان الاب اليسوعي (فروس) (١٩ طبعة) ، رحلات (فيامون) الى تركيا وسوريا ومصر ، التي تبدو قليلة الاهمية في نظرنا (١٣ طبعة) وكذلك كتب كل من (لويس لوروا) ، (بوستيل) ، (بيلون) أو (تيفيه) ، الذين كانوا يتمتعون ولا شك بفكر مبدع ولكن معلوماتهم الجغرافية لم تكن بهذا المستوى لخلوّ مؤلفاتهم من روح النقد والاعلام (باستثناء « لوروا » على الاغلب) . بالاضافة الى ذلك ، يمكن ذكر أعمال (بويميوس) التي المحنا اليها آنفا (والتي انقطعت عن الصدور سنة ١٥٥٨) ، ومجلدات (أورتليوس) المختلفة التي يمكن ان نعزو الاقبال على اعادة طبعها عدة مرات الى رسومها الجميلة .

قد يكون من الامور التي لها دلالتها ، أن كافة هذه المؤلفات لاقت نجاحا اكبر من ترجمات كبار المؤلفين الاسبان ، الذين كان اكثرهم رواجا: لوبيز غومارا (٦ طبعات منفصلة بالفرنسية) ، مندوزا (٥) وكاستنهيدا (٥) . ولا يمكن القول هنا بأن في هذا شعورا عدائيا تجاه اسبانيا ، مستمدا من الخلافات السياسية ، لان هجمات الاب (لاس كازاس) على الاعمال الوحشية الاسبانية في العالم الجديد ، لم تطبع سوى ثلاث مرات بالفرنسية .

علاوة على ذلك ، يمكن أن نخرج باستنتاجات مفيدة جدا اذا فتشنا عن البلد الذي كانت تلتفت اليه الانظار طواعية ويستأثر باهتمام الاغلبية. لقد كان السواد الاعظم للكتابات الجغرافية باللغة الفرنسية منصبا على ما نسميه اليوم **بالشرق الاوسط** . لذلك نجد ان الكتب المتعلقة بالاتراك (الذين كانوا يستأثرون باهتمام الناس كما يبدو) ، قد بلغت ضعف

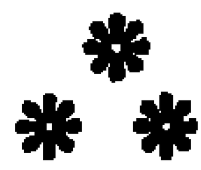
ما كتب عن أمريكا آنذاك . ثم تأتي بعد ذلك الاعداد الكبيرة من الكتب التي تتعلق بالهند الغربية والفتوحات البرتغالية . بعد هذه تأتي الكتب العديدة أيضا التي تصف بلدان آسيا كالصين وبلاد التتر والارض المقدسة (كانت الكتب التي تصف الرحلات الى القدس كثيرة بشكل خاص) . اما الكتب المتعلقة بأمريكا ، فلا تأتي الا بالدرجة الرابعة ، بينما لم تكن افريقيا والبلدان الشمالية مثار أي اهتمام على ما يبدو . وهكذا يبدو أن الفرنسيين في القرن السادس عشر ، اذا صدقنا كتاباتهم ، كانوا يوجهون اهتماما أكبر الى العالم القريب من البعيد ، الى العالم المعروف منذ زمن طويل على الذي ظل مجهولا حتى ذلك الحين . وهكذا التفتت الانظار الى الشرق اكثر منها الى الغرب ؛ ولا شك في أن آفاق الناس قد اتسعت خلال عصر النهضة ولكن صورة العالم ظلت تبدو لهم وكأنها مشوهة .



في الحقيقة ، كان الانسان المثقف في القرن السادس عشر يهتم **بالحقوق والقانون** أكثر من اهتمامه بالجغرافيا أو بعلوم الطبيعة (علما بأن المقصود هنا هو الطب العلمي وليس أدب الوصفات) . لذلك راجت كثيرا تجارة المجلدات القانونية الثقيلة التي كان وكلاؤها المعتمدون الرئيسيون هم بعض كبار أصحاب المكتبات المتخصصين في ليون وفينيسيا ، كما زادت طبعات كتب القانون والحقوق في القرن السادس عشر عما كانت عليه في القرن الخامس عشر . وليس هذا بمستغرب لاننا رأينا في هذه الفترة ، أن رجال القانون كانوا يشكلون قسما هاما من زبائن أصحاب المكتبات . وقد كان أكثر من ثلاثة ارباع المكتبات الفرنسية تحتوي آنذاك عددا هائلا من كتب الحقوق ، التي يعود العديد منها الى رجال يفترض انهم بعيدون كل البعد عن هذا الاختصاص ، كالصاغة والطحانين والصيادلة على سبيل المثال . أما الاشخاص الذين كانت لهم صلات بالمحاكم ورجال القضاء ، فمن الطبيعي أن نجد لديهم كميات كبيرة من كتب الحقوق : ففي باريس ٤٢ من أصل ٥٥ لدى المحامي كوزينو(١٥١٨)،

وبعد ذلك بقليل (١٥٣١) ، ٣١٨ من أصل ٥١٣ لدى الرئيس (ليزيه) ؛ ولا تعتبر هذه حالات استثنائية .

من بين المؤلفات الحقوقية الكثيرة الطبعات والتي كانت توجد غالبا في المكتبات ، يمكن ان نذكر بحوث الحقوق المدنية والحقوق الكنسية التي يستحيل احصاء عدد طبعاتها الذي اختفى معظمها اليوم ؛ وكذلك الطبعات المجزاة للكتب التالية : « الدساتير » ، « مجموعة القوانين » ، « قانون ودستور أباطرة المشرق » ، « مرسوم غراتيين » ، و « فتاوى » البابا (غريغوار التاسع) . كما يكمن أن نضيف الى هذه المؤلفات بعض المجموعات والمختارات من المراجع التالية : « ازهار الشرائع » ، « مرآة القانون » ، وخاصة المرجع القانوني المعروف « طريقة قراءة المختصرات في الشرعين المدني والقانوني » . اذا كانت هذه الابحاث الحقوقية الرومانية والكنسية تشكل بصورة اجبارية أساس كل مكتبة قانونية حقوقية ، فان نصوص القوانين العرفية (الاعراف) والقانون الحديث قد بدأت تكثر آنـذاك ، وخاصة في فرنسا ، كما صدرت عنها طبعات عديدة في مناسبات شتى ، حتى أصبحنا نجد مثل هذه المؤلفات في كثير من المكتبات ؛ الا انه في هذا البلد بالذات ، وبينما كان التشريع الملكي رهن الوضع والتشكيل ، ظلت طباعة مجموعات القوانين تتزايد باستمرار . كذلك سنجد عما قريب رجال طباعة متخصصين ، معينين من قبل الملك ، يكلفون بطباعة ونشر القرارات الملكية فور صدورها اذا كان من الضروري اطلاع الجماهير على مضمونها ؛ ثم لن تلبث البلاطات الفرعية والثانوية ان تحذو حذو الملك في هذا المجال . وهكذا تكاثرت القوانين المطبوعة المنفصلة ، التي لعبت آنذاك نفس الدور الذي تلعبه اليوم الجرائد الرسمية والادارية .



الا أن ما كان يستقطب اهتمام جماهير القراء اكثر من كتب الحقوق ، هي **كتب التاريخ** . لذلك نجد أن المؤلفات من هذا النوع ، وخاصة ما كان منها باللغة العامية ، قد لاقت غالبا نجاحا منقطع النظير . وقد رأينا

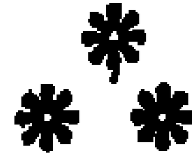
سابقا أن المؤرخين كانوا يتمتعون ، من بين كتاب العصور القديمة ، بحظ وافر من التقدير ونصيب كبير من الترجمات . في هذه الفترة بالذات ، نجد أن أعمال هيرودوت وتوسيديد وتاسيت وسوياتون وفالير مكسيم قد نشرت عدة مرات ، كما كانت توجد في العديد من المكتبات . بالاضافة الى ذلك يمكن ذكر « عشاريات » تيت ــ ليف ، « حرب الغاليين » لسيزار ، « الآثار اليهودية القديمة » لفلافيوس جوزيف ، « التاريخ الكهنوتي » لاوزيب ، و « العوالم » لـ (بلوتارك) . لقد ترجم معظم هذه المؤلفات عدة مرات ، كما صدرت عنها بعض الطبعات المصورة أحيانا ؛ كما نجد في الوقت نفسه أن العديد من الانسيين قد انقلبوا الى مؤرخين ، وعمد الكثيرون ، رغبة منهم بتقليد القدماء ، وخاصة (تيت ــ ليف) ، الى الكتابة باللغة اللاتينية . هنا أيضا تعتبر ايطاليا سباقة في هذا المضمار؛ فمنذ القرن الخامس عشر ، شرع (ليوناردو بروني) في كتابة تاريخ عصره، ثم كتب (بوغ) تاريخ الشعب الفلورنسي ، وتلاه (بومبو) فكتب تاريخ فينيسيا ، بينما قام (أنياس سيلفوس) باعطاء مذكراته العنوان التالي : « حكاية الامور العجيبة في حينها » . عند نهاية القرن الخامس عشر ، وخلال القرن السادس عشر خاصة ، حذت أوروبا كلها حذو المثال الايطالي . ففي اسبانيا عن طريق (بيير مارتير) ، وفي فرنسا عن طريق ايطالي آخر يدعى (بول اميل) ، الذي اصبح الراوي الرسمي لاخبار شارل الثامن ، والذي قام منذ نهاية القرن الخامس عشر ، بتأليف كتاب « بطولات الفرنجة » ؛ ثم ما لبث أن تلاه فرنسي يدعى (روبير غاغين) ، الذي سيكتب بدوره « موجز في تاريخ الافرنج » . ومنذ ذلك الحين ، بدأت المؤلفات المماثلة تصدر في كل مكان . نحن لا نريد هنا أن نتحدث عن تاريخ هذه الحركة ، بل نكتفي بالاشارة الى واقع له دلالته ، وهو أن بعض هذه الكتابات قد لاقى نجاحا كبيرا كما ترجم الى اللغة العامية . فكتاب (غاغين) المسمى « الوجيز » مثلا ، قد أعيدت طباعته تسعة عشر مرة باللاتينية ، من عام ١٤٩٤ حتى عام ١٥٨٦ ، وسبع مرات بالفرنسية بين عامي ١٥١٤ ــ ١٥٣٨ . فيما بعد ، نجد أن « تاريخ ايطاليا» (Historia di Italia) لـ (فرانسيسكو غيسيارديني) ، الذي صدر سنة

١٥٦١ ، قد صدرت عنه ايضا عدة طبعات ايطالية وعدة ترجمات فرنسية وانكليزية واسبانية وفلمندية .

اما الجمهور الذي كان يهتم بالتاريخ آنذاك ، فلم يكن يقتصر على الرهبان والانسيين والدارسين ، بل تعداه الى رجال القانون وحاشية انبلاط ورجال السيف والبورجوازيين ـ التجار ، وحتى الحرفيين . لصالح هذا الجمهور كانت تتم ترجمة مؤرخي العصور القديمة واللاتينيين الجدد . الا أن هذا الجمهور المتعطش الى التاريخ ، كان يبحث أيضـــا عن النشرات الاخبارية المكتوبة بأسلوب القرون الوسطى ، وعن أعمـــال كتّاب المذكرات والاخبار السنوية . لذلك نجد أن مؤلفات من نوع : « المرآة التاريخية » لـ (فينسون دي بوفيه) ، أو « كراس الازمنة » لـ (رولفينك) ، قد احتفظت بعدد كبير من القراء ؛ اما « بحر القصص » فقد أعيدت طباعته وادخلت عليه بعض التعديلات عدة مرات خلال القرن ، بينما نجد أن « كتاب التواريخ » لـ (هارتمان شيدل) ، الذي كان يطلق عليه عادة اسم « مجموعة أخبار نورمبرغ » ، قد لاقى نجاحا كبيرا ، بالاضافة الى أعمال أخرى مماثلة كانت تطبع على جانب واحد من الورقة حتى يمكن الصاق الاوراق ببعضها ليتشكل منها ما يشبه الملفاف . كما نجد في الوقت نفسه ، ان القصص والاخبار السنوية والوطنية وحتى الاقليمية منها ، لاقت رواجا كبيراً في معظم الاحيان . ففي اسبانيا مثلا ، نجد « اخبار اسبانيا » « Cronica de Espana » لـ (دييجودي فاليرا) ، وكذلك « من مآثر اسبانيا » لـ (لوسيو مارينيو سيكولو) (٦ طبعات ، منها ٥ بين عامي ١٥٣٠ و ١٥٣٩ : ٣ باللغة الكاستيلية و ٢ باللاتينية) أما في فرنسا ، حيث عاود الناس قراءة قصص واخبار القرون الوسطى، وخاصة « تاريخ الكنيسة الفرنسية » لـ (غريغوار دي تور) ، « الوقائع والاخبار السنوية في فرنسا » لـ (نيكول جيل) ، فقد طبعت هذه المؤلفات عشرات المرات خلال القرن ، بينما تزايدت النشرات السنوية للاخبار في الاقاليم ، حتى ان بعضها لاقى نجاحا كبيرا مثل : (الاخبار السنوية لاقليم « اكيتان ») لجان بوشيه ، أو (الاخبار السنوية لمنطقة بريتانيـــا)


A mer des
histoires.

ل « درجنتريه » ؛ وقد امتد هذا النجاح حتى القرن السابععشر. كما أن «الآثار القديمة لباريس» لمؤلفه (كوروزيه) ، الذي صدر سنة ١٥٣١، فقد ظل يطبع ويعدل باستمرار طوال القرن . الا أن اكثر هذه الاعمال رواجا هي « مذكرات » (كومين) ثم مذكرات (مارتين دو بيللاي) ؛ وعما قريب سيظهر كتاب « البحث عن الآثار القديمة في فرنسا » ل (ايتيان باسكييه) الذي ستصدر عنه طبعات كثيرة . بانتظار ذلك ، كان قراء القرن السادس عشر يسعون وراء « زخارف الغوليين والخصائص الفريدة لطروادة » لمؤلفه (جان لومير دي بيلج) . لذلك نجد أن هذا المؤلف الغريب لاحد أقرباء (مولينيه) ، الذي يزعم وجـود أصل مشترك بـين الغوليـين والجرمانيين هو طرواده ، قد اعيدت طباعته عدة مرات ، بينما استخدمت زخارفه كنماذج لتزيين النجود : مما يدل على أن هذا الجمهور ، الذي كان يهتم بالتاريخ ، وخاصة التاريخ الوطني بالذات ، ما زال عاجزا بمجمله عن التمييز بين الاسطورة والوقائع الحقيقية او لا يهتم بذلك كثيرا .



الا أن هذا الجمهور الواسع ، الذي يهتم بالتاريخ ، وفي اغلب الاحيان بالتاريخ الاسطوري اكثر من التاريخ الحقيقي ، الذي نجده مولعا بتاريخ طروادة مثلا ، يهتم ايضا بالحكايات الخيالية .

لذلك نجد ان المطابع في القرن السادس عشر ، تعمل بالدرجة الاولى على الاكثار من المؤلفات الخيالية وخاصة قصص الفروسية القديمة التي ظل رواجها في تزايد مستمر . وبينما كانت الروايات الصادرة في القرن الفائت تعاد طباعتها باستمرار ، اخذ الناشرون يفتشون كيفما اتفق عن المخطوطات والنصوص التي لم تنشر بعد ، فيعدلونها حسب الاذواق السائدة قبل اصدارها . وهكذا ظهر من بين أبطال الملاحم الوطنية ، « الفارس ذو البجعة » أو « هويون دي بوردو » ، ومن بـين روايات الفروسية والقصص القديمة « جيرار دي نوفير » و « فلوريمون » وكثيرون غيرهما . وقد استطاع (دوتروبون) اجمالا ، أن يحصي من بين روايات

الفروسية والملاحم الوطنية التي نقلت الى النشر ، ١٣ ملحمة مطبوعة في القرن السادس عشر (اثنتان في الخامس عشر) : (ثمانية منها قديمة ومتعلقة بالفروسية مقابل خمسة) . ومن بين الـ /٨٠/ رواية من القرون الوسطى التي طبعت قبل عام ١٥٥٠ ، لا شك في أن التي لاقت حظا أكبر من النجاح هي : « أبناء ايمون الاربعة » (١٨ طبعة قبل ١٥٣٩ ، وحوالي ٢٥ خلال القرن) ؛ « فيير أبرا » (نفس عدد الطبعات تقريبا) ؛ و « بيير دي بروفونس » (١٩ طبعة قبل عام ١٥٣٦) . وهكذا نلمس في صميم القرن السادس عشر ، وحتى بعد ذلك بكثير ، تزايد رواج اساطير القرون الوسطى المتعلقة بتاريخ طروادة ، والتي جمع (راؤول لوفيفر) أحداثها وسيرها تحت عنوان « مجموعة قصص طرواده » ، بينما استمر كتاب « الوقائع الرائعة لفيرجيل » في اظهار (فيرجيل) هذا بمظهر ساحر فاتن من القرون الوسطى . كما استمر انتشار القصص الاسطورية لكل من (بودوين دي فلاندر) ، (هيون دي بـوردو) ، (أوجييه لو دانـوا) و (بيرسفورست) ، بالاضافة الى روايات « فرسان المائدة المستديرة » و « الملك أرتوس » و « لانسلو دولاك » و « ميرلين » و « بيرسفال لو غالوا» أو « تريستان » .

الا ان جميع هذه المؤلفات لم تكن كافية لاشباع تعطش رجال القرن السادس عشر الى الخيال . لذلك ولا شك ، اعيدت طباعة «قصة الوردة» ايضا اربع عشرة مرة خلال الاربعين سنة الاولى من القرن . ولهذا جزئيا، لاقى كتاب (بوكاس) ، المسمى « فياميتا » مثل ذلك النجاح الكبير . كذلك لاقت روايات العصور القديمة رواجا هائلا في اغلب الاحيان ، وظل كل من « الحمار الذهبي » لـ (أبوليه) ، و « التاريخ الاثيوبي » لـ (هيليو دور) مثلا ، يترجمان وتعاد طباعتهما باستمرار .

في هذا الوقت نفسه ، نشأ وتطور في أوروبا كلها ادب ذو طابع خيالي متنوع جدا ، كان موضع تقدير خاص ورواج كبير . ويمكن أن نعزو الى حد ما ، النجاح الكبير الذي أحرزته « المدينة الفاضلة » لتوماس مور ، و « اعمال » رابليه ، لطابعهما الخيالي . الا أن البلدين اللذين ظهرت فيهما مثل هذه الاعمال في القرن السادس عشر أكثر من أي مكان آخر ، هما اسبانيا وايطاليا بلا جدال .

S'Enſuyt le liure des
quatre filz Aymon
duc de dordõne: ceſt
aſſauoir Regnault/alard/guichard/ et richard
Auec leur couſin maugis Contenant.xxviii.cha
pitres. Dont la table ſenſuit xxxii.



ففي اسبانيا ، لاقت روايات الفروسية رواجا هائلا . وفيها طبعت في مطلع القرن السادس عشر رواية فروسية غير مضمونة الاصل ، لاقت آنذاك ولا شك ، اكبر نجاح عرفه اي كتاب في ذلك العهد ، وهي «أماديس الغالي » ، التي صدر عن مختلف أجزائها وملاحقها ما يزيد عن / ٦٠ / طبعة اسبانية في القرن السادس عشر ، بالاضافة الى اعداد كبيرة من الطبعات الفرنسية والايطالية وواحدة بكل من اللغات الانكليزية والالمانية والهولندية . وقد بلغ هذا النجاح حدا ظهر معه خلال القرن ما يشبه « حلقة » خاصة بـ (أماديس) هذا ، فبدأت تصدر طبعات خاصة عن بطولات « ايسبلانديان » ، ابن أماديس ، أو « أماديس انكلتـره » ، و « بلمورين دوليف » ، و « بلمورين انكلترة » وغيرها ...

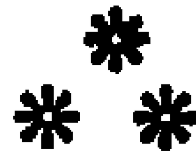
الا انه بينما كان كتاب « أماديس دي غول » يتابع مسيرته ، ظلت تصدر مؤلفات خيالية ذات طابع متنوع جدا ، وبتزايد متواصل . وفي اسبانيا أيضا ، ما زالت تصدر المؤلفات العاطفية : « مشعل الحب » لمرشح الفروسية (دييجو دي سان بيدرو) ، المأخوذ جزئيا عن كتـاب « فياميتا » لـ (بوكاس) والذي أشرنا الى نجاحه الكبير آنفا ؛ « مصنف غراميات ارنو ولوشنيدا » (٣ طبعات اسبانية بين عامي ١٥٢٢ و ١٥٢٧ ، ١٧ فرنسية اعتبارا من عام ١٥٣٧ و ٤ انكليزية) ؛ « قصة غريزيـل وميرابيلا » لـ (جوان دي فلورس) (٨ طبعات اسبانية ، ٩ ايطاليـة ، ١٩ فرنسية) ؛ وكذلك الكتاب المجهول الهوية « مسائل الحب » (حوالي ١٥ طبعة) .

ستنتهي هذه الحركة بدرجة (موضة) الرواية (القصة) **الرعوية و العاطفية**، وذلك مع كتاب « ديانا » لـ (مونتمايور) ، ثم في فرنسا في القرن السابع عشر ، مع كتاب (Astrée)« استريه » لـ (هونوريه دورفيه) . هكذا تطور نوع مستمد من اسلوب « فياميتا » لـ (بوكاس) ، بينما نجد مؤلفات من نوع آخر ، هي روايات الفروسية التي ولدت في فرنسا ، كمؤلفات الحلقة الآرتورية وحلقة شارلمان ، تؤدي في ايطاليا الى ولادة سلسلة من

Les grandes et inestimables Cronicq̃s: du grant ⁊ enorme geant Gargantua: Contenant sa genealogie/ La grãdeur ⁊ force de son corps. Aussi les merueilleux faictz darmes quil fist pour le Roy Artus/ cõme verrez cy apres. Imprime nouuellemẽt. 1532

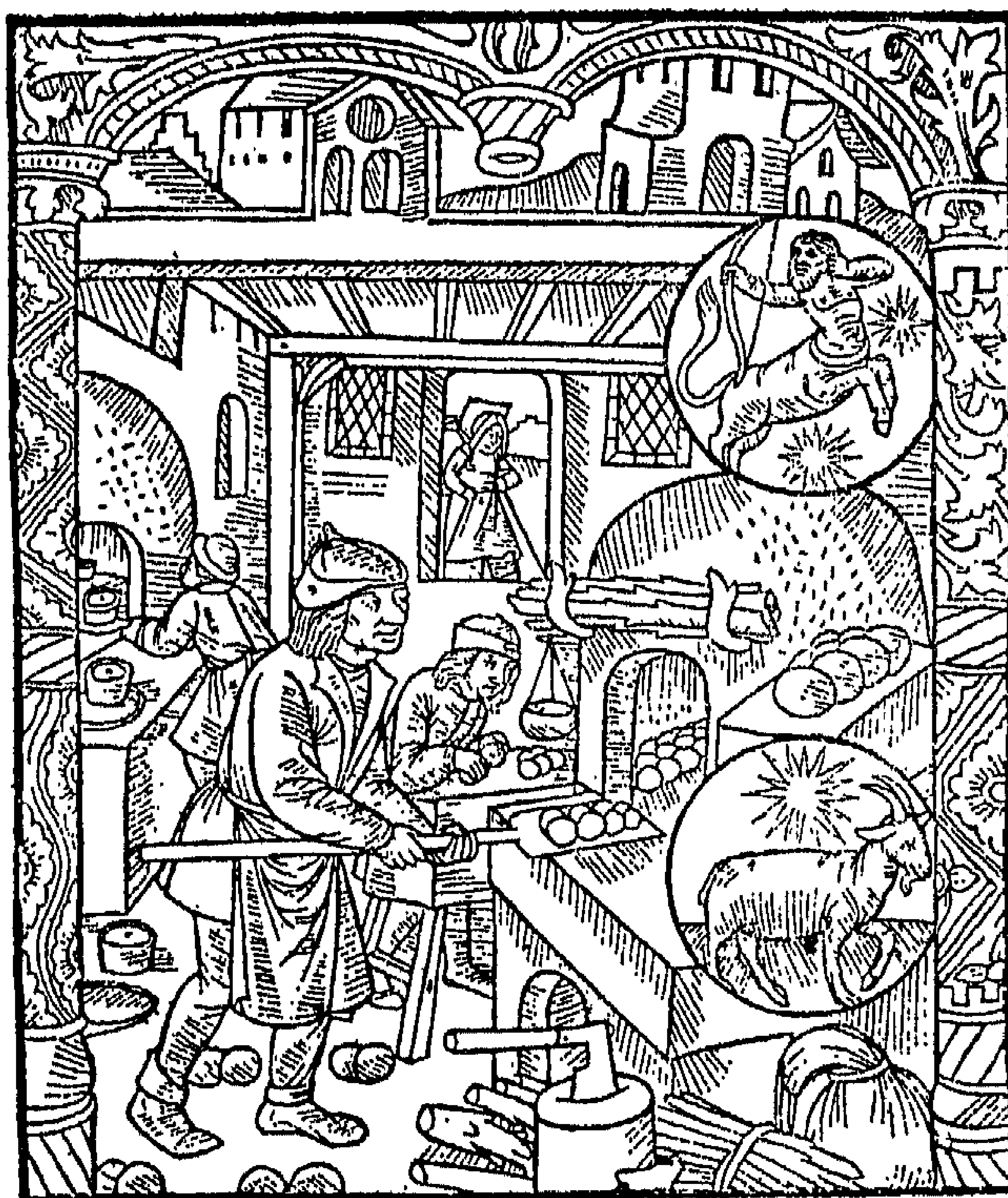


الملاحم المتعلقة بالفروسية التي تدين بنجاحها الهائل ولا شك الى طابعها الخيالي ، وذلك في فترة كان الناس متعطشين فيها الى هذا النوع من الادب . فبعد ظهور كتاب « مورغانت » لمؤلفه (بولسي) وكتاب « رولان العاشق » لـ (بواردو) ، لاقى كتاب « رولان الغاضب » لـ (أريوست)، نجاحا هائلا بينما نجد أن روايات الفروسية التقليدية والكتابات الخيالية (ككتـاب « Petit Jean de Saintré ») ، التي كانت تؤلف لاملاء فراغ السادة البورغونيين ، ستضاف في طرود الباعة الجوالين على « تقويم الرعاة » بتطور طبيعي ما زلنا نلمس نتائجه حتى اليوم ؛ ويقضي هـذا التطور بأنه اذا كان هناك عمل رائع مخصص للتوجه الى نخبة من الناس ، فان عليه أن يتوجه بالنسبة للاجيال اللاحقة الى جمهور أوسع فأوسع : الى الجمهور الذي كان يعمد سابقا الى قراءة المكتبة الزرقاء ، والذي يقصد الآن دور السينما ويقرأ الاعمدة المصورة في الصحف ، أو يشاهد التلفزيون ، ويدخل عن طريق هذه الوسائط بتماس مع (ستاندال) أو (موباسان) أو (هوغو) أو ما يزعمون أنها أعمالهم .



٣ ـ الكتـاب والاصـلاح الديني

في الوقت الذي كان فيه رواد المكتبات يتزايدون باستمرار ، والمطابع تضاعف من انتاجها لاعمال العصور القديمة الكلاسيكية وترجماتها ، وبينما كانت الآداب الجديدة تتكون ، كان الناس مستمرين دائما في طباعـة النصوص الدينية والاخلاقية التقليدية ؛ لذلك كنت ترى في بداية القرن السادس عشر ، نفس الاعداد من طبعات الـ « التقليد » و « الاسطورة المذهبة » ، أو سير القديسين . كذلك كانت الكتب والسير الاخلاقيـة تلاقي نفس النجاح ، ككتاب « مرآة الخلاص » أو القصص والسير المتعلقة بحياة « المسيح الدجال » . وقد ظل الناس يقرؤون أيضا (هنري سوزو) و (جيرسون) و (نيدر) والعلماء الروحيين الذين لاقوا رواجا كبيرا في القرن السابق ، بالاضافة الى مجموعات المواعظ المعروفة التي كانت



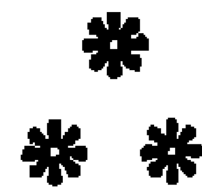
Decembre

Decembre suis le faiz le pain
Du froment de mon loyal gain
Pour viure ce temps de ladvent
A nouel et son ensuiuant
Auecque ma boulengerie
Je faiz de la patisserie
Pour fournir du plus necessaire
Le monde, mieulx ne pourroye faire.

Je suis decembre le courtoys
que sus tous doiz estre loue
quāt en mon temps le roy des roys
Fut de la vierge enfante
Et deliure de son coste
Don le monde fut resiouy
Donneur ay tous autres passe
quant en mon temps ihesus nasquit.

تضاف اليها كتابات الواعظين الجدد ؛ وكذلك « آباء الكنيسة » وخاصة (سان أوغستين) و (سان بيرنارد) . كما كانوا يعمدون بنفس الدرجة ايضا الى طباعة روائع الفلسفة الكلامية التقليدية كأعمال كل من أوكهام وبيير دي لا بالود ، وغليوم دوران ، ودنزسكوت وبوريدان ، التي كانت تضاف اليها الاعمال الحديثة لجان مير ، وتاتوريه وبريكو ، والتي كانت المطابع الباريسية تتنافس على انتاجها حتى عام ١٥٢٠ . ومن المعروف في الوقت نفسه ، ان ادبا جديدا بدأ يتشكل حول النصوص المقدسة بتأثير كل من (ايراسم) و (لوفيفر) واصدقائهما .

وهكذا نرى ان المؤلفات الدينية ظلت تطبع باعداد كبيرة عند مطلع القرن السادس عشر ، وربما اكثر مما كانت عليه في القرن الخامس عشر . الا أنها لم تعد تمثل ، وسط هذا الانتاج المطبوع المتزايد باستمرار ، الا نسبة ضئيلة كما لاحظنا آنفا . وخلاصة القول ، يبدو ان هذه المؤلفات لم تصل ، خلافا للكثير من الكتابات الدنيوية ، الى جمهور أوسع مما كان عليه الوضع في القرن الفائت . من المؤكد ان اعمال (لوفيفر) وترجمته مثلا ، وكذلك « رسائل » القديس بول ، وخاصة بعض كتابات (ايراسم)، قد لاقت رواجا كبيرا : يدل على ذلك الطبعات المتكررة الكثيرة . ولكن يمكن القول اجمالا ، بأن الكتب من هذا النوع لم تصل ، حتى حوالي عام ١٥٢٠ ، الا الى فئات محدودة نسبيا من رجال الدين المثقفين والعلماء الانسيين .



عما قريب ، سيتبدل هذا الوضع عندما سيحدث في المانيا فجاة ؛ عام ١٥١٧ ، ثم في سائر انحاء اوروبا بشكل اوسع فيما بعد ، ان تحتل المسائل الدينية مكان الصدارة وتطلق المشاعر والاهواء من عقالها ؛ وسينطلق للمرة الاولى ما يمكن تسميته اليوم بالحملة الصحافية . لذلك ستظهر في الوقت نفسه الامكانيات التي يمكن للطباعة ان تقدمها الى الذين يريدون بلوغ الرأي العام وتحريضه .

من المؤكد انه يجب الاحتراس من المبالغة وتضخيم الدور الذي لعبه الكتاب في ولادة وانتشار حركة الاصلاح الديني ، أو حتى دور المبشرين، أو اعطاء المكان الاول لاعمال الدعاية والقائمين بها . ونحن لا نريد هنا أن ننساق للادعاء السخيف القائل بأن الاصلاح الديني هو وليد الطباعة . فالكتاب وحده قد لا يكفي لاقناع احد ؛ الا أنه يساعد على تكوين القناعة ، كما يقدم الحجج اللازمة للمقتنعين ، ويمكنهم من تعميق ايمانهم وتدقيقه، ويوفر لهم العناصر التي تساعدهم على الانتصار في المناقشات وكسب المترددين . لهذه الاسباب مجتمعة ، استطاع الكتاب ولا شك أن يلعب دورا اساسيا في توسع المذهب البروتستانتي خلال القرن السادس عشر . لقد عرفت الكنيسة حتى ذلك الوقت العديد من حركات الهرطقة الاخرى وانتصرت عليها دائما — في الغرب على الاقل — ويحق لنا أن نتساءل مع (هنري هوزر) عما كان يمكن أن يكون مصير بعض هذه الحركات ، كالهوسية مثلا(١) ، لو وضعت تحت تصرفها هذه القوة الجبارة التي هي الآلة الطابعة ؛ هذه الآلة التي احسن استخدامها كل من (لوثر) و (كالفين) في مهاجمة روما اولا ، ثم في نشر العقائد الجديدة ؛ وخاصة في السعي الدؤوب لإيصال النصوص المقدسة ، التي هي أساس الديانة المصححة ، الى يد كل فرد بلغته الخاصة . لذلك ، وكما اشار (هوزر) بحق ، « فقد كانت الآلة الطابعة في أيدي « المصلحين » اشبه بالمعصرة التي يتدفق منها الخمر ويوزع على الجماهير العطشى حاملا معه رحيق الخلاص » .

كانت الطباعة في الحقيقة قد استعدت لهذا الدور منذ زمن بعيد عن طريق : النشر المكثف للصور الدينية منذ عهد النقاشين على الخشب؛ النشر المكثف ايضا ، كما رأينا ، لكتب العبادات والصلوات بشكل خاص؛ وكذلك نشر النصوص المقدسة باللغة العامية . ونحن نعرف تسع عشرة طبعة عن التوراة بالالمانية الراقية قبل (لوثر) ، و ٢٤ طبعة (جزئية على الاغلب) من « العهد القديم » بالفرنسية ، وذلك في النسخة القديمة للتوراة المؤرخة ، قبل طبعة (Lefèvre d'Etaples) . بل اكثر من ذلك،

(١) نسبة الى (جون هوس) .

فبينما كانت الطباعة تسهل وتشجع بعث الدراسات الخاصة بالكتاب المقدس ، بدأت المطابع تضاعف من انتاجها للاعلانات والاوراق المنفصلة المخصصة لاوسع الجماهير . وهكذا ظهر بالفعل **ادب اعلامي** جـديد ، انبثقت منه الصحيفة الحالية ؛ من العسير الاحاطة بهذا الادب اليوم ، لان أوراقه لم تكن تحفظ ، ولكن اهميته لا تنكر ابدا . فمن المعروف أن الاعلان المطبوع قد سبق الكتاب المطبوع ، حيث كان العديد من هـذه الاعلانات يقدم معلومات عن الاحداث المحلية والجارية ؛ كما حدث في الوقت نفسه ، منذ مطلع القرن الخامس عشر ، أن انتشرت بالآلاف تلك الروايات المختلفة التي تتحدث عن مرور مذنّب أو تصف الاعياد ، أو دخول ملك الى المدينة ، أو تقدم اعلاما عن احدى المعارك ؛ هذه الاوراق المنفصلة ، التي مكنت الفرنسيين من الاطلاع على مآثر ملكهم في ايطاليـا وعلى انتصارات جيشهم ومفاخره ، كما سمحت للالمان بمتابعة وقـائع الانتخابات الامبراطورية هي التي كانت باكورة العديد من « النشرات الاعلامية » التي ستصدر في عهد الاصلاح الديني .

بفضل هذه النشرات استطاع الجمهور غالبا أن يطلع على عمـل المصلحين وجدلهم وحججهم ، وعلى تقدم الهرطقة والتدابير المتخـذة لمكافحتها . ويكفي أن نفكر مثلا بالدور الذي لعبته لوحات الاعلانات ، اذا اردنا ان نحيط بأبعاد التأثير الذي مارسته الطباعة آنذاك . في الحقيقـة ، كان هناك « اعلان » وراء كل حدث هام من أحداث حركة الاصلاح الديني: فعندما شرع (لوثر) في التصدي للمتاجرة بصكوك الغفران ، كان منطلق هذا الصراع هو الاعلان الذي علّقه في ٣١ تشرين الاول عام ١٥١٧ عـلى باب كنيسـة الاوغسطينيين في (ويتنبرغ) ، وذلك اكثر من المواعظ التي كانت عباراتها تضيع وتذهب أدراج الرياح . ترجمت التعليقات عـلى صكوك الغفران الى اللغة الالمانية وتمت صياغتها بشكل مكثف ، ثم طبعت على شكل نشرات اعلانية ما لبثت أن انتشرت في كافة أنحاء المانيا وأصبحت معروفة في كل مكان خلال خمسة عشر يوما . بعد ذلك ببضعة سنين ، في عام ١٥٢١ ، استدعي (لوثر) الى (وارمز) للمثول أمـام المجلس الامبراطوري ، فاخترق ألمانيا يتقدمه نذير الحرب الامبراطوري ، وتأثر

كثيرا عندما وجد في كل مدينة اعلانا معلقا لـ (شارل كينت) يقضي باحراق كافة كتبه . وهكذا ، وبمثل هذه الاعلانات ، كان الجمهور يطلـع على المؤلفات المدانة او المحظورة فيهرع للحصول عليها . وفي بعض الاحيان ، كانت ردود الفعل على هذه الادانات تأخذ هي الاخرى شكل اعلانات ؛ ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٥٢٤ ــ ١٥٢٥ ، نشبت في (مو) حرب اعلانات حقيقية ، حيث كانت تعلق على جدران المدينة اعلانات تدين « بريسونية » بالولاء للوثرية ؛ وعندما قام هذا الاخير في كانون الاول عام ١٥٢٤ ، وعلّق على جدران الكاتدرائية وابواب المدينة ، العفو الكبير الذي منحه البـابا (كليمون السابع) ، نزعت القرارات البابوية وعلقت مكانها أوراق تنعت البابا بالمسيح الدجال . ثم ما لبث أن تلى ذلك اهانة كبرى في ١٣ كانون الثاني ١٥٢٨ ، حيث علّق على جدران الكاتدرائية قرار مزيف لـ (كليمون السابع) « سمح بموجبه بقراءة واعادة قراءة وتعليم كتب (لوثر) » . وقد انتهت هذه الحرب ، سنة ١٥٣٤ ، بقضية الاعلانات الشهيرة ضـد الصلاة ، التي طبعها (بيير دي فينفل) في (نيوشاتيل) ، والتي وجـد الملك نسخا عنها حتى على أبواب جناحه الخاص . ويعرف الكثـيرون حركات القمع التي تلت هذا التحرش والاستنتاجات التي خرج بها الملك (فرانسوا الاول) فيما يتعلق بالطباعة .

تعتبر هذه الاعلانات جميعها ولا شك ، دلالة واضحة على الصراع الدائر آنذاك ؛ فقد كانت توجد على الجدران وابواب الكنائس وتحت البوابات ، سواء كانت على شكل أوراق تعلق في الخفاء ليلا ، تهاجم فيها الصلاة او تكال الشتائم للبابا ، أو بشكل اعلانات رسمية تبين التدابير المتخذة ضد الهرطقة وتدين الكتب الخطيرة الضارة الواجب سحبهـا وتسليمها . الا ان ذلك لم يكن يمنع الجماهير من الاقبال على هذه الكتب التي لا بد لنا من التحدث عن انتشارها بعض الشيء .

*
* *

دهش (لوثر) من هذا الاقبال الشديد الذي لقيته مقترحاته حول صكوك الغفران كما اثبت له ذلك أن المانيا لا تنتظر الا اشارة واحدة ورجلا واحدا لكي تفصح عن رغباتها الدفينة المكبوتة . وقد جاءت الطباعة لكي تتكفل بنشر هذه الاشارة وتعميمها . وبينما كان (اولريخ دي هوتن) ، الذي ملّ من التوجه الى العلماء والفقهاء فقط ، يترجم الى اللغة الالمانية كتابيه عن الحوار « الحمى الاولى » و « الحمى الثانية » (١٥١٩ ـ ١٥٢٠)، كان (لوثر) يقوم في آن واحد بالرد باللاتينية على خصومه من رجال اللاهوت ، ويكتب بالالمانية ، حتى يصل الى جمهور أوسع ، نداءه الشهير « الى طبقة النبلاء من الامة الالمانية » (١٥٢٠) ، كما يضاعف من مواعظه وكتبه التربوية ومؤلفاته الانتقادية بلغة بلاده . لذلك خرجت من(ويتنبرغ)، ثم ما لبثت أن اعيدت طباعتها في كافة أرجاء المانيا ، كراسات صغيرة ،خفيفة سهلة التداول ، ولكنها ذات طباعة واضحة ذات عناوين واضحة ورنّانة، موضوعة ضمن اطارات مزخرفة على الطريقة الالمانية ، بدون تاريخ ولا عنوان للناشر ؛ بل يوجد على رأس المؤلف اسم (مارتن لوثر) الطنّان الذائع الصيت ، مع رسم منقوش لهذا المصلح يمكن كل فرد من معرفة شكله وملامحه .

عند ذلك التهبت المانيا بكاملها ؛ فازداد عدد المقالات الانتقادية المفعمة بالعنف والبريق : وقد تم احصاء /٦٣٠/ من هذه المقالات للسنوات ١٥٢٠ ـ ١٥٣٠ ، كما تم اللجوء الى كافة الموارد ، ليس فقط الى الطباعة وحدها ، بل كذلك الى الزخرفة و « الكاريكاتور » . استخدمت للسخرية من البابا والرهبان العناوين التالية : « البابا ـ الحمار » و « الراهب ـ العجل » . اما (مورنر) ، الراهب الفرنسيسي مؤلف « المجنون اللوثري الكبير » ، الذي يذكّر اسمه بالقط ، فقد اطلق عليه لقب « الراهب برأس القط » . وفي الوقت نفسه ، ظلت نسبة المؤلفات المطبوعة بالالمانية تتزايد باستمرار ، حيث ارتفع عدد الكتب الصادرة باللغة الالمانية العامية في كل من ماغدوبورغ وروستوك وهامبورغ وويتنبرغ وكولونيا الى / ٧٠ / بين عامي ١٥٠١ ـ ١٥١٠ ، و / ٩٨ / بين ١٥١١ ـ ١٥٢٠ ، و / ٢٨٤ / (منها ٢٣٢ تتعلق بالكنيسة والدين) بين ١٥٢١ ـ ١٥٣٠ ، و / ٢٤٤ / بين

١٥٣١ ـــ ١٥٤٠ (منها ١٨٠ تتعلق بالدين) .من بين هذه المؤلفات ، كانت كتب (لوثر) كثيرة بشكل خاص ؛ حيث بلغ مجموعها نسبة ثلث الكتابات الالمانية المباعة بين عامي ١٥١٨ ـــ ١٥٢٥ . وقد لاقى بعض هذه الكتب نجاحا هائلا ، حيث طبعت الموعظة « Von Ablasz und Gnade »أكثر من عشرين مرة بين عامي ١٥١٨ ـــ ١٥٢٠ . كما وصلنا ما يقرب من عشرين طبعةعن الموعظة « Von der Betrachtung Heiligen Leidens Christi » التي صدرت عام ١٥١٩ . وتكشف لنا رسالة (بياتوس رينانوس) المؤرخة في ٢٤ أيار سنة ١٥١٩ ، أن كتابه « اللاهوت » وكتابه الآخــر « شرح الصلاة الربانية » « لم يعرضا للبيع ولكنهما اختطفا تخاطفا » . أما المقالة الانتقادية الشهيرة « الى طبقة النبلاء المسيحية من الامة الالمانية » ، التي ظهرت في ١٨ آب ١٥٢٠ ، فقد أعيدت طباعتها منذ الخامس والعشرين من الشهر نفسه ، حيث تم توزيع / ٤٠٠٠ / نسخة خلال ثلاثة اسابيع ؛ وقد صدر عنها ثلاث عشرة طبعة خلال سنتين . واما « بحث في الحرية»، فقد أحصيت عنه ثماني عشرة طبعة صدرت قبل عام ١٥٢٦ . تدل الارقام المتعلقة بثلاث كتب شهيرة من مؤلفات (لوثر) ؛ ظهرت في سنة ١٥٢٢ وحدها ، على مدى تعطش الناس لتلقي كل ما يصدر بريشة هذا المصلح : ١٣ طبعة عن كتابه « Von Menschenlehre zu Meiden » ؛ ١١ طبعة عن « كراسة حول الزواج » ؛ ٢٥ طبعة عن « Betbüchlein »حتى عام ١٥٤٥ .

منذ ذلك الحين ، أصبح معظم المطابع مكرسا لاصدار كتابات الاصلاح الديني . فقد كان رجال الطباعة ، مثل الكثيرين من بورجوازيي عصرهم ؛ لا يطيقون مطلقا الكنيسة القديمة ؛ كما أدت صلات العديد منهم بالدوائر الانسية والمثقفين ، الى جعلهم اكثر تجاوبا مع التجديد . لذلك كانوا يرفضون غالبا اصدار المقالات الانتقادية الكاثوليكية ، بينما يبذلون قصارى جهدهم وعناوينهم في نشر كتابات (هوتن) أو (لوثر) أو (ميلانشتون) . واذا لم يكونوا يتصرفون على هذا النحو عن قناعة فانهم كانوا يقومون بذلك بدافع المصلحة والمنفعة على الاقل . كان (لوثر) بمثابة حجر الرحى في تلك الفترة ؛ لذلك كانت كافة هجمات خصومه تبوء بالفشل ؛ فها هو

كتاب (مورنر) « المجنون اللوثري الكبير » لا يباع الا بشق الانفس ، كما ان اكثر المؤلفات رواجا حتى ذلك الحين ، وخاصة كتب (ايراسم) ، قد بدات تلاقي رواجا أضعف واقبالا أقل . أما (لوثر) ، فقد كان يدر الارباح الطائلة على ناشريه . وهكذا أصبح (ميلشيور لوتر) و (هانس لوفت) ، وكلاهما من (ويتنبرغ) ، يدخلان في عداد أكثر سكان المدينة غنى واعلاهم قدرا ومكانة ، حتى أن (لوفت) اصبح عمدة المدينة في وقت من الاوقات . وفي مدينة ستراسبورغ ، نجد أن (كنوبلوخ) ، الذي كان معروفا بتعاطفه مع المؤسسات الكاثوليكية ، قد حول ورشته (مشغله) الى مركز للدعاية اللوثرية . وهكذا ، من اصل سبعين من رجال الطباعة الالمان الذين احصاهم (غوتز) ، نجد ما لا يقل عن خمسة واربعين في خدمة(لوثر) : فيويتنبرغ ، الجميعبلا استثناء؛فيستراسبورغ،ستةمناصل ثمانية ؛ في اوغسبورغ ، تسعة مقابل ثلاثة كاثوليكيين . وحتى في المدن التي ظلت فيها السلطة العلمانية موالية للكنيسة القديمة ، كانت تطبع الكتابات الاصلاحية وتفلت من العقاب ، شريطة أن تتخذ معها بعض الاحتياطات : ففي مدينة (هاغنو) ، قام (سيتزر) ، المعروف بعلاقاته مع (ميلانشتون) ، بطباعة مؤلفات هذا الاخير بالاضافة الى كتابات (لوثر) والمقالات الانتقادية لكل من بوغنهاغن ، برينز ، جوهان اغريكولا ، واوربانوس ريجيوس ؛ ولم تعترض المستشارية الا بشكل ضعيف ، وذلك عام ١٥٢٤ وعام ١٥٢٦ ، طالما انه يصدر مؤلفات باللاتينية بقصد التصدير الى الخارج ؛ حتى ان (سيتزر) استطاع ان يقدم لبعض مؤلفاته بمقدمات جميلة يدين فيها « كنيس المسيح الدجال » ، ويقصد بذلك الكنيسة الرومانية . الا أنه عندما قام سنة ١٥٣١ ، باصدار نشرته الهجائية لاعادة التعميد باللغة الالمانية ، صدر قرار بمصادرة هذا المؤلف ، الامر الذي لم يمنع (سيتزر) من اصدار كتاب لـ (ميشيل سيرفيه) يدعى « الاخطاء بشأن الثالوث المقدس » .

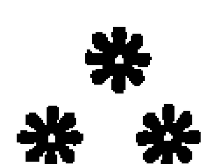
الا أن هذا الحلم لم يكن مطبقا في كل مكان ؛ ففي عام ١٥٢٧ مثلا ، وفي مدينة (نورمبرغ) ، لوحق (هانس غولدنروند) لانه أصدر نشرة معادية للبابوية . الا أن (جورج دي ساكس) بشكل خاص ، لم يكن يقبل

في اراضيه اي رجل طباعة يعصي اوامره ؛ وقد بينا آنفا نتائج هذا التشدد والتصلب : حيث قام الكثيرون من ارباب الطباعة بمغادرة (لايبزيغ) لان اصدار المؤلفات الكاثوليكية ، التي كان مسموحا بها دون سواها ، لم يعد يدر ربحا كافيا . ولهذا السبب على الارجح ، أودع (جاكوب تانر)، الذي بقي في المدينة ، في السجن بسبب الديون ، بينما استطاع (والفغونغ ستكوكل) الذي كان اكثر حذقا ومهارة ، أن يقيم مشغلا خارج حدود أراضي الامير المذكور ، فتحسنت احواله التجارية والمادية بطباعة الكتابات اللوثرية . كان الباعة الجوالون يتكفلون بادخال هذه الكتب الى البلدان التي منعت فيها ونشرها في الارياف . أما في المناطق المؤيدة لحركة الاصلاح الديني ، فقد كانت السلطات البروتستانتية تسهر غالبا بحيوية أكثر من الكاثوليك على التقيد على طريقتهم الخاصة بقرارات جمعية « وارمز » الرهبانية ، الموجهة اصلا ضد (لوثر) ، والتي كانت تحظر فقط اصدار النشرات الهجائية القذفية . لذلك كانوا يلاحقون الاشخاص الذين يطبعون المقالات الانتقادية الكاثوليكية وهكذا اوقف (سيغموند غريم) عام ١٥٢٦ في مدينة اوغسبورغ لقيامه باصدار كتاب (فون ايك) « القداس هو ذبيحة » ؛ وكذلك (غرونرنجر) ، رجل الطباعة الوحيد في ستراسبورغ الذي ظل مواليا للطرف الكاثوليكي ، والذي استمر بشجاعة في طباعة كتابات كل من (ايك) و (ايراسم) و (مورنر) ، فقد صودر كتابه « المجنون اللوثري الكبير » بأمر من القضاء سنة ١٥٢٢ . وهكذا بدت المؤلفات التي تدافع عن الكنيسة الكاثوليكية نادرة وضئيلة في كافة انحاء المانيا امام المد الصاعد للكتابات المعادية لها . حتى عام ١٥٢٢ ، كان بعض رجال الطباعة من امثال (آدم ديون) في بريسلو ، و (هانس كنابس) في ماغدوبورغ ، و (جان شوفر) في مايانس ، يصدرون كتابات لوثرية وكاثوليكية في آن واحد . وكان لا بد من انتظار السنوات ١٥٢٦ ــ ١٥٢٨ ، حتى يتم تنظيم الرد الكاثوليكي في مدينة لايبزيغ ، وذلك بفضل جورج دي ساكس ، وكذلك في فريبورغ بسويسرة ، وفي انغولستاد ، المعقل القديم لاتباع للبابوية حيث التحق (الكسندر دي ويسنهورن) ، وهو رجل طباعة من أوغسبورغ ، بـ (ايك) و (كوشلايوس) ولاهوتيي

الجامعة ، وشرع يطبع اعمالهم ، بينما قرر (مورنر) أن ينشىء عام ١٥٢٦ ورشة طباعية في (لوسيرن) لطباعة مؤلفاته .

اما في المناطق الاخرى ، فان رجال الطباعة الذين لا يعملون في خدمة حركة الاصلاح الديني ، كانوا يكتفون عادة باصدار النصوص العلمية أو اللاهوتية التي لا تتعلق بالاوضاع الراهنة .

وهكذا كانت المقالات انتقادية والكتب المتعلقة بحركة الاصلاح تنتشر اذن في الارياف بفضل الباعة الجوالين . ولا شك في ان الطباعة قد لعبت دورها في ثورة الفلاحين . ويبدو ان الراديكالية السياسية والدينية قد ربحت عددا من الاتباع المقتنعين من بين رجال الطباعة : ففي أوغسبورغ مثلا ، كان (هتزر) ، الذي يعمل منقحا لدى (سيلفان اوتمار) ، احد قادة المعسكر المعمداني في المدينة ؛ كما قام هو نفسه بكتابة بعض النشرات الهجائية . أما (كونراد كيرنر) ، وهو رجل طباعة يعمل في ستراسبورغ وروتنبرغ ، فقد حكم عليه بدفع غرامة ثقيلة واعتبر محرضا خطيرا ومثيرا لاعمال الشغب بعد الاضطرابات التي اجتاحت هذه المدينة . وفي (نورمبرغ) اخيرا ، يوجد رجلطباعة مشهوركان من انصار اعادةالتعميد، فاحرق سنة ١٥٢٧ . لذلك نفهم والحالة هذه ، كيف ان (كارلستاد) وانصار اعادة التعميد ، ثم الفلاحين ، قد عثروا على رجال طباعة تقودهم قناعتهم أو يستدرجهم اغراء الكسب والمنفعة .



كلنا يعرف كيف شكلت هذه الحرب وهزيمة الفلاحين احد المنعطفات الحاسمة في مسيرة حركة الاصلاح اللوثرية . لذلك بدات المقالات الانتقادية تقل منذ ذلك الحين ، حتى ان (لوثر) نفسه أصبح مقلا في أعماله ومؤلفاته الهجومية . الا أن التوراة ، التي تابع ترجمتها ، لاقت نجاحا هائلا ؛ فالطبعة الاولى من « العهد الجديد » ، التي طبعت في ويتنبرغ ، لدى (ميلشيور لوتر) ، على ثلاث آلات تعمل بالمردود الكامل ، والتي ظهرت

في ايلول سنة ١٥٢٢ ، قد نفذت خلال عشر اسابيع على الرغم من ثمنها المرتفع نسبيا . خلال عامين ، من ١٥٢٢ الى ١٥٢٤ ، تم تنفيذ أربع عشرة طبعة جديدة عن « العهد الجديد » في ويتنبرغ ، و / ٦٦ / طبعة اخرى في اوغسبورغ وبال وستراسبورغ ولايبزيغ . وقد قدم (آدم بيتري) وحده سبع طبعات في مدينة بال . لذلك كان (كوكلاوس) يتذمر « لان الجميع يقرؤون هذه الترجمة ويعرفونها عن ظهر قلب » . اما ترجمة « العهد القديم » ، التي ظهرت بواكيرها عام ١٥٢٣ ، فقد لاقت نفس الدرجة العالية من النجاح . منذ ذلك الحين ، وصل الكتاب المقدس الى ايدي الجميع ؛ وقد بلغ اهتمام الناس بالمسائل الدينية المثارة آنذاك حدا اصبح معه حتى من لا يحسنون القراءة يطلبون من اصدقائهم أن يقرؤوا لهم الكتاب المقدس ، مما حدا بـ (زوينغلي) الى القول بأنه اثناء حرب الفلاحين ، اصبح منزل كل فلاح مدرسة يقرأ فيها العهدان القديم والجديد .

لم يكن مقدرا لهذه الحركة ان تتوقف ؛ فبينما كان (لوثر) يتقدم خطوة خطوة ، يستشير (ميلانشتون) واصدقاءه ، ويصدر « العهد القديم » كتابا تلو الآخر ، ظهر ما يبلغ مجموعه / ٨٧ / طبعة بالالمانية الفصحى و / ١٩ / طبعة بالالمانية العامية عن مؤلفه « العهد الجديد » ، وذلك بين عامي ١٥١٩ و ١٥٣٥ . اما الترجمات التي كان يقدمها تباعا وبصورة مجزاة عن مختلف أقسام « العهد القديم » ، فقد كانت تعاد طباعتها مباشرة وتزيّف من قبل كل من (فريديريك بيبوس) من نورمبرغ، و (فروشوور) في زوريخ ، و (بيترشوفر) في وارمز ، وكثيرين غيرهم . بلغ مجموع ما ظهر ، بين عامي ١٥٢٢ ــ ١٥٤٦ ، / ٤٣٠ / طبعة كاملة أو جزئية ، وصل السحب بالنسبة لبعضها الى معدل استثنائي في ارتفاعه، لان (هانس هيرغو) لم يتردد مثلا في ان يقوم عام ١٥٢٦ ، بسحب / ٣٠٠٠ / نسخة عن طبعة مزورة « للعهد الجديد » بدون ذكر اسم المؤلف . انه انتشار هائل ولا شك ، لم يسبق له مثيل ، ولن تخف وتيرته مطلقا خلال النصف الثاني من القرن ، لان (هانس لوفت) قد قام أيضا، بين عامي ١٥٤٦ ــ ١٥٨٠ ، بتقديم / ٣٧ / طبعة عن « العهد القديم » ،

مما يدفعنا الى الاعتقاد بأن (كريليوس) لم يكن مبالغا عندما اعلن بأن رجل الطباعة هذا قد باع وحده / ١٠٠,٠٠٠ / نسخة عن التوراة بين عامي ١٥٣٤ ــ ١٥٧٤ . وقد ظهر في مدينة فرانكفورت خلال الفترة نفسه / ٢٤ / طبعة كاملة للتوراة ، بالاضافة الى الطبعات الجزئية العديدة . وهكذا بلغ مجموع ما نشر مليون طبعة خلال النصف الاول من القرن ، واكثر من ذلك ايضا خلال النصف الثاني . يعتبر هذا « النجاح المكتبي » استثنائيا حتى في ايامنا هذه . اذا اعتبرنا ان ترجمة التوراة لا تشكل الا جزءا من عمل (لوثر) ، واذا اضفنا الى ذلك المواعظ والمؤلفات الانتقادية (كالكتاب الذي مر ذكره آنفا « الى طبقة النبلاء المسيحيين في الامة الالمانية ») مثلا ، وكذلك كتب التعاليم الدينية الاسهل تداولا والاكثر رواجا ، فاننا نلاحظ انه تكوّن لاول مرة **« ادب جماهيري »** موجه الى كل الناس وفي متناول الجميع .

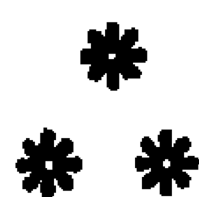
*

* *

كان وضع النصوص المقدسة في متناول كل فرد ، وبلغته الخاصة ، هي احدى الخدمات التي طلبها (لوثر) من الطباعة ، كما كان هذا في الوقت نفسه احد اهداف رجال التوراة الفرنسيين . فهكذا نجد أن الاسقف المصلح (لوفيفر ديتابل) ، الذي استدعي الى مدينة (مو) من قبل (بريسونيه) ، قد تخلى اعتبارا من عام ١٥٢١ عن الدراسات العلمية وشرع في ترجمة الكتب المقدسة لصالح الجميع . ومنذ عام ١٥٢٣ ، ظهر لدى (سيمون دي كولين) : «الانجيل» ، «الرسائل الدينية»» و «قرارات الاحبار»، كما ظهر حوالي عام ١٥٢٤ كتاب «الزور»»، واخيرا، وفي عام ١٥٢٥، « الرسائل الدينية والاناجيل للاسابيع الاثنين والخمسين من العام » ، وهي عبارة عن كتاب تربوي صغير ، يهدف الى التذكير بالحقائق الاولية والاكثر شعبية للديانة المسيحية . وهكذا ، وصلت النصوص المقدسة في فرنسا الى أيدي الجميع في نفس الوقت مع المانيا تقريبا ، بواسطة كتيّب ذي قياس محدود (in - 8 أو in - 16) . خلال صيف عام ١٥٢٤ ، قام (بريسونيه) بتنظيم قراءات علنية مألوفة اكثر من المواعظ ؛ ففي كل

صباح ، كان الخطيب يعلّق لمدة ساعة على النصوص المقدسة امامالشعب: اما بالنسبة للمثقفين ، فكان يفسر الزبور . ثم ما لبثت هذه المحاضرات ان انتشرت امام نجاح المحاولات الاولى . لذلك كلف اربعة « قرّاء » بان يجوبوا المراكز الرئيسية ، كما قام الاسقف بنفسه بتوزيع الاناجيل باللغة الفرنسية وطلب من الجميع احضارها معهم اثناء الصلوات لكي يكمل تعليم المؤمنين الاكثر ثقافة من سواهم . ازاء هذه النتائج الطيبة ، تشجع احد التلاميذ وفكر في اقامة مطبعة في (مو) ، كما بدأ باتخاذ التدابير اللازمة لاحضار العتاد الضروري .

اما نتائج هذا العمل فمعروفة : ففي (مو) والمناطق المجاورة ، اصبح السكان البسطاء من الحلاجين والحائكين من اتباع الانجيل ، وذلك بفضل الطرق والاساليب المتبعة من قبل المصلحين البروتستانتيين الفرنسيين ؛ لذلك تشكل ما يشبه النادي الذي يجتمع فيه الناس للقراءة والتعليق على التوراة وانشاد التراتيل ومزامير داوود ، وهذا اسهل على الذين لا يحسنون القراءة . هذا هو ، في كل من فرنسا والمانيا ، اصل الكنيسة البروتستانتية . وقد بلغ ولع الناس بالمسائل الدينية حدا انتشرت معه ترجمات (لوفيفر) بسرعة مدهشة ، ليس فقط في (مو) وباريس ، بل كذلك في ليون والنورماندي وشمبانيا ، كما نجد اثرها حتى في منطقة (البروفانس) ولدى «الفوديين» في مناطق الالب الدوفينية والبييمونتيه. بالتوازي مع هذه الحركة ، بدىء في باريس بطباعة كتب الصلوات باللغة الفرنسية .



في الوقت نفسه ، بدات فرنسا تطلع على كتابات (لوثر) . ويسمح لنا الطابع الدولي لتجارة الكتاب بان نتصور بسهولة كيف استطاعت هذه الكتابات التوصل الى ذلك بصورة مبكرة جدا . كان اصحاب المكتبات في كل من باريس وليون يلتقون دائما بزملائهم من ويتنبرغ ولايبزيغ في

معارض فرانكفورت ؛ ولا شك في أن هؤلاء كانوا يجلبون معهم بعض النسخ من المؤلفات التي أحدثت تلك الضجة الكبرى في المانيا .

وقد شرع بعض أصحاب المكتبات الاجانب بسرعة كبيرة ، يدخلون الى فرنسا طبعات خاصة معدة خصيصا لهـذه الغاية . وهكذا نجـد أن (فروبن) بشكل خاص ، يشير في رسالة موجهة الى « المصلح الكبير » في ١٤ شباط سنة ١٥١٩ ، الى انه أمر باعادة طباعة بعض مؤلفاته التي ارسل منها / ٦٠٠ / الى فرنسا ، وأخرى الى انكلترة واسبانيا وايطاليا وبرابانت .

في باريس نفسها ، قام (كونراد ريش) ، مستخدما عتادا خاصا من مدينة بال ، باصدار سلسلة من البحوث الانتقادية الدينية ، ومن بينها المؤلف الذي يعرض فيه (لوثر) الاسباب التي دفعته لان يقوم في مدينة وتنبرغ باحراق القرار البابوي الذي يدينه . ومنذ عام ١٥٢٠ ، بـدىء بقراءة أعمال (لوثر) ومناقشتها في مدارس باريس ؛ ثم ما لبثت هـذه الاعمال أن انتقلت الى مدينتي ليون ومو . كلنا يعرف ردود فعل السلطات تجاه توغل الهرطقة على هذا النحو : فبعد القرار البابوي الصادر في ١٥ حزيران ١٥٢٠ ، جاءت ادانة الجامعة في ١٥ نيسان ١٥٢١ . ويبدو ان هذه الادانة قد اثارت في البداية حملة صحفية حقيقيـة بالاضافـة الى النشرات الهجائية والاغاني . وهكذا جاء رد (ميلانشتون) ، « في الـرد على القرار الساخط الصادر عن لاهوتيي البطون البارزة » ، منذ شهر تموز ليباع ويترجم في باريس . ولكن منذ ١٨ آذار ١٥٢١ ، وتنفيذا لقرار بابوي ، صدر أمر ملكي الى البرلمان بتقديم اصحاب المكتبات والمطابع للمحاكمة ، مع السهر على عدم نشر اي نص جديد ، وخاصة فيما يتعلق بالكتاب المقدس ، دون موافقة الجامعة ؛ وفي ١٣ حزيران ، صدر عن البرلمان قرار ، سيصبح مشهورا فيما بعد ، يحظر بيع أو طباعة النصوص المتعلقة بالكتاب المقدس قبل عرضها على أساتذة معهد اللاهوت في باريس . وفي ٢٢ آذار سنة ١٥٢٢ ، تم تجديد هذا القرار ، فأقر بذلك نظريا نظام الموافقة المسبقة ، كما قام أساقفة اقليم (سانس) ، في مجلس باريس ،

بوضع كشف بالكتب الممنوعة . ثم ما لبث (بريسونيه) واصدقاؤه ان اصبحوا بدورهم في عداد المشبوهين ، كما تفرقت جماعة (مو) ايضا . اما (لوفيفر) ، فقد اضطر للجوء الى ستراسبورغ في وقت من الاوقات ؛ وفي عام ١٥٢٦ ، استدعاه الملك وكلفه بالاشراف على المكتبة الملكية في (بلوا) ، كما كلفه في الوقت نفسه بالاشراف على تربية « ابناء فرنسا » ؛ إلا انه لم يستطع مع ذلك ان يطبع ترجماته في فرنسا . لذلك كان لا بد من انتظار عام ١٥٢٨ ، حتى تظهر بدون ذكر اسم المؤلف ، ترجمة « العهد الجديد » ، كما ظهرت « التوراة المقدسة » سنة ١٥٣٠ باللغة الفرنسية .

وهكذا بدات ، رغما عن الملك ، سياسة قمعية يقودها معهد اللاهوت والبرلمان تحت اشراف كل من (نوويل بيدا) و (بيير لينريه) . لذلكاصبح لزاما على اصحاب المطابع والمكتبات ان يكونوا حذرين من الآن فصاعدا ، والا يقوموا علنا بتشجيع نشر المؤلفات المشبوهة . من المؤكد انهم لم يتعرضوا للخطر والازعاج بشكل جدي حتى عام ١٥٣٤ ، اي حتى مسألة الاعلانات ، الا انهم كانوا يخضعون غالبا لشتى المضايقات والمراقبة في مدينة باريس على الاقل . في مثل هذه الظروف ، وعلى الرغم من جهود بعضهم ، من امثال (سيمون دوبوا) مثلا ، رجل الطباعة الخاص بـ (مارغريت دي نافار) ، والذي كانت مطابعه تعمل في باريس ثم في (النسون) على اصدار المؤلفات الصغيرة الدعائية اللوثرية ، فقد اصبح من العسير في فرنسا ان تتم طباعة المؤلفات النضالية الضرورية لنشر الافكار الجديدة .

الا ان البلاد الاجنبية الاخرى ما لبثت ان تكفلت بتقديم هذهالمؤلفات. لذلك نجد ان المصلحين الفرنسيين الاوائل قد فكروا في اقامة مطابع خاصة بهم في الخارج : فمنذ عام ١٥٢٣ ، نجد (لامبير) ، اسقف (افينيون) ، يترك ديره لكي يلتحق بلوثر في (ويتنبرغ) ، كما يفكر في اقامة مطبعة في (هامبورغ) من اجل طباعة ترجمات المؤلفات التي يكتبها المصلح الالماني. كذلك كان كل من (كوكتوس) و (فاريل) يفكران في مشاريع مماثلة ، استطاع (فاريل) ان يحققها في (نوشاتيل) سنة ١٥٣٣ ، وفي جنيف

اعتبارا من عام ١٥٣٦ . بانتظار تحقيق ذلك ، كان اللاجئون الفرنسيون يقصدون رجال الطباعة في البلدان الجرمانية ؛ ثم ما لبثت ان بدات المطابع في كل من انفرس وستراسبورغ وبال ، طوال الحدود الفرنسية ، تضاعف انتاج كراسات الدعاية والنضال المخصصة للنشر في فرنسا . وربما كانت مدينة ستراسبورغ أهم هذه المراكز الثلاث : ففي هذه المدينة المؤيدة لحركة الاصلاح الديني ، كان اللاجئون الفرنسيون يلاقون استقبالاوترحابا جيدين . لذلك ما لبث عددهم أن ارتفع كثيرا ، حتى تجد بينهم أشخاصا لامعين من أمثال : (لامبير) الذي اقام فيها من عام ١٥٢٤ حتى ١٥٢٦ ، بعد عودته من ويتنبرغ ؛ كذلك هرب (لو فيفر ديتابل) من مدينة (مو) في شهر تشرين الاول عام ١٥٢٥ ، ووصل اليها مع (روسيل) حيث أقام لدى (كابيتون) ، احد رجال حركة الاصلاح في ستراسبورغ . بالقرب من هؤلاء ، كان يقيم أيضا كل من (ميشيل داراند) و (فاريل) . وقد استقبلت ستراسبورغ فيما بعد ايضا (ميشيل سيرفيه) ثم (كالفين) الذي أقام وتزوج فيها ، كما قام سنة ١٥٣٩ باصدار الطبعة اللاتينية الثانية من كتابه « المؤسسة المسيحية » . بالاضافة الى هؤلاء اللاجئين اللامعين ، هاجر الى المدينة أيضا عدد كبير من الناس كانوا يفدون زرافات ووحدانا على اثر كل اضطهاد جديد ؛ وقد زاد عدد هؤلاء سنة ١٥٣٨ حتى وصل حدا استطاع معه (كالفين) أن يؤسس كنيسة فرنسية في المدينة ؛ وفي عام ١٥٧٥ ، على اثر مذبحة (سان ـ بارتيليمي) الشهيرة بلغ هذا العدد خمسة عشر الفا .

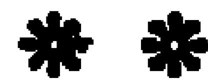
لذلك لا يستغرب والحالة هذه ، أن تصبح ستراسبورغ مركزا اساسيا للدعاية لصالح الافكار الجديدة موجها نحو فرنسا بشكل خاص. لقد ظل رجال الطباعة زمنا طويلا لا يجازفون باصدار المؤلفات باللغة الفرنسية تجنبا للتعقيدات ، باستثناء (جان بروس). الا أن مهمتهم كانت خلاف ذلك في الحقيقة ، لان الخدمة التي يؤدونها لقضية الاصلاح الديني الفرنسي كانت تتلخص بين عامي ١٥٢٠ ـ ١٥٤٠ في الآتي : القيام لصالح فرنسا ، بمضاعفة مؤلفات (لوثر) اللاتينية ونقل المؤلفات الالمانية الى اللاتينية بواسطة جماعات من المترجمين . تفرغ لهذا العمل كبار

رجال الطباعة من أمثال (جان سكوت) ، (هيرواغن) و (ريزل) ، بالاضافة الى زميلهم (ستيزر) من مدينة (هاغونو) ؛ وقد ادى هذا الانتاج المكثف الذي ينهال على فرنسا الى اثارة حنق الكاثوليكيين الفرنسيين لدرجة لم يجدوا معها ما يلائم ستراسبورغ من صفات القدح والذم . وفي الوقت نفسه ، تخصصت جماعة من رجال الطباعة في مدينة (أنفرس)، باصدار المؤلفات الكفاحية الصغيرة باللغة الفرنسية هذه المرة . اما أكثر هؤلاء نشاطا في هذا المضمار ، فهما : (فور سترمان) ، وخاصة « مارتين دي كيزيرن » (أو مارتين الامبراطور) . تكفل هذا الاخير سنة ١٥٢٨ وفي ١٥٣٠ ، باصدار ترجمات الكتاب المقدس الذي لم يكن (لوفيفر) قادرا على اصدارها في فرنسا ؛ وهو الذي قام أيضا باصدار ترجمة « Enchiridion » لـ (ايراسم) التي يعتقد بأنها لـ (بيركين) . وهو الذي يعتبر مع (سيمون دوبو) الرجل المتخصص في اصدار الكتب الصغيرة التربوية التي كانت متداولة في فرنسا قبل عام ١٥٣٠ ، والتي قد تعتبر افضل ما نقل الفكر اللوثري . وحصيلة القول انه ظهر أدب جديد مستوحى من اللاجئين ، كان التجار والباعة الجوالون يستطيعون ادخاله الى فرنسا بكل سهولة .

من المحتمل أن تكون السلطات الاسبانية قد تغاضت في الاصل عن هذا الانتاج المعد للتصدير ؛ فتوراة (لوفيفر) قد صدرت بموافقة اساتذة (لوفين) ؛ الا أن القلق ما لبث أن استبد بهذه السلطات : ففي ١٤ تشرين الثاني ١٥٢٩ بشكل خاص ، أصدرت أوامرها بمنع طباعة كتب جديدة في المدينة عن « العهد الجديد » أو « الاناجيل أو الرسائل الدينية أو النبوءات أو اي كتاب فرنسي أو الماني يحتوي على مقدمة خاطئة أو مضللة » . ويبدو ان هذا المنع ، الذي تجدد سنة ١٥٣١ ، قد دفع رجال الطباعة في (أنفرس) الى مزيد من الحذر . لذلك أصبح لديهم ، اعتبارا من هذا التاريخ ، ميل للبحث عن نصوص اقل احراجا من اجل المؤلفات التي كانوا يطبعونها بالفرنسية .

اما في مدينة (بال) ، فاذا كان (فروبن) قد عزم ، بمساعي (ايراسم)

على الكف عن طباعة المؤلفات اللوثرية ، الا أن زميله (آدم بيتري) لم ينسج مطلقا على هذا المنوال ، بل استغله واستفاد منه . وقد ظل قسم من انتاجه يأخذ طريقه الى فرنسا . كما أن اللاجئين الفرنسيين قد اصبحوا كثيرين في المدينة ، وربما أكثر تأثيرا من ستراسبورغ ؛ وهنا ايضا نجدهم يشجعون اصدار المؤلفات الدعائية ويساعدون على انتقالها الى فرنسا . أما اكثر رجال الطباعة تعاونا معهم في (بال) ، فكان (توماس والف) ؛ وتماما كما كان (مارتين الامبراطور) في (أنفرس) ، فان هذا كان يصدر مؤلفات بالفرنسية : منذ عام ١٥٢٣ ، « مجموع الكتابة المقدسة » ؛ وفي السنة التالية ، المقالة الانتقادية اللاذعة الشهيرة ضد قرار جامعة باريس ، والتي عرفت تحت اسم (مورمو) ؛ وهو الذي قام ايضا ، سنة ١٥٢٥ ، باصدار طبعة « العهد الجديد » لـ (لوفيفر) ، المزخرفة على غرار النقوش الخشبية التي استعملها (كراناش) في أول طبعة لترجمة (لوثر) . كذلك قام في الوقت نفسه بتقليد (هيرواغن) في ستراسبورغ ، فأخذ يعمد وللهدف نفسه ، الى مضاعفة الترجمات اللاتينية عن كتابات (لوثر) الالمانية .

ان كل هذا الادب المطبوع على أبواب فرنسا ، ولصالح الفرنسيين في معظم الاحيان ، كان يدخل فرنسا بسهولة ويسر وبكميات كبيرة . والشواهد على هذه الناحية كثيرة ، نخص بالذكر منها ما ورد في دعاوى الهرطقة عن الكتب المصادرة لدى المشبوهين . ولكن كيف دخل هذا الادب وبمثل هذه السهولة ؟ لقد قيل بأن ذلك تم غالبا بواسطة التجار العائدين من رحلات عمل ، أو عن طريق الباعة الجوالين . ان هذا صحيح ولا شك ، ولكن اعتبارا من ١٥٤٠ ــ ١٥٥٠ بشكل خاص ، أقيمت منذ جنيف شبكات سرية مكلفة بنشر الكتب المطبوعة في مدينة (كالفين) . حتى ذلك الحين ، كان الباعة الجوالون نشيطين جدا ولا شك ؛ فهم الذين ينطلقون من المراكز الكبرى متكفلين غالبا بتوزيع الكتب « السيئة » في المدن الصغيرة ، عن طريق الكتبي المحلي في اغلب الاحيان . الا أنه يمكن

الاعتقاد بأن قسما كبيرا من تجارة الكتب المهربة « ذات الرائحة الكريهة » كان يتم بطريقة رسمية تقريبا وعلى صعيد واسع جدا . وقد لعب أصحاب المكتبات والمطابع في كل ذلك دورا فعالا للغاية ، حيث كان الكثيرون منهم ، وخاصة في مدينة ليون ، مؤيدين للافكار الجديدة كما اعتنق كثيرون آخرون الديانة البروتستانتية . ولما كانوا على صلات تجارية دائمة مع زملائهم في الخارج ، فانهم ساعدوا غالبا على ادخال الكتب الممنوعة الى فرنسا ؛ كما جازفوا ايضا بطباعة النصوص الجريئة ، واقام الكثيرون منهم علاقات صداقة مع المصلحين (البروتستانت) المنفيين وقدموا لهم خدمات من كافة الانواع ، كما كانوا لهم أحيانا بمثابة مموليبن أو مخبرين او عناصر ارتباط . كل ذلك بدون مجازفة كبيرة لانهم كانوا يعرفون كيف ياخذون حيطتهم وحذرهم وكيف يضمنون لانفسهم الحماية اللازمة، بينما كانت الشرطة غائبة والوسائل المتبعة معقدة ، والملك نفسه غير مستعد دائما لفرض العقاب الصارم . ولا أدل على ذلك مثلا من دراسة نشاط « مجموعة أصحاب المكتبات » ، الذين كانوا أقرباء أو شركاء ، يعملون طيلة فترة حركة الاصلاح الديني بتعاون وثيق ، ويديرون المكتبات في باريس وليون تحت شعار « مجن بال » وشعار « كولونيا » ، ويمثلون في فرنسا مصالح اصحاب المكتبات في مدينة بال .

اما مؤسس هذا المشروع ، فهو « جوهان شابلر » (أو « كابييه » باللغة الفرنسية) ، المعروف تحت اسم (واتنسشي) ، من مدينة(سواب)، الذي وصل الى (ليون) مع مواطنه رجل الطباعة المسمى (ماتيو هوز) والذي كان يموله على ما يبدو . في عام ١٤٨٥ ، اقام محلا مستقلا على حسابه الخاص . لقد كان هذا الرجل أكثر من ناشر أو كتبي مقيم ؛ فهو على نمط (بارتيليمي بويّيه) ، سمسار كتب وكتبي يقصد المعارض ؛ لذلك وبسرعة كبيرة ، اصبح الممثل الرئيسي لاصحاب مكتبات (بال) في ليون . وفي عام ١٤٩٥ ، حصل في (بال) على حقوق البورجوازية ؛ وفي عام ١٥٠٤ ، ورغبة منه في توسيع اعماله ، فقد عهد بادارة مؤسسته في (ليون) الى أحد مستخدميه المدعو (بيير بارمونتييه) ، الذي الحق به ،

بين عامي ١٥٢١ ـ ١٥٢٤ ، (جان فوغري) ، ابن اخيه على طريقة بريتانيا . عندئذ عهد الى هذين الشريكين بقطاعات محددة : في (بارمونتييه)، بمهمة المرور على مدن جنوب فرنسا وايطاليا واسبانيا ؛ اما في مدينة (فوغري) ، فكانت المهمة تنحصر في زيارة ستراسبورغ وبال وجنيف ومناطق الفلاندر . وحوالي عام ١٥٣٦ ، شكلت (بارمونتييه) فرعين لها: احدهما في (افينيون) والآخر في (تولوز) .

الا أن (شابلر) ، بعد أن فكر عام ١٥٠٤ في الاقامة في مدينة (نانت)، لكي يؤمن لناشري ليون وبال محطة وسيطة باتجاه اسبانيا ، عاد فعدل عن ذلك لكي يعمل في النشر في مدينة باريس على ما يبدو ، حيث نجده شريكا مع كل من (كيرفيه) و (بوتي) في اصدار مجموعة كنسية هائلة . ومن المحتمل أن يكون قد امتلك متجرا خاصا به ايضا . وفي عام ١٥١٦ ، نجد ابن اخيه (كونراد ريش) يقيم في شارع سان ـ جاك ، تحت شعار « مجن بال » بطبيعة الحال .

يمكن تصور ما كانت عليه الشبكة التجارية المشكلة من قبل (شابلر)، والتي كان لها ممثلون وعناصر في كل مكان تقريبا ، وكذلك الخدمات التي كان بامكانه تقديمها لاصدقائه بفضل اتصالاته المتشعبة وعلاقاته الكثيرة . في اوقات معارض ليون ، كانت الرسائل والطرود تتدفق على (ميشيل بارمونتييه) الذي كان يتكفل بايصالها الى أصحابها . وقد كان يلجأ اليه ويستعين به كل من : السيات ، رابليه ، جان دي بيللي ، وآل أمير باخ ، وكثيرون غيرهم ، بما فيهم عدد لا يستهان به من رجال الاصلاح . وعندما انسحب (شابلر) الى مدينة بال منذ عام ١٥١٦ على الاقل ، أقام صلات وثيقة مع كل من (فاريل) و (كوكتوس) ، كما ظهر فيما بعد أن (فوغري)، مراسله في فرانكفورت وستراسبورغ ، كان على صلة وثيقة بحركة الاصلاح الديني . لذلك نراه منذ ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٥٢٠ ، يكتب الى (أمير باخ) ما يلي : « اذا كان لديك كتاب لوثر بالالمانية ، فأرسله الي في ليون لان لدي رفاقا كثيرين يريدون قراءته » . لقد كان أول من يطلع على الانباء الجديدة بسبب رحلاته وعلاقاته . وهكذا نجده ، عندما كلف

بتحويل بعض المال الى (بونيفاس امير باخ) ، الذي كان يتابع دراساته في (افينيون) . يخبره في احدى رسائله عن وفاة (اهوتن) كما يعلمه عن اخبار (ايراسم) . وفي عام ١٥٢٤ ، نجده يتدخل للتعجيل باصدار بحث لـ (فاريل) في مدينة بال ، عنوانه « في الصلاة الربانية » ، وفي ٢٠ آب من العام نفسه ، يوجه الى (فاريل) ، الذي كان في (مونبيليار) آنذاك ، رسالة مطولة عن الدور الذي يلعبه .

لا شك اذن في ان (فوغري) قد لعب دورا هاما في نشر كتابات المصلحين الدينيين . ولا شك ايضا في ان المخازن التي كان يملكها في باريس أو شالون كانت تحتوي على الكثير من الكتب المشبوهة الخارجة من مطابع الناشرين من مدينة (بال) ، والذين كان مكلفا بتمثيلهم من امثال : شابلر ، فروبن ، كراتندر وآل كوريون . لذلك عندما توفي فجأة في شهر حزيران من عام ١٥٢٧ ، في مدينة (نيتانكور) من مقاطعة اللورين، اثناء عودته من رحلة الى باريس حيث كان يستعد لافتتاح متجر خاص به، قام مجلس الكهنة في (سان بينوا ـ لو ـ بيتورنيه) باعلام البرلمان ، وشرع في وضع يده على الكتب التي أودعها (فوغري) في المخزن الذي افتتحه مؤخرا في ملحق تابع للمؤسسة (ليكورن) ـ حيث كان يوجد مشغل (كيرفر) ـ كما قام أسقف (شالون) باتخاذ تدابير مماثلة من جانبه أيضا . عندئذ استبد القلق بأصحاب المكتبات في (بال) فأعلموا بذلك مجلس المدينة ، الذي تأثر بدوره وتدخل . ولما لم تكن هنالك اية مصلحة في اغضاب هذه الفئات ، فقد توقفت الملاحقات آنذاك على ما يبدو . الا ان هذا لم يمنع من استمرار الازعاج بالنسبة لاحد الكتبيين من أقرباء زوجة (فوغري) . ومن مدينة بال ايضا ، ويدعى (أندريا وينغارتنر) ، وذلك في مدينة باريس سنة ١٩٢٩ .

كذلك ومثل (فوغري) تماما ، كان هناك ايضا (كورنراد ريش) المخلص لحركة الاصلاح الديني ؛ وقد رأينا ان لديه ظهرت أول ترجمة فرنسية معروفة لـ (لوثر) . كان (ريش) يتتبع عن كثب الخلافات الدينية ، كما استخدم اثنين من رجال الطباعة المهتمين بهذا الموضوع

ايضا ، وهما (بيير فيدو) و (سيمون دوبوا) . وفي عام ١٥٢٣ ، كلف (بيير فيدو) بطباعة « الشروح الموسعة » لايراسم حول « الرسائل الكنسية » ، مما أثار عداوة الجامعة على ما يبدو .

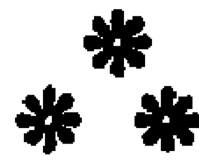
في عام ١٥٢٦ ، حذا (كونراد ريش) حذو (شابلر) و (فوغري) ، فانسحب الى مدينة (بال) ، حتى يتمتع بحرية أكبر في العمل . وقد استمر ، كقريبيه ، في اهتمامه بالمكتبة ، كما ظل يجوب المعارض واحتفظ ببعض المصالح في فرنسا . يبدو أيضا أنه كان آنذاك على صلة دائمة مع (فاريل) و (كالفين) ، وفي عام ١٥٣٨ ، عرض (لويس دي تييه) من باريس ، على (كالفين) الموجود آنذاك في بال ، أن يرسل اليه بعض الاموال بواسطة (ريش) نفسه . الا أن (كريتيان ويشل) ، وهو مراسل سابق لدى (ريش) ، كان هو الآخر مؤيدا للافكار الجديدة مثل رب عمله السابق . كان (ويشل) هذا من مدينة (برايان) أصلا ، وله علاقات وثيقة مع البلدان الجرمانية كما يصدر غالبا مؤلفات موضوعة من قبل كتاب المان ، وخاصة المؤلفات النظرية لـ (دورر) . من بين هذه المؤلفات الصادرة عنه ، كان هناك غالبا عدد من الكتب المشبوهة التي كانت تنشر بحذر شديد واحتياطات كثيرة تحد من المخاطرة والمجازفة ؛ وهكذا عمد سنة ١٥٢٨ و ١٥٣٠ ، الى اصدار بحث صغير لا يشكل في مظهره اي خطر أو ضرر ، وهو « كتاب الصلاة التامة » ، بعد أن حصل لذلك على امتياز ملكي خاص ؛ الا انه كان يتضمن في الحقيقة بعض الاجزاء المقتبسة بتصرف عن كتاب « Betbüchlein » لـ (لوثر) . وفي عام ١٥٣٠ أيضا ، أصدر « الصلوات والعبادات في التوراة » ، وهو عبارة عن ترجمة لكتاب (أوتو برونفلز) المسمى « صلوات من الكتاب المقدس » : كان هذا الكتيب يسمح بالاطلاع على نصوص التوراة التي لا يمكن ترجمتها بصورة مكشوفة ، ولكنه بفضل مظهره البريء ، لم يدرج في اللائحة السوداء الا في عام ١٥٥١ . بفضل هذه الطرق والاساليب ، لم يتعرض (ويشل) لاي ازعاج جدي . لذلك توفي في باريس بسلام ؛ أما ابنه الذي لم يسلم من مذبحة (سان ـ بارتيليمي) الا نتيجة تدخل احد مستأجريه ، وهو

(هوبيرت لانفيه) ، وزير ساكس في باريس ، فقد ذهب ليستقر في فرانكفورت في العام التالي .

الا انه ، بجانب مشغل « مجن بال » الآنف الذكر ، كان هناك مشغل جديد يتوسع ، مرتبط هو الآخر بأصحاب المكتبات في مدينة بال وبحركة الاصلاح الديني ايضا ؛ أما صاحباه فهما : جان وفرانسوا فريلون ؛ وكلاهما من ابناء صاحب مكتبة باريسي ، استقرا في مدينة ليون ، تحت شعار « مجن كولونيا » . أما الاخ الاكبر ، جان ، فقد عمل لدى (كونراد ريش) ، ثم توجه الى بال كما يبدو ، من اجل اتقان مهنته أو حتى يبتعد عن باريس وما تسببه له اتجاهاتها الدينية من اخطار ومتاعب . عند عودته ، لم يستقر في باريس ، حيث اكتفى بالاحتفاظ بأحد المخازن ، بل في مدينة ليون التي كانت أكثر اعتدالا وتسامحا . بعد ذلك بقليل ، انضم اليه أخوه (فرانسوا) ، ثم ما لبث أن أصبح ناشرا اعتبارا من عام ١٥٤٢ . بدافع من الحرص والحذر ولاشك ، كان يتظاهر بالكاثوليكية ، الا أن قناعاته ومعتقداته الحقيقية لم تكن تترك مجالا للشك . ولا شك ايضا في انه ساهم وادخل الى فرنسا العديد من المؤلفات الهرطقية المطبوعة من قبل اصدقائه أصحاب المكتبات في بال ، والذين يعتبر هو و (كونراد ريش) ممثلين لهم في باريس . في ٣ أيار ١٥٣٨ ، عندما قام مجلس مدينة بال بتجديد الخطوة المتخذة سنة ١٥٢٧ ، عند وفاة (فوغري) كما أسلفنا ، فانه عمد ، عندما سمع بأن فرانسوا الاول قد منع بيع كتب « من طحين لوثر » ، الى توجيه رسالة الى رئيس الضابطة الجنائية في شرطة باريس، يوصيه فيها باثنين من مواطنيه هما (ريش) و (فرولون) ، ويطلب منه ألا يأخذ بعين الاعتبار الوشايات المفرضة المحيطة بهما . هنا يحق لنا أن نشك فعلا بكلمة « وشايات » هذه : لان من الثابت فعلا أن (جان فرولون) و (ريش) كانا على اتصال دائم بكل من (فاريل) و (كالفين) ؛ أما (سيرفيه) ، فقد عمل لديه كمنقح لفترة معينة ؛ كما كان هو همزة الوصل بين (سيرفيه) و (كالفين) ، وعندما قام (سيرفيه) ، في مدينة (فيينا)، باصدار الكتاب المعروف « التعويض المسيحي » ، وافق (جان فرولون) على تسهيل نشره وتداوله . كانت الكتب التي يصدرها تتصل ظاهريا

بالكتب المخصصة للعبادات الكاثوليكية ؛ الا انها كانت تستخدم غالبا لنقل المعتقدات البروتستانتية ، كما حدث على سبيل المثال بالنسبة للكراستين اللتين اصدرهما سنة ١٥٤٥ ، « صلوات مسيحية يقتدى فيها بسفر المزامير » ، و « الصلوات التوراتية ... العهدان القديم والجديد » ؛ وفي عام ١٥٥٣ أيضا ، وفي كتابه « العهد الجديد » ، نرى شيطان الاغواء ممثلا بشكل راهب خبيث ذي قدمين ظلفاوين . كما أن مشاركته لـ (انطوان فينسون) ، الناشر المعروف في ليون وجنيف ، والمشهور بتحمسه للقضية البروتستانتية كما سنرى ، لا تدع مجالا للشك في الدور الذي كان يلعبه .

وهكذا ، وتحت ستار المواطنة البالية (نسبة الى مدينة بال) ، استطاعت جماعة من الكتبيين الموالين للبروتستانت ، أن تعمل بشبه حرية طوال النصف الاول من ذلك القرن ، وأن تدير في فرنسا مخازن ملأى بالكتب الهرطوقية البدعية ، وان يقوموا احيانا بطباعتها في ليون وباريس، عاملين كوسطاء لاصحاب المكتبات في بال، أو كمراسلين، واحيانا ممولين لكل من (فاريل) و (كالفين) وأصدقائهما . لذلك لا يستغرب في مثل هذه الظروف ، اذا ظلت الكتب السيئة تنتشر أكثر فأكثر في فرنسا، رغم جميع الانظمة والروادع ، خاصة وان محلي « مجن بال » و « مجن كولونيا » لم يكونا الوحيدين اللذين يتعاطيان هذا النوع من التجارة غير المشروعة ، بل كان هناك غيرهما كثير .



لقد أصبح بيع الكتب السيئة ، والافلات من رقابة الجامعة والبرلمان؛ ومخالفة أوامر الملك نفسه ، ضرورة تجارية تفرض نفسها أكثر فأكثر على العديد من أصحاب المكتبات الفرنسيين . فمنذ عام ١٥٢١ ، نجد أن منع اصدار كتابات (لوثر) قد اعتبر من قبل أصحاب المكتبات عائقا أمام تجارتهم ، نظرا لما أثارته هذه الكتابات من أهواء وما ضمنته بالتالي من نجاح أكيد وربح وفير ؛ كذلك كان الامر بالنسبة لاستحالة العمل

بحرية على اصدار المقالات الانتقادية التي كان يكتبها (اولريخ دي هوتن)، الذي كانت اعماله الادبية تلاقي نجاحا كبيرا . في تلك الفترة التي لم تكن فيها الحركة الانسية قد انفصلت بعد عن حركة الاصلاح الديني ، وحيث كانت الكتابات الانسية تلاقي رواجا كبيرا ، كان الناشرون يجدون انفسهم عاجزين عن اصدار أكثر المؤلفات رواجا بسبب ادراجها في اللائحة السوداء . واعتبارا من عام ١٥٢٥ ، أصبح من المستحيل أن تنشر في فرنسا الترجمات المقدمة من قبل (لوفيفر) عن النصوص المقدسة . ثم ما لبث ان ضرب (ايزاسم) الذي كانت مؤلفاته تملأ مخازنهم ؛ كما أصبح (مارو) في عداد المشبوهين . وبينما كانت توراة (لوفيفر) تظهر في انفرس وبال ، كان على أصحاب المكتبات في كل من باريس وليون ان يكتفوا مبدئيا باعادة طباعة الطبعة القديمة للتوراة التاريخية التي كانت تباع بشكل جيد ويعاد اصدارها مرات ومرات ، بسبب النهم الكبير الذي كان يشعر به القراء تجاه النصوص المقدسة ؛ اذا كان الامر هكذا بالنسبة لهذه التوراة القديمة ، فكيف سيكون عليه لو سمح لهم باصدار طبعة (لوفيفر) ! في شهري أيار وحزيران من عام ١٥٢٥ ، أدانت كلية اللاهوت اربعة مؤلفات لـ (ايراسم) هي : « الاعلان عن مدائح الزواج » ، « تحذير مختصر بالنسبة لاسلوب الصلاة » ، « رمز تلاميذ السيد المسيح » ، و « شكوى السلام » . وفي ١٥ أيار سنة ١٥٢٦ ، بدأت تمنع الشبان بشكل خاص من قراءة « مناقشات » ايراسم ، التي كانت نسخها متوفرة ولا شك لدى الكثيرين من أصحاب المكتبات الباريسيين ؛ لذلك يمكننا ان نتصور ردود فعلهم بسهولة . بل ذهب الامر أبعد من ذلك ؛ اذ أصبح حتى اصدار أكثر مؤلفات « آباء الكنيسة » رواجا ، يتطلب ترخيصا خاصا . لقد أصبح (ايراسم) مشبوها لدى كلية اللاهوت لدرجة نظرت معها بعين الريبة والشك الى الطبعة التي قدمها الكتبي (شوفللون) عن اعمال (سان جيروم) ، بعد ان دققتها واعلنت عن ذلك بعبارات مبطنة بالتهديد . حتى أن (شوفللون) هذا ، الذي اصبح حذرا بطبيعة الحال ، قد عرض مسبقا على الكلية المذكورة ، في ١٥ شباط سنة ١٥٣٠ ، الطبعة التي كان يعدها عن أعمال (سان أوغستين) .

في هذه الفترة بالذات ، لا بد أن يكون أكثر من صاحب مكتبة قد ارتعدوا خوفا من محاكمات (بيركين) والتعذيب الجسدي الذي تعرض له . الا أن المضايقات ازدادت بشكل خاص اعتبارا من عام ١٥٣٠ . ففي شهر نيسان من عام ١٥٣٠ ، حرمت جامعة « السوربون » ضرورة تعلم اليونانية والعبرية من أجل فهم الكتاب المقدس بصورة جيدة . وفي ٢ آذار سنة ١٥٣١ ، حرمت سلسلة من الكتب ، من بينها :

« اتحاد المنشقين » ، « صلاة السيد المسيح » ، « قانون الايمان مع الوصايا العشر » و « كل شيء بالفرنسية » . وبتحريض منهما ، قام البرلمان ، في ١٢ تموز ١٥٣١ ، بانتداب اثنين من أعضائه لكي يقوما مع اثنين من أساتذة معهد اللاهوت بتفقد واستعراض الكتب التي تباع في باريس ومصادرة كل ما يجدونه « منافيا للشريعة والمعتقدات » . وهكذا نجد أن هذا القرار ، الذي تجدد في ١٧ أيار سنة ١٥٣٢ ، قد سمح لرجال اللاهوت من الآن فصاعدا بالتفتيش لدى أصحاب المكتبات ؛ ويظهر أن هؤلاء الاساتذة قد استغلوا هذا القرار اوسع استغلال ، حتى ان البرلمان قد اضطر ، في ١٥ ايلول سنة ١٥٣٣ ، الى منعهم من التفتيش واللجوء الى اعمال الرقابة والحظر بدون وجود اعضاء من البرلمان .

واخيرا في مطلع عام ١٥٣٤ ، انفجرت قضية القرّاء الملكيين . فما كادت تقرأ البطاقات التي تعلن أن (اغاتا غيداسيريوس) و (فرانسوا فاتابل) و (بيير دانس) سيشرعون في التعليق على النصوص المقدسة وعلى أرسطو ، حتى اشتعلت السوربون والبرلمان ؛ فقد كان هذا الاخير يحظر قراءة النصوص المقدسة والتعليق عليها بدون موافقة معهداللاهوت. ولا شك في أن اعمال التفتيش كانت تجري لدى أصحاب المكتباتالمنحولين للقراء الملكيين من أمثال (ويشل) و (جيروم دي غورمون) و (أوجيرو)، الذين وردت أسماؤهم في البطاقات الآنفة الذكر التي كانت اصل القضية. وقد دخل (أوجيرو) خاصة السجن لبعض الوقت .

كان معظم أصحابالمكتبات والمطابع الباريسيينمتضامنين معالجامعة،

يقيمون غالبا علاقات صداقة مع رجال معهد اللاهوت والبرلمان ، هذين المعقلين الاساسيين للحفاظ على العقيدة الدينية السليمة ، كما كانوا أقل من سواهم ايمانا بالافكار الجديدة . الا انهم كانوا ملزمين بارضاء زبائنهم، مما دفعهم أخيرا الى الاستياء من العقبات التي كانت توضع في طريق تجارتهم . وفي عام ١٥٤٥ بشكل خاص ، حدث طارىء له دلالاته : فعندما قام البرلمان بالتأكيد على منع سلسلة من المؤلفات التي وضع معهداللاهوت قائمة خاصة بها ، اتفق أصحاب المكتبات الاربعة والعشرون ، المعتمدون من قبل الجامعة ، على الاحتجاج بأن مثل هذا الاجراء من شأنه أن يؤدي الى افلاسهم وخرابهم ، وذلك بضياع المؤلفات المكدسة في مخازنهم وبالغاء عقود الطباعة التي دخلت طور التنفيذ . لذلك فانهم يطالبون والحالة هذه ، ان يسمح لهم ببيع هذه المؤلفات بعد ارفاقها بلائحة تبين فيها الفقرات الممنوعة وتحذر القراء منها . الا أن هذا الطلب رفض بطبيعة الحال .

ازاء مثل هذه التدابير ، لم يعد امام أصحاب المكتبات والمطابع سوى تجاوزها ومخالفتها ؛ ومما زاد في اغرائهم لاتباع هذا المسلك ، ضعف الشرطة وعدم تنظيمها ، بلاضافة الى ان حزب التسامح ظل قويا في البلاط حتى عام ١٥٣٤ ، بوجود (مارغريت) وآل (دي بيلاي) ، ومستعدا للتدخل عند الضرورة . كما ان الملك كان معروفا بميله نحو التساهل وتخفيف حدة اساتذة الجامعة واعضاء البرلمان . ويمكن القول اخيرا بأن الحدود كانت لا تزال غير واضحة بين الهرطقة والتمسك بحذافير الديانة وتعاليمها . يجب الا ننسى أن تلك هي الفترة التي تدخل فيها الملك لصالح (بيركين) و (مارو) ، وحيث حاول جاهدا الدفاع عن (ايراسم) ضد جامعة السوربون ، وحيث وجد لديه ملجأ (لوفيفر ديتابل) ؛ وفيها ايضا منحت امتيازات ملكية لبعض المؤلفات المشبوهة التي حرمها معهد اللاهوت ، كما أن اخت الملك نفسها كانت موضع الشبهات وهوجم أحد كتبها . فيما بعد ، وفي خضم الاضطرابات خلال السنوات الاخيرة من حكم الملك فرانسوا الاول ، نجده يقدم الحماية لـ (روبير ايستيان) ، عامله الخاص للطباعة ، ضد معهد اللاهوت ؛

وفي عام ١٥٤٥ ، منح (رابليه) امتيازا لطباعة « كتابه الثالث » لدى (ويشل) ، مع أن كتابيه السابقين ، « Pantagruel » « Gargantua » كانا مدرجين في القائمة السوداء التي وضعتها جامعة السوربون والبرلمان. على الرغم من الامتياز الملكي ، حرّمت السوربون فورا كتاب (رابليه) هذا ، مما دفع هذا الاخير ، على الرغم من الحماية التي كان يتمتع بها ، للهرب الى مدينة (ميتز) ؛ الا أن تحريم السوربون هذا لن يمنع الملك من القيام ، سنة ١٥٥٠ ، بتجديد الامتياز الذي أعطاه سنة ١٥٥٤ . ولمدة عشر سنوات هذه المرة . انها لفترة غريبة حقا ، حيث نجد فيها الكتبي (جان اندريه) ، عامل الطباعة الخاص بالبرلمان ، والمتضامن مع الرئيس (ليزيه) ، والذي كانت آلاته الطابعة تستخدم لاصدار القوائم السوداء التي من بينها مؤلفات (مارو) ، يستخدم هذه الآلات نفسها لاصدار مجموعة أشعار تمجد ذكرى (مارو) نفسه سنة ١٥٤٤ ، مارو الهرطوفي ولكنه شاعر الملك ايضا .

كيف نستغرب في هذه الشروط اذن أن تكون الرقابة عديمة الفعالية. وأن نرى الكتب السيئة تزداد باستمرار ، والهرطقة تنتشر أوسع فأوسع؟ في الحقيقة ، كان باستطاعة أصحاب المكتبات الفرنسيين ان يقوموا في الكثير من الحالات بتلبية رغبات زبائنهم النّهمين ، وذلك بطباعة وبيع الكتب ذات الميول المشبوهة دون مجازفة كبرى ، شريطة اتخاذ بعض تدابير الحيطة والحذر مع اللجوء الى بعض الحيل والالاعيب البسيطة . صحيح انهم لم يكونوا قادرين على أن يقوموا علنا باصدار كتاب ممنوع، الا انه كان باستطاعتهم دائما ان يعملوا كما كان يعمل ناشرو مؤلفات (رأبليه) على اثر كل قرار ادانة أو تحريم ، فيحذفون عنوانهم من صفحة العنوان . لم يكن هناك ما يمنعهم بالمقابل من نشر كتابات الرد على الهرطقة وتفنيد اخطائها ومثالبها ، والتي كان يكتبها أشخاص من أمثال (جان ايك) و (جون فيشر) و (بيدا) (الا اذا منعت هذه من قبل الملك بالذات). كذلك كان الحظر ضعيفا أيضا فيما يتعلق بنشر المؤلفات ذات المظهر الديني المحافظ ، التي يمكن أن تدس بين سطورها مقترحات جريئة . وخلاصة

القول ، انه كانت هناك وسائل عديدة لخداع أساتذة الجامعة وتضليل البرلمان .



وهكذا ، كان العنف اكثر وضوحا في الطبعات الاجنبية ، واقل جرأة في الطبعات الفرنسية . ويكفي للدلالة على ذلك أن نعود الى تاريخ بعض المؤلفات .

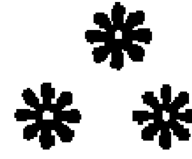
فها هي مثلا « ساعات نوتردام » التي قدمها الشاعر (غرينغور) تحت اسم « الام القبية » ، وذلك سنة ١٥٢٥ ، وبنص فرنسي يختلف كثيرا عن النص التقليدي . ويبدو هنا أن المؤلف قد عمد ، بمزاح ثقيل سيء الذوق ، الى تقديم نفسه بملامح مهينة للسيد المسيح ، بملابسه الفضفاضة اكثر من اللازم وقبعته المربعة . مرت اللوحة دون أن تلفت الانتباه ، ولكن النص اقلق البرلمان فوجد من المناسب استشارة السوربون ، التي حرمت هذا الكتاب في ٢٦ آب سنة ١٥٢٥ ، كما اصدر البرلمان قرارا بمنع طباعته . الا ان الناشر (جان بوتي) ، لم ييأس من اعادة استخدام الحروف الخشبية (التي دفع ثمن نحتها غاليا من أجل هذا الكتاب) في اعادة طباعة مؤلف (غرينغور) هذا . لذلك انتظر مدة ثلاث سنوات ؛ وفي عام ١٥٢٨ ، قدر ان القضية قد نسيت مع الزمن ، فأصدر طبعة ثانية عن الكتاب نفسه ؛ الا أنه عمد ، بدافع من الحرص والحذر ، الى الاستعاضة عن الخشب الغليظ بلوحة اقل اثارة للرقابة ولفتا للانتباه . كما كرر اعادة الطباعة هذه سنة ١٥٣٣ ، ثم في عام ١٥٤٠ ، وبالشكل الغليظ الاصلي من جديد . من المؤكد أن هذا الكتاب لم يكن على درجة كبيرة من الخطورة ؛ الا أنه يبدو بأن كتابات (لوثر) نفسه قد نشرت في فرنسا دون أن تصطدم بصعوبات كثيرة : فكتابه « Betbüchlein » مثلا ، ظهر سنة ١٥٢٢ ، ثم صدر باللغة اللاتينية في عام ١٥٢٥ ، لدى (هيرواغن) ، في مدينة ستراسبورغ ؛ في عام ١٥٢٨ ثم في عام ١٥٣٠ ، راينا (ويشل) يصدر ، بناءا على امتياز ملكي خاص ، كتيبا تربويا

يسمى « كتاب الصلاة الحقيقية التامة » ، الذي لا يترك فهرسه مجالا للشك في طابعه الخارج على المألوف والتقليدي ، والذي كان يتضمن في الحقيقة ترجمة جزئية عن كتابات (لوثر) . ولكن مفتشي ومحققي السوربون في ذلك التاريخ ، كانوا قد تعلموا الحذر ، فأصدروا قرارا بتحريم هذا الكتاب في ٢ آذار من عام ١٥٣١ . الا ان ذلك لم يقف حائلا : فقد تكفل « Martin Lempereur » بطباعته في مدينة (انفرس) سنة ١٥٣٤ . ومع مرور الزمن ، بدات أرملة (جان دي بري) سنة ١٥٤٠ ، كما بدأ كل من (جاك رينيو) و (أوستاش فوكو) سنة ١٥٤٣ ، باعادة طباعة هذا الكتاب بشكل علني ومكشوف في باريس . كما قدم طبعات جديدة عنه : (غليوم فيسماكن) سنة ١٥٤٥ في مدينة انفرس ، و (أولفييه ارنوليه) بتاريخ غير معروف في مدينة ليون . وهكذا انتشرت بآلاف النسخ وبست طبعات مختلفة ، نصوص (لوثر) التي من المحتمل أن يكون (بيركين) قد ساهم في ترجمتها ، وذلك دون ان يتعرض أصحاب المكتبات والمطابع المعنيون لاي عقاب .

عندئذ اصبح من الممكن أن ينشر الكثير من مؤلفات حركة الاصلاح الديني على نفس هذا النطاق الواسع . فكتاب « اتحاد المنشقين » الموقع باسم « هيرمان بوديوس » ، (وهو الاسم المستعار لمارتين بوسر) ، الذي طبع بنصه اللاتيني في كولونيا سنة ١٥٢٧ ، ثم في انفرس وليون سنة ١٥٣١ ، ثم في ليون في الاعوام ١٥٣٢ ، ١٥٣٣ و ١٥٣٤ ، قد ظهر باللغة الفرنسية لدى (Martin Lempereur) في عامي ١٥٢٨ و ١٥٣٢ ؛ كما اعيدت طباعته ايضا في جنيف في عامي ١٥٣٩ و ١٥٥١ .

اما كتاب « في تعليم وتهذيب الاطفال » لـ (اوتو برونفيلز) ، الذي حرمته السوربون سنة ١٥٣٣ ، والذي صدر لاول مرة عام ١٥٢٥ ، قد طبع قبل تحريمه سنة ١٥٢٧ من قبل (روبير ايستيان) في باريس ، ثم في ليون سنة ١٥٣٨ ، لدى (غريف) ، ثم في باريس في عامي ١٥٤١ و ١٥٤٢ على اثر كتاب آخر : « l'Institutio » لـ (هيغندورف) ، كما قدم عنه ترجمة بالفرنسية في مدينة ليون (روبير غرانجون) سنة ١٥٥٨ .

الا ان كتاب « الصلوات التوراتية » لـ (برونفيلز) نفسه ، قد لاقى نجاحا اكبر ورواجا اوسع . فقد استولى عليه وترجمه « رجال حركة الاصلاح » الفرنسيون المنفيون الذى كانوا يسعون لمضاعفة انتاجهم من الابحاث الصغيرة الممزوجة باستشهادات من التوراة ، وذلك لعدم وجود طبعات بالفرنسية عن « العهد الجديد » . وهكذا صدر هذا الكتاب تحت عنوان « الصلوات والعبادات في التوراة » . ولاقى باللغة الفرنسية نجاحا هائلا لدرجة لم يصدر معها أمر تحريمه ومنعه الا سنة ١٥٥٠ في (لوفين) ، وسنة ١٥٥١ في باريس . وفي عام ١٥٢٩ ، قام (فور سترمان) بطباعته في (انفرس) . وحذا حذوه (Martin Lempereur) في عام ١٥٣٣ ؛ كما طبعه في باريس ايضا (ويشل) سنة ١٥٣٠ . وفي عام ١٥٤٢ ، طبعه كذلك (دوليه) . ثم تلاه (جان دي تورن) سنة ١٥٤٣ .



حتى عام ١٥٣٤ : كان اصحاب المكتبات والمطابع الذين يتعاطون مثل هذه التجارة غير المشروعة ، يعتمدون على امكانية التهرب من العقاب؛ وقليلون هم الذين كانوا يتعرضون جديا للمضايقات حتى ذلك التاريخ . إلا أن الوضع ما لبث ان تبدل بعد قضية الاعلانات التي تحدثنا عنها آنفا ؛ وكلنا نعرف ردود الفعل العنيفة للملك : فبينما كانت مواكب التكفير والاستغفار تدور في أيام ٢٢ ، ٢٣ و ٢٥ تشرين الاول ، كان البرلمان ينادي في القصر « بأن كل من يرشد الى الذين قاموا بتعليق الاعلانات المذكورة ، أو يقدم معلومات اكيدة في هذا الشأن . يأخذ مئة ريال من البلاط . اما من يتستر على هؤلاء فيحرق حيا » . منذ ذلك الحين ، بدأت الوشايات تنهال على باريس ؛ وفي مدينة (تور) ، بدأت اعمال التفتيش لدى أصحاب المكتبات والمطابع الذين ادرج عدد كبير منهم في قائمة المشبوهين الذين تم توقيفهم آنذاك . كما بدأت السلسلة الاولى من أعمال القتل المذهلة تطبق اعتبارا من شهر تشرين الثاني : ففي اليوم العاشر منه خاصة ، احرق في ساحة (موبير) رجل طباعة ساهم في طباعة وتجليد « كتب مزيفة للوثر » ؛ وفي ١٩ منه ، جاء دور احد أصحاب المكتبات .

وفي ٢٤ كانون الاول ، احرق (انطوان انجيرو) ، أحد الذين قاموا بطباعة « مرآة النفس الخاطئة » وأودعوا السجن اثناء قضية القراء الملكيين . واخيرا ، في ٢١ كانون الثاني ١٥٣٥ ، جرى حدث له مغزاه ، حيث طافت شوارع باريس مسيرة تكفيرية حضرها الملك ؛ في هذا المساء نفسه ، شاهد الناس في الشوارع التي مر بها فرانسوا الاول ، جثث ستة أشخاص من الهراطقة تشتعل في الظلام فوق لهيب الكتب التي وجدت لديهم .

في النهاية ، لا بد ان يكون عدد الاعلانات التي تم العثور عليها ، وكذلك الكتب المشبوهة المصادرة خلال عمليات التفتيش ، قد صدم الملك الذي بدو وكأنه ادرك فجأة الدور الذي لعبه الكتاب في نشر الهرطقة ؛ هذا الكتاب الذي يعتبر الدليل الوحيد الملموس على الذنب الذي اقترفه المشبوه ونوعا من التجسيد لخطيئته . ولما كان الملك فرانسوا الاول قد قرر قمع الهرطقة ، فانه اتخذ في ١٣ كانون الثاني تدبيرا متطرفا ومنع طباعة اي كتاب في المملكة تحت طائلة الاعدام شنقا . كان هذا التدبير مذهلا في الحقيقة ، من المستحيل تنفيذه ، بالاضافة الى انه لم يحل شيئا البتّة ، لان الاعلانات التي كانت هي مصدر هذه القرارات قد طبعت رغم ذلك خارج فرنسا ، في (نوشاتيل) ، من قبل (بيير دي فينغل) بمناى عن الملاحقات . هبَّ ضد هذا التدبير الجائر كل من (بوديه) و (جان دي بيللاي) حتى تم الغاؤه في النهاية : ففي ٢٣ شباط ، اعلن الملك عن تعليق قراره النهائي ؛ وقد تم ، بانتظار ذلك ، تعيين اثني عشر من رجال الطباعة « الذين يحق لهم دون سواهم ، القيام بطباعة الكتب المصدقة اللازمة للصالح العام » ، مع منعهم من طباعة اية كتب جديدة اخرى .

الا أن هذا القرار ، الذي يمكن مقارنته مع القرارات التي اتخذها الملوك البريطانيون في تلك الفترة ، لم يجد طريقه الى التنفيذ ؛ اذ يبدو في الواقع ان رجال الطباعة الفرنسيين قد استمروا في اعمالهم ، كما أن انتاجهم في عام ١٥٣٥ لم يقل عنه في اي عام آخر . الا انه كان عليهم ، من الآن فصاعدا ، أن يتوقعوا ملاحقة أقسى ورقابة أشد . في ٢٥ كانون

الثاني سنة ١٥٣٥ . اصبحت مهن الكتاب ممثلة بسبعة اسماء في قائمة المشتبه بهم بالهرطقة من الفارين . والتي تمدد جهارا . من الآن فصاعدا . سيرى الناس غالبا اصحاب مطابع ومكتبات يعتقلون ، كما سيشاهدون بعضهم يصعدون على المحرقة . ولتعطيل تزايد الكتب الممنوعة ، التي ترافق تقدم الهرطقة بطبيعة الحال . بدات تصدر مجموعة من التشريعات تتزايد دقة وقسوة بصورة مضطردة : ففي عام ١٥٤٢ ، وبمناسبةمصادره عدد معين من نسخ « المؤسسة المسيحية » ، قام البرلمان بمنع بيع الكتب، مهما كان نوعها ، قبل عرضها على مراقبين منتقين من بين اساتذة الجامعة . وفي عام ١٥٤٥ ، كما راينا سابقا ، ظهر اول فهرس فرنسي بالكتب المحرمة: نتيجة سلسلة من عمليات التفتيش المنفذة خلال السنوات السابقة في محلات الكتبيين الباريسيين . وفي شهر نيسان من عام ١٥٤٧ ، تدخل الملك ، بموجب قرار اصدره في (فونتينبلو) ، لكي يمنع مرة اخرى طباعة وبيع المؤلفات المتعلقة بالكتاب المقدس ، او تصريف تلك التي تأتي من جنيف او من المانيا دون دراستها وفحصها من قبل معهد اللاهوت . واخيرا ، عام ١٥٥١ - وفي قرار صدر في (شاتو بريان) ، قامت السلطة بتأكيد وتدوين وتكملة كافة الاجراءات السابقة ، كما منعت بشكل خاص، ان تدخل الى فرنسا كتب من جنيف او من بلدان الهرطقة .

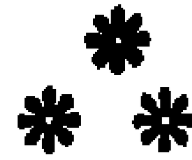
كانت حصيلة ذلك شبكة من التشريعات الدقيقة للغاية والمفرطة في التشدد والصراحة ، الا انها لم تكن تحترم . في الواقع ، لم تكن هذه التشريعات المتزايدة الدقة الا تكريسا وتثبيتا لتقدم الهرطقة ومضاعفة الكتب الممنوعة . اعتبارا من عام ١٥٤٠ ، وفي سنة ١٥٥٠ بشكل خاص ، بدا اصحاب المكتبات والمطابع الفرنسيون يزدادون شجاعة باستمرار . وهكذا بدات المطابع السرية تظهر في كل مكان ، كما تزايد عدد الباعة الجوالين ، وكذلك كتب الهرطقة الصادرة بدون عنوان . كما اتسع ونما في الوقت نفسه ، وتحت عناوين غير مؤذية ، ادب جديد يحمل كل مظاهر صحة الراي واستقامة المعتقد ، الا انه كان في الحقيقة واسطة لنقل الهرطقة ، يرتدي لذلك كافة الاشكال ، بما فيها التقويم والابجدية : فقد كانت هرطوقية فعلا ، « اشكال نهاية العالم » التي ظهرت سنة ١٥٥٢

حاملة عنوان (ايتيان غرولو) ، خليفة (دنيس جانو) ، احـد كبار الناشرين الباريسيين للكراسات الشعبية ؛ كما كانت هرطوقية ايضـا « الابجدية او التعاليم المسيحية من اجل الاولاد الصغار » ، التي منعت عدة مرات ، والتي طبعها (بيير ايستيار) بشكل مفضوح في مدينة ليون سنة ١٥٥٨ ، قبل ان يتوجه الى ستراسبورغ . وهرطوقية ايضا ، « مرآة التائب » ، وهي عبارة عن مؤلف ديني صغير طبع بشكل مكشوف ايضا في مدينة ليون من قبل (جان دي تورن) سنة ١٥٥٩ .

ماذا تفيد اذن الانظمة الرائعة التي يضعها رجال القانون ؟ ماذا يهم ، في هذه الشروط ، ان يتم من حين لآخر توقيف احد اصحاب المكتبـات او المطابع ، او حتى احراق بعضهم ! لكي يكون القمع فعالا في الواقع ، كان لا بد له ان يكون اشد قسوة من ذلك بكثير ؛ وحتى في هذه الحالة لم تكن النتائج مضمونة بصورة اكيدة . اما الذين كانوا يلاحقون او يحرقون بشكل خاص : فهم اما باعة جوالون او كتبيون صغار او عمال طباعة بسطاء . لذلك لا نجد من بين الضحايا الفعلية للقمع ، اية اسماء من العائلات الكبرى التي تسيطر على المهنة . وقـد استخلص (امبـار دي لاتور) هذا الواقع ، فاعلن ان كبـار اصحاب المكتبـات والمطابع لا يتعرضون لاي خطر ، وان مؤلفات الهرطقة كانت تطبع غالبا في مطابع سرية . قد يكون هذا صحيحا جزئيا بالنسبة لباريس ، الا انه كانت لكبار الناشرين علاقات كثيرة وحماة عديدون ؛ فما يكاد الخطر يقترب ، حتى يهب الاصدقاء لانقاذهم وتحذيرهم وعرقلة ملاحقتهم . وفي اسوأ الحالات ، كانوا يجدون الوقت الكافي للاستعداد للهرب ، كما فعـل (كونراد باد) او (روبير ايستيان) .

اما في مدينة ليون بشكل خاص ، فالحرية تامة او تكاد . فاعتبارا من عام ١٥٤٢ ، لم يتوقف الناس عن طباعة التوراة التاريخية ، كما تبنوا نص « توراة اوليفيتان » التي كانوا يكسونها لكي يعطوها مظهرا مستقيمـا وتقليديا ؛ ولم يقلق لذلك ارنوليه ، او فرولون ، او دي تورن ، او غليوم

روثيه ، أو بايان ، أو بيديه او باكنوا او بيرينجن . فيما بعد ، واعتبارا من عام ١٥٥٨ ، بدأ (روبير غرانجون) ، صهر الرسام (بيرنارد سالومون) الذي كان هو نفسه صهر (جان دي تورن) ، يستخدم حروفه الطباعية الكيسة ، رغم سهولة التعرف عليها ، في طباعة سلسلة صغيرة من الكتيبات التثقيفية المشبعة بالهرطقة ؛ ولم يمنعه هذا فيما بعد ، من الذهاب الى روما لكي يقوم بنحت المناقش لصالح البابا نفسه . في هذه الفترة ، بالذات ، كان اشهر أصحاب المكتبات والمطابع الليونيين يشجعون الهرطقة . كما كان الكثيرون منهم على صلة مع (فاريل) و (كالفين) وجنيف . فها هو (جان دي تورن) يعيش في وسط بروتستانتي كامل ؛ وها هو (غريف) يستقبل (دوليه) عند خروجه من سجون تولوز ، ولا يتردد في طباعة المؤلفات المحرمة من قبل « السوربون » . وها هم آل (سينوتون) ، الكتبيون الاقوياء ، يصبحون من اتباع الهرطقة وانصارها ؛ وكذلك الامر بالنسبة لـ (فرولون) . أما (بلتازار ارنوييه)، فكان يمارس رسميا الديانة الكاثوليكية ، الا أنه كان شريكا لـ (غليوم غيرو) الذي سنجده مجددا في جنيف ؛ كما كان يقيم صلات وطيدة حميمة مع (كالفين) ، ولديه منقّح يدعى (سيرفيه) ؛ في عام ١٥٥٣ ، ترك (غيرو) يقوم سرا بطباعة « التعويض المسيحي » في مدينة فيينا . وكان لا بد من ابلاغ من قبل (كالفين) بالذات ، الذي كان معاديا لـ (سيرفيه) ، حتى يودع (ارنوييه) في السجن . الا انه لن يلبث ان يخرج لكي يستعيد مكانته كرجل طباعة ويتصالح مع (كالفين) : ففي مثل هذه الشروط ، كيف يمكننا أن نستغرب تكاثر كتب الهرطقة ؟ أو لـم يكن هناك (انطـوان فينسون) ، الذي كان يمتلك مطبعتين ، احداهما في جنيف والثانية في ليون ، والذي كان يقدم رؤوس الاموال اللازمة ويدير العمل على مستوى لم يبلغه أحد بعد في كل من باريس وميتز وليون وجنيف ؟

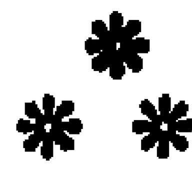


الا انه كان هناك مشروع يراود أذهان كل من (لامبير) و (كوكتوس) و (فاريل) منذ زمن بعيد : وهو اعطاء حركة الاصلاح الديني الفرنسية

مركزا للاستقبال والدعاية مماثلا للذي احدثه (ويتنبرغ) ؛ هذا المشروع الذي حققه اخيرا (فاريل) سنة ١٥٣٠ ؛ عندما دخل الى (نوشاتيل) ، يدعمه عدد من بورجوازيي المدينة ، وذلك في ٤ تشرين الثاني ، فطرد الكهنة والغى العبادة القديمة .

عند ذلك ستصبح (نوشاتيل) في آن واحد - مأوى اللاجئين الفرنسيين ومركزا للدعاية الانجيلية . كان (فاريل) هذا رجل عمل واقعيا ، يدرك تماما مدى قوة الطباعة ، فاستدعى احد رجالها المدعو (بيير دي فينغل) ، وهو ابن (جان دي فينغل) الذي كان من رجال الطباعة ايضا ؛ ولد (بيير) هذا في منطقة (بيكارديا) ، وعمل من عام ١٥٢٥ حتى ١٥٣١ كناظر مطبعة لدى (كلود نوري) ، المتخصص الليوني في اصدار الكراسات الشعبية ، حيث تزوج من ابنته . وعندما انضم الى حركة الاصلاح الديني ، عمل في خدمة (فاريل) ، منذ عام ١٥٢٥ على اغلب الظن ، كما استخدم مطابع (نوري) لطباعة مؤلفات بروتستانتية تحت عناوين مزيفة ؛ وفي عام ١٥٣١ ، اصدر باسمه مؤلفا صغيرا اتينا على ذكره آنفا ، وهو « Unio dissidentium » ، الذي حرمته السوربون منذ ٢ آذار من العام نفسه . بعد ذلك بقليل ، طرد (بيير دي فينغل) من مدينة (ليون) نظرا لقيامه ، حسب ادعائه ، بطباعة بعض كتب « العهد الجديد » بالفرنسية . فحصل آنذاك على توصية من آل (بيرنوا) للاقامة في مدينة جنيف ؛ الا ان الوضع في هذه المدينة كان مضطربا للغاية ، فأقام ، بناءا على نصيحة (فاريل) ، في (مانوسك) في منطقة اجتاحتها الهرطقة ، حيث يوجد لـ (فاريل) هذا ، الذي يرجع اصله الى مدينة (غاب) ، أقرباء عديدون . هناك أخذ يبيع مؤلفات دعائية ، كما باع في الوقت نفسه العديد من تقاويم الرعاة . وفي شهر تشرين الاول من عام ١٥٣٢ ، طلب « الفوديون » من (فاريل) أن يطبع ، من أجل انجلة ودیانهم في منطقتي (دوفينيه) و (بييمون) ، كتاب التوراة وفقرات الكتاب المقدس التي ترجمت من قبل (سولنييه) عن طبعة (بوسر) اللاتينية . وقد كان (بيير دي فينغل) الرجل المطلوب لتنفيذ هذا العمل؛ فمنذ شهر كانون الاول من عام ١٥٣٢ ، كان الشاعر الغنائي لمارتين غونين

ينتظره في جنيف ، ومعه / ٥٠٠ / ريال جمعها « الغوديون » لصالح المشروع . وهكذا وصل الى المدينة وهو يحمل توصية من آل (بيرنوا) ؛ حيث اقام في بيت مجاور لمنزل يسكنه (جان شوتون) ، وهو تاجر غني ، يبدو انه ساهم في هذا المشروع بدراهمه ، كما كان أولاده يتتلمذون على يدي (اوليفيتان) . وبناءا على طلب (شوتون) هذا ، قبل قضاة جنيف بطباعة وبيع التوراة وفق نص (لوفيفر) الذي ظهر في انفرس . الا انهم ما لبثوا ، في ١٣ نيسان ، أن منعوا اصدار كتاب « l'Union » ، الذي ظهر مع ذلك بصورة سرية بالعنوان المزيف التالي : « لدى بيير دوبون ، في انفرس » ، بينما كان « العهد الجديد » بل التوراة كلها ، يخرج من مطابع (بيير دي فينغل) في شهر نيسان . عندئذ وضع الطابع على الطريق مؤلفا جديدا هو « تعليم الاولاد » لـ (أوليفيتان) ، ثم ذهب في شهر آب ليستقر في (نوشاتيل) ، حيث بذل نشاطا هائلا وهو يعمل بسلام بالتعاون مع (ماركور) ، احد قساوسة المدينة ، و (توماس مالينغر) ، الزاهب الدومينيكي السابق ؛ كما قدم ، منذ عام ١٥٣٣ ، الشعائر الدينية لـ (فاريل) ومجموعة اغاني انجيلية ؛ وفي السنة التالية ، قدم « الموجز »(le Sommaire)، بالاضافة الى سلسلة من المقالات الانتقادية، وكتاب التجار واعلانات الصلاة الشهيرة ؛ كما قدم سنة ١٥٣٥ ، « توراة اوليفيتان » واعمالا كثيرة اخرى اكتشف مصدرها مؤخرا . كانت كافة هذه المؤلفات معدة من اجل فرنسا بشكل خاص ، تصدر بدون عناوين أو تحت عناوين مزيفة : « طبع في كورينت » ، او « طبع في باريس من قبل بيير دي فينيول ، المقيم في شارع السوربون » ، أو مجرد عبارة « طبع في باريس » .



الا أن (فاريل) ظل يستثمر جنيف من (نوشاتيل) ؛ في ١٠ آب سنة ١٥٣٥ ، الغي القداس في جنيف بقرار من « مجلس المئتين » . وبعد ذلك بأحد عشر شهرا ، دخلها (كالفين) ، فاصبحت الطريق مفتوحة الى مدينة ليون . وهكذا تشكل خط متواصل من التجمعات ، يمتد من ستراسبورغ

الى جنيف ، فاصلا فرنسا عن الاقطار الالمانية الكاثوليكية وذلك باحاطتها بالمدن البروتستانتية التي كانت مطابعها تنتج كتب الهرطقة . لذلك سنجد رسل (فاريل) يتجولون من الآن فصاعدا ، من فرانكفورت وستراسبورغ الى بال وجنيف ، ومن جنيف الى ليون وباريس . كما سنجد في الوقت نفسه ، كيف كان يتحضر غزو فرنسا بالكتاب الجنيفي

. عندما عاد كل من (فاريل) و (كالفين) الى جنيف ، لم يكن في المدينة آنذاك سوى بضعة آلات طابعة . ففي بعض الورشات المتواضعة ، المجهزة بالحروف الطباعية القوطية (كورشة « ويغان كولن » مثلا) ، كانوا يكتفون بطباعة الكتب المالوفة والاوراق المنفصلة والتقاويم . الا أن (فاريل) سيعمد فورا الى معالجة هذا الوضع وايجاد الحلول المناسبة لـه . فبتحريض منه ولا شك ، عمد (جان جيرار) « السوزي » الاصل ، سنة ١٥٣٦ ، الى اقامة مشغل طباعي في المدينة ؛ ومنذ هذا العام نفسه ، بدأ يصدر « العهد الجديد » بالفرنسية ، ثم « مزامير داوود » و « تعليم الاولاد » ، التي اعقبتها سلسلة من الكراسات الدعائية الصغيرة ؛ واعتبارا من عام ١٥٤٠ ، وخاصة من عام ١٥٤٥ ، اصبح نشاط (جيرار) أكثر اتساعا وأكبر اهمية . كان انتاجه يضم الكثير من أعمال (فيريه) ، وكذلك (كالفين) بشكل خاص ، الذي كان يعتبر ناشره الخاص .

في الوقت نفسه ، بدأ يظهر في جنيف العديد من المطابع الاخرى : ففي الفترة الواقعة بين عامي ١٥٣٨ و ١٥٤٤ ، نجد (جان ميشيل) يعمل فيها على عتاد ورشة (نوشاتيل) ؛ كذلك نجد فيها (ميشيل دوبوا) بين عامي ١٥٣٧ و ١٥٤١ . وفي عام ١٥٤٨ ، وصل اليها (جان كريسبين) وهو محام ابن محام من باريس ، عمل في الطباعة ؛ وفي الفترة بين عامي ١٥٤٩ و ١٥٥٠ ، وصل رجلان من مشاهير أرباب الطباعة الباريسيين ، هما (كونراد باد) و (روبير ايستيين) وهكذا أصبحت جنيف من الآن فصاعدا ، تضم العديد من المطابع البالغة الاهمية . وبتدفق اللاجئين ، بدأ عدد اصحاب المكتبات والمطابع يتزايد باستمرار ، حيث وصل اليها أكثر من / ١٣٠ / من هؤلاء بين عامي ١٥٥٠ و ١٥٦٠ . صدر هناك ،

بين عامي ١٥٣٣ و ١٥٤٠ ، / ٤٢ / مؤلفا فقط ؛ بينما صدر / ١٩٣ / مؤلفا بين عامي ١٥٤٠ و ١٥٥٠ ، و / ٥٢٧ / بين عامي ١٥٥٠ و ١٥٦٤ . وهكذا اصبح في مدينة (كالفين) ما يقرب من اربعين آلة طابعة ، يعمل معظمها في خدمة جماعة صغيرة من كبار الناشرين الذين يسيطرون على تجارة الكتاب وهم : جان كريسيين ، روبير ايستيين ، وخاصة انطوان فينسان ولوران دي نورماندي اللذين كانا يركزان في يديهما وحدهما الارساليات الموجهة نحو فرنسا .

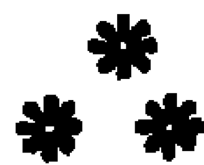
كانت الآلات الطابعة الجنيفية (في جنيف) ، باستثناء مطابع (روبير ايستيين) ، تعمل على اصدار المؤلفات الدينية وحدها تقريبا . وهكذا كانت تطبع في مدينة (كالفين) : كتب التوراة والعهد الجديد التي نجد منها تسعا وخمسين طبعة بالفرنسية خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٥٥٠ ــ ١٥٦٤ ، بالاضافة الى الطبعات اللاتينية واليونانية والايطالية والاسبانية . كما نجد ايضا عددا كبيرا من كتب الزبور ، ومن المقالات الانتقادية التي تهاجم البابا كنقيض للسيد المسيح ، « ككوميديا البابا المريض المحتضر » على سبيل المثال ؛ كذلك من أجل اتاحة الفرصة أمام كل مؤمن لمناقشة الامور اللاهوتية وادخال المعتقدات الجديدة في صفوف مختلف فئات الشعب ، بدات تظهر ابحاث صغيرة لاهوتية باللغة العامية: « كالوجيز عن العقيدة الانجيلية والبابوية » لـ (فيريه) ، و « مقتطفات مقتضبة من العقيدة الانجيلية » لـ (بولنجر) ، أو « درع الايمان والحوار حوله » لـ (بارتيليمي كوس) . الا أن كتابات (كالفين) كانت تفوق جميع هذه المؤلفات عددا : حيث صدر له ، بين عامي ١٥٥٠ ــ ١٥٦٤ ، ٢٥٦ طبعة ، نشر منها / ١٦٠ / في جنيف وحدها . واذا اخذنا كتاب « المؤسسة المسيحية » مثلا ، نجد انه اعيدت طباعته وحده خمسا وعشرين مرة ، منها تسع طبعات باللاتينية وست عشرة بالفرنسية ، جاء معظمها من مطابع جنيف بالذات ؛ اما كتاب « التعاليم المسيحية بين السائل والمجيب » ، الذي أصدره (كالفين) سنة ١٥٤١ ، وترجمة التوراة التي قدمها سنة ١٥٥١ ، فيبدو انهما طبعا بكميات اكبر ولقيا رواجا اكثر واقبالا اشد . وهكذا تأمن انتشار العقيدة الجديدة .

الا أن تمويل وتصريف هذا الانتاج الكثيف من المنشورات الدعائية كان يطرح العديد من المسائل ؛ ومن المؤكد أنه كان بامكان الناشرين في جنيف ان يرسلوا قسما من هذه الكتب الى معارض فرانكفورت ، حيث كان بامكان اصحاب المكتبات من البلدان البروتستانتية أن يتزودوابحرية، بينما نجد أن الكتبيين الفرنسيين ، الحاضرين أيضا ، يتخذون مختلف التدابير ويتبعون شتى الاساليب لادخال الكتب الممنوعة الى فرنسا . ولكن الجري خلف الكتاب بدأ ينتظم اعتبارا من عام ١٥٤٢ ؛ وفي عام١٥٤٨، منعت الكتب المطبوعة في جنيف من دخول المملكة مهما كان نوعها . لذلك اصبح انتشار هذه الكتب يتم بصورة سرية عن طريق الباعة الجوالين . نقد كان لكل ناشر في جنيف شبكة من هؤلاء الجوالين الذين يتكفلون بتصريف الكتب في منطقة معينة . كما كان صاحب المكتبة متضامنا مع البائع بالنسبة للخسائر في هذه التجارة المجازفة ، ولا يتم الحساب أو التصفية النهائية الا بعد بيع الكتب . ثم ما لبثت هذه الشبكات أن تدعمت بالعناصر التي كان يرسلها مبشروا جنيف الى فرنسا ، والتي كان بعضها من اصحاب مهنة الكتاب : ككونراد باد مثلا ، الذي اغلق محله سنة ١٥٦٢ لكي يعمل كمبشر انجيلي في منطقة اورليان ، حيث توفي نتيجة اصابته بمرض الطاعون . وهكذا ظلت كتب الهرطقة تتدفق على فرنسا ، عن طريق كولونج وسان ــ جان ــ دي لوزن ولانغر وسان ــ ديزيه اذا كانت قادمة من المانيا ، أو عن طريق جكس ، سافوا ، شابليه ثم ليون اذا كانت آتية من جنيف ؛ أما الامثلة على ذلك فليست بعض الحالات الفردية المنعزلة بل هناك مئات الامثلة ، حيث كان تهرب الكتب في البراميل أو مع بضائع المسافرين أو في عربة بائع جوال . وأما احتمال التوقيف على الطرقات فكان ضئيلا لانعدام تواجد الشرطة هناك تقريبا ، والاكتفاء بوضع أعداد قليلة منهم عند مداخل المدن فقط . وحتى في حالة التوقف عند حواجز الشرطة ، كان الامل ضعيفا في العثور على البراميل التي تحتوي على الكتب من بين التي تتضمن بضاعة نزيهة لا غبار عليها ، خاصة اذا وضعت هذه الكتب تحت منتجات أخرى وتم تمويهها بصورة جيدة . وهكذا كانت المجلدات تصل الى هدفها دون ازعاج ، حيث

توجه غالبا الى باريس أو ليون ، ثم توزع من هناك الى المدن الاخرى الاقل اهمية . كانت هذه الكتب تنتهي دائما الى مخزن احد اصحاب المكتبات من المتخصصين بالبضائع المهربة المنتشرين في كل من تور وبواتييه وأنجيه وبيريغو او بوجيه . في بعض الحالات ، واذا سمحت الظروف بذلك ، وخاصة اذا كان يسود المنطقة مناخ ملائم من الاعتدال والتساهل ، كان هؤلاء يخبئون كتب الهرطقة في مكتباتهم مع غيرها من الكتب المشروعة ، خاصة وانها كانت تحمل عناوين مزيفة ، وتبدو في نظر الاشخاص العاديين كأية كتب دينية عادية . الا انه في اغلب الاحيان ، كانت الكتب الممنوعة تخبأ في احد الاقبية أو في البيوت الصغيرة المنعزلة ، ولا تباع الا للعارفين. وفي احيان كثيرة ايضا ، كان الباعة الجوالون ، الذين يجوبون المنطقة ، يتكفلون ببيع الابجديات والتقاويم والمزامير التي كانت جميعها وسائط لنقل الهرطقة ونشرها . وهكذا كانت هذه الكتب تتسرب الى كل مكان : حيث نجدها في الاديرة والمعاهد ، خاصة وان اخفاءها سهل في ساعات الخطر بسبب حجمها الصغير من قياس(in - 8°)أو (in - 16°) . ففي مدينة طولون مثلا نجد أن صيدلانيا مهددا قد أخفى مكتبته في حديقته ؛ كذلك تم العثور بعد عدة قرون أحيانا ، على الكثير من النسخ وكراسات الدعاية التي أخفيت في بعض المخابىء .

من الصعب جدا تقدير الاهمية الحقيقية لهذه التجارة السرية ، لان العديد من الطبعات قد اختفى من بين هذه المجلدات . الا انه لا مجال للشك في أن تلك المشاريع قد وضعت على صعيد واسع وسلّم كبير . ويمكن أن نأخذ نشاط (لوران دي نورماندي) مثلا ، كدليل واضح على ذلك : حيث كان صديقا لـ (كالفين) ، وكلاهما من مدينة (نويون) أصلا ، يعمل محاميا في جنيف ، الا أن نشاطه الاساسي كان منصبا على أعمال النشر وبيع الكتب ، حتى أصبح على راس شبكة تهريب كبيرة الاهمية . في عام ١٥٦٣ ، نجد تحت تصرفه أربع آلات طابعة لدى (بيرين)، بالاضافة الى آلات اخرى في اماكن اخرى ولا شك . وعندما توفي سنة ١٥٦٩ ، وجد في مخازنه / ٣٤٩١٢ / مجلدا . من أجل تصريف هذه

الكتب ، كان (لوران دي نورماندي) على صلات مباشرة مع بعض أصحاب المكتبات من امثال لوك جوس وكلود بوشيران في مدينة ميتز ، ومع سيباستيان مارتين في سيسترون ، ولويز دي هوفي ريمس ، وغيرهم ... الا انه كان يعمد بشكل خاص الى تجنيد الباعة الجوالين من بين اللاجئين القادمين من كافة مقاطعات فرنسا والذين كانوا يتعاطون تجارة الكتاب بشكل أو بآخر . ويمكن ان نأخذ مثالا على ذلك كلا من جاك بيرنار وانطوان فللو ، اللذين سلمهما / ١٧ / برميلا و / ٤ / طرود من الكتب لادخالها وبيعها في فرنسا ، وذلك في ٦ كانون الاول من عام ١٥٦٣؛ وكذلك (لافودو) ، المولود في (هافر ـ دي ـ غراس) ، والذي سلمه في الخامس عشر من الشهر نفسه ، مجموعة من الكتب ليبيعها في فرنسا. أما المثال الاخير ، فهو (نيقولا بللون) الذي لجأ الى جنيف سنة ١٥٥٥ ، واشترى من (لوران دي نورماندي) كتبا دينية باعها في فرنسا أيضا ؛ الا انه أوقف في (بواتييه) سنة ١٥٥٦ ، حيث حكم عليه بالاعدام ، ثم استطاع الفرار ولكنه أوقف من جديد في (شالون ـ سور ـ مارن) واحرق في باريس سنة ١٥٥٨ . وهكذا نجد أن الامثلة على ذلك أكثر من أن تحصى ، وأن السلطة كانت عاجزة عن الحيلولة دون انتشار كتب الهرطقة . في عام ١٥٤٢ ، وعلى اثر مصادرة عدد من نسخ « المؤسسة المسيحية » ، قام البرلمان عبثا باصدار قرار لاعادة تنظيم الرقابة ، واحرق كافة النسخ المسوكة ، كما أدان البائع الجوال (أنطوان لونوار) الذي جاء من جنيف مارا بمدينة انفرس ، وحكم عليه بتقديم غرامة كبيرة أمام مدخل كنيسة (نورتردام) أولا ، ثم في (سان ـ كونتان) ، كما نفي خارج المملكة . وعبثا أيضا أحرق رمزيا كتاب « المؤسسة المسيحية » ، عند مدخل كنيسة نوتردام سنة ١٥٤٤ ، أو بذلت الجهود لحصر تجارة الكتب داخل شبكة من الانظمة والضوابط . عبثا ايضا ، جرت ملاحقة الباعة الجوالين وأرسل عدد منهم الى المحرقة بين عامي ١٥٥٦ و ١٥٦٠ : لم يكن هناك في الواقع من وسيلة للحيلولة دون غزو كتب الهرطقة لفرنسا



اما ابعاد هذا الغزو ومداه ، فسيمكننا من قياسها نشر المزامير عشية الحروب الاهلية .

كلنا يعلم المكانة التي يحتلها ترتيل المزامير في الكنيسة البروتستانتية. انها نفس المزامير التي ترجمها (مارو) و (تيودور دي بيز) ، والتي كان يرتلها البروتستانتيون عندما يجتمعون في (Pré - aux - Clercs) او في مخزن الحبوب في (واسي) ؛ انها أيضا المزامير التي كان ينشدها المتهمون بالهرطقة وهم يعتلون المحرقة . وهي كذلك المزامير التي ستنشدها القطعات البروتستانتية عند مسيرها للقتال اثناء الحروب الدينية . منعت ترجمة (مورو) عدة مرات في فرنسا ، الا أن الملك فرانسوا الاول كان يحبها ويقرؤها ، كما كان هنري الثاني ينشدهاويطلب انشادها ، حيث كان كل سيد من سادة البلاط يتبنى المزمور الذي يحدده له الملك . لذلك لا نستغرب في مثل هذه الشروط ، عندما نجد (كاترين دي ميديسيس) تقبل في نهاية « مؤتمر بواسي » ، بناءا على طلب (تيودور دي بيز) الذي أنهى ترجمة المزامير ، أن تمنح امتيازا خاصا للكتبي الليوني (أنطوان فينسان) من أجل اصدار هذه الترجمة . كما نجد في الفترة نفسها أن (مارغريت دي بارم) ، التي كانت هي الاخرى ميالة الى التسامح الديني ، قد منحت (كريستوف بلانتين) امتيازا مماثلا .

عندئذ قام (انطوان فينسان) باعداد اضخم عملية عرفت حتى ذلك الحين فيما يتعلق بالطباعة والنشر ، وحاول جاهدا أن يعطي كل بروتستانتي فرنسي نسخته من المزامير . وهو لم يكن مجرد كتبي في ليون ، حيث شارك الاخوة (فرولون) ، بل كان أيضا رجل طباعة ونشر في جنيف حيث كان يمتلك أربع آلات طابعة شخصية ، كما كان يقدم العمل لرجال طباعة آخرين يشتغلون لصالحه . وهكذا كانت كافة المطابع في جنيف ، سواء بتحريض منه أو من تلقاء نفسها ، تعمل آنذاك على اصدار المزامير ؛ حتى أنها استطاعت خلال بضعة اشهر ان تنتج /٢٧٤٠٠/ نسخة . كذلك نجد نشاطا مماثلا في مدينة ليون . الا ان (فينسان)

عمد الى استثمار امتيازه فأبرم عقودا مع أصحاب مطابع من ميتز وبواتييه وسان ـ لوو باريس . ففي مدينة باريس ، وقع اتفاقا مع تسعة عشر من كبار رجال الطباعة والنشر الذين تطوعوا لاصدار « المزامير » ، ينص على تخصيص ٨٪ من الارباح لتوزع على فقراء الكنيسة البروتستانتية الباريسية . وهكذا يكون مجموع ما صدر عن المزامير عدة عشرات من آلاف النسخ ، طبعت جميعها خلال فترة لا تتجاوز بضعة أشهر . الا ان هذا الانتاج المكثف صبيحة الحروب الاهلية ، لن يمر دون ردود فعل عنيفة . لذلك سيودع السجن عما قريب الكثيرون من كبار الناشرين الباريسيين الذين ابرموا عقودا مع (فينسان) ، ومنهم : غليوم لونوار ، Le Preux ، و Oudin Petit . وهكذا اقتربت اللحظة التي أصبح لا بد فيها من الاختيار بين التخلي عن الجنوح الديني أو الفرار : فبينما لجأ آل (هولتين) الى مدينة لاروشيـل ، فر (أنـدريه ويشل) الى فرانكفورت ، كما توجه (جان Lepreux) و(Jean III Petit) الى لوزان وجنيف ؛ كما نشبت في الوقت نفسه حرب مقالات انتقادية ومنـاشير رافقت الحروب الاهلية التي ساهم الكتاب في اثارتها . الا أن هذه قصة أخـرى .

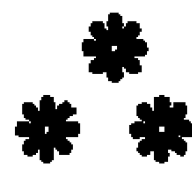
٤ ـ الطباعـة واللغـات

ان الطباعة التي ساهمت في انطلاق حركة الاصلاح الديني ، قـد لعبت كذلك دورا أساسيا في تكوين اللغات وتثبيتها ، فحتى مطلع القرن السادس عشر ، نجد أن اللغات الوطنية التي فرضت نفسها في تواريخ مختلفة على أوروبا الغربية كلغاتمكتوبة والتي استخدمت كلغاتمشتركة، قد استمرت في التطور متبعة الكلام الدارج عن كثب . لذلك نجد مثـلا ان الفرنسية المستعملة خلال القرن الثاني عشر في اناشيد البطولـة (الملاحم الشعرية) ، تختلف كليـا عن التي كـان يكتبهـا (Villon) في القرن الخامس عشر . الا أن الوضع ما لبث أن تبدل اعتبارا من القرن السادس عشر . ففي القرن السابع عشر بدأت اللغات الوطنية تتبلـور في كل مكان ؛ كما نجد في الوقت نفسه ان قسما من اللغات المكتوبة في

العصر الوسيط لم تعد كذلك ، او اصبحت تكتب في حالات استثنائية ، كاللغة الارلندية او البروفانسية على سبيل المثال . واخيرا ، توقفت اللاتينية شيئا فشيئا عن الاستعمال لتنحدر نحو الموت .

وهكذا أصبح هناك توحيد داخل المناطق اللغوية الواسعة ، مع ثبات سريع نسبيا داخل هذه المناطق التي ما زالت اليوم هي اطارات اللغات الوطنية . كذلك سنلمس ثباتا عما قريب في الاملاء والكتابة أقل مطابقة للفظ ، مع تعقيد متزايد احيانا نتيجة التماس مع اللغات القديمة .

من المؤكد ان الطباعة لم تكن العامل الوحيد الذي ساهم في اثارة هذا التطور . فقد كانت الجهود تبذل في الدواوين منذ زمن بعيد ، من اجل تعميم استعمالات اللغات الادبية . وقد أدى ظهور الانظمة الملكية الوطنية المركزية أو رسوخها في القرن السادس عشر ، الى تسهيل التوحيد اللغوي والسياسي بين ملوك فرنسا واسبانيا بشكل واضح . الا انه لا مجال للشك في ان الطباعة قد مارست في كافة هذه المجالات تأثيرا أعمق بكثير ، اشار اليه كل من مييه وفرديناند برونو : حيث كان لا بد للناشرين بطبيعة الحال من العمل على انطلاق اللغات العامية في مجالات كثيرة حتى يصلوا الى اكبر عدد ممكن من الزبائن . كما اعطت الطباعة المنشورات طابع الاستقرار من جهة أخرى ، لانها « تخلصت من الآن فصاعدا من تأثير الخطاطين الذين كانوا يتصرفون في النصوص عن وعي أو دون وعي ، محاولين التجديد بشكل أو بآخر ؛ اما خلفاؤهم من رجال الطباعة ، فنراهم ميالين للتخلص من النزوات الاملائية والتعابير اللهجية التي من شأنها جعل الكتاب أصعب فهما من قبل أوسع الجماهير .



وهكذا نرى أن القرن السادس عشر ، الذي شهد تجدد الثقافة القديمة ، كان أيضا العهد الذي بدا فيه انحسار اللغة اللاتينية . وقد اصبحت هذه الحركة واضحة بشكل خاص اعتبارا من عام ١٥٣٠ ، ولكن

هذا ليس مستغربا في الحقيقة ، لان جمهور القراء ورواد المكتبات قد اصبحوا اكثر فاكثر من العلمانيين كما اسلفنا ؛ كما كان فيهم الكثير من النساء والبورجوازيين الذين يجهل معظمهم اللغة اللاتينية . لذلك كان رجال حركة الاصلاح الديني يستخدمون اللغات العامية الحديثة . وحتى الانسيون انفسهم ، لم يترددوا آنذاك في اللجوء الى هذه اللغات لكي يحصلوا على عدد اكبر من القرّاء . أو لم يكن الامر كذلك في ايطاليا منذ قرون ؟ ثم الا يعتبر مثال (بيترارك) كافيا لتغلب المترددين على حيرتهم ووساوسهم ؟ وهكذا نجد أن (Budé) ، الذي كان فخورا بانه استطاع ان يقوم امام الملك بترجمة رسالة باليونانية بعث بها اليه صديقه (لاسكاريس) ، قد قبل في أواخر أيامه أن يكتب باللغة الفرنسية كتابه المعروف « مؤسسة الامير » . بل ذهب الامر أبعد من ذلك ، حيث ساهمت العودة الى الآداب القديمة في جعل اللغة اللاتينية نفسها لغة ميتة: فقد أشار (فرديناند برونو) بحق ، الى أن « الشيشرونية » وتذوق اللغة اللاتينية الجميلة قد أديا ، عن طريق استبعاد الاخطاء اللغوية وتجنب العبارات غير الفصيحة التقليدية والالتزام باللجوء الى تعابير التورية المزعجة للتعبير عن فكرة أو للاشارة الى غرض جديد ، الى دفع المؤلفين والكتّاب للابتعاد تدريجيا عن استعمال اللغة اللاتينية .

لذلك لا يستغرب اذن أن نجد نسبة المؤلفات الصادرة باللغة العامية ترتفع آنذاك . من المستحيل أن نعطي ارشادات اجمالية في هذا المجال ؛ الا ان هناك أرقاما لها دلالاتها الخاصة : فمن اصل / ٢٢٥٤ /، مؤلفا صدرت في مدينة انفرس بين عامي ١٥٠٠ و ١٥٤٠ ، نجد ٧٨٧ بالفلمندية، ١٤٨ بالفرنسية ، ٨٨ بالانكليزية ، وحوالي العشرين بالدانمركية والاسبانية او الايطالية ـ أي ما يقرب من النصف . لا شك في أن زبائن رجال الطباعة في انفرس ، هذه المدينة التجارية ، كانوا يتألفون الى حد ما من البورجوازيين الذين اثروا حديثا وما زالوا على حظ ضئيل من الثقافة . ولكن الوضع كان مماثلا في المناطق الاخرى أيضا ، مما جعل تقدم اللغات الوطنية يبدو عاما . ففي (اراغون) ٢٥ كتابا باللاتينية مقابل ١٥ بالاسبانية

بين عامي ١٥٠١ و ١٥١٠ ؛ وخلال الثلاثين سنة التالية ، ١١٥ باللاتينية مقابل ٦٥ بالاسبانية . اما في الفترة الواقعة بين عامي ١٥٤١ ــ ١٥٥٠ ، فنجد ١٤ باللاتينية فقط مقابل ٧٢ بالاسبانية . هنا ايضا ، من المناسب عدم التسرع باستخلاص النتائج ، سواء من هذه الارقام او من الكشوفات الكتبية القائلة بأن انكلترة كانت تطبع الكتب الانكليزية بصورة أساسية : فالمراكز الطباعية الاسبانية والانكليزية كانت تشكل آنذاك ما يمكن تسميتها « بالمراكز التكميلية » ، لان هذين البلدين كانا يقومان في الواقع باستيراد الكتب اللاتينية التي تصدر في فرنسا والمانيا وهولندة . الا أن تقدم اللغات الحديثة يبدو مفروغا منه عندما نتفحص الانتاج الباريسي : ففي عام ١٥٠١ ، ٨ كتب فقط بالفرنسية من مجموع ٨٨ كتابا ؛ وفي عام ١٥٢٨، ٣٨ فقط من اصل ٢٦٩ ؛ اما في عام ١٥٣٠ ، فنجد في فرنسا الحالية (الالزاس ضمنا) ، ١٢١ طبعة بالفرنسية و ١٠ بالالمانية من أصل ٤٥٦ . كذلك في باريس وحدها ، سنة ١٥٤٩ ، نجد ٧٠ طبعة بالفرنسية من اصل ٣٣٢ طبعة باريسية ؛ وفي عام ١٥٧٥ ، نجد ٢٤٥ بالفرنسية من اصل ٤٤٥ ، اي الاغلبية ، صحيح انه يدخل في عداد هذه النسبة الكثير من المقالات الانتقادية والكراسات المنعزلة ، ولكن من الثابت والمؤكد فعلا ، أن اغلبية الطبعات الباريسية استمرت تصدر بالفرنسية بعد انتهاء الحروب الدينية .

اما تقهقر اللغة اللاتينية امام اللغة الوطنية في المانيا ، فيبدو مبكرا في عهد (لوثر) ، الا أنه لم يكن نهائيا . وهكذا نجد ان كشوفات (ويلر)، رغم نواقصها ، نذكر ٤٠٠٠ مؤلفا مطبوعا بمختلف اللهجات الالمانية بين عامي ١٥٠١ و ١٥٢٥ . اعتبارا من عام ١٥٢٠ بشكل خاص ، احرزت اللغة العامية تقدما ملموسا بفضل (لوثر) . ففي عام ١٥١٩ ، تم احصاء ٤٠ طبعة فقط بالالمانية بينما نجد ان هذا الرقم بدأ يرتفع تدريجيا في الاعوام التالية : ٢١١ سنة ١٥٢١ ؛ ٣٤٧ سنة ١٥٢٢ ؛ ٤٩٨ سنة ١٥٢٥، منها ١٩٨ طبعة من كتابات (لوثر) المختلفة . طيلة حركة الاصلاح الديني، ظلت الطباعة تتم بالالمانية خاصة ؛ الا ان اللغة اللاتينية ما لبثت أن تفوقت

فيما بعد . وقد رأينا سابقا انه كان يقدم لمعارض فرانكفورت عند نهاية القرن ، كتب لاتينيه بشكل خاص ؛ صحيح أنه لم يكن يصح ان يدرج في كشوفات المعارض الكثير من المؤلفات الالمانية المخصصة للتجارة المحلية أكثر من سواها ، الا أن من المؤكد ان استعادة المطابع الكاثوليكية لنشاطها قد شجع على تجدد المنشورات اللاتينية . سوف تنتصر اللغة الالمانية نهائيا ولكن بصورةمتأخرة عنباقي اللغات ، وذلك في القرن السابع عشر ، عندما تحل معارض لايبزيغ محل معارض فرانكفورت .

ان الخدمات التوحيدية التي قدمتها الطباعة بالنسبة لتشكل اللغة الادبية ، تلفت النظر في المانيا بصورة خاصة . من المؤكد ، قبل ظهور المطابع بزمن طويل ، أن المستشاريات الالمانية قد بدات تعمل على وضع لغة مشتركة : قام به رجال متخصصون همهم الاساسي الوضوح والدقة. ومنذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، قبل أن يلمس الناس التأثير الفعلي للفن الطباعي ، بدأ يظهر اسلوب من الاشكال والكتابة والاملاء اعتبرته فئة هامة من المثقفين كنموذج للغة الادبية التي يمكن اعتبارها أساسا للغة الالمانية الحديثة .

الا ان (لوثر) سيلعب ، بمساعدة الطباعة ، دورا حاسما في هذا المجال . فقد اراد كما أعلن بنفسه ، « أن يكون مفهوما بآن واحد من قبل السكان في المانيا العليا والسفلى » لذلك سعى جاهدا لان يفرض على اللغة التي كان يصوغها ، قواعد تسمح بتحقيق هذا البرنامج ، كما مكنه نشر أعماله ، وخاصة التوراة ، من أن يصبح المشرّع في مجال اللغة الالمانية .

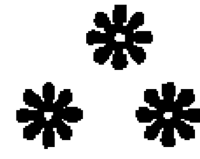
الا ان (لوثر) لم يحقق هذا الاصلاح اللغوي دفعة واحدة : فهو في الاصل ، لم يميز الصعوبات الناجمة عن اختلاف الاستعمالات في مختلف المناطق الالمانية ، مما جعله يبدأ عمله كيفما اتفق . ولكنه ما لبث أن بدأ بعمل بصورة منهجية منظمة اعتبارا من عام ١٥٢٤ : حيث حاول جاهدا تبسيط الاملاء بحذف الاحرف الصوتية المزدوجة (nn , tt) .

ان ما كان مهما لارساء اسس لغة يسهل فهمها على الجميع ، هو توحيد الاشكال القواعدية والمفردات . ولما كان (لوثر) من مواليد « الساكس السفلى » ، فقد بذل جهودا جبارة لكي يتحرر من لغته المحلية الام ؛ وباعتباره عاش في منطقتي (تورينج) و (ساكس) بشكل خاص ، فقد استوحى من اللغة المستعملة في الديوان الساكسوني ، والتي بدت له الافضل والامثل . الا ان كتاباته ظلت مدة طويلة مشوبة بالآثار الاقليمية فيما يتعلق بالقواعد ، ولم ينجح في التخلص منها الا بالجهد المستمر الدؤوب . كانت المفردات هي التي تستقطب اهتمامه بشكل خاص ؛ لذلك نجده يبحث عن الكلمة الصحيحة ولكنه يحرص في الوقت نفسه على اختيار المرادف الاكثر استعمالا . لذلك كان يرجع دائما الى الالفاظ الشعبية فيألمانيا الوسطىوالسفلى ؛ الا ان « التورنجية » و «الساكسونية» هما اللتان قدمتا له مفرداته الاساسية .

وهكذا ، استطاع (لوثر) صياغة لغة كانت تميل ، في كافة الميادين للتقرب من الالمانية الحديثة . وقد ادى انتشار مؤلفاته الهائل ، وصفاتها الادبية الجيدة ، والطابع شبه المقدس الذي اخذه في اعين اتباعه نص كتابيه الشهيرين ، « التوراة » و « العهد الجديد » ، الى جعل لغته نموذجا يحتذى ومثالا يتبّع .

كانت هذه اللغة تفهم فورا من قبل قراء المانيا العليا ، الا انها ادهشت في بادىء الامر سكان بافاريا والسويسريين الناطقين باللغة الالمانية بعض الشيء . ولكن في النهاية ، وفي جميع الحالات التي توجد فيها مرادفات ، انتصر التعبير المستخدم من قبل (لوثر) ، كما انتشرت في جميع انحاء المانيا كلمات عديدة لم تكن تستعمل الا في المانيا الوسطى دون سواها . استطاعت مفردات (لوثر) أن تفرض نفسها لدرجة لم يعد معها معظم رجال الطباعة يجرؤون على ادخال اي تعديل عليها . وقد سمح بعض رجال الطباعة ، في بال وستراسبورغ واوغسبورغ ونورمبرغ ، لانفسهم بتعديل الاملاء احيانا وليس التعابير ؛ حتى انهم عمدوا ، عندما وجدوا بعض التعابير غامضة جدا بالنسبة للسكان المحليين ، الى تزويد الكتاب بملحق تفسيري .

وهكذا توطدت دعائم سيطرة اللغة الالمانية العليا ؛ كما تمت في الوقت نفسه مضاعفة الطباعة للكتابات بهذه اللغة التي بدأت تأخذ أكثر فأكثر طابع اللغة الادبية الوطنية ؛ الا انه عما قريب ، لن يعود مثال (لوثر) كافيا ، وسيشعر الناس بالحاجة الى تعلم هذه اللغة بطريقة منهجية ، كما سيبدأ اللغويون عملهم . اعتبارا من الربع الثاني للقرن ، بدأت تظهر كتب للقواعد باللغة الالمانية لم يفكر احد بدراستها حتى ذلك الحين ؛ ظهرت هذه الكتب باللغة اللاتينية أولا ، وأشهرها : « قواعد اللغة الجرمانية مستقاة من كتابات لوثر الجرمانية ومن مجموعاته الاخرى » الذي اصدره (جوهان كلاجوس) في مدينة لايبزيغ سنة ١٥٧٨ . ومنذ ذلك الحين ، بدأت اللغة ، التي أرسى (لوثر) قواعدها ، تنتشر أولا في الاوساط البروتستانتية ، ثم بين الكاثوليكيين رغم جميع المقاومات .



ان الطباعة ، باثارتها لمضاعفة النصوص باللغة العامية ، قد شجعت في كل مكان ، كما في المانيا ، على توسع وتثبيت اللغات الادبية الوطنية .

ادت حركة الاصلاح الديني في انكلترة ، كما في بلد (لوثر) ، الى اصدار ترجمات للنصوص المقدسة والمؤلفات الدينية ، كان للغتها تأثير كبير . فقد قام (تيندال) ثم (كوفردال) بنشر ترجمات للكتاب المقدس ؛ ثم تعاقبت الترجمات الخاصة منذ ذلك الحين ، حتى انتهت بأحد روائع النثر الانكليزي ، « Authorized Version » لعام ١٦١١ . ولكن منذ عام ١٥٤٩ بشكل خاص ، ظهر مؤلف سيساهم أكثر من اي كتاب آخر في منح الانكليز شعور الاعتزاز بلغتهم ، وهو :

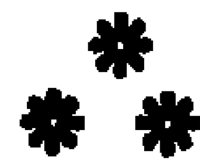
« Booke of the common Prayer and administracion of the Sacramentes »

الذي تلاه سنة ١٥٦٧ : « Whole Booke of Psalmes » ، وهو ترجمة شعرية للمزامير ، ساهم فيها كل من (ستيرن هولد) و (هوبكينز) . كتبت كافة هذه المؤلفات بواسطة مفردات سهلة ومحدودة جدا (٦٥٠٠

كلمة فقط ، بينما استخدم شكسبير في اعماله ۲۱۰۰۰ كلمة) ؛ وما لبثت التعابير المستعملة هنا ان عمت كافة انحاء انكلترة ، تماما كما فعل (لوثر) في المانيا . وهكذا ساهمت الطباعة في تثبيت اللغة بانتاج عشرات الالوف من هذه المؤلفات . ولكن انكلترة تلقت في هذه الفترة التي تميزت بنشاط تجارة الكتب ، وحتى عام ١٥٤٠ بشكل خاص ، العديد من الكتب القادمة من اسبانيا وفرنسا . لقد تمت ترجمة عدد كبير منها ، كما بدأ الانكليز يترجمون المؤلفات الكلاسيكية اللاتينية واليونانية الى لغتهم . وبفضل الكتاب في اغلب الاحيان ، ثبتت اللغة الانكليزية كما اغتنت بالتعابير الاسبانية والفرنسية واللاتينية ؛ الا أن هذه التعابير الاجنبية الدخيلة ستؤدي في نهاية القرن الى حدوث رد فعل عنيف ، مما يدل على « ازمة حقيقية في نمو اللغة الوطنية » . وبينما كانت كتب القواعد اللغوية الانكليزية تتضاعف ، بدات الاملاء تميل نحو الاستقرار والمألوف بفضل رجال الطباعة الذين كانوا يعمدون دائما الى حذف النزوات الاملائية المزعجة من المخطوطات التي يقدمها اليهم المؤلفون .

ان الجهد التوحيدي هذا يظهر بديهيا عندما نستطيع ان نقارن المخطوطات الاصلية التي وصلتنا ، بالنصوص المطبوعة . وها هو مثال عما يمكن ان تقدمه لنا مثل هذه المقارنة بالنسبة لترجمة (اريوست) من قبل (هارنغتون) :

النص المطبوع	المخطوطة
be	bee
one	on
grief	greef
these	thease
sword	swoord
nurse	noorse
scolding	skoldiny
servant	servaunt



اذا كانت الطباعة قد ساعدت على رفع اللغات الوطنية الى مصاف اللغات الادبية . كما ساعدت في الوقت نفسه على اثارة نوع من التوحيد في كافة المجالات ، فان رجال الطباعة يبدون متحفظين جدا ، اعتبارا من مستوى معين ، تجاه الجهود المبذولة من قبل المجددين الثوريين الذين يريدون تحقيق عقلنة متطرفة . ويبدو هذا التحفظ جليا بشكل خاص فيما يتعلق بالاملاء ، وهو المجال الذي كان تأثير (لوثر) فيه أقل حسما في المانيا كما راينا سابقا . صحيح أن رجال الطباعة في انكلترة ، كانوا يحذفون النزوات المزعجة للقراء ، الا انهم كانوا يسكتون على العديد من الاخطاء القواعدية . مما لا شك فيه ، أن موقف رجال الطباعة الفرنسيين تجاه المسائل الاملائية ، يستحق ان نتوقف عنده اكثر من سواه ، كما ان التحفظات هنا تبدو أكثر وضوحا منها في اي مكان آخر . فهنا ، كما في المناطق الاخرى ، اصبحت اللغة العامية في القرن السادس عشر لغة ادبية وطنية بصورة نهائية ؛ كما تضاعفت الجهود في الوقت نفسه ، لاغنائها وعقلنتها . الا أن اللغة المكتوبة كانت قد بلغت درجة معينة من التوحيد والتجانس ، بفضل العمل الطويل الدؤوب داخل الديوان الملكي وفي دور القضاء ، الذي بذله رجال القانون بصورة خاصة ؛ حتى أن جمهرة رجال الطباعة ـ باستثناء بعض المجددين ـ ظهروا محافظين اكثر من سواهم : اذ ان مصلحتهم كانت تقتضي منهم ، حتى لا تكسدمخزوناتهم من الكتب وتتعقد اعمالهم ، ان يحولوا دون حدوث انقلابات ، وان يشجعوا المحافظة على التقاليد ، وان يظهروا تحفظهم تجاه تطبيق القواعدالمتشددة فيما يتعلق بالاملاء بشكل خاص ؛ لذلك رايناهم يشجعون التبلور البطيء لمطابقة اللغة مع الاستعمالات المتلقاة .

الا انه ليس مستغربا اذا راينا ، حوالي عام ١٥٣٠ خاصة ، وفي اللحظة التي كان يعمم فيها استعمال الحرف الروماني والايطالياني (italique) في فرنسا ، بعض رجال الطباعة الانسيين الجسورين يظهرون في النسق الاول من الذين يحاولون اصلاح اللغة . يمكن أن نذكر من هؤلاء (جيوفروي توري) : ذلك الاستاذ السابق في معهد (بلاسي) ، الذي

اقام في ايطاليا زمنا طويلا ، والذي كان يقوم بنفسه بنقش اللوحات المستوحاة من النماذج الايطالية ، والذي كان يعني انلغته الام قداصبحت تضاهي اليونانية او اللاتينية في التقنين والعقلنة والصقل ؛ لذلك نجده في كتابه الشهير « Champ fleury » (١٥٢٩) المعد لطرح نظرية غريبة بعض الشيء ، وهي انه من الممكن وضع قاعدة قياسية للحروف الرومانية الكبيرة (majuscules) حسب نسب الجسم البشري ، يشيد باللغة الفرنسية (قبل Du Bellay بعشرين عاما) ، كما يدرس الحرف من كافة الجوانب ووجهات النظر : فيشير خاصة الى اللفظ باليونانية واللاتينية والفرنسية ، كما يذكر كيف يلفظ هذا الحرف ايضا في كل بلد وكل مقاطعة ؛ كما يقترح في الوقت نفسه ، العناصر الاساسية لاصلاح الاملاء، مطالبا باستعمال الاشارات اللازمة لبعض الحروف احيانا (accents , Cédille , apostrophe) . ثم ما لبث ان وضع هذه الاصلاحات موضع التطبيق في كتاب « Adolescence clémentine »ثم في

« Briesve doctrine pour deuement escripre selon la propriété du langaige françois »

اي « قاعدة موجزة للكتابة المناسبة وفق خصائص اللغة الفرنسية » ، اللذين صدرا لديه سنة ١٥٣٣ . منذ ذلك الحين ، طرحت على بساط البحث مسألة اصلاح الاملاء ، بينما قام (دوبوا) ، منذ عام ١٥٢٩ ، باصدار كتاب عن القواعد الاملائية بعنوان :

« Très utile et compendieux traicté de l'art et science d'orthographie Gallicane »

اوصى فيه بعدد من القواعد التبسيطية ، قام (ايتيان دوليه) ، وهو انسي ورجل طباعة مثل (توري) ، باصدار مؤلف آخر سنة ١٥٤٠ بعنوان له مغزاه :

« La manière de bien tracduire d'une langue en aultre, D'advantage de la punctuation de la langue françoise plus des accents d'ycelle »

أي « كيف تترجم جيدا من لغة الى اخرى ؛ ومزايا التنقيط والحركات في اللغة الفرنسية» (الذي يعتبر اقتباسا عن كتاب « Briesve doctrine ») .

عندئذ ، بدات المسألة الاملائية تشغل أذهان أولئك الذين كانوا يهتمون بجعل الفرنسية لغة ثقافية ؛ وفي عام ١٥٣٥ ، أعرب (أوليفيتان)، مترجم التوراة ، عن أمله « في ان يصدر قرار ينظم هذه المسألة ويضع لها الضوابط اللازمة » .

حاول (لويس ميغريه) اصدار هذا القرار سنة ١٥٤٢ في كتابه « بحث يتعلق باستخدام الكتابة الفرنسية » وفي كتاباته اللاحقة ، حيث طرح المسألة بمجملها وكان من انصار الاصلاحات الجذرية : كحذف الحروف غير الضرورية (مثل كتابة« un » بدلا من ung ، و autre بدلا من aultre ، و renars بدلا من renards) وكذلك استبدال حرف بآخر (مثل ombre بدلا من umbre ، و maintenant بدلا من meintenant ، و manger بدلا من manjer) ؛ الخ . . .

لا يدخل في نطاق بحثنا الحديث عن الخلافات التي اثارتها نظريات (ميغريه) ، ولكن لا بد من الاشارة هنا بأن محاولات المجددين لم تؤد عمليا الى شيء يستحق الذكر رغم الدعم الذي قدمه لها اشهر الكتّاب والمؤلفين . ولا شك في ان هذا يعود كقاعدة عامة ، الى أن كل محاولة ثورية فيما يتعلق باللغة تصطدم حتما بقوة العطالة للعادات المكتسبة . الا ان السبب الرئيسي يرجع بشكل خاص الى أن أساطين هذا التجديد وجهابذته كانوا من أرباب الطباعة ، ولان معظم هؤلاء كانوا يتمنون أن يتركوا لكي يعملوا بسلام . ولا شك في أن بعض علماء القواعد اللغوية من امثال بيليتييه دي مان أو هونورا رامبو ، الذين وجدوا من الاسهل عليهم وضع ابجدية جديدة كليا ، قد عثروا على رجال طباعة مستعدين لمساعدتهم ، الا ان هؤلاء ظلوا قلة لم يحذوا حذوهم سائر زملائهم . وها هو (شارل بوليو) الذي درس انتاج (أرنو لانجيلييه)، احد كبار الناشرين

في العاصمة، وقارن بشكل خاص بين طبعتي «Deffence et illustrution» اللتين ظهرتا لديه في عام ١٥٤٩ وفي عام ١٥٥٧ ، قد اثبت مثلا انالعادات تختلف حتى داخل المشروع الواحد : فحرف « y » اقل استعمالا في عام ١٥٥٧ عما كان عليه سنة ١٥٤٩ ؛ كذلك حرف« é » الذي كنا نجده احيانا في عام ١٥٤٩ قد بطل استعماله غالبا سنة ١٥٥٧ ، بينما نجد في هـذا التاريخ الاخير انهم قد بدؤوايستخدمون احيانا «السديلة» (la cédille) التي نجدها خاصة في طبعات (جيوفروي توري) أو (انطوان أوجيرو) .

ستظل الاملاء زمنا طويلا خاضعة لنزوات ناظـر المطبعة ومنضّد الحروف . وعبثا ظل المؤلفون يشكون من هذا الواقع ويتذمرون . الا انه تم التوصل مع ذلك الى نوع من الثبات ، ولكن ليس بموجب قواعـد موضوعة مسبقا من قبل منظّرين مجددين ، بل على ضوء الاعـراف والعادات المكتسبة . اما الرجل الذي لعب في الواقع الدور الاساسي في ثبات الاملاء الفرنسية خلال القرن السادس عشر ، فقد كان رجل طباعة انسيا ولكنه محافظ جدا في هذا الصدد : انه (**روبيز ايستيين**) ، الذي حقق ذلك بصورة غير مباشرة بواسطة معاجمه المختلفة .

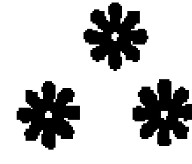
ولد (روبير) سنة ١٥٠٣ ، من اب يعمل في الطباعة هو (هنـري ايستيين الاول) ، واستطاع أن يستفيد تماما من نهضـة الدراسات والعلوم ؛ وقد كان له صديق يدعى (غليوم بوديه) الذي كان معاونا له ايضا في اغلب الاحيان . كان شغله الرئيسي الشاغل هو اصدار وتحسين النصوص المقدسة . الا ان هذا العامل الذي لا يعرف الكلل قد حقق ايضا انجازا هائلا في مجال صنع المعاجم . فقـد كلّف يوما باعـادة طباعـة « le Calepin »اي « المفكرة » وتصحيحها ، الا انه فضل البدء باصدار مؤلف جديد ظهر بين عامي ١٥٣١ ــ ١٥٣٢ بعنـوان « كنـوز اللغـة اللاتينية » . وفي عام ١٥٣٦ ، قدم عنه طبعة جديدة اكبر حجما . كمـا أصدر سنة ١٥٣٨ معجما جديدا سماه « القاموس اللاتيني ــ الغاليكي » المعد لاستعمالات الطلاب والذي أشرنا الى نجاحه الدائم آنفا . واخيرا ، في عام ١٥٣٩ ــ ١٥٤٠ ، جاء دور « القاموس الفرنسي ــ اللاتيني » الذي

اضاف عليه نصف حجمه في الطبعة الثانية التي أصدرها سنة ١٥٤٩ . كما قام من جهة ثانية باستخراج معجمين دراسيين من مجموع معاجمه ، وذلك بين عامي ١٥٤٢ ــ ١٥٤٤ .

كان لا بد لـ (روبير ايستيين) ، عند وضعه امثال تلك المعاجم ، أن يتخذ موقفا معينا فيما يتعلق بالاملاء الفرنسية . ولا شك في أنه رجع الى كتب القواعد اللغوية التي وضعها كل من (ميغريه) و (دوبوا) ، ولكنه حاول جاهدا ان يتقيد بأصول الاملاء التي تم تبنيها من قبل الديوان الملكي والبرلمان وديوان المحاسبة ؛ وقد كان من الطبيعي أن يعمد ، عند المقارنة بين الكلمات الفرنسية ومثيلاتها اللاتينية ، الى تبني الكتابة المطابقة للاتينية في الحالات المشكوك فيها . وحصيلة القول اذن ، انه لم يخلق شيئا ثوريا ، وانما أوجد أداة عمل مناسبة ستوفق بين رجال القضاء وارباب الطباعة . وهكذا لن يلبث هذا الدليل المرشد أن يفرض نفسه ويعتبر مرجعا وحجّة .

ولكن هذا لا يعني أن النزوات الاملائية قد اختفت ؛ بل لا بد من الانتظار مدة طويلة أيضا ، حتى القرن السابع عشر وظهور (فوجيلاس) و (ميناج) و (قاموس الاكاديمية الفرنسية) . الا ان الاملاء ظلت تميل نحو الوضع الطبيعي ، وقد لعب في هذا التطور رجال آخرون (من أرباب الطباعة الفلمنديين والهولنديين من امثال آل بلانتين وآل الزوفييه) دورا لا يمكن الاستهانة به . لقد راينا أن هؤلاء كانوا من كبار الناشرين للمؤلفات باللغة الفرنسية ، يصطدمون بمسألة حساسة لانهم مضطرون لتنضيد النصوص الفرنسية من قبل عمال لم يكونوا يعرفون عن هذه اللغة سوى النذر اليسير . لذلك ، وتجنبا للاخطاء المزعجة ، اضطروا في بعض الحالات الى اجراء عمليات تبسيط للكتابة . وقد كان (بلانتين) ، الذي يهتم كثيرا بمسائل اللغة ويجد في (انفرس) المجال الرحب لذلك ، أول من أدرك مدى الفائدة التي يمكن أن يجنيها من تبني كتابة فرنسية مبسطة في بلد فلمندي . وهكذا عمد ، منذ طبعاته الاولى ، الى استخدام حرف (j) وحذف حرف (X) من نهايات الكلمات بالاضافة الى عدد كبير من الحروف

الداخلية الزائدة التي استعاض عنها بالحركات كما كان يفعل (رونسار). وفي مقدمة « كنز أماديس » (سنة ١٥٦٠) ، أعلن بما يشبه البيان انه سيكتب (êt) بدلا من (est) ، و outre بدلا من oultre ، و micux بدلا من mieulx الا انه ما لبث ان عدل عن بعض هذه التجديدات حتى لا يتأثر مبيع كتبه في فرنسا نفسها ؛ ولكنه ظل يستخدم كتابة مبسطة جدا بالنسبة لعصره في معاجمه الفرنسية ـ الفلمندية ، حتى حذا حذوه زملاؤه في هولنده من امثال : (وازبرغ) ، المتخصص في اصدار القواميس، وخاصة آل (الزوفييه) الذين استخدموا حرفي (j) و (V) وساهموا في تعميم استعمالهما . وهكذا لعب رجال الطباعة الاجانب هؤلاء دورا هاما في تشكل الكتابة الفرنسية ، وذلك بفضل آلاف المؤلفات التي نشروها في بلدنا ، والتي كانت تستقبل بترحاب كبير في اوساط المثقفين الفرنسيين، نظرا لطباعتها الانيقة المتقنة .



مهما كان موقف أرباب الطباعة ازاء المسائل الاملائية ، فان الطباعة قد ساعدت ولا شك على تطور الآداب باللغات الوطنية ، وعلى تقدم هذه اللغات التي اصبحت لغات ادبية بصورة نهائية خلال القرن السادس عشر . كما بذلت الجهود في كل مكان ، من اجل وضع القواعد اللغوية . فمنذ عام ١٤٩٣ ، أصدر (انطوان دي نبريجا) كتابه « قواعد اللغة الكاستيلانية » الذي انتقده (جوان فالد) في القرن السادس عشر ، الا أنه لعب مع ذلك دورا اساسيا في تشكل اللغة الاسبانية ومهد السبيل أمام اسبانيا كلها لتبني الاشكال الكاستيليانية وصيغها . كما يعود الفضل الاكبر لهذا الكتاب بالذات ، في ان الكتّاب ورجال الطباعة في (أراغون) قد استطاعوا تخليص طبعاتهم من الخصائص الاقليمية الكثيرة آنذاك . أما في فرنسا ، فنجد إن علماء النحو الذين اتينا على ذكر بعضهم ، قد أصبحوا كثيرين جدا في القرن السادس عشر ، واكثر منهم علماء الاسلوب واللغة في عهد (Du Bellay) . واما في المانيا ، فقد راينا ان لغة (لوثر)

كانت الاساس الذي استند عليه علماء النحو الذين شرعوا في تقنين اللغة الالمانية الادبية خلال الربع الاخير من القرن السادس عشر . اما في انكلترة، فبينما كان علماء النحو من امثال توماس سميث (١٥٦٠) وجون هارت (١٥٧٠) ووليام بللوكر (١٥٨٠) يدركون عمق الهوة المتزايد بين اللفظ والكتابة التي بدات تتبلور بفعل الطباعة ، ويقترحون الاصلاحات الجذرية، اخذت كتب الصرف والنحو والمعاجم في الظهور والتكاثر . وفي ايطاليا اخيرا ، حيث قام (دانتي) ، منذ ١٣٠٤ ـ ١٣٠٦ ، بكتابة مؤلّفه المعروف عن الفصاحة والبلاغة « De volgari eloquentia »، كان ماكيافيل وبمبو وتريسينو وكثيرون غيرهم يعكفون على دراسة لغتهم جاهدين لاستنباط كتاب للنحو ، بينما كان (سبيرون سبيروني) يستشهد على تفوق اللغة الايطالية بالعديد من الحجج والبراهين التي سيتناولها (Du Bellay) في كتابه الشهير « الدفاع عن اللغة الفرنسية وتمجيدها » . الا ان هـذه الخلافات اللغوية قد عرقلت التقدم النظري : حيث سيظل الايطاليون طويلا وهم يتجادلون لمعرفة ما اذا كان من الانسب تبني « التوسكانية » كلغة ادبية أم اجراء مزيج من اللغات الاقليمية ؛ ويعود ذلك لعدم وجـود سلطة مركزية قادرة على فرْض وجهة نظرها ، أو سلطة فردية كالتي كان يتمتع بها (لوثر) على سبيل المثال .

وهكذا حكم على اللغة اللاتينية بالموت من الآن فصاعـدا ، الا أن مقاومتها ستكون طويلة الامد : لذلك ، وباعتبارها لغة دولية ، ستظل تحاول المحافظة على مواقعها زمنا طويلا ، وخاصة في مجال العلوم ، بل استطاعت استعادة مواقع جديدة أحيانا . فمنذ القرن السادس عشر ، كانت بعض المؤلفات العلمية المكتوبة باللاتينية تترجم أو تعدل وتكيف ؛ ومنهـا في فرنسا : « De asse » لـ (بوديـه) أو « l'Anatomie » لشارل ايستيين ؛ ومن المؤكد انه منذ ذلك الحين ، كـان (بيلون) ثم (باريه) و (باليسي) يكتبون بالفرنسية . الا انها كانت لا تزال حـالات استثنائية ، مما جعل كلية الطب في بارس تستنكر قيام (باريه) بالكتابة بالفرنسية . كما أن الكنيسة الكاثوليكية ، بعكس إنصار حركة الاصلاح الديني ، كانت تتصدى لتوسع اللغات العامية وتدعم مقاومة اللغـة

اللاتينية . لذلك كانت تعمد في احيان كثيرة الى تأييد الابحاث المخصصة للاكتشافات الجديدة اذا ظهرت باللاتينية ، ولكنها تدينها اذا شرع العلماء في نشر أفكارهم بلغة يفهمها عامة الناس . لذلك سيظل هؤلاء مدة طويلة يفضلون اللغة اللاتينية التي تتمتع بميزة مزدوجة : وهي كونها مفهومة لدى أندادهم من جهة ، ولانها تجعلهم بمنأى عن الملاحقات من جهة ثانية . بل ذهب الامر ابعد من ذلك ؛ فعندما انتصرت حركة « الاصلاح المضاد » في جزء من أوروبا ، عمد اليسوعيون ، بفضل معاهدهم ، الى نشر تعلم اللاتينية داخل فئات المجتمع الاكثر نشاطا وشجعوا على توسع الادب « اللاتيني الجديد » الذي حاولوا بعث الحياة فيه عن طريق العروض المسرحية على سبيل المثال . وهكذا لاقى المسرح اللاتيني رواجا كبيرا آنذاك ، حتى ان اوروبا كلها أصبحت تعرف وتناقش المؤلفات المأساوية اللاتينية لـ (غروتيوس) ، أو (فيرنولز) ، خليفة (جوست ليبس) في جامعة لوفين . كما استمر استخدام اللغة اللاتينية النبيلة في كتابة الادب النبيل الامثل وهو « **الملحمة** » ؛ لذلك فان القصائد البطوليةوالملاحم الشعرية الصادرة باللاتينية في القرن السابع عشر ، أكثر من أن تحصى . وحتى بالنسبة لاي حدث عرضي كالزواج او الولادةأو الانتصار،كانيكفيأن يرتفع صوت البطولة عاليا ، ولو في خمسة عشر بيتامنالشعر، لكي يتحدث الناس باللاتينية . وبعد الاستيلاء على مدينة (لاروشيل) ، بدأ الايطاليون والفلمنديون والالمان وحتى الفرنسيون ينظمون قصائدهم باللاتينية في مدح الملك لويس الثالث عشر . أما (ماليرب) ، الذي نظم نشيدا بالفرنسية لهذه المناسبة ، فقد اعتبر حالة استثنائية . ومن الجدير بالذكر هنا أن كتابة الاناشيد بالفرنسية ستزداد تدريجيا بعد (ماليرب) . وهكذا نرى أن اللغة اللاتينية لم تتراجع الا ببطء شديد . الا ان الطعنة النهائية الحاسمة قد وجهت اليها حوالي عام ١٦٣٠ ، عندما انحدرت معارض فرانكفورت وتجزأ سوق الكتاب . ولكنها لم تستبدل باللغات الوطنية في كثير من الميادين ، الا عند نهاية القرن بل في مطلع القرن الثامن عشر . في الحقيقة ، هناك أسباب عديدة لتفسير هذا البقاء : فقد ظلت ، بالدرجة الاولى ، اللغة الدولية المثلى ؛ لذلك كانت البلدان ذات اللغات الوطنية غير الشائعة ، تجد نفسها مضطرة للكتابة باللاتينية في أغلب

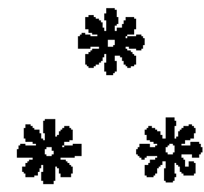
الاحيان ، كمنطقة الفلاندر خاصة ، وكذلك في المانيا حيث قامت الزمرة الهائلة من الحقوقيين المجتمعين حول (كورين) باصدار اعمالها باللاتينية، وذلك في الفترة الواقعة بين عامي ١٦٤٠ و ١٦٦٠ . وكذلك الامر في انكلترة ، حيث نجد أن اعمال (شكسبير) ومسرح آل (تيودور) ، المكتوبة باللغة الوطنية ، كانت مجهولة تقريبا في القارة الاوروبية ؛ بينما لاقى كل من كامدن وهوبس وباركلاي ، وحتى القصائد اللاذعة لجون اون ، رواجا لا يقل عن كتابات أي مؤلف أوروبي ، وذلك بفضل اللغة اللاتينية التي اعتمدوها. اما في اسبانيا وايطاليا وفرنسا، فقد كان استخدام اللاتينية اقل نسبيا ، الا انها ظلت مع ذلك هي اللغة المعهودة عند التوجه الى الجماهير الاوروبية ، أو عند الدخول في مناقشات سياسية أو دينية او ادبية او حقوقية تتعدى ابعادها النطاق الاقليمي أو الوطني . وهكذا نجد ان المخاطب هو الذي يحدد انتقاء لغة التخاطب قبل كل شيء . فاليسوعي (فيتزيربر) ، مدير « المعهد الانكليزي » في روما ، يكتب بالانكليزية عندما يضع بحثا لاهوتيا معدا لاقناع الانغليكيين ؛ اما عندما يهاجم ماكيافيل ، موجها حديثه للجماهير الاوروبية ، فانه يستخدم اللاتينية . أما (فيلساك) ، مدير جامعة باريس وأحد علماء اللاهوت ، فنجده يكتب بالفرنسية (سنة ١٦٠٦) عندما يعالج مسألة تشريعية كهنوتية تهم فرنسا . كما نراه بعد عشر سنوات ، يستعمل اللاتينية لصياغة بحثين صغيرين حول المسألة التي اثارت الكثير من الجدل والخلافات ، والمتعلقة بحدود السلطة الملكية ، حتى يستطيع كتابه الوصول الى القراء خارج الحدود . كذلك الامر بالنسبة « لكلاب الصيد » لدى (ريشيليو) ، كالاب سيرمون مثلا ، الذي نجده يرد باللاتينية على هجمات الاب انديمون جوان حول حرب ايطاليا وتحالف الملك « الكاثوليكي جدا » مع البروتستانت . كما ادت حرب الفلاندر أيضا الى ظهور العديد من المقالات الانتقادية ، وترجم الكثير من قصص هذه الحرب ، التي وضعت باللغات الوطنية ، الى اللاتينية ، وخاصة في مدن المعارض بالمانيا، لضمان حظ أكبر من فرص النشر والرواج . كذلك كان الامر بالنسبة للعديد من المؤلفات الادبية ، وخاصة القصص المأساوية والملاحم البطولية، التي كانت تترجم الى اللاتينية بعد حين .

اذا كانت اللغة اللاتينية قد استطاعت الصمود على هذا النحو ، فان الفضل في ذلك يرجع ولا شك الى دقتها ووضوحها وصفائها . فهي تمتاز ازاء اللغات الحديثة ، التي كانت في خضم مرحلة التشكل ، باحتوائها على مفردات ثابتة يسهل تحديد معناها بفضل امثلة شهيرة وعريقة . لهذا ولا شك ، ظلت حتى القرن السابع عشر لغة الدبلوماسية والعلم والفلسفة . صحيح أن استخدامها بدأ يزداد ندرة في مجال الطب ، الا انه استطاع الصمود والاستمرار في ميداني الرياضيات والفلك . وصحيح ايضا أن (ديكارت) كتب « بحث الطريقة » بالفرنسية ، الا أن الكثير من رسائله ورسائل (باسكال) كان باللاتينية . اما نص (التأملات الميتافيزيكية) الذي اثبت وجوده فهو النص اللاتيني ؛ فاليه يرجع الناس لتوضيح نقطة صعبة او ناحية غامضة . وحتى (شابلين) نفسه، الذي وضع بالفرنسية ملحمته الكبرى « العذراء » ، نجده لا يزال يرى في عام ١٦٦٥ ، ان الكتاب العلمي يصل الى جمهوره بشكل افضل عندما يصدر باللاتينية . ولا بد من انتظار (فونتنيل) حتى تصاغ بالفرنسية « مذكرات اكاديمية العلوم » ؛ كذلك لا يزال (ليبنيز) يكتب عادة باللاتينية ، ومثله ايضا الكثيرون من رجال جيله الالمان .

في الواقع ، لم تهزم اللغة اللاتينية نهائيا الا في نهاية القرن السابع عشر ، عندما استبدلت كلغة فلسفية وعلمية ودبلوماسية بالفرنسية واللغات الوطنية ، وعندما اصبحت اللغة الفرنسية معروفة من قبل كل اوروبي مثقف ، وعندما اصبحت الكتب بالفرنسية تصدر وتنتشر في كل مكان بواسطة اصحاب المكتبات اللاجئين من اصل فرنسي أو «ولوني»، وكذلك عندما يعمد كل من بايل وبازناج ولوكلير وتلامذتهم الى تأسيس صحف اعلامية علمية بالفرنسية .

وهكذا نجد ان الطباعة ، بمساهمتها لاسباب اقتصادية في توسيع المطبوعات باللغات الوطنية ، قد ساعدت في النتيجة على توسع هذه اللغات وابعاد اللغة اللاتينية . انه تطور حتمي ولا شك ، وبداية ممكنة لثقافة جماهيرية ، ولكن نتائجه وعواقبه ستكون أبعد مما كان في الحسبان

بسبب التجزئة التي ستعم العالم الثقافي في نهاية المطاف . حتى القرن السادس عشر ، وعلى الرغم من انحسار اللاتينية ، ظلت المعرفة والآداب محافظة على طابعها الدولي ، كما كانت المؤلفات الصادرة باللغات الوطنية تترجم فورا مرات عديدة اذا كانت جديرة بذلك كما رأينا . الا ان التجزئة بدات تترك آثارها شيئا فشيئا ؛ فماذا عرف فرنسيو القرن السابع عشر مثلا عن اعمال رجل كشيكسبير ؟ او ماذا عرفوا في القرن الثامن عشر عن الكتّاب الالمان ؟ منذ عام ١٦٣٠ ، بدأنا نسمع رجلا مثل (شابلين) ، يتذمر في فرنسا لانه لا يعلم ماذا كان يطبع في المانيا من اعمال بعد ان افل نجم معارض فرانكفورت . في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، دخلت الثقافة الانكليزية الى فرنسا عن طريق الصحف الهولندية ، ولم تستطع الفرنسية ، رغم الخدمات التي قدمتها في القرن الثامن عشر كلغة دولية ، أن تملأ تماما الفراغ الذي خلفه نهائيا استبعاد اللاتينية .



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الخرائط

هذا الكتاب

من التبدلات الجذرية في تاريخ الحضارة الإنسانية تحول المخطوطة إلى كتاب مطبوع [illegible] هذا «الكائن» العجيب الذي يرجع إليه الفضل في تناقل الأفكار عبر الزمان والمكان. [illegible] الحروف المتحركة من جهة ثانية إلى إنتاج الكتاب بصورة أسرع وأسهل وأكثر [illegible] تخرج دفعة واحدة بالمئات والآلاف بدلاً من نسخ الواحدة تلو الأخرى بخط اليد.

يظهر هذا الكتاب ظروف ذلك التحول ومراحله المختلفة، وكيف [illegible] وأصحاب المكتبات والمؤلفون من تشكيل عالم [illegible] في ذلك الماضي [illegible] عصرية منفتحة وتقدمية وريادية رغم المتاعب والصعوبات.

وهكذا صنع الرجال الكتب [illegible] قامت الكتب [illegible] بدورها بصنع الرجال...

بفضل هذا الكتاب الذي [illegible] من نافلة القول الإشارة إلى أهميته وإلى ما [illegible] من الاستعانة بتاريخ [illegible] بالعودة إلى التقنيات والصور في المراجع التي مزيد من [illegible] الأصول الفعلية لأسلوب حياتنا ونمط تفكيرنا: إذ استطاعت حضارة الكتاب [illegible] قرون، أن تبدل وجه العالم.

